مركز دراسات الوحدة العربية

مدخل إلى القرآن الكريم

الجزء الأول

في التعريف بالقرآن

الدكتور محمد عابد الجابري

مدخل إلى القرآن الكريم

الجزء الأول

في التعريف بالقرآن

مركز دراسات الوحدة العربية

مدخل إلى القرآن الكريم

الجزء الأول

في التعريف بالقرآن

الدكتور محمد عابد الجابري

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية
الجابري، محمد عابد
مدخل إلى القرآن الكريم/ محمد عابد الجابري.
٢ ج.
ببليوغرافية: ص ٤٣٥-٤٣٩.
يشتمل على فهرس.
محتويات: ج ١. في التعريف بالقرآن.
ISBN 9953-82-093-7 (vol. 1)
ISBN 9953-82-094-5 (Set)
١. القرآن الكريم. أ. العنوان.
297.122

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٩٠ ١١٠٣ ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى
بيروت، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٦

الإهــــــداء

ليس من عادتِي إهداء كتبي!

ومع أن الذين يستحقون منِي ذلك كانوا حاضرين في ذهنِي باستمرار، إلا أني كنت أتردد ثُمّ أحجم، لأنِي كنت أجد نفسي امام موقف لم أكن ارتاح له: إما إهداء كُلّ كتاب يصدر إلى من يستحقون ذلك مني، مرة لهذا ومرة لذاك، وإما تكرار نفس الإهداء في كُلّ كتاب لنفس الأشخاص! أما اليوم والأمر يتعلق بكتاب متميز، على الأقل من جهة أنّه يحمل اسم الكتاب الخالد القرآن الكريم، فإني لا أتردد في الاحتماء بِهذا الاسم لإهداء هذا الكتاب وجميع كتبي:

ــ إلى العظيمة حقاً وصدقاً: زوجتي التي تكفلت بشؤون البيت والأولاد لتفسح لي المجال للتفرغ للبحث والكتابة، من دون أن ترى في «الكتاب» منافساً لها ولا متطاولاً على حقوقها، بل كانت دائماً تعامله كواحد من أبنائها.

ــ إلى صديقة الأسرة: المناضلة الدكتورة فريدة العلاقي التي وجدت فيها الأخت التي حرصت باستمرار على عمل ما يجب كلما أحسست بنوع من فقدان التوازن في أحوالي الصحية نتيجة أمراض مزمنة.

ــ والفضل في هذا يرجع إلى ذلك الرجل الذي تكفل منذ أواسط الثمانينيات من القرن الماضي، حينما عانيت من تدهور صحي جدي، بكل ما يخص هذا الجانب من حياتي. إن استقرار قدرتي على البحث العلمي في المستوى الصحي المطلوب يرجع الفضل فيه لهذا الرجل الذي يحلو لي أن أسميه بيني وبين نفسي بــ «الأمير المختلف». إنه طلال بن عبد العزيز الذي لا يحتاج إلى تعريف.

ـ ولا بُدَّ من تسجيل الشكر والامتنان لمركز دراسات الوحدة العربية ببيروت في شخص مديره العام الصديق الدكتور خير الدين حسيب الذي يتولى نشر وتوزيع كتبي، متحلياً بكامل الجدية والعناية، والصدق والأمانة.

وقبل ذلك وبعده أهدي هذا الكتاب لقرائي الأعزاء الذين أفتخر بتزايد عددهم باستمرار، وعلى مستوى جميع القارات، معتذراً لهم جميعاً عن تقصيري في الردّ على رسائلهم على البريد العادي والبريد الإلكتروني، فضلاً عن مُكالَماتِهم الهاتفية. وبِحق، إنني أعيش يومياً ليس مع ما أكتب فحسب، بل أيضاً مع من يقرؤون ما أكتب. ذلك هو الجزاء الجميل.

الدار البيضاء، تموز/ يوليو ٢٠٠٦

المحتويـــــات

القسم الثاني
القرآن: مسار الكون والتكوين

القسم الثالث
القصص في القرآن الكريم

تقديـــــم

نستهل هذا «القول» بِما يشبه أن يكون تقديماً أولياً يلقي بعض الأضواء على ما نعتقد أنّه الخلفية التي تؤطر هذا الكتاب. أما تحديد المجال الذي سيتحرك فيه، بعد الفراغ من كتابة الأجزاء الأربعة من «نقد العقل العربي»، فأمر سهل وصعب في آن واحد. هو سهل لأنه بالإمكان القول إنني أتحرك هنا، كما في «نقد العقل العربي»، داخل رحاب التراث العربي الإسلامي. وهو صعب لأنني لا أستطيع ـ الآن على الأقل ـ أن أتبين بوضوح هل الخوض في هذا الموضوع هو بمثابة تأسيس لما سبق، أم إنّه هو له أشبه بـ «ذيل وتكملة»، أم إن الأمر يتعلق بِموضوع مختلف تَماماً. الأمر المؤكد عندي هو أنني أطرق باباً آخر، وأنني الآن ـ بعد الخلاص من أجزاء «نقد العقل العربي» الأربعة ـ أجد نفسي أقدر على التعامل مع مفاتيح هذا الباب مني لو فعلت ذلك قبل. ومع ذلك فإن هذا لا يعني أنني أنظر إلى هذا الكتاب كتتويج لسلسلة، لسبب بسيط هو أنّه لم يخطر ببالي يوماً أني أتحرك عبر حلقات سلسلة ما!

وكما سبق لي أن ذكرت في عدة مناسبات، فقد بدأت الكتابة في التراث بِمقالات تنتمي إلى عالم الفلسفة، تسلسلت عبر الزمن وليس انطلاقاً من تصور سابق؛ ثُمّ خطر لي أن أجمعها في كتاب **نحن والتراث**[1] وعندما أخذت في كتابة مقدمة له فاجأتني فكرة تأليف كتاب في **نقد العقل العربي**. وبعد الفراغ منه وجدت من الضروري جعله في جزأين، الأول في «التكوين» والثاني في «البنية»، ولم أكد أمسك القلم عند الانتهاء من كتابة خاتِمة هذا الأخير حتّى وجدتني أمام موضوع جديد يستحثني بل يستفزني، موضوع «العقل السياسي العربي». وبينما أنا منهمك في مراجعته ـ المراجعة الأخيرة ـ «وقفت» الأخلاق أمام ناظري منادية: أليست

(١) محمد عابد الجابري، **نحن والتراث** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠). وقد صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية في العام ٢٠٠٦ طبعة مزيدة ومنقحة.

«الأخلاق» جزءاً من السياسة في الفلسفة؟ ألم يكن «تدبير النفس» مرتبطاً بـ «تدبير المدينة»؟

انتهيت من **العقل الأخلاقي العربي** في مستهل عام ٢٠٠١ وأنا في شبه نشوة مثل تلك التي تنتاب المتجول في غابة عند بلوغه مخرجاً من مخارجها! غير أني ما إن أخذت أفرك عينيّ على ضوء الفضاء/ الفراغ المحيط بالغابة إذا ببعض الأصدقاء يمطرونني بأسئلة من نوع: وماذا بعد؟ بعضهم أجاب بنفسه فاقترح كتاباً في «الجمال في الفكر العربي» باعتبار اتصال هذا الموضوع بالأخلاق، فكلاهما بحث في القيم. وبعضهم اقترح كتاباً في «الفكر العلمي عند العرب» بعد أن تناولت الفكر النحوي والفقهي والبلاغي والسياسي والأخلاقي في الأجزاء السابقة. وفي نفس الفترة التي اقتُرحَت عليّ خلالها هذه الموضوعات ـ أو قبلها بقليل ـ اقترح صديق من السعودية، ونحن على سيارته متوجين إلى «عزيمة» عشاء في منزل صديق مشترك بالرياض، اقترح قائلاً: «لماذا لا يكون الكتاب المقبل في القرآن»؟

والحق، إن هذه الموضوعات الثلاثة كانت تخطر في ذهني من حين لآخر حتّى قبل الفراغ من أجزاء **نقد العقل العربي**؛ ولكني كنت أصرفها عن مجال المفكر فيه لدي، لأن موضوعاً آخر كان يشغل هذا المجال، ويتعلق بكتابة شيء ما في «العقل الأوروبي»!

ذلك ما كنت أميل إليه حتّى صيف عام ٢٠٠١. غير أن ما حدث في أيلول/ سبتمبر من نفس السنة، وما تلا ذلك من أحداث جسام وردود فعل غاب فيها العقل، غيابه في الفعل الذي استثارها والذي كان هو نفسه نوعاً من ردّ الفعل، وما رافق ذلك كُلّه من هزات خطيرة في الفكر العربي والإسلامي والأوروبي، كُلّ ذلك جعلني أنصرف إلى التفكير في «مدخل إلى القرآن»، مدفوعاً في ذلك برغبة عميقة في التعريف به، للقراء العرب والمسلمين وأيضاً للقراء الأجانب، تعريفاً ينأى به عن التوظيف الإيديولوجي والاستغلال الدعوي الظرفي من جهة، ويفتح أعين الكثيرين، ممن قد يصدق فيهم القول المأثور «الإنسان عدوّ ما يجهل»، على الفضاء القرآني كنص محوري مؤسس لعالم جديد كان ملتقى لحضارات وثقافات شديدة التنوع، بصورة لم يعرفها التاريخ من قبل، عالم ما زال قائماً إلى اليوم، هو «العالم العربي الإسلامي»: هذا العالم الذي يجر معه ليس الماضي وحسب، بل «المستقبل الماضي» كذلك، في وقت أضحى فيه سوقاً لترويج كثير من الشعارات غير البريئة، تَصاعد من هنا وهناك، شعارات من قبيل «صراع الحضارات» و«حوار الحضارات»، و«حوار الثقافات»، و«حوار الديانات»، وأخيراً وليس أخيراً «الإصلاح»، ليس الإصلاح السياسي وحسب، بل «الإصلاح الدينيّ» والثقافي وهلم جراً!

من هنا يمكنني القول إن التفكير في تأليف هذا الكتاب قد جاء، بصورة ما، نوعاً من الاستجابة لظروف ما بعد أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، تماماً مثلما يمكن النظر إلى كتابي **نحن والتراث**، وبالتالي **نقد العقل العربي** بأجزائه الأربعة، كنوع من الاستجابة لظروف «النكسة» التي عاشها العالم العربي بعد ١٩٦٧ بما في ذلك حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ وما شاع في ذلك الوقت من استبشار بـ «الصحوة الإسلامية» التي رافقتها، أو تجاوزتها أو حلت محلها، الثورة الخمينية في إيران.

وغنيّ عن البيان القول إنني حينما أقوم هنا بربط ما صار يدعى بـ «نقد العقل العربي» بالتحولات التي أعقبت نكسة ١٩٦٧، المشروع الذي اعتمدت فيه النقد الإبيستيمولوجي ضداً على النقد الإيديولوجي وانحزت فيه صراحة إلى العقلانية والديمقراطية، وأيضاً حينما أربط هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الآن ـ وما سيليه إن شاء الله ـ بالتحولات التي انطلقت مع أحداث أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ وما تلاهاً، فإنّما أقوم في الحالتين معاً، بقراءة بعدية لِما أنجزت. أقول «قراءة بعدية» لأني لم أكن منشغلاً بصورة مباشرة بتلك الأحداث والتطورات فلم يحدث أن أقحمت انطباعاتي عنها وردود أفعالي إزاءها في المؤلفات التي أتحدث عنها هنا، وإنّما فعلت ذلك في مقالات وكتُب كتبتها خارجها. وبعبارة أخرى كنت في هذه المؤلفات التي تنتمي إلى **نحن والتراث**، والتي منها هذا الكتاب، كمن يطل من النافذة على شارع معين، وبطبيعة الحال لم يكن من المُمكن أن أرى نفسي أمشي في ذلك الشارع وأنا أطل عليه. ومع ذلك فلا بُدَّ من الاعتراف بأنني، عندما كنت أكتب مقالات وكتباً خارج أفق «نحن والتراث»، متحركاً وسط زحام ذلك الشارع، كنت أشعر بالنافذة تطل علي باستمرار.

ذلك في الحقيقة مظهر من مظاهر «جدلية السياسي والثقافي» في مسيرتي الفكرية، منذُ أن بدأت أحس أنني فعلاً أشق طريقي فيها: جدلية قراءة التاريخ بالسياسة، ومُمارسة السياسة ـ عملياً أو ذهنياً ـ باستحضار التاريخ. وإذا جاز لي أن اعتز بشيء في هذه المسيرة فهو حرصي الدائم على إحراج السياسة بالتاريخ وليس العكس.

***

وبعد، فهذا مدخل إلى القرآن يتألف من جزأين: الأول «في التعريف بالقرآن»، والثاني في «موضوعات في القرآن». أما الثاني فستتحدث عنه حين تقديمه للقراء، وأما هذا الجزء الأول فيتألف من ثلاثة أقسام: قسم خصصناه لاستكناه وحدة الأصل في الديانات السماوية الثلاث، وقسم تتبعنا فيه «مسار الكون

والتكوين» للقرآن الكريم. أما القسم الثالث فقد حللنا فيه القصص القرآني.

ومع أن هذا القسم الأخير قد يبدو وكأنه مجرد ملحق، إلا أنّه في الحقيقة بمثابة المرآة التي تعكس بجلاء موضوعات القسمين السابقين. إن اعتمادنا ترتيب النزول ـ وليس ترتيب المصحف ـ في تتبع قصص القرآن قد مكننا من إبراز وظيفة هذا القصص كوسيلة وسلاح للدعوة المحمدية في مواجهة خصومها، الأمر الذي ساعدنا على إبراز التساوق بين السيرة النبوة وتطور مسار الكون والتكوين الخاص بالقرآن. وهذا ما كان ليتأتى لنا لو أننا سلكنا مسلك من كتبوا في هذا الموضوع من الكتاب والمؤلفين، القدماء منهم والمحدثين، الذين تعاملوا مع القص القرآني كأحداث «تاريخية» اتخذوا مرجعية لها ما عرف بـ «الإسرائيليات»، بدل التعامل معه كـ «أحداث قرآنية» لها أسباب نزول خاصة بها، وبالتالي أهداف ومقاصد خاصة.

***

في هذا الجزء الأول من الكتاب سياسة وتاريخ! وهل يمكن فصل الدعوة المحمدية عن السياسة والتاريخ؟ وهل يمكن الفصل في القرآن بين الدين والدنيا؟ ثُمّ هل يمكن إصلاح حاضرنا من دون إصلاح فهمنا لِماضينا؟

أسئلة تستعيد المنهج/ الرؤية الذي تبنيته منذُ «**نحن والتراث**» والذي يتلخص في جملة واحدة: جعل المقروء معاصراً لنفسه ومعاصراً لنا في الوقت ذاته.

ثقتي في حسن ظن القراء كبيرة. والله نسأل التوفيق.

محمد عابد الجابري

الدار البيضاء، تموز/ يوليو ٢٠٠٦

مقدمة
في التعريف بالقرآن
الظاهرة القرآنية وأسئلة الكون والتكوين

أولاً: التعريف بالقرآن! . . بأي معنى؟

هل يحتاج القرآن إلى تعريف؟ سؤال مشروع تماماً عندما يتعلق الأمر بـ «كما هو معروف عند الناس»، أي مألوفاً ومشهوراً، كما هو الشأن، مثلاً، بالنسبة إلى الألفاظ المتداولة في حديث الناس يومياً كـ «الإنسان» و« الأرض» و«الشجر» إلى غير ذلك مما يقال عنه: «أشهر من نار على علم»، أو «هل يحتاج النهار إلى دليل؟». أما عندما يراد من التعريف إعطاء فكرة عن المراد تعريفه ببيان صفاته ومميزاته أو تحديد ماهيته. فالأمر يختلف!

١ ـ نماذج من التعريفات

أ ـ وهكذا، فإذا أردنا أن نقدم تعريفاً بالقرآن بمجرد الإشارة إليه، كما نشير إلى الأشياء المألوفة المشهورة، قلنا مع القائل إنه هذا النصّ «الذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه في مصاحفهم». هذا النوع من التعريف يشير إلى ما هو حاضر في المجال البصري أو الذهني للمخاطب، وهو تعريف موضوعي حيادي لا يضيف من عنده أي عنصر على المشار إليه كما هو معطى للمشاهد.

ب ـ أما إذا أردنا تعريفاً للقرآن يرسم صورته كما هي في ذهن المسلم، وفي الغالب كما ورثها من محيطه الثقافي، قلنا مع القائل: «القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى، نزل به جبريل عليه السلام على نبينا محمد ﷺ، وهو المكتوب في المصحف، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس». الفارق بين هذا

التعريف والذي سبقه هو وصف القرآن بأنه «كلام الله. نزل به جبريل». وهذا لا يُسلم به ابتداءً إلا المسلم المؤمن بأن القرآن «كلام الله، نزل به جبريل». فإذا نظرنا إلى هذا التعريف داخل دائرة الإسلام والمسلمين أمكن القول عنه إنه تعريف إسلامي، حيادي، يقتصر على وصف المشار إليه كما هو في المجال التداولي الإسلامي، أي من دون صدور عن موقف مذهبي أو إيديولوجي، سواء من داخل هذا المجال أو من خارجه.

ج ـ والتعريف التالي أقرب إلى هذا الأخير ولكن مع فارق أيضاً. يقول هذا التعريف: القرآن «هو كلامُ اللهِ تعالى وَوَحْيُهُ المُنَزَّلُ على خَاتَم أَنْبِيَائِهِ محمدٍ ﷺ المَكتُوبُ في المُصْحَفِ، المنقُولُ إلينا بالتَّوَاتُرِ، المُتَعَبَّدُ بتِلاوَتِهِ، المُتَحَدَّى بإِعجَازِهِ». والفرق بين هذا التعريف والتعريف الأخير ثلاثة أمور:

(١) وصف النبي بأنه «خَاتَم أَنْبِيَائِهِ»،

(٢) وصف القرآن بأنه «المنقول إلينا بالتواتر»،

(٣) وصفهُ بأنه «المتحدى بإعجازه». فإذا كان الوصف الأول منصوصاً عليه في القرآن ومقبولاً من طرف جميع المسلمين، فإن هناك مذهباً إسلامياً يميز في «النبوة»، ـ نبوة محمد ﷺ ـ بين ما هو مختوم فعلاً وبين ما هو مستمر بصورة من الصور. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هناك داخل دائرة الإسلام من يجعل «التواتر» والإعجاز» موضوع نظر!

د ـ وأشبه بالتعريف الأخير، ولكن مع فارق أيضاً، التعريف الذي ينصّ على أن القرآن: «هو كلام الله سبحانه وتعالى غير مخلوق، المنزل على النبي محمد ﷺ باللغة العربية، المعجزةُ المؤيدة له، المتحدى به العرب، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر». ويتجلى الفرق بين هذا التعريف والتعريف الذي قبله في مسألتين: أولاهما قوله: «غير مخلوق» من جهة، وثانيتهما قوله: «المنزل على النبي (ﷺ) باللغة العربية، المعجزةُ المؤيدة له، المتحدى به العرب». أما المسألة الأولى فتحيل إلى مذهب معين من المذاهب الكلامية في الإسلام. وأما الثانية فهي تحصر تحدي معجزة النبي ﷺ في «العرب»، والمفهوم أولئك المكذبون من قريش خصوم الدعوة المحمدية الذين تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة مثله فلم يفعلوا. وهذه مسألة موضوع كلام أيضاً.

هـ ـ ومن أكثر التعريفات مذهبيةً وأبعدها عن الاعتراف بحقّ الاختلاف في الفهم قول القائل: «القرآن الكريم كلام الله منه بدا، بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنّه كلام الله ـ تعالى ـ

بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنّه كلام البشر فقد كفر»!
لعل القارئ قد انتبه إلى ما أضافه هذا التعريف من جديد. يتعلق الأمر أولاً بقوله «بلا كيفية قولاً». والمقصود أن كون القرآن «كلام الله» لا يترتب عليه أن يكون هذا الكلام ذا كيفية ككلام الواحد من البشر، وبالتالي فلا يجوز التساؤل عن حقيقة هذا الكلام: هل هو كلام بالألفاظ أم كلام نفسي؟ وهل هو صفة «زائدة على الذات» كما هو الحال في كلام البشر أم أنّه هو «عين الذات» إلخ! وأما العنصر الثاني الذي أضافه هذا التعريف فهو تكفير من قال بخلق القرآن، أي بكونه غير قديم، قدم ذات الله. وهذه مسألة أثارت فتنة كبيرة في العصر العباسي زمن المأمون والمعتصم والواثق، عرفت بـ «محنة خلق القرآن».

٢ ـ تعريف القرآن في القرآن

اعتقد أنّه لا ضرورة في الاسترسال، بعد الذي ذكرنا، في الإتيان بمزيد من التعريفات كي يقتنع القارئ بأن الكتابة في موضوع «التعريف بالقرآن» أمر مبرر. إن عملنا هنا لا تمليه الحاجة إلى جلاء خلفيات هذه التعريفات ومثيلاتها. إننا لا نهدف إلى مساءلة هذه التعريفات عن خلفياتها المعرفية والمذهبية والإيديولوجية، لا نريد الدخول معها في جدال يعطيها فرصة الدفاع الإيديولوجي عن نفسها. بل نريد أن نسلك إزاءها مسلكاً مغايراً تماماً، نريد استعادة الأسئلة القديمة التي كانت وراء كونها وطرح أخرى جديدة تتجاوزها. أعني بذلك طرح مسار الكون والتكوين للظاهرة القرآنية نفسها.

ومن أجل هذا سنضع جميع التعريفات السابقة ومثيلاتها بين قوسين (لا ننفيها ولا نعارضها ولا ننشغل بها أيَّ انشغال)، واضعين مكانها تعريف القرآن نفسه بنفسه من خلال قوله تعالى: **﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ. وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾**[1]. وقوله: **﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾**[2]، وقوله: **﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ. مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ﴾**[3]. إنه من خلال هذه الآيات الثلاث التي تقدم لنا تعريفاً للقرآن في القرآن سنحاول طرح أسئلة الكون والتكوين الخاصة بما نسمّيه هنا بـ «الظاهرة القرآنية».

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الشعراء،» الآيات ١٩٢ ـ ١٩٦.
(٢) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ١٠٦.
(٣) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآيتان ٣ ـ ٤.

ثانياً: مسار الكون والتكوين

نقرأ في تاريخ الأدب العربي أن بعض شعراء مرحلة ما قبل الإسلام ـ وأصحاب المعلقات منهم خاصة ـ كانوا يقضون عاماً بأكمله في نظم قصائدهم ومراجعتها وتنقيحها إلخ، قبل أن يظهروها للناس. ولا أحد يعرف ـ في ما اعتقد ـ المسار الذي تمّ فيه كون وتكوين أية قصيدة من تلك الحوليات. وقد يصدق هذا على النصوص الأدبية الأخرى، بل لربّما يصدق أيضاً على أمهات الكتب أيضاً.

أما بالنسبة إلى القرآن الكريم، فالأمر يختلف. فالمعروف المؤكد أنّه نزل منجماً، أي خرج إلى مجال الوجود البشري بصورة متدرجة. ومن هنا طريقة أخرى في التعريف به. تبدأ هذه الطريقة ليس انطلاقاً من وضعه الحالي كنص بين دفتي المصحف، بل من محاولة فهم المراحل التي قطعها منذُ بداية نزوله حتّى أصبح كما هو الآن في المصحف. إن هذا النوع من التعامل يهتم بالتعرف على كيان النصّ، وذلك من خلال رصد عملية نموه الداخلي من جهة، ومن خلال تتبع الكيفية أو الكيفيات التي تمّ التعامل بها معه خلال مسيرته نحو اكتمال وجوده بين الناس كنص نهائي مصون عن الزيادة والنقصان.

ومع أن المفسرين في جميع العصور قد تعرضوا لهذا الجانب من الفحص للنص القرآني، فطرحوا أسئلة وصاغوا أجوبة ظلت موضوع تداول بينهم، فإن الذين اختصوا في هذا النوع من التعامل التكويني مع النصّ القرآني هم علماء باحثون ظهروا في مرحلة متأخرة نسبياً أطلقوا على نتائج أبحاثهم أسماء واصطلاحات يضمها اسم جامع هو: **علوم القرآن**. يقصدون بذلك أنواع المعارف التي تدور حول مختلف جوانب النصّ القرآني. وقد كتبت في هذا الموضوع أبحاث متعددة منذُ بداية عصر التدوين، وظهرت ابتداءً من القرن الرابع الهجري مؤلفات جامعة ومتنوعة احتفظت كلها تقريباً بعبارة «علوم القرآن» في عناوينها.

ولا شكّ أن الذي ينظر إلى الموضوع نظرة من يحمل منظار الثقافة العربية، كما ورثها جيلنا والأجيال السابقة، سيحكم بأن الكلام في النصّ القرآني، من هذه الجهة، قد استوفاه الأقدمون في تلك المؤلفات الجامعة. والحق أنهم طرحوا ـ تقريباً ـ «جميع» الأسئلة المتعلقة بالموضوع وناقشوها وقدموا إجابات عنها حتّى ليخيل إلى المرء اليوم أنه لم يعدْ هناك مجال للمزيد! أما **المستشرقون**، الذين يعتمدون في الغالب منهج المقارنة، فهم يطرحون أسئلة تجد مرجعيتها الصريحة أو المضمرة في ثقافتهم الخاصة بهم، وهي أسئلة قد تثير قضايا جديدة لم تكن من

مجال «المفكَّر فيه» في الثقافة العربية الإسلامية. ومع أن طرح مثل هذه الأسئلة المتولدة في ثقافة بعينها على ساحة ثقافة أخرى لم يكن فيها ما يدفع إلى طرحها، قد يغني التفكير داخل هذه الأخيرة، فإنه ينطوي على نوع من ممارسة السلطة عليها، سلطة السائل على المسؤول، مهما كان وضع أحدهما بالنسبة إلى الآخر. فالسائل «فاعل»، قد لا تخلو أسئلته من إزعاج وإحراج حتّى عندما يكون وراءها براءة وحسن نية، كما هو الشأن في أسئلة الأطفال.

إن المستشرق الذي يرى، مثلاً، أنّه من «الطبيعي» أن تطرح، بالنسبة إلى القرآن، نفس الأسئلة الخاصة بمسألة الصحة والصدقية التي سبق أن طرحت في القرون الأخيرة في أوروبا على نصوص التوراة والإنجيل، قد يكون محقاً من زاوية خلفياته ومنطلقاته، التي تجد تبريرها في تطور الفكر الأوروبي، ولكن أسئلته تلك لن تحظى في الثقافة العربية الإسلامية بمثل القبول والاعتبار اللذين حظيت بهما في الثقافة الأوروبية، ولن يكون لها نفس الوقع ولا نفس النتائج. ذلك لأن التوراة لم يكتبها شخص واحد بل ساهم في تأليفها كتاب كثيرون ـ كما يقول الباحثون الأوروبيون من رجال الدين وغيرهم ـ أولهم موسى ﷺ الذي أوحى الله إليه «بأن يكتب أول سفر للكتاب المقدس يدعى «التكوين»، ثُمّ واصل كتابته «بالوحي» أربعون كاتباً من جميع طبقات البشر، واستغرقت كتابته ألفاً وستمائة سنة». أما «الإنجيل» فهو ليس كتاباً واحداً بل أربعة كتب، على الأقل، تروي ما حصَّله أصحابها من كلام السيد المسيح وسيرته. . . إلخ.

أما القرآن فوضعه مختلف تماماً. فمن جهة لم يكتبه الشخص الذي أوحي إليه به، محمد ﷺ، بل كان يتلقاه «قراءة» ويبلّغه قراءة. ومع أنّه قد اتخذ كُتَّابا يكتبون ما يقرأ عليهم منه فإن المرجع في مسألة حفظه من الضياع كان في الدرجة الأولى هم قراؤه، أي الذين يحفظونه عن ظهر قلب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فمع أنّه نزل منجّماً، أي مقسّماً على مدى يتراوح بين عشرين وثلاث وعشرين سنة، فإن هذه المدة هي جزء فقط من عمر جيل واحد، وبالتالي فقد بقي على قيد الحياة معظم الذين باشروا كتابته منذُ البداية وكثير من الذين حفظوه في صدورهم منذُ ابتداء نزوله إلى نهايته قبيل وفاة الرسول. وعندما جمع القرآن في المصحف الذي بين أيدينا اليوم، زمن الخليفة عثمان، تَم ذلك بحضور كثير من الصحابة، كان في مقدمتهم عدد من كتاب الوحي وقرائه.

فرق شاسع إذاً بين وضع «الكتاب المقدس»، (التوراة والإنجيل) وتاريخ تكوينه، وبين وضع القرآن ومساره التكويني. ومع ذلك، فإن هذا الفرق، سواء أُخذ بعين الاعتبار أو لم يؤخذ، لا يعفي من طرح ما يمكن من الأسئلة، أسئلة

الكون والتكوين[٤]. وذلك فعلاً ما اهتم به المفسرون من مختلف الاتجاهات وعلى مرّ العصور وانشغل به، بصورة خاصة، أولئك العلماء النقاد الذين ألفوا في «علوم القرآن». وقد يكفي الاطلاع على فهرس كتاب واحد لهؤلاء المؤلفين لإدراك كيف حاولوا استقصاء ما يمكن طرحه بصدد القرآن مما عبرنا عنه بـ «أسئلة الكون والتكوين»[٥].

ومع هذا الاهتمام الزائد بموضوع «أسئلة الكون والتكوين» الخاصة بالقرآن، بل بفضل هذا الاهتمام، نجد أنفسنا اليوم مطالبين بتجديد طرح كثير من الأسئلة التي طرحت سابقاً وفسح المجال لأسئلة أخرى قد تطرحها اهتمامات عصرنا

---

(٤) وهي غير أسئلة الأصل، لأن الأصل هنا وحي، والوحي ينتمي إلى منطقة التسليم والإيمان وليس إلى ميدان البحث والبرهان.

(٥) لعل أشهر الكتب في هذا الميدان في العصور المتأخرة كتاب **الإتقان في علوم القرآن** لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ، وقد حاول أن يجمع فيه مختلف المسائل التي عرضت لها الكتب السابقة معتمداً بصورة خاصة على كتاب بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ وهو بعنوان **البرهان في علوم القرآن**. راجع: أبو عبد الله محمد بن بهادر الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ٤ ج (بيروت: دار المعرفة، [١٩؟؟]). وفي ما يلي فهرست كتاب السيوطي: ١) معرفة المكي والمدني (من القرآن). ٢) معرفة الحضري والسفري. ٣) النهاري والليلي. ٤) الصيفي والشتائي. ٥) الفراشي والنومي. ٦) الأرضي والسماوي. ٧) أول ما نزل. ٨) آخر ما نزل. ٩) أسباب النزول. ١٠) ما نزل على لسان بعض الصحابة. ١١) ما تكرر نزوله. ١٢) ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه. ١٣) معرفة ما نزل مفرقاً وما نزل جمعاً. ١٤) ما نزل مشيعاً وما نزل مفرداً. ١٥) ما أنزل منه على بعض الأنبياء وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي ﷺ. ١٦) في كيفية إنزاله. ١٧) في معرفة أسمائه وأسماء سوره. ١٨) في جمعه وترتيبه. ١٩) في عدد سوره وآياته وكلماته وحروفه. ٢٠) في حفاظه ورواته. ٢١) في العالي والنازل. ٢٢) معرفة المتواتر. ٢٣) في المشهور. ٢٤) في الآحاد. ٢٥) في الشاذ. ٢٦) الموضوع. ٢٧) المدرج. ٢٨) في معرفة الوقف والابتداء. ٢٩) في بيان الموصول لفظاً المفصول معنى. ٣٠) في الإمالة والفتح وما بينهما. ٣١) في الإدغام والإظهار والإخفاء والإقلاب. ٣٢) في المدّ والقصر. ٣٣) في تخفيف الهمزة. ٣٤) في كيفية تحمله. ٣٥) في آداب تلاوته. ٣٦) في معرفة غريبه. ٣٧) في ما وقع فيه بغير لغة الحجاز. ٣٨) في ما وقع فيه بغير لغة العرب. ٣٩) في معرفة الوجوه والنظائر. ٤٠) في معرفة معاني الأدوات التي يحتاج إليها المفسر. ٤١) في معرفة إعرابه. ٤٢) في قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها. ٤٣) في المحكم والمتشابه. ٤٤) في مقدمه ومؤخره. ٤٥) في خاصه وعامه. ٤٦) في مجمله ومبينه. ٤٧) في ناسخه ومنسوخه. ٤٨) في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض. ٤٩) في مطلقه ومقيده. ٥٠) في منطوقه ومفهومه. ٥١) في وجوه مخاطباته. ٥٢) في حقيقته ومجازه. ٥٣) في تشبيهه واستعاراته. ٥٤) في كناياته وتعريضه. ٥٥) في الحصر والاختصاص. ٥٦) في الإيجاز والإطناب. ٥٧) في الخبر والإنشاء. ٥٨) في بدائع القرآن. ٥٩) في فواصل الآي. ٦٠) في فواتح السور. ٦١) في خواتم السور. ٦٢) في مناسبة الآيات والسور. ٦٣) في الآيات المتشابهات. ٦٤) في إعجاز القرآن. ٦٥) في العلوم المستنبطة من القرآن. ٦٦) في أمثاله. ٦٧) في أقسامه. ٦٨) في جدله. ٦٩) في الأسماء والكنى والألقاب. ٧٠) في مبهماته. ٧١) في أسماء من نزل فيهم القرآن. ٧٢) في فضائل القرآن. ٧٣) في أفضل القرآن وفاضله. ٧٤) في مفردات القرآن. ٧٥) في خواصه. ٧٦) في رسوم الخطّ وآداب كتابته. ٧٧) في معرفة تأويله وتفسيره وبيان شرفه والحاجة إليه. ٧٨) في شروط المفسر وآدابه. ٧٩) في غرائب التفسير. ٨٠) في طبقات المفسرين.

الفكرية والمنهجية. ذلك لأنه بغير تجديد التفكير في الأسئلة القديمة وطرح أخرى جديدة لن يتأتى لنا الارتفاع بمستوى فهمنا لـ «الظاهرة القرآنية» إلى الدرجة التي تجعلنا معاصرين لها وتجعلها معاصرة لنا.

ونحن نقصد بـ «الظاهرة القرآنية»، ليس فقط «القرآن» كما يتحدث عن نفسه، في الآيات التي ذكرنا قبل، بل ندرج فيها أيضاً، مختلف الموضوعات التي تطرق إليها المسلمون، وأنواع الفهم والتصورات «العالمة» التي شيدوها لأنفسهم قصد الاقتراب من مضامينه ومقاصده.

إننا لا ندّعي أننا سنطرح هنا من جديد جميع الأسئلة التي طرحت من قبل ولا جميع الأسئلة الجديدة التي يمكن أن تطرح. إن ادعاء الاستقصاء في هذا المجال، كما في المجالات الأخرى، غرور لا يركبه إلا جاهل أو ناقص معرفة. ونحن الذين استفدنا من مسيرتنا الثقافية الطويلة أمراً واحداً فقط، هو أننا كلما قطعنا خطوة إلى الأمام في هذه المسيرة اكتشفنا مدى عمق مجال جهلنا واتساعه! إننا لا نَعِدُ القارئ بأكثر من إطلاعه على أجوبة غير قطعية ولا نهائية، عن أسئلة تولدت لدينا من خلال اطلاعنا على الأسئلة التي طرحها كثير من القدماء، حول ما نسميه هنا بـ «الظاهرة القرآنية»، وأيضاً إشراكه في ما استفدناه من الأجوبة التي قدموها بكثير من التواضع، وبكثير من الاعتراف بالرأي المخالف، وبإمكانية وقوعهم في الخطإ.

كُلّ ما نَعِدُ القارئ به هو أننا سنحاول الخروج من شرنقة السؤال القديم لنعيد طرحه داخل شرنقتنا، علماً بأن شرنقتنا نفسها ليست سوى واحدة من حلقات تاريخنا الثقافي ولحظة من لحظات تطور وعينا.

ثالثاً: أبعاد الظاهرة القرآنية

إذا نحن عدنا إلى الآيات القرآنية الخمس التي أوردنا قبل والتي يعرِّف القرآن فيها نفسه بقوله تعالى: **﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ. وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾**، واعتبرنا هذا التعريف بمثابة تحديد لما ندعوه هنا بـ «الظاهرة القرآنية»، أمكننا التمييز في هذه الظاهرة بين بدايتين: بداية زمانية تاريخية تشير إليها الآية الرابعة وهي قوله تعالى **﴿بلسان عربي مبين﴾**، وبداية أزلية لازمانية، تشير إليها الآية الأخيرة، أعني قوله تعالى: **﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾**، والزبر هي «الكتب»، والمقصود الكتب السماوية السابقة. ونحن لا نستطيع أن نحدد بداية لهذه الكتب لأننا لا نعلم بالتحديد عدد الرسل، فالقرآن، مرجعنا في هذا المجال، يخاطب النبي محمداً ﷺ: **﴿وَلَقَدْ**

أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾(٦).

وبين الآيتين اللتين تحددان ـ في الآيات الخمس المذكورة ـ علاقة الظاهرة القرآنية بالزمن (البداية الزمنية والبداية اللازمانية) ثلاث آيات حددت «ماهية» هذه الظاهرة: فالأمر يتعلق بـ «تَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ» أي بنصّ إلهي، **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾** ـ أي الملاك جبريل ـ من عند الله، «عَلَى قَلْبِكَ»، يا محمد، **﴿لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ﴾** أي رسولاً تبلغ رسالتك **﴿بلسان عربي مبين﴾**.

القرآن إذاً: وحي من الله، حمله جبريل، إلى محمد، بلغة العرب، وهو من جنس الوحي الذي في كتب الرسل الأولين. إن هذا يعني أنه، من جهة، ليس جديداً كُلّ الجدة، بل هو استمرار للخطاب الإلهي إلى البشر، يقول تعالى: **﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾**(٧)، أي التوراة والإنجيل، كما يعني من جهة أخرى أنّه تجربة روحية تتلخص في تلقي الوحي **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ﴾**، وأنه من جهة ثالثة رسالة تجعل حاملها **﴿من المنذرين﴾**، المبينين للناس ما هو حقّ وما هو باطل، وتجعله بالتالي في مواجهة معهم. وهكذا تنضاف إلى التجربة الروحية (تجربة تلقي الوحي) تجربة أخرى اجتماعية إرشادية دعوية (من الدعوة).

هناك إذاً أبعاد ثلاثة في الظاهرة القرآنية: بعد لازمني يتمثل في علاقتها بالرسالات السماوية، وبعد روحي يتمثل في معاناة النبي لتجربة تلقي الوحي. ثُمّ بعد اجتماعي دعوي يتمثل في قيام النبي بتبليغ الرسالة وما ترتب على ذلك من ردود الفعل.

والبحث في هذه الأبعاد و«الكلام» فيها قديم قدم البحث في «علوم القرآن». وقد خصّ القدماء جزءاً كبيراً من هذا النوع من البحث و«الكلام» باصطلاح خاص عبّروا عنه بـ «دلائل النبوة»، وقد ألفت كتب كثيرة تحت هذا العنوان. وهذا الاصطلاح يتقاطع مضمونه مع كثير من المسائل التي تندرج في ما ندعوه هنا بـ «الظاهرة القرآنية». ومع ذلك فمفهوم «الظاهرة القرآنية» أوسع، وهو أيضاً «معاصر لنا» بقدر ما كان المصطلح الآخر معاصراً للقدماء. هو أوسع ومعاصر لنا لأن مفهوم «الظاهرة» في اصطلاحنا اليوم يغطي عدة مجالات، أعني أنه يوظف كمفهوم إجرائي؛ فنحن نتحدث عن الظاهرة الطبيعية والظاهرة الاجتماعية والظاهرة الثقافية

---

(٦) نفس المرجع، «سورة غافر،» الآية ٧٨.

(٧) نفس المرجع، «سورة فاطر،» الآية ٣١.

إلخ. فإذا أردنا أن نستحضر في أذهاننا علاقة القرآن بهذه الظواهر مثلاً، فإن مفهوم «الظاهرة القرآنية» يفي بالغرض، غرضنا، المعاصر لنا، أكثر مِما يفي به مفهوم «دلائل النبوة».

رابعاً: حول المصادر وتعدد الروايات

لا يتسع المجال هنا للحديث المفصل عن مصادرنا، ولا عن الموضوعات التي كتب فيها القدماء والتي تتصل بصورة أو بأخرى بما ندعوه هنا بالظاهرة القرآنية. سنكتفي بالقول: إننا من الناحية المبدئية لا نستثني أي مصدر، عربياً كان أو غير عربي، إسلامياً كان أو غير إسلامي. المهم عندنا هو ما يقدمه لنا هذا المصدر أو ذلك من معلومات تكون لها فائدة ما في بحثنا. ومع ذلك فإن المصادر الإسلامية، والقديمة منها خاصة، هي عمدتنا.

والمصادر الإسلامية مادتها الأساسية هي الروايات. وهي، في جملتها، يطبعها الاختلاف إلى حدّ التناقض أحياناً. ومع أن اختلافها قد يدفع بعض الباحثين إلى الشكّ في صحة ما ترويه، كلاً أو بعضاً، فإننا نرى، بالعكس من ذلك، أن هذه الاختلافات دليل صحتها ككل. فالاختلاف هنا كاختلاف شهادات أناس حضروا حادثة سيارة أو سمعوا ممن حضرها. وبما أن المفروض ـ بل هذا هو الواقع فعلاً ـ أن أياً منهم لم يكن قد كلف نفسه بتسجيل وقائع الحادثة كتابة على ورق ـ كما يفعل المحققون من رجال الشرطة ـ وإنما يصفون، كُلّ من زاويته الخاصة، جزءاً أو أجزاء حية من المشهد، بوصفه حادثة إنسانية يكتنفها ما يرافق الحوادث الإنسانية عادة من رؤىً وذكريات وتطلعات ومشاعر وأحاسيس، فإن رواياتهم المختلفة يجب أن ينظر إليها على أنها رؤى متعددة لشيء واحد، وتعددها دليل على صدق ما ترويه، لا كأجزاء وتفاصيل، بل كحدث أو حادثة. ذلك أن الخبر «الموضوع»، الكاذب المختلق، لا يكون في الوقت نفسه، متعدداً، مختلفاً حول أشياء، متفقاً حول أخرى. إن اختلاف الآراء لا يطعن في الحقيقة، بل هو دليل على أن ثمة فعلاً حقيقة يجب إعادة بنائها، كما يعيد المحققون مع الجناة والشهود مسار الواقعة التي يحققون فيها. ومن حسن حظنا هنا أننا لسنا أمام جناة مراوغين، بل أمام رواة يجتهد كُلّ منهم في نقل الواقعة كما حضرها أو سمع عنها، غير مهتم ـ في الغالب ـ بما يكون في روايته من اختلاف أو اتفاق مع روايات غيره. وبطبيعة الحال فنحن لا نستبعد هنا عنصر النسيان ولا عنصر المبالغة، خصوصاً وهما من خصائص الروايات الشفوية، وقد يداخلان الشهادات الموثقة كتابة كذلك، هذا أمر أكيد! فالبشر غير معصومين.

إذاً، لن نقف من مضمون الروايات التي تتحدث عن الظاهرة القرآنية ـ أقصد

عن مضمونها العام ـ موقف الشاكّ، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بِمن حضروا الواقعة التي يتحدثون عنها أو سمعوا ممن حضرها. أما شكل الرواية، أعني ما يلفها من عبارات تعبر عن «الموقف الذاتي» الخاص براويها (كعبارات التعظيم والمبالغة وما أشبه) فإننا سنغض الطرف عنها تماماً، ليس لأننا نطعن فيها أو ننكر على صاحبها حقه في التعبير بالطريقة التي يشاء، بل لأن ما يهمنا هو ما ينتمي إلى الواقعة نفسها من دون تدخل خارجي. إن خطابنا هنا لن يكون خطاب دعوة، ولا خطاباً مضاداً لأية دعوة. إنه خطاب ينشد التعبير عن الحقيقة كما تبدت لنا من خلال موقف حيادي موضوعي من الوقائع، وتعامل نقدي مع المصادر. وإذا كان لا بُدّ من تقديم مثال على ما نطمح إليه هنا من الحياد الموضوعي والتعامل النقدي فلنقل: إننا سنسلك المسلك نفسه الذي سلكناه في الأجزاء الأربعة من كتابنا **نقد العقل العربي**، مع هذا الفارق: وهو أن «لكُلّ مقام مقال».

خامساً: التجربة الروحية كمعاناة مع المطلق

فعلاً لكُلّ مقام مقال. ومقام «نقد العقل العربي» ليس هو مقام «مدخل إلى القرآن».

لقد أكدنا مراراً أننا لا نعتبر القرآن جزءاً من التراث. وهذا شيء نؤكده هنا من جديد، وفي نفس الوقت نؤكد أيضاً ما سبق أن قلناه في مناسبات سابقة من أننا نعتبر جميع **أنواع الفهم** التي شيدها علماء المسلمين لأنفسهم حول القرآن، سواء كظاهرة بالمعنى الذي حددناه هنا، أو كأخبار وأوامر ونواه، هي كلها تراث، لأنها تنتمي إلى ما هو بشري. ومع ذلك فلا بُدَّ من اعتبار المقام كما قلنا. فمقام علم الكلام أو الفقه والأصول أو الفكر السياسي والفكر الأخلاقي، يختلف عن مقام موضوعنا هنا. يجب أن لا ننسى أن موضوع بحثنا هنا ليس مادة جامدة، ولا كائنات رياضية، ولا «إبداعات» أدبية ولا مجرد مساجلات كلامية أو نظريات عقلية. بل هو من نوع خاص ينتمي إلى ما يعبر عنه بـ «الظاهرة الدينيّة»، وهي تتميز عن الظواهر الحسية والشعورية والعقلية والخيالية بكونها «تجربة روحية». ومع أن الظواهر غير الدينيّة قد يحضر فيها الجانب الروحي، بهذه الدرجة أو تلك، فإنها تبقى مع ذلك مشدودة إلى موضوعها الحسي أو العقلي أو الخيالي، ومطبوعة بطابعه. أما التجربة الروحية فهي ـ على الأقل كما يصفها أصحابها ـ معاناة مع المطلق تقع وراء الحس والمحسوس والعقل والمعقول. وغني عن البيان القول إن تجربة النبوة هي أعلى قمم التجارب الروحية.

وفي القاموس الإسلامي يكون صاحب هذه التجربة نبياً فقط إذا اقتصر على معاناتها في داخله، غير مهتم بما هو عليه الحال خارج ذاته، ويكون «نبياً رسولاً»

عندما يجد نفسه مطلوباً منه أن يبلغها بلسانه إلى الناس، كرسالة تدعوهم إلى تشخيص تلك التجربة الروحية في مضامين عقدية وسلوكية. هذا إذا كان صاحب هذه التجربة مخلصاً صادقاً مع نفسه ومع مخاطبيه، متجرداً لها وحدها، متفانياً في العمل على تبليغها، من دون أن يطلب أو ينتظر مقابلاً، غير النجاح في تبليغ تلك الرسالة.

أما إذا كان المدعي لهذه التجربة لا يتصف بالخصائص المذكورة فهو ـ في القاموس الإسلامي ـ إما كاهن، وإما ساحر، وإما شاعر، وإما مجنون. أما إن كان لا يعاني هذه التجربة أصلاً، وإنما يدّعيها بدافع ما، أو لغرض ما، فهو مجرد «مدّعٍ بالنبوة».

ونحن إنّما استحضرنا هنا هذا التمييز الذي يقيمه القاموس الإسلامي بين الأصناف التي ذكرنا، لأننا سنصادفها ضمن ردود الفعل التي أثارتها الظاهرة القرآنية منذُ لحظتها الأولى، ليس في نفوس خصومها الأوائل فحسب، بل أيضاً في نفس صاحبها نفسه، محمد بن عبد الله ﷺ. فليس خصوم الدعوة المحمدية هم وحدهم الذين احتاروا في وصف حال صاحبها فقالوا عنه إنه كاهن، أو ساحر، أو شاعر، أو مجنون، أو كاذب مفتر (في القرآن آيات كثيرة تحكي هذه الاتهامات، منها: **﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلام بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾**[8]، بل إن النبي نفسه قد عبر، غير ما مرة لزوجته خديجةً، عند ابتداء تجربته مع الوحي، عن مثل هذه المخاوف، كما سنرى في مراحل لاحقة من البحث. وهذا يدلّ على أن التصنيف المذكور الذي نسبناه إلى القاموس الإسلامي كان «معمولاً به» قبل ابتداء الظاهرة القرآنية نفسها، مثله في ذلك مثل كثير من التصنيفات والرؤى.

سادساً: القرآن بوصفه معاصراً لنفسه ومعاصراً لنا

ونحن نعتقد أنّه لا بُدَّ من أخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار. فالظاهرة القرآنية، وإن كانت في جوهرها تجربة روحية، نبوة ورسالة، فهي في انتمائها اللغوي والاجتماعي والثقافي ظاهرة عربية، وبالتالي يجب أن لا ننتظر منها أن تخرج تماماً عن فضاء اللغة العربية، لا على مستوى الإرسال ولا على مستوى التلقي.

لقد اشترط كثير من علماء الإسلام ـ عن حقّ ـ في من يريد دراسة القرآن أن يكون عارفاً بلغة العرب، معرفة أهلها بها، وأن يحصر فهمه له ضمن «معهود العرب»، أي ما يشكل قوام حياتهم الروحية والفكرية والاجتماعية إلخ، حجتهم في

---

(٨) نفس المرجع، «سورة الأنبياء،» الآية ٥.

ذلك أن القرآن جاء يخاطب العرب ليفهموه وأنه لا بُدَّ ـ تبعاً لذلك ـ أن يكون خطابه بلغتهم وفي إطار معهودهم الاجتماعي والثقافي حتّى يمكنهم أن يفهموه.

وإذا نحن انطلقنا في فهمنا للظاهرة القرآنية من هذا المنطلق، أعني من اعتبار خصوصيات لغة العرب ومعطيات معهودهم أمكننا التغلب على كثير من الشكوك التي قد تثار في وجه صدق الروايات التي تتحدث عن هذه الظاهرة، حتّى عندما يتعلق الأمر بأدق لحظاتها، أعني لحظة البداية. على أن اعتبار معهود العرب بكل جوانبه أمر ضروري لنا لجعل القرآن «معاصراً» لنفسه، تماماً مثلما أن تعاملنا مع هذا المعهود بكل ما نستطيع من الحياد والموضوعية، هو الطريق السليم ـ في نظرنا ـ لجعل القرآن معاصراً لنا أيضاً، لا على صعيد التجربة الدينيّة فذلك ما هو قائم دوماً، بصورة ما، بل أيضاً على صعيد الفهم والمعقولية.

هذا طموح، ونحن نعتقد أنّه مشروع. ويبقى مع ذلك تأسيسه من الناحية المنهجية.

* * *

كيف يمكن إذاً، من الناحية المنهجية، التعامل مع القرآن بوصفه معاصراً لنفسه ومعاصراً لنا في نفس الوقت؟

لعل كثيراً من القراء الذين يتابعون أعمالنا يذكرون أننا قد حددنا لأنفسنا منذُ أزيد من ربع قرن (منذُ مقدمة **نحن والتراث**[٩]) منهجاً ورؤية في ما نقوم به من أبحاث في موروثنا الثقافي. من ركائز هذا المنهج/ الرؤية: جعل المقروء معاصراً لنفسه ومعاصراً لنا في الوقت نفسه. ولما كان الأمر يتعلق هنا بالقرآن فإن أحسن طريق إلى تطبيق هذا المنهج/ الرؤية في التعامل معه هو، في نظرنا، ذلك المبدأ الذي نادى به كثير من علماء الإسلام، مفسرين وغيرهم، وهو أن «القرآن يشرح بعضه بعضاً».

سنعتمد هذا المبدأ، إذاً، ولكن من دون إقصاء الروايات التي يعتمدها «التفسير» بالمأثور إقصاء كلياً، بل سنتعامل إيجابياً مع كُلّ اجتهاد أو رواية نجد في القرآن ما يشهد لهما بالصحة، من قريب أو بعيد. ذلك هو سلاحنا ضدّ الوضع، سواء كان بدافع «الترغيب والترهيب» أو بدوافع مذهبية أو سياسية، وهو سلاحنا أيضاً ضدّ الإسرائيليات وأنواع الموروث القديم السابق على الإسلام.

ومن أجل تطبيق هذا المبدإ نرى أنّه ينبغي التمييز منهجياً بين أمرين النصّ

---

(٩) محمد عابد الجابري، **نحن والتراث** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠).

القرآني كما هو مجموع في المصحف من جهة، والقرآن كما نزل مفرقاً، أي حسب ترتيب النزول من جهة أخرى، ومن ثمّ التعامل مع كُلّ موضوع نطرحه، بشأن القرآن، بحسب طبيعته. فإن كان مما ينتمي إلى النسبي والتاريخي رجعنا به إلى ترتيب النزول، وإن كان مما ينتمي إلى المطلق واللازمني طرحناه على مستوى القرآن ككل بوصفه يشرح بعضه بعضاً ويكون الحكم فيه هو «قصد الشارع» وليس الزمن والتاريخ. وهذا لا يمنع من اعتماد المستويين معاً حين يقتضي الموضوع ذلك.

أما التعامل مع قرآن المصحف فلا يطرح أي إشكال، إذ يمكن أن نعتمد في مسألة من المسائل على نصّ من هذه السورة أو تلك ونبحث عن نصوص تشرحه أو تساعد على فهمه إلخ. ويمكن أن نجمع نصوصاً، كيفما اتفق، ونستخلص منها ما تشترك فيه من أحكام أو أخبار إلخ. وهذا هو ما جرى به العمل في الغالب. وأما التعامل مع القرآن بحسب ترتيب النزول فذلك ما يتطلب، أولاً وقبل كل شيء، تبني نوع من الترتيب للسور وهذا ما ليس سهلاً، وسنخصص له قولاً خاصاً. أما ترتيب الآيات داخل السور فذلك ما أجمعت المصادر على أنّه «توقيفي» بمعنى أنّه من عمل النبي نفسه، وبالتالي لا مجال للاجتهاد فيه. ومع ذلك فلا بُدَّ من طرح الأسئلة التي تفرض نفسها سواء على مستوى السور أو الآيات ومناقشتها، كما فعل كبار المفسرين.

ونحن عندما نطرح هنا هذه المسألة لا نريد أن يفهم القارئ أننا بصدد كتابة تفسير للقرآن. إن هدفنا هنا محدود بحدود ما عبرنا عنه بـ «التعريف بالقرآن». والتعريف بالشيء قد يكون بوصفه من الخارج، وقد يكون بتبيان مسائله وموضوعاته وإبراز حديثه عن نفسه ـ إن كان ثمّ مثل هذا الحديث إلخ. وهذا كُلّه لا يمكن القيام به بالنسبة إلى القرآن من دون الرجوع إلى خطابه وبالتالي محاولة فهم هذا الخطاب. وإذاً فالتعريف بالقرآن، عندما يعتمد مبدأ «القرآن يفسر بعضه بعضاً»، هو في نفس الوقت تفسير لنصوص من القرآن. وإذاً فلا بد من الوعي بمجمل القضايا التي ذكرنا.

القسم الأول

قــراءات فــي محيــط القــرآن الكريــم

الفصل الأول

حول وحدة الأصل في الديانات السماوية الثلاث

أولاً: . . . النَّبِيَّ الأُمِّيَّ . . . مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ في التَّوْرَاةِ وَالإنجِيلِ

قام جدل طويل عريض بين علماء الإسلام وعلماء المسيحية، قديماً وحديثاً ـ ولا يزال قائماً إلى اليوم[1] حول مسألة البشارة بالنبي محمد ﷺ في التوراة والإنجيل. لقد أكد القرآن هذه البشارة في آيتين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ

---

(١) من المؤلفات التي اهتمت بالموضوع في العالم الإسلامي والعالم المسيحي الكتب التالية:

أ ـ من الكتب العربية القديمة التي تناولت هذا الموضوع: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، ٣ ج في ١مج (القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ١٩٦٨)؛ أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**؛ أبو العباس أحمد بن ادريس القرافي، **الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة**؛ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، **هداية الحيارى من اليهود والنصارى**، وأبو محمد عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، تراث الإسلام، ٤ ج في ٢ مج (القاهرة: [د. ن.، د. ت.])، ج ١.

ب ـ ومن الكتب العربية الحديثة: محمد رشيد رضا: **الوحي المحمدي**، **وتفسير المنار**؛ أحمد عبد الوهاب، **النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية**، ومحمد عزة دروزة، **التفسير الحديث**، ٦ مج (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤).

ج ـ ومن ردود المؤلفين المسيحيين: **رسالة عبد المسيح الكندي إلى الهاشمي**؛ يوسف درة الحداد، **الإنجيل في القرآن**، ومرقس سرجيوس: **هل تنبأت التوراة أو الإنجيل عن محمد؟**، ورد **القمص سرجيوس على القائلين بتحريف التوراة والإنجيل**. راجع تفاصيل أوفى في: <http://www.mutenasserin.net/mutenasserin/arabic/fq/mohamed.htm>.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٧.

مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٣].

الآيتان صريحتان في كون التوراة والإنجيل قد بشّرا بقدوم النبي الأمي، أي من غير اليهود[٤]، اسمه «أحمد». وبما أن أهل التوراة والإنجيل قد أنكروا أن يكون في كتبهم ما يؤكّد ما ورد في القرآن فقد كان من الطبيعي أن يتصدى علماء المسلمين للردّ عليهم والبحث في نصوص التوراة والإنجيل عما يؤكّد ما ذكره القرآن، فذكروا نصوصاً عديدة رأوا فيها أنها تثبت ذلك. ومن جهتهم قام علماء المسيحية، القدماء منهم والمعاصرون، بالبحث في النصوص التي لديهم من التوراة والإنجيل، فنفوا أن يكون فيها ما يبشر بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وقالوا إن الإشارات التي يؤوّلها المسلمون لا تستقيم مع ما يريدونه منها ولا يمكن أن تكون، منطلقين في نفيهم هذا من مسلّمة مفادها أن النبوة محصورة في بني إسرائيل من سلالة النبي إبراهيم من زوجته «سارة» وابنها إسحاق، وأنه لا علاقة لـ «هاجر» وابنها إسماعيل ـ جدّ العرب ـ بالنبوة، فهي لم تكن من بني إسرائيل وإنما كانت جارية قبطية خادمة لسارة أهدتها لزوجها إبراهيم، عندما رأت أنها لم تنجب له أطفالاً.

ثانياً: ادعاءات غير مؤسسة. . . !

وانطلاقاً من مثل هذا الموقف التحكمي الذي يلغي النقاش في الموضوع من أساسه، كتب أحد الخائضين في هذا الشأن من المعاصرين مقالاً في الإنترنت[٥] حاول فيه أن يثبت «خطأ» ما ورد في الآيتين السابقتين، حسب زعمه.

١ ـ **بالنسبة إلى الآية الأولى**: أعني قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ في التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾**. ادّعى صاحبنا: «أن صفة النبي الأمي لا وجود لها على الإطلاق في التوراة والإنجيل، لا تصريحاً ولا تلميحاً»، وأن عبارة «النبي الأمي» الموجودة في القرآن قد تكون قراءة خاطئة لعبارة وردت في التوراة بصيغة «النبي الآتي» بعد موسى، (أي النبي عيسى). ويبرر هذا الكاتب وقوع هذا الخطإ بكون الكتابة العربية كانت، زمن جمع

---

(٣) نفس المرجع، «سورة الصف،» الآية ٦.

(٤) سنفصل القول في مفهوم الأمي والأمية في هذا السياق لاحقاً: راجع الفصل ٣ من هذا الكتاب.

(٥) <http://www.mutenasserin.net/mutenasserin/arabic/fq/mohamed.htm>.

القرآن، من دون نقط، وأن الذين نقلوا عن التوراة قرأوا لفظ «الاى» (تاء غير منقوطة) هكذا: «الأمى»، وأقحموها في القرآن زمن جمعه، مسنداً فرضية «الإقحام» هذه بكون عبارة «النبي الأمي» لم تتكرر في القرآن قط مع أن الخاصية المميزة له هو التكرار!

وواضح أن كون الكتابة لم تكن منقوطة مسألة عامة، كان أثرها ينسحب على القرآن كُلّه، وبالتالي فلا معنى لحصر تأثيرها في آية واحدة! تماماً مثلما أن عدم تكرار عبارة ما في القرآن لا يكفي دليلاً على أنها إنما أقحمت فيه وليست منه، فكم من عبارة فيه لم تتكرر! أما ادعاء الإقحام فهو مجرد افتراض لا دليل عليه، لا من قريب ولا من بعيد. فلماذا «تقحم» كلمة «الأمي» في هذه الآية وحدها مع أنها وردت في آيات أخرى بالمفرد والجمع (الأمي، الأميين)؟[٦] أضف إلى ذلك أن هذا الادعاء يتجاهل أن القرآن كان محفوظاً في الصدور، وأنه على هذا الجانب كان المعوّل. هذا علاوة على أنّه لم تكن ثمة حاجة تملي مثل هذا «الإقحام» زمن جمع القرآن، وهو زمن انتصار الإسلام وانتشار الفتوحات، ولم يكن المسلمون وقتها في حاجة إلى توظيف أساليب «الإقحام» في الدعوة إلى الدين الجديد، ولا كانوا خائضين مع أهل الكتاب في هذه المسألة.

أما القول إن المسلمين نقلوا الكلمة خطأ من التوراة فهو افتراض يفتقر إلى أضعف شبهة لإسناده: فلماذا ينقل المسلمون من التوراة، عند جمع القرآن، هذه الكلمة وحدها ليخطئوا في نقلها!؟ هذا في حين أن عملية جمع القرآن من المصاحف قد خضعت لتدقيق كبير وتحريات مشددة، سنتحدث عنها في حينه. وصاحبنا هذا يعرفها من دون شكّ.

٢ ـ **أما الآية الثانية**، أعني قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ**﴾، فقد كانت، ولا تزال، أكثر تحدياً لأهل الإنجيل خصوصاً وقد نسبت إلى النبي عيسى عليه السلام التبشير برسول اسمه «أحمد». ومما أشعل نار هذا التحدي كون ابن إسحاق، جامع السيرة النبوية في وقت مبكر[٧]، قد كتب بصدد هذه الآية يقول: إن «يُحَنَّس الحواريّ الذي

---

(٦) مثل قوله تعالى: ﴿**فآمنوا بالله ورسولِه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون**﴾ و﴿**وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين**﴾ [نفس المرجع: «سورة الأعراف،» الآية ١٥٨، و«سورة آل عمران،» الآية ٢٠ على التوالي].

(٧) توفي حوالى ١٥٢ هجرية.

نسخ الإنجيل(٨)، قد أثبت في نسخته أن النبي عيسى قال: من أبغضني فقد أبغض الربّ. ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة، ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يُعِزّونني (يغلبونني)، وأيضاً للرب. ولكن لا بُدَّ من أن تتم الكلمة التي في الناموس: إنهم أبغضوني مجّانا. فلو قد جاء **الْمُنْحَمَنَّا**، هذا الذي يُرسله الله إليكم من عند الربّ وروح القدس، هذا الذي من عند الربّ خرج، فهو شهيد علي وأنتم أيضاً، لأنكم قديماً كنتم معي في هذا، قلت لكم: لكيما لا تشكوا». وقد علق ابن إسحاق على ذلك قائلاً: «والْمُنْحَمنَّا بالسريانية هو: محمد. وهو بالرومية: البرَقْلِيطس (=الفارقليط)، صلى الله عليه وآله وسلم»(٩).

ويعلق صاحب المقال المشار إليه قبل قائلاً: إن ما ورد في الإنجيل هو قول يسوع (عيسى): «وأنا أسأل الآب فيعطيكم فارقليط»(١٠)، (بيركليت)، وأن هذه اللفظة paracletos تعود في أصلها إلى اليونانية كما كانت شائعة في عصر السيد المسيح وحواريّيه»، مضيفاً أنها «قد وردت في جميع مخطوطات إنجيل يوحنا، السابقة لظهور الإسلام بقرون، على هذه الصيغة، ومعناها: المعزي، المشير، المدافع، الروح القدس، وروح الحقّ؛ وليس كما يدّعي المسلمون أنها وردت على

---

(٨) المقصود يوحنا الإنجيلي (Jean l'évangéliste)، وهو الذي كتب الإنجيل الرابع، المعروف باسمه. والحواري مفرد حواريين (لفظة حبشية قيل إنها انتقلت إلى نصارى نجران ومن هناك دخلت اللغة العربية وفي المراجع الأوروبية: لفظ الحواريين (Apôtres) من أصل يوناني (Apostolos) ومعناه «الرسل»، أي الذين بعثهم عيسى ﷺ لنشر الدعوة، وكانوا اثني عشر رسولاً هم: سمعان الذي دُعيَ بطرس (Simon appelé Pierre)، وأندراوس أخوه (André son frère)، ويعقوب بن زبدي (Jacques, fils de Zébédée)، ويوحنا أخوه (Jean, son frère)، فيلبس (Philippe)، وبرثلماوس (Barthélemy)، وتوما (Thomas)، ومتّى جابي الضرائب (Matthieu, le publicain)، ويعقوب بن حلفى (Jacques, fils d'Alphée)، وتداوس (Thaddée)، وسمعان القانوني (Simon le Cananite)، ويهوذا الإسخريوطي الذي خان عيسى (Judas l'iscariot, celui qui livra Jésus).

(٩) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٢٣٢. وابن هشام، المتوفى سنة ٢١٨ هـ، هو الذي انتهت إليه السيرة النبوية التي كتبها ابن إسحاق، فرواها وعلق عليها وارتبط اسمه بها.

(١٠) في ترجمة الجمعية الدولية للتوراة، وهي ترجمة حديثة، وردت الفقرة التي ذكرها ابن إسحاق في: **الكتاب المقدس**، «إنجيل يوحنا،» الأصحاح ١٤، الآيات ٢٤ ـ ٢٦، كما يلي: «والذي لا يحبني لا يعمل بكلامي وليس هذا الكلام الذي تسمعونه من عندي بل من الآب الذي أرسلني. وقد قلت لكم هذة الأمور وأنا ما زلت عندكم. وأما الروح القدس **المعين** الذي سيرسله الآب باسمي فإنه يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم».

أما في الترجمة الصادرة عن دار الكتاب المقدس في العالم العربي (بيروت)، فأوردت ما يلي: «الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي والكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني. بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما **المعزي** الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي **فهو** يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم». للاطلاع على النص الأصلي للآيات بالفرنسية، راجع الموقع: International Bible Society (IBS), <http://www.chez.com/voxdei/66.Apocalypse.html>.

صيغة periklutos ومعناها: الشهير، المعروف، المحمود، المجيد، النبيل، الممتاز[11]، أي إن هذه اللفظة هي صفة، ولم تستخدم قط كاسم علم»[12]. ويضيف: إن لفظة Periklutos هذه لم تَرِدْ في أية مخطوطة من مخطوطات العهد الجديد (الإنجيل) في أي عصر من العصور السابقة على ظهور الإسلام أو التالية له. كما أن الأوصاف التي تفيدها «تدل على إلهية الفارقليط: الفارقليط يقيم مع تلاميذ المسيح إلى الأبد، وليس هذا في قدرة مخلوق. والفارقليط هو «روح الحقّ» أي روح الله. وهو أيضاً «روح المسيح» لأن المسيح وصف نفسه بـ «الحق»[13].

٣ ـ **وقد امتد هذا الجدل** إلى مضمون الآية التي يقول فيها القرآن الكريم: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾[14]. وحول هذه الآية يقول صاحبنا: «إن الذين آمنوا بالدعوة القرآنية في أوانها ليس اليهود، ولا المسيحيين، إنما ﴿**الذين قالوا إنا نصارى**﴾. وفي رأيه أن «هذا تقويم جديد لهم ولغيرهم». وهؤلاء «**النصارى**» تصفهم آية سورة الأعراف بأنهم أمة من قوم موسى: ﴿**وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾[15]، وتقول عنهم آية سورة الصف إنهم: طائفة من بني إسرائيل آمنت بالمسيح: ﴿**فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**﴾[16]. ويضيف صاحبنا قائلاً: هؤلاء أيضاً هم «أولو العلم»[17] أو

---

(١١) يحيل صاحب المقال إلى: George Ricker Berry, *The Classic Greek Dictionary: Greek - English and English - Greek: With an Appendix of Proper and Geographical Names*, Classic Series (Chicago, IL: Follet Publishing, 1956).

(١٢) يرى ابن عاشور في تفسيره بصدد قوله تعالى: ﴿**ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾، أن لفظ «أحمد» هنا ليس اسم علم «لأن الرسول الموعود به لم يدعه الناسُ أحمد: فلم يكن أحد يدعو النبي محمداً ﷺ باسم أحمد، لا قبل نبوته ولا بعدها ولا يعْرف ذلك». وبناء على ذلك يقرر ابن عاشور أن «أحمد» ليس اسم علم بل صفة، اسم تفضيل. فعبارة: ﴿**اسمه أحمد**﴾ «هي بمعنى: اسمه أفضل وأحسن، وهذا مثل قولهم: (العَود أحمد)، أي محمود كثيراً». قد يكون هذا التأويل نوعاً من الردّ على ما يقوله علماء المسيحية بصدد كلمة المنحمنا، من كونها صفة وليست اسم علم. فإذا قلنا إن لفظ «أحمد» صفة للنبي محمد وليس اسم علم له، سقطت حجتهم تلك.

(١٣) **الكتاب المقدس**، «إنجيل يوحنا،» الأصحاح ١٤، الآية ٦.

(١٤) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة،» الآية ٨٢.

(١٥) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٩.

(١٦) نفس المرجع، «سورة الصف،» الآية ١٤.

(١٧) راجع نص الآية: ﴿**قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يَخِرّون لِلأذقان سجداً**﴾ [نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ١٠٧].

﴿**الراسخون في العلم**﴾[١٨] بحسب اصطلاح القرآن. وهم أيضاً المسلمون الأوائل قبل محمد، وفيهم يقول القرآن: ﴿**وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ**﴾[١٩].

ويخلص صاحبنا إلى النتيجة التالية، قال: «فالذين ﴿**قالوا إنا نصارى**﴾ في قوله تعالى: ﴿**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى**﴾ هم الذين آمنوا وحدهم بالدعوة القرآنية، لا اليهود ولا المسيحيون، وأنه ليس في القرآن من «شواهد عيانية، مكية ومدنية، حاسمة» تشهد بإيمان اليهود والمسيحيين بالقرآن، ليكون إيمانهم برهاناً على صحة كتابة «النبي الأمي» في التوراة والإنجيل». ثُمّ يستشهد بموقف «وفد نجران»، الذي يقول عنه إنه: «الوفد المسيحي الوحيد، الذي باحث النبي وودعه ورجع خائباً»، مضيفاً: «**ونعرف أنّه كان من أهل البدعة**»[٢٠].

وهكذا نستخلص من هذا الردّ أن ثمة، ثلاث فئات من «أهل الكتاب»: اليهود والمسيحيون و«النصارى»، وأن هؤلاء «النصارى» كانوا مثل «نصارى نجران» **فرقة مبتدعة**. وهذه النتيجة هي في الحقيقة كُلّ ما يهمنا من المجادلة السابقة. ولذلك نطرح السؤال التالي:

من هم، يا ترى، هؤلاء «النصارى» الذين آمنوا بـ «الأمي» قبل بعثته وبعدها، والذين يعتبرهم «المسيحيون الرسميون» فرقة مبتدعة؟

ثالثاً: «النصارى»... ومسألة التثليث!

١ ـ الحواريون.. والأناجيل

تحدث القرآن عن أتباع الديانة المسيحية تحت اسم «**النصارى**»، ولم يردّ فيه لفظ «المسيحية» ولا لفظ «المسيحي»، لا بالمفرد ولا بالجمع. و« النصارى»، في عرف علماء المسيحية الرسمية، (الكاثوليكية والأرثوذكسية والأنجليكانية)، فرقة ضالة غير معتبرة. أما عند علماء الإسلام فهم المنحدرون من «الحواريين» (صحابة عيسى ﷺ) الذين أيدوه ونصروه، وهم الذين تحدث عنهم القرآن في قوله تعالى:

---

(١٨) راجع نص الآية: ﴿**لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما**﴾ [نفس المرجع، «سورة النساء،» الآية ١٦٢]. للمفسرين كلام طويل حول قوله «والمقيمين» بدل «والمقيمون». وذكر أن في مصحف ابن مسعود: ﴿والمقيمون الصلاة﴾.

(١٩) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآية ٥٣.

(٢٠) راجع الفصل ٢ من هذا الكتاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[٢١]. وتقول مصادرنا في تفسير هذه الآية: «وكان ذلك في قرية النَّاصِرَة (شمال فلسطين، وهي مكان نشأة السيد المسيح، وإليها ينسب: عيسى الناصري (Jésus de Nazareth) فَسُمُّوا بذلك «نصارى»، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكاملهم في ما ذكره غير واحد من أهل السّير والتواريخ والتفسير، بعث إليهم رسلاً ثلاثة: أحدهم شمعون الصفا فآمنوا واستجابوا. وكفر آخرون من بني إسرائيل، وهم جمهور اليهود، فأيّد الله من آمن به على من كَفَر في ما بعد، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم»[٢٢].

وهذا التفسير يكاد يتطابق مع ما يؤكده مؤرخو الدين المسيحي في الغرب. فمن المؤكد عندهم أن عيسى عليه السلام لم يترك كتاباً منزلاً يضم كلام الله على غرار القرآن، وإنما بقيت تعاليمه الشفوية وأخبار نشاطاته الدعوية متداولة بين صحابته المؤمنين به، فقام بعضهم بروايتها في نصوص تسمى «الأناجيل» (جمع إنجيل، كلمة بمعنى: البشرى) وهي أربعة تنسب إلى الذين جمعوها وسجلوها وهم: متى (Matthieu)، ومرقص (Marc)، ولوقا (Luc)، ويوحنا (Jean). وتجمع الأبحاث النقدية المعاصرة على أن هذه الأناجيل قد كتبت بعد المسيح عليه السلام بنحو قرن من الزمان، وأنها قد تعرضت للبتر والإضافة والتعديل، وأنها كتبت باللغة اليونانية، وهي اللغة السائدة يومئذ، ليس في بلاد اليونان والرومان فحسب، بل في سورية وفلسطين ومصر... إلخ.

كان الدعاة لدين المسيح، يعرضون مبادئه ورسالته على الناس بلغة اليونان في وقت كانت فيه المذاهب الفلسفية اليونانية والتيارات الغنوصية والهرمسية تغزو المنطقة، الأمر الذي أدّى إلى حدوث صدامات بين الدعاة المسيحيين وبين حاملي الفكر اليوناني، صدامات تبعتها أو رافقتها محاولات للتوفيق بين ما تعطيه الفلسفة اليونانية التي تعتمد العقل، وبين ما يعطيه الدين المسيحي القائم على الإيمان.

٢ ـ مسألة التثليث والتنزيه الفلسفي

كانت القضية الأساس التي شغلت الفكر المسيحي هي تحديد طبيعة المسيح.

---

(٢١) نفس المرجع، «سورة الصف،» الآية ١٤.

(٢٢) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، **البداية والنهاية**، ١٤ ج (بيروت: مكتبة المعارف، [د. ت.])، ج ٢، ص ١٧٨.

فالعقيدة المسيحية تقرر أن أمه مريم ولدته من دون أن يمسسها بشر، ولكنه هو نفسه له طبيعة البشر! إذاً هو بشر له أمّ، ولكن من هو أبوه؟ الجواب: الله نفخ في مريم من روحه. ومن هنا قالوا: إذاً: الله هو الأب، وعيسى هو الابن، وبين الأب والابن هناك «روح الله» أو روح القدس[٢٣]. إذاً هاهنا ثلاثة أقانيم، أو عناصر، فكيف يمكن تحديد العلاقة بينها؟ تلك هي إشكالية عقيدة التثليث (Trinité). وحسب ما يؤكده مؤرخو العقيدة المسيحية فإن الاعتقاد في الطبيعة اللاهوتية للسيد المسيح، أعني في كونه إلهاً، لم تترسم إلا بعد نحو قرن من الزمن بعد صلبه. أما قبل ذلك، أي خلال القرن الأول الميلادي، فقد كان المؤمنون به أقلية من اليهود، أما الغالبية منهم فقد رفضوه واضطهدوه. وكان على رأس الطائفة التي آمنت به بعض يهود فلسطين الذين رأوا فيه «المسيح» المخلّص الذي بشرت به التوراة. وهؤلاء هم الذين نصروه. ويرى جلّ الباحثين أنهم لم يكونوا يعتقدون لا في التجسد (تجسد الإله في شخص المسيح) ولا في التثليث، وإنما كانوا يرون فيه نبياً بشراً مبشراً بالخلاص. وكما ذكرنا قبل، كانت دعوته شفوية، فهو لم يأت بكتاب منزل وإنما كان يقوم بعظات، متنقلاً من مكان إلى آخر في فلسطين. وعندما انتشرت دعوته وأخذ أنصاره وحواريّوه يدوّنونها في «أناجيل»، بعد أزيد من قرن من ظهوره، وحصل الاحتكاك بالفلسفة اليونانية، وفي الإسكندرية خاصة، برزت محاولات للتوفيق بين العقيدة التي تقررها تلك الأناجيل وبين ما تقرره الفلسفة اليونانية التي كانت قد انتقلت إلى الإسكندرية.

نقرأ في تاريخ المسيحية أن أحد علماء اليهود ـ المتفلسفين واسمه الأصلي شاول ـ كان من ألد خصوم السيد المسيح عليه السلام ومن أقساهم على أتباعه، لكنه ما لبث أن اعتنق المسيحية وصار من أكبر الدعاة فيها، خاصة في العالم الوثني اليوناني الروماني، خارج المجتمع اليهودي بفلسطين، وقد سمي ولقب بسبب نشاطه التبشيري ذاك بـ «بولس الرسول». ويقول مؤرخو الفكر المسيحي إنه أول من قام بالتوفيق بين العقيدة التي بشّر بها السيد المسيح التي تقول بإله واحد، وبين

---

(٢٣) الواقع أن هذه الإشكالية ليست إشكالية مسيحية في الأصل، بل هي إشكالية طرحتها الفلسفة اليونانية، كإحدى المشاكل التي تعترض الفيلسوف حين يفكر في العلاقة بين الكائن الأسمى (الله) وهو مجرد عن المادة ليس كمثله شيء، وبين العالم الذي هو مادة وتغير. وقد كانت هذه إحدى المشاكل الفلسفية العويصة منذ أفلاطون فكان الحلّ الذي اهتدى إليه الأفلاطونيون المحدثون هو القول بكائن إلهي وسيط. وكان أفلاطون قد ميز بين الإله المتعالي والإله الصانع، الذي صنع العالم بما فيه الإنسان. وعندما جاءت المسيحية وقررت أن عيسى عليه السلام قد ولد من أم عذراء وبنفخة من الله (روح القدس) وجد مفكروها أنفسهم امام ثلاثة كائنات إلهية: الله (الأب)، النفخ أو النفَس الإلهي (روح القدس) ثُمّ عيسى (الابن) الذي ولدته مريم. ثُمّ أضافت بعض فرقهم أن مريم، بما أنها ولدت «ابن الإله» بنفخة منه فهي أيضاً من طبيعة إلهية. راجع: محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١، ط ٩ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦)، الفصلان ٩ ـ ١٠.

الأفلاطونية المحدثة التي تقول بضرورة الوسيط بين الله والعالم، معتمداً في ذلك على فكرة «التثليث»، وقد حدث ذلك حوالى عام أربعين للميلاد.

نشر بولس فكرة التثليث في رحلاته التبشيرية، من سورية إلى آسيا الصغرى، إلى اليونان إلى إسبانيا لتنتهي به الرحلة إلى روما عام ٦٠م.

واستمرّ احتكاك المسيحية بالفلسفة في الإسكندرية بصفة خاصة حيثُ ازدهرت هي والعلوم اليونانية منذُ عهد البطالمة (القرن الثالث قبل الميلاد)، وكانت قد انتقلت إليها المسيحية في وقت مبكر إذ تأسست كنيستها القبطية عام ٤٢ للميلاد. وعندما أُلّفت الأناجيل الأربعة واتخذت المسيحية صورة عقيدة مرسمة حصل اصطدام بينها وبين الفلسفة فقامت، هناك في الإسكندرية، محاولات للتوفيق بين العقيدة التي تقررها تلك الأناجيل وبين ما تقرره الأفلاطونية، من مبادئ ورؤى. ومن أبرز من قام بذلك الأسقف الفيلسوف الإسكندراني أوريجين (Origène, Origenes)، (١٨٥ ـ ٢٥٤م).

وبخصوص الموضوع الذي يهمنا هنا، موضوع تصور ذات الله، تبنّى أوريجين التصور الأفلاطوني للإله المتعالي فقال بالتنزيه المطلق: الله روح مطلق لا علاقة له بالمادة إطلاقاً، وإذا كان الكتاب المقدس يصف الله بصفات أو يسميه بأسماء لا تتفق مع كونه روحاً مطلقاً، مثل وصفه بأنه نور ونفَس وروح، فيجب في نظره أن يحمل ذلك على المعنى المجازي. أما الله في حقيقته فمستقل كُلّ الاستقلال عن كُلّ ما هو مادي، فهو لا يتحدد لا بالزمان ولا بالمكان، وبالتالي يمتنع علينا إدراك حقيقته أو التعبير عنها[٢٤].

٣ ـ الأبيونية: ثورة على التثليث!

وفي مقابل النزعة التثليثية المتفلسفة التي ما لبثت أن أصبحت هي العقيدة المسيحية الرسمية، كان المسيحيون الأول، وهم المقصودون بـ «النصارى»، يستندون في تصورهم للدين الجديد على ما ورد في التوراة. كانوا يقولون بأن المسيح هو المخلص الذي بشرت به التوراة وأنه رسول وإنسان كسائر البشر، ولدته مريم، كما يولد سائر الناس، ولكن من دون أب بل ولد بنفخة من روح الله، وأنه

(٢٤) تذكر بعض المصادر أن أوريجين ساح في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي في الجزيرة العربية واعظاً ومبشراً، ومن جملة من وعظهم أحد أمراء العرب. وليس من المستبعد أن تكون بعض مظاهر النزعة التوحيدية لدى نصارى جزيرة العرب من تأثيره. راجع: أفغراف سميرنوف، **تاريخ الكنيسة المسيحية**، نقله من اللغة الروسية الى اللغة العربية الكسندروس [جحا] مطران حمص وتوابعها (مصر: الكسندروس جحا، [١٩٦٤])، ص ٤٠.

جاء لتطبيق تعاليم التوراة سواء على مستوى العقيدة أو السلوك الدينيّ، ومن هنا حرصهم على الختان وإقامة السبت وتحريم أكل الخنزير . . . إلخ. هؤلاء يهود تنصروا ﴿**قالوا إنا نصارى**﴾ ولكن من دون قطيعة مع اليهودية، معتبرين عيسى هو المسيح الذي بشرت به التوراة.

وعندما تمكن بولس الرسول والقديس بطرس وغيرهما من المنظّرين للدين المسيحي من تكريس فكرة التثليث وتدشين قطيعة مع الشعائر الدينيّة اليهودية وإقامة مسلكية خاصة بالمسيحية تنسجم مع نظرية التثليث، قاموا هم واتباعهم طيلة القرن الثاني والثالث للميلاد (وإلى الخامس كما سنرى بعد) بالتضييق على أولئك الذين قالوا «إنا نصارى»، فشددوا الخناق عليهم ورموهم بلقب تحقيري هو «الأبيونيون» (Ebionistes) (والأبيوني بالعبرية معناه الفقير)، والمقصود ليس الفقر المادي بل الفقر الفكري والفراغ النظري، الأمر الذي يعني أن عقيدتهم لم تتأثر لا بالفلسفة اليونانية ولا بالغنوصية، وقد أطلق عليهم علماء الإسلام اسم «الموحدون». كان أولئك «النصارى» على الفطرة اليهودية، أما الحواريون وأصحاب التثليث فقد ميزوا أنفسهم بأنهم «العلماء» الذين يعرفون وحدهم «سرّ» اتحاد اللاهوت والناسوت في شخص المسيح.

وهكذا تراجع الاسم الحقيقي لهذه الفرقة، أعني «النصارى» امام حملات خصومهم عليهم وإلصاق لقب «الأبيونيين» بهم، فعرفوا في الأدبيات الدينيّة وغير الدينيّة في العالم المسيحي بهذا اللقب، منذُ ذلك الوقت إلى اليوم. ومما يلفت النظر أن جلّ الذين تعرّضوا لهذه الفرقة، سواء في الموسوعات الدينيّة أو الفلسفية أو في الكتابات البحثية، يؤكدون غموض هذا الاسم («الأبيونية»). أما في التراث العربي الإسلامي فلم يَرِدْ هذا اللفظ، لا بصيغة الفرقة (الأبيونية) ولا بصيغة اللقب (الأبيوني، الأبيونيون)، مع أن كتب الفرق في الثقافة العربية الإسلامية أوردت ما لا يحصى من أسماء الفرق، المسيحية وغيرها . . لكن لم ترد فيها أدنى إشارة إلى هذا الاسم[٢٥].

كُلّ ذلك يرجح لدينا ما ذهب إليه بعض الباحثين المعاصرين من أن الفرقة الأبيونية (Ebionistes) ليست شيئاً آخر غير فرقة «النصارى» (Nazarenes)، ولكن لا بمعنى المنتسبين إلى مدينة الناصرة (حيثُ نشأ السيد المسيح) كما هو شائع، بل بمعنى الذين نصروا عيسى.

---

(٢٥) لعل المرجع العربي الوحيد الذي ذكر هذا الاسم هو **معجم البلدان** لياقوت الحموي حيث نقرأ: «دير أبّون، ويقال أبيون وهو الصحيح: بقردى بين جزيرة ابن عمر وقرية ثمانين قرب باسورين، وهو دير جليل عندهم فيه رهبان كثيرة، ويزعمون أن به قبر نوح ﷺ، تحت أَزَجَ عظيم لاطئ بالأرض يشهد لنفسه بالقدم، وفي جوفه قبر عظيم في صخر زعموا أنه لنوح ﷺ».

بعد هذا التحديد الذي كان لا بُدَّ منه (خصوصاً وقد ذهب بعض الكتاب العرب المعاصرين إلى حدّ القول بأن هذه الفرقة هي التي «حضرت» لظهور محمد ﷺ في صورة نبي، بتخطيط وتدبير من القس ورقة بن نوفل عم خديجة زوج الرسول، الأمر، الذي يضعنا إزاء «نظرية المؤامرة» مرة أخرى!)، أقول بعد هذا التحديد الذي قمنا به والذي يضع الأمور في نصابها (وهناك أمور أخرى قادمة)، نلقي نظرة على آراء هؤلاء «النصارى» (الأبيونيين الفقراء فكرياً)، وهي آراء احتفظ لنا بها خصومهم في إطار التشهير بهم.

نقرأ في **موسوعة تاريخ أقباط مصر**، على الإنترنت في مقالة كتبها عزت اندراوس بعنوان «محمد والعقيدة الأبيونية»، أن «أقدم مرجع على الإطلاق عن الشيعة الأبيونية والتعريف بمعتقداتها هو ما في كتابات القديس يوستينوس الشهيد ١١٠ م ـ ١٦٥م الذي ذكرهم وتكلم على مبادئهم وفروضهم وقال: إنهم مدارس فكرية ظهرت في الكنيسة، وإنهم جماعات مختلفة. يحفظون السبت اليهودي والناموس الموسوي حفظاً حرفياً، وينادون بأن الختان ضروري للخلاص، وأن الناموس القديم فرض على جميع المسيحيين».

كما ينقل صاحب المقالة عن يوسابيوس أنهم: «اعتبروا السيد المسيح إنساناً عادياً قد تبرر (صار من الأبرار). . واعتبروه إنساناً عادياً كسائر البشر، ولد من أب هو يوسف (النجار) ومن أم هي مريم». (لاحظ التشهير بهم باتهامهم بالقول إن والد عيسى هو يوسف النجار، قريب مريم وخطيبها الذي تقول المصادر المسيحية والإسلامية إنه لم يدخل عليها). ويضيف صاحب المقالة: «والأبيونية هرطقة ظهرت أيام المسيحية الأولى لكنها لم تصبح مذهباً له أتباع ومراسيم دينية إلا في أيام حكم الإمبراطور تراجان سنة ٥٢م ـ ١١٧م». حينذاك «أصبح الأبيونيون جماعة كبيرة العدد انتشروا أصلاً في منطقة بابل وفي فلسطين والأقطار المجاورة وامتدوا أيضاً إلى روما وإلى جميع مراكز الشتات» (اليهودي). كما يذكر أن غريغوريوس قال عنهم: إنهم اتهموا بولس الرسول ـ صاحب نظرية التثليث ـ باتهامات مرة وقاسية، ووصفوه بأنه متمرد ومارق عن الناموس، وأنكروا سلطانه ورفضوا رسائله، واكتفوا باستعمال النصّ العبراني لإنجيل متّى (محرفاً) ولا يعيرون الأناجيل الأخرى أهمية تذكر»[٢٦].

---

(٢٦) ورد في كتب السيرة النبوية أن ورقة بن نوفل عم خديجة زوج النبي ﷺ «كان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية»، الأمر الذي يعني أنه كان من أتباع التيار الديني الذي ينتسب إلى المسيحية الأولى، إلى الذين ﴿**قالوا إنا نصارى**﴾. ومن هنا يمكن أن نفهم موقفه من الوحي المحمدي. راجع لاحقاً.

٤ ـ «عبد الله» آريوس والآريوسية

عرضنا في الفقرات السابقة لتطور موقف «الطائفة» التي نصرت عيسى، أولئك الذين عبّر عنهم القرآن بـ ﴿**الذين قالوا إنّا نصارى**﴾، والذين أطلقت عليهم المسيحية الرسمية القائلة بالتثليث (أرثوذوكسية وكاثوليكية) لقب «الأبيونيين»، فتعرفنا على منشئهم وعقائدهم، ونبهنا على غياب هذا اللقب غياباً مطلقاً في المصادر الإسلامية. ونريد في هذه الفقرة أن نعرض لفرقة أخرى ـ هي في الحقيقة امتداد للأولى ـ أكثر أهمية من الناحية التاريخية يسكت عنها أصحاب «نظرية المؤامرة» التي أشرنا إليها قبل[٢٧]. يتعلق الأمر بالفرقة الآريوسية نسبة إلى صاحبها آريوس الذي أحدث أزمة خطيرة في المجتمع المسيحي زمن «قسطنطين العظيم»، والذي تردد اسمه في مراجعنا العربية الإسلامية مع نوع من التعاطف معه بوصفه حامل عقيدة التوحيد والمناضل من أجلها، وذلك إلى درجة استحق معها في بعض نصوص كبار المفسرين والمؤرخين[٢٨] اسم «عبد الله» فأطلقوا عليه «عبد الله بن آريوس».

فمن هو هذا الرجل وما عقيدته وكيف تطورت حركته؟

سبقت الإشارة إلى أن المسيحية احتكت بالمدارس الفلسفية المنحدرة من اليونان، التي انتشرت في شمال الجزيرة العربية وشرقها (أنطاكية، حرّان، نصيبين، شمال سورية والعراق، وجنديسابور غرب فارس)، وكانت مدرسة الإسكندرية أهم هذه المدارس إذ ازدهرت فيها الفلسفة والعلوم منذُ عهد البطالمة (القرن الثالث قبل الميلاد) كما انتقلت إليها المسيحية في وقت مبكر (تأسست كنيستها القبطية عام ٤٢ للميلاد). وعندما ألفت الأناجيل الأربعة واتخذت المسيحية صورة عقيدة مرسمة حصل اصطدام بين الفلسفة والدين، فبرزت محاولات للتوفيق بين العقيدة التي تقررها تلك الأناجيل وبين ما تقرره الفلسفة اليونانية، من مبادئ ورؤى. وقد ازدهر هذا التيار التوفيقي في مدرسة الإسكندرية خاصة. وقد ذكرنا أن من أبرز من قام بذلك الأسقف الفيلسوف أوريجين (Origène) (١٨٥ ـ ٢٥٤م).

في ذلك المناخ الفكري، الذي عرفته مدرسة الإسكندرية الفلسفية، برز في

---

(٢٧) لسنا نعرف لماذا؟ ولسنا نفترض فيهم الجهل بها لأنها حاضرة في جميع النصوص التي تحدثت عن الفرق المسيحية، سواء النصوص التي يعتمدها الفكر المسيحي، الشرقي والغربي، القديم والمعاصر، أو النصوص العربية الإسلامية.

(٢٨) مثل: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: **البداية والنهاية**، وتفسير **ابن كثير**.

الكنيسة القبطية أسقف أصله من ليبيا واسمه آريوس (Arius, Arrious) مولود سنة ٢٧٠ ميلادية. كان قد درس في أنطاكية بشمال سورية ـ وكانت مركزاً فلسفياً ودينياً مهماً وقد انتشرت فيها آراء الموحدين من النصارى ـ ثُمّ جاء إلى الإسكندرية لمتابعة الدراسة بها فتأثر بأفكار أوريجين الفيلسوف وتحمس لها وصار يدعو إليها وينشرها، وكان فصيحاً قوي الشخصيّة، فتبعه كثير من رجال الدين وجمهور الشعب فقوي مركزه وعُيِّن في منصب أسقف كنيسة بوكاليس في الإسكندرية.

حدث ذلك عندما أعلن ثورته، حوالى عام ٣٢٣ للميلاد، على القول بألوهية المسيح، مؤكداً بشريته، مقرراً أن الآب وحده هو الإله، ومن هنا وُصِف هو واتباعه بـ «الموحدين». كان يقول: «إذا كان الله الأب مطلق الكمال، ومطلق السمو، ومطلق الثبات، وإذا كان منشئ كُلّ الأشياء من دون أن يكون ذاته صادراً عن أي شيء آخر فإنه من الواضح أنّ كُلّ شيء وكُلّ شخص آخر في العالم منفصل عن الله (. . .) وإذا كان كُلّ شيء منفصلاً عن الله، فلا يمكن أن يكون هناك إلا إله واحد. ولهذا فلا بُدَّ أن يكون المسيح قد خلق في زمن ما. ولا بُدَّ أن يكون معرضاً للتغير والخطيئة، وأنه لا يملك معرفة حقيقة فكر الله». وهكذا ينتقل آريوس بعقيدة ﴿**الذين قالوا إنا نصارى**﴾ والذين وصفوا بـ «الأبيونيين»، (الفقراء نظرياً ومذهبياً)، من مستوى «التقليد» (اليهودي) إلى مستوى التفكير النظري، فاعتبر من طرف المصادر الأوروبية والإسلامية على السواء زعيم «الموحدين».

المهم أن آراء آريوس الجريئة أحدثت أزمة خطيرة على الصعيدين الدينيّ والسياسي في العالم المسيحي. لقد انقسم الناس بشأنها إلى مؤيدين ومعارضين، فتولدت عن ذلك أزمة استمرّت أزيد من سنتين (٣١٨ ـ ٣٢٠م) تعرض خلالها كيان الإمبراطورية البيزنطية لخطر الانهيار المحقق. ومن أجل وضع حدّ لهذه الأزمة تدخل الإمبراطور «قسطنطين العظيم» إلى جانب آريوس أولاً، ثُمّ ما لبث أن عاد فوقف إلى جانب الكنيسة ورجالها، ودعا إلى عقد مجمع مسكوني في نيقيه (عام ٣٢٥ م) (Concile de Nicée)، لإيجاد حلّ كهنوتي لهذه المسألة. وقد قرر هذا المجمع طرد آريوس وأصحابه على أساس أنهم فرقة ضالة مبتدعة، كما وضع ذلك المجمع «قانون الإيمان» الذي رسَّم عقيدة التثليث.

قامت معارضة شديدة واسعة في وجه «قانون الإيمان» ذاك. رفضه آريوس وعارضه أتباعه، «الآريوسيون»، الذين نشطوا في الدعاية لمذهبهم التوحيدي «التنزيهي»، فاستطاعوا التأثير في كثير من أعضاء الكنيسة في فترات متقطعة لسنوات عديدة بعد مجمع نيقيه. ومع أن المجمع المسكوني المنعقد عام ٣٨١ م في

القسطنطينية قد رسَّم «قانون الإيمان» المكرس للتثليث، إلا أن أتباع آريوس قد استطاعوا الاستمرار في نشر مذهبهم التوحيدي في أنحاء كثيرة من الإمبراطورية البيزنطية: في سورية[٢٩] وفلسطين والأردن والعراق، واليمن، وفي جهات مختلفة من حوض البحر الأبيض المتوسط، وبالخصوص في شمال إفريقية وإسبانياً.

فعلاً، استطاع الآريوسيون تحويل الفزيقوط بإسبانيا إلى الآريوسية بقيادة الكاهن أولفيلا (أو ولفيلا) (Ulfila, Ulfilas ou Wulfila) (٣١١ ـ ٣٨٣ م) الذي اعتنق مذهب آريوس وترجم التوراة إلى لغة الفيزقوط. واستمرّ المذهب الآريوسي قائماً في إسبانيا ولم يتم القضاء عليه فيها إلا عندما اعتنق الملك ريكارد الأول الكاثوليكية عام ٥٥٩ م.

ويرى بعض الباحثين في هذا التغلغل لمذهب آريوس التوحيدي في إسبانيا عاملاً كان له تأثير كبير في تحوّلها إلى الإسلام بسهولة عندما فتحها طارق بن زياد عام ٩٢ هـ الموافق لـ ٧١١ ميلادية.

ونحن إذا كنا نولي هنا أهمية كبرى لهذا الرجل وفرقته فلأننا نجد في السيرة النبوية ما يدلّ بالقطع على أن الرسول ﷺ كان مهتماً بأتباع هذه الفرقة كما سنرى لاحقاً.

رابعاً: الجزيرة العربية كفضاء لحرية الاعتقاد

١ ـ مدارس فلسفية.. وصراع دولي

لم تكن الآريوسية، ولا الفرق الأخرى ممن ينتمون إلى «الذين قالوا إنا نصارى»، هي وحدها التي عرفتها الجزيرة العربية قبل الدعوة المحمدية. لقد كان شمال هذه الجزيرة وجنوبها ميادين لصراع ديني/ سياسي كان امتداداً مباشراً للحرب الضروس التي قامت بين الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية والتي حدثت آخر حلقاتها خلال الدعوة المحمدية. كان الشمال الغربي للجزيرة العربية (سورية وما حولها) إلى جانب مصر، تحت النفوذ البيزنطي (الروم) بينما كان الشمال الشرقي منها (العراق) تحت النفوذ الفارسي. أما الجنوب (اليمن) فقد كان خاضعاً أو متحالفاً، تارة مع هذا الجانب وتارة مع الجانب الآخر.

ولم يكن هذا الصراع السياسي العسكري ليترك الساحة الدينيّة والفكرية هادئة.

---

(٢٩) هذا ولا بُدّ من الإشارة إلى أن يوحنا الدمشقي، أول رجل دين دخل في جدال مع المتكلمين الإسلاميين في العصر الأموي قد اعتبر الإسلام وطيد الصلة بـ «البدعة الآريوسية» بسبب عقيدة التوحيد.

لقد كان طبيعياً أن ينعكس أثره على الفكر المسيحي الذي قلنا إنه كان يعيش مشكلة تحديد طبيعة المسيح خصوصاً بعد أن أصبحت عقيدة التثليث الركن الرئيسي في «قانون الإيمان» الذي قررته الكنيسة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية. والنتيجة «تحريم» المخالفين واضطهادهم وإقصاؤهم.

وهكذا تحوّل شمال الجزيرة العربية وجنوبها إلى مسرح لنشاط الفرق الدينيّة والفلسفية التي تمّ إقصاؤها من المركز فغدت تقوم بأنواع من النشاط «التبشيري» أو الفلسفي المعادي لعقيدة المركز. وكما أشار القرآن إلى الموحدين «الذين قالوا إنا نصارى» ممتدحاً موقفهم، أشار كذلك إلى عقائد الفرق الأخرى بما في ذلك المذهب الرسمي القائل بالتثليث والمذاهب الأخرى التي انشقت عنه ولكن من دون أن تتبنى موقف عقيدة الموحدين الذين اعتبروا عيسى إنساناً وليس إلهاً ولا جزءاً من الإله ولا مظهراً من مظاهر الألوهية.

أما الكنيسة الرسمية التي جعلت التثليث عقيدة لها فقد اتخذ القرآن منها موقفاً واضحاً في قوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلا إِلَه وَاحِد﴾**(٣٠) **﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾**(٣١). أما الفرق الأخرى التي انشقت عن الكنيسة الرسمية وحاولت تجاوز عقيد التثليث بخطاب فلسفي، يطرح مشكلة العلاقة بين ما هو إلهي وما هو بشري، (بين اللاهوت والناسوت)، فقد انحصرت في اثنتين رئيسيتين: إحداهما حاولت تجاوز هذه المشكلة بالفصل بين الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية في شخص المسيح، بينما حاولت الأخرى الجمع بينهما في كُلّ واحد.

أما الفرقة الأولى(٣٢) فقد سميت باسم مؤسسها نسطوريوس (النسطورية) الذي ظهر في أنطاكية شمال سورية مؤكداً اتحاد اللاهوت والناسوت في شخص المسيح، وكون مريم هي والدة المسيح الإنسان لا غير، ناكراً ومستنكراً اعتبارها «أم الإله» كما تنص على ذلك العقيدة الرسمية. لقيت آراؤه اهتماماً كبيراً، فاستدعي إلى القسطنطينية وعين بطريركاً لها. ولكن رجال الدين في الكنيسة القبطية بالإسكندرية، وكانت أكثر تعصباً لعقيدة التثليث، شنوا عليه حملة قوية، فكانت النتيجة أن رفض

---

(٣٠) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة،» الآية ٧٣.

(٣١) نفس المرجع، «سورة المائدة،» الآية ٧٥.

(٣٢) لا بد من الإشارة إلى فرقة الشمشاطي، أتباع بولس الشمشاطي أسقف أنطاكية سنة ٢٦٠م. وقد أنكر هو الآخر ألوهية المسيح وقال عنه إنه مجرد بشر رسول، فحورب وطرد، وقد بقي لمذهبه أتباع حتّى القرن السابع الميلادي.

المجمع الكهنوتي، المنعقد في أفسوس عام ٤٣١ م، العقيدة النسطورية وقرر نفي صاحبها نسطوريوس إلى البتراء في بلاد العرب سنة ٤٣٦(وتوفي سنة ٤٥١م). ومع ذلك، فقد انتشرت العقيدة النسطورية، في العراق وفارس حيثُ حصل تبنيها هناك، فاستقلت الكنيسة النسطورية لتصبح الكنيسة الشرقية في مقابل الكنيسة الغربية التي كان مقرها الأساسي في القسطنطينية. ومع أن النسطورية تفصل مريم عن عقيدة التثليث مستنكرة اعتبارها أمّاً للإله فإن احتفاظها بالأقنومين الآخرين (الآب والابن) قد جعلها، في نظر القرآن، في مستوى واحد مع الفرقة اليهودية التي قالت «عزير ابن الله»، ولذلك جمع بينهما في قوله تعالى: **﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**[٣٣].

وإلى جانب الفرقة النسطورية، وضداً على تعاليمها، قامت المدرسة اليعقوبية (نسبة إلى مؤسسها يعقوب البرادعي) لتؤكد القول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح (Monophysisme). يقول أصحاب هذه الفرقة إن المسيح «أقنوم واحد إلاَّ أنّه من جوهرين. وربما قالوا: طبيعة واحدة من طبيعتين. ويشرح الشهرستاني عقيدة هذه الفرقة فيقول: «فجوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث تركبا تركيباً، كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهراً واحداً، أقنوماً واحداً، وهو إنسان كُلّه وإله كُلّه. فيقال: الإنسان صار إلهاً ولا ينعكس. فلا يقال: الإله صار إنساناً. (وذلك) كالفحمة تطرح في النار فيقال: صارت الفحمة ناراً ولا يقال: صارت النار فحمة، وهي في الحقيقة: لا نار مطلقة ولا فحمة مطلقة بل هي: جمرة». ويضيف الشهرستاني: إن هؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾**[٣٤].

تعرضت اليعقوبية (=الأرثوذوكسية) هي الأخرى للمنع والتحريم في المجمع الكهنوتي المنعقد في خلقيدونيا عام ٤٥١ م وكان لها أتباع في الشام وما بين النهرين على عهد الإمبراطورية البيزنطية. وقد امتزج خلافهم مع الكنيسة الرسمية الكاثوليكية بمشاعرهم الوطنية، ضدّ المحتل البيزنطي، فأعلنوا الثورة عليه وتمسكوا بالعداء له. ومن هنا نظروا إلى الفتح العربي على أنّه تحرير لهم من تسلط البيزنطيين الذين حكموا بلادهم.

---

(٣٣) نفس المرجع، «سورة التوبة،» الآيتان ٣٠ ـ ٣١.

(٣٤) نفس المرجع، «سورة المائدة،» الآية ١٧.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن هذه الاضطرابات والاختلافات على مستوى العقيدة المسيحية في العالم البيزنطي قد امتدت جنوباً إلى إثيوبيا (الحبشة) حوالى ٣٢٠م. فقد نجح رجلان سوريان في تنصير ملكها عندما أنقذاه من الغرق في البحر الأحمر. وكمكافأة على ذلك اعتُمِد أحدهما من طرف بطريك الإسكندرية أثناس (Athanase) (٢٩٨ ـ ٣٧٣ م) كأول أسقف في إثيوبيا فصارت بذلك كنيستها تابعة لكنيسة الإسكندرية. وحوالى ٤٨٠ م قدم إلى الحبشة تسعة رهبان عرفوا بـ «القديسين التسعة» قاموا فيها بنشر المسيحية حاملين إليها الرهبنة والمذهب اليعقوبيّ (Monophysisme) ومع ذلك لم تخل الحبشة من حضور الآريوسية كما سنبين ذلك لاحقاً.

٢ ـ في البحث عن الدين الجديد . .

أبرزنا في الفقرة السابقة كيف أن شمال الجزيرة العربية كان قد صار، بعد ترسيم عقيدة التثليث، ملجأ للفرق الدينيّة المحرمة تدعو فيه لمذاهبها وتمارس نوعاً من المعارضة للمحتل: الإمبراطورية البيزنطية. ونضيف الآن ظاهرة أخرى وهي ما تتيحه الجزيرة العربية من إمكانيات للتواصل والدعاية بسبب خلوها من دولة مركزية من جهة، وبفضل الطرق التجارية العالمية التي كانت تشقها من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق، من جهة أخرى. وإذا أضفنا إلى ذلك وجود مراكز دينية مهمة ـ لم تكن مكة إلا واحداً منها ـ تحج إليها القبائل العربية وتقيم حولها الأسواق، ليس فقط لتبادل السلع بل أيضاً لـ «الأشعار والأفكار والقصص والأخبار»، أدركنا كيف أن جزيرة العرب في «الجاهلية» لم تكن تقع خارج العالم، بل لربما يمكن القول إنها كانت تشكل مجالاً لتلاقي الموجات التي كانت تنبعث باستمرار من «قطبي» العالم يومئذ.

إن استحضار هذه الصورة العامة (البانورامية) ضروري في ما نعتقد لفهم تلك الظاهرة التي اصطلح مؤرخو السيرة النبوية على التعبير عنها بـ «دلائل النبوة»، أي «البشارات» والتطلعات التي بشرت ومهدت للدعوة المحمدية. يتعلق الأمر أساساً بظاهرتين متكاملتين: تبشير بعض الرهبان من اليهود والنصارى بقرب ظهور نبي جديد، من جهة، والرحلة والسياحة للبحث عن «الدين الحقّ»، دين إبراهيم، من جهة أخرى. ولا بُدّ من النظر إلى هاتين الظاهرتين ليس فقط من خلال ما تصرحان به، بل أيضاً من خلال ما تسكتان عنه. نقصد بذلك أنهما كانتا نوعاً من الدعاية ضدّ الإمبراطوريتين المتحاربتين والتبشير بقرب سقوطهما. وبما أن الدعاية في ذلك العصر، وفي جميع العصور تقريباً، توظف الدين مطيّةً للتواصل، وبما أن نجاح هذا النوع من السلاح يقتضي تجاوز الخلافات والرجوع إلى «أصل» سابق، فإنه من

المفهوم تماماً أن يطرح شعار «العودة إلى دين إبراهيم»، جدّ الجميع (اليهود والنصارى والعرب)، دين الحنيفية.

تؤكد الروايات التي جمعها مؤرخو السيرة النبوية انشغال الناس، قبل قيام الدعوة المحمدية، بترقب نبي جديد، مع ظهور ميول توحيدية في مختلف أجزاء جزيرة العرب، لدى كثير من الرهبان والقساوسة وغيرهم ممن تصفهم مصادرنا بكونهم «حنفاء» يبحثون عن الدين الحنيف دين إبراهيم عليه السلام. وقد قام بعضهم برحلات وسياحات من أجل ذلك. والقول بنبي جديد معناه التنبؤ بقرب نهاية النظام الدينيّ/ السياسي الذي قام على أساس دعوة نبي سابق. وبعبارة أخرى معناه التبشير بقرب سقوط الإمبراطورية التي تبني كيانها على تفسيرها للدين السابق. النبي الجديد سيأتي ليصحح الدين، ولكن أيضاً ليبشر بسقوط الدولة التي انحرفت بالدين. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الطموح في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٣٥]. والجدير بالإشارة هنا أن سورة الأعراف مكية، بمعنى أنها نزلت قبل الاحتكاك باليهود والنصارى في المدينة، فهي تنتمي إلى «قرآن الدعوة» وليس إلى «قرآن الدولة».

٣ ـ سلمان الفارسي والرحلة لطلب الدين الجديد

من هؤلاء الذين اشتهروا في مصادرنا بالبحث عن الدين الجديد سلمان الفارسي الذي يحكي بنفسه عن رحلته. ومع أن حكايته لهذه الرحلة كانت ذات طابع قصصي، وبالتالي لا بُدّ أن يتخللها ما يتخلل القصص والحكايات عادة من إبداعات الخيال، فإنها ترسُم، مع ذلك، مساراً لا يتناقض مع الوقائع التاريخية التي ذكرناها من قبل.

إن قصة سلمان الفارسي تدل بوضوح على أنّه كان هناك بين الكنائس والأسقفيات، في جزيرة العرب قبيل الإسلام، ما يشبه أن يكون تنظيماً ـ عبر الجزيرة كلها ـ يبشر بقرب ظهور نبي جديد ويجسم الرغبة في البحث عن الحقيقة الدينيّة، أو عن الدين الحقيقي. وفي ما يلي ملخص هذه القصة كما نقلها ابن إسحاق، رواية عن ابن عباس الذي قال إنه سمعها من سلمان نفسه[٣٦].

---

(٣٥) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٧.

(٣٦) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٢١٤.

يقول سلمان عن نفسه إنه فارسي الأصل من أهل إصبهان وأنه من عائلة كانت تعتنق المجوسية. وقد حدث ذات يوم أن مرّ بكنيسة تقام فيها الصلاة فأعجب بأصوات المصلّين، فدخل الكنيسة وتحدث مع القيِّم عليها الذي يبدو أنّه أثر في سلمان الشاب إلى درجة جعلت هذا الأخير يعبر عن رغبته في الالتحاق بدين هذه الكنيسة في مركزه الأصلي. ولما علم منه أن مركز هذا الدين يقع في الشام طلب من القيِّمين على الكنيسة تسفيره مع أول قافلة تجارية تتجه إلى الشام. وفي الشام التحق بأسقف في كنيسة، ودخل في خدمته يصلي معه ويتعلم منه. ولما لاحظ أن هذا القس «رجل سوء»، يأخذ الصدقات التي تدفع للكنيسة ويكنزها ذهباً ومالاً، نفر منه. وعندما توفي جاء أتباع الكنيسة بأسقف آخر زاهد في الدنيا، فأقام معه سلمان. وعندما حضرته الوفاة طلب منه سلمان أن يرشده إلى من هو مثله من رجال هذا الدين، فأوصاه بالالتحاق برجل دين في الموصل كان على المذهب الذي كان عليه هو. ويواصل سلمان رحلته من أسقف تحضره الوفاة ويوصيه بالذهاب بعد وفاته إلى أسقف في مدينة أخرى. وهكذا فمن إصبهان إلى الشام إلى الموصل إلى عمورية. وعندما حضرت الوفاة أسقف عمورية طلب منه سلمان أن يرشده إلى أسقف مثله. فأجابه الأسقف قائلاً: «أي بني! والله ما أعلم هل أصبح اليوم أحد من الناس على مثل ما كنا عليه فآمرك به أن تأتيه. ولكنه قد أطل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب». غادر سلمان عمورية قاصداً بلاد العرب برفقة ركب من التجار باعوه في الطريق إلى رجل يهودي، ثُمّ باعه هذا الأخير إلى يهودي آخر من بني قريظة ذهب به إلى يثرب (المدينة) فأقام بها عبداً، إلى أن قدم النبي ﷺ إليها مهاجراً من مكة، فعرف سلمان أنه الرجل الذي بشره به صاحبه في عمورية. اتصل سلمان بالرسول ﷺ وقص عليه قصته، فرحب به الرسول وهيأ له ما به يشتري حريته، فانتظم في سلك الصحابة.

٤ ـ شيخ الحنفاء . .

وقريب من قصة سلمان ما يروى(٣٧) في شأن من يعتبر «شيخ الحنفاء» قبيل ظهور الإسلام: زيد بن عمرو بن نفيل، ابن عم عمر بن الخطاب. تقول الروايات إنه «كان يرغب عن عبادة الأصنام وعابها، فأولع به عمه الخطاب سفهاء مكة وسلطهم عليه فآذوه فسكن كهفاً بحراء، وكان يدخل مكة سراً. ثُمّ «خرج إلى الشام يلتمس لدى أهل الكتاب دين إبراهيم ويسأل عنه، ولم يزل في ذلك في ما يزعمون حتّى

---

(٣٧) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤ ج في ٢ مج، ط ٤ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، [١٩٦٤ ـ ١٩٦٥])، ج ١، ص ٧٠.

أتى الموصل والجزيرة كلها، ثُمّ أقبل حتّى أتى الشام فجال فيها حتّى أتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم النصرانية، في ما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم. فقال الراهب: إنك تسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، لقد درس مَن عَلِمه، وذهب من كان يعرفه، ولكنه قد أطل خروج نبي وهذا زمانه». ويروى أنّه «كان إذا دخل الكعبة قال: «لبيك حقاً حقاً، تعبداً ورقاً، عذ بما عاذ به إبراهيم وهو قائم، إذ قال أنفي لك عانٍ راغم، مهما تجشمني فإني جاشم.». ويقال إنه كان «يرقب الشمس، فإذا زالت استقبل الكعبة فصلى ركعة بسجدتين، ثُمّ يقول: هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل، لا أعبد حجراً ولا أصلي له ولا آكل ما ذبح له ولا أستقسم بالأزلام وإنما أصلي لهذا البيت حتّى أموت». وروى البخاري وغيره أن النبي (ﷺ) التقى به قبل ابتداء الدعوة، وأنه سئل عنه أثناءها، فقال عنه: «يبعث يوم القيامة أمة وحده»[٣٨].

٥ ـ آخرون: منهم أنبياء أضاعهم أقوامهم

تذكر مصادرنا أن أربعة أشخاص اجتمعوا بمكة بمناسبة عيد لقريش، كانت تحتفل فيه عند أحد أصنامها، فتصادقوا على أن ينبذوا عبادة الأصنام ويطلبوا دين جدهم إبراهيم[٣٩]. وهؤلاء الأربعة هم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. وتقول الرواية إنهم تفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم. أما زيد بن عمرو بن نفيل فقد تحدثنا عنه. وأما عبيد الله بن جحش «فقد أسلم عند قيام الدعوة المحمدية ثُمّ هاجر مع المسلمين إلى الحبشة[٤٠]، فلما قدمها تنصّر وفارق الإسلام حتّى هلك هنالك نصرانياً». وأما عثمان بن الحويرث فقد ذهب إلى قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده». وأما ورقة بن نوفل عم خديجة زوج النبي ﷺ فتقول الروايات إنه «استحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها، حتّى علم علماً من أهل الكتاب». وأنه «كان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب». و«الإنجيل بالعبرانية» هو الإنجيل الذي كان المرجع الوحيد لـ ﴿**الذين قالوا إنا نصارى**﴾ (ومنهم الفرقة الأبيونية كما ذكرنا في فقرة سابقة). ويقول رجال الكنيسة الرسمية إن هذا الإنجيل المنسوب إلى متى، فيه تحريف كبير.

---

(٣٨) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، **البداية والنهاية** (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ج ٢، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٣٩) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١، ص ٢٢٢.

(٤٠) راجع: <http://sirah.al-islam.com/places.asp?p=%c7%e1%cd%c8%d4%c9>

والمسألة المطروحة هنا هي: أين يقع التحريف فعلاً؟ هل في الأناجيل الأربعة المكتوبة باليونانية والمبنية على عقيدة التثليث التي لم تكن معروفة في المسيحية الأولى؟ أم إن التحريف اختص به الإنجيل المكتوب بالعبرانية، إنجيل «الذين قالوا إنا نصارى» زمن المسيح نفسه؟

ليس من اختصاصنا الإجابة عن هذا السؤال. غير أنّه يمكن القول إنه بناءً على ما ورد في القرآن فإن التحريف لحق بالأناجيل التي تقول إن الله ثالث ثلاثة.

تنصّر ورقة ابن نوفل، إذاً، وصار عالماً من علماء «النصرانية العبرانية». وعندما جاء الوحي إلى محمد بن عبد الله في غار حراء ذهبت به زوجته خديجة إلى ابن عمها ورقة تطلب منه تفسير ما حدث لزوجها في غار حراء. ولما استمع ورقة إلى ما حكاه الرسول له قال: «هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى! يا ليتني فيها جذعاً (شاباً)! ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك»! وتضيف الرواية أن النبي سأله: «أوَ مُخْرِجِيَّ هُم»؟! أجاب ورقة: «نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. وقد توفي ورقة عند ظهور الإسلام[٤١]. وقيل سئل عنه النبي ﷺ فقال: «قد رأيته (في المنام) فرأيت عليه ثياب بياض، أبصرته في بُطنان الجنة (وسطها) وعليه السندس».

ومن الرهبان الذين تذكر كتب السيرة أنهم بشروا بنبوة محمد، وهو لا يزال بين التاسعة والثانية عشرة من عمره، الراهب بحيرا. كان هذا الراهب في بُصرى من أرض الشام يعيش في صومعة هناك. فلما سافر محمد بن عبد الله، مع عمه أبي طالب في ركب من التجار إلى الشام نزل الركب في بُصرى، فاستضافهم الراهب بحيرا. ولما تعرف الراهب على الشاب محمد أخذ يلقي عليه أسئلة حول حياته الشخصيّة، ومحمد يجيب. ثُمّ التفت الراهب إلى أبي طالب فقال له: «ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغُنَّه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم». ويضيف ابن إسحاق قائلاً: «زعموا في ما روى الناس أن زريراً وتماماً ودريساً ـ وهم نفر من أهل الكتاب ـ قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رآه بحيرا في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب، فأرادوه فردهم عنه بحيرا. وتضيف كتب السيرة أنّه عندما خرج محمد بن عبد الله

---

(٤١) تذكر بعض الروايات أن خديجة ذهبت أيضاً إلى الراهب عداس وأخبرته بما أخبرت به ورقة بن نوفل فكان جوابه نفس جواب ورقة. ولكن هذه الرواية التي تتحدث عن عداس الشيخ تتصادم مع رواية أخرى تتحدث عن عداس الغلام النصراني الذي كانت قريش تتهم الرسول بأنه هو الذي ينقل إليه ما في التوراة والإنجيل كما سيأتي بعد. وقد أثار صاحب «السيرة الحلبية» هذا التصادم وناقشه.

إلى الشام بمال خديجة ومعه خادمها ميسرة حدث الأمر نفسه. ذلك أنّه عندما نزلا تحت شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان «اطّلع الراهب إلى ميسرة فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي». ويضيف ابن إسحاق قائلاً: «وهذا الراهب الذي رأى النبي تحت الشجرة، ذكروا أن اسمه «نسطور»، وليس هو بحيرا»(٤٢). وهناك روايات أخرى مماثلة لم نذكرها تجنباً للتكرار.

ومن الحنفاء المشهورين أمية بن أبي الصلت الثقفي (من الطائف)، وكان تاجراً يذهب إلى الشام ويتصل بـ «أهل الكنائس من اليهود والنصارى وقرأ الكتب، وكان قد علم أن نبياً يبعث من العرب، وكان يقول أشعاراً على آراء أهل الديانة يصف فيها السماوات والأرض والقمر والملائكة، وذكر الأنبياء والبعث والنشور والجنة والنار، ويعظم الله عزّ وجل ويوحده.. ولما بلغه ظهور النبي محمد (ﷺ) اغتاظ لذلك وتأسف، وجاء المدينة ليسلم فندم ورجع إلى الطائف» ومات فيها(٤٣). وهناك روايات متعددة بشأنه، منها واحدة تقول: إنه هو الذي أراده تعالى بقوله: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين**﴾(٤٤). ويروى أن أبا سفيان كان قد رافقه في سفر، وأنه حكى عنه فقال: «خرجت أنا وأمية ابن أبي الصلت الثقفي تجاراً إلى الشام، فكلما نزلنا منزلاً أخذ أمية سِفْراً له يقرؤه علينا، فكنا كذلك حتّى نزلنا قرية من قرى النصارى فجاءوه وأكرموه وأهدوا له، وذهب معهم إلى بيوتهم، ثُمّ رجع في وسط النهار فطرح ثوبه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما فقال لي: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله؟»(٤٥) وهناك روايات متعددة تتحدث عن سؤال النبي (ﷺ) عنه، منها واحدة يقول صاحبها: «كنت ردفاً لرسول الله (ﷺ) فقال لي: أمعك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت نعم. قال: فأنشدني بيتاً، فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتا: إيه، حتّى أنشدته مائة بيت». وفي رواية أخرى أن النبي (ﷺ) قال عنه: «كاد أن يسلم»(٤٦).

ومن «الحنفاء» الذين تذكرهم المصادر: خالد بن سنان العبسي. وقد اختلف

---

(٤٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج ١، ص ١٨٠.
(٤٣) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ١، ص ٧٠.
(٤٤) **القرآن الكريم**، «سورة الأعراف،» الآية ١٧٥.
(٤٥) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٢، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(٤٦) نفس المرجع، ص ٢١٢.

المفسرون وكتّاب السيرة في شأنه اختلافاً كبيراً. بعضهم قال: إنه المقصود في قوله تعالى **﴿يا أَهْلَ الكتابِ قَدْ جآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ والله على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾**(٤٧). وبعضهم قال إنه هو المشار إليه في قوله تعالى: **﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما فعزّزنا بثالث﴾**(٤٨) يعنون بذلك أن الله بعث في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ثلاثة رسل، اثنان من بني إسرائيل، وواحد من العرب من بني عبس، وهو خالد بن سنان. وذهب فريق ثالث إلى القول إنه الرسول المبعوث إلى أصحاب الرس في قوله تعالى: **﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾**(٤٩).

هؤلاء الرواة جميعاً قد بنوا استنتاجاتهم هذه على أمرين: أولهما أنّه كان لخالد ابن سنان هذا «فعل خارق للعادة» وهو إطفاء نار عظيمة بما يشبه المعجزة، والثاني ما يروى من أن النبي (ﷺ) قد سئل عنه فقال: «ذلك نبي أضاعه قومه». وفي رواية أخرى: جاءت ابنته إلى النبي (ﷺ)»فبسط لها ثوبه وقال: بنت نبي ضيعه قومه(٥٠) ونقرأ في رواية أخرى: «أتت ابنته إلى رسول الله (ﷺ) فسمعته يقرأ: **﴿قل هو الله أحد. الله الصمد﴾**، فقالت: كان أبي يقول هذا(٥١) أما النار التي اعتبر إطفاؤه إيّاها نوعاً من الفعل الخارق للعادة (معجزة) فتذكر المصادر في شأنها أنها «ظهرت في العرب فافتتنوا بها، وكانت تنتقل، وكادت العرب تتمجس وتغلب عليها المجوسية (=عبادة النار)، فأخذ خالد بن سنان هراوة وشدّ عليها وهو يقول: «بداً بداً، كُلّ هدى، مودة إلى الله الأعلى، لأدخلنها وهي تتلظى، ولأخرجن منها وهي تتندى»، فأطفأها»(٥٢) ويروى في شأنه كذلك أنّه: «لما حضرته الوفاة قال لقومه: إن أنا دفنت فإنه ستجيء عانة من حمير، يقدمها عير ابتر، فيضرب قبري بحافره، فإذا رأيتم ذلك فانبشوا عني، فإني سأخرج فأخبركم بما هو كائن إلى يوم القيامة». فلما مات رأوا ما قال، فأرادوا أن يخرجوه، فكَرِه ذلك بعضهم وقالوا: «نخاف أن ننسب بأنا نبشنا عن ميت لنا»(٥٣).

---

(٤٧) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة،» الآية ١٩.

(٤٨) نفس المرجع، «سورة يس،» الآية ١٤.

(٤٩) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآية ٣٨.

(٥٠) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٢، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٥١) راجع: **القرآن الكريم**، «سورة الإخلاص،» الآيتان ١ ـ ٢؛ المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج ١، ص ٦٨، وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ص ٦٢ وما بعدها.

(٥٢) المسعودي، نفس المرجع، ج ١، ص ٦٨، وابن كثير، نفس المرجع، ج ٢، ص ١٩٧.

(٥٣) ابن قتيبة، نفس المرجع، ص ٦٢، والمسعودي، نفس المرجع، ج ١، ص ٦٨.

وعلى غرار شمال الجزيرة العربية ووسطها وغربها عرف شرقها حركات دينية حنيفية وأخرى نصرانية «موحدة»، أعني تلك التي وصفتها المسيحية الرسمية بالفرق المبتدعة الضالة، وفي مقدمتها النصارى «الآرْيُس»، أو الآريوسيون، كما شرحنا ذلك قبل. فقد ظهر في الناحية الشرقية رهبان من أمثال رئاب بن البراء الشتي، وريان بن زيد بن عمرو، وقسّ بن ساعدة الإيادي. وتحتفظ لنا المصادر بحكايات وأخبار ونصوص عن هذا الأخير. من ذلك هذا النصّ الذي يروى عن الحسن البصري وقد جاء فيه ما يلي: «كان الجارود بن المعلى بن حنش بن المعلّى العبدي نصرانياً حسن المعرفة بتفسير الكتب وتأويلها، عالماً بِسِيَر الفرس وأقاويلها، بصيراً بالفلسفة والطبّ، ظاهر الدهاء والأدب، كامل الجمال، ذا ثروة ومال، قدم على النبي (ﷺ) «عام الوفود» في رجال من بني عبد القيس ذوي آراء وأسنان، وفصاحة وبيان، وحجج وبرهان. فلما قدم على النبي (ﷺ) وقف بين يديه وأشار إليه وأنشأ يقول.. (=أنشد أبياتاً يفتخر فيها بقومه ويمدح النبي) ثُمّ ناداه النبي وتحدث معه فأسلم وأسلم معه أناس من قومه.. ثُمّ أقبل عليهم الرسول (ﷺ) فقال: أفيكم من يعرف قس بن ساعدة الإيادي؟ فقال الجارود: فداك أبي وأمي كلنا نعرفه.

كان قس يا رسول الله سبطاً من أسباط العرب... يضج بالتسبيح على مثال المسيح، لا يُقره قرار ولا تكنه دار ولا يستمتع به جار، كان يلبس الأمساح (اللباس من الشعر) ويفوق السياح، ولا يفتر من رهبانية... وهو القائل يوم عكاظ: «شرق وغرب، ويُتم وحزب، وسلم وحرب، ويابس ورطب، وأجاج وعذب، وشموس وأقمار، ورياح وأمطار، وليل ونهار، وإناث وذكور، وبرار وبحور، وحب ونبات، وآباء وأمهات، وجمع شتات وآيات إثرها آيات، ونور وظلام، ويسير وإعدام، وربّ وأصنام. لقد ضل الأنام: نشو مولود، ووأد مفقود، وتربية محصود، وفقر وغنى، ومحسن ومسيء. تباً لأرباب الغفلة، ليصلحن العامل عمله، وليفقدن الأمل أمله. كلاّ بل هو إله واحد، **ليس بمولود ولا والد**، أعاد وأبدى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والأنثى، ربّ الآخرة والأولى».

أما بعد: «فيا معشر إياد، أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد، وأين العليل والعواد؟ كُلّ له معاد. يقسم قس برب العباد، وساطح المهاد، لتحشرن على الانفراد، في يوم التماد. إذا نفخ في الصور، ونقر في الناقور، وأشرقت الأرض، ووعظ الواعظ، فانتبذ القانط، وأبصر اللاحظ، فويل لمن صدت عن الحقّ الأشهر، والنور الأزهر، والعرض الأكبر، في يوم الفصل، وميزان العدل. إذا حكم القدير، وشهد النذير، وبعد النصير، وظهر التقصير، ففريق في الجنة وفريق في السعير». وأضاف الراوي: «وهو القائل... (ثُمّ قرأ أبياتاً له) فقال رسول الله (ﷺ):

مهما نسيت فلن أنساه بسوق عكاظ على جمل أحمر يخطب الناس: اجتمعوا فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا وقولوا، وإذا قلتم فاصدقوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكُلّ ما هو آت آت، مطر ونبات، وأحياء وأموات، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وضوء وظلام، وليل وأيام، وبر وآثام. إن في السماء خبراً، وإن في الأرض عبراً، يحار فيهن البصر. مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تغور، وبحار لا تفور... ثُمّ قال: أيها الناس إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه وهذا زمانه وأوانه». ثُمّ قال: «ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟». ويضيف الراوي قائلاً: «والتفت رسول الله (ﷺ) إلى بعض أصحابه فقال: أيكم يروي شعره لنا؟ فقال أبو بكر الصديق: فداك أبي وأمي أنا شاهد له في ذلك اليوم حيثُ يقول: في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر»... إلخ، ويضيف الراوي أن النبي قال: «رحم الله قساً، سيبعث يوم القيامة أمة وحده»[٥٤].

خامساً: عقيدة الحنفاء، أو الحنيفية

وبعد فما هي بالضبط عقيدة هؤلاء الحنفاء؟ وما هو أصلها؟

لقد وصفها الرواة بأنها «دين إبراهيم». ولكننا لا نستطيع الجزم في ما إذا كانت هذه العقيدة قد نسبت إلى شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام قبل أن يبين القرآن ذلك ويؤكده، أم أن تلك النسبة إنما استقاها الرواة والمؤرخون من القرآن!

إننا لا نستطيع الإدلاء بجواب قطعي. ومع ذلك فالشائع في مصادرنا أن لفظ «الحنيفية» مشتق من «حنف» بمعنى مال. «ومعنى الحنيفية في اللغة: المَيْلُ»، وقد نسب إبراهيم إلى الحنيفية لأنه «حَنَفَ إلى دينِ اللَّه». وقيل «الحنيف في الجاهلية من كان يَحُج البيت ويغتسل من الجنابة ويَخْتَتِنُ، فلما جاء الإِسلام كان الحنيفُ هو: «المُسْلِمَ».

ويرى بعض الباحثين أن لفظ «حنف» عرفته اللغات التي كانت سائدة في المنطقة العربية قبل الإسلام. وبما أن المصادر العربية بما فيها المعاجم تربط بين التحنف والتحنث وتجعلهما بمعنى واحد فقد قال بعض المستشرقين إن اللفظ من أصل عبراني، من «تحنيوث»، فعرب إلى «التحنث».

ومهما يكن فما كان يميز من وصفوا بـ «الحنفاء» قبل ظهور الإسلام، في

---

(٥٤) ابن كثير، نفس المرجع، ج ٢، ص ٢١٥ ـ ٢١٧.

الروايات العربية، هو الاعتزال للعبادة مع الميل إلى الزهد والتوحيد وانتقاد عبادة الأصنام، الأمر الذي كان يثير عليهم غضب قريش وسكان مكة خاصة، حيثُ كان العرب يحجون إلى أصنامهم مع ما كان لذلك من رواج تجاري تستفيد منه قريش. ولهذا كانت قريش تضطهد هؤلاء الحنفاء فيضطرون إلى الانتقال من مكان إلى آخر، ومن قبيلة إلى أخرى، يدعون إلى عقيدتهم. كان منهم من كان نصرانياً أو تنصر وبقي على نصرانيته، وكان منهم من تركها واعتنق الإسلام عند ظهوره[٥٥].

ومن الباحثين من يرى أن «الحنيفية» فرقة من «النصارى»[٥٦] يقوم مذهبها على التوفيق بين اليهودية والنصرانية في مسألة التوحيد والتثليث، معتمدين في ذلك على إنجيل منسوب إلى الحواري متى يقول عن عيسى إنه بشر من أم وأب، وإن أمه مريم وأباه يوسف النجار.

وإذا صحّ هذا الرأي فإن ظاهرة الحنفاء هذه ستكون امتداداً مباشراً أو غير مباشر لمذهب آريوس. وكما بينا ذلك بتفصيل من قبل، فإن مذهب آريوس القائل بالطبيعة البشرية للسيد المسيح قد انتشر في شمال الجزيرة العربية من سورية وفلسطين إلى العراق وفارس، وأن دعاة هذا المذهب كانوا يجوبون أطراف الجزيرة العربية، ولا بُدّ أن تكون دعوتهم قد وصلت إلى مكة، إما عن طريق الدعاة، أو طريق التجار القرشيين الذين كانوا على صلة مستمرة بالشام واليمن والحبشة، كما سنبين في الفصل التالي.

---

(٥٥) تذكر المراجع الإسلامية من بين الحنفاء: قصي بن كلاب الجد الأعلى للنبي (ﷺ)، وجدّه المباشر عبد المطلب، وقس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت، وأرباب بن رئاب، وسويد بن عامر المصطلقي، وأسعد أبو كرب الحميي، ووكيع بن سلمة الإيادي، وعمير بن جندب الجهني، وعدي بن زيد العيادي، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، وسيف بن ذى يزن اليمني، وورقة بن نوفل القرشي، وعامر بن ظرب العدواني، وعبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة، وعلاف بن شهاب التميمي، والملتمس ابن أمية الكناني، وزهير بن أبي سلمى، وخالد بن سنان بن غيث العبسي، وعبد الله القضاعي، وعبيد بن أبرص الأسدي، وكعب بن لؤي بن غالب القرشي.

(٥٦) لويس شيخو، **النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية**، مج ١، ص ١١٩.

الفصل الثاني

الدعوة المحمدية وعلاقاتُها الخارجية: الآريوسية في الإمبراطورية البيزنطية

أولاً: علاقة الدعوة المحمدية بملك الحبشة

من الأحداث التاريخية المهمة، التي رافقت الإسلام منذُ ظهوره في مكة، قرار النبي ﷺ فتح باب الهجرة لأصحابه المضطهدين إلى الحبشة، وكان ذلك أول مظهر للعلاقات الخارجية للدعوة المحمدية. ذلك أنّه في السنة الخامسة للنبوة، عندما تعاهدت قريش ضده وحاصرته هو وقرابته من بني هاشم في شِعب، بالجبل المطل على مكة، كان في ملك عمه أبي طالب، قال لأصحابه الذين اشتد عليهم أذى قريش: «لو خرجتم إلى أرضِ الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ، وهي أرضُ صدقٍ، حتّى يجعلَ اللّهُ لكم فَرجاً مما أنتم»[1].

ذلك ما حصل فعلاً، فقد هاجر كثير من أعضاء الجماعة الإسلامية الأولى إلى الحبشة، على دفعتين، وقد جعل النبي ﷺ على رأسهم ابن عمه جعفر بن أبي طالب وزودهم برسالة خاصة إلى النجاشي (= ملك الحبشة) سنورد نصها بعد. وغني عن البيان القول إن هذا القرار الذي اتخذه النبي (ﷺ) يدلّ، بما لا يدع مجالاً للشك، على أنّه كان يعرف حقيقة الوضع في الحبشة وميول ملكها الدينيّة. والسؤال الآن: ما هي حقيقة هذا الوضع أولاً؟ ثُمّ ما هي أصول تلك المعرفة؟

---

(١) أبو محمد عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، تراث الإسلام، ٤ ج في ٢ مج (القاهرة: [د. ن.، د. ت.])، ج ١، ص ٣٢٢.

١ ـ النجاشي في ضواحي مكة قبل تمليكه

يستفاد من مصادرنا أن الملك الذي تحدث عنه النبي ﷺ اسمه أصحمة بن أبحر. وقد ذكر السهيلي في **الروض الأنف**(٢) رواية عن عائشة تفيد أن هذا الملك كان قد أقام مدة من الزمن بجزيرة العرب، ما بين مكة والمدينة، عبداً عند قبيلة بني ضمرة، وذلك بعد أن باعه قومه لتاجر عربي، وهو طفل صغير، للتخلص منه كوارث للعرش. ولما حصلت خلافات حول وراثة الملك في الحبشة، بعد ذلك بسنين، استعاده قومه من جديد وملّكوه عليهم.

ويقول السهيلي إن طول مكثه في بلاد العرب، مكّنه من تعلم اللغة العربية. وهذا يؤكّد ما ذكرته مراجع أخرى من أن هذا النجاشي كان يعرف العربية، وأنه فهم ما قرأه عليه جعفر بن أبي طالب من سورة مريم (انظر لاحقاً). ويمكن أن نضيف أنه ربما استقطبه هناك بعض الأساقفة الآريوسيين، وأنه من هذه الطريق تعرف عليه النبي ﷺ قبل البعثة، الأمر الذي يفسره قوله ﷺ لمن انتدبهم للهجرة إلى الحبشة: «فإن بها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ، وهي أرضُ صدقٍ».

٢ ـ الآريوسية في اليمن

هذا، وتؤكد الأبحاث الأركيولوجية والأنثروبولوجية الحديثة أن الشعوب الساميّة التي سكنت الحبشة أصلها من جنوب الجزيرة العربية. أما مملكة أقسوم(٣)، التي ينحدر منها الحبشيون، والتي قامت في القرن الأول قبل الميلاد فقد غزت في القرن الثالث الميلادي جنوب الجزيرة العربية فتعززت بذلك العلاقات بين شطري البحر الأحمر. كان الأقسوميون يدينون بديانة متفرعة عن الديانات اليمنية. وفي سنة ٣٣٠ ميلادية اعتنق ملك أقسوم إيزانا (Ezana) وحاشيته **المسيحية**(٤) على المذهب اليعقوبيّ الذي يقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، وهو مذهب الكنيسة القبطية بمصر). وفي «تاريخ الكنيسة» أن الإمبراطور قسطنطين، الذي مال نحو مذهب آريوس في أول الأمر، عيَّن عام ٣٢٠ للميلاد أحد رجال الدين من أتباع آريوس أسقفاً على اليمن بغرض تأمين حرية التدين للتجار المسيحيين، وقد استطاع هذا

(٢) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام: السيرة النبوية**، قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرؤوف سعيد، ٤ مج (بيروت: دار المعرفة، [١٩٧٨]).

(٣) كانت هذه المملكة تضم جزءاً من الشمال الشرقي من إثيوبيا الحالية وجزءاً من جنوب إريتريا، قبالة اليمن. وهناك نقاش حول مدلول الحبشة في الاصطلاح الإسلامي القديم: هل يشير إلى السودان أم إلى إثيوبيا؟

(٤) نقلاً باختصار عن: *Encyclopedia universalis* (Paris: Encyclopedia universalis France, [s. d.]).

الأسقف تنصير رئيس القبيلة الحميرية على المذهب الآريوسي(٥). وإذاً فقد كان سكان أقسوم (الحبشة) يدينون بمذهب آريوس قبل تحولهم إلى اليعقوبية. وبما أن رجال حاشية النجاشي (الذي تحدث عنه النبي) قد ثاروا عليه عندما أعلن إسلامه (انظر لاحقاً) فإن ذلك يعني أنّه كان هو على مذهب آريوس، بينما اعتنقوا هم المذهب اليعقوبيّ.

هذا عن حقيقة الوضع في الحبشة عند قيام الدعوة المحمدية، وعن الظروف التي يحتمل أن يكون النبي ﷺ قد تعرف فيها على النجاشي في مكة، أو حولها، قبل استدعاء قومه له لتمليكه.

ثانياً: علاقة الهاشميين بالحبشة قبل الإسلام

١ ـ أبناء قُصيّ يشرفون على التجارة الدولية

أما أصول العلاقة بين النبي ﷺ والنجاشي المذكور فترجع إلى قرون قبل ظهور الإسلام. ذلك أنّه يستفاد مما تذكره كتب السيرة النبوية أن العلاقة بين ملوك الحبشة وبين رجالات بني هاشم من جدود النبي ﷺ ترجع إلى عهد قصي بن كلاب جدهم الأول الذي تولى الزعامة في مكة في القرن الخامس الميلادي. وكانت أهمية مكة، كمركز ديني ونقطة محورية في طرق التجارة العالمية، قد ازدادت منذُ القرن الخامس عندما سقطت الدولة الحميرية باليمن بيد الأحباش ونشبت بين الفرس والبيزنطيين حروب دامية، ما عرقل التجارة العالمية المارة بالعراق وحمل البيزنطيين على الاهتمام بطريق البحر الأحمر الذي لم يكن تحت النفوذ الساساني. ومع أن أنوشروان ملك الفرس قد أرسل حملة احتلت اليمن إلا أنّه لم ينجح في تقليص دورها التجاري لأن اليمن كانت بعيدة عن بلاد الفرس. وهكذا بقيت التجارة نشطة على طريق الشام/ اليمن مروراً بمكة.

كانت قريش تنتقل بتجارتها بين الشام واليمن في رحلتين: رحلة الصيف إلى الشام، ورحلة الشتاء إلى اليمن. وكان رؤساء هاتين الرحلتين أربعة إخوة (أبناء عبد مناف بن قصي) تقاسموا بينهم التجارة الدولية مع مكة: فهاشم بن عبد مناف بن قصي، تعاقد مع صاحب الشام (ممثل هرقل الروم) وأخذ منه عهداً تُؤَمِّنُ به تجارته

---

(٥) أفغراف سميرنوف، **تاريخ الكنيسة المسيحية**، نقله من اللغة الروسية الى اللغة العربية الكسندروس [جحا] مطران حمص وتوابعها (مصر: الكسندروس جحا، [١٩٦٤])، ص ١٩٥.

إليها[٦]، والأمر نفسه فعله أخوه عبد شمس مع ملك الحبشة (وكان تابعاً للروم البيزنطيين)، بينما تعاقد عبد المطلب الجد المباشر للنبي مع صاحب اليمن (ممثل ملك الحبشة)، أما نوفل فقد تعاقد مع ملك فارس. «فكان هؤلاء الإخوة يسمَّون» المُجيرين». فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة، فلا يُتَعَرَّض لهم». وهكذا كانت عائدات هذه التجارة، إضافة إلى عائدات الحج التي اقتسموها بينهم، مصدر ثراء طائل لحفدة قصي، من بني هاشم وبني أمية.

٢ ـ رحلة الشتاء والصيف. وأصحاب الفيل

ومعلوم أن القرآن قد سجل رحلات قريش التجارية بين الشام واليمن فقال تعالى: ﴿**لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾[٧].

في إطار «رحلة الشتاء والصيف» هذه، يجب وضع «حملة أبرهة» ـ عامل ملك الحبشة في اليمن ـ على مكة! وهي الحملة التي جرت عام ٥٧٠ ميلادية، سنة مولد النبي (ﷺ)، والتي استعمل فيها الفيل، فصارت تلك السنة معلماً يؤرخ به: «عام الفيل». كانت هذه الحملة ترمي إلى هدم الكعبة وتحويل حج العرب إلى قبلة باليمن للتخلص من دور قريش في التجارة الدولية بين اليمن والشام، ونقلها إلى يد اليمنيين، وبالتالي إلى الحبشة حليفة بيزنطة.

يعرض المفسرون لقصة أصحاب الفيل من خلال روايتين:

إحداهما تفيد أن أَبرهة الأشرم عامل النجاشي[٨] على اليمن «بنى القُلَّيس بصنعاء، وهي كنيسة لم يُرَ مِثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكان نصرانياً، ثُمّ كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك أيها الملِك كنيسة لم يُبْن مثلها لملِك كان

---

(٦) ذكر ابن سعد في **الطبقات الكبرى** أن «اسم هاشم عمراً، وكان صاحب إيلاف قريش، وإيلاف قريش دأب قريش. وكان أول من سَنّ الرحلتين لقريش ترحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشي فيكرمه ويحبوه ورحلة في الصيف إلى الشام وإلى غزة وربما بلغ أنقرة فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه». راجع: أبو عبد الله محمد بن منيع بن سعد، **الطبقات الكبرى**، تحقيق إدوارد سخاو ورفاقه (ليدن: [بريل]، ١٩١٧)، ج ١.

(٧) **القرآن الكريم**، «سورة قريش،» الآيات ١ ـ ٤. ويقصد برحلة الشتاء بالرحلة التي تمت إلى اليمن كما يقصد برحلة الصيف بالرحلة التي تمت إلى الشام. أما البيت فهو الكعبة وهو يشير إلى التجارة وعائدات الحج على أنها تؤمن الموارد لصدّ شبح الجوع عن الناس، وتمنعهم من الاقتتال. وقد حرّم القتل والعدوان في المسجد الحرام ومحيطه بما ورد في نص الآية الكريمة ﴿**وآمنهم من خوف**﴾.

(٨) ننبه إلى أن لفظ «النجاشي» لقب لملك الحبشة على غرار كسرى لقب ملك الفرس، وهرقل لقب إمبراطور الروم وإذاً ليس هذا النجاشي هو نفس النجاشي الذي هاجر إليه المسلمون بأمر من الرسول.

قبلك، ولست بِمُنْتَهٍ حتّى أصرف إليها حج العرب. ثُمّ أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثُمّ سار وخرج معه الفيل، وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفَظِعوا به، حين سمعوا أنّه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام». وكان أبرهة قد بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتّى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال أهل تهامة[٩] من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذٍ كبير قريش وسيدها؛ فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله».

أما الرواية **الثانية** فتذكر أن سبب حملة أبرهة «ما رُوي أن فِتْية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشيّ، فنزلوا على ساحل البحر (الأحمر) إلى بِيعة للنصارى، تسميها النصارى الهَيْكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارتحلوا؛ فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البِيعة ناراً، فاحترقت؛ فأتى الصرِيخ إلى النجاشي فأخبره، فاستشاط غضباً. فنظم حملة لغزو مكة وهدم الكعبة بقيادة أبرهة. فسار ومعه الفيل.

والروايتان تتفقان في أن «أهل مكة» عرفوا أنهم لا طاقة لهم بمقاومة حملة أبرهة فلجأوا إلى مفاوضته. وتلك مهمة أسندوها لوفد يرأسه كبيرهم يومئذ عبد المطلب جدّ النبي محمد (ﷺ) وكان قد تعاقد مع صاحب اليمن كما ذكرنا على أن يجير تجارته إليها. عرض الوفد «على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت» (الكعبة) فأبى عليهم . . . وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعب الجبال (المواضع الخفية بين الجبال) . . . أصر أبرهة على تنفيذ حملته، لكن حدث حادث أفشل حملته وشتت جنده، «فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلِكون بكلِّ مَهْلِك». روى ابن إسحاق «أن أولَ ما رُؤيت الحصبةُ والجُدَرِي بأرض العرب ذلك العام».

وعن هذه الحملة وفشلها تتحدث سورة «الفيل». يقول تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾**[١٠].

(٩) الشريط الساحلي الذي كانت تسلكه القوافل التجارية من خليج العقبة إلى باب المندب بالقرن الأفريقي.

(١٠) **القرآن الكريم**، «سورة الفيل،» الآيات ١ ـ ٥. بمعنى أنه أفسد خطتهم لهدم الكعبة، وأرسل ضدهم الطيور متتابعة تأتيهم من كل جهة ترميهم بحجارة من الطين، وقد قيل إذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدري، وأدى بهم ذلك إلى تحولهم إلى التبن الذي تأكله الدواب، وأصبحوا روثاً تدوسه بأقدامها.

٣ ـ أخوال النبي من اليمن . . والمسلمون أميل إلى الروم

لقد كان من الطبيعي، إذاً، أن تنشأ، بفعل هذه العلاقات التجارية الدولية، علاقات عائلية بين الهاشميين وبين بعض القبائل اليمنية. وهكذا كان أخوال النبي ﷺ من اليمن، وكانت أم أيمن بركة ـ حاضنته بعد وفاة أمه آمنة بنت وهب ـ حبشية، وكان بلال حبشياً . . وحسب ما ترويه مصادرنا فإن ملك الحبشة قد تعرف على الدعوة المحمدية في وقت مبكر بواسطة رجاله باليمن.

لنضف أخيراً، وليس آخراً، أن النبي وأصحابه كانوا أميل إلى الروم (لأنهم على النصرانية) ضداً على الفرس (المجوس) في الحرب التي نشبت بين هاتين الإمبراطوريتين في أوائل الدعوة المحمدية. وفي هذا الصدد تؤكد مصادرنا أنّه عندما انتصر الفرس على الروم في الحرب التي فتح فيها كسرى أبرويز القسطنطينية، فرحت قريش بينما ساء ذلك المسلمين. ويقول المفسرون إنه في هذا الموضوع نزل قوله تعالى: ﴿**آلم. غُلِبَتْ الرُّومُ. في أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. في بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾[١١]. ومعلوم أن سورة الروم من أواخر السور التي نزلت بمكة. وتفيد مصادرنا أن أباً بكر كان قد تحدى النصر الفارسي وقال إن الروم سيغلبون في الجولة القادمة، وتراهن مع بعض كبار قريش على ذلك ونال الرهان: فقد نشبت الحرب بين الفرس والروم مرة أخرى فغلبت الروم الفرس وكان ذلك بعد نحو سبع سنين من الرهان (عام ٦٢٧ م).

ثالثاً: مراسلات النبي (ﷺ) مع النجاشي

مما تقدم يتضح عمق ومتانة العلاقة التي كانت تربط بني هاشم بالحبشة عندما قرر النبي ﷺ تهجير أصحابه إليها. أما المذهب الدينيّ الذي كان عليه النجاشي آنذاك فيتضح مدى قربه من العقيدة الإسلامية من خلال الرسائل المتبادلة بينه وبين النبي ﷺ، والتي توجت بإعلان النجاشي إسلامه.

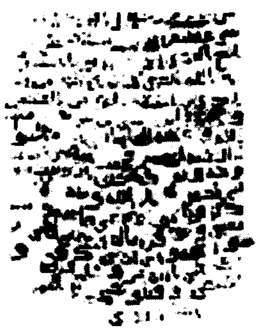
وفي هذا الصدد تورد مصادرنا نصّ الرسالة التي بعث بها النبي (ﷺ) إلى النجاشي يخبره فيها بأنه بعث إليه أولئك المهاجرين، وعلى رأسهم ابن عمه جعفر بن أبي طالب، ويوصيه بإكرامهم والاهتمام بهم. وتلك رسالة رددت مصادرنا القديمة نصها ثُمّ اكتشفت في القرن الماضي كوثيقة تاريخية لا غبار عليها. وهذا نصها:

---

(١١) نفس المرجع، «سورة الروم،» الآيات ١ ـ ٥. ويقصد بـ «أدنى الأرض» جنوب الشام.

١ ـ نصّ رسالة النبي إلى النجاشي. وجواب هذا الأخير

«بسم الله الرحمان الرحيم. من محمد بن عبد الله إلى النجاشي الأصحم[(١٢)] ملك الحبشة. سِلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول، الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخِه، كما خلق آدم بيده ونفخه. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبنى وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله. وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً، ونفراً من المسلمين، فإذا جاءك فأقْرِهم (أحسن ضيافتهم)، ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلّغت ونصحت، فاقبل نصحي. والسلام على من اتبع الهدى».



بجانبه صورة شمسية لوثيقة هذه الرسالة، كما اكتشفها المستشرق د. م دنلوب ونشرها عام ١٩٤٠. هذا ونشير إلى سقوط عبارة «بعثت إليك» من هذه الوثيقة. والنصّ الذي أثبتنا هو المتداول في جلّ المصادر[(١٣)].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى تورد مصادرنا ردّ النجاشي بالرسالة التالية:

«بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر. سلام عليك يا نبي الله ورحمته وبركاته، من الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام. أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثُفْرُوقا، إنه كما قلت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعت لابن عمك وأصحابه وأسلمت على يديه لله ربّ العالمين».

٢ ـ وقريش تفشل في مسعاها لدى النجاشي . .

نظم المسلمون عملية الهجرة في سرية تامة واتجهوا إلى الحبشة حيثُ وجدوا من ملكها وأهلها ما توقعه النبي ﷺ من أمن على أنفسهم ودينهم. فلما بلغ ذلك

---

(١٢) الأصحم في اللغة: نعت، سواد يضرب إلى الصفرة.

(١٣) نقلاً عن: **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، جمعها محمد حميد الله، ط ٥ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٥).

قريشاً أرسلت وفداً إلى النجاشي يتكون من شخصيتين معروفتين عندهم في ميدان التجارة والمفاوضة هما عبد الله بن أبي بن ربيعة وعمرو بن العاص «وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته». وعندما التقيا بالنجاشي وقدما له الهدايا حاولا إقناعه بكون المسلمين ينالون في عقيدتهم من السيد المسيح وطلبا أن يسلّم إليهما من هاجر إليه منهم فرفض أن يفعل ذلك قبل أن يستمع إلى ممثلي المهاجرين، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب عم النبي.

وهكذا استدعى النجاشي ممثلي الوفد وعقد معهم مجلساً، بحضور أساقفته، وسأل رئيس الوفد: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم؟ فشرح له جعفر بن أبي طالب ما جاء به الرسول (ﷺ) من عبادات ومثل أخلاقية إلخ. فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم. ثُمّ قرأ عليه صدراً من سورة مريم(١٤). وتقول الرواية إن النجاشي تأثر وبكى «حتّى اخضلّت لحيته»(١٥) ثُمّ قال: «إن هذا، والذي جاء به عيسى، لَيَخْرُج من مشكاة واحدة». ثُمّ استقبل موفدي قريش وقال لهما: «انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما».

عاد وفد قريش إليه من الغد فقالوا له: «أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم واسألهم عما يقولون فيه». وتقول الرواية إن النجاشي أرسل ثانية إلى ممثلي المهاجرين، وسألهم: «ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب: «نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذارء البتول». عندها خاطب النجاشي وفد المهاجرين قائلاً: «اذهبوا فأنتم الآمنون». ثُمّ أمر برد هدايا قريش إلى وفدها.

---

(١٤) يقول تعالى في مستهلها: ﴿كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفياً. قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً. وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً. يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً. يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً. قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً. قال كذلِك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تَكُ شيئاً. . . واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً. قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً. قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾ [القرآن الكريم، «سورة مريم،» الآيات ١ ـ ٢١].

(١٥) يفترض بعض كتاب السيرة أن يكون النجاشي قد تعلم العربية من خلال زياراته للجزيرة العربية. هذا ويذكر بعض المستشرقين أنّه كان هناك تداخل لغوي بين لغة قريش ولغة الحبشة، من قبيل تبادل الكلمات والتعابير. . .

وتضيف مصادرنا (ابن إسحق وغيره) أنه في تلك الأثناء قامت ثورة ضدّ النجاشي تريد عزله، فلما أراد الخروج لمحاربة الثوار «أرسل إلى جعفر ابن أبي طالب وأصحابه، فهيأ لهم سفناً، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هزمتُ فامضوا حتّى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا». وتضيف الرواية أن النجاشي «عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم». ثُمّ عقد اجتماعاً مع جماعة من قومه المناهضين له فخاطبهم: «يا معشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى؛ قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة؛ قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبد! قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله». فأخرج النجاشي الرسالة التي كتبها وقرأ ما فيها أنه «يشهد أن عيسى بن مريم»، وتضيف الرواية: «فرفضوا ذلك منه وانصرفوا عنه».

وإلى ذلك تذكر مصادرنا أن النجاشي بعث وفداً إلى النبي (ﷺ) يتألف من اثني عشر رجلاً من الحبشة، وسبعة قسيسين، وخمسة رهبان ينظرون إليه ويسألونه، فلما لقوه، وقرأ عليهم ما أنزل الله عليه بكوا وآمنوا به ورجعوا إلى النجاشي. ويقول المفسرون إنه في هؤلاء نزل قوله تعالى: **﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾**[١٦]. وتذهب بعض الروايات إلى القول إن النجاشي كان على رأس ذلك الوفد غير أنّه مات في الطريق، «في رجب من سنة تسع للهجرة» وأن الرسول ﷺ نعاه إلى الناس وصلى عليه.

لنضف أخيراً رواية ذكرها ابن إسحاق مفادها أن أبا نيزر مولى علي بن أبي طالب، كان ابناً للنجاشي نفسه! وأن عليا وجده عند تاجر بمكة فاشتراه منه وأعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين. وذكروا «أن الحبشة مرج عليها أمرها بعد النجاشي، وأنهم أرسلوا وفداً منهم إلى أبي نيزر، وهو مع علي ليملكوه ويتوجوه ولم يختلفوا عليه، فأبى وقال: ما كنت لأطلب الملك بعد أن منَّ الله علي بالإسلام».

رابعاً: الآريوسية في عقر دار الإمبراطورية البيزنطية

لم يكن النجاشي وحده آريوسي العقيدة، بل إن رسائل أخرى من رسائل النبي ﷺ تكشف عن حقيقة أن الآريوسية كانت لا تزال حاضرة في قلب

(١٦) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآية ١٩٩. هذا يقتضي أن يكون الوفد قد جاء المدينة في السنة الثانية للهجرة، سنة نزول سورة آل عمران، أو بعدها.

الإمبراطورية البيزنطية على الرغم من المنع الذي صدر في حقها من مجمع نيقيه (عام ٣٢٥ م).

ذلك أنّه في أواخر السنة السادسة للهجرة قرر الرسول ﷺ الذهاب إلى مكة للقيام بالعمرة، وكانت ما تزال مقراً لقريش، فتجهز لذلك وانطلق في موكب مسالم فاعترضت قريش طريقه، ثُمّ قرر الطرفان التفاوض فكان الاتفاق المعروف بـ «الحديبية»، وينص على وقف الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات[١٧] وعودة الرسول ذلك العام بدون عمرة على أن يأتي في العام الموالي فيدخل مكة بعد أن تخرج منها قريش فيقيم فيها ثلاثة أيام يؤدي خلالها مناسك العمرة.

لقد كان هذا الاتفاق بمثابة اعتراف «دبلوماسي» من طرف قريش بالنبي ﷺ كرئيس جماعة تشكل ما يشبه دولة في المدينة، دار هجرته. اغتنم الرسول حصول هذا الاعتراف فكتب رسائل إلى ملوك ورؤساء الدول المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام. ومن خلال ردّ الفعل الإيجابي لرسائل النبي (ﷺ)، إلى كُلّ من هرقل إمبراطور الروم والمقوقس حاكم الإسكندرية يتضح بجلاء أن حركة «الموحدين» الآريوسيين كانت متغلغة في هذه المناطق، ليس في الأوساط الشعبية فحسب، بل أيضاً في الأوساط الرسمية، من رجال الدولة ورجال الدين. وفيما يلي نصوص بعض هذه الرسائل[١٨]، وفي مقدمتها رسالة النبي إلى هرقل، وقد كان يومئذ معسكراً في بصرى جنوب الشام، وقد ورد في هذه الرسالة اسم «الأريسيين» بصريح العبارة.

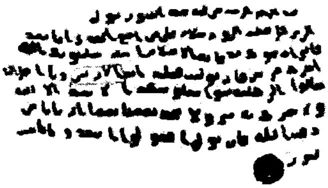
١ ـ رسالة النبي إلى هرقل و«إثم الآريوسيين»!

نصّ الرسالة: «بسم الله الرحمان الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية

(١٧) عاد النبي ففتح مكة قبل ذلك في السنة الثامنة للهجرة.

(١٨) ذكر ابن إسحق أن النبي (ﷺ) بعث دِحية بن خليفة الكلبي إلى قَيْصر، ملك الروم. وبعث عبد الله بن حُذافة السَّهْمي إلى كسرى، ملك فارس. وبعث عَمرو بن أمية الضَّمْري إلى النجاشي، ملك الحبشة. وبعث حاطب بن أبي بلتَعة إلى المقوقس، ملك الإسكندرية. وبعث عمرو بن العاص السَّهمي إلى جَيْفر وعياد ابني الجُلُندي الأزديين، ملكي عمان. وبعث سَليط بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، إلى ثُمامة بن أثال، وهوذة ابن علي الحنفيين، ملكي اليمامة. وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي، ملك البحرين. وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمْر الغساني، ملك تخوم الشام. قال ابن هشام: بعث شجاع بن وهب إلى جبلة بن الأيهم الغساني. وبعث المهاجر ابن أبي أمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحِمْيَري، ملك اليمن. كانت ردود فعل هؤلاء مختلفة، ومن أبرز الذين كان لهم ردّ فعل سلبي كسرى أبرويز ملك الفرس الذي مزق رسالة الرسول إليه.

الإسلام: أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم **الأريسيين.** و﴿**يا أهل الكتاب تعالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾(١٩).



صورة رسالة النبي إلى هرقل وقد وضعنا كلمة «الارس» داخل مستطيل، ويمكن أن تقرأ هكذا: الأَرْيُسِين. نسبة إلى آريوس. وقد تمّ العثور على النسخة الأصلية لهذه الرسالة(٢٠).

وما يهمنا هنا الآن هو كلمة «الأريسيين» الواردة في هذه الرسالة. ذلك أن المفسرين اضطربوا في شرح معنى هذه الكلمة (التي قرأوها بفتح الهمزة وكسر الراء والسين وتشديد الياء الأولى: الأَرِيسِيّين) وقد فسرها معظمهم بـ «الأكارين» أي «الفلاحين». وعلى هذا الأساس جعلوا معنى قول النبي ﷺ «فإن توليت فعليك إثم الأريسيين» كما يلي: «وإن لم تدخل في الإسلام فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام»! وبعضهم قال: «الأريسيون هم العشارون يعني أهل المكس». وآخرون رووا العبارة هكذا «عليك إثم الفلاحين» إلخ. هذا في حين أن الصواب يقتضي قراءة هذه الكلمة كما يلي: «أَرْيُسِيِّين» (فتح الهمزة وسكون الراء وضم الياء الأولى. نسبة إلى آريوس). وقد خيل إلينا في بداية الأمر أن أي أحد لم ينتبه إلى هذا المعنى، ولكننا عندما عدنا نراجع مصادرنا المختلفة انتبهنا إلى أن «لسان العرب» ذكر من جملة آخر ما ذكر بصدد هذه الكلمة قوله: «وقيل: إنهم أَتباع عبد اللَّه بن أَريس». كما وجدنا في **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** لابن حجر العسقلاني (كتاب التفسير) ما نصه: وحكي «أن الأريسيين ينسبون إلى عبد الله بن أريس: رجل كان تعظمه النصارى ابتدع في دينهم أشياء مخالفة لدين عيسى». وأضاف: «وذكر ابن حزم أن أتباع عبد الله بن أريس كانوا أهل مملكة هرقل».

وهكذا فرسالة النبي ﷺ تتضمّن دليلاً قاطعاً على أنه كان يدرك، عندما بعث رسالته تلك، أن كثيراً من المنضوين تحت إمبراطورية هرقل هم من «الموحدين» أتباع مذهب آريوس، ولذلك حمّله مسؤولية الإثم الذي يترتب عليه إذا هو لم يسلم، لأن عدم إسلامه سيحول دون إسلام رعيته.

---

(١٩) **القرآن الكريم،** «سورة آل عمران،» الآية ٦٤.

(٢٠) راجع: **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.**

٢ ـ «ضغاطر» آريوسي آخر يسلم!

هناك خطأ مماثل وقعت فيه مصادرنا في حكايتها لردّ فعل هرقل على رسالة النبي ﷺ. فقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن هرقل أجاب مبعوث الرسول إليه، واسمه دحية بن خليفة قائلاً: «إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته، فأذهب إلى «ضغاطر» الأسقف، فاذكر له أمر صاحبكم فهو والله أعظم في الروم مني، وأجوَز قولاً عندهم مني، فانظر ما يقول». وتضيف الرواية أن دحية ذهب إلى «ضغاطر» هذا فأخبره بما جاء به من رسول الله إلى هرقل وبما يدعوه إليه فقال ضغاطر: «صاحبك والله نبي مرسل نعرفه بصفته، ونجده في كتبنا باسمه». ثُمّ دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداً ولبس ثياباً بيضاً ثُمّ أخذ عصاه فخرج على الروم وهم في الكنيسة فقال: «يا معشر الروم إنه قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله عزّ وجل. وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن أحمد عبده ورسوله». قال دحية: «فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه حتّى «قتلوه» (كذا!). فلما رجع دحية إلى هرقل وأخبره الخبر قال: «قد قلت لك إنّا نخافهم على أنفسنا. فوَالله كان أعظم عندهم وأجوز قولاً مني»(٢١).

٣ ـ جواب هرقل على رسالة الرسول ﷺ

أما جواب هرقل عن رسالة النبي ﷺ فتورد مصادرنا نصه كما يلي: «إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى. من قيصر الروم: إنه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريم. وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا. ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك».

٤ ـ رسالة النبي إلى «ضغاطر»

وتضيف مصادرنا أن النبي ﷺ كتب رسالة إلى «ضغاطر» الأسقف بعد أن علم من مبعوثه بموقفه وإعلان إسلامه، وهذا نصها:

«إلى ضغاطر الأسقف. سلام على من آمن. أما على إثر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمة ألقاها إلى مريم الزكية. وإني أومن بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي

---

(٢١) تذكر بعض الروايات أنّه لما ثار قسيسو الروم في وجه هرقل عندما أخبرهم برد فعله على رسالة النبي إليه، قال لهم: «إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم».

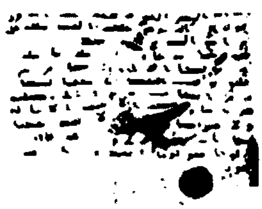
النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. والسلام على من اتبع الهدى».

أما لفظ «ضغاطر» أو «بغاضر»، كما في بعض المصادر، فقد حققه الأستاذ المرحوم محمد حميد الله. قال: إنه تعريب لكلمة أوتوكراتور (Autocrator)، وهي كلمة إغريقية تعني «الحبر الأعظم، خَلَفُ السيد المسيح على الأرض وذلك في مقابل (Pantocrator) الذي يعنون به المسيح، مصوراً في أعلى قبة الكنيسة كرمز لعودته منتصراً، ملك العالمين».

٥ ـ رسالة النبي إلى المقوقس

هناك رسالة أخرى من رسائل النبي ﷺ بنفس المناسبة إلى حكام الأقطار المجاورة، يكاد نصها ورد الفعل الذي أثارته يتطابقان مع الرسالتين اللتين بعثهما إلى النجاشي وهرقل وما تولد عنهما من ردود الفعل. يتعلق الأمر برسالته إلى المقوقس حاكم الإسكندرية، واسمه جريج بن مينا، حملها إليه حاطب بن أبي بلتَعة على رأس وفد من ستة أشخاص. وفي ما يلي نصّ الرسالة:

نصّ رسالة النبي إلى المقوقس: «بسم الله الرحمان الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم القبط. **﴿يا أهل الكتاب تعالوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**.



تمّ العثور على أصلها قرب أخميم في صعيد مصر[٢٢]. في أسفلها خاتم النبي من أعلى إلى أسفل هكذا: هكذا: الله ـ رسول ـ محمد (=محمد رسول الله)

٦ ـ جواب المقوقس

وتورد مصادرنا جواب المقوقس كما يلي: «لمحمد بن عبد الله من المقوقس. سلام، أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن

(٢٢) راجع: **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة.**

نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنّه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسلك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام». هذا وتجمع مصادرنا على أن إحدى الجاريتين هي مارية القبطية التي ولدت للنبي ابنه إبراهيم.

والمثير للانتباه هنا هو قول المقوقس «وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنّه يخرج بالشام»، الأمر الذي يدلّ دلالة واضحة على أن الآريوسية وتوقعات الحنفاء ودعايتهم قد امتدت إلى رجال الدولة في الإمبراطورية البيزنطية(٢٣).

خامساً: خلاصات... وآفاق

وبعد، فماذا يمكن أن نسجله من نتائج من هذه الجولة التي قمنا بها في هذا الفصل والفصل السابق والتي عرضنا فيها وقائع وتطورات عرفتها الجزيرة العربية في علاقتها مع محيطها، قبيل وأثناء قيام الدعوة المحمدية؟

ومن دون الذهاب إلى استخلاص نتائج، ما زالت تحتاج إلى مزيد بحث وحفر، نسجل هنا شعورنا بأننا قد تمكنا من جمع شتات حقائق تاريخية على درجة كبيرة من الأهمية نعتبرها ضرورية في أي فهم للقرآن، وبالتالي للإسلام، يريد أن يؤسس رؤية معاصرة بالمعنيين اللذين شرحناهما في كتابنا **نحن والتراث**: أقصد رؤية معاصرة للدعوة المحمدية، أعني لزمانيتها وفضائها الثقافي من جهة، ومعاصرة لنا نحن أبناء القرن الحادي والعشرين على صعيد الفهم والمعقولية.

صحيح أن القضايا التي عرضناها هي قضايا قديمة، ولكن فقط على صعيد الزمن الطبيعي، وأما على مستوى الزمن الثقافي فقد بقيت وما زالت حية إلى اليوم، الأمر الذي يعني أنها مسائل غير منتهية، كانت منذُ ابتداء الدعوة المحمدية إلى اليوم موضوع جدل وأخذ ورد، فضلاً عن أنها كانت تُطرح وتُناقش، كُلّ منها بمعزل عن الأخرى. أما الآن، وبعد هذا الذي قدمنا في هذه الجولة، فيمكن القول إن كثيراً من الغموض الذي كان يلفّ هذه المسائل قد زال، وإن كثيراً من الشكوك التي كانت تحوم حولها لم يعد هناك ما يبررها. وهكذا:

ـ فمسألة التبشير بالنبي محمد في الفكر الدينيّ السابق على الإسلام، والذي كان مهيمناً على الفضاء الثقافي الحضاري الذي ظهرت فيه الدعوة المحمدية، لم تعدْ تحتمل التكذيب بالطريقة التي كانت سائدة من قبل والتي كانت تعتمد على إقامة

(٢٣) راجع التفاصيل حول هذه الرسائل وغيرها في: نفس المرجع.

الحجة على أن «الإنجيل» ليس فيه مثل هذا التبشير. ذلك أنّه قد اتضح الآن أن المسألة لم تكن مجرد تبشير بـ «الأمي» الذي اسمه «أحمد» أو «محمد» بل إن المسألة كانت تتعلق، في الواقع، بوجود تيار ديني توحيدي قام في وجه نظرية التثليث التي رسمتها المجامع الكنسية برعاية أعلى السلطات في الإمبراطورية البيزنطية، تيار توحيدي اكتسى طابع المعارضة الفكرية والسياسية، وبالتالي الدينيّة، لدولة الاحتلال البيزنطي ومذهبها الدينيّ، من طرف شعوب الضفة الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط. لقد انطلقت هذه المعارضة، كما بيّنا في صورة ردّ فعل ديني على فكرة «التثليث» التي بنى عليها القديس بولس وغيره العقيدة المسيحية، بعد مرور أزيد من نصف قرن على وفاة عيسى عليه السلام.

ـ لقد أثارت نظرية التثليث غضب طائفة من اليهود الذين آمنوا بعيسى وقالوا نحن «أنصار الله»، والذين أشار إليهم القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِيَ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾**(٢٤). وهكذا سميت الطائفة التي آمنت بعيسى ونصرته باسم ينطبق على اختيارهم وهو «النصارى». وقد حاربهم خصومهم أصحاب التثليث وأطلقوا عليهم لقب «الأبيونيين» أي الفقراء فكرياً ونظرياً، تشهيراً بهم وتحقيراً.

ـ وعندما قام آريوس بثورته في القرن الرابع الميلادي متبنياً وجهة نظر أولئك «النصارى» الموحدين، ناشراً هو واتباعه عقيدة التوحيد هذه في أجزاء واسعة من الإمبراطورية البيزنطية، تحولت حركته إلى معارضة دينية سياسية. وكما شرحنا بشيء من التفصيل فإن الدعوة الآريوسية وروافدها كانت ترفض أن يكون عيسى عليه السلام إلهاً أو ابناً للإله، أو أن تكون أمه أما لإله. وبما أن الكنيسة، وبالتالي الدولة، قد رفضت في مجامع مسكونية رسمية مذهب آريوس وأصحابه والمتأثرين به، وفرضت تصوراً وحيداً للسيد المسيح أساسه التثليث، واعتبرت المذاهب الأخرى التي تميل إلى التوحيد مذاهب مبتدعة، فقد كان من الطبيعي، وهذا ما يحدث عادة، أن يقفز أصحاب المذهب المرفوض قفزة إلى الامام يتجاوزون بها النقاش حول طبيعة المسيح عيسى عليه السلام. وهكذا طرحوا فكرة النبي «المنتظر» الذي بشرت به نصوص بعض الأناجيل تصريحاً أو تلميحاً، أو على سبيل التأويل ـ لا فرق، لأن الإيمان بعقيدة دينية يكفي نفسه بنفسه، فلا يحتاج إلى برهان عقلي أو تاريخي!

---

(٢٤) **القرآن الكريم**، «سورة الصف،» الآية ١٤.

ـ في هذا الإطار، إذاً، تقع تلك الروايات المتعددة التي تنقل إلينا أخباراً وتفاصيل عن تصريحات كثير من الرهبان «النصارى» بقرب ظهور نبي جديد! وفي هذا الإطار نفسه يجب أن نضع تلك الحركة الواسعة التي انتشرت في جميع أجزاء الجزيرة العربية ـ تقريباً ـ والتي كانت تبحث عن «الدين الحقّ»، دين إبراهيم، والتي عرف أصحابها باسم «الحنفاء»، وهي الحركة التي أولاها الرواة والمؤرخون والمفسرون، منذُ ظهر الإسلام، اهتماماً خاصاً بوصفها كانت من دلائل نبوة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. وقد التقى النبي ﷺ مع بعضهم وسئل عن آخرين فامتدحهم جميعاً وقال عن بعضهم إنهم أنبياء أضاعهم أقوامهم.

ـ وذلك أيضاً هو المضمون التاريخي (ولنقل أسباب النزول) لكثير من الآيات القرآنية، المكية منها والمدنية، التي أكدت بوضوح لا لبس فيه انتماء الدعوة المحمدية إلى دين إبراهيم والإيمان بما أُنزل على جميع الرسل. من ذلك قوله تعالى مخاطباً المؤمنين بالدعوة المحمدية: **﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**(٢٥). وقوله: **﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَنَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾**(٢٦).

ـ لنضف أخيراً ملاحظة ذات مغزى. لقد كان الحديث يجري في الفصل السابق وهذا الفصل عن «النصارى»، سواء تعلق الأمر بالقرآن الكريم أو بنصوص من التراث. أما لفظ «مسيحي» بالمفرد و«المسيحيين» بالجمع فلم يردّ لهما ذكر قط في نصوص التراث الدينيّ الإسلامي، من تفسير وتاريخ وقصص أنبياء إلخ. وما يثير الانتباه أكثر أن هذا المصطلح («مسيحي» بالمفرد والجمع) لم يردّ قط في القرآن. لقد ذكر القرآن لفظ «المسيح» مراراً كلقب لعيسى بن مريم. أما النسبة إليه (مسيحي، مسيحيون، أو مسيحية) فلم تردّ قط، والأمر نفسه نلاحظه في المؤلفات الإسلامية القديمة إذ لم تذكر النسبة إلى «المسيح» إلا نادراً جداً. كما أن هناك اضطراباً كبيراً في قواميس اللغة عند محاولتها تحديد الأصل الذي اشتقت منه كلمة «المسيح» في اللغة العربية. قال في «**لسان العرب**»: «والمَسِيحُ: الصِّدِّيقُ وبه سمي عيسى عليه السلام؛ قال الأَزهري: وروي عن أَبي الهيثم أَن المَسِيحَ الصِّدِّيقُ؛ قال أَبو بكر: واللغويون

---

(٢٥) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ١٣٦.

(٢٦) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآيتان ٦٧ ـ ٦٨.

لا يعرفون هذا . . قال ابن سيده: والمسيح عيسى بن مريم، صلى الله على نبينا وعليهما، قيل: سمي بذلك لصدقه، وقيل: سمي به لأنه كان سائحاً في الأرض لا يستقرّ، وقيل: سمي بذلك لأنه كان يمسح بيده على العليل والأكمه والأبرص فيبرئه بإذن الله. قال الأزهري: أُعرب اسم المسيح في القرآن على مسح، وهو في التوراة مَشيحا فعُرِّبَ وغُيِّرَ، كما قيل مُوسَى وأصله مُوشَى».

وهذا المعنى الأخير هو الذي يتفق مع معنى لفظ (Christ) في اللغات الأوروبية بمعنى المسيح. وأصل الكلمة من اللاتينية (Christus) منقولة عن اليونانية (Kristos) وهي ترجمة لكلمة مشيحا العبرية، وفيها معنى «المسح بالزيت أو غيره للمباركة»(Onction)، كما فيها معنى «المهدي» (Messie) المخلص الذي بشرت به التوراة وهو بالعبرية (Jéhowach) وبالفرنسية والإنكليزية (Jesus)، وبالتعبير المسيحي العربي يسوع، وبالتعبير الإسلامي عيسى.

ونحن نعتقد أن هذا المعنى الذي أعطي لاسم «المسيح»، بمعنى المهدي المنتظر والمخلّص الذي سيعود، لا يتفق مع عقيدة القرآن. فالقرآن ينصّ على أن المسيح كان ومات مرفوعاً إلى السماء وانتهى أمره. أما الذين نصروه فإنما نصروه في دعوته إلى الله. قال تعالى: **﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**(٢٧). فالناس إزاءه كانوا فريقين: فريق صدقه وانخرط في دعوته إلى الله، وفريق كفر به.

ـ أما كون هؤلاء الذين ينتسبون إلى أولئك «النصارى الأوائل»، والآريوسيون منهم خاصة، قد اعتمدوا «إنجيلاً محرفاً»، مكتوباً بالعبرانية، منسوباً إلى الحواريّ متّى، فإن اعتقاد غيرهم في عقيدة التثليث التي لم تعرف زمن المسيح ﷺ، إنما يعتمدون تنظيراً لعلاقة الله بمريم والسيد المسيح صاغته عن طريق الاجتهاد المجامع المسكونية، وجعلت منه «قانون الإيمان» الرسمي. وإذا صحّ التعبير الذي وصفنا به الهدف، الصريح أو المضمر، من تكريس «قانون للإيمان» ذاك، أعني إحداث قطيعة مع اليهودية، تعطي المسيحية شخصيتها المستقلة، خصوصاً بعد أن اتهم اليهود بالوقوف وراء مقتل المسيح، فإن الفرق بين اليهودية والمسيحية سيكون من صنع أتباعهما وليس من صلبهما.

أما علاقة الإسلام بكل من اليهودية والمسيحية فهي ـ كما تتحدد بنصّ القرآن وليس كما يفهمها المفسرون والدعاة الواقعون تحت تأثير الصراع التاريخي،

---

(٢٧) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآية ٥٢.

السياسي والعسكري، الذي شهده تاريخ الديانات الثلاث ـ علاقة تحكمها شجرة نسب واحد: جذعها المشترك إبراهيم الخليل، شيخ الأنبياء، وفروعها الأنبياء المنحدرون من صلبه: قال تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾.

هل ندعو إلى نوع من رجوع المياه إلى مجراها؟ إلى قيام مصالحة تاريخية بين حفدة إبراهيم الخليل!

على كُلّ حال هناك مثل مغربي، ولعله عربي وعالمي، يقول: «لا يختصم إلا الإخوة». والحق أن الغريب لا يختصم مع الغريب لأنه لا شيء يربط بينهما!

الفصل الثالث

النبي الأمي: هل كان يقرأ ويكتب؟
الأفكار الْمُتَلَقَّاة ... عوائق معرفية

يدور الكلام في هذا الفصل حول مسألة كانت منذُ القديم موضوع نقاش وجدل: مسألة ما إذا كان نبينا محمد ﷺ يعرف القراءة والكتابة! ومع أن هذه المسألة تتعلق بالتاريخ أساساً، وتاريخ السيرة النبوية المحمدية خصوصاً، فإن كون القرآن قد وصف النبي محمداً ﷺ بأنه «أمي» يجعل منها عنصراً مهماً في الفضاء القرآني بحيث لا يمكن التعامل مع هذا الفضاء من دون تحديد مدلولها داخله ودورها فيه.

سننطلق في بحثنا هنا من فحص ما ذكره كتاب السيرة والمفسرون أولاً، لننتقل بعد ذلك إلى محاولة بناء فهم موضوعي لما ورد في القرآن في هذا الشأن، لنطل بعد ذلك على جملة وقائع وشهادات في الموضوع.

أولاً: اقرأ: ماذا أقرأ؟ . . أو ما أنا بقارئ! روايتان!

إن أول واقعة في السيرة النبوية وضعت كتاب هذه السيرة والمؤرخين، وغيرهم، امام مسألة ما إذا كان الرسول (ﷺ) يقرأ ويكتب أو لا، هي تلك التي رويت على لسان النبي نفسه حول الظروف التي رافقت أول اتصال للملاك جبريل به ليبشره بالنبوة والرسالة. وقد حفظ لنا كُلّ من كتّاب السيرة وجامعي الحديث وقدماء المؤرخين روايتين مرجعيتين لحديث يشرح فيه النبي بنفسه تفاصيل ذلك الحدث التاريخي الذي دشن عهداً جديداً في تاريخ البشرية، عهداً قوامه قيام دين سماوي جديد ـ إلى جانب اليهودية والنصرانية ـ سرعان ما أنشأ عالماً جديداً هو ما يعرف اليوم بالعالم الإسلامي.

١ ـ رواية ابن إسحاق

نبدأ برواية ابن إسحاق لأنه أسبق زمناً (٨٥ ـ ١٥٢هـ)، وقد ورد فيها ما يلي: «كان رسول الله ﷺ يجاور (يعتكف للعبادة) في حِراء (غار بجبل قرب مكة) شهراً من كُلّ سنة، وكان ذلك مما تحنَّثُ (تتعبد) به قريش في الجاهلية (. . .)، فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كُلّ سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به، ـ إذا انصرف من جواره ـ الكعبةَ قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثُمّ يرجع إلى بيته؛ حتّى إذا كان الشهر ـ الذي أراد الله تعالى فيه ما أراد من كرامته ـ من السَّنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى (غار) حراء، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله؛ حتّى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: فجاءني جبريل، وأنا نائم (في رؤيا المنام)، بنمط (وعاء) من ديباج (ثوب فارسي مزركش) فيه كتاب، فقال: اقرأ! قال (النبي): ما أقرأ؟ قال: فغتَّني به (ضمّني وعصرني) حتّى ظننت أنّه الموت! ثُمّ أرسلني فقال: اقرأ. قال (النبي): قلت: ما أقرأ؟ قال: فغتني به حتّى ظننت أنّه الموت، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ. قال، قلت: ماذا أقرأ؟ قال: فغتني به حتّى ظننت أنّه الموت، ثُمّ أرسلني، فقال: اقرأ. قال (النبي) فقلت: ماذا أقرأ؟ (ويضيف النبي): ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي؛ فقال: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علقٍ. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم**﴾[1]. قال (النبي): فقرأتها، ثُمّ انتهى. فانصرف عني، وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتاباً».

٢ ـ رواية البخاري

وفي **صحيح البخاري** (١٩٤ ـ ٢٥٦هـ) عن عائشة زوج النبي (بعد خديجة) أنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثُمّ حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثُمّ يرجع إلى خديجة (زوجته) فيتزود لمثلها، حتّى جاءه الحقّ، وهو في غار حراء. فجاءه المَلَك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ! قال (النبي) فأخذني فغطني حتّى بلغ مني الجهد ثُمّ أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثانية حتّى

(١) **القرآن الكريم**، «سورة العلق،» الآيات ١ ـ ٥.

بلغ مني الجهد، ثُمّ أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثالثة ثُمّ أرسلني فقال: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾**. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زمّلوني، زمّلوني (لففوني)، فزملوه حتّى ذهب عنه الروع»[٢].

هذا وقد أورد ابن جرير الطبري[٣] (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ) في تاريخه عدة روايات في نفس الموضوع، جاء فيها كلها جواب النبي على جبريل بصيغة: «ما أقرأ»؟ و«ماذا أقرأ». وبعض تلك الروايات رويت عن نفس المصدر الذي روى عنه البخاري، أعني: عائشة زوج النبي (ﷺ).

٣ ـ استفهام.. أم نفي؟

ما نريد لفت النظر إليه هنا أمران:

أولهما ذلك الاختلاف الذي بين صيغة جواب النبي لجبريل في كُلّ من رواية ابن إسحق وروايات الطبري من جهة («ما أقرأ»؟، «ماذا أقرأ»؟)، والصيغة الواردة في رواية البخاري (ما أنا بقارئ!)، من جهة أخرى[٤]. الصيغة الأولى استفهام يفيد ضمنياً أن النبي يعرف القراءة، فهو يطلب ماذا يقرأ؟ أما الصيغة الثانية فهي تنفي عنه معرفة القراءة: ما أنا بقارئ!

وإذا كان من الممكن حمل «ما» في «ما أقرأ» على النفي أيضاً (إضافة إلى الاستفهام)، فمن الممكن فعل عكس ذلك بالنسبة إلى الصيغة الأخرى «ما أنا بقارئ»، أعني حملها على الاستفهام (إضافة إلى النفي) على اعتبار الباء زائدة (قارن: ما أنا فاعل بكم؟). غير أن عبارة «ماذا أقرأ»؟ التي تكررت في روايات ابن إسحاق والطبري، لا يمكن حملها إلا على الاستفهام، وبالتالي يكون ردّ النبي على جبريل استفساراً عما يريد منه أن يقرأ، وليس نفياً لمعرفة القراءة.

يمكن أن يقال إن المقصود بالقراءة هنا ليس القراءة التي تعني التهجي في كتاب أو في ورق أو غيره، بل المقصود هو مجرد التلفظ بالأصوات التي تفيد معنى في اللغة، أعني القراءة، لا بمعنى «التتبع بالعين لحروف نصّ مكتوب والتعرف

---

(٢) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، ج ٣، الحديث رقم ٦٥٨١.

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك**، ٦ ج، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ج ١، ص ٥٣١.

(٤) اقتصرنا على هذه الروايات الثلاث وحدها لأن الروايات الأخرى منقولة عنها.

عليها ومعرفة الأصوات التي تخصها» (Lire, Read)، بل بمعنى استظهار ما تمّ حفظه وتلاوته (Réciter,Recite). وفي هذه الحالة سيكون مضمون طلب جبريل «اقرأ»، هو: أعد التلفظ بما ستسمع! والجواب المناسب في هذه الحالة هو الاستفسار: «ماذا أقرأ»؟ وليس النفي، إذ لا يعقل أن ينفي النبي عن نفسه القدرة على إعادة التلفظ بما يسمع! وإذا كان من الممكن القول إن عبارة «ما أنا بقارئ» تعني: ما أنا ممن يعرف «القراءة»، بمعنى القراءة في الكتاب، فهذا غير وارد لأن جبريل لم يطلب من النبي أن يقرأ في كتاب، وإن كان «لفظ «الكتاب» قد ذكر مرتين في رواية ابن إسحاق كما رأينا. وإذا فرضنا أن جبريل وضع أمامه كتاباً وقال له: «اقرأ»، فإنه لا يمكن أن يفعل ذلك لو لم يكن يعرف أن النبي يحسن القراءة في كتاب!

على أن الصيغة التي تفيد مجرد القراءة بمعنى التلاوة تناسب سؤال جبريل كما تناسب جوهر المسألة عند من يفهم من الوصف الذي وصف به القرآن النبي محمداً ﷺ، أعني «الأمي» في قوله «النبي الأمي»، على أنّه «عدم المعرفة بالقراءة والكتابة». غير أن هذا النوع من الفهم ليس ضرورياً في نظرنا، فليس من شرط النبي أن لا يعرف القراءة ولا الكتابة. ثمّ إنه لا يليق بنا أن نتصور أن من كمالات الإنسان الذي يختاره الله للنبوة أن يكون لا يعرف القراءة والكتابة! أما ما يوظف فيه هذا النوع من الفهم، من أن القرآن وحي من الله بدليل أن الموحى إليه به كان لا يعرف القراءة والكتابة، الأمر الذي يستدلون عليه بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾(٥)، فالحاجة إلى هذا النوع من الدليل غير قائمة، فضلاً عن أن معنى الآية لا يخدم هذا «الدليل»، كما سنرى لاحقاً.

هناك قرينة أخرى تدل على أن معنى القراءة، في ردّ النبي على جبريل بقوله «ماذا أقرأ؟»، ينصرف إلى «القراءة»، بمعنى القراءة في كتاب. هذه القرينة هي ورود لفظ «كتاب» في العبارة التي قال فيها النبي: «فجاءني جبريل، وأنا نائم، بنمط من ديباج فيه كتاب». وقوله «وهببت من نومي، فكأنما كتبت (الآيات التي قرأها عليه جبريل) في قلبي كتاباً». إن ذكر الكتاب في سياق هذا الحديث، مرتين، قرينة واضحة تشير إلى أن الأمر يتعلق بشخص يعرف الكتابة والقراءة ويقرأ في كتاب، ويريد أن يبين لمخاطبه نوع مشاعره عندما كان يخوض هذه التجربة مع جبريل. ومن دون إعطاء هذه الوظيفة للعبارتين اللتين ذكر فيهما النبي «الكتاب»، ستكونان فضلاً من القول، ونحن ننزه النبي (ﷺ) عن ذلك.

---

(٥) **القرآن الكريم**، «سورة العنكبوت،» الآية ٤٨.

ثانياً: النبي الأمي . . . والأمة الأمية

١ ـ الأمي والأميون في القرآن والحديث

على أن المسألة لا تنحصر في الحديث النبوي الذي يروي كيفية ابتداء الوحي، فهناك آيات من القرآن الكريم تصف الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه «أمي»، وأخرى تصف العرب وبعض الذين يدّعون أنهم من أهل الكتاب بـ «الأميين». وقد وردت هذه الآيات متسلسلة كما يلي، بحسب ترتيب النزول (تاريخ نزولها):

١ ـ قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾**(٦)، والمقصود النبي محمد ﷺ.

٢ ـ وقوله: **﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾**(٧). المقصود: أناس من العرب اعتنقوا اليهودية ولا علم لهم بالتوراة، وإنما يختلقون كلاماً ويقولون إنه من التوراة(٨).

٣ ـ وقوله: **﴿ومَنْ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا﴾**(٩). الذين أوتوا الكتاب: هم اليهود والنصارى، أما الأميون فهم العرب.

٤ ـ وقوله: **﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**(١٠). المقصود بـ «الأميين» هنا هم العرب، ومعنى العبارة: ليس علينا في غش العرب من حرج.

٥ ـ وقوله: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾**(١١). والمقصود: العرب.

---

(٦) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٧.

(٧) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٧٨.

(٨) يميل جميع المفسرين تقريباً إلى تفسير كلمة «أميون» في هذه الآية بالذين يجهلون القراءة والكتابة من اليهود. ونحن الذين نرى أن معنى «الأمي» و«الأميين» «والأمة الأمية» في القرآن والحديث ليس عدم المعرفة بالقراءة والكتابة نرجح ما قاله ابن عباس في معنى «أميون» في الآية أعلاه. قال في ما رواه الطبري: «الأميون قوم لم يصدّقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثُمّ قالوا لقوم سفلة جهال: هذا من عند اللّهِ. وقال: قد أخبر ـ القرآن ـ أنهم يكتبون بأيديهم، ثُمّ سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله».

(٩) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآية ٢٠.

(١٠) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآية ٧٥.

(١١) نفس المرجع، «سورة الجمعة،» الآية ٢.

الفهم السائد هو أن «الأمي» من لا يعرف القراءة والكتابة، فهل يصدق هذا على الآيات السابقة؟ الجواب عندنا بالنفي، لأن التقابل في كثير من هذه الآيات[١٢] هو بين طرف هو «الأمي» و«الأميون» من جهة، وبين طرف آخر هم «أهل الكتاب»، والمقصود بهم اليهود والنصارى، من جهة أخرى. وما به يفترق الطرفان هو أن الطرف الثاني لديه «كتاب» هو التوراة والإنجيل، والطرف الأول ليس لديه كتاب. فالأميون إذاً هم الذين ليس لديهم كتاب سماوي. وقد جاء القرآن ليكون لهم كتاباً خاصاً بهم.

نعم هناك حديث نبوي يروى بصيغة: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُب ولا نَحْسُب». وواضح أن لفظ هذا الحديث يفتح المجال لتأويلين: أحدهما أن تكون جملة «لا نكتب ولا نحسب» وصفاً لـ «الأمية» كأنك قلت: «نحن أمة أمية، من صفاتها أنها لا تكتب ولا تحسب»، أو تكون الجملة بدلاً أو عطف بيان، بمعنى أنها تفسر المعنى المقصود بـ «الأمية» في قوله «إنا أمة أمية». وفي الحالتين معاً لا يمكن أن يكون معنى «أمية» هو الجهل بالكتابة والحساب، لأن معنى هذا الحديث سيصبح حينئذ كما يلي: «نحن أمة تجهل الكتابة والحساب، لا تكتب ولا تحسب». وهذا تكرار لا معنى له. ومن هنا يبدو واضحاً أن معنى «الأمية» شيء آخر غير «لا نكتب ولا نحسب»! فكيف نفصل في هذه المسألة؟

٢ ـ الأمي والأميون في اللغة والاصطلاح

للفصل في هذه المسألة لا بُدَّ من الرجوع إلى المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة «أمي».

ـ المعنى اللغوي: تمدنا المعاجم العربية بما تعتبره المعنى الأولي الأصل للفظ «أمي»، فنقرأ فيها: «الأمي، الذي على خِلْقَة الأُمَّةِ لم يَتَعَلَّم الكِتاب فهو على جِبِلَّة أمه، أي لا يَكتُبُ. فكأنه نُسِب إلى ما يُولد عليه أي على ما وَلَدتْه أُمُّهُ عليه». وبهذا الاعتبار: «قيل للعرب: «الأُمِّيُّون»، لأنَ الكِتابة كانت فيهم عَزيزة أو عَدِيمة». وقيل أيضاً: والأُمِّيُّ: العَيِيّ الجِلْف الجافي القَليلُ الكلام؛ قيل له أُمِّيٌّ لأَنه على ما وَلَدَتْه أُمُّه عليه من قِلَّة الكلام وعُجْمَة اللِّسان»[١٣].

هذا المعنى اللغوي ليس نقلاً عن العرب، بل هو اجتهاد من علماء اللغة في

---

(١٢) ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [نفس المرجع، «سورة الجمعة،» الآيات ٣ ـ ٥].

(١٣) أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، ١٥ ج (بيروت: دار صادر، [١٩٥٥ ـ ١٩٥٦])، ج ١٢، ص ٣٤.

إيجاد أصل لكلمة «أمي» في لغة العرب، وهو «أصل»لا يستقيم مع الحديث المذكور والآيات السابقة لأنه يقوم على نسبة «الأمي» إلى الأم كما وضعته، على»عجمة اللسان والعي والجفاء»، وهي صفات لا تليق لا بمقام النبي محمد ﷺ ولا بمقام قومه وأمته.

والواقع أن لفظ «أمي» لفظ معرَّب، لا أصل له في اللغة العربية. وهذا ما يتضح من خلال معناه الاصطلاحي.

ـ المعنى الاصطلاحي: يرى كثير من اللغويين والمتكلمين والمفسرين أن لفظ «الأميين» يعني الذين ليس لهم كتاب ديني سماوي، فهم إذاً في مقابل «أهل الكتاب»، وبالتحديد اليهود أصحاب التوراة والنصارى أصحاب الإنجيل. وقد ذكر الراغب الإصبهاني نقلاً عن الفرّا قوله: الأميون: «هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب»! وفي هذا المعنى يقول الشهرستاني: «وأهل الكتاب كانوا ينصرون دين الأسباط ويذهبون مذهب بني إسرائيل، والأميون كانوا ينصرون دين القبائل ويذهبون مذهب بني إسماعيل»[١٤].

ويرى كثير من الباحثين أن اليهود كانوا يطلقون لفظ «الأمم» على غيرهم من الشعوب، أي على «الوثنيين» من عبدة الأصنام وغيرهم، وأن «الأمي» بهذا الاعتبار منسوب إلى «الأمم». فكما كان الرومان يطلقون على غيرهم من الأمم اسم «باربار» بمعنى «المتوحشون»، وكما كان العرب يطلقون على غيرهم من الشعوب لفظ «العجم» لكون كلامهم (بالنسبة إلى العربي) فيه عجمة لا يفهم، فكذلك كان اليهود يطلقون على غيرهم من الشعوب لفظ «الأميون»، أي المنسوبون إلى «الأمم» الأخرى التي ليس لديها كتاب منزل.

بهذا المعنى الاصطلاحي يجب فهم العبارات التي وردت فيها كلمة «أمي» و«أميين»، في الآيات السابقة: فـ «الأميون» في سياق الخطاب في تلك الآيات هم «العرب» وبالتحديد القبائل العربية في مكة. يشهد لهذا المعنى ما ورد في القرآن من آيات تربط «القرآن» بالعرب إلى جانب أخرى تربط «الكتاب» ـ والتوراة تحديداً ـ ببني إسرائيل، وذاك مثل قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾[١٥]. وقوله: ﴿**وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً**

(١٤) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، ٣ ج في ١ مج (القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ١٩٦٨)، ج ٢، ص ١٣.

(١٥) **القرآن الكريم**، «سورة الشورى،» الآية ٧.

وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِياً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾[١٦].

وواضح أن هذه الآيات تتحدث عن «القرآن» العربي اللسان في مقابل كتاب أهل «الكتاب»، وهم اليهود والنصارى. وهناك آيات أخرى تتحدث عن «المؤمنين» كطرف مقابل لـ «أهل الكتاب» أو «الذين أوتوا الكتاب» مثل قوله تعالى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إلا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إلا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُون وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾**[١٧].

تلك هي النصوص القرآنية التي لها علاقة بالسؤال الذي طرحناه في مستهل هذا الفصل: «هل كان النبي ﷺ يقرأ ويكتب»؟ ومن خلالها تبين لنا أن كونه (ﷺ) «نبياً أمياً» لا يعني بالضرورة أنّه لم يكن يعرف القراءة والكتابة، كما أن وصف القرآن للعرب بكونهم «أميين» لا يفيد بالضرورة أنهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون.

يبقى بعد ذلك قوله تعالى: **﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾**، وهي الآية التي يستدل بها جلّ المفسرين، إن لم نقل جميعهم، على أن النبي ﷺ لم يكن يعرف القراءة والكتابة. وسنعود إلى هذه الآية بتفصيل في فقرة لاحقة.

٣ ـ شهادات تفصل في الأمر..

أ ـ انتشار القراءة والكتابة في قريش

بعد التدقيق في مضمون كلمة «أمي» في القرآن، وبعد أن تأكد لدينا أن معنى هذا اللفظ لا يفيد ـ بالضرورة ـ أنّه ﷺ لم يكن يعرف القراءة والكتابة، يبقى علينا البحث في الشهادات التي يمكن أن تفصل في هذا الأمر، أعني الشهادات التي من شأنها أن تثبت أنّه ﷺ كان فعلاً يقرأ ويكتب.

لعل أول ما تجب الإشارة إليه في هذا الشأن أن الكتابة كانت منتشرة في مكة زمن النبي (ﷺ) وقبله. تشهد لذلك تلك اللائحة الطويلة من أسماء الصحابة الذين كتبوا للنبي (ﷺ)، وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وعلي وعثمان. أضف إلى ذلك أن بعض الروايات تشير إلى أنهم كانوا يقرؤون التوراة أيضاً. فـ «في رواية مالك عن عمر

---

(١٦) نفس المرجع، «سورة الأحقاف،» الآية ١٢.

(١٧) نفس المرجع، «سورة المدثر،» الآية ٣١. ويقصد بالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى. ويقصد بالذين آمنوا أولئك الذين آمنوا بالرسول محمد (ﷺ)، أما «الكافرون» فهم مشركو مكة.

رضي الله عنه أنّه قال: رآني رسول الله (ﷺ) وأنا أمسك مصحفاً قد تشرمت حواشيه، فقال: ما هذا؟ قلت: جزء من التوراة. فغضب وقال: والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»[١٨] هذا من جهة، ومن جهة أخرى ذكر ابن إسحاق في قصة إسلام عمر بن الخطاب أن هذا الأخير ذهب إلى بيت أخته غاضباً عندما قيل له إنها أسلمت، فدخل عليها في بيتها فوجدها مع ختنه وابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو، وعندهما خبّاب بن الأرتّ معه صحيفة فيها سورة (طه) يُقرِؤهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيّب خباب في مخدع لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها. وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما». وبعد مشاجرة طلب عمر الصحيفة وقرأ صدراً من سورة طه ثُمّ قال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه»! وكان ذلك سبب إسلامه.

ليس هذا وحسب، بل تؤكد مصادرنا أن قصي بن كلاب الجد الأعلى للنبي ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة، وأن جده المباشر عبد المطلب بن هشام كان يقرأ ويكتب[١٩]، وفي خبر آخر لابن إسحاق أن عبد المطلب كان قد نذر إن وُلد له عشرة أولاد» ثُمّ بلغوا معه حتّى يمنعوه، لينحرنَّ أحدهم عند الكعبة، فلما توافى بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثُمّ أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء للّه بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كُلّ واحد منكم قدحاً ثُمّ يكتب فيه اسمه، ثُمّ ائتوني، ففعلوا». إن ذلك يعني أن عبد المطلب جدّ النبي (ﷺ) وأولاده العشرة، بما فيهم عبد الله والد النبي، كانوا يعرفون القراءة والكتابة.

وإذا أضفنا إلى ذلك كُلّه أن النبي (ﷺ) كان قبل النبوة يتردد على الشام في تجارة لخديجة، التي تزوجته بسبب ما لمسته من أخلاقه وكفاءته، وأنه من غير المتوقع أن يكون جاهلاً بالكتابة والحساب وهو يقوم بمهام التجارة ـ بينما كان أقرانه ممن هم أقل شأناً منه يعرفون ذلك ـ أدركنا كم هي راجحة الآراء التي قالت بأن النبي (ﷺ) كان يعرف الكتابة والقراءة. وهذا في نظرنا لا ينال شيئاً من كونه كان نبياً رسولاً. فليس من شرط النبوة عدم المعرفة بالكتابة والقراءة. فالنبوة قائمة على الوحي، وليس على قراءة الكتب، كتب الدين أو غيرها.

---

(١٨) أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، **سنن الدارمي**. راجع أيضاً: أحمد بن محمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، الحديث رقم ١٤٣٤١.

(١٩) أبو الفرج محمد بن إسحاق بن النديم، **الفهرست**، تحرير غوستاف فلوغل واعتنى به بعد موته يوهانس روديغر وأوغست موللر، ٢ ج في ١ مج (ليبزيغ: فوغل، ١٨٧١ ـ ١٨٧٢).

ب ـ كتابة وثيقة صلح الحديبية، وشهادات أخرى!

على أن المسألة ليست مجرد استدلال، فهناك روايات وأخبار نقلت عن الصحابة تفيد ـ وبعضها يؤكّد ـ أن النبي (ﷺ) كتب وقرأ بهذه المناسبة أو تلك. وفي مقدمة تلك الأخبار ما روي بصدد صحيفة الحديبية. ففي الحديث المعروف بـ «حديث البراء»، الذي رواه مسلم في صحيحه بصدد صلح الحديبية، أن النبي (ﷺ) كلف عليا بن أبي طالب بكتابة عقد الصلح مع قريش، فقال له: «اكتب الشرط بيننا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فاعترض مُمثل قريش قائلاً: «لو نعلم أنك رسول الله تابعناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله». ويقول الراوي: «فأمر (النبي) علياً أن يَمْحَاها، فقال علي: لا والله لا أمْحَاها. فقال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم: أرني مكانها، فأراه مكانها فمحاها وكتب (النبي) ابن عبد الله»[٢٠] وقد روى البخاري في صحيحه الحديث نفسه مع إضافة الراوي عبارة «وليس يحسن يكتب» كجملة اعتراضية فجاءت العبارة كما يلي: «فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب ـ وليس يحسن يكتب ـ فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله»[٢١]!

وقد علق القرطبي في تفسيره[٢٢] على ذلك بقوله: «قال علماؤنا رضي الله عنهم: وظاهر هذا أنّه ﷺ محاً تلك الكلمة التي هي رسول الله ـ ﷺ ـ بيده وكتب مكانهاً ابن عبد الله».

وأضاف القرطبي: «ذكر النقاش عن الشعبي أنّه قال: ما مات النبي ﷺ حتّى كتب». وأشار القرطبي أيضاً إلى «حديث أبي كشة السلولي»ومضمنه: أنّه ﷺ قرأ صحيفة لعُيَيْنة بن حصن وأخبر بمعناه. وأضاف: «ونقل عن القاضي عياض أن معاوية كان يكتب بين يدي النبي (ﷺ) فقال له النبي: «ألق الدواة وحرف القلم، وأقم الباء، وفرق السين، ولا تعور الميم، وحسن الله، ومدّ الرحمن، وجوِّد الرحيم». ويرى بعضهم في كلامه (ﷺ) عن الحروف، بما ذكر، دليلاً على أنّه كان يعرف أشكالها. وشبيه بهذا ما ورد في حديث رواه البخاري جاء فيه أن النبي قال: «الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ، ثُمَّ تَهَجَّاهَا: «ك ف ر، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ»[٢٣]. كما

---

(٢٠) أبو الحسين مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، الحديث رقم ٣٣٣٦.

(٢١) البخاري، **صحيح البخاري**، باب عمرة القضاء، الحديث رقم ٤٠٠٥.

(٢٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**. ٢٠ ج (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٣ ـ ١٩٥٠)، ج ١٣، ص ٣٥١.

(٢٣) البخاري، نفس المرجع، الحديث رقم ٥٢٢١.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما حديثاً ورد فيه أن ابن عباس قال: «اشتد برسول الله ﷺ وجعه (في مرض وفاته) فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي فتنازعوا»[٢٤]. كما روى البخاري الحديث نفسه في صيغة أخرى ورد فيها أن النبي قال لمن حضروا بيته لعيادته أثناء مرض وفاته: «هلمّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده». ويضيف الراوي: «فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «قوموا». ويضيف الراوي: «فكان يقول ابن عباس: إن الرزية كُلّ الرزية (هي) ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، لاختلافهم ولغطهم»[٢٥]. ويقال إن ابن عباس قصد بهذا أنّه لو استجابوا لطلب النبي وأعطوه كتاباً يكتب فيه، لكتب وصية يوصي فيها بالخلافة لعلي بن أبي طالب من بعده. غير أن هذا مجرد تخمين. وما يهمنا نحن هنا هو أن النبي طلب أن يكتب وأنه لا أحد من المحيطين به استغرب منه ذلك، بل بالعكس كان فيهم من قال: «قرّبوا يكتب لكم كتاباً».

ج ـ تأويلات وتنازلات . .

وبما أن معظم المفسرين قد ربطوا بين إعجاز القرآن وبين «أمية» الرسول ﷺ، جاعلين من عدم معرفته للكتابة دليلاً على أن القرآن معجزة له، لم يستطع أن يأتي بمثلها من كان يقرأ ويكتب من خصوم دعوته رغم تحدي القرآن لهم، بما أنهم قد ذهبوا هذا المذهب، فقد صعب عليهم التسليم بكونه كان ﷺ يكتب ويقرأ، منذُ طفولته حتّى وفاته، فاضطربوا اضطراباً ملحوظاً امام الأحاديث والأخبار المذكورة أعلاه، التي تفيد صراحة أو ضمناً أنّه ﷺ كان يقرأ ويكتب. ومن مظاهر هذا الاضطراب تقديمهم «بعض التنازلات» وكأن الأمر يتعلق بموضوع من الموضوعات التي يقال فيها «الضرورات تبيح المحظورات».

وقد جمع الآلوسي البغدادي[٢٦] في تفسيره عدة أقوال بصدد هذا الموضوع فقال: «واختُلف في أنه ﷺ هل كان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا؟

---

(٢٤) نفس المرجع، الحديث رقم ٣٠٨٩.

(٢٥) نفس المرجع، باب مرض النبي (ﷺ) ووفاته، الحديث رقم ٤٢٣.

(٢٦) أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي الكبير، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ٣٠ ج (بيروت: دار إحياء التراث العربي، [د. ت.])، ج ٢١، ص ٤. والآلوسي من علماء القرن الثالث عشر الهجري.

فقيل: إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة، واختاره البغوي في **التهذيب**، وقال: إنه الأصح. وادعى بعضهم أنّه ﷺ كان يعَلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها. . فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياب تَعَرَّف الكتابة حينئذ». ويضيف الآلوسي: «وروى ابن أبي شيبة وغيره: ما مات ﷺ حتّى كتب وقرأ». وقال: «وروى ابن ماجه عن أنس قال: قال ﷺ: رأيت ليلة أُسْرِي بي مكتوباً على باب الجنة «الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر». وعلق الراوي قائلاً: «والقدرة على القراءة فرع الكتابة». وأضاف الآلوسي: «وممن ذهب إلى ذلك أبو ذر عبد بن أحمد الهروي، وأبو الفتح النيسابوري، وأبو الوليد الباجي من المغاربة (الفقيه الأندلسي الشهير، القرن الخامس الهجري)، وصنف فيه كتاباً، وسبقه إليه ابن منية. ولما قال أبو الوليد (الباجي) ذلك طُعن فيه ورمي بالزندقة وسُبّ على المنابر، ثُمّ عقد له مجلس فأقام الحجة على ما ادعاه وكتب به إلى علماء الأطراف فأجابوا بما يوافقه».

د ـ مسألة لا يَمنعها العقل ولا الشرع

ويعلق الآلوسي على ما تقدم قائلاً: «ومعرفة الكتابة بعد أُمِّيَتِهِ ﷺ لا تنافي المعجزة، بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم. ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» ليس نصاً في استمرار نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام، ولعل ذلك باعتبار أنّه بعث عليه الصلاة والسلام وهو ـ وكذا أكثر من بعث إليهم وهو بين ظهرانيهم من العرب ـ أميون لا يكتبون ولا يحسبون. فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد. وأما ما ذُكِر من تأويل «كَتَبَ» في حديث البراء بـ «أمر بالكتابة» فخلاف الظاهر. ويضيف الآلوسي: وفي شرح **صحيح مسلم** للنووي عليه الرحمة، نقلاً عن القاضي عياض، أن قوله في الرواية التي ذكرناها: «ولا يحسن يكتب،فكتب»، كالنص في أنّه ﷺ كتب بنفسه، فالعدول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه. ثُمّ قال: وقد طال كلام كُلّ فرقة في هذه المسألة وشنّعت كُلّ فرقة على الأخرى في هذا فالله تعالى أعلم».

وفي هذا الاتجاه علّق القرطبي على رأي من ينكر القول بكون النبي (ﷺ) كان يعرف القراءة والكتابة، ناقلاً كلام شيخه فقال: «قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وقد أنكر هذا كثير من متفقهة الأندلس وغيرهم، وشدّدوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية، وعدم التوقف في تكفير المسلمين، ولم يتفطنوا؛ لأن تكفير المسلم كقتله، على ما جاء عنه ﷺ في الصحيح، ولاسيما رميُ من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة؛ على أن

المسألة ليست قطعية، بل مستندها ظواهر أخبار آحادٍ صحيحة، غير أن العقل لا يحيلها وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها».

ثالثاً: وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ

١ ـ روايات فيها تخبط..

نأتي الآن إلى الآية التي يتمسك بها جلّ المفسرين كدليل على أن الرسول ﷺ لم يكن يعرف القراءة والكتابة، وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾. ولإعطاء فكرة عن تخبط بعض المفسرين في تفسير هذه الآية نورد ما يلي على سبيل المثال فقط. نقرأ في ما ذكره صاحب **تفسير روح البيان**(٢٧) بصدد شرح هذه الآية أن الشيعة قالت: «إنه ﷺ كان يحسن الخطّ قبل الوحي ثُمّ نهي عنه بالوحي، وقالوا إن قوله: «ولا تخطه» نهيٌ، فليس ينفي الخطّ. وأضاف صاحب **روح البيان**: وفي«الأسئلة المقحمة»: قول الشيعة مردود، لأن «لا تخطه» لو كان نهياً لكان بنصب الطاء أو قال: لا تخططه بطريق التضعيف». وتساءل صاحب «الأسئلة المقحمة»: «كيف منّ الله على نبيه بأنه أمي ولا يعرف الخطّ والكتابة وهما من قبيل الكمال لا من قبيل النقص»؟ ثُمّ أجاب: «إنما وصفه (الله) بعدم الخطّ والكتابة لأن أهل الكتاب كانوا يجدون مِن نعته في التوراة والإنجيل أنّه أمي لا يقرأ ولا يكتب، فأراد تحقيق ما وعدهم به على نعته إياه، ولأن الكتابة من قبيل الصناعات فلا توصف بالمدح ولا بالذم، ولأن المقصود من الكتابة والخط هو الاحتراز عن الغفلة والنسيان وقد خصه الله تعالى بما فيه غُنية عن ذلك».

٢ ـ مسألة منهجية أساسية

ونحن نرى أن السبب في مثل هذا الاضطراب إن لم نقل «التخبط» في تفسير كثير من الآيات القرآنية يرجع في الغالب ـ عندما لا يكون هناك تعصب مذهبي ـ إلى عدم اعتبار مسألة منهجية أساسية، وهي النظر إلى كُلّ آية داخل السياق الذي وردت فيه وتجنّب اقتطاعها منه والتعامل معها كنص مستقل بذاته. والسياق في القرآن يتحدد بأمرين اثنين: **أولهما** الآيات التي تشكل كلاً واحداً تندرج تحته الآية المراد تفسيرها، أي التي قبل هذه والتي بعدها. **ثانيهما** ظروف النزول، ونعني بها مرتبة

---

(٢٧) أبو الفداء إسماعيل حقي البروسوي، **تفسير روح البيان**، ط ٧ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٤).

السورة، التي تقع فيها الآية المراد تفسيرها، على سلّم ترتيب النزول، ومناسبة نزول تلك الآية أو الآيات، وتبيُّن المخاطَب فيه، هذا فضلاً عن التقيد بمبدإ: «القرآن يفسر بعضه بعضاً»، كُلّ ذلك حتّى لا يبتعد التأويل بصاحبه عن معهود العرب، أعني عن فضائهم الحضاري الثقافي.

وبخصوص الآية التي نحن بصددها لا بُدّ من مراعاة الأمور التالية:

أ ـ يجب الانتباه إلى أن سورة العنكبوت التي تقع فيها هذه الآية سورة مكية وأنها آخر ما نزل في مكة. وهذا يستلزم فهم آيات هذه السورة(٢٨) في ضوء ظروف استعداد النبي للهجرة إلى يثرب (المدينة) حيثُ يقوم واقع جديد يختلف عن الذي كان في مكة. كانت في «يثرب» قبائل يهودية تشكل فيها نسبة كبيرة من سكانها، الأمر الذي يطرح تحديد الأسلوب الذي ينبغي أن يتعامل به النبي والمسلمون مع هؤلاء اليهود، وهم أهل كتاب؛ ومن المتوقع أن يجادلوا النبي في كثير من الأمور التي يختلف فيها القرآن مع كتابهم أو مع ما لديهم منه. وقد سبق لهم أن اقترحوا على مشركي قريش طرح أسئلة على النبي ﷺ بقصد امتحانه وإحراجه وتحديه. والآيات التي تقع ضمنها الآية التي نحن بصددها، تشرح الأسلوب المطلوب في هذه الحالة.

ب ـ هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لا بُدّ من استحضار الآيات التي تشكل معها كلاً واحداً، يضفي على كُلّ جزء منه معنىً داخل إطار هذا الكُلّ. وبالنسبة إلى الآية التي نحن بصددها يجب فهمها في إطار السياق الذي يتحدد داخل الآيات السبع التي تندرج معها في سياق واحد(٢٩). إن عدم استحضار المفسرين للسياق ـ كما يتحدد من خلال هذه الآيات ـ هو الذي جعلهم يقحمون فيها مسألة ما إذا كان الرسول ﷺ يعرف القراءة والكتابة ويأتون بتفسيرات وتأويلات مترددة بين النفي والإثبات، وبأخرى بعيدة تماماً عن مجال هذه الآيات! وأكثر من ذلك نجدهم يتحيرون في فهم عبارات في هذه الآيات فيخرجونها عن إطارها بإقحام أمور لا علاقة لها بها.

---

(٢٨) هناك من يستثني بضع آيات منها قالوا إنها نزلت في المدينة ولكن ليس من بينها الآيات التي نحن بصددها.

(٢٩) ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلاهنا وإلاهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون. وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون. بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون. وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أوَلم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ [القرآن الكريم، «سورة العنكبوت،» الآيات ٤٦ ـ ٥٢].

وسيطول بنا المقال لو أخذنا في بيان ذلك انطلاقاً من الآية رقم ٤٦. سنقتصر إذاً على الآية التي تخص موضوعنا. قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾، إنها الآية التي يتخذ منها المفسرون جميعهم دليلاً على أن النبي ﷺ لم يكن يعرف القراءة والكتابة، وإن كان بعضهم يضطر إلى القول إنه تعلم ذلك في مرحلة متقدمة من الدعوة المحمدية. وهنا يجب أن نلاحظ أن هذه الآية مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالآية السابقة لها، أعني قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الْكَافِرُونَ**﴾[٣٠]. وقد عبّر القرآن عن مضمون جحدهم في آية أخرى فقال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءوا ظُلْماً وَزُوراً**﴾[٣١]. ولذلك يردّ عليهم القرآن بتوجيه الخطاب إلى النبي (ﷺ): إن هذا الجحود والاتهام بافتراء القرآن كان يمكن أن يكون مبرراً ومقبولاً لو كان حالك، قبل نزول القرآن عليك، كحال الأساقفة والرهبان الذي يقرؤون التوراة أو الإنجيل وينسخونها. وهذا ما لم يحصل ولم يعرف عنك أنك كنت «تتلو» التوراة و«تخطها»، تنسخها، «بيمينك». فالمقصود في قوله تعالى ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ**﴾ هو أحد كتب «أهل الكتاب». فهي وحدها التي يمكن أن ينصرف إليها اتهام قريش بكونه كان ينسخ منها. وهذا ما تشهد له آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿**مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإيمَانُ**﴾[٣٢] وقوله: ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا**﴾[٣٣] وقوله: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾[٣٤] والمشار إليهم نصارى من الموالي والعبيد.

وأكثر من هذا وذاك فهؤلاء «المبطلون» الذين يعرفون أن النبي لم يكن يستنسخ التوراة ولا الإنجيل يعرفون أن القرآن لم ينزل عليه مرة واحدة **كتاباً جاهزاً، فهم يشاهدونه ينزل عليه منجّماً مفرّقاً، آيات، آيات:**

ذلك قوله تعالى مباشرة بعد التي نحن بصددها: ﴿**بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون**﴾[٣٥].

تأتي هذه الآية إذاً لتؤكد للنبي (ﷺ): أن هذا القرآن ينزل عليك آيات، آيات،

---

(٣٠) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآية ٤٧.

(٣١) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآية ٤.

(٣٢) نفس المرجع، «سورة الشورى،» الآية ٥٢.

(٣٣) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآية ٥.

(٣٤) نفس المرجع، «سورة النحل،» الآية ١٠٣.

(٣٥) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآية ٤٩.

منجمة، تأتيك وحياً فتقرؤها على أصحابك فيحفظونها في صدورهم ناقلة إليهم العلم الحقّ. أما الذين ينكرون هذا، وهم يرونه ويشاهدونه فهم مبطلون ظالمون، جاحدون. .

ولما كان هؤلاء الجاحدون يعرفون أنّه لا يمكن أن يصدقهم الناس في ادعائهم أن القرآن كتاب ألفه محمد، في حين أنّهم يرونه ينزل عليه منجماً، آيات بعد أخرى وحسب مقتضيات الأحوال، لما كانوا يعرفون ذلك لجأوا إلى اعتراض آخر فقالوا: لماذا لا يأتي محمد بمعجزات تعضد دعواه، كما أتى بها الأنبياء والرسل السابقون؟!

ذلك قوله تعالى: **﴿يقولون لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾**(٣٦).

ويأتي الردّ عليهم في نفس الآية، قل يا محمد: المعجزات من عند الله. وليس لبشر أن يأتي بمعجزة من عنده. أما أنا فمجرد رسول: مهمتي تبليغ رسالة الله إليكم، أنذركم وأحذركم من عاقبة أعمالكم بكلام مبين تفهمونه، يدعوكم إلى استعمال عقولكم.

ذلك قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾**(٣٧).

يلي ذلك استفهام استنكاري: **﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**(٣٨)، وهذا يشير إلى أن معجزة النبي محمد ﷺ هي القرآن لا غيره.

بعد ذلك يأتي ختم السياق: **﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾**(٣٩).

رابعاً: الأمية ليست علامة على المعجزة. . .

«وكُلّ شيء عند العرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام»

ليس في القرآن، إذاً، ما يدلّ على أن النبي محمد ﷺ كان يجهل القراءة والكتابة. لقد أوضحنا أن وصفه بـ«النبي الأمي» لا يعني أنّه «أمي» بمعنى عدم المعرفة بالقراءة والكتابة بل لأنه من «الأمم» التي ليس لها كتاب منزل. وكذلك

---

(٣٦) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآية ٢٠.
(٣٧) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآية ٥٠.
(٣٨) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآية ٢٩.
(٣٩) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآية ٥٢.

الشأن في لفظ «الأميين» الوارد في القرآن كقوله تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ**﴾، فالمقصود هم العرب في مقابل أهل الكتاب من اليهود والنصارى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى بينّا بتفصيل كيف أن قوله تعالى ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾، لا يدلّ على أنّه ﷺ كان يجهل القراءة والكتابة، فهذا المعنى يقع خارج سياق هذه الآية.

ومع أن في ما تقدم ما يكفي في هذا الموضوع فإنه من المناسب هنا بيان كيف أن خصوم النبي من قريش لم يتهموه بكونه كتب القرآن. لقد اتهموه بكونه كان يتلقى ما ورد فيه، وخاصة القصص، من أشخاص من أهل الكتاب (نصارى) كانوا في مكة وكان يجلس إلى بعضهم، ولكن لم يذكر أحد من الرواة أن خصوم الدعوة المحمدية من قريش قد نسبوا إليه كتابة القرآن، ليس لأنهم كانوا يعرفون أنّه لا يقرأ ولا يكتب، بل لأن المعرفة بالكتابة والقراءة عندهم، وعند جميع الأمم إلى اليوم، ليست شرطاً في الإتيان بالكلام البليغ. فالقول البليغ ليس مرهوناً بالمعرفة بالقراءة والكتابة، وقد كان شعراء العرب وخطباؤهم يقولون الشعر ويخطبون ارتجالاً؛ من دون إعداد، لا قولاً ولا كتابة.

وفي هذا يقول الجاحظ عن العرب: «وكُلّ شيء عند العرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليس هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو (العربي) أن يصرف همه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر (. . .)، فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالاً، وتنثال الألفاظ انثيالاً، ثُمّ لا يقيده على نفسه ولا يدسه أحد من ولده (. . .). وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب». وهذا يصدق ليس على العرب وحدهم، بل على الخطاب الإبداعي: ما ينسب منه إلى الفطرة والسليقة الإلهام، فكيف بما هو من قبيل الوحي!

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لا بُدّ من أن نستحضر في أذهاننا أن ما حمل علماء المسلمين من جميع الفرق على نفي المعرفة بالقراءة والكتابة عن النبي (ﷺ)، سواء قبل البعثة فقط أو بعدها إلى مرحلة ما من حياته، هو ـ حسب ما فهمنا من احتجاجاتهم ـ تأكيد الطابع المعجز للقرآن، بدعوى أنّه إذا كان الذين يعرفون القراءة والكتابة من قريش لم يستطيعوا الإتيان بمثله، على الرغم من تحديه لهم، وكان النبي لا يعرف القراءة والكتابة وأتى بهذا القرآن، فذاك دليل على أنّه وحي من الله.

وهذا النوع من الاحتجاج إن كان له مفعول في زمن، كالعصور الوسطى، حيثُ كان الناس ينظرون إلى العارفين بالقراءة والكتابة بوصفهم أشخاصاً حاصلين على امتياز خاص ليس عند جميع الناس، ومنهم من كان يوظف هذا الامتياز في ادعاء معرفة كُلّ شيء، والاطلاع على الغيب بالكهانة والتأثير بالسحر وما أشبه، فإن الناس اليوم في عصر تعميم التعليم ونشر المعرفة لا يعطون المعرفة بالقراءة والكتابة كُلّ تلك الأهمية. وهل يستطيع اليوم أمهر الكتاب وأعلاهم شأناً أن يأتي بمثل القرآن أو بمثل سورة من سوره؟ بل إنه لا أحد من الشعراء اليوم يمكن أن يأتي بشعر يماثل شعر المتنبي مثلاً، ولا بخطبة مماثلة لخطبة قس بن ساعدة، أو بمقامة من جنس مقامات الهمذاني أو الحريري، بل ولا بقصائد تتطابق مع قصائد نزار قباني. ذلك لأن الإبداع في القول، كما في الرسم والنحت، كما في الفكر والفلسفة، لا يمكن تقليده، لسبب بسيط هو أن التقليد هو بالتعريف: غير الإبداع. والوحي المحمدي ـ القرآن ـ إذا نظر إليه من المنظور الأدبي فهو قمة البلاغة والإبداع، أما من المنظور الدينيّ فهو تجربة روحية فريدة. وفي الفصول التالية البيان.

خامساً: عَود على بدء: الأفكار المتلقاة.. عوائق معرفية

عندما نبهت في فقرة سابقة (ثانياً/ ٢) إلى خلو اللغة العربية من أصل للفظ «أمي» وما اشتق منه («أمية» و«أميون»)، وقلت إن هذه الكلمة معرّبة وأن أصلها يرجع إلى لفظ «الأمم» الذي أطلقه اليهود على غيرهم ممن ليس لهم كتاب منزل، لم أكن أنطق عن الهوى، بل كان ذلك عندي نتيجة بحث واستقصاء ترتب عليهما موقف نقدي لتلك الفكرة التي تلقيتها (لست أدري كيف ومتى!) والتي تربط اسم «الأمي» والمصدر الاصطناعي «الأمية» بعدم معرفة القراءة والكتابة، وهو المعنى الذي نستعملهما فيه إلى اليوم من دون أن يكون لهذا الاستعمال أصل في اللغة العربية يسنده، سوى ما جرت عليه العادة.

العادة في مجال اللغة والفكر قتّالة. فكم من كلمات نستعملها من دون أن نكلف أنفسنا السؤال عن أصلها ومصدرها، وكم من فكرة نتمسك بها من دون أن نعي أننا لا نعرف لها أصلاً، بل كم من لفظ نستعمله في لغتنا العربية القديمة/ الجديدة من دون أن ننتبه إلى أننا نُحمِّل ذلك اللفظ معنى لا أصل له في اللغة.

نعم، العادة والاستعمال من المرجعيات الأساسية في كُلّ لغة، ما في ذلك شكّ. لكن ليس هذا شأن لفظ «الأمي»! فهذا اللفظ ـ مفرداً وجمعاً ـ مصطلح قرآني خاص، مثله مثل المصطلحات القرآنية الأخرى التي ليس لها أصل في اللغة العربية.

دليل ذلك أن أياً من المعاجم العربية لم تذكر شاهداً من الشعر أو النثر العربي قبل الإسلام ورد فيه لفظ «الأمي» بمعنى عدم المعرفة بالقراءة والكتابة. كُلّ ما فعلته تلك المعاجم هو أنها حاولت أن تجد لهذا اللفظ صلة مع لفظ «الأم». وكان اللغوي الزجّاج قد اقترح أن يكون لفظ «الأمي» نسبة إلى الأم، ثُمّ أوّله تأويلاً فقال: سمّي بذلك لأنه يكون على الحال التي تلده عليه أمه: لا يقرأ ولا يكتب! وقد أخذ عنه آخرون هذا «التأويل» وتبناه صاحب **لسان العرب** مما أعطى له صدقية. فصار «الأمي» هو «من لا يعرف القراءة والكتابة».

وواضح أن هذا مجرد تأويل! وهو في نظري تأويل ضعيف. ذلك أن الزجّاج توفي سنة ٣١٠ هـ، فليس هو من جامعي اللغة، فعصر جمع اللغة كان قد انتهى وجاء بعده عصر «الكلام» في اللغة والعقائد إلخ. والزجّاج «متكلم» فيهما، والمتكلم «مؤول»، صاحب مذهب! فهو عندما يشرح معاني ألفاظ القرآن، كلفظ «النبي الأمي»، يفعل ذلك ليس كلغوي وحسب بل كمتكلم أيضاً. ويبدو أنّه لم يسبق لأحد من اللغويين أن فسرّ لفظ «الأمي» بما فسره به الزجاج. دليل ذلك أن صاحب لسان العرب قد نسبه إليه وحده.

وإذاً فتأويل لفظ «الأمي» بعدم المعرفة بالقراءة والكتابة حدث في عصر لا يعدّ علماؤه مرجعاً في اللغة. لكن بما أن هذا اللفظ قد وُصِف به النبي في القرآن («النبي الأمي») فقد حُمِّلَ ذلك المعنى الذي أعطاه له الزجاج، ومن ثُمّ استقر في أذهان الناس أن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام كان «أمياً» بمعنى أنّه «لا يقرأ ولا يكتب». وبسرعة وظف هذا الفهم في تأكيد كون القرآن معجزة له (ﷺ) لكونه تحدى خصومه أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا، بينما جاء به هو، ﷺ، وهو «لا يعرف القراءة والكتابة». حصل ذلك في عصر انشغل فيه المتكلمون والبلاغيون بمسألة إعجاز القرآن[(٤٠)]. وهكذا صار تأويل الزجاج لكلمة «أمي»، في خدمة «المذهب» الكلامي البلاغي، لا بل في خدمة «المقدس» أيضاً، الأمر الذي جعل فكرة كون «الأمي» هو من لا يعرف القراءة والكتابة، تتحول إلى واحدة من الأفكار المسماة بـ (Idées reçues, Received Ideas)، الأفكار التي يسلم بها الناس من دون أن يعوا أنهم يسلّمون بها من دون فحص ولا نقد. وهكذا صار من الصعب

(٤٠) كان ذلك في وقت انتشرت فيه كتب منكري النبوة وقد لجأ المتكلمون المسلمون إلى الردّ عليهم بالقول إن علامة نبوة محمد ﷺ هو أنّه جاء بالقرآن على ما هو عليه من الفصاحة والبيان وهو أمي «لا يقرأ ولا يكتب»، بينما عجز العرب عن الإتيان بمثله وهم المعروفون بالفصاحة والبلاغة إلخ. وإذاً فتأويل «الأمي» بـ «عدم المعرفة بالقراءة والكتابة» كان لضرورة حجاجية ظرفية، ولم يكن له علاقة بأي أصل في اللغة العربية. راجع: الفصل ٤ من هذا الكتاب.

قبول المس بها لأن «الأفكار المتلقاة» تصوغ عالم المتلقي لها، وذلك إلى درجة أن هذا الأخير يقوم بصورة آلية برد فعل سلبي رافض أمام كُلّ نقد يَمُسّها وكأنه يخاف أن ينهار عالمه ذلك. ومن جملة ردود الفعل السلبية هذه ما يكون لاشعورياً ـ وهذا أخطر ـ ويتجلى في كون العقل المكبَّل بـ «الأفكار المتلقاة» لا «يرى»، لا بقلبه ولا ببصره، أي وجهة نظر تقترح رأياً مخالفاً حتّى ولو قرأ وجهة النظر تلك ألف مرة!

ذلك ما يفسر كون العقل المكبل بـ «الأفكارالمتلقاة» لا يسأل نفسه: هل تستقيم نسبة «الأمي» إلى «الأم»؟ إن طرح سؤال مثل هذا، بدافع الرغبة في البحث عن الحقيقة، كان سيدفع صاحبه إلى الرجوع إلى «مقاييس اللغة»، أعني المقاييس التي تضبط بها ألفاظ اللغة العربية من حيثُ ارتباط الفروع فيها بأصولها. وسواء قبلنا بمثل هذه المقاييس من ناحية ما تقرر في «اللسانيات الحديثة» أم لا، فإن مِما لا يمكن إنكاره هو أن «صانعي» اللغة العربية الفصحى، وأعني الذين وضعوا قواعد وضوابط لأوزانها وصيغها قد استلهموا نموذج «القبيلة» في بناء صرحها الدلالي، فأرجعوا جميع ألفاظها إلى أصول معينة (شيوخ القبائل)، ثُمّ عينوا لكُلّ واحد من هذه الأصول معنى لا يتغير بتغير موقع حروفه بعضها بالنسبة لبعض، وجعلوا ذلك المعنى ينساب في فروع تلك الأصول، وسموا هذا بالاشتقاق الأكبر (مثل: ضرب، ضبر، ربض، رضب إلخ).

ذلك ما دوَّنه ابن فارس في كتابه الشهير **مقاييس اللغة** حيثُ نقرأ بصدد الأصل المؤلّف من الهمزة والميم «أم» (أصل كلمة أمي) ما يلي: «وأمَّا الهمزة والميم فأصلٌ واحدٌ، يتفرَّع منه أربعة أبواب وهي: الأصل، والمرجِع، والجماعة، والدِّين. وهذه الأربعَة متقاربة، وبعد ذلك أصولٌ ثلاثة، وهي: القامة، والحِين، والقَصْد»! وسواء قبلنا بهذا النوع من التنميط للغة العربية أم لا، فإن الشاهد عندنا هو أنّه ليس في الأصول ولا في الفروع التي قال بها اللغويون المقعِّدون للغة العربية ما يجعل لفظ «الأمي» يتضمن معنى عدم المعرفة بالقراءة والكتابة»!هذا يؤكّد ما سبق أن قلناه من أن لفظ «الأمي» - مفرداً وجمعاً ـ مصطلح قرآني خاص.

وأمام غياب أصل لغوي للفظ «أمي»، في العربية، ذهب كثير من المتأخرين مذاهب مختلفة في البحث عن أصل مرجعي قرآني لهذا اللفظ في القرآن نفسه، خارج تأويل الزجاج الذي لا يستقيم مع كثير من الآيات التي ورد فيها هذا اللفظ، كما بيّنا قبل. قال بعضهم: إن المقصود بـ «الأمي» في قوله تعالى «النبي الأمي» أنّه المنسوب إلى «أم القرى»، أي مكة وأن «الأميين» هم أهلها، وذلك استناداً إلى قوله

تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٤١]، وقال آخرون إن النسبة في «النبي الأمي» هي إلى «أم الكتاب»، لقوله تعالى عن القرآن ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٤٢] وهكذا صارت كلمة «أمّ» مرجعاً للفظ «أمي» سواء قصد بها «الأم» في مقابل الأب، أو «الأم» بمعنى أصل الشيء أو. أو.

والحق أن لفظ «أمّ» بهذا المعنى قد صار يشكل عائقاً معرفياً.

ذلك ما يفسر كون العقل المكبل بـ «الأفكار المتلقاة» لا يعير أي اهتمام لآراء علماء في اللغة في مستوى الزجاج مثل الفراء الذي قال: «الأميون» هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب»! هذا مع أن الفراء (أبو زكرياً يحيى بن زياد) كان أحق أن يتبع، بدلاً من الزجاج. ذلك لأن الفراء سبق الزجاج بقرن من الزمن (توفي سنة ٢٠٧هـ) وألف عدة كتب من بينها كتاب **معاني القرآن** الذي قال فيه اللغوي المشهور أبو العباس ثعلب: «لم يعمل أحد قبله ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه».

ذلك ما يفسر أيضاً كون العقل المكبل بالأفكار المتلقاة لا يعير أي انتباه لكون علماء كبار، مفسرين وفقهاء، قد ترددوا في قبول تأويل الزجاج، وأخذوا برأي الفراء، فجعلوا لفظ «الأمي» منسوباً لا إلى «الأم»، بل إلى «الأمة»، وبالتالي إلى الأمم التي ليس لديها كتاب منزل.

من هؤلاء العلماء الفقيه والباحث المحقق ابن تيمية، الذي اختار هذا الرأي، رأي الفراء. قال: «الأميون نسبة إلى الأمة. قال بعضهم: إلى الأمة وما عليه العامة. فمعنى الأمي: العامي الذي لا تمييز له. وقال الزجاج: هو على خلق الأمة التي لم تتعلم فهو على جبلّته، وقال غيره: هو نسبة إلى أمه، لأن الكتابة كانت في الرجال من دون النساء؛ ولأنه على ما ولدته أمه». ويضيف الشيخ ابن تيمية معترضاً على هذا الرأي قائلاً: «والصواب: أنّه نسبة إلى الأمة، كما يقال: عامي نسبة إلى العامة التي لم تتميز بما تمتاز به الخاصة، وكذلك هذا (يعني الأمي) لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة». ثُمّ أضاف: «ويقال الأمي لمن لا يقرأ ولا يكتب كتاباً، ثُمّ يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من اللّه يقرؤونه وإن كان قد يكتب ويقرأ ما لم ينزل، وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين، فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من اللّه، قال اللّه تعالى: ﴿ومن اتبعن وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا﴾ وقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾،

---

(٤١) **القرآن الكريم**، «سورة الأنعام،» الآية ٩٢.

(٤٢) نفس المرجع، «سورة الزخرف،» الآية ٤.

وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب، وكلهم أميون (. . .) فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه». وقال في معنى «الأمي» في قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾[٤٣] «هو أمي بهذا الاعتبار؛ لأنه لا يكتب ولا يقرأ ما في الكتب (يعني التوراة والإنجيل)، لا باعتبار أنّه لا يقرأ من حفظه، بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ». ثُمّ أضاف: «وقد يقال: إن قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾ أي: لا يحسنون الخطّ، وإنما يحسنون التلاوة، ويتناول ـ أيضاً ـ من يحسن الخطّ والتلاوة، ولا يفهم ما يقرؤه ويكتبه كما قال ابن عباس وقتادة: غير عارفين معاني الكتاب، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم، ولا يدرون ما فيه». ويشرح ابن تيمية المقصود بالكتاب هنا فيقول: «والكتاب هنا المراد به: الكتاب المنزل، وهو التوراة؛ ليس المراد به الخطّ، فإنه قال: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾ فهذا يدلّ على أنّه نفى عنهم العلم بمعاني الكتاب (. . .)، وهؤلاء وإن كانوا يكتبون ويقرؤون فهم أميون من أهل الكتاب، كما نقول نحن لمن كان كذلك: هو أمي، وساذج، وعامي، وإن كان يحفظ القرآن ويقرأ المكتوب إذا كان يعرف معناه»[٤٤].

هل تحررنا من «العائق» اللغوي الذي وضعه الزجّاج من دون أن يقصد ذلك (لأنه كان يريد الشرح والبيان، أي إزالة عائق الجهل، فاجتهد فأخطأ، والمخطئ في هذا المجال، وبهذا القصد، غير ملام؟!).

لا أعتقد! فالعوائق عندما تلتصق بالمقدس تصبح مقدسة. والمقدس هنا هو «المعجزة» التي دليلاها ـ ويا للعجب ـ عدم المعرفة بالقراءة والكتابة!

ومهما يكن، فليس تأويل الزجاج لمعنى «النبي الأمي» هو وحده الذي يجب التحرر منه. هناك عوائق أخرى من هذا القبيل!

---

(٤٣) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٨.

(٤٤) راجع: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، «تفسير صورة الإخلاص،» في: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، **الفتاوى** (الرباط: مكتبة المعارف، [د. ت.])، ص ٤٣٥.

الفصل الرابع

حَدَث الوحي... وإثبات النبوة

أولاً: حدث الوحي: روايات عن وقائع ومشاعر

هناك عدد كبير من الروايات التي تنقل إلينا وقائع بداية الوحي المحمدي ومشاعر النبي إزاءه، روايات ترددها مصادرنا القديمة والحديثة، بصيغ متشابهة تختلف طولاً وقصراً، استقصاء واختصاراً، ولكنها تتفق في الجملة على ذكر المعطيات التالية:

١ ـ إرهاصات . . . قبل وقوع الحدث

أ ـ تفيد الروايات أن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم كان، خلال المدة التي سبقت بداية نزول الوحي عليه، يميل نحو العزلة: «فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده». وقد رأينا في الفصل السابق كيف أنه كان يجاور في حراء ـ وهو جبل مطلّ على مكة على نحو بضع كيلومترات منها ـ مدة شهر من كل سنة، كما كان قومه قريش يفعلون، وذلك بقصد التحنف (أو التحنث: العبادة والتبرر). فإذا قضى جواره بغار في هذا الجبل عاد إلى مكة.

ب ـ كما تقول عنه بعض الروايات إنه كان يكره الأصنام، ولا يقبل القسَم بها ولا الاقتراب منها. وتفيد إحدى الروايات في هذا الصدد أنه حدث ذات يوم أن حاول عمه أبو طالب أن يقنعه بالذهاب معه لحضور احتفال كانت تقيمه قريش كل سنة لصنم كانت تعظمه وتُنسك له، وتدعوه «بوانة»، فامتنع امتناعاً أثار غضب عمه. فقامت عماته وقد «غضبن عليه أشد الغضب»، وقلن له: «إننا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا». فلما أكثرن عليه ذهب وغاب مدة ثم رجع مرعوباً فزعاً، فقلن له: «ما دهاك؟». قال: «إني أخشى أن يكون بي لَمَم» (مس من جنون). ثم

سألنه: «فما الذي رأيت؟». قال: «إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: وراءك يا محمد، لا تمسه»!

ج ـ وفي رواية أخرى: «أن رسول الله ﷺ شكا، وهو يومئذ ابن عشرين سنة، إلى عمه أبي طالب فقال: «أَعَمِّ، إِنِّي مُنْذُ لَيَالٍ يَأْتِيْنِي آتٍ مَعَه صَاحِبَانِ لَه، فَيَنْظُرونَ إليَّ ويَقُولونَ: هُوَ هُوَ ولَم يأنِ لَه. فإذا كَانَ رأيُكَ كرَجُلٍ منْهُم سَاكِتٍ فَقَدْ هَالَنِي ذَلكَ». فقال: يا ابن أخي ليس بشيء، حلمت». ثم رجع إليه بعد ذلك فقال: «يَا عَمِّ سَطَا بي الرَّجُلُ الذي ذَكَرْتُ لَكَ فَأَدْخَلَ يَدَه في جَوْفِي حَتَّى إنِّي لأَجِدُ بَرْدَها».

د ـ وتقول إحدى الروايات «إن النبي ﷺ كان إذا برز (خرج) سمع من يناديه: يا محمد! فإذا سمع الصوت انطلق هارباً. وذات مرة أتى زوجته خديجة وأخبرها بذلك. أسرَّت خديجة الخبر إلى أبي بكر، وكان نديماً له في الجاهلية، فأخذ أبو بكر بيده وانطلق به إلى ورقة (ابن نوفل: قس نصراني)، فقال له ورقة: هل ترى شيئاً؟ قال: «لاَ، وَلَكِنِّي إذَا بَرَزْتُ سَمِعْتُ النِّدَاءَ وَلاَ أَرَى شَيْئاً، فَأَنْطَلِقُ هَارِباً فَإِذَا هُوَ عِنْدِي يُنَادِي». قال ورقة: فلا تفعل. إذا سمعت النداء، فاثبت له حتى تسمع ما يقول لك». فلما برز سمع: يا محمد. قال: «لبيك!». قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». ثم أتى ورقة فذكر ذلك له فقال: أبشر؛ ثم أبشر، ثم أبشر، أشهد أنك أنت أحمد، وأنا أشهد أنك محمد، وأنا أشهد أنك رسول الله، يوشك أن تؤمر بالقتال، وإن أمرت بالقتال وأنا حي فلأقاتلن معك».

هـ ـ وتؤكد الروايات نقلاً عن عائشة زوجته: أن أول ما بدأ رسول الله (ﷺ) من النبوة الرؤيا الصادقة، لا يرى رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح. ويعلق بعض المؤلفين في السيرة النبوية على ذلك فيقول: إن الوحي كان يأتي الأنبياء في المنام كما يأتيهم في اليقظة، مستشهداً بما ورد في القرآن حول رؤيا إبراهيم عليه السلام حين خاطب ابنه: **﴿قال يا بُنيَ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾**[1]. وواضح أن ما رآه الأب في المنام قد اعتبره الابن أمراً إلهياً، أي وحياً، (هكذا في التوراة أيضاً: فنبوات أنبياء بني إسرائيل ـ باستثناء موسى عليه السلام ـ كانت على صورة الرؤيا/ الحلم).

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الصافات،» الآية ١٠٢.

٢ ـ ابتداء نزول الوحي: اللقاء الأول مع جبريل

أ ـ كما تؤكد الروايات أنه بهذا النوع من الرؤيا المنامية بدأ نزول الوحي على محمد ﷺ. ذلك أنه حدث ذات ليلة من ليالي شهر رمضان، الذي اعتاد فيه الخروج لجواره في غار حراء، أن جاءه جبريل وهو نائم. وتحكي الروايات على لسان محمد ﷺ وقائع هذا اللقاء مع ملَك الوحي جبريل، فتروي عنه أنه قال: «جاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج» في غار حراء. . . إلخ[٢]. وعندما انتهى من حكاية ما جرى له في لقائه مع جبريل ونزول ﴿**اقرأ باسم ربك**. . .﴾[٣]، قال: «فخرجتُ (من الغار) حتى إذا كنتُ في وسطٍ من الجبل سمعت صوتاً من السماءِ يقول: يا محمدُ! أنت رسولُ اللّه وأنا جبريلُ. قال (النبي): فرفعتُ رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريلُ في صورة رجل صافّ قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. قال (النبي): فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر؛ وجعلتُ أصرفُ وجهي عنه في آفاقِ السماء، لا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلتُ واقفاً ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي حتى بَعثَتْ خدِيجةُ رُسلَهَا في طلبي، فبلغوا أعلى مكةَ، ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني، وانصرفتُ راجعاً إلى أهلي، حتى أتيتُ خديجةَ (زوجته)، فجلست إلى فخذها مُضيفا إليها، فقالت: يا أبا القاسم[٤]، أين كنتَ؟ فواللّه لقد بعثت رسلي في طلبك، حتى بلغوا مكةَ ورجعوا لي؟ (قال النبي): ثم حدثتها بالذي رأيتُ، فقالت: أبشرْ يا ابن عمٍّ واثبُتْ فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة». وفي رواية البخاري: قال النبي: «يا خديجة، ما بي!». وأخبرها الخبر، وقال: «قد خشيت على نفسي» (من الجنون). فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدُق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق».

ب ـ وتضيف الروايات أن خديجة قامت وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل و«كان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل» فأخبرته بما أخبرها به رسول الله (ﷺ). . . فقال ورقة: «لقد جاءه الناموس الأكبر (جبريل) الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة».

---

(٢) قصة لقائه الأول مع جبريل: انظر الفصل ٣ من هذا الكتاب.

(٣) **القرآن الكريم،** «سورة العلق،» الآية ١.

(٤) كنية النبي من ابنه القاسم الذي عاش سنتين وقد ولدت خديجة عبد الله، ثم زينب، ثم رقية، ثم القاسم، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، وكانت أصغرهم، وولدت قبل النبوة بخمس سنين. أما زوجاته الأخر فلم يلدن له باستثناء مارية القبطية التي ولدت له بالمدينة ابنه إبراهيم سنة ثمان وتوفي ابن ثمانية عشر شهراً.

ثانياً: اتهامات من قريش . . . وردود قرآنية

تلك روايات[٥]، لابد أن يكتنفها ما يكتنف الروايات عادة من نقص أو زيادة وما أشبه. ومع ذلك فليس من الجائز تكذيبها جميعها خصوصاً ويزكي مضمونَها ما سبق أن عرضناه في الفصل الأول عن انشغال الناس بانتظار نبي جديد، وتناقل أخبار ظاهرة الحنفاء، وتوقعات الأحبار والقساوسة، وغير ذلك مما يمكن اعتباره نوعاً من الامتداد للحركة الآريوسية.

ومما يزكّي مضمون الروايات السابقة انشغال الناس في مكة وخارجها بالحدث الجديد، حدث نبوة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم؛ كانوا يتبادلون الخبر والتعليق في شأنه. ومع أنه يمكن افتراض أن قومه بني هاشم قد طربوا لهذا الحدث، وذلك ما حصل فعلاً، إلا أن موقف عمه أبي لهب (واسمه عبد العزى بن عبد المطلب)، كان من قبيل «الاستثناء الذي يزكّي القاعدة»؛ لا بل كان من ألد خصومه! ويقال إن امرأته كانت تنشر الشوك في طريقه، إيذاء له. وأبو لهب، هذا، هو الوحيد من خصوم الدعوة المحمدية الذي ذكر اسمه تصريحاً في القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ**﴾[٦] أما خارج قومه بني هاشم فقد كان أشد الناس عداوة له أبو الحكم بن هشام (المعروف بـ «أبي جهل»)، أحد كبار بني مخزوم، المنافسين لبني عبد مناف (= بني هاشم وبني أمية). ويروى أن أبا جهل تسلل يوماً ليسمع النبي يقرأ القرآن فسئل: «ما رأيك فيما سَمِعْتَ من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الرُّكب، وكنا كفرسَيْ رهان، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء؛ فمتى ندرك مثلَ هذه؟ واللّه لا نؤمنُ به أبداً ولا نصدقه». وفي رواية أخرى أن النبي (ﷺ) مر على أبي جهل وأبي سفيان وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال: «هذا نبي بني عبد مناف»!، فغضب أبو سفيان وهو يومئذ من خصوم الدعوة المحمدية، وقال: أتنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي»؟

---

(٥) تجد هذه الروايات في: أبو محمد عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، تراث الإسلام، ٤ ج في ٢ مج (القاهرة: [د. ن.، د. ت.])، ج ١، ص ٢٣٤ وما بعدها؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، **البداية والنهاية** (بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.])، ج ٣، ص ١١ وما بعدها، وأبو عبد الله محمد بن منيع بن سعد، **الطبقات الكبرى**، تحقيق إدوارد سخاو ورفاقه (ليدن: [بريل]، ١٩١٧)، ج ١، ص ١٢٦.

(٦) **القرآن الكريم**، «سورة المسد،» الآيات ١ ـ ٥.

على أن أهم وأقوى ما يشهد بالصحة التاريخية لمضمون تلك الروايات هو ما في القرآن الكريم من ردود على الذين اتهموا النبي ﷺ بالجنون والكهانة والسحر والافتراء. . . الخ.

ـ فبخصوص ما ذكر في تلك الروايات من كلام حول الجنون والكهانة والسحر والشعر. . . الخ، تكرر في القرآن المكي خاصة نفي ذلك عن النبي ﷺ وطمأنته بأنه ليس به شيء من ذلك، وأن اتهامات خصومه من قريش في هذا الصدد اتهامات باطلة سبق أن رمت به الأقوام الماضية رسلهم. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ. . . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾(٧) وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ. وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾(٨) وقوله: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾(٩) وقوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ. أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ. قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ. أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ. أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾(١٠).

ـ وبخصوص رؤيته لجبريل ولقاءاته معه، ورد في القرآن تفصيل ذلك بعبارات بليغة تقدم المشهد في صورة حسية ملموسة. من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالأفُقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾(١١) وأيضاً: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾(١٢).

---

(٧) نفس المرجع، «سورة التكوير،» الآيات ٢٢ ـ ٢٥.

(٨) نفس المرجع، «سورة الحاقة،» الآيتان ٤١ ـ ٤٢.

(٩) نفس المرجع، «سورة الذاريات،» الآية ٥٢.

(١٠) نفس المرجع، «سورة الطور،» الآيات ٢٩ ـ ٣٤. المنون: بمعنى أننا ننتظر موته.

(١١) نفس المرجع، «سورة التكوير،» الآيات ١٩ ـ ٢٥. ويقصد هنا بـ «رسول كريم» أي جبريل.

(١٢) نفس المرجع، «سورة النجم،» الآيات ١ ـ ١٨. و«شديد القوى» يعني جبريل ﷺ في قول سائر المفسرين؛ سوى الحسن فإنه قال: هو الله عز وجل، ويكون قوله تعالى: ﴿ذو مرة﴾ على قول الحسن تمام الكلام، ومعناه ذو قوة والقوة من صفات الله تعالى. ﴿وذو مرة﴾ هو صاحب علم وحكمة. ونحن نرجح هذا =

ثالثاً: انقطاع الوحي واستئنافه . . .

١ ـ متى كان انقطاع الوحي؟ وكم دامت مدته؟

تجمع الروايات على أن الوحي انقطع عن النبي (ﷺ) مدة من الزمن، بعد أول ما نزل عليه منه ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق . . .﴾، ولكنها تختلف في تقدير مدة هذا الانقطاع أو «الفتور». المشهور أنها أربعون يوماً، وهناك من قدرها بسنتين أو سنتين ونصف. والظاهر أن ما أثاره انقطاع الوحي من ردود الفعل ـ كما سنرى ـ لا يستقيم مع تقدير دوام فترة الوحي أربعين يوماً فقط. أضف إلى ذلك أن ترتيب السور حسب النزول تعترضه مشاكل مع هذا التقدير. ولذلك فنحن نرجّح الرواية الثانية.

هناك رواية عن ابن عباس تقدم تفاصيل في الموضوع جاء فيها: «أقام النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة، سبع سنين يرى الضوء ويسمع الصوت، وثماني سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشر سنين». هذا ومعلوم أنه عاش ثلاثاً وستين سنة، فإذا أسقطنا السنوات العشر التي عاشها في المدينة والخمس عشرة سنة التي ذكرها ابن عباس فإن بداية «مرحلة الضوء والأصوات» ستمتد من الثامنة والثلاثين إلى حوالى الخامسة والأربعين من عمره. وإذا أخذنا بالرواية التي تفيد أن رؤيا لقائه الأول مع جبريل ونزول سورة «اقرأ» قد حدثت في الثانية والأربعين من عمره ثم انقطع اتصال جبريل به بعد ذلك لمدة سنتين ونصف، أو نحو ذلك، فإن مرحلة الوحي المتواصل ستنطلق وهو في نحو الخامسة والأربعين من عمره، وهو ما يتفق مع رواية ابن عباس.

هذا ويمكن الجمع بين هذه الروايات بالقول إن محمداً بن عبد الله قضى في التحنف بغار حراء سبع سنين تلقى خلالها من جبريل، أثناء رؤيا منامية، الآيات الخمس الأولى من سورة العلق[١٣]، وعمره حينذاك اثنتان وأربعون سنة ونصف السنة، ثم انقطع الوحي لمدة سنتين ونصف ليستأنف بالآيات الأولى من سورة المدثر وعمره نحو خمسٍ وأربعين سنة.

= الرأي وفاقاً مع قوله تعالى: ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ [نفس المرجع، «سورة طه،» الآية ٥]، وقوله في السورة أعلاه: ﴿**فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾، والعبد: عبد الله، باتفاق، وأيضاً: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى**﴾. فلا معنى لتوزيع الضمائر هنا بين الله وجبريل، ولا ضرورة لذلك.

(١٣) ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ [نفس المرجع، «سورة العلق،» الآيات ١ ـ ٥].

٢ ـ سخرية واستهزاء . . . وقلق . . فتسلية

ومهما يكن من أمر فإن حدث الوحي المحمدي ما كان ليمر من دون أن يحدث ضجة في مكة التي كانت الحياة فيها موسومة بالتنافس والصراع بين القبائل الساكنة فيها، خصوصاً بين بني هاشم (وبنو عمهم بنو أمية) الذين كانوا يتقاسمون الزعامة في قريش مع بني مخزوم.

فعلاً، تؤكد مصادرنا أن منافسي بني هاشم وخصومهم استغلوا فرصة انقطاع الوحي عن النبي ﷺ لإبداء ما في صدورهم من الحقد عليهم بسبب ظهور نبي منهم. ولا بد أن يكون انقطاع الوحي أو «فتوره» قد استمر مدة طويلة (أزيد من سنتين) حتى نفهم ما أحدثه من اضطراب حتى بين بعض أقارب النبي نفسه، بما في ذلك زوجته خديجة: فقد خاطب بعضهم النبي ﷺ مستعملين عبارات جارحة من مثل قولهم: «ما أرى ربك إلا قد قلاك» أي تركك وتخلى عنك، ويروى أن خديجة زوجته قد عبّرت له عن مثل ذلك. أما غير الأقارب فلم يخفوا السخرية منه والاستهزاء به . . . الأمر الذي كان لابد أن يثير القلق والأسى والألم في نفس النبي الجديد.

تذكر الروايات في هذا الصدد أنه (ﷺ) قد حزن حزناً شديداً، ليس بسبب تشفّي خصومه وسخريتهم فحسب، بل أيضاً ـ وهذا كان أكثر وقعاً في نفسه ـ بسبب غيبة جبريل وانقطاع الوحي عنه. وتذكر المصادر أنه قد بلغ به القلق كل مبلغ: «حتى كان يغدو إلى ثبير (جبل بمكة) مرة، وإلى حراء مرة، يريد أن يلقي نفسه منه» (من أعلى الجبل).

وهناك على رؤوس الجبال، بينما كان ذات مرة يتنقل بينها آملا أن يكلمه جبريل مرة أخرى، إذا بهذا الملك «يتبدّى له ويقول: أنت نبي الله»، ثم يختفي، فأصابه الرعب من جديد. . . فأسرع عائداً إلى بيته ودخل على زوجته خديجة وهو يقول: «دثروني، دثروني وصُبّوا علي ماء». ففعلت. وتقول أشهر الروايات إنه في هذا الوضع، وضع المستلقي المغطى بثوب، نزلت عليه سور «المدثر»، والمقصود الآيات الأولى منها وهي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**﴾[١٤] وبذلك تكون هذه السورة هي الثانية في ترتيب النزول، بعد سورة العلق ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾.

---

(١٤) نفس المرجع، «سورة المدثر،» الآيات ١ ـ ٧. والرجز هنا بمعنى الأصنام. ويقصد بـ ﴿**وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ**﴾ لا تستكثر ما تعرضت له ولا تمنن ذلك.

وفي رواية أخرى أن السورة الثانية في ترتيب النزول هي سورة القلم، أعني الآيات الأولى منها التي تردّ على الذين اتهموه بالجنون، وهي قوله تعالى: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ. فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ. بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾(١٥).

بعد ذلك تنزل سورة الضحى، تسليه وتثبت فؤاده وترد على الذين قالوا، عندما تأخر الوحي عنه، إن ربه قلاه وتخلى عنه. قال تعالى: ﴿**وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى. فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ. وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾(١٦) ثم تتوالى سور من هذا النوع وفي نفس الغرض، وكلها تخاطب النبي وتواسيه وتثبته وتقوي إرادته وعزيمته وتهيئه لتحمل تجربة الوحي.

٣ ـ تجربة الوحي . . . جهد ومعاناة

ومع ذلك فتجربة الوحي ليست من التجارب التي يمكن أن يألفها الإنسان بسهولة. إنها بالتعريف تجربة من مستوى فوق المستوى البشري، ومحمد بن عبد الله واحد من البشر يعتريه ما يعتري البشر. ولذلك نجده يعاني حين نزول الوحي عليه حالات خاصة من الاضطراب، تحدثت عنها الروايات. تقول إحداها: «كان (ﷺ) إذا نزل عليه الوحي كرب له وترَبَّد وجهه (احمر احمراراً شديداً)». وتقول أخرى: «كان إذا نزل عليه الوحي وقذ لذلك (خارت قواه) كهيئة السكران». وقيل: سئل كيف يأتيه الوحي؟ فقال: «كان الوحي يأتيني على نحوين: يأتيني جبريل فيلقيه عليَّ كما يُلْقَى الرجل على الرجل، فذلك يتفلت مني (يفلت ويذهب). ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي فذلك لا يتفلت». وفي رواية أخرى أجاب عن السؤال نفسه: «أحيانا يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال. وأحيانا يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما أقول».

---

(١٥) نفس المرجع، «سورة القلم،» الآيات ١ ـ ٧.

(١٦) نفس المرجع، «سورة الضحى،» الآيات ١ ـ ١١. ﴿**وما قلى**﴾ هي رد على الذين قالوا بأن الله تخلى عن الرسول، وتعني «وما تخلى عنك الله». أما بخصوص الآية ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى**﴾ فهي تعني أن والد الرسول توفي وهو في بطن أمه، وتوفيت أمه وعمره ست سنوات، وبذلك استطاع أن يجد مأوىً له. وكذلك الآية ﴿**ووجدك ضالاً فهدى**﴾ التي تعني أن مرضعة الرسول ضلت به الطريق، فاستعاده جده عبد المطلب. وبخصوص الآية ﴿**ووجدك عائلاً فأغنى**﴾ فإنها تعني أن الرسول كان فقيراً، فأغناه الله بمال زوجه خديجة.

قالت عائشة: «ولقد رأيته ينزل عليه (الوحي) في الليلة الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً»[١٧].

يمكن المرء أن يشك في صياغة بعض هذه الروايات أو في بعض مضامينها باعتبار أنها ظلت روايات شفوية لمدة لا تقل عن قرن من الزمان، إذ لم تدون بشكل رسمي إلا في القرن الثاني للهجرة، الأمر الذي يفسح المجال للوضع والتضخيم! لكن مثل هذا الشك سيفقد جل مبرراته إذا نحن انتقلنا إلى القرآن الكريم ـ وهو الكتاب الذي بقي كما هو منذ جمعه النهائي أيام عثمان ـ والتمسنا فيه شواهد على صحة تلك الروايات. إننا في هذه الحالة سنجد أنفسنا أمام آيات تزكّي مضامين تلك الروايات تزكية قوية مباشرة.

٤ ـ شهادات من القرآن . . .

وهكذا فإضافة إلى السور التي أشرنا إليها آنفا هناك آيات عديدة في كثير من السور يرجع تاريخ نزولها إلى مدد مختلفة، تتحدث هي الأخرى عن نفس الموضوع. وهذه أمثلة:

ـ فبخصوص ما كان يعتريه من اضطراب حين نزول الوحي عليه فالقرآن يشهد له بالصحة، بصفة مباشرة أو غير مباشرة، في عدة آيات منها قوله تعالى: **﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾**[١٨] وقوله: **﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾**[١٩] وقوله: **﴿طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾**[٢٠]. وأيضاً: **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى. إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾**[٢١].

ـ وإضافة إلى هذه الآيات التي تعرض للأحوال النفسية التي كانت تعتري النبي محمد ﷺ من جراء تجربة الوحي، هناك إشارات أخرى تخص ما كان يحس به من قلق وحزن وأسى بسبب رفض قريش التصديق بنبوته وتكذيبهم له واستهزائهم بما يأتيهم به. من ذلك قوله تعالى: **﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا**

---

(١٧) تجد هذه الروايات وكثير غيرها في: **سيرة ابن هشام**، السيرة الحلبية، كتب الحديث كالبخاري وغيره، **تاريخ الطبري** وتفسيره، ابن كثير في تاريخه، **البداية والنهاية**، وفي تفسيره، كما تجدها عند جل كتب التفسير الطوال، كـ **تفسير الرازي وتفسير القرطبي وتفسير الألوسي**. . . الخ.

(١٨) **القرآن الكريم**، «سورة القيامة،» الآيات ١٦ ـ ١٩.

(١٩) نفس المرجع، «سورة طه،» الآية ١١٤.

(٢٠) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ١ ـ ٣.

(٢١) نفس المرجع، «سورة الأعلى،» الآيتان ٦ ـ ٧.

الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾(٢٢)، وقوله: **﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾**(٢٣)، وقوله: **﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾**(٢٤).

ـ وآيات أخرى تؤكد له أن التكذيب الذي يتعرض له من طرف قومه قد تعرض له رسل من قبله، ولذلك فما عليه إلا أن يتحلى بالصبر، وذلك مثل قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾**(٢٥) وقوله: **﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾**(٢٦) **﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾**(٢٧)، **﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾**(٢٨).

ـ وآيات تشير إلى موقف المكذبين من قريش، الذين لم تكن عقولهم تستسيغ أن يكون هناك بعد الموت حياة وحساب فثواب أو عقاب، فوصفوا حديث القيامة والآخرة بـ «أساطير الأولين»: **﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾**(٢٩) وأيضاً: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاؤوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾**(٣٠)، **﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾**(٣١).

ـ كما يشير القرآن الكريم إلى اتهام قريش للنبي بكونه يستقي ما يقوله في القرآن من بعض أهل الكتاب الذين قالوا عنهم إنهم يملون عليه من كتب دينهم: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾**(٣٢). ويرد القرآن

---

(٢٢) نفس المرجع، «سورة الكهف،» الآية ٦. ويقصد بـ «باخع» معذب.
(٢٣) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآية ٣.
(٢٤) نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآية ٣٣.
(٢٥) نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآية ٣٤.
(٢٦) نفس المرجع، «سورة فاطر،» الآية ٤.
(٢٧) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآية ٤١.
(٢٨) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآية ٥٦.
(٢٩) نفس المرجع، «سورة المؤمنون،» الآيتان ٨٢ ـ ٨٣.
(٣٠) نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآية ٢٥. ويقصد بـ «أكنة» أغطية وبـ «وقراً» صمماً.
(٣١) نفس المرجع، «سورة الحجر،» الآية ١١.
(٣٢) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآيتان ٤ ـ ٥.

عليهم: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٣٣).

ـ ومع انتشار الدعوة المحمدية وتفشي أخبارها في القبائل العربية يلجأ كبار قريش إلى ممارسة الضغط المعنوي على النبي ـ فضلاً عن الضغط المادي القاسي الذي استهدفه والمستضعفين من أصحابه ـ فتارة يهددون وتارة يساومون. وتمر على النبي لحظات تغلب على نفسه فيها الرغبة في استمالة قريش، فيخطر بباله أحياناً القيام ببعض التنازل من أجل تحقيق هذا الغرض، ويأتي القرآن لينبه الرسول، بخطاب لا يخلو من مؤاخذة وعتاب، إلى أن عليه أن يثبت ولا يضعف ولا يساوم. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلا. إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً. وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلا قَلِيلاً﴾(٣٤) ومن ذلك أيضاً هذه الآيات التي تُهوِّن عليه الأمر بكون الرسل السابقين قد خطرت في أذهانهم أشياء من ذلك القبيل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٣٥).

ـ ويبدي بعض كفار قريش نوعاً من التعجب المشوب بالاستهزاء من أن يكون بشر مثلهم يتلقى الوحي من الله، فيجيبهم القرآن: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وبشّر الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾(٣٦). ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرا﴾(٣٧). ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

---

(٣٣) نفس المرجع، «سورة الشورى،» الآية ٥٢.

(٣٤) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآيات ٧٣ ـ ٧٦.

(٣٥) نفس المرجع، «سورة الحج،» الآيات ٥٢ ـ ٥٤. يقول الطبري في تفسير هذه الآية: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تلا كتاب الله، وقرأ، أو حدّث وتكلم، وألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه أو في حديثه الذي حدث وتكلم. فينسخ الله ما يلقي الشيطان، فيذهب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله». ويقال إن هذه الآيات نزلت بمناسبة قصة الغرانيق (راجع لاحقاً). ويقصد بـ ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أنها تسكن.

(٣٦) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآية ٢.

(٣٧) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآية ٧.

يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[٣٨].

رابعاً: لماذا لم تستجب قريش للدعوة المحمدية؟

١ ـ حيرة قريش أمام الخطاب القرآني

لم يكن مضمون الدعوة المحمدية، من القول بالتوحيد، وشجب الشرك وعبادة الأصنام، والقول بالبعث والحساب والجنة والنار الخ، هو وحده الذي صدم مخيال قريش ومنعهم من التصديق بنبوة محمد ﷺ، بل لقد أثار القرآن، بوصفه نظماً من الكلام لم يعرفوا له مثيلاً من قبل، حيرتهم إذ وجدوه يقع خارج أنواع الخطاب التي اعتادوها كخطاب الكاهن وخطاب الساحر و«خطاب» المجنون». ومع ذلك بقي اتهامهم له بالجنون والكهانة والسحر جارياً. يدل على ذلك رد القرآن عليهم في آيات متعددة تنتمي إلى مراحل مختلفة من الدعوة المحمدية، ذكرنا بعضها في الفقرات السابقة. والسؤال الذي يطرح نفسه علينا الآن هو التالي: لماذا أخرج كبراء قريش خطاب «الوحي» من أنواع الخطاب التي وصفوا بها القرآن؟ لقد ذكروا خطاب الشاعر وخطاب الكاهن وخطاب الساحر ولكنهم لم يذكروا خطاب الوحي، أو النبوة! فما الذي منعهم من ذلك؟

إذا نحن استعرضنا ردود القرآن على اعتراضاتهم على نبوة محمد ﷺ فإننا نجدهم يعللون عدم استجابتهم لها بجملة أمور أهمها:

ـ قالوا: إن محمداً بشر مثلهم! فلماذا يسلمون له بالنبوة والرسالة؟ وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ و﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾[٣٩]، ويقول: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بشراً رسولاً﴾[٤٠].

ـ وقالوا: إذا كان الله قد أراد فعلاً إرسال مبعوث إليهم، فلماذا لا يكون من كبرائهم حتى ينقاد الناس له: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٤١].

ـ وفي آيات أخرى ما يفيد أنهم طلبوا منه أن يطرد من صفوفه من سموهم

(٣٨) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآية ٦.

(٣٩) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيتان ٤ و٨ على التوالي.

(٤٠) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ٩٤.

(٤١) نفس المرجع، «سورة الزخرف،» الآية ٣١. ويقصد بـ «القريتين» مكة والطائف.

بـ «الأراذل»، أي الفقراء والعبيد، حتى يستجيبوا له، فجاء جواب القرآن قوياً واضحاً: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٤٢).

ـ وقالوا: لو كان رسولاً من الله حقا لجاء بمعجزة خارقة للعادة تميزه عنهم وتبرر انقيادهم له. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُه﴾(٤٣).

٢ ـ أناس لهم أموال . . وغياب مفهوم الوحي

قد يكون لما ذكروه دور ما في رفضهم الاستجابة للدعوة المحمدية. ولكن لماذا تجاوزوا ـ في مرحلة ما من مراحل الدعوة المحمدية ـ مجرد الرفض وعدم الاستجابة، إلى شن حملة من الاضطهاد والتعذيب على أتباع هذه الدعوة؟ ثم لماذا اضطروا إلى كتابة تعهد بينهم علقوه في الكعبة يلتزمون فيه بمقاطعة بني هاشم، عشيرة محمد، ووضع الرسول وأصحابه تحت الحصار في شِعب لعمه أبي طالب بالجبل المطل على مكة؟

يقدم لنا الطبري رواية تجيب عن هذا السؤال، مفادها أن النبي لما دعا قومه إلى الإسلام «لم يبعدوا منه أول ما دعاهم وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم (أصنامهم)؛ وقدم (إلى مكة) أناس من الطائف من قريش لهم أموال، أنكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قاله لهم، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس (انصرفوا) فتركوه، إلا من حفظه الله منهم وهم قليل».

الواقع أن هذا تعليل معقول: فبما أن القبائل العربية كانت لها أصنام في مكة والطائف تحج إليها وتقدم لها الهدايا، وتقيم الأسواق خلال ذلك، فإن مهاجمة الدعوة المحمدية للأصنام كان في الحقيقة مساً خطيراً بمورد اقتصادي يستفيد منه متمولو مكة والطائف، الأمر الذي كان لابد أن يدفعهم إلى محاربتها وتضييق الخناق على صاحبها وأتباعه. غير أن مثل هذه الدوافع الاقتصادية التي تحرك أصحاب الأموال لا تفعل فعلها في شرائح المجتمع الأخرى، عادة، إلا إذا كان

---

(٤٢) نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآية ٥٢.

(٤٣) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآيات ٩٠ ـ ٩٣.

هناك ما يخفي وجهها الحقيقي، إما بتغطيتها وتقديمها في حلة أخرى، وإما باستغلال جزء من المخيال الشعبي العام يصرف الناس عنها ويوجههم نحو ما يراد الوقوف ضده.

خامساً: في مفهوم الوحي . . .

١ ـ في معنى الوحي في اللغة

في هذا الإطار يجب الانتباه إلى أن مفهوم «الوحي» بمعناه الديني لم يكن من معهود العرب اللغوي والثقافي، الشيء الذي لابد أن يكون قد سهل على خصوم الدعوة المحمدية الدعاية ضدها وصرف الناس عنها. ذلك أننا إذا تصفحنا المعاجم اللغوية العربية فإننا سنجد أن لفظ «الوحي» فيها يدل على عدة معان تشمل «الإشارة والكتابة والرِّسالة والإلْهام والكلام الخَفِيّ وكلّ ما أَلقيته إلى غيرك»[٤٤]. أما المعنى الديني لهذه الكلمة فلا تشير إليه معاجمنا إلا بالعلاقة مع القرآن. ومثل النبوة في ذلك مثل الوحي. فالنبوة والنباوة في اللغة تفيد معنى الارتفاع عن الأرض، والنبي: المرتفع منها. وهذا يعني أن العرب قبل الإسلام لم يكن لديهم أي تصور للنبوة، إلا بمعنى الرفعة والشرف، أما أن يتلقي الواحد من البشر الوحيَ من الله فذلك ما كان غائباً عن معهودهم. وقد نجد فيما يلي ما يؤكد ذلك.

ذكر القرطبي أنه عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وتوجه بالدعوة إلى اليهود للدخول في الإسلام أجابوه، بنوع من الاستفزاز والتحدي، قائلين: «ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً، كما كلمه موسى ونظر إليه، فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك». فجاء رد القرآن: **﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾**[٤٥]. نحن إذاً إزاء تحديد جديد لمعنى الوحي جاء به الإسلام ليحصره في ثلاثة مستويات هي:

ـ مستوى الوحي بمعنى الإلهام و«التسخير» سواء تعلق الأمر بالجماد مثل قوله تعالى: **﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾**[٤٦] أو بالحيوان كقوله تعالى: **﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾**[٤٧] أو

---

(٤٤) أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، ١٥ ج (بيروت: دار صادر، [١٩٥٥ ـ ١٩٥٦])، ج ١٥، ص ٣٧٩.

(٤٥) **القرآن الكريم**، «سورة الشورى،» الآية ٥١.

(٤٦) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآية ١٢.

(٤٧) نفس المرجع، «سورة النحل،» الآية ٦٨.

بالإنسان كقوله: ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه**﴾[٤٨]. وهذا النوع كان معروفاً عند العرب واشتهر باسم «الإلهام».

ـ ومستوى «الكلام من وراء حجاب» كما كان الشأن مع موسى. قال تعالى: ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً**﴾[٤٩]. وهذا النوع تعرفه اليهود وقد عرفه عرب ما قبل الإسلام عن طريقهم. ويدخل في هذا، من معهود العرب، الكهانة والسحر والعرافة وما أشبه، مما يكون تنبأوا بواسطة «حجاب» مثل قراءة الكف والفنجان الخ. وهناك من المفسرين من قال إن موسى قد كلمه الله من وراء حجاب، أي بواسطة الشجرة التي كان بجانبها.

ـ أما المستوى الثالث من مستويات الوحي في الآية المذكورة فهو أن يبعث الله ملاكاً رسولاً، هو جبريل بالتحديد، ينقل كلام الله إلى الإنسان الذي اختاره الله رسولاً إلى البشر. وهذا النوع لم يكن للعرب علم به، لا في معهودهم الخاص ولا في ما كان يمكن أن يعلموه بواسطة أهل الكتاب. إن مفهوم الوحي عند هؤلاء غيره في الإسلام، كما سنرى في الفصل القادم.

٢ ـ النبي والرسول . . .

وكما كان مفهوم الوحي بالمعنى القرآني غائباً عن معهود العرب اللغوي والثقافي كان كذلك قرينه مفهوم «النبوة». بالفعل لقد اختلف علماء اللغة في الأصل الذي اشتق منه هذا اللفظ فانقسموا فريقين: فريق يقول إنه مشتق من فعل «أنبأ» بمعنى «أخبر»، والاسم منه: «نبيء» بالهمز. وبالتالي فـ«النبيء» هو الذي يأتي بالخبر. أما الفريق الثاني فيرى أن الهمز في «النَّبيءِ» لغة رديئة، وهي لغة أهل مكة، وقليلة الاستعمال وإن كان القياس لا يمنع من ذلك. وفي هذا الإطار يروى أن النبي ﷺ أجاب شخصاً دعاه «يا نبيء الله» بقوله: «لا تَنْبِر باسْمي، فإنما أَنا نَبِيُّ الله». وفي رواية: «قال لستُ بِنَيءِ اللَّهِ ولكنِّي نبيُّ الله». وينسب إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب قوله: «ما همز رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء، وإنما الهمز بدعة ابتدعوها من بعدهم».

والقائلون بعدم الهمز من علماء اللغة يرون أن لفظ النبّي «أُخِذَ من النَّبْوةِ والنَّباوةِ، وهي الارتفاع عن الأرض». ومن هنا صنعوا أصلاً لمفهوم «النبيّ» في العربية فقالوا: سمي النبي نبياً «لارْتِفاع قَدْره ولأَنه شُرِّفَ على سائر الخلق».

---

(٤٨) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآية ٧.

(٤٩) نفس المرجع، «سورة النساء،» الآية ١٦٤.

وأضاف بعضهم: «النَّبيُّ الطَّريقُ، والأَنْبِياء طُرقُ الهُدَى».

وبالنظر إلى هذا الاختلاف في تحديد معنى «النبي» في اللغة العربية يتضح أن المعنى الإسلامي لهذا اللفظ قد نشأ مع الإسلام، مثله مثل كثير من المصطلحات الشرعية التي اختص معناها في الإسلام بمضامين لم تكن تعطى لها قبل الإسلام كـ «الصلاة» و«الزكاة» و«الغسل» و«الوضوء» الخ. ومن هنا ارتأى بعض المستشرقين أن لفظ «النبي» في الاصطلاح الإسلامي مأخوذ من العبرية نابي (Nabi) وهو يدل على «الرائي» (قارئ المستقبل).

وأما الرسول فهو من «الرَّسل»، ويذهب الراغب الأصفهاني في كتابه **مفردات غريب القرآن** إلى القول: «أصل الرسل: الانبعاث (=الإرسال) على التؤدة ويقال: ناقة رسلة: سهلة السير. . . وقيل: على رسلك: إذا أمرته بالرفق». ومنه اشتق «الرسول» (بمعنى مرسول)، أي «مُتحمِّل (حامل) القول والرسالة». وقد استعمل لفظ الرسول في القرآن استعمالات متعددة. استعمل للواحد كقوله تعالى: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾[٥٠]، واستعمل لأكثر من واحد كقوله: ﴿**فقولا إنا رسول رب العالمين**﴾[٥١]، كما استعمل، تارة يراد به الملائكة كقوله تعالى: ﴿**ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى**﴾[٥٢] وتارة يراد به الأنبياء، مثل قوله: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾[٥٣]. كما استعمل الإرسال في القرآن في الأشياء المحبوبة والمكروهة، سواء بسواء، كإرسال الريح، والمطر، نحو: ﴿**وأرسلنا السماء عليهم مدراراً**﴾[٥٤]، وقد يكون ببعث من له اختيار، نحو إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿**ويرسل عليكم حفظة**﴾[٥٥]، وقد يكون ذلك بالتخلية وترك المنع، نحو قوله: ﴿**ألم ترَ أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّاً**﴾[٥٦]، كما يستعمل الإرسال في مقابل الإمساك. قال تعالى: ﴿**ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده**﴾[٥٧].

هذا ويميزون بين النبي والرسول على أساس أن النبي قد يأتيه الوحي ولا

---

(٥٠) نفس المرجع، «سورة التوبة،» الآية ١٢٨.

(٥١) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآية ١٦.

(٥٢) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآية ٣١.

(٥٣) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآية ١٤٤.

(٥٤) نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآية ٦.

(٥٥) نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآية ٦١.

(٥٦) نفس المرجع، «سورة مريم،» الآية ٨٣.

(٥٧) نفس المرجع، «سورة فاطر،» الآية ٢.

يكلف بتبليغه، على عكس الرسول المكلف بتبليغ رسالته. وعلى هذا فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقولون إن النبوة تغلب عليها الإضافة إلى النبي، فيقال نبوة النبي لأنه يستحق منها هذه الصفة. أما الرسالة فتضاف إلى الله لأنه هو المرسل. ومع ذلك يقال نبي الله كما يقال رسول الله.

هذا في اللغة واصطلاح القرآن. أما في الفكر الإسلامي عموماً فالكلام حول صفات النبي وحقيقة النبوة يختلف باختلاف الفرق المذهبية والاتجاهات الفكرية. ويمكن القول بصفة عامة إن اهتمام الفرق الكلامية كان مركّزاً على إثبات نبوة محمد ﷺ، وما به تثبت، وعلى ما يميز النبي عن سائر البشر مثل تلقي الوحي، وكيفية التلقي، واحتمال تعرضه للنسيان، وهل هو معصوم أم غير معصوم؟ كما دار كلامهم حول النبوة والولاية. . . الخ.

لنبدأ بالتعرف على رأي أهل السنة.

٣ ـ النبوة عند أهل السنة: معتزلة وأشاعرة

مصطلح «أهل السنة» يستعمل بمعنيين: عام، وخاص. فإذا قيل في مقابل «الشيعة» و«الخوارج» فهو يعمّ من تسمّوا في العهد الأموي بـ «أهل السنة والجماعة»، وهم الذين تفرع عنهم كل من المعتزلة والحنابلة والأشاعرة. هذا في المعنى العام. أما في المعنى الخاص فيقال للإشارة إلى أهل السنة الأوائل ثم الأشاعرة، وذلك في مقابل المعتزلة. ونحن سنستعمل هذا المصطلح في المعنيين معاً، والسياق هو الذي يميز بينهما.

لا يختلف موقف أهل السنة عن موقف المعتزلة من مسألة النبوة إلا في بعض الأمور التفصيلية التي ترجع إلى فروع مذهب كل منهما. فهم جميعاً يثبتون النبوات ويتعاملون مع مفهوم النبي بوصفه يدل على واحد من البشر اختاره الله لهذه المهمة، وبالتالي فهو ليس معصوماً، عصمة كلية، لا عن النسيان ولا عن السهو والخطإ ولا عن المعاصي، الكبائر منها والصغائر، وإن كانوا يضعون لذلك حدوداً وقيوداً تمنع من المسّ بعلو شأن النبي وطهارة سلوكه وأمانته، خصوصاً في مرحلة التبليغ عن الله، بحيث ينفون عنه النسيان والسهو والخطأ في هذا المجال، وذلك إبعاداً لشبهة النقص أو التغيير عن القرآن، وفاقاً مع قوله تعالى: ﴿**إنَا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[٥٨] وهكذا فالموجّه الأول والأخير لخطاب أهل السنة والمعتزلة حول النبوة موجّه مزدوج:

---

(٥٨) نفس المرجع، «سورة الحجر،» الآية ٩.

أ ـ الحفاظ على الطبيعة البشرية للرسول التي أكدها القرآن مرات عديدة، وذلك في مقابل ما تضفيه المسيحية على المسيح من صفات فوق بشرية، وأيضاً في مقابل نظرية الشيعة، الإمامية والإسماعيلية، والمتصوفة والباطنية عموماً، في النبوة والولاية، وسنعرض لها في الفصل القادم.

ب ـ الحفاظ على الطابع الإلهي للقرآن بوصفه كلام الله المحفوظ المنزه عن التبديل والتحريف، ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[٥٩]. أما عن العلاقة بين الذات الإلهية والقرآن بوصفه كلام الله، فلكلٍ رأيٌ خاص، وتلك مسألة تنتمي إلى مجال آخر، وسنعرض لها في حينه.

ومع ذلك فيجب أن لا نتصور أن أهل السنة على مذهب واحد، فقد تميز الأشاعرة عن الحنابلة حتى غدا لكل منهما مذهب قائم بذاته. ومع أن المعتزلة تجمعهم أصولهم الخمسة فإن فيهم فرقاً متعددة حتى أن كل كبير فيهم يشكل فرقة مع بعض تلامذته. وذلك سواء تعلق الأمر بموضوع النبوة أو بغيره من الموضوعات.

ذلك عن رأي أهل السنة عموماً في صفات النبي، أما عن رأيهم في حقيقة النبوة فيمكن القول إجمالاً إنهم يربطون النبوة بالرؤيا الصالحة، وذلك انطلاقاً من بضعة أحاديث، منها حديث رواه أبو هريرة جاء فيه أن النبي قال: «الرُّؤْيَا الْحسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وأَرْبَعينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»، وفي حديث آخر قالُ: «لَيْسَ يَبْقَى بَعْدِي مِنَ النُّبُوَّةِ، إلاَّ الرُّؤيَا الصَّالحَةُ».

وواضح أن المقصود بـ «الرؤيا» هنا ما يراه النائم. يقول بعضهم: «منام الأنبياء جزء من النبوة، وكانوا يعرفون أمر الله تعالى به، فلقد كانت نبوة جماعة من الأنبياء عليهم السلام بمجرد المنام». وقد رأينا في حديث ابتداء الوحي: أن أول ما نزل من القرآن على الرسول ﷺ كان عندما جاءه جبريل وهو نائم في غار حراء، أعني قوله تعالى: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق...**﴾.

٤ ـ الرد على منكري النبوة

أنكر خصوم الدعوة المحمدية من قريش نبوة محمد بن عبد الله كما أبرزنا ذلك قبل. ومع أن فتح مكة وانتصار الإسلام قد جعل حداً نهائياً لذلك فإن اتساع رقعة الدولة الإسلامية وامتدادها شرقاً إلى حدود الصين، وغرباً إلى المحيط الأطلسي، وتدفق «الملل والنحل» على المجتمع العربي الإسلامي، في العصر

---

(٥٩) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآية ٤٢.

العباسي الأول خاصة، قد فتح المجال واسعاً لمختلف المذاهب والفرق غير الإسلامية، وكان من بينها أولئك الذين تأثروا بآراء البراهمة من الهند الذين ينكرون النبوات. واشتهر في هذا المجال ابن الراوندي المتوفى حوالى منتصف القرن الثالث، الذي تنسب إليه مصادرنا رسالة سماها «الزمردة» ـ نقل فيها آراء البراهمة من الهنود في إنكار النبوات.

ويبدو أن هذا الكتاب قد لقي انتشاراً واهتماماً كبيرين، فقد تصدى للرد عليه كثيرون، كما ألف في إثبات النبوات فلاسفة إسماعيليون وغيرهم من الشيعة ـ ومعلوم أن المذهب الشيعي يقوم على الإمامة والولاية، وأساسهما النبوة كما سنرى. أما الفارابي فقد صاغ نظرية فلسفية تفسر ظاهرة النبوة بالمقارنة مع وضعية الفيلسوف. ومع ذلك يبدو أن آراء البراهمة في إنكار النبوات، التي انتشرت في القرن الثالث خصوصاً، قد بقيت حية في المجتمع الإسلامي حتى القرن الخامس والسادس، وقد تصدى للرد عليها كبار المتكلمين أمثال الشهرستاني من الأشاعرة، والقاضي عبد الجبار من المعتزلة، وفي ما يلي موجز لردودهما.

يتميز منهج المتكلم/ الفيلسوف الأشعري أبي الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨هـ) بإيراد آراء الخصوم بكل أمانة وموضوعية ثم الرد عليها ومقارعتها بحجة العقل، يلي ذلك شرح مذهب الإسلام في القضايا المطروحة باعتماد صريح العقل وصحيح النقل، شأنه في ذلك شأن كبار علماء الإسلام، أمثال القاضي عبد الجبار المعتزلي، وابن رشد الفيلسوف، وابن تيمية الحنبلي . . . الخ.

في إطار هذا المنهج الذي يؤسسه قوله تعالى ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾[٦٠] يعرض الشهرستاني في كتابه **الملل والنحل** آراء البراهمة **أولاً**، ثم يتصدى للرد عليها **ثانياً**، مبيناً طريقة الإسلام في إثبات النبوة، ملتزماً وضوح العبارة وهدوءها وسلامة الخطاب من كل تشنج أو صخب.

وهكذا يبدأ بإيراد نص دعوى البراهمة، فيقول: «قال رئيس البراهمة في التدليل على استحالة النبوة: إن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين: إما أن يكون معقولاً، وإما أن لا يكون معقولاً. فإن كان معقولاً فقد كفانا العقل التام إدراكه والوصول إليه، فأي حاجة لنا إلى الرسول؟ وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية ودخول في حريم البهيمية»! وقال (رئيس البراهمة): «قد دل العقل على أن الله تعالى

(٦٠) نفس المرجع، «سورة النحل،» الآية ١٢٥.

حكيم، والحكيم لا يتعبد الخلق إلا بما تدل عليه عقولهم، وقد دلت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً وأنه أنعم على عباده نعماً توجب الشكر، فننظر في آيات خلقه بعقولنا ونشكره لآلائه علينا. وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه، وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه. فما بالنا نتبع بشراً مثلنا! فإنه إن كان يأمرنا بما ذكرناه من المعرفة والشكر فقد استغنينا عنه بعقولنا، وإن كان يأمرنا بما يخالف ذلك كان قوله دليلاً ظاهراً على كذبه». وأيضا: «قد دل العقل على أن للعالم صانعاً حكيماً، والحكيم لا يتعبد الخلقَ بما يقبُح في عقولهم، وقد وردت (=جاءت) أصحاب الشرائع بمستقبحات من حيث العقل: من التوجه إلى بيت مخصوص في العبادة، والطواف حوله، والسعي، ورمي الجمار، والإحرام، والتلبية، وتقبيل الحجر الأصم، وكذلك ذبح الحيوان، وتحريم ما يمكن أن يكون غذاء للإنسان، وتحليل ما ينقص من بنيته، وغير ذلك. وكل هذه الأمور مخالفة لقضايا العقول».

ويضيف الشهرستاني: واحتج منكرو النبوة من هذه الفرقة الهندية بالقول: «إن أكبر الكبائر في الرسالة اتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس والعقل، يأكل مما تأكل، ويشرب مما تشرب، حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رفعاً ووضعاً، أو كحيوان يصرفك أماماً وخلفاً، أو كعبد يقدم إليك أمراً ونهياً. فأي تميز له عليك؟ وأي فضيلة أوجبت عليه استخدامك؟ وما دليله على صدق دعواه؟ فإن اغتررتم بمجرد قوله، فلا تمييز لقول على قول. وإن انحسرتم بحجته ومعجزته فعندنا من خصائص الجواهر والأجسام ما لا يحصى كثرة» (يعني أن فيها خرقاً للعادة كما في المعجزة).

وبعد هذا العرض الصريح والواضح لآراء منكري النبوات من الهنود يرد عليهم الشهرستاني الفيلسوف الأشعري، منطلقاً مما يقول به أهل السنة في إثبات النبوة، مستنداً إلى جواب القرآن لقوم قالوا في رسلهم مثل ما قاله البراهمة أعلاه، أعني قوله تعالى: **﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾**[٦١].

ونظرية «المنة» هذه هي أساس حجاج أهل السنة في إثبات النبوات. يقول الشهرستاني مخاطباً البراهمة، شارحاً هذه النظرية: «فإذا اعترفتم بأن للعالم صانعاً

(٦١) نفس المرجع، «سورة إبراهيم،» الآية ١١. ويقصد هنا بـ «رسلهم» رسل الأقوام المنكرين للنبوة.

وخالقاً وحكيماً، فاعترفوا بأنه آمرٌ وناهٍ، كالحاكم على خلقه، وله في جميع ما نأتي ونذر ونعمل ونفكر، حكم وأمر. وليس كل عقل إنساني على استعداد ليعقل عنه أمره، ولا كل نفس بشري بمثابة من يقبل عنه حكمه، بل أوجبَتْ مِنَّتُه ترتيباً في العقول والنفوس، واقتضت قسمته أن يرفع **﴿بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِياً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾**(٦٢) ويضيف الشهرستاني في رده على البراهمة قائلا: «فرحمة الله الكبرى هي النبوة والرسالة، وذلك خير مما يجمعون بعقولهم المختالة».

النبوة عند أهل السنة مِنَّةٌ من الله وفضل ورحمة، ترشد الناس إلى ما ليس من اختصاص العقل إدراكه، إلى بيان أوامر الله ونواهيه بما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. وفي هذا المجال يكاد يكون الفرق بينهم وبين المعتزلة في الألفاظ فقط، كما يتبين من رد القاضي عبد الجبار أحد كبار المعتزلة.

يوظف القاضي عبد الجبار، في رده على حجج البراهمة في إنكار النبوة، أحد مبادئ المعتزلة وهو مبدأ الحُسن والقبح. ومؤداه أنه إذا كان هناك ما يصلح للناس فلا يجوز أن نعتقد أن الله يبخل به ولا يفعله، بل لابد أن يفعله ضرورة، لأنه لا شيء يمكن أن يمنعه عن ذلك، ولأن ترك فعل الصلاح من دون مانع هو شيء قبيح، ولا يجوز الاعتقاد في أن الله يفعل القبيح. وهكذا: «فإذا صح في بعثه تعالى الرسلَ غرضٌ صحيح، ووجوه القبح عنها منتفية، فالواجب يقضي بحسن ذلك». أما كون إرسال الرسل من الله تعالى إلى البشر فعلاً حسناً، فذلك ـ كما يقول المعتزلة ـ لأن الرسالة الإلهية إنما تتوخى مصلحة الناس. فالغرض منها حفظ مصالحهم. وهذا أمر حسن.

ويشرح القاضي عبد الجبار مرتكز رأيه في هذا الشأن فيقول: «والأصل في هذا الباب أن نقول: إنه إذا تقرر في عقل كل عاقل وجوب دفع الضرر عن النفس، وثبت أيضاً أن ما يدعو إلى الواجب ويصرف عن القبيح فإنه واجب لا محالة، وما يصرف عن الواجب ويدعو إلى القبيح فهو قبيح لا محالة، إذا صح هذا . . . ولم يكن في قوة العقل ما يعرِّف ويفصِل بين ما هو مصلحة ولطف وبين ما لا يكون كذلك، فلا بد أن يُعرِّفَنا الله تعالى حال هذه الأفعال، كي لا يكون (عدم فعله ذلك) عائداً بالنقص على غرضه بالتكليف. وإذا كان لا يمكن تعريفنا ذلك إلا بأن يبعث إلينا رسولاً مؤيداً بعلم معجز دال على صدقه فلا بد

---

(٦٢) نفس المرجع، «سورة الزخرف،» الآية ٣٢.

أن يفعل ذلك ولا يجوز له الإخلال به». ويضيف القاضي عبد الجبار، و«لهذه الجملة قال مشايخنا إن البعثة (إرسال الرسل) متى حَسُنت وجبت، على معنى أنها متى لم تجب قبُحت لا محالة، وأنها كالثواب في هذا الباب فهو أيضاً مما لا ينفصل حسنه عن الوجوب».

ويقول القاضي عبد الجبار: أما ما يقوله البراهمة من «أن هؤلاء الرسل إن أتوا بما في العقل ففي العقل كفاية عنهم، وإن أتوا بخلافه، فيجب أن يكون قولهم مردوداً عليهم غير مقبول منهم (. . .) لأن ما تأتي به الرسل، والحال كما قلنا، لا يكون إلا تفصيل ما تَقَرَّرَ جملتُه في العقل، فقد ذكرنا أن وجوب المصلحة وقبح المفسدة متقرران في العقل. إلا أننا لمّا لم يمكنا أن نعلم، عقلاً، أن هذا الفعل مصلحة وذاك مفسدة بعث الله إلينا الرسل ليعرفونا ذلك من حال هذه الأفعال، فيكونوا قد جاؤوا بتقرير ما قد ركبه الله تعالى في عقولنا وتفصيل ما قد تقرر فيها»[٦٣].

ذلك هو مضمون المبدإ المشهور الذي عرفت به المعتزلة والقائل: «العقل قبل ورود السمع». ويقتضي هذا المبدأ أن العقل يقضي بوجوب النظر في الكون لمعرفة مبدعه وخالقه وحافظ نظامه، وهو الله. وذلك حتى لو لم يكن هناك نبي أو رسول يدعو إلى ذلك». فإذا أثبتنا وجود الله انتقلنا إلى إثبات النبوة بتوظيف مبدإ آخر من مبادئهم وهو أن العقل يعرف الحسن من القبيح بما ركب فيه الله من قوى. وبما أن إرسال الرسل لهداية الناس إلى طريق الحق وإرشادهم إلى مصالحهم في الدنيا والآخرة أمر حسن فإن العقل يقضي بأن الله لا يبخل بذلك، لأن الله «لطيف بعباده»، أي يسهل عليهم سبيل الرشاد وهذا هو مبدأ «اللطف» عندهم. ذلك، أنه لما كان من المصالح الدنيوية والأخروية ما لا يحيط به العقل، خصوصاً منها العبادات والشرائع، فإن مهمة الرسل هي بيان هذه للناس.

أما الأشاعرة فهم يوافقون المعتزلة في أن من بين سبل معرفة الله استدلال العقل عليه بالموجودات، وكذلك الشأن في إثبات النبوة، فهي تثبت بالعقل، غير أنهم ينفصلون عنهم بالقول إن مهمة العقل تنتهي بإثبات النبوة، بمعنى أن معرفة الحسن والقبيح هي من مهام السمع وليست من اختصاص العقل. وبعبارة أخرى إن على العقل أن يثبت النبوة، ثم يستقيل (الغزالي).

(٦٣) أبو الحسن بن محمد عبد الجبار، **شرح الأصول الخمسة**، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٦٥)، ص ٥٦٣ وما بعدها.

وأما الحنابلة فيقولون إن وجوب النظر والاستدلال لمعرفة الله أمر يعرف بالسمع وليس بالعقل، إذ لا مجال للعقل عندهم «في تحسين شيء من المحسنات ولا تقبيح شيء من المقبحات ولا في إثبات شيء من الواجبات ولا تحريم شيء من المحظورات ولا تحليل شيء من المباحات، وإنما يعلم ذلك من جهة الرسل الصادقين من قبل الله تعالى، ولو لم يَرِد الحكم والأمر من قِبَل الله تعالى لما وجبَ على العقلاء معرفة شيء من ذلك»[٦٤].

وإذاً فالخلاف بين المعتزلة والأشاعرة والحنابلة في هذه المسألة يرجع إلى اعتبارات مذهبية إيديولوجية وليس إلى اعتبارات معرفية إبيستيمولوجية. إنه خلاف ينبني على قول المعتزلة إن الله الذي خلق العالم قد قصد أن يجعل منه دليلاً على وجوده، وإلا كان خلقه له عبثاً، والله منزَّه عن العبث، وبالتالي فالنظر في العالم، الذي هو أمارة ودليل، لا بد أن يؤدي إلى إثبات المدلول وهو الله. أما الأشاعرة وأهل السنة عموماً فهم يقولون إننا لا نعرف كون العالم دليلاً وأمارة على وجود الله إلا من خلال «السمع»، أي لأن القرآن هو الذي يأمرنا بذلك.

(٦٤) أبو يعلى الحنبلي، **المعتمد في أصول الدين**، تحقيق وديع زيدان حداد (بيروت: دار المشرق، ١٩٧٤)، ص ٢١.

الفصل الخامس

حقيقة النبوة... وآراء في الإمامة والولاية

أولاً: الكِندي: عِلْم الرسل . . . مَوْجود جميعاً بالمقاييس العقلية

كانت المناقشات التي أوردناها في الفصل السابق تدور حول محور واحد، طرفاه: العقل والوحي. «البراهمة» يقولون باستغناء العقل عن النبوة، والمتكلمون الإسلاميون يثبتونهما معاً. أما فلاسفة الإسلام فقد سلكوا مسلكاً مغايراً ينبني على محاولة فهم ظاهرة النبوة وذلك بإيجاد مكان لها في منظوماتهم الفلسفية.

١ ـ علم الرسل، وعلم سائر البشر

كان الكندي (١٨٥ ـ ٢٥٢هـ) «أول فيلسوف عربي»، فهو ينتمي إلى قبيلة عربية مشهورة، قبيلة كندة. وكان أيضاً أول فيلسوف لـ «دولة العقل» في الإسلام، دولة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) والمعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ) والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ) التي سطع فيها نجم المعتزلة، الدولة التي دخلت في صراع مع الفقهاء والمحدّثين من أهل السنة ـ وعلى رأسهم ابن حنبل ـ وذلك في إطار ما عرف بـ «محنّة خلق القرآن»[١]. لقد عاصر الكندي أولئك الخلفاء، كما عاصر المتوكل الذي تولى الخلافة بعد الواثق (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ) والذي حدث في عهده ما عبّر عنه بعض المستشرقين بـ «الانقلاب السني» ضدّ المعتزلة، وقد تعرّض الكندي في عهده لبعض الاضطهاد، إذ كان أميل إلى المعتزلة، وذا صلة بالمعتصم فقد كان مؤدباً لولده أحمد، كما كتب له أشهر كتبه الفلسفية **رسالة في الفلسفة الأولى**[٢].

---

(١) سنخصص فصلاً خاصاً لهذه المحنة في القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٢) **الفلسفة الأولى، أو ما وراء الطبيعة، أو الميتافيزيقا**. انظر: أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي، **رسائل الكندي الفلسفية**، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، ٢ ج (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣).

يستعيد الكندي في هذه الرسالة بعض ما قاله أرسطو في كتابه **ما بعد الطبيعة**، معتبراً الفلسفة الأولى هي علم العلة الأولى (أو السبب الأول: الله)، وبالتالي فأول موضوعاتها وأشرفها: «علم الربوبية (إثبات وجود الله)، وعلم الوحدانية (وحدانيته ونفي الشريك عنه) وعلم الفضيلة وجملة علم كُلّ نافع . . . والبعد عن كُلّ ضار والاحتراس منه». ثُمّ يضيف: «واقتناء هذه جميعاً هو الذي أتت به الرسل الصادقة عن الله جلّ ثناؤه: فإن الرسل الصادقة صلوات الله عليها إنما أتت بالإقرار بربوبية الله وحده، وبلزوم الفضائل المرتضاة عنده، وترك الرذائل المضادة للفضائل في ذواتها وإيثارها»[٣].

هكذا يقيم الكندي توافقاً بين الدين والفلسفة، بين العقل والسمع، على أساس أن هدفهما واحد. غير أن وحدة الهدف لا تعني بالضرورة وحدة الوسيلة. ومن هنا التمييز بين نوعين من المعرفة: علم الرسل، وعلم سائر البشر.

الأول يكون «بلا طلب ولا تكلف ولا بحث ولا بحيلة الرياضيات والمنطق ولا بزمان، بل مع إرادته جلّ وتعالى بتطهير أنفسهم وإنارتها بالحق بتأييده وتسديده وإلهامه ورسالاته. فإن هذا العلم خاص بالرسل صلوات الله عليهم من دون البشر، و(هو) أحد خوالجهم العجيبة، أعني آياتهم الفاصلة لهم عن غيرهم من البشر»[٤].

أما **الثاني**، أي علم البشر، فواضح من النصّ أنّه يكون بالطلب والبحث والاستدلال وفي زمان. . وواضح أن تأكيد الكندي أن النبوة خاصة بالرسل وأنها آيتهم التي تفصلهم عن سائر البشر معناه سدّ الباب أمام القول بأي طريق آخر للمعرفة، وبالتالي رفض العرفان[٥]. إن المعرفة عند الكندي إما حسية وأداتها الحس وموضوعها الأشياء الحسية، وإما عقلية وأداتها العقل وموضوعها المعقولات أي المفاهيم المجردة، وإما إلهية وأداتها الرسل المبلغة عن الله، وموضوعها عالم الربوبية وتكون «بالإيجاز والبيان وقرب السبل والإحاطة بالمطلوب»[٦].

---

(٣) نفس المرجع، المقدمة.

(٤) «رسالة في كمية كتب أرسطوطاليس وما يحتاج إليه في تحصيل الفلسفة،» في: نفس المرجع، ص ٣٧٣.

(٥) كانت التيارات الباطنية ـ الشيعية وغيرها ـ قد برزت في عصره بوصفها إحدى القوى المعارضة لحكم المأمون والمعتصم والواثق. إضافة إلى المعارضة الرئيسيّة يومئذ، التي كان يقودها فقهاء ومحدثون من بينهم أحمد بن حنبل. فالدفاع عن العقل هنا هو انتصار لمذهب المعتزلة ضدّ على النصيين من أهل السنة وضدّ الباطنيين من الشيعة.

(٦) «رسالة إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى،» في: نفس المرجع، ص ١٥٥.

وكما أن التمييز بين معرفة الرسل ومعرفة سائر البشر لا يعني وجود تناقض بينهما، إذ هدفهما واحد، فكذلك الحقيقة الدينيّة لا تتناقض مع الحقيقة العقلية بل هما مظهران لحقيقة واحدة. يقول الكندي: «إن قول الصادق محمد صلوات الله عليه وما أدّى عن الله عزّ وجل لَمَوْجود جميعاً بالمقاييس العقلية التي لا يدفعها إلا من حرم صورة العقل واتحد بصورة الجهل من الناس، فأما من آمن برسالة محمد (ﷺ) وصدقه ثُمّ جحد ما أتى به وأنكر ما تأوّل ذوو الدين والألباب (يعني المعتزلة) ممن أخذ عنه، صلوات الله عليه، فظاهر الضعف في تمييزه، إذ يبطل ما يثبته وهو لا يشعر بما أتى من ذلك، أو يكون ممن جهل العلة التي أتى بها الرسول صلوات الله عليه ولم يعرف اشتباه الأسماء فيها والتصريف والاشتقاقات اللواتي وإن كانت كثيرة في اللغة العربية فإنها عامة لكُلّ لغة»(٧).

٢ ـ التأويل لا يعني اختراق المجال التداولي

الحقيقة الدينيّة إذاً لا تتناقض مع العقل، غير أنها في بعض الأحيان لا تُنال من ظاهر النصّ بل قد يستلزم الأمر اللجوء إلى التأويل. والتأويل في هذه الحالة لا يعني اختراق المجال التداولي الذي نزل فيه القرآن إلى مجال آخر بعيد عنه كما يفعل أهل «الباطن». إن الكندي يؤكّد احترام أساليب اللغة العربية في التعبير، في ذات الوقت الذي ينحو فيه بالتأويل منحىً عقلياً صرفاً. وهكذا فعندما سأله تلميذه المعتصم عن معنى آية: ﴿**والنجم والشجر يسجدان**﴾(٨) نبه على فساد التقيد بظاهر الآية لكون النجوم لا يمكن أن يقع منها السجود الحقيقي المنصوص عليه في الشرع عند الصلاة، وقال إن معنى سجود النجوم هو جريانها في مداراتها والتزامها حركاتها التي تنشأ عنها الظواهر الطبيعية الجوية والأرضية، وبالتالي أداؤها الوظيفة التي حددها لها خالقها، وظيفة الحفاظ على نظام العالم(٩) كما نبه على فساد التأويل الباطني الذي يعتبر النجوم كائنات عقلية إلهية، أو على الأقل تسيرها «عقول سماوية إلهية»، هي التي تقوم بالسجود والتسبيح... إلخ(١٠).

---

(٧) «رسالة في الإبانة عن سجود الجرم الأقصى وطاعته لله عز وجل،» في: نفس المرجع، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٨) **القرآن الكريم**، «سورة الرحمن،» الآية ٦.

(٩) «رسالة في الإبانة عن سجود الجرم الأقصى وطاعته لله عز وجل،» ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(١٠) استعدنا هنا فقرات من: محمد عابد الجابري، «تنصيب العقل في... الإسلام،» في: محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١، ط ٩ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦).

ثانياً: الفارابي: النبي والفيلسوف

لم يكن الفارابي باطنياً بهذا المعنى، لكن هاجس التوفيق بين ما يعطيه الدين وما تقول به الفلسفة قد جعله يتبنى فكرة الفيض ويقيم عليها فلسفته، ومن ضمنها نظريته في النبوة. إنها نفس الفكرة ـ فكرة الفيض ـ التي تشكل الأرضية التي تؤسس آراء النزعات الباطنية، شيعية وصوفية كما سنرى.

١ ـ فكرة الفيض ومشكلة صدور الكثرة عن الواحد

يعالج الفارابي مسألة النبوة داخل نظريته في الفيض التي حاول أن يفسر بها كيفية صدور العالم عن الله. لقد انطلق الفارابي في هذا المجال من فكرة «واجب الوجود» (يعني الله) بوصفه موجوداً أزلياً لا شريك له ﴿**لم يلد ولم يولد**﴾[(١١)]، مضْفِياً عليه من صفات الكمال والتنزيه جميع الصفات التي يصفه بها المتكلمون المسلمون. ولما كان القرآن قد نصّ على أن الله خلق الكون بأسره (السماوات والأرض والإنسان)، وكان يخاطب الناس بما يفهمون وعلى قدر عقولهم، فقد ارتأى الفارابي أن الدين بيَّن لجمهور الناس كيفية الخلق بما يناسبهم من أنواع الخطاب من ضرب المثل والتصوير التشخيصي. . . إلخ. أما الفلاسفة أنفسهم فقد رأوا أن عليهم أن يحاولوا فهم ذلك بالطريقة التي لا تتناقض مع العقل (العلمي والفلسفي كما كان في عصرهم). وهكذا فبما أن الله «خلق الإنسان على صورته» (كما في التوراة، وفي القرآن: ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾[(١٢)]، وفي الحديث: «خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ على صُورَتِهِ»[(١٣)]. وبما أن أرقى ما في الإنسان هو العقل، فقد تصور الفلاسفة اللهَ على أنّه «عقل»، فنزّهوه عن جميع أنحاء النقص بما في ذلك الدخول في أية علاقة مع المادة، لأن المادة محل للتغير والفساد، والله منزه عنهما. كما نزهوا الله عن الشريك، فهو واحد لا تعدد في ذاته ولا في صفاته، ولا ندّ له[(١٤)].

والمشكلة التي واجهت الفلاسفة في هذا المجال هي أنّه: إزاء وحدانية الله هناك التعدد في العالم! والله موجِد العالم أو خالقه، فكيف نفهم العلاقة بين تلك الوحدانية وهذا التعدد؟ وبعبارة أخرى: كيف نفهم صدور الكثرة عن الواحد. إنها

(١١) **القرآن الكريم**، «سورة الإخلاص،» الآية ٣.

(١٢) نفس المرجع، «سورة غافر،» الآية ٦٤.

(١٣) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، الحديث رقم ٦٠٨٤.

(١٤) أبو نصر محمد بن محمد الفارابي، **كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة**، قدم له وحققه ألبير نصري نادر (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، [١٩٥٩]).

نفس المشكلة التي واجهت فلاسفة اللاهوت المسيحي (نومينيوس، أفلوطين. . . إلخ). في القرن الثاني والثالث الميلادي فحاولوا تجاوزها بتوظيف فكرة «الفيض» فقالوا بالأقانيم الثلاثة (الله، العقل الكلي، النفس الكلية، على اختلاف بينهم). أما بعض الفلاسفة المسلمين، وبالتخصيص الفارابي وابن سينا اللذان نحوا منحىً توفيقياً بين الدين والفلسفة فقد وسّعوا من دائرة الفيض، كما فعل فلاسفة مدرسة حران[١٥] التي درس فيها الفارابي، فقالوا: إن الله، بما أنّه عقلٌ، وهو الموصوف بالكمال، فهو لا يعقل إلا ما هو كامل، ولا كامل إلا هو، وبالتالي فهو لا يعقل إلا ذاته. وبالتالي فهو عقل وعاقل ومعقول.

٢ ـ العقل الأول، والعقول المدبرة للكواكب. .

وفكرة الفيض تقتضي أنّه: بما يعقل العقل الأول (الإله) ذاته، يفيض عنه عقل ثانٍ مثله (كما يرى الإنسان نفسه في المرآة). وهذا العقل الثاني يعقل ذاته ويعقل مصدره الذي فاض عنه، فيفيض عنه عقلان، أحدهما من كونه عَقَل مصدره (العقل الأول)، والآخر من كونه عَقَل ذاته. ويستمر فيض العقول بهذا الشكل كحل لمشكلة صدور الكثرة عن الواحد إلى العقل العاشر. والسبب في وقوفهم عند العقل العاشر هو أن الناس قد اعتقدوا منذُ القديم أن الأرض مركز الكون يحيط بها عدد كبير من النجوم الثابتة وسبع كواكب سيارة. وهذه الكواكب السبع السيارة (المجموعة الشمسيّة: زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر) لها تأثير خاص على الأرض: الشمس تمدها بالضياء والحرارة ومن ثُمّ تؤثر في النبات والحيوان والإنسان إلخ. والكواكب الأخرى لها تأثيرها أيضاً. وقد رسم الفلكيون مدارات (أو أفلاكاً) لحركات الكواكب السبع السيارة، واعتمد الناس منذُ القرن الثاني للميلاد النظام الفلكي الذي وضعه بطليموس (١٠٠ ـ ١٧٠ م) لتلك الحركات.

تبنّى فلاسفة الفيض النظام الفلكي البطليموسي، وجعلوا لكُلّ فلك محركاً يقوده في مداره (يدبره) وسموا هذا المحرك عقلاً، وأضافوا إلى الأفلاك السبعة فلكين آخرين يحيطان بالكون كُلّه، هما الفلك المحيط بالسماء كلها (كرة السماء)، وفلك النجوم الثابتة. وهذان الفلكان يدبرهما عقلان هما الواسطة بين مدبرات الكواكب السبع وبين العقل الأول (الله) فصارت العقول الفائضة عن العقل الأول تسعة، وبإدخال هذا الأخير في الحساب، يكون عددها عشرة: يحرك الأعلى منها

(١٥) تبنّى الفارابي الصيغة الحرانية (الوثنية) لفكرة الفيض متحرراً من مسألة التثليث فجعل العقول السماوية عشرة وشيد عليها فلسفته كلها بما في ذلك نظريته في النبوة وفي الجمع بين الدين والفلسفة. وقد سار ابن سينا على دربه مع نزوع نحو ما دُعي بـ «العقلي» أو الفلسفة «المشرقية».

الأدنى (كما هو الحال في الجهاز الداخلي للساعة: آلة ضبط الوقت). والعقل الأول (الله) هو المحرك الأول لهذه العقول، ولكن لا بصفته يتحرك، فهو منزه عن الحركة والتغير، بل لكونه نقطة جذب لتلك العقول، تنجذب إليه بتأثير من كماله وبهائه وجوده، كما ينجذب العاشق إلى معشوقه... إلخ.

هذا وقد طابق ابن سينا وبعض متفلسفة المتصوفة بين تلك العقول العشرة وبين الملائكة وأصنافها كما وردت في القرآن أو في بعض الأحاديث. ففي القرآن الكريم **﴿الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾**(١٦) والملائكة الحافظون والكاتبون، **﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِراماً كَاتِبِينَ﴾**(١٧) والملائكة «السفرة»(١٨) و«الروح» (جبريل): **﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾**(١٩)... إلخ.

٣ ـ الاتصال بالعقل الأول: القوة النظرية وقوة المتخيلة

هذا على صعيد الوجود، أما على صعيد المعرفة فالعقل الأول (الله) لا تخفى عنه خافية، فعلمه علم محيط بكل شيء. وهكذا فإذا استطاع الواحد من الناس الارتفاع بمستوى عقله عن طريق النظر والتجريد (الفلسفة) إلى أعلى درجة فإنه يستطيع الاتصال بالعقل الأول بتوسط العاشر المدبر لما تحت فلك القمر، أي للأرض وما عليها وما حولها... إلخ. (ويسمى أيضاً العقل الفعال، وواهب الصور للمواد، ومرتبته مرتبة الملك جبريل في الخطاب الدينيّ). ومن هذا الاتصال عبر العقل العاشر يتلقى الإنسان المعرفة الحقيقة، بالله والطبيعة والإنسان، إما على شكل معرفة نظرية برهانية، وهذا هو الفيلسوف، وإما على شكل مثالات وصور بيانية، وهذا هو النبي، الشخص من البشر الذي يوحى إليه. والفرق بين الفيلسوف والنبي في نظر الفارابي هو أن الفيلسوف يرقى إلى مرتبة «الاتصال» بواسطة المعرفة الواسعة والنظر الدقيق المبني على التجريد والاستدلال، بينما يبلغها النبي بفضل ما أوتي من خيال قوي نافذ.

وإذا كان مفهوماً أن الفيلسوف يصل إلى هذه المرتبة بالاكتساب، أي بطول الدراسة والتأمل والانشغال بالعلم... إلخ. فإن صاحب المخيلة القوية يصل إلى ما يصل إليه بالطريقة التالية: فإذا حدث أن تحررت القوة المتخيلة في الإنسان من تأثير زميلاتها الأخرى (الحسية والشهوانية والغضبية والنزوعية والعاقلة)، وانفردت

---

(١٦) **القرآن الكريم**، «سورة النساء،» الآية ١٧٢.

(١٧) نفس المرجع، «سورة الانفطار،» الآيتان ١٠ ـ ١١.

(١٨) **﴿بأيدي سفرة﴾** [نفس المرجع، «سورة عبس،» الآية ١٥].

(١٩) نفس المرجع، «سورة القدر،» الآية ٤.

بنفسها كما يحدث أثناء النوم، فإنه قد يحدث لها أن تنشغل بما تجده عندها من صور المحسوسات محفوظة فيها، فتفعل فيها فعلها بأن تركب بعضها إلى بعض وتفصل بعضها عن بعض، وقد تحاكي بعضها متأثرة في ذلك بـ «مزاج» الشخص، فتكون عن هذه الأنواع من المحاكاة الأحلامُ والمنامات. وقد تكتسي المحاكاة في بعض الأحيان طابع الفعل إذا كان المزاج يدفعها إلى ذلك، فيقوم النائم ماشياً، أو يأتي بأفعال يقوم بها في اليقظة عادة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، قد تحصل القوة المتخيلة على بعض ما يُفيضه العقلُ الفعال على القوة الناطقة، وهو «بمنزلة الضياء من البصر»، فيتشكل ما تقبله منه في صورة منامات ورؤى صادقة، إن كان من الجزئيات. أما إن كان من الكليات فيتشكل في صورة كهانات على الأشياء الإلهية. ومن هنا ما ينسب إلى الكاهن من القدرة على التنبؤ بما سيحدث. وذلك كُلّه قد يحدث في النوم وقد يحدث في اليقظة، «إلا أن التي تكون في اليقظة قليلة وفي الأقل من الناس».

٤ ـ النبوة أكمل المراتب التي تبلغها المتخيلة

أما إذا كانت القوة المتخيلة في إنسان ما قوية كاملة جداً، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لا تستولي عليها استيلاء يستغرقها بأسرها، أو يجعلها في خدمة القوة الناطقة، وكانت حالها هذه في وقت اليقظة مثل حالها في وقت النوم. فحينئذ يمكن هذا الإنسان أن يتلقى في يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة أو محاكياتها من المحسوسات كما يتلقى محاكيات المعقولات المفارقة (للمادة) وسائر الموجودات الشريفة (العقول، الملائكة) ويراها، فيكون له بما قبِله من المعقولات نبوة بالأشياء الإلهية. «فهذا أكمل المراتب التي تنتهي إليها القوة المتخيلة وأكمل المراتب التي يبلغها إنسان بقوته المتخيلة»[٢٠] إنها مرتبة النبوة حسب الفارابي وابن سينا ومن سار على دربهما من القائلين بنظرية الفيض.

ثالثاً: النبوة والولاية: الظاهر والباطن. . .

١ ـ الولاية «سلطة إلهية» خصّ الله بها الأنبياء والأولياء

عندما ننتقل من الخطاب السني، المعتزلي الأشعري الحنبلي، حول إثبات النبوة، إلى «فلسفة» النبوة والولاية كما طرحتها الشيعة والمتصوفة، فنحن ننتقل من

---

(٢٠) الفارابي، **كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة**، ص ٩٤ ـ ١٠٥ وما بعدها.

نظام معرفي بياني يتعامل مع ظاهر النصّ الدينيّ، قرآناً وحديثاً، إلى نظام معرفي عرفاني، تؤسسه فكرة الفيض ويتوازى مع فلسفة الفارابي في النبوة، وبالتالي يتعامل مع النصّ القرآني على أنّه ظاهر وباطن، والظاهر فيه هو مجرد مطية للباطن. الظاهر لعموم الناس وأما الباطن فلخاصتهم. والمقصود بالخاصة هنا هم الأئمة عند الشيعة والأولياء عند المتصوفة ويجمعهم مصطلح «الولاية».

والولاية رئاسة: والرئاسة قد تكون دينية وقد تكون سياسية. الولاية الشيعية رئاسة دينية وسياسية معاً، أما الولاية الصوفية فدينية فقط. وقد تتحول إلى رئاسة سياسية أيضاً عندما ينخرط أصحابها في سلك السلاطين فيكونون للحاكم «جنوداً في الليل»، أو يثورون ضده كما حصل مع بعض الطرق الصوفية. وما يهمنا هنا هو موقع الولاية من النبوة عند كُلّ من الشيعة والمتصوفة.

وعندما نتحدث هنا عن الشيعة فنحن نعني الشيعة الإمامية الاثني عشرية. هي تقول باثني عشر إماماً هم: علي بن أبي طالب وابناه الحسن، والحسين، وابن هذا الأخير علي زين العابدين، وابنه محمد (الباقر)، وابن هذا الأخير جعفر (الصادق). وابنه موسى (الكاظم) ـ ومنه تفرع المذهب الموسوي الاثنا عشري ـ وابنه علي (الرضي)، وابنه محمد، وابن هذا الأخير علي (الهادي)، وابنه الحسن العسكري، وابن هذا الأخير محمد بن الحسن (الإمام الغائب ويلقبونه بالحجة القائم المهدي. ولد سنة ٢٥٥هـ وغاب الغيبة الكبرى سنة ٣٢٩ هجرية وينتظرون رجعته إلى اليوم). أما الشيعة الإسماعيلية ـ أو الفاطميون ـ الذين نقلوا الإمامة من الإمام السادس جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل وذريته فقد ذهبوا بعيداً في باطنيتهم فغرفوا من الفلسفة الهرمسية، ورفعوا أئمتهم أحياناً إلى مرتبة الألوهية[٢١].

وبالعكس من هؤلاء وأولئك: الشيعة الزيدية، نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي اعترف بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان فرفضه باقي الشيعة فأطلق عليهم خصومهم اسم الرافضة. والزيدية لا تختلف عقائدها كثيراً عن مذهب المعتزلة. وهم، كالإسماعيلية اليوم، أقلية بالنسبة للإمامية الاثني عشرية»: شيعة إيران والعراق، ولبنان.

---

(٢١) من أجل تفاصيل أوفى عن الإسماعيلية وفلسفتهم، راجع: محمد عابد الجابري: «العقل المستقيل: ٢ ـ في الثقافة العربية الإسلامية،» فقرة ٥، و«أزمة الأسس.. وتأسيس الأزمة،» فقرة ٦ في: الجابري، **تكوين العقل العربي**، ومحمد عابد الجابري: «الظاهر والباطن: ١ ـ الحقيقة بين التأويل و«الشطح،» ص ٢٧١ ـ ٢٩١، و«الظاهر والباطن: ٢ ـ المماثلة أو القياس العرفاني،» ص ٢٩٣ ـ ٣١٥ في: محمد عابد الجابري، **بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية**، نقد العقل العربي؛ ٢، ط ٧ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤)، القسم ٢: **العرفان.**

٢ ـ الشيعة: ما ختم هو نبوة التشريع وحدها

الشيعة الإمامية الإثنا عشرية يقولون بالعصمة للأنبياء ولأئمتهم. والولاية في تصورهم» سلطة إلهية» خصّ الله بها الأنبياء والأولياء سواء بسواء. ذلك أن كُلَ الفرق بين النبي والولي، حسب ما يروونه عن جعفر الصادق، أكبر الأئمة عندهم، هو أن النبي يحلّ له من النساء أكثر من أربع، بينما لا يحلّ ذلك للولي (الإمام). أما ما عدا هذا، فالولي ـ أو الإمام ـ هو في منزلة النبي، يُبلّغ عنه ويتحدث باسمه، وتعتبر تعاليمه من تعاليم النبي أو هي نفسها. ومن هنا يقرر علماء الشيعة أن الأحكام الشرعيّة الإلهية لا يصحّ أخذها إلا من الأئمة. أما أخذها من الرواة والمجتهدين، كما يفعل أهل السنة، فهو» ابتعاد عن محجة الصواب في الدين». ومن هنا كانت الولاية عندهم ركناً من أركان الإسلام، بل أول ركن فيه، والباقي تَبَع له.

على أنّه إذا كان الشيعة يقرنون أو يساوون بين الولاية والنبوة فهم يميزون بين النبي والرسول. فالرسول هو الذي يوحى إليه ويكلف بتبليغ الرسالة، أما النبي والإمام فيوحى إليهما ولكن دون أن يكلفا بتبليغ رسالة جديدة، وإنما يشرحان رسالة الرسول الذي يندرجان في دوره. وهذه المرتبة الثانية هي مضمون»الولاية» عند الشيعة، إنها نبوة الإمام، وهي مستمرة ولم تختم، ولن تختم إلا بعودة الإمام الغائب، الثاني عشر. وأما ما ختم بمجيء» خاتم النبيين والمرسلين» محمد ﷺ فهو الرسالة، وبالتحديد» نبوة التشريع» التي تتضمن بيان الفروض والأحكام»، أما النبوة بمعنى تلقي الكلام الإلهي فهي مستمرة في أشخاص الأئمة.

تلك نظرة موجزة عن الولاية عند الشيعة في علاقتها بالنبوة، فلننظر الآن في الولاية عند المتصوفة، مقتصرين على الذين يصنفون أنفسهم داخل»السنة»، أما الذين اتجهوا بتصوفهم اتجاهاً»فلسفياً» فسنتحدث عنهم لاحقاً.

٣ ـ المتصوفة «السنّيون»: وتأسيس الولاية. .

لقد كان من الطبيعي أن يبدأ المتصوفة السنيون كلامهم في «الولاية» بالعمل على تأسيسها شرعاً وذلك بالتماس سند لها من القرآن والسنة. فمن القرآن يذكرون قوله تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾[٢٢]. وإذا كانت هذه الآية لا تحمّل بالضرورة جميع المعاني التي حمّلها الصوفية لمفهوم «الولاية» عندهم، فإن الحديث التالي الذي ترويه بعض كتب الحديث، يكاد ينطق بما يريدون. يقول الحديث: «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء. قيل: من

---

(٢٢) **القرآن الكريم**، «سورة يونس،» الآية ٦٢.

هم يا رسول الله؟ وصِفهم لنا لعلنا نحبهم. قال ﷺ: قوم تحابوا بروح الله من غير أموال ولا اكتساب، وجوهرهم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس»[٢٣]. وإذا كان ليس من الضروري الشكّ في صحة هذا الحديث على مستوى السند، فإن المعنى الذي يضمنه له المتصوفة ليس من الضروري قبوله. فالهجويري مثلاً ـ وهو متصوف سني ومؤرخ للتصوف يشرحه بقوله: «والمراد من هذا هو أن تعرف أن لله عزّ وجل أولياء قد خصهم بمحبته وولايته، وهم ولاة ملكه الذين اصطفاهم وجعلهم آية إظهار فعله، وخصهم بأنواع الكرامات وطهرهم من آفات الطبع، وخلّصهم من متابعة النفس، فلا همَّ لهم سواه، ولا أنس لهم إلا معه». وواضح أن الواحد من الناس، ممن يتقنون العربية وعلوم القرآن وعلوم الحديث، لا يمكن أن يستنبط، لا من القرآن ولا من الحديث، هذه المعاني التي ذكرها الهجويري من دون أن تكون لديه أفكار مسبقة عنها.

يجمع المتصوفة السنيون على ترتيب الأولياء بعد الأنبياء. ولكن تمييزهم بين النبي والرسول يعود بهم إلى نوع من المساواة بين الولاية والنبوة، على الرغم من حرصهم على التأكيد أن مرتبة الأنبياء أشرف وأعلى من مرتبة الأولياء، الأمر الذي يعني أن الفرق بين الأنبياء والأولياء فرق في الدرجة فحسب، وليس فرقاً في النوع. فبخصوص الرؤية مثلاً ـ رؤية الله ـ يقولون: إن رؤية الله عند الأنبياء تكون منذ البداية بينما لا تكون عند الأولياء إلا عند نهاية طريقهم. على أن ادعاء رؤية الله للأولياء في آخر الطريق، أي عند بلوغهم أعلى المراتب عندهم، يفتح الباب امام القول باكتساب النبوة، ويصبح الفرق حينئذ بين النبي والولي هو أن **الأول** نبي بالفطرة و**الثاني** نبي بالاكتساب. وتلك نتيجة قبلها بعضهم صراحة، وسكت عنها آخرون، بينما رفضها فريق منهم. والكلام نفسه يقولونه عن المعراج: «معراج الأنبياء يكون من وجه الإظهار بالشخص والجسد، ومعراج الأولياء يكون من وجه الهمة والأسرار (. . .) ويكون ذلك بأن يجعل الولي مغلوباً في حاله حتّى يسكر، وعندئذ يغيب عنه سِرّه في الدرجات ويزين بقرب الحقّ» (=الله).

٤ ـ العصمة والكرامات للأولياء

أما العصمة فبعضهم يتجنب لفظها ويقول بـ «الحفظ»، بمعنى أن الله يحفظ الأولياء من ارتكاب الكبائر والصغائر، ومعلوم أنّه ليس للعصمة معنى آخر غير هذا،

(٢٣) لم يرد لا في البخاري ولا في مسلم، ولكن ورد عند النسائي وأبي داود وفي مسند ابن حنبل، بألفاظ متقاربة.

ولذلك نجد بعضهم ينطق بها من دون تردد. يقول القشيري: «ولا يكون ولياً إلا إذا كان موفقاً لجميع ما يلزم من الطاعات معصوماً بكل وجه من الزلات».

وكما يختص الأنبياء بالمعجزات يختص الأولياء بالكرامات. ويستند المتصوفة «السنيون» في إثباتها للأولياء إلى مبدإ التجويز (تجويز خرق العادة وبالتالي إنكار السببية) وهو المبدأ الذي كرسه الغزالي في الفكر السني لإثبات المعجزة. يقول القشيري: «وظهور الكرامات على الأولياء جائز. والدليل على جوازه، أنّه أمر موهومٌ حدوثُه في العقل، لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل من الأصول (الدينيّة)، فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على إيجاده. وإذا وجب كونه مقدوراً لله سبحانه فلا شيء يمنع جواز حصوله».

وقد قامت مناقشات كلامية حول هذه المسألة، خصوصاً حول ما إذا كانت كرامة الولي «ناقضة للعادة»، كمعجزة النبي أم لا؟ يدافع الهجويري بحرارة عن كون كرامة الولي «ناقضة للعادة» كالمعجزة تماماً، دليله في ذلك أنّه ما دام الولي لا يدعي النبوة فلا شيء يمنع من القول إن كرامته ناقضة للعادة مثلها مثل المعجزة.

رابعاً: الحقيقة المحمدية: ولاية الإمام... وأنبياء الأولياء

عندما كنا بصدد عرض خطاب أهل السنة، معتزلة وأشاعرة وسلفيين، «في الردّ على منكري النبوات»كنا نتحرك على ظاهر النصّ القرآني، أما في الفقرة السابقة التي عرضنا فيها لرأي الشيعة الإمامية و«المتصوفة السنيين» في «النبوة والولاية» فقد كان الخطاب يتحرك على مستوى ما يمكن أن ندعوه «سطح الباطن». أما هنا فسنتحرك على مستوى البنية الفكرية العميقة التي تؤسس هذا السطح.

١ ـ فكرة الفيض تغزو الفكر الشيعي

سيكون منطلقنا على هذا المستوى «حديث» للإمام الشيعي الأكبر جعفر الصادق أورده المسعودي، المؤرخ المشهور، وكان شيعي الميول، قال فيه (جعفر): «روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ أنّه قال: إن الله حين شاء تقدير الخليقة وذر البرية وإبداع المبدعات نصب الخلق في صورة كالهباء، قبل دحو الأرض ورفع السماء، وهو في انفراد ملكوته وتوحيد جبروته؛ فأتاح نوراً من نوره فلمع، ونزع قبساً من ضيائه فسطع، ثُمّ اجتمع النور في وسط تلك الصورة الخفية، فوافق ذلك صورة نبينا محمد ﷺ، فقال الله عزّ وجل من قائل: أنت المختار المنتخب، وعندك مستودع نوري وكنوز هدايتي، من أجلك أسطِّح البطحاء وأموِّج

الماء وأرفع السماء وأجعل الثواب والعقاب والجنة والنار، وأنصب أهل بيتك للهداية وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يُشكِل عليهم دقيق ولا يُعيِيهم خفي، وأجعلُهم حجتي على بريتي، والمنبهين على قدرتي ووحدانيتي».

ويضيف هذا المروي عن علي كرم الله وجهه: «ولم يزل الله تعالى يخبئ النور تحت الزمان إلى أن وصل محمداً ﷺ في ظاهر الفترات، فدعا الناس ظاهراً وباطناً وندبهم سراً وإعلاناً. وانتقل النور إلى غرائزنا ولمع في أئمتنا، فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض. فبنا النجاة، ومنا مكنون العلم، وإلينا مصير الأمور، وبمهدينا تنقطع الحجج، (فهو) خاتمة الأئمة، ومنقذ الأمة، وغاية النور ومصدر الأمور. فنحن أفضل المخلوقين وأشرف الموحدين وحجج ربّ العالمين، فليهنأ بالنعمة من تمسك بولايتنا وقبض على عروتنا»(٢٤).

في هذا الحديث الذي رواه المسعودي عن جعفر الصادق منسوباً إلى علي بن أبي طالب، وترويه مصادر شيعية أخرى، تتأسس معرفة أئمة الشيعة ليس فقط على «العلوم» التي قالوا إنهم ورثوها عن النبي محمد (ﷺ)، عبر الإمام علي، بل أيضاً على الانتظام في سلك ما تعبر عنه العرفانية الإسلامية، شيعية كانت أو صوفية، بـ «**النور المحمدي**» **أو** «**الحقيقة المحمدية**»)، ومرتبته تتطابق مع مرتبة «العقل الثاني» الفائض عن العقل الأول (الله) في فلسفة الفيض.

٢ ـ الإمامة الشيعية الانتظام في سلك النور المحمدي

وهكذا فهذا النور المحمدي لمع وسطع، من نور الله، فكان أول ما أبدعه الله. إنه النور الذي يسري في الكون منذ الأزل، والذي منه كانت نبوة آدم ومن جاء بعده من الأنبياء إلى أن وصل محمد بن عبد الله، النبي الأمي المكي، فانتقل منه إلى الأئمة الشيعة من بعده، الذين سيكون آخرهم هو المهدي المنتظر «خاتمة الأئمة ومنقذ الأمة وغاية النور».

هذا الانتظام في سلك النور المحمدي، النور الذي يشكل الحقيقة الأولى التي أبدعها الله والتي يقتبس منها الأنبياء أنوار النبوة، هو معنى «**الولاية**»، ولاية الإمام في العرفانية الشيعية. وبما أن هذا النور المحمدي يسري في الأئمة الشيعة من طريقين، الطريق الأزلي المنطلق من الحقيقة المحمدية التي كانت أول ما أبدع الله، والطريق البشري المنحدر إليهم من شخص النبي محمد الأمي المكي، فإن «علم»

---

(٢٤) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق يوسف أسعد داغر (بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٥)، ج ١، ص ٣٨ ـ ٣٩.

الإمام سيكون أكمل وأتم من علم الأنبياء السابقين لمحمد. وهذا ما يقرره حديث آخر منسوب إلى الإمام جعفر الصادق.

تلك هي «الخلفية الفلسفية» لنظرية الإمامة / الولاية عند الشيعة الاثني عشرية. وإذا نحن عمدنا الآن إلى سحب ما يتصل بالجانب السياسي في الفكر الشيعي من هذه الخلفية فإننا سنجد أنفسنا إزاء نفس الخلفية الفلسفية التي تؤسس التصوف الباطني. والواقع أن ما يجمع المتصوفة بالشيعة (اثنا عشرية وإسماعيلية) على مستوى ما عبّرنا عنه بالبنية العميقة لسطح خطابهم الباطني هو أنهم يغرفون من مصدر واحد، هو الفلسفة الدينيّة الهرمسية[٢٥]. وهكذا فكما عمل الشيعة على صياغة ما غرفوه من هذا المصدر بالصورة التي تجعله يتفق مع عقائد مذهبهم، عمل المتصوفة الكبار، وفي مقدمتهم ابن عربي، على صياغة ما أخذوه من ذات المصدر، صياغة تفصلهم عن التشيع كمذهب سياسي ديني.

٣ ـ ابن عربي: الحقيقة المحمدية، اسم ظاهر واسم باطن!

من هؤلاء المتصوفة المتفلسفة من وظف في عرفانيته ألفاظاً سنية حتّى لا تتعارض ـ ظاهرياً على الأقل ـ مع المذهب السني كما فعل ابن عربي. ومنهم من مال إلى الأفق العرفاني الإشراقي السينوي ـ الشيعي كالسهروردي، ومنهم من بقي مخلصاً للعرفانية المحض كابن سبعين. وسنقتصر هنا على نتف من كلام صاحب كتاب **الكبريت الأحمر والسرّ الأفخر والدر الجوهر**: الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي (٥٦٠ ـ ٦٣٨هـ)، وإن كنا سنعتمد هنا، في ما يخص موضوعنا، على كتابه الأساسي **الفتوحات المكية**.

ميز ابن عربي بين زمانين أو تاريخين: زمان يبدأ «عند وجود حركة الفلك لتعيين المدة المعلومة عند الله»، والذي تزامنت بدايته مع خلق الروح المدبرة أي العقل الأول، وهو زمان الحقيقة المحمدية قبل ظهور محمد الرسول المكي، وزمان بدأ بظهور هذا الأخير أعني محمد المكي. وفي هذا التمييز يوظف ابن عربي حديثاً منسوباً إلى النبي (ﷺ) ورد فيه: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[٢٦].

ومهما يكن، فالزمان الأول ـ عند ابن عربي ـ يمتد من إبداع الله للعقل الأول أو الحقيقة المحمدية إلى يوم تجلي هذه الحقيقة في محمد الجسماني الرسول

---

(٢٥) سبق أن فصّلنا القول في هذا الموضوع في: الجابري: «العقل المستقيل: ٢ ـ في الثقافة العربية الإسلامية،» وبنية العقل العربي: **دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية**، القسم ٢: **العرفان**.

(٢٦) لم نعثر له على أثر في كتب الحديث. قال عنه ابن تيمية: «كذب باطل».

العربي، وهو زمان «الاسم الباطني» للحقيقة المحمدية. أما الزمان الثاني فهو يبدأ مع محمد الجسماني المكي، وهو زمان «الاسم الظاهر» لتلك الحقيقة. في الزمان **الأول** كان الحكم له باطناً في جميع ما ظهر من الشرائع على أيدي الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين، وفي الزمان **الثاني** صار الحكم له ظاهراً، فنسخ كُلّ شرع أبرزه الاسم الباطن بحكم الاسم الظاهر، لبيان اختلاف حكم الاسمين، وإن كان المشرِّع واحداً، وهو صاحب الشرع».

ومن هنا كانت الولاية ولايتين: ولاية عامة تباطن دورة الحقيقة المحمدية قبل تجليها في شخص محمد، وولاية خاصة بالدورة المحمدية بعد تجلي تلك الحقيقة فيه. وهذه الأخيرة تتميز عن الأولى بجملة أمور، منها: أن «العلم في هذه الأمة أكثر مما كان في الأوائل؛ وقد أُعطي محمد (ﷺ) علم الأولين والآخرين لأن حقيقة الميزان (= العدل في الكون) تعطي ذلك». ومن هنا أيضاً «كان الكشف أسرع في هذه الأمة مما كان في غيرها».

٤ ـ وراثة النبوة تعني الاتصال بجبريل بالهمة والكد!

ليس هذا وحسب، بل إن الله «يقيم» للولي، في هذه الولاية الخاصة بالدورة المحمدية، مظهرَ محمد وهو يأخذ الوحي عن جبريل، فيأخذ هذا الولي نفس الشرع من جبريل كما أخذه محمد. كما يستطيع هذا الولي تصحيح الحديث النبوي مع النبي محمد نفسه، بصورة مباشرة ودونما حاجة إلى إسناد. يقول ابن عربي: «وربّ حديث يكون صحيحاً من طرق رُوَاته يحصل لهذا المكاشَف الذي عاين هذا المظهر، فيسأل النبي ﷺ عن هذا الحديث الصحيح فأنكره (النبي)، وقال له: لم أقله ولا حكمت به، فيعلم (الولي) ضعفه فيترك العمل به عن بينة من ربه». وهذا الصنف من الأولياء يطلق ابن عربي عليهم **«أنبياء الأولياء»**. وهم يستطيعون الأخذ عن جبريل وعن النبي محمد مباشرة: «بالهمة والعلم، من غير معلم من المخلوقين غير الله».

وهذا في نظره هو معنى وراثة النبوة، وهي من خصائص **«أنبياء الأولياء»** التي تميزهم من غيرهم من عامة الأولياء. فمثل هؤلاء يحفظون الشريعة الصحيحة التي لا شكّ فيها على أنفسهم وعلى هذه الأمة ممن اتبعهم، فهم أعلم الناس بالشرع. ويضيف ابن عربي: «غير أن الفقهاء لا يسلمون لهم ذلك، وهؤلاء ـ يعني أنبياء الأولياء ـ لا يلزمهم إقامة الدليل على صدقهم، بل يجب عليهم الكتم لمقامهم، ولا يردُّون على علماء الرسوم (الفقهاء) في ما ثبت عندهم، مع علمهم بأن ذلك خطأ في نفس الأمر، فحكمهم حكم المجتهد».

خامساً: الوحي في اليهودية والمسيحية. . . والقرآن في الإسلام

قد يستغرب القارئ هذا الانتقال من تصور النبوة والولاية عند الشيعة والمتصوفة إلى تصور الوحي والنبوة عند علماء الدين في اليهودية والمسيحية! ومع أن التشابه بين التصورين، الذي سيلمسه القارئ بنفسه، والذي حمل بعض علماء السنة على اتهام منظّري الفكر الشيعي والفكر الصوفي بالأخذ من الفكر اليهودي والمسيحي يبرر مثل هذا الاتهام، فإننا نرى أن هذا التشابه يرجع أساساً إلى كون التصورين معاً قد غرفا من مصدر واحد هو الفلسفة الدينيّة الهرمسية التي هيمنت في الإسكندرية في القرنين الثاني والثالث الميلادي، كما سبق أن بينّا ذلك في مكان آخر(٢٧). وما جعلنا نلفت النظر هنا إلى التشابه المذكور، ليس تأكيد أو نفي ذلك الاتهام، فالفلسفات الدينيّة تلتقي عادة في أكثر من صعيد، وليس من المستبعد «أن يقع الحافر على الحافر» كما قال الغزالي في ردّ مثل ذاك الاتهام. إن هدفنا هنا من طرح التصور اليهودي والمسيحي للوحي وللنبوة ـ في وقت يكثر فيه الحديث عن حوار الديانات والحضارات ـ هو إبراز خصوصية تصور كُلّ من الديانات السماوية الثلاث، لموضوع هو أساس الاختلاف بين هذه الديانات، ومنه تتفرع المسائل الأخرى المختلف حولها.

١ ـ الوحي في اليهودية مركّز على شعب

إذا نحن تتبعنا مسار الخطاب في التوراة، وهو مسار لم يشيَّد مرة واحدة بل تكوَّن على مدى ألف وستمائة سنة، وجدنا أن مفهوم الوحي، عند منظري هذا الخطاب، قد تطور في الفكر اليهودي عبر مرحلتين رئيسيتين: الأولى تمتد من قصة بداية الخلق إلى شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام. أما الثانية فتمتد من إبراهيم الخليل (وإسحاق ويعقوب) إلى ظهور عيسى عليه السلام.

في المرحلة الأولى كان «الوحي»، بمعنى الكشف والتجلي (Révélation)، يعني خروج الله من وحدته التي كان عليها منذُ الأزل. في البدء ـ الذي لا بداية له ـ كان الله ولا شيء معه. ثُمّ اقتضت مشيئته أن يكشف عن ذاته: «أراد أن يكون مرئياً ومسموعاً ومعروفاً»، فخلق العالم والزمان، وخلق الإنسان. تجلى الله للإنسان وحصل اللقاء بينهما كما في قصة آدم. ومن آدم خلق الله شعوباً وأمماً، وتتابعت تجلياته لمخلوقاته في أشكال مختلفة ومناسبات متعددة ولكن من دون أن يستغرقه

---

(٢٧) الجابري: «العقل المستقيل: ٢ ـ في الثقافة العربية الإسلامية،» وبنية **العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية**، القسم ٢: **العرفان.**

أو يحتويه أو يبتلعه حادث أو مخلوق، بل بقي دائماً الإله الوحيد. وبوصفه كذلك، أي الإله الوحيد، كشف عن ذاته لشيوخ الشعب المختار لديه، «الشعب الذي ظلّ ينتظره»، فصار من الواجب أن ينسب إلى شيوخ هذا الشعب، فيدعى: «إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب». ولما تغير اسم يعقوب (بن إسحق بن إبراهيم) فأصبح يدعى «إسرائيل» ـ ومعناه: «يجاهد مع الله» ـ صارت ذريته تحمل اسمه: بني إسرائيل، وصار الإله: «إله بني إسرائيل».

ذلك هو اللقاء الأول، لقاء إله بني إسرائيل مع جدهم أبرام ومعناه: الأب الرفيع. في هذا اللقاء الذي حصل على مستوى «الرؤيا» كان الميثاق وكان الوعد، وفيه غير الإله اسم أبرام إلى إبراهيم ومعناه: أب لجمهور.

أما اللقاء الثاني فقد حصل بين بني إسرائيل وإلههم في سيناء حين «كلم الله موسى تكليماً» ـ حسب عبارة القرآن. كان لقاءً قال عنه كُلّ إسرائيلي إن الله قد انكشف له وتجلى، وأنه رآه وجهاً لوجه، «وبصورة أوضح مما سيراه في ما بعد كبار الأنبياء».

ذلك هو الوحي في معناه الأول في اليهودية، الوحي بمعنى أن الله هو الذي كشف عن ذاته وتجلّى لشعبه المختار، بعد أن كان ولا شيء معه. بعد هذا الكشف أخذ الوحي يكتسي مظهراً آخر، هو الإلهام: (Inspiration). أرسل الله الأنبياء إلى الشعب المختار وكان هؤلاء الأنبياء يتلقون الكلمة منه إما بواسطة الرؤيا وإما بصوت وإما بالنفث في داخل النفس. هذا النمط من الوحي يتولى تعبيره كبار رجال الدين المختصين في تعبير الرؤيا.

لم يكن هناك في تصور بني إسرائيل خاتمٌ للنبوة، وإنما بقي الباب مفتوحاً لانتظار مجيء نبي عظيم كموسى، يجمع شتات الشعب اليهودي ويعيد إليه أمجاده «فترجع القدس له وأرض كنعان كلها، وتكون له الكلمة العليا على العالمين». وانتظار هذا المشيَّح (المسيح، المهدي المنتظر) هو ما يملأ زمان «شعب الله المختار»، وهو ما يعطي التاريخ معنى لديه. وإلى أن يأتي سيبقى الوحي الذي تلقاه الأنبياء على صورة رؤيا موضوعاً للتأويل المستمر، للكشف عن معناه الباطني العميق الذي يعطي لكُلّ حادثة معناها ولكل مرحلة دلالتها.

٢ ـ وفي المسيحية على شخص المسيح

عندما ظهر عيسى بن مريم وسط اليهود، بوصفه ذلك المشيَّح المنتظر، آمنت به طائفة ورفضه الباقي. ولما رأى دعوته تلاقي من اليهود العداء والمحاربة كلف ـ

في ما قيل ـ أحد أتباعه شاول الذي تسمى باسم بولس الرسول ـ وكان قبل اعتناقه المسيحية من أشدّ الناس قساوة على أتباعها ـ كلفه بنشر الدعوة خارج المجتمع اليهودي، أي لدى الشعوب الوثنية. وقد قام القديس بولس بهذه المهمة فجادل «الوثنيين» ومنهم أتباع الفلسفة اليونانية فتأثر بفكرهم وشيّد هو ومن سار على دربه من الحواريين نظرية جديدة في الوحي تقوم على «التثليث»، وهي النظرية التي ستصبح المذهب الرسمي للمسيحية. أما الآراء الأخرى بما في ذلك تلك المتمسكة بما كان عليه الحال زمن عيسى، فستصبح هرطقة وضلالاً[٢٨].

في اليهودية كان الوحي عبارة عن خروج الله عن أحديته عندما «كان ولا شيء معه» فخلق العالم وما فيه. ومع ذلك لم يفقد واحديته بل بقي وحيداً متعالياً على العالم. أما مع نظرية التثليث المسيحية فقد تحوّل الكشف إلى تجسد: تجسد الله في عيسى بن مريم، هذا الابن الذي تقول عنه نظرية التثليث: «لا أب له غير الله نفسه». وهكذا، فما تمّ تدريجياً منذُ بدء الخليقة، وعَبْر مسار تجلّى الله فيه لمخلوقاته في صور متعددة ومناسبات شتى، بلغ كماله وتمامه عندما «امتلأ زمان النبوة وكشف الله عن نفسه نهائياً وللمرة الأخيرة في يسوع» (عيسى). ومن هنا صار هذا الأخير يجسد كمال الوحي، على مستوى موضوعه ومصدره في آن واحد. ولم يكن هذا الوحي الذي تجسد في عيسى مجرد إلهام أو رؤيا ولا مجرد كلام، بل لقد اتخذ شكل حلول الله ذاته في شخص المسيح.

لكن المسيح، الذي جاء بمهمة «المخلص»، مات مقتولاً كإنسان مشخص، وتقول العقيدة المسيحية إنه قام في اليوم الثالث وأوصى بما أوصى به، ثُمّ غاب، مرفوعاً إلى السماء، وسيقوم من جديد في آخر الزمان ليخلص الإنسان من الخطيئة الأصلية، خطيئة آدم، وليقيم العدل ويقهر الجور.

٣ ـ أمّا في الإسلام فالوحي مركّز على القرآن

هذا القدر الذي قدمنا عن معتقد كُلّ من اليهودية والمسيحية كاف، ليجعلنا نلاحظ فرقاً كبيراً بين مفهوم الوحي لديهما من جهة، وبين مفهومه لدى أهل السنة في الإسلام بمختلف تياراتهم من جهة أخرى. يتمثل هذا الفرق في ما عبر عنه أحد الباحثين الأوروبيين بقوله: «الوحي في اليهودية مركّز على شعب، وفي المسيحية على شخص المسيح، أما في الإسلام فهو مركز على كتاب هو القرآن»، وله الحقّ في ذلك، ولكن مع هذا الاستدراك! وهو أن هذا يصدق مائة في المائة على أهل

(٢٨) راجع ما قلناه في هذا الشأن في الفصل ١ من هذا الكتاب.

السنة، أما الشيعة والمتصوفة ففلسفة النبوة والولاية عندهم لا تتناقض مع التصور اليهودي المسيحي بل تتوازى معه، كما هو واضح من النظر إلى التصورين على صعيد البنية الحاملة لكلّ منها.

نعم، أهل السنة هم، وحدهم، الذين يتخذون القرآن (والسنة المبينة له) مرجعيتهم الوحيدة. ليس في العقيدة والأخلاق والأحكام فحسب، بل أيضاً في تصورهم لدور النبي نفسه. هم يستندون إلى القرآن الذي يؤكّد أن الرسول محمداً بشر كسائر البشر، كلّ ما ميزه الله به هو أنّه أنزل عليه القرآن وحياً بواسطة جبريل. ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾(٢٩). وبما هو بشر فسيموت كما يموت البشر، ولن يبقى بعده غير الوحي الذي نزل عليه، وهو القرآن: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾(٣٠). وفي خطبة الوداع قال الرسول: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللّهِ» (صحيح مسلم). بعض الروايات تضيف: «وسنة نبيه»، وأخرى تورد بدل هذه: «وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي».

وفي جميع الأحوال فالنبوة، عند أهل السنة بجميع فرقهم الكلامية ومذاهبهم الفقهيّة، قد انتهت والرسالة ختمت. ومرجعيتهم في ذلك القرآن والحديث، لا غير. ففي القرآن: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾(٣١). وفي الحديث ورد في البخاري «أَنَّ أبا هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: لم يَبقَ من النبوَّةِ إلا المبشِّرات. قالوا وما المبشرات؟ قال: الرُّؤيا الصالحة»(٣٢).

سادساً: ابن رشد: دليل النبوة الإتيان بشريعة صالحة

١ ـ عود على بدء!

تعرفنا في الفصل السابق وفي هذا الفصل على أهم الأفكار التي راجت في الفكر الإسلامي حول النبوة وحقيقتها. بدأنا بالمرويات التي تشرح حدث الوحي

---

(٢٩) **القرآن الكريم**، «سورة فصلت،» الآية ٦.

(٣٠) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآية ١٤٤.

(٣١) نفس المرجع، «سورة الأحزاب،» الآية ٤٠.

(٣٢) البخاري، **صحيح البخاري**، الحديث رقم ٦٨٣٨. وقد ورد هذا الحديث بألفاظ مشابهة في مصادر أخرى.

ومعاناته، ثُمّ انتقلنا إلى مفهوم الوحي والنبوة كما حاول علماء اللغة تأسيسه في اللغة العربية ذاتها، لنعرض بعد ذلك آراء الفرق الكلامية السنية التي اهتمت بالموضوع: المعتزلة والأشاعرة خاصة، (الفصل السابق). ثُمّ عرضنا في هذا الفصل لآراء الكندي التي تنتمي إلى الفلسفة على صعيد الخطاب ولكنها تتحرك عقدياً على أفق فكر المعتزلة. ثُمّ انتقلنا بعد ذلك إلى نظرية الفيض كما طبقها الفارابي لبيان العلاقة بين النبي والفيلسوف، هذه النظرية التي فتحت أفقاً آخر امام الفكر الشيعي، الإمامي منه والإسماعيلي من جهة، والفكر الصوفي من جهة أخرى؛ الأمر الذي قادنا إلى طرح مسألة «النبوة والولاية» عند هؤلاء وأولئك. ثُمّ تابعنا طريقنا في هذا الاتجاه لنبلغ به منتهاه مع نظرية «الحقيقة المحمدية» لدى متفلسفة التشيع والتصوف. وأخيراً عرضنا لتصور الفكر اليهودي والمسيحي للوحي والنبوة، من أجل مقارنته مع التصور الإسلامي.

شخصية علمية، فلسفية وفقهية، بقيت غائبة في العرض الذي قدمناه! إنها ابن رشد.

فعلاً، لقد أخَّرْنا الحديث عن ابن رشد ليس فقط لأنه جاء في مرحلة زمنية متأخرة بالنسبة إلى من ذكرناهم، بل أيضاً لأنه يضرب صفحاً، وبقوة، عن فكرة الفيض وما شيد عليها، سواء على مستوى فهم العلاقة بين الدين والفلسفة أو على مستوى العلاقة بين النبوة والإمامة والولاية. لقد درس ابن رشد فلسفة أرسطو (المتوفى عام ٣٢٢ قبل ميلاد المسيح) وهي خالية تماماً من هاجس التوفيق بين الدين والفلسفة، كما درس العلوم العربية وتضلع من العلوم الإسلامية فوجد أنّه لا علاقة إطلاقاً بين الفلسفة (أرسطو) والدين (الإسلام)، لأن الأمر يتعلق في نظره ببناءين مستقلين لكُلّ منهما أصوله ومبادئه، وأن امتحان صدق أية قضية في أي منهما يجب أن يكون داخله، وليس خارجه.

٢ ـ نظرية الفيض تخرص وهوس وخرافات!

أما نظرية الفيض، التي اعتمدها كُلّ من الفارابي وابن سينا والتيارات الباطنية، في دمج الدين في الفلسفة والفلسفة في الدين، فهي دخيلة على كُلّ من الفلسفة (الأرسطية) والدين (الإسلامي) معاً. ولذلك فهي في نظره: كلها «تخرُّص على الفلاسفة من ابن سينا وأبي نصر (الفارابي) وغيرهما»[٣٣] وأنها

---

(٣٣) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، **تهافت التهافت: إنتصاراً للروح العلمية وتأسيساً لأخلاقيات الحوار**، مع مدخل ومقدمة تحليلية وشروح للمشرف على المشروع محمد عابد الجابري، سلسلة التراث الفلسفي العربي. مؤلفات ابن رشد؛ ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨)، ص ٢٥١.

نتيجة «تعمق هؤلاء في الهوس»[٣٤] وأنها «كلها خرافات وأقاويل أضعف من أقاويل المتكلمين، وهي كلها أمور دخيلة في الفلسفة ليست جارية على أصولهم (الفلاسفة). وكلها أقاويل ليست تبلغ مرتبة الإقناع الخَطَبي فضلاً عن الجدلي»[٣٥].

لم يناقش ابن رشد، إذاً، ما قاله الفارابي عن النبي والفيلسوف ولا ما ذهبت إليه التيارات الباطنية بمختلف منازعها في موضوع النبوة والإمامة والولاية، فالأمر بالنسبة إليه يصدق عليه القول المشهور «ما بني على فاسد فهو فاسد». والمذهب الوحيد الذي ناقشه فيلسوف قرطبة في موضوع النبوة هو مذهب الأشاعرة. ذلك لأن هؤلاء قد بنوا مذهبهم في إثبات النبوة على الإتيان بمعجزة. والمعجزة تعني عندهم «خرق العادة» أي تعطيل مفعول السببية.

٣ ـ من رفع الأسباب فقد رفع العقل!

يناقش ابن رشد هذا الاتجاه بتفصيل، في كتابه **الكشف عن مناهج الأدلة**، ويبين ضعف استدلالاته. هو يرى أن النبوة هي وحي من الله إلى الناس. فيجب أن يعترف الخصم بوجود الله أولاً حتّى يمكن الكلام معه في النبوة. أما إذا كان لا يؤمن بالله فيجب أن نبدأ معه من إثبات وجوده. فكيف يمكن أن نقنع الخصم بوجود الله إذا نحن ألغينا فكرة السببية؟ إننا لا نتوصل إلى إثبات وجود الله إلا من تأمل سلسلة الأسباب التي تنتظم الكون بأسره، فمن الصعود من المسببات إلى أسبابها ننتهي إلى السبب الأول الذي هو الله الخالق.

إن إنكار مبدإ السببية يلغي، في نظر ابن رشد، إمكانية معرفة حقيقة أي شيء، فنحن لا نعرف حقيقة الأشياء إلا بمعرفة أسبابها. وبعبارته المشهورة «فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل». لأن «العقل ليس شيئاً آخر غير إدراك الأسباب». ويضيف: «أما إنكار وجود الأسباب الفاعلة التي تشاهد في المحسوسات فقول سفسطائي. والمتكلم بذلك إما جاحد بلسانه لما في جنانه، وإما منقاد لشبهة سفسطائية عرضت له في ذلك. ومن ينفي ذلك فليس يقدر أن يعترف أن كُلّ فعل لا بُدَّ له من فاعل»[٣٦]، وهو أساس البرهنة على وجود الله.

(٣٤) نفس المرجع، ص ٢٨٨.

(٣٥) نفس المرجع، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٣٦) نفس المرجع، ص ٥٠٥.

٤ ـ الجواز في العقل ليس هو الجواز الذي في الطبيعة

أما قول المتكلمين الإسلاميين في ردهم على البراهمة الذين ينكرون النبوّات: «إن وجود الرسل يدلّ عليه العقلُ لكون ذلك جائزاً في العقل، فإن الجواز الذي يشيرون إليه هو جهل. وليس هو الجواز الذي في طبيعة الموجودات، مثل قولنا: إن المطر جائز أن ينزل وأن لا ينزل. وذلك أن «الجواز» الذي هو من طبيعة الموجود هو أن يُحَسَّ أن الشيء يوجد مرة ويفقد أخرى، كالحال في نزول المطر، فيقضي العقل حينئذ قضاء كلياً على هذه الطبيعة بالجواز».

فلو كان الخصم (البراهمة) قد اعترف بوجود رسول واحد في وقت من الأوقات، لظهر أن الرسالة من الأمور الجائزة الوجود. أما والخصم يدّعي أن ذلك لم يُحَسَّ بعد، فالجواز الذي ندعيه إنما هو جهل بأحد المتقابلين، أعني «الإمكان والامتناع». والذين يقولون بإمكان وجود الرسل، إنما صحّ لديهم وجود هذا الإمكان، لأنهم قد أدركوا وجود الرسل منهم في الشاهد، كأن يرسل زيد عَمْراً إلى أناس لغرض ما. أما أن نقول إن إحساس الناس بوجود الرسل من بعضهم إلى بعض في الشاهد يدلّ على إمكان وجودهم من الخالق، فهذا يقتضي تساوي الطبيعتين، البشرية والإلهية، وهذا شيء عسير قبوله، لأن ما يصدق على زيد أو عمرو لا يصدق بالضرورة على الله[٣٧].

٥ ـ وجود الأنبياء ظاهرة تاريخية

ولذلك يرى ابن رشد أن الطريق الصحيح في هذه المسألة هو كما يلي: أما إثبات بعثة الرسل، أي وجود الأنبياء، فهذا أمر لا نحتاج فيه إلى استدلالات نظرية. فوجود الأنبياء ظاهرة تاريخية: لقد تواتر الخبر عن وجود الأنبياء في الماضي، جيلاً عن جيل، كما تواتر الخبر عن وجود الفلاسفة والعلماء والفاتحين... إلخ. وإذا كنا لا نشكّ في وجود الحكماء مثل سقراط وأفلاطون، مثلاً، فلماذا نشكّ في وجود الأنبياء؟ وإذا قيل: نحن نعرف وجود الفلاسفة، مثلاً، من خلال ما تركوه من مؤلفات أو روي عنهم من آراء، فبماذا نعرف الأنبياء الحقيقيين؟ وكيف نميزهم من

(٣٧) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، **الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة أو نقد علم الكلام ضداً على الترسيم الأيديولوجي للعقيدة ودفاعاً عن العلم وحرية الاختيار في الفكر والفعل**، مع مدخل ومقدمة تحليلية وشروح للمشرف على المشروع محمد عابد الجابري، سلسلة التراث الفلسفي العربي. مؤلفات ابن رشد؛ ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨)، ص ١٧٥ وما بعدها.

غيرهم من مدعي النبوة؟ يجيب ابن رشد: نحن نعرفهم بالشرائع التي يأتون بها والتي تستهدف الخير والفضيلة. فليس بوسع كُلّ إنسان وضع شرائع كشرائع الأنبياء! وإذاً فكُلّ من قال عن نفسه إنه نبي رسول من الله، وجاء بشريعة من جنس شرائع الأنبياء تتفوق في العادة على ما يمكن أن يأتيه مطلق الناس في عصره، مما يشبهها، فهو نبي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فبما أن الناس ليسوا جميعاً من الذكاء والعقل والفضل بحيث يمكن أن نتصورهم يلتزمون الفضيلة من عند أنفسهم، فإن الأنبياء والرسل هم من هذه الناحية ضرورة اجتماعية[٣٨]، تماماً مثلما هو ضروري في كُلّ أمة وجود قاسم مشترك يوحد الرؤى والآفاق الفكرية فيها، وقانون ملزم ينظم سلوك أفرادها.

٦ ـ برهان نبوة محمد هو القرآن، وليس خرق العادة!

أما إثبات نبوة محمد ﷺ فابن رشد يعتمد فيها على القرآن. فقد طالبته قريش مراراً بالإتيان بآيات معجزات فكان ردّ القرآن: **﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلا بَشَراً رَسُولاً﴾**[٣٩] وأيضاً: **﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾**[٤٠]. ثُمّ أشار القرآن إلى أن معجزة النبي محمد هو القرآن نفسه: **﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**[٤١]. وقد تحدى قريشاً بأن يأتوا بسورة مثله: **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**[٤٢]. ويضيف ابن رشد: «وإذا كان الأمر هكذا، فخارقه ﷺ، الذي تحدى به الناس وجعله دليلاً على صدقه في ما ادّعى من رسالته، هو الكتاب العزيز»[٤٣].

ويحتج ابن رشد بمقارنة القرآن بالكتب السماوية الأخرى (التوراة والإنجيل) فيقول: «وبالجملة فإن كانت هاهنا كتب واردة في شرائع، استأهلت أن يقال إنها

---

(٣٨) ابن رشد، **تهافت التهافت: إنتصاراً للروح العلمية وتأسيساً لأخلاقيات الحوار**، ص ٥٥٤ وما بعدها.

(٣٩) **القرآن الكريم**، «سورة الإسراء،» الآية ٩٣.

(٤٠) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ٥٩.

(٤١) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآية ٥١.

(٤٢) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآية ٣٨.

(٤٣) ابن رشد، **الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة أو نقد علم الكلام ضداً على الترسيم الأيديولوجي للعقيدة ودفاعاً عن العلم وحرية الاختيار في الفكر والفعل**، ص ١٧٩.

كلام الله لغرابتها وخروجها عن جنس كلام البشر ومفارقته بما تضمنت من العلم والعمل، فظاهر أن الكتاب العزيز الذي هو القرآن هو أولى بذلك وأحرى أضعافاً مضاعفة. وأنت فيلوح لك هذا جداً إن كنت وقفت على الكتب، أعني التوراة والإنجيل. فإنه ليس يمكن أن تكون كلها قد تغيرت». ولو قارنا بينهما وبين القرآن لاتضح «فضل الشريعة المشروعة لنا، على سائر الشرائع المشروعة لليهود والنصارى، وفضل التعليم الموضوع لنا في معرفة الله ومعرفة المعاد ومعرفة ما بينهما»(٤٤).

ويضيف ابن رشد: ويتبين فضل شريعة الإسلام على الشرائع الأخرى على مستوى طريقة الإقناع أيضاً، ذلك أن دلالة القرآن على نبوة محمد (ﷺ)» ليست هي مثل دلالة انقلاب العصا حية على نبوة موسى عليه السلام، ولا إحياء الموتى على نبوة عيسى، وإبراء الأكمه والأبرص. إنَّ تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء، وهي مقنعة عند الجمهور، فليست تدل دلالة قطعية إذا انفردت، إذ كانت ليست فعلاً من أفعال الصفة التي بها سمي النبي نبياً. وأما القرآن فدلالته على هذه الصفة هي مثل دلالة الإبراء على الطبّ. ومثال ذلك لو أن شخصين ادعيا الطبّ، فقال أحدهما: الدليل على أني طبيب أني أسير على الماء، وقال الآخر الدليل على أنى طبيب أني أبرئ المرضى. فمَشَى ذلك على الماء، وأبرَأ هذا المرضى، لكان تصديقنا بوجود الطبّ لدى الذي أبرأ المرضى ببرهان، وتصديقنا بوجود الطبّ لدى الذي مشى على الماء مقنعاً، ومن طريق الأولى والأحرى»(٤٥).

هكذا يعود بنا ابن رشد إلى القرآن للبحث عن أجوبة للمسائل التي تطرح بصدده، مسلحاً بالتحليل المنطقي ليس غير. أما الأطروحات الفلسفية، أياً كانت فقد تركها جانباً، وذلك وفاقاً مع أطروحته الأساسية في هذا المجال، وهي أن الدين والفلسفة بناءان مستقل كُلّ منها عن الآخر، وأن مسائل كُلّ منهما يجب أن يفحص عنها في البناء الذي تنتمي إليه، لأن لكُلّ منهما أصوله ومبادئه.

ومع ذلك فإن هذا لا يعني أن أحدهما يناقض الآخر! كلاّ فالهدف يجمعهما. وهذا الهدف المشترك لهما هو نشر الفضيلة. ومن هنا كانت «الحكمة هي صاحبة

(٤٤) نفس المرجع، ص ١٨٣.

(٤٥) نفس المرجع، ص ١٨٤.

الشريعة والأخت الرضيعة» ، «وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة». يقول ابن رشد : «نحن معشرَ المسلمين نعلم على القطع أنّه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع : فإن الحقّ لا يُضَادُّ الحقّ بل يوافقه ويشهد له»[٤٦].

هل نحتاج إلى خاتمة لهذا الفصل؟

لنترك الأمر للقارئ، فقد وضعنا بين يديه ما يمكّنه من استخلاص النتيجة التي يرتئيها!

---

(٤٦) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، *فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال أو* **وجوب النظر العقلي وحدود التأويل (الدين والمجتمع)**، مع مدخل ومقدمة تحليلية للمشرف على المشروع محمد عابد الجابري، سلسلة التراث الفلسفي العربي. مؤلفات ابن رشد؛ ١ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧)، ص ٩٦.

القسم الثاني

القــرآن: مســار الكــون والتكويــن

الفصل السادس

القرآن... الكتاب وإعادة ترتيب العلاقات

أولاً: القرآن . . . الذكر والحديث

١ ـ قُران . . . أم قرآن؟

كانت الفصول السابقة عبارة عن «قراءات» في محيط القرآن الكريم: تحدثنا من خلالها عن علاقة الإسلام التاريخية مع اليهودية والنصرانية ـ كما يحددها القرآن نفسه ـ بوصفه يشكل معها الديانات السماوية الثلاث، وأبرزنا ما نعتقد أنه المعنى المقصود بوصف النبي ﷺ بـ «الأمي» والعرب بـ «الأميين» في القرآن، كما تحدثنا عن حدث الوحي والنبوة: عن معاناة النبي منهما، وعن أنواع الفهم التي كونها المسلمون لأنفسهم عنهما. وقد آن الأوان الآن لنقف على عتبات «الذكر الحكيم» بقصد التعرف ـ لا أقول على محتواه فذلك ما سيكون موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب ـ بل التعرف على مسار كونه وتكوينه، منذ ابتداء نزوله منجّماً إلى أن انتهى إلى المصحف الذي بين أيدينا الآن.

لنبدأ من البداية ولنتساءل: ما معنى «القرآن»؟

ذكر المفسرون والمؤلفون في «علوم القرآن» جملة معان للفظ «القرآن»، فصنفوا الآراء التي قال بها في الموضوع كل من اللغويين ورواة السيرة وغيرهم في رأيين:

أ ـ فريق يقول إن لفظ «القران» غير مهموز (= قُران)، بمعنى أنه ليس من القراءة. من هؤلاء من قال إنه اسم علَم (غير مشتق) لكتاب الله مثلما أن التوراة اسم علم للكتاب الذي أنزل على موسى، والإنجيل اسم علَم للكتب التي كتبها الحواريون حول دعوة عيسى وسيرته (الأناجيل). ومنهم من جعله مشتقاً من قَرَنْتُ

الشيء بالشيء، إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، بمعنى أن آياته وسوره ضُمَّ بعضها إلى بعض بعد أن نزل منجماً مفرقاً. وآخرون قالوا بل هو مشتق من «القرائن»، «لأن الآيات منه يُصدِّق بعضُها بعضاً ويشابه بعضها بعضاً وهي قرائن». وفي جميع هذه الأحوال «فهو من دون همز، ونونه أصلية».

ب ـ أما الفريق الثاني فيرى، بالعكس من ذلك، أن لفظ «القرءان» مهموز، ولكنهم اختلفوا في صيغته: منهم من قال: هو وصف على فُعلان مشتق من القُرء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء في الحوض: أي جمعته. وبناءً على هذا قال بعضهم: «وسمي (القرآن) بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض». هذا بينما لاحظ آخرون أنه: «لا يقال لكل جمع قرءان، ولا لجمع كل كلام قرءان... وإنما سمي قرءاناً لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة». وفي هذا المعنى قيل «إنه جمع أنواع العلوم كلها». وحكي عن بعضهم أن القرءان «سمي قرءاناً لأن القارئ يُظْهره ويُـبينه من فِيه، أخذاً من قول العرب ما قرأَتِ الناقةُ سلاقِطَ: أي ما أسقطت ولداً: أي ما حملت قط. والقرءان يلقطه القارئ من فيه ويلقيه فسمي قرءاناً».

وواضح أن هذه تأويلات بعيدة عن المعنى الظاهر للكلمة والذي تذكره كتب اللغة: فالقرءان، لغةً، من قرأ يقرأ قراءة وقرءاناً، مثل رجح رُجحانا وغفر غُفرانا... الخ. وهذا ما تزكيه أول آية نزلت «اقرأ باسم ربك» مخاطبة النبي ﷺ، فكان رده «ماذا أقرأ»؟ كما بينا ذلك في فصل سابق (الثالث). أضف إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه**﴾[1]. وبهذا الاعتبار يكون لفظ «القرءان»، عندما يراد به ما بين دفتي «المصحف»، موازنا لمصطلحي «القراءة» و«التلاوة» عندما يراد بهما محتوى مقروء الكتاب الذي يقرأ فيه الأطفال القراءة، بالمعنى الواسع للكلمة (من التهجي إلى القراءة المُبينة المنغمة المجودة). فكتاب «القراءة المصورة» أو «التلاوة الجديدة» هو مقروء والتلاميذ قرّاء. ولا يشترط في القراء أن يفهموا المقروء، وإنما يشترط فيهم حسن أداء القراءة. ومن هنا كان بعضهم ممن له صوت رخيم يتباهى بقراءته القرآن[2] ويوظفها في تأكيد ذاته وربما أيضاً في إشهار تديّنه... إلخ. وبهذا المعنى ورد في الحديث: «إن أكثرَ مُنافِقي أُمَّتي قُرّاؤُها»[3].

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة القيامة،» الآيات ١٦ ـ ١٩.

(٢) جرت العادة على كتابة الهمزة في الكلمات التي على وزن فعلان على صورة علامة مد على الألف: قرآن، شطآن... إلخ.

(٣) ذكر في: أحمد بن محمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**.

ويلتمس الجاحظ لمدلول اسم «القرآن» مرجعية عربية حين يقارنه بما كان عند العرب، قال: «سمى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل: سمَّى (الله) جملتَه «قرءاناً» كما سمَّوا (مجموعة من قصائد الشعر) ديواناً، وبعضَه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت (البيت من الشعر)، وآخرها فاصلة[٤] كقافية». وهذه المقارنة التي يعقدها الجاحظ بين «القرآن» كمجموعة سور وآيات وبين «الديوان» كمجموعة قصائد وأبيات لا تخلو من طرافة، غير أن طرافتها يجب أن لا تحجب عنا جملة الأسئلة التي تطرحها على الفكر الناقد الفاحص. ذلك أن قوله «سمى الله جملة كتابه قرآنا» يطرح السؤال التالي: ألم يسم الله «جملة قرآنه» كتاباً أيضا؟ وبالتالي: ما الفرق بين «القرآن» و«الكتاب»؟ وما وجه العلاقة بينهما، علماً بأن القراءة في اللغة العربية ليست بالضرورة قراءة في كتاب، بل تعني كذلك استظهار ما تم حفظه وتلاوته، ومنه القُرَّاء، أي حُفَّاظ القرآن؟ هذا إضافة إلى أن القرآن يطلق على نفسه ـ إذا جاز هذا التعبير ـ أسماء أخرى مثل الذِّكر، الحديث. . . إلخ.

لنضف إلى ذلك سؤالاً آخر قد يقودنا إلى الطريق الذي يهدينا إلى التماس الجواب عن هذه المسائل، هذا السؤال يمكن صياغته كما يلي: نحن نعرف أن القرآن نزل منجماً (مفرقاً)، وأن مقدار ما نزل منه في السنوات الأولى من النبوة كان قليلاً، وكان يُتداول سراً، فكيف كانت الجماعة الإسلامية الأولى تسمي ذلك القليل من القرآن الذي كانت تتداوله؟

إن المؤلفات التي كتبت في موضوع «علوم القرآن» على أهميتها وضخامتها لا تسعفنا (أو على الأقل ما اطلعنا عليه منها) بجواب عن هذا السؤال، بل لربما لم تطرحه بالمرة. ولذلك فليس أمامنا سوى سبيل واحد لالتماس الجواب عن هذا السؤال. أقصد بذلك تتبُّع آيات القرآن الكريم حسب ترتيب نزول سوره، والنظر في ما عسى أن يكون هناك من ألفاظ تدل على ما كان قد نزل من القرآن!

٢ ـ الذِّكر . . . والحديث

الواقع أننا لا نجد ذكراً للفظ «القرآن» في السور الأولى التي نزلت قبل الجهر بالدعوة. ذلك أن لفظ «القرآن» إنما ورد وتكرر في السور التي فيها رَدٌّ على مشركي مكة في إنكارهم نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، واتهامهم له بالسحر

(٤) المقصود بالفاصلة في القرآن: العبارة التي تفصل بين آيتين كقوله ﴿**لعلهم يعقلون**﴾، ﴿**وهو الغفور الرحيم**﴾، ﴿**إنه هو العليم الحكيم**﴾ . . . إلخ.

والجنون. . . إلخ. وهذا حدث بعد الجهر بالدعوة، وبكيفية خاصة عندما أخذ النبي ﷺ يتعرض لأصنامهم، أي حوالى السنة الخامسة من البعثة النبوية.

وبقطع النظر عن تعيين التاريخ بدقة، نظراً لصعوبته، فإن لفظ «القرآن» إنما ورد لأول مرة في سورة «البروج» ورتبتها ٢٧ حسب ترتيب النزول(٥). أما قبل ذلك فلم يوصف الوحي المحمدي بأي وصف ولم يطلق عليه أي اسم إلا ابتداء من سورة «التكوير» (ورتبتها ٧)؛ ففيها وصف لأول مرة، في معرض الرد على المشركين الذين قالوا عن الرسول إنه «مجنون» وعن القرآن إنه «قول شيطان»، وصف بأنه: **﴿لقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾**(٦) وأنه **﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾**(٧). وسيتكرر ألفاظ «ذكر» و«ذكرى» و«تذكرة» كأسماء للقرآن ـ قبل أن يسمى بهذا الاسم ـ في عدد من الآيات، منها آية في سورة الأعلى (ورتبتها ٨) حيث ورد قوله تعالى **﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾**(٨). أما في سورة النجم (ورتبتها ٢٣) وقد نزلت حوالى السنة الخامسة/ السادسة ـ ويروى أنها أول سورة قرأها ﷺ جهاراً في الكعبة ورجال من قريش في نواديهم يسمعون، أما في هذه السورة فقد خاطب تعالى فيها رسوله الكريم بقوله: **﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾**(٩)، والمقصود بـ «ذكرنا»: آيات الذكر الحكيم(١٠).

وفي سورة النجم نفسها التي ختمت، بعد عظات بليغة قوية، بقوله تعالى: **﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى. أَزِفَتْ الآزِفَةُ. لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ. أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ. وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ. فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾**(١١)، في هذه السورة، إذاً، نلاحظ ورود لفظ جديد سمي به الوحي المحمدي، هو «**الحديث**». قالوا: «وسمي القرآن حديثاً لأن رسول الله ﷺ كان يحدّث به أصحابه وقومه». والحديث في اللغة «الجديد» (ضد القديم)، ويطلق على الخبر الذي يخبر عن شيء جديد «لا يعرفه السامع أو لا يذكره». ويضيف مصدرنا:

---

(٥) ترتيب النزول غير ترتيب المصحف، وسنتحدث عن هذا الموضوع في فصل لاحق. ونشير إليه داخل النص بقولنا «ورتبتها»، والمقصود ترتيب السورة في لائحة ترتيب النزول المعمول به الآن.

(٦) **القرآن الكريم**، «سورة التكوير،» الآية ١٩.

(٧) نفس المرجع، «سورة التكوير،» الآية ٢٧.

(٨) نفس المرجع، «سورة الأعلى،» الآية ٩.

(٩) نفس المرجع، «سورة النجم،» الآية ٢٩.

(١٠) **﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون﴾** [نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٥٨].

(١١) نفس المرجع، «سورة النجم،» الآيات ٥٦ ـ ٦٢. ويقصد بـ «سامدون» لاهون.

«وأكثر ما يطلق عليه لفظ «الحديث» في القرآن أخبار الأمم الماضية وأخبار الجنة والنار الخ. والحديث الذي يحدِّث به النبي عليه الصلاة والسلام، صنفان: صنف يوحَى إليه، فهو قرآن، وقسم من عنده، يبين به ما ورد في القرآن، أو يخبر به هو عن أشياء تتعلق بالدين»، وهذا هو «الحديث» بالمعنى الاصطلاحي: الحديث النبوي.

ثانياً: القرآن ذي الذكر . . .

١ ـ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ[١٢]

بعد «الذكر» و«الحديث» يأتي لفظ «القرءان» في سورة «البروج» (ورتبتها ٢٧)، وذلك في الآية التي ختمت بها، والتي جاءت كرد على الذين كذّبوا بما كان يأتي به الوحي المحمدي من أخبار الأمم الماضية. لقد رد القرآن عليهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[١٣]. ونحن نعتقد أن سياق هذا الرد ينتمي إلى مرحلة متأخرة، مما يقتضي أن تكون رتبة هذه السورة بعد رقم ٢٧. وإذا صح هذا فإن أول سورة ـ حسب ترتيب النزول ـ سيذكر فيها لفظ «القرآن»، هي سورة القيامة (ورتبتها ٣١). ففي هذه السورة ورد قوله تعالى مخاطباً نبيه الكريم: **﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾**. هناك مرويات متعددة تحدثت عن سبب نزول هذه الآية. قالوا: إنه عندما كان جبريل يقرأ القرآن على النبي كان (ﷺ) يحرك شفتيه حرصاً منه على إمساكه وحفظه، فنزلت الآيات لتطمئنه . . .

نحن نرجح أن تكون هذه الآية هي أول آية ذكر فيها لفظ «قرآن»، لكون هذا اللفظ قد استعمل هنا كمصدر بمعنى القراءة. وكما هو شأن القرآن في التدرج بالأمور، فقد تم الانتقال بلفظ «القرآن» من هذا المعنى اللغوي الذي يعني مجرد القراءة، إلى المعنى الشرعي الذي يعني كلام الله المقروء أو المتلوّ بلسان عربي مبين. وقد حددت آية سورة البروج وضع هذا المقروء الذي أعرضت عنه قريش وكذبته، وذلك في قوله تعالى رداً عليهم: **﴿بل هو قرآنٌ مَجيدٌ. في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾**. وبذلك تكون هذه الآية هي ثاني مرة يرد فيها لفظ «القرآن» (في القرآن) وبالتالي فمن المرجح أن تكون رتبة سورة البروج هذه، في ترتيب النزول، ليس ٢٧ كما ذكرنا بل ٣٣.

---

(١٢) «قرآنه» أي قراءته.

(١٣) نفس المرجع، «سورة البروج،» الآيات ١٩ ـ ٢٢.

لقد خاطبت آية سورة القيامة الرسول، الذي كان يكرر في عجلة ما يأتيه به جبريل، موضحة بأن الأمر يتعلق بمقروء يقرؤه له جبريل إلى أن يحفظه في صدره، وبالتالي فلا موجب للخوف من أن يفلت منه شيء! ثم جاءت بعد ذلك آية سورة البروج لتخاطب المكذبين الذين لم يستسيغوا أن يكون «قرآن محمد» تنزيلاً من عند الله، جاءت لترد عليهم: ﴿**بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ. بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**﴾(14).

ومما يعزز هذا الرأي في وعينا أن عبارة «قرآن مجيد»، التي نعتقد أن لفظ القرآن ذكر فيها لثاني مرة، ستتكرر لثالث مرة في سورة «ق» (وترتيبها ٣٤)، التي مطلعها قوله تعالى: ﴿**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾(15). إن التناسب بين السور، أعني بين الآيات الأخيرة في كل سورة والآيات الأولى في التي بعدها، والذي عني به المهتمون بعلوم القرآن، يقتضي أن تكون سورة البروج قد نزلت قبل سورة «ق» مباشرة، وبالتالي أن تكون رتبتها ٣٣ وليس ٢٧.

٢ ـ قرآن الذكر والقصّ: خصوص وعموم

الآن وقد استقر لفظ «القرآن» كاسم علم على الوحي المحمدي فإن الأسماء السابقة (ذكر، ذكرى، تذكرة، حديث) ستصبح أوصافاً للقرآن أو أسماءً شارحة له. وسيتقرر هذا في سورة «ق» نفسها. لقد اختتمت بآية تدعو الرسول إلى التذكير بالقرآن: ﴿**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾(16).

وهكذا فما كان به «الذكر» و«التذكرة» و«الذكرى»، وما كان حديثاً وقرآناً (أي مقروءاً)، أصبح له الآن اسم محدد، اسم علم، هو **القرآن**. ومع ذلك فالارتباط بين الذكر والقرآن سيبقى قائماً كما في الآيات التالية: ففي سورة القمر (ورتبتها ٣٧) ستتكرر عبارة ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾(17) أربع مرات، وذلك في نهاية كل مقطع يحكي ما تعرّض له الأنبياء للتكذيب من طرف أقوامهم. والأمر نفسه سنلاحظه في مستهل سورة «ص» (ورتبتها ٣٨). يقول تعالى: ﴿**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ**﴾(18). وعندما اعترضت قريش على أن يكون

---

(١٤) نفس المرجع، «سورة البروج،» الآيات ١٩ ـ ٢٢.
(١٥) نفس المرجع، «سورة ق،» الآيتان ١ ـ ٢.
(١٦) نفس المرجع، «سورة ق،» الآية ٤٥.
(١٧) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآيات ١٧، ٢٢، ٣٢ و٤٠.
(١٨) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيتان ١ ـ ٢.

الله قد اختار محمداً ﷺ رسولاً إليهم فقالوا: ﴿**أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا؟**﴾ جاء الجواب مخاطباً النبي ﷺ: إنهم في الحقيقة لا يعترضون عليك بل يشكون في صحة ما أُنزِلُ عليك: ﴿**بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ**﴾[19]. وكما بدأت هذه السورة بالقسَم بـ «القرآن ذي الذكر» والإشارة إلى تكذيب مشركي قريش، ختمت بالتأكيد أنه «ذكر للعالمين». قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾[20].

وتستمر قريش في تكذيب النبي واتهامه بالجنون وغيره، مما كان لا بد أن يترك الأثر السيئ في نفسه، فتأتي سورة طه (ورتبتها ٤٥) لتبين أن الغرض من «القرآن»، ليس تعريض النبي لإيذاء قريش بل هو «تذكرة» لمن يخشى»: يقول تعالى: ﴿**طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى**﴾[21]، ولتؤكد أيضاً ما سبق تقريره في سورة القيامة (رتبتها ٣١) وهو طمأنة النبي بأن الله يتولى (بواسطة جبريل) تحفيظه القرآن وأنه لا ينبغي له أن يخاف من أن يضيع منه شيء، خصوصاً وهو يتلقاه مقروءاً وليس مكتوباً. قال تعالى: ﴿**وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾[22]. وأمر آخر أوضحته هذه السورة وهو أن معنى «الذكر» و«التذكرة»، و«ذكرى» ينصرف أيضاً إلى الإخبار عما جرى للأقوام الماضية، فهو بمعنى «القص»، وأن الهدف من القصص في القرآن هو نفسه الهدف من الذكر، يقول تعالى: ﴿**كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً**﴾[23].

وهكذا يتضح بالتدريج ومن خلال السياق أن الذكر خاص والقرآن عام. الذكر جزء من الوحي المحمدي، أما القرآن فهو هذا الوحي بجميع أجزائه، الذي يقرؤه جبريل على النبي محمد ليبلغه للناس.

على أن الذكر القرآني لا يقتصر على قص أخبار الأقوام الماضية والتذكير بها ولفت الانتباه إلى مواطن العبرة منها، بل يضيف إلى ذلك ـ في الغالب ـ عنصراً آخر هو الوعد لمن اتبع الذكر واستخلص العبرة منه، والوعيد لمن أعرض

---

(١٩) نفس المرجع، «سورة ص،» الآية ٨. والذكر منسوب إلى الله.

(٢٠) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيات ٨٦ ـ ٨٨.

(٢١) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ١ ـ ٣.

(٢٢) نفس المرجع، «سورة طه،» الآية ١١٤.

(٢٣) نفس المرجع، «سورة طه،» الآية ٩٩.

عنه. أما الوعد ففي مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[٢٤] (ورتبتها ٤١)، وأما الوعيد ففي مثل قوله تعالى حكاية عن الظالم «يوم يعض يديه» يوم القيامة ويقول: ﴿يا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾[٢٥] (ورتبتها ٤٢).

وكما ينصرف معنى «الذكر» إلى القرآن نفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[٢٦]، وقوله وكأنه يرد عليهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢٧] (ورتبتها ٥٤)، ينصرف كذلك إلى الكتب المنزلة قبله. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ. بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾[٢٨] (أرسلناهم). (ورتبتها ٧٠)، وقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَق فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[٢٩] (ورتبتها ٧٣).

وهكذا، فسواء اتخذ خطاب الوعد والوعيد في قرآن الذكر والقص صيغة الخصوص، متوجهاً بصورة صريحة إلى خصوم الدعوة المحمدية من أهل مكة، أو جاء على صيغة العموم بحيث ينصرف المعنى إلى الماضي والحاضر والمستقبل وإلى جميع الأقوام، أو اتخذ صيغة «إياك أعني واسمعي يا جارة»، فهو يتوخى دائماً إقامة الحجة ضد المكذبين، المعرضين عن الدعوة المحمدية.

ثالثاً: كتاب ولا حرج...

١ ـ سورة في حجم كتاب...

سورة الأعراف من السور الطوال، بل هي أطول سورة نزلت بمكة، وهي بمفردها تعدل ضعفي ما نزل قبلها منذ ابتداء الوحي، كما تعدل كتاباً من كتب أهل الكتاب أو أكثر. وهي تبدأ بقوله تعالى: ﴿المص. كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ

(٢٤) نفس المرجع، «سورة يس،» الآية ١١.

(٢٥) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.

(٢٦) نفس المرجع، «سورة الحجر،» الآية ٦.

(٢٧) نفس المرجع، «سورة الحجر،» الآية ٩.

(٢٨) نفس المرجع، «سورة النحل،» الآيتان ٤٣ ـ ٤٤. ويعني «أهل الذكر» أهل الكتاب.

(٢٩) نفس المرجع، «سورة الأنبياء،» الآية ٢٤. ويقصد ﴿ذكر من معي﴾ القرآن الموجه إلى قوم الرسول، أما ﴿ذكر من قبلي﴾ الذكر الموجه إلى من قبل الرسول في التوراة والإنجيل.

في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣٠] (ورتبتها ٣٩). وقد اختلف المفسرون في المقصود بـ «الكتاب» هنا. قال الطبري: «كتاب أنزل إليك» يعني «هذا القرآن يا محمد في كتاب أنزله الله إليك». أما الزمخشري فيرى أن المراد بـ «الكتاب» هنا هو هذه «السورة» (سورة آلمص: الأعراف)، وبهذا يكون موقعه من الإعراب خبراً لمبتدأ محذوف تقديره هو، يعود على «المص» اسم السورة. والمعنى: «سورة المص هي كتاب أنزل إليك». ونحن نرجح هذا الرأي خصوصاً وهو أكثر انسجاماً مع بقية الآية، أعني قوله تعالى: **﴿فلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**. والحرج هو الشعور بالضيق، والمعنى: فلا ينبغي أن تشعر بالحرج والضيق وأنت تنذر بهذه السورة/ الكتاب وتقدمها كتذكرة للجميع.

والسؤل الذي يطرح نفسه هنا هو التالي: لماذا يخاطب الله نبيه في صدر سورة الأعراف، بالذات، بقوله: **﴿فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ﴾** إن الجواب عن هذا السؤال لا يستقيم إذا نحن جعلنا معنى «الكتاب» في صدر السورة هو القرآن كما يذهب إلى ذلك الطبري وغيره. ذلك لأن النبي، ما فتئ ينذر بالقرآن ويذكر به، من دون حرج ولا ضيق ولا شك، منذ أن كلف بتبليغ الرسالة حينما خاطبه تعالى بقوله «قم فأنذر»، وذلك في سورة المدّثر، وهي السورة الثانية حسب ترتيب النزول. فما الذي يستوجب الآن (في سورة الأعراف ورتبتها ٣٩، وهناك من يقول إنها نزلت في السنة التاسعة من البعثة)، أقول: ما الذي استوجب الآن تنبيه النبي إلى أن عليه أن لا يشعر بالحرج وهو ينذر بهذه السورة؟ لابد أن يكون السبب أمراً ما، جديداً، جاءت به هذه السورة؟

فما هو هذا الجديد يا ترى؟!

٢ ـ جديد يطرح إعادة ترتيب العلاقة . . .

إننا نعتقد أن سورة الأعراف قد جاءت فعلاً بأمر جديد، يطرح مسألة إعادة ترتيب العلاقة، مع خصوم الدعوة المحمدية من جهة، والشروع في تحديد العلاقة مع أهل الكتاب من جهة أخرى. ذلك أن وصف هذه السورة بـ «الكتاب»: (**﴿كتاب أنزل إليك﴾**) ـ وهو وصف سيطلق على القرآن ككل في نفس السورة ـ كما سنرى ـ يطرح، على مستوى العلاقة مع «قريش» تبرير الارتفاع بهم من مستوى «أمة أمية» لا كتاب لها، إلى أمة لها كتاب. كما يطرح على مستوى العلاقة مع «أهل الكتاب»

(٣٠) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيتان ١ ـ ٢. **﴿حرج منه﴾**: أي من القرآن الكريم.

توضيح نوع انتماء النبي محمد كصاحب كتاب، وهو من أمة أمية، إلى «أهل الكتاب» الذين هم اليهود والنصارى تحديداً. واضح إذاً أن هذا الانتقال بالوحي المحمدي من **الذكر والحديث والقرآن** إلى **الكتاب** مدعاة للحرج للنبي، إزاء قريش، وإزاء اليهود والنصارى. فكيف ستعمل السورة، سورة الأعراف، على إقناع خصوم الدعوة المحمدية من قريش بهذه الدعوى، أعني كون قرآن محمد هو كتاب منزل من عند الله؟ وكيف يمكن إقناع اليهود والنصارى، بهذا الأمر، وهم الذين احتكروا منذ القدم الاختصاص بالكتاب حتى سموا بـ «أهل الكتاب»؟

ـ أما بالنسبة إلى إعادة ترتيب العلاقة مع قريش فإن السورة تدعوهم إلى اتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وهو ما كلف محمد بتبليغهم إياه، وتوصيهم بعدم اتخاذ «أولياء» من دونه، فتخاطبهم: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ**﴾(٣١) . والأولياء الذين تنهى الآية هنا عن اتباعهم ليسوا الأصنام، فهذه لا علاقة لها بالموضوع، موضوع «الكتاب»، فهي ليست لا من «الأميين» ولا من «أهل الكتاب»! وإذاً فلا بد أن يكون المقصود هم «أهل الكتاب»، وبالتحديد اليهود الذين وإن كانوا لا يسكنون مكة، (بل مسكنهم يثرب: المدينة)، فقد كانت لقريش علاقة معهم تستشيرهم في أمر محمد ﷺ، وتسألهم هل هو نبي حقاً، كما حدث عندما طلبت منهم أسئلة يحرجون بها النبي فردوا عليهم بأن يسألوه عن أهل الكهف، وعن ذي القرنين وعن الروح، كما سيأتي بيان ذلك في حينه .

٣ ـ الكتاب بمعنى المكتوب المقدر

وتحذر السورة أهل مكة من الإعراض عن رسالة رسولهم وإلا فيصيبهم ما أصاب من قبل أهل القرى الذين اتخذوا من رسلهم مواقف مماثلة، فلما أنزل الله تعالى العقاب عليهم اعترفوا بأنهم كانوا ظالمين. وهكذا تخاطب السورة قريشاً: ﴿**وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ. فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾(٣٢). ولكي تقنع السورة قريش بذلك تدعوهم إلى الاستماع إلى تفاصيل ما جرى لأهل تلك القرى، يقصها كل من «المرسلين» و«الذين أرسل إليهم»، ثم ليحكموا بعد ذلك بميزان العدل: يقول تعالى: ﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا**

---

(٣١) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٣.

(٣٢) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيتان ٤ ـ ٥. ويقصد بـ «بياتاً» ليلاً وبـ «قائلون» أثناء القيلولة.

كُنَّا غَائِبِينَ. وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾(٣٣). بعد ذلك تنطلق السورة في حكاية تفاصيل قصة إبليس مع آدم وحواء وخروجهما من الجنة، بسبب إغراء الشيطان لهما بالأكل من شجرة معينة، أمرهما الله بتجنبها وعدم الاقتراب منها. وسيكون ذلك مناسبة لحث بني آدم على تجنّب إغراءات الشيطان وتذكيرهم بما ينتظر المؤمنين المتقين من نعيم في الجنة وما ينتظر أولياء الشيطان من عذاب في جهنم. وبعد أن تبين السورة ما حرم الله على الناس في الدنيا بعد آدم: **﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾**(٣٤)، تدين الذين يحرّمون ما لم يحرم الله ويكذّبون بآياته. وهنا نلتقي مع لفظ «الكتاب» ولكن بمعنى آخر. يقول تعالى: **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾**(٣٥). فالكتاب هنا بمعنى «المكتوب المقدّر»، وبعبارة الطبري: ما كتب لهم، أي ما قُدّر لهم من خير وشر ورزق...

٤ ـ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ (القرآن) فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ

وبعد أن ترسم السورة مشهدا من مشاهد «النصيب من الكتاب» في الدار الآخرة، واصفة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار، مستعيدة ما يجري بين الفريقين من حوار، تنتقل إلى مخاطبة قريش مستعملة هذه المرة لفظ «الكتاب» كاسم علم على القرآن. قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾**(٣٦).

---

(٣٣) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ٦ ـ ٩. ويقصد بـ **﴿فلنقصن عليهم﴾** أي قريش.

(٣٤) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٣٣.

(٣٥) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٣٧. ويقصد هنا بـ «رسلنا» الملائكة.

(٣٦) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيتان ٥٢ ـ ٥٣. ويقصد بالعبارات التالية: **«كتاب»**: القرآن (أنزلناه عليك يا محمد)، **﴿هل ينظرون﴾**: هل ينتظرون ويقصد بهم كفار قريش، **﴿إلا تأويله﴾**: ما سيؤول إليه أمرهم من العذاب الذي حذرهم منه، **﴿يوم يأتي تأويله﴾**: يوم القيامة، **﴿الذين نسوه من قبل﴾**: أعرضوا عنه في الدنيا.

لكن هذه التحذيرات والبيانات لم يُعِرْها المكذبون من قريش ما تستحقه من اهتمام، الأمر الذي استدعى الإتيان بطرق أخرى في البيان والإقناع.

رابعاً: القرآن/ الكتاب . . .

١ ـ من الذكر إلى الكتاب

تتبعنا في الفقرات السابقة الأسماء التي أطلقها الله على القرآن، أولاً بأول، معتمدين في ذلك على ترتيب النزول. وهكذا فبعد «الذكر» وما اشتق منه (ذكرى، تذكرة)، و«الحديث» الذي هو بمعنى القصّ وضرب المثل. . . إلخ. جاء اسم «القرآن» بمعنى القراءة، ثم «القرآن» بمعنى المقروء. وهذا الأخير هو الذي صار علماً على الوحي المحمدي. أما لفظ «الذكر» وما اشتق منه، وكذلك لفظ «الحديث»، فقد بقيا مرتبطين بالقرآن ارتباط الصفة بالموصوف تارة، والخاص بالعام تارة أخرى. ومعلوم أن مثل هذا التدرج في التعامل مع الأشياء أسلوب معروف في القرآن، مراعاة للتطور. ذلك أن ما نزل من القرآن في السنوات الأولى من البعثة المحمدية كان قليلاً: آيات قصار في سور قصيرة معدودات، لم تكن تشكل بعد مقروءاً تحتاج قراءته إلى وقت ونفس طويل حتى يؤخذ له اسم علم من فعل القراءة. أما عندما تكاثرت السور وتجاوزت الثلاثين، فقد تنامى المقروء الذي كان يسمى «الذكر» و«الحديث»، فصار اسم «القرآن» أقوى تعبيراً عنه وأكثر وفاء بحقيقته وجوهره.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا المقروء، الذي لم يكن الاعتماد على حفظه من الضياع مقتصراً على تكرار قراءته وتسجيله في الذاكرة الفردية والجماعية بل كان يكتب أيضاً في ما تيسر من سعف النخل وقطع الجلد وورق البردي. . . إلخ. ما لبث أن أصبح «مكتوباً» في صحف يتزايد عددها باستمرار، وصار بالتالي يستحق اسماً آخر من هذه الجهة، فسمي بـ «الكتاب». بل إن سورة الأعراف وحدها قد تميزت عن سابقاتها بطول جعلها تستحق وحدها أن تدعى كتاباً، كما بيّنا قبل.

٢ ـ من أمة لا كتاب لها إلى أمة لها كتاب

واطلاق اسم «الكتاب» على القرآن عملية ذات مغزى، فهي تنقل العرب من وضع أمة «أمية» لا كتاب لها إلى وضع أمة لها كتاب، وفي الوقت نفسه تجعل حداً لاحتكار اليهود والنصارى للقب «أهل الكتاب». إنها عملية مزدوجة تتطلب

إعادة ترتيب العلاقة مع قريش من جهة ومع أهل الكتاب من جهة أخرى. وقد بدأت سورة الأعراف نفسها في أداء هذه المهمة بمخاطبة العرب أولاً، كما رأينا قبل.

اتجهت سورة الأعراف إلى قريش وأخبرت، بضمير الغائب، (والخطاب إلى النبي ﷺ) فقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**. والمعنى الذي يعطيه السياق كما يلي: الله فصّل فيّ هذا الكتاب أخبارَ الأمم الماضية مع أنبيائهم، وقد فعل ذلك بعلمه المحيط بكل شيء، ولذلك جاء هذا الكتاب بأخبار عن أنبياء لم يذكروا في التوراة، وقد كانوا قبل موسى وكانت قرى أقوامهم على طريق أهل مكة في تجارتهم فهم يعرفونها. ويضيف: قد بينّا في هذا الكتاب ما آل إليه أمر هذه الأقوام عندما كذبوا رسلهم إذ دمرنا قراهم. ونحن سنخبرك عنهم يا محمد في هذا الكتاب/ السورة، هداية لقومك ورحمة بالمؤمنين.

وهكذا فبعد أن تحدثت السورة عن قصة آدم وإبليس وقصة نوح والطوفان، وهما من القصص السابقة على قصص أنبياء بني إسرائيل، تنتقل إلى تذكير قريش بأخبار أنبياء خاصين بالعرب هم أقدم، في التسلسل الزمني المعتمد في القص القرآني، من قصص أنبياء بني إسرائيل. وقريش تعرف هؤلاء الأنبياء وتعرف أقوامهم، كما تعرف ما تبقّى من آثار قراهم: قرى عاد (في الأحقاف باليمن) ونبيهم هود، وثمود (في الحِجر على الطريق إلى الشام) ونبيهم صالح، وأهل مدين (بمعان، على أطراف الشام ونبيهم شعيب، وأهل قرية سدوم (على شاطئ البحر الميت) مع لوط ابن أخي إبراهيم جد العرب، كما يقول النسابون.

للعرب إذن تاريخ خاص بهم على مسرح النبوة والرسالات السماوية، هو ذلك الذي تحكيه قصص عاد وثمود ومدين. . . إلخ. مع أنبيائهم ورسلهم من غير أهل الكتاب. ولما كان الأمر كذلك فلماذا لا يكون محمد بن عبد الله وهو المعروف عندهم بـ «الأمين» رسولاً إليهم يحمل «كتاباً» من الله «يخرجهم من الظلمات إلى النور»، ويدخلهم في زمرة « أهل الكتاب»!؟

سؤال لم تعِ قريش أبعاده إلا بعد هجرة النبي إلى المدينة وتغيير القبلة كما سنبين لاحقاً. أما الآن، وهم ما زالوا في موقع القوة، في مكة، فهم يواصلون تكذيبهم وإعراضهم. ومن أجل تثبيت فؤاد النبي وتسليته يذكّره القرآن بموقف الأقوام الماضية مع أنبيائهم. يقول تعالى: **﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**

جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾[٣٧]. من ذلك عدد من الأنبياء والرسل ابتداء من إبراهيم شيخ الأنبياء وقد مرت قصص كثير منهم في القرآن فينبغي التذكير بها: **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِياً﴾ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِياً﴾**[٣٨] (ورتبتها ٤٤)، بل إن الكتاب/ القرآن يتضمن أخبار رسل لم يذكروا في الكتاب/ التوراة، من ذلك إدريس: **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾**[٣٩]، ومن ذلك أيضاً إسماعيل جد العرب: **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾**[٤٠]، هذا فضلاً عن أنبياء من العرب البائدة، ذكرنا بعضهم، مثل هود نبي قوم عاد وصالح نبي قوم ثمود... إلخ[٤١].

وبعد، فهل تم إقناع العرب، هذه المرة، بأن القرآن الذي أتى به محمد بن عبد الله هو فعلاً كتاب سماوي؟[٤٢].

خامساً: الكتاب الفرقان... بلسان عربي مبين

١ ـ الفرقان: يفرق بين الحق والباطل

أما قريش فيمكن أن نقرأ رد فعلهم في السور التي تلت سورة الأعراف (رتبتها ٣٩) غير بعيد منها. ففي سورة «الفرقان» (ورتبتها ٤٢) نصادف في مستهلها اسماً جديداً للقرآن/ الكتاب هو «الفرقان»، أي الذي يفرق بين الحق والباطل. وأول شيء تُمَيِّز فيه هذه السورة بين الحق والباطل هو العقيدة المحمدية في مقابل عقيدة المشركين. لقد أكدت أن الله لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك. وفي هذا تردّ سورة الفرقان على مشركي مكة الذين كانوا يصفون الملائكة بأنها «بنات الله»، ثم تعييبهم بأنهم اتخذوا من دون الله آلهة لا قدرة لها على القيام بأي شيء، وهي الأصنام.

ذلك قوله تعالى: **﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ**

---

(٣٧) نفس المرجع، «سورة فاطر،» الآية ٢٥. ويقصد بـ «الزبر» الكتب وبـ «الكتاب المنير» التوراة.

(٣٨) نفس المرجع، «سورة مريم،» الآيتان ٤١ و٥١. ويقصد بـ «الكتاب» القرآن.

(٣٩) نفس المرجع، «سورة مريم،» الآية ٥٦.

(٤٠) نفس المرجع، «سورة مريم،» الآية ٥٤.

(٤١) يقسم النسابون العربَ إلى ثلاثة أجيال: العرب البائدة الذين لم يبق منهم نسل مثل عاد وثمود وطسم وجديس، والعرب العاربة وهم القحطانيون أبناء يعرب بن قحطان وهم اليمانيون. والعرب المستعربة وهم العدنانيون جاؤوا من أقطار مجاورة وسكنوا شمال الجزيرة العربية، وإليهم ينتمي إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

(٤٢) سنعرض لإعادة ترتيب العلاقة مع أهل الكتاب في الفصل القادم.

نَذِيراً. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً. وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ ضَراً ولا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً﴾(٤٣).

هذا هو الفرقان الأول. أما الفرقان الثاني فيأتي مباشرة للرد على مشركي قريش، هؤلاء الذين كذبوا محمداً بن عبد الله في ما بشر به من أن القرآن كتاب من عند الله كسائر الكتب السماوية. لقد كان رد فعلهم أن ما قال به محمد من أن القرآن كتاب وما جاء به من أخبار الأنبياء إن هو إلا أساطير الأولين ينقلها من كتب أهل الكتاب إذ يمليها عليه صباح مساء بعض الموالي من النصارى الذين كان يجلس إليهم ويحادثهم أمام الملإ (يذكر المفسرون أسماءهم مثل جبر وعدّاس . . . إلخ). ذلك قوله تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾**(٤٤). والجدير بالإشارة هنا أن هذا الاتهام من جانب قريش قد تكرر، وتكرر معه رد القرآن عليهم. قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ. إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**(٤٥).

٢ ـ الحكمة من تنزيله مفرّقاً . . .

ونعود إلى سورة الفرقان لنتابع عملية التفريق التي تقوم بها بين الحق والباطل. من ذلك أنها تحكي عن قريش ما ذكروه من مطالب تعجيزية: **﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً. أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾**(٤٦)، وترد عليهم بقوله تعالى: **﴿وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً. وَقَالَ الَّذِينَ لايَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُواً كَبِيراً﴾**(٤٧). وبعد هذه المطالب

(٤٣) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآيات ١ ـ ٣.

(٤٤) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآيتان ٤ ـ ٥.

(٤٥) نفس المرجع، «سورة النحل،» الآيتان ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٤٦) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآيتان ٧ ـ ٨.

(٤٧) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآيتان ٢٠ ـ ٢١.

التعجيزية، التي واجهت بها قريش النبي ﷺ، يأتي مطلب يتصل مباشرة بموضوعنا. يقول تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً**﴾[٤٨]. وواضح أن في قولهم هذا إشارة إلى التوراة. بمعنى أنه لو كان القرآن كتاباً من عند الله إلى محمد لنزل عليه مرة واحدة كما نزلت التوراة على موسى. وقد رد الله عليهم شارحاً الحكمة من إنزاله مفرقاً: ﴿**كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**﴾[٤٩]، ثم عقب على اعتراضهم ذلك بالقول: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً**﴾[٥٠].

لقد ذكر المفسرون في شرح الحكمة من نزول القرآن مفرقاً آراء اجتهادية بعضها ينسجم مع السياق وبعضها بعيد عنه. فالزمخشري يقول: «والحكمة فيه: أن نقوّي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه». وهذا منصوص عليه ﴿**لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾، وأضاف: «فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين» وهذا ليس القصد الأول هنا. ثم قال «ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلاّ في ما أنزل مفرّقاً». أما القرطبي فقد كرر بعض ما قاله الزمخشري. ونحن نرى أن بعض هذه التأويلات بعيدة عن سياق الآيات المذكورة، فهي تشرح ما قبل بما بعد! فقضية النسخ مثلاً لم تطرح في العهد المكي! نحن نعتقد أن قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿**وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً**﴾، قرين قوله في آية أخرى ﴿**ونزلناه تنزيلا**﴾: ﴿**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾[٥١]. إن لفظ «التنزيل» يفسر «الترتيل»، ذلك أن التنزيل يعني نزوله شيئاً فشيئاً، وعلى مهل، بخلاف الإنزال الذي يعني نزوله مرة واحدة. ونزوله، مفرقاً، على مهل، هو الذي يسمح بترتيله، أي بقراءته على مهل كذلك، وبذلك يكون تأثيره أكبر وأعمق.

٣ ـ إعادة ترتيب العلاقة مع أهل الكتاب

وكما عملت سورة الأعراف على إعادة ترتيب علاقة العرب بماضيهم النبوي من خلال استحضار أولئك الأنبياء الذين ليسوا في عداد أنبياء أهل الكتاب بل هم من العرب، ستعمل على ترتيب علاقة هذا النبي الجديد مع «أهل الكتاب»، هذا النبي الأمي الذي جاء قومَه «الأميين» بـ «الكتاب»!

---

(٤٨) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآية ٣٢.

(٤٩) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآية ٣٢. أي كذلك لم ننزله جملة واحدة.

(٥٠) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآية ٣٣.

(٥١) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ١٠٦.

وهكذا، فبعد حكاية قصة لوط مع قومه تنتقل بنا سورة الأعراف إلى أطول قصصها، وتحتل مكانة المركز فيها. إنها قصة موسى وأخيه هارون مع فرعون وما جرى لبني إسرائيل بسبب عدم تقيدهم بما أوصاهم به موسى، إذ جنحوا إلى عبادة عجل من ذهب. وقد حدث ذلك عندما ذهب موسى إلى تلقّي «الألواح» (الوحي) من الله. وبعد أن تحكي القصة هذه الحادثة، التي أثارت غضب موسى واستوجبت غضب الله، تنتهي باستغفار موسى لهم: **﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ. وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾**[٥٢].

ويأتي الجواب الإلهي في السورة نفسها كما يلي: **﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾**[٥٣]. وهذا مفهوم، لأن رحمة الله كقدرته لا يحدها حد. ولكن ليس «كل شيء» يستحق رحمة الله هكذا بإطلاق، بل لابد من شروط. فالشيطان مثلاً قد أخرجه الله منها لأنه عصى أمره وامتنع عن السجود لآدم. أما آدم نفسه فقد نسي وارتكب خطيئة، ولكنه طلب التوبة فتاب الله عليه. وأما «بنو آدم» فهم يستحقون رحمة الله فعلاً، ولكن ما داموا لا يتخذون من الشيطان ولياً لهم، وهذا يعمّ قوم موسى الذين ضلوا فعبدوا العجل فاستغفر موسى لهم. أما من أتى بعدهم من اليهود فرحمة الله بالنسبة إليهم مشروطة بشروط بيّنها قوله تعالى: **﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾**[٥٤]. هذا بالنسبة إلى اليهود قبل قيام الدعوة المحمدية. أما بعد قيامها فرحمة الله مكتوبة فقط لصنف منهم، هم: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[٥٥].

ذلك، لأن أهل الكتاب الذين وسعتهم رحمة الله من قبل، بفضل استغفار موسى لهم واتّباعهم ما جاء به من أوامر ونواه، **﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا**

---

(٥٢) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيتان ١٥٥ ـ ١٥٦. ويقصد بـ **﴿هدنا إليك﴾** تُبنا.

(٥٣) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٦. قال أي الله رب موسى.

(٥٤) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٦. «فسأكتبها» أي سيهب الرحمة، ويقصد بـ «الزكاة» العمل الصالح.

(٥٥) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٧.

﴿الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾[٥٦]، وبعبارة أخرى لقد انحرف اليهود بعد موسى وعليهم الآن أن يرجعوا إلى أصل الدين الذي جاء به موسى، دين إبراهيم شيخ الأنبياء الذي قام محمد بن عبد الله اليوم بالدعوة إليه. وهذا الدين ـ دين إبراهيم ـ الذي كان في أصله «الدين القيّم»، دين الفطرة، هو الدين الذي اختاره الله للناس جميعاً، وهو الذي كُلِّف محمد بن عبد الله بتبليغه للناس جميعاً. ذلك قوله تعالى، مخاطباً نبيه الكريم، مباشرة بعد الآيات السابقة: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**[٥٧]. وتضيف السورة مبينة أن جماعة من اليهود لم ينحرفوا بل بقوا متمسكين بما في التوراة، وهم اليهود الذين نصروا المسيح ورفضوا التثليث. وقد بقي من هذا التيار الذي قاده آريوس أتباع ودعاة إلى زمن الدعوة المحمدية فكانوا من المبشِّرين بها كما بينا ذلك في الفصل الأول. ذلك قوله تعالى مباشرة بعد الآية السابقة: **﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وبه يَعْدِلُونَ﴾**[٥٨].

كان ذلك عن الطريقة التي سلكها القرآن في ترتيب العلاقة بينه وبين أهل الكتاب في مكة. أما في المدينة فالوضع سيختلف كما سنرى في الفصل الثامن.

سادساً: خلاصة: معالم المسار

القرآن كان ولا يزال موضوعاً للقراءة، وقراءته على طريقة معينة، أعني المسماة بالترتيل والتجويد، هي أهم وأبلغ في مجال التأثير على المستمع من مجرد قراءته قراءة عادية. ومن هذه الجهة فليس هناك من لفظ يعبّر عن هذه الخاصية غير لفظ «القرآن». يتضح هذا إذا نحن أخذنا نقارن بين مضمون لفظ «الذكر» و«الحديث»، من جهة، ومضمون لفظ «القرآن» من جهة أخرى. فالذكر والحديث ينصرف معناهما إلى العبرة المستخلصة من النظر في أشياء تقع خارج الذات، مثل نظام الكون وأخبار الأقوام الماضية وقصص الأنبياء، ومشاهد القيامة... إلخ. أما مضمون لفظ «القرآن» فينصرف إلى ما تتركه تلاوة القرآن (ترتيله) من تأثير داخل الذات، سواء في نفس القارئ أو في نفس المستمع. أما لفظ «الكتاب» فيحيل معناه، عندما يوصف به القرآن إلى «الكتاب»، بمعنى اللوح

---

(٥٦) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٦٩. ويقصد بـ «الأدنى» الدنيء.

(٥٧) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٨.

(٥٨) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٩.

المحفوظ، أي ما كتب للناس وعليهم، إلى المسؤولية والجزاء، إلى الأحكام بمعناها العام.

وبناء عليه يمكن القول، ونحن نرصد مسار الكون والتكوين في القرآن، إنه بدأ ذكراً وحديثاً، ثم صار ـ إضافة إلى ذلك، قرآناً تقوم طريقة تلاوته وترتيله بتأثير ينقل موضوع الذكر والحديث إلى مشاهد صوتية منغَّمة، تقرر وجوداً يحمل معه برهانه، فيستغني عن برهان العقل: **﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾**[٥٩]. ومع انتشار الدعوة ونمو الجماعة الإسلامية في مكة، صار القرآن كتاباً كذلك، نقل العرب من أمة ليس لها كتاب (يقرر العقيدة والقيم) إلى أمة صار لها مثل هذا كتاب.

ثلاث لحظات في مسار الكون والتكوين في القرآن، متداخلة مترافقة من البداية تقريباً، إلى النهاية تقريباً، وسنعرض لها بشيء من التفصيل حسب الترتيب التالي: لحظة القرآن/ الترتيل والإعجاز، لحظة القرآن الذكر/ القص (في هذا الجزء)، ثم لحظة القرآن/ الكتاب: عقيدة وشريعة وأخلاق (في الجزء الثاني).

---

(٥٩) نفس المرجع، «سورة الحشر،» الآية ٢١.

الفصل السابع
الأَحْرُف والقراءات والمعجزات

أولاً: جملة أسئلة

عرفنا في الفصل السابق أن لفظ القرآن، في اللغة، مصدر لفعل قرأ (قرأ قرآناً مثل رجح رجحاناً)، وبالتالي فهو والقراءة بمعنى واحد (قرأ قراءة وقرآناً). وكنا قد أشرنا إلى خلاف بين المهتمين بعلوم القرآن حول هذا النصّ الذي بين دفتي المصحف هل اسمه «قُران» بحذف الهمزة أم «قرآن» بإثباتها؟ وقد رجحنا الرأي الأخير باعتبار أن القرآن كان ولا يزال موضوعاً للقراءة، وأن قراءته على طريقة معينة، أعني المسماة بالترتيل، هي الحكمة من تنزيله مفرقاً ليُقرأ على الناس على مكث، حتّى يكون أبلغ في مجال التأثير في المستمع من مجرد قراءته قراءة عادية. يقول تعالى: **﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾**[(١)].

هناك إلى جانب هذا آيات عديدة تشدّد على كون «القرآن» قد نزل بلسان عربي مبين، وأنه لو كان أعجمي اللسان لما فهمه العرب ولا قبلوه: **﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾**[(٢)] وأيضاً: **﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ. فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾**[(٣)].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا يمكن صياغته على النحو التالي: إذا كان القرآن

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الإسراء،» الآية ١٠٦.

(٢) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآية ٤٤.

(٣) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيتان ١٩٨ ـ ١٩٩.

أبلغ تأثيراً في النفس حين يرتل ترتيلاً بلسان عربي مبين، وإذا كان العرب لن يفهموه وبالتالي لن يتأثروا به لو أنّه أنزل إليهم جملة واحدة بغير لسانهم، فما القول بالنسبة إلى الأقوام الذين أسلموا أو يُدعون إلى الإسلام وهم لا يعرفون العربية؟

في هذا الإطار يمكن أن نذكّر بما قيل منذُ القديم من أن القرآن لا يقبل الترجمة إلى لغات أجنبية، وأن كُلّ ما يمكن فعله في هذا المجال هو ترجمة معانيه. وأكثر من ذلك يمكن أن نضيف أن القرآن لا يقبل «الترجمة» إلى اللغة العربية نفسها إلا على سبيل «ترجمة المعاني»، أي على سبيل التفسير والتأويل!

يمكن أن يعترض معترض ويقول: هذا ليس خاصاً بالقرآن! فهناك أنواع من النصوص بمختلف لغات العالم، كالنصوص الشعرية والأمثال والنكات وما أشبه، لا تقبل الترجمة، لا يمكن نقلها كما هي إلى لغة أخرى، وبالتالي فما يمكن فعله هو ترجمة معانيها، والترجمة لا تنقل سوى المعاني مجردة من بطانتها اللغوية، ولذلك يقال: «الترجمة خيانة»! (Traduire c'est trahir).

لنترك هذه المسألة الشائكة التي تخص «الترجمة» عموماً، ولنركز على ما يخص القرآن، ولنسجل ملاحظتين قد تخففان علينا من وقع مشكلة «الترجمة»، كما ألمحنا إليها.

أما الملاحظة الأولى فتخص ما أجمع عليه علماء المسلمين من أن القرآن هو المعجزة الكبرى للنبي ﷺ. وكما سنرى فإن هذه المعجزة تتمثل في كونه تحدى خصوم الدعوة المحمدية من قريش ـ الذين قالوا إنه ليس من عند الله وإن محمداً افتراه من عنده أو أعانه عليه «قوم آخرون» ـ أقول تحداهم أن يأتوا بسورة مثله، فعجزوا عن ذلك. لقد اكتسى هذا التحدي طابع «التعجيز» فوصف القرآن بأنه معجز. وبما أنّه خُصّ به النبي محمد ﷺ فهو معجزة له. وبما أن الدعوة المحمدية كانت موجهة في البداية إلى المشركين بمكة بنصّ القرآن نفسه: ﴿**وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾[٤]، فإن هذا الإعجاز بقي قائماً، ما دام المخاطبون به هم العرب وحدهم. ولكن عندما اتسعت رقعة الإسلام وأصبحت تضم أقواماً من غير العرب صار من الضروري طرح قضية الإعجاز القرآني بالصورة التي يمكن أن يواجَه بها غير العرب، خصوصاً أصحاب الديانات المناهضة للإسلام كالمانوية. ومن هنا وسع علماء الإسلام مضمون الإعجاز القرآني ليشمل معانيه. وهكذا أصبح المسلمون ينظرون إلى القرآن على أنه معجز ليس بلفظه فقط بل بمعانيه أيضاً، مستندين في

(٤) نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآية ٩٢.

ذلك إلى ما ورد فيه من الإخبار بالغيب، ومن أخبار الأقوام الماضية التي لم تذكر في الكتب السماوية السابقة. . . إلخ.

أما الملاحظة الثانية فتخص القرآن كذلك، ولكن ليس من حيثُ هو معجز، بل من حيثُ هو «كلام الله». والمسألة التي طرحت على هذا المستوى هي العلاقة بين القرآن كنص مقروء ومكتوب بلغة البشر، سواء اللغة العربية أو اللغة التي قد تترجم إليها معانيه، وبين القرآن بوصفه كلام الله. والسؤال العامّ الذي طرح في هذا الصدد يمكن صياغته كما يلي: هل القرآن بلغته ونظمه ومصحفه وحروفه هو كُلّه كلام الله، أما أن معانيه فقط هي وحدها كلام الله؟

هاتان المسألتان ستكونان مدار القول في الفقرة الرابعة من هذا الفصل. أما الآن فسنحاول إجمال القول في مسألة تتعلق بالموضوع نفسه، ولكن على مستوى عربي خالص: أقصد بذلك ما يمكن التعبير عنه بـ «ترجمة القرآن» داخل اللغة العربية نفسها! ذلك أن اللغة العربية، كما ننطق بها اليوم، وأعني اللغة الفصحى كما دونت قواعدها وضبط النطق بها في عصر التدوين، العصر العباسي الأول، لم تكن معممة زمن الدعوة المحمدية على بلاد العرب جميعها، بل كانت القبائل العربية تتكلم «لغات»[٥] ـ وكما نقول اليوم «لهجات» ـ تختلف عن بعضها كما تختلف اليوم العاميات العربية بعضها عن بعض. بل يمكن القول إن اختلاف هذه العاميات إنما هو امتداد أو انعكاس، لاختلاف لغات القبائل العربية زمن البعثة المحمدية. والتفسير الشائع لهذه الظاهرة هو أن القبائل العربية التي انتقلت زمن الفتوحات من أماكنها في الجزيرة العربية قد استقرّت ـ كلها أو بعضها ـ في البلدان المفتوحة، فصارت تتكلم فيها لغتها الخاصة بها. ويمكن أن نضيف أيضاً عامل الهجرة أو التهجير، إذ من المعروف أن التاريخ العربي الإسلامي قد عرف موجات من الهجرة الإرادية والتهجير القسري، كهجرة بني هلال مثلاً.

والسؤال الذي نريد طرحه على خلفية هذه الظاهرة هو التالي: كيف كانت علاقة القرآن كنص لغوي نزل بلغة قريش بدليل قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم**﴾[٦] وقومه هم قريش من دون منازع. أقول كيف كانت علاقة القرآن بلغات القبائل العربية الأخرى، غير القرشية؟ ولكي نقترب من المسألة

---

(٥) الجدير بالإشارة هنا أن المقصود بـ «اللغة» في مثل هذا السياق هو طريقة النطق. جاء في **لسان العرب** «هذه لُغَتهم التي يَلْغُون بها أي يَنطِقُون». راجع: أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، ١٥ ج (بيروت: دار صادر، [١٩٥٥ ـ ١٩٥٦])، ج ١٥، ص ٢٥٢.

(٦) **القرآن الكريم**، «سورة إبراهيم،» الآية ٤.

التي نريد الوصول إليها نشير إلى أن الدعوة المحمدية التي بدأت سرية لا تتعدى في الغالب محيط «أم القرى ومن حولها» سرعان ما اتسعت دائرتها، بعد انتقالها من الدعوة السرية إلى العمل العلني. لقد كانت مكة مركزاً دينياً كانت القبائل العربية غير القرشية تحج إليه لزيارة أصنامها وتقديم الهدايا لها، وكانت مكة كذلك مركزاً تجارياً تقام فيه أسواق موسمية تقصدها مختلف القبائل العربية للتزود والتبادل التجاري. . . إلخ، وكان النبي ﷺ يعرض نفسه ـ أي دعوته ـ على القبائل في أوقات هذه الأسواق، وكتب السيرة تنقل إلينا كثيراً من أخبار هذه اللقاءات التي كان يجريها النبي ﷺ مع مختلف القبائل الوافدة على مكة، وهي لقاءات كان يقرأ خلالها على مخاطبيه آيات أو سوراً من القرآن. أما أن يكون المستمعون إلى النبي من القبائل الأخرى يفهمون القرآن، على الأقل كما يفهمون لغة قريش، فهذا ما لا شكّ فيه، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا لا يتعلق بعملية السماع والفهم، أي التلقي، بل يخص قضية إعادة إنتاج نفس الكلام الذي سمعوه من النبي، سواء لأنفسهم أو لذويهم، أو كمساهمين في نشر الدعوة. إنهم في هذه الحالة سيقرؤون القرآن بلغاتهم، فيقولون مثلاً بدل «قال»: «كَال»، بالقاف المعقوفة (الجيم المصرية)، أو «غال» بـ «الغين»، أو (آل) بـ «الهمزة» إلخ، كما تفعل شرائح اجتماعية كثيرة في جميع الأقطار العربية تقريباً. وقس على هذا نطق أهل الخليج بـ «شيناً»، خصوصاً أهل العراق والكويت، ونطق المصرين بالذال زاياً إلخ. ليس هذا فحسب، بل من الممكن أن «يترجم» أهل قبيلة معينة بعض ألفاظ القرآن المنطوقة بلغة قريش، إلى ما يرادفها في لغتها الخاصة، فيقولون مثلاً: «هلم» بدل «تعال»، أو «أَقْبِلْ» بدل «إئت»!

مثل هذه «الترجمات» لنص إلهي مقدس إلى لغات القبائل العربية غير القرشية التي نزل بها، لم تكن لتمر من دون أن تثير الانتباه، خصوصاً إذا كان النبي نفسه يقرأ القرآن بلغة القبيلة التي كان «يعرض نفسه» عليها في الأسواق أو خارجها. ففي مثل هذه الحالة لا بُدّ أن يسمع بعض صحابته القرآن منه ـ أو من بعض من أقرأهم من هذه القبائل ـ على «لغة» غير التي كانوا قد سمعوها هم منه. وقد حدثت حالات من هذا النوع، نذكربعضها في الفقرة التالية.

ثانياً: نزل القرآن على سبعة أحرف

روى البخاري عن عمر بن الخطاب أنّه قال: «سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان (في صلاته)على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، وكدت أن أعجل عليه، ثُمّ أمهلته حتّى انصرف، ثُمّ لببته (أمسكته) بردائه، فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ (سورة الفرقان) على غير ما أقرأتنيها،

فقال لي: «أرسله» (ارفع يدك عنه). قال له: «اقرأ». فقرأ، قال (النبي): «هكذا أنزلت». ثُمّ قال لي: «اقرأ». فقرأت، فقال: «هكذا أنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا منه ما تيسر»(٧).

وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس أن رسول الله (ﷺ) قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، ثُمّ لم أزل أستزيده فيزيدني حتّى انتهى إلى سبعة أحرف»(٨). كما روي عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب، ولا ذكر عذاب برحمة».

وهناك أحاديث أخرى في الموضوع لا داعي لذكرها.

يمكن المرء أن يشكّ في صحة هذه الأحاديث ما دامت أحاديث آحاد. ولكن الذي لا يمكن الشكّ فيه هو أن الرواة والمفسرين والمتكلمين والفقهاء قد انشغلوا بهذا الموضوع واتخذوا الأحاديث التي ذكرنا مرجعية لهم. وهذا يدلّ على أن هناك فعلاً في القرآن ما يستوجب الانشغال بهذا الموضوع، وأن مسألة «الأحرف السبعة» من صميم موضوعات البحث في ما سمي في ما بعد بعلوم القرآن، وأن الأحاديث المروية في الموضوع تجد صدقيتها الموضوعية ـ إن لم يكن التاريخية ـ في ظهور الحاجة إلى البحث والانشغال بما قررته.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا بُدّ من التنبيه منذُ الآن إلى أن الذين انشغلوا بالبحث في هذا الموضوع، القدماء منهم والمحدثون، لم يصلوا إلى رأي موحّد حول المقصود بـ «الأحرف السبعة». ذلك أن الأحاديث التي تحدثت عنها بقيت كما هي «مغلقة»، إذ «لم يأت في معنى هذه السبع نصّ ولا أثر»، حسب عبارة ابن العربي(٩). ومن هنا اختلاف المهتمين بهذا الموضوع في تعيينها اختلافاً وصل إلى خمسة وثلاثين رأياً، حسب أحد الباحثين القدامى(١٠).

ومن المسائل التي أثاروها في هذا الصدد المسألة التالية: هل القراءة بهذه «الأحرف السبعة» باقية عبر العصور، بمعنى أنها كانت زمن النبي فقط ثُمّ استقر

(٧) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، الحديث رقم ٢٢٨٧، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**ذ، الحديث رقم ٨١٨.

(٨) البخاري، نفس المرجع، الحديث رقم ٤٧٠٥، مسلم بن الحجاج، نفس المرجع، الحديث رقم ٨١٩.

(٩) ذكره الزركشي في: أبو عبد الله محمد بن بهادر الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ٤ ج (بيروت: دار المعرفة، [١٩؟])، ج ١، ص ٢١٢.

(١٠) نفس المرجع، ج ١، ص ٢١٢.

الأمر على ما هو عليه الآن؟ ثُمّ متى استقر الأمر على ما هو عليه الآن، هل في حياة النبي ﷺ أم بعد وفاته؟ قال كثير «منهم إن استقرار القراءة تمّ زمن النبي». ورأوا أن ضرورة اختلاف لغات العرب ومشقة نطقهم بغير لغتهم اقتضت التوسعة عليهم في أول الأمر، فأُذن لكُلّ منهم أن يقرأ على حرفه أي على طريقته في اللغة، إلى أن انضبط الأمر في آخر العهد وتدربت الألسن وتمكن الناس من الاقتصار على الطريقة الواحدة، فعارض جبريلُ النبي (ﷺ) القرآن مرتين في السنة الأخيرة، واستقرّ على ما هو عليه الآن، فنسخ الله سبحانه تلك القراءة المأذون فيها بما أوجبه من الاقتصار على هذه القراءة التي تلقاها الناس(١١).

واضح أن هذا النصّ الذي عبّر فيه الزركشي عن رأي علماء من المتأخرين (ذكر منهم القاضي أبا بكر الطيب وابن عبد البر، وابن العربي والقرطبي) يلخص المناقشات السابقة ويحاول أن يتجاوزها، بوضع المسألة في إطارها التاريخي. وهو إطار يبرر فعلاً المعاني التي أعطيت لكثير من المفاهيم موضوع الخلاف مثل مفهوم «الحرف» في حديث «نزل القرآن على سبعة أحرف». فقد فسروا «الحرف» بكونه «طريقة في اللغة»، ومثلوا لذلك بكون بعض القبائل العربية تستعمل بـ «للنداء وبعضها تستعمل «تعال»، بينما تستعمل قبائل أخرى «إئت» أو «أقبل»(١٢) . . . إلخ.

لكن هذا التعيين لمعنى «الحرف» غير مسَلَّم به، لأن لفظ «الحرف» ـ كما يقول أحدهم ـ «من المشكل الذي لا يُدرى معناه، لأن العرب تسمي الكلمة المنظومة حرفاً، وتسمي القصيدة بأسرها كلمة. والحرف يقع على المقطوع من الحروف المعجمة، والحرف أيضاً المعنى والجهة»!

ثالثاً: الأحرف السبعة والقراءات

هناك من يذهب إلى أن المقصود بـ «الحروف»، في الموضوع الذي نحن بصدده، هو «القراءات»، فتكون الأحرف السبعة هي القراءات السبع. وإذا كان هذا الرأي ينسب إلى الخليل بن أحمد واضع علم العروض، وهو من أوائل المقعِّدين للخطاب العربي، فإن شخصيات علمية ذات وزن في هذا المقام، مثل الطبري، قد

---

(١١) نفس المرجع، ص ٢١٣.

(١٢) استعمل القرآن هذه الألفاظ بنفس المعنى. من ذلك قوله تعالى: ﴿**قل هلمّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا. . . قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم**﴾؛ ﴿**وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا**﴾، و﴿**يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين**﴾ [**القرآن الكريم**: «سورة الأنعام،» الآيتان ١٥٠ ـ ١٥١؛ «سورة الأعراف،» الآية ٧٧، و«سورة القصص،» الآية ٣١ على التوالي].

اعترض عليه بكون «اختلاف القراء إنما هو كُلّه على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وهو الحرف الذي كتب عليه المصحف»[١٣]. ومعنى ذلك أن «الأحرف السبعة» التي نزل بها القرآن هي غير القراءات السبع التي يقرأ بها. فهذه القراءات تقع كلها تحت الحرف الذي كتب به المصحف العثماني.

ولكن ما المقصود بـ «القراءات»؟

موضوع «القراءات» من الموضوعات التي اهتمت بها علوم القرآن اهتماماً زائداً، وهي في المشهور سبع، وقد وصل بها بعضهم إلى عشر وزاد آخرون فجعلوها أربع عشرة[١٤].

والواقع أن مسألة «الأحرف» شيء ومسألة «القراءات» شيء آخر، عند كثيرين. ذلك أن المسألة الأولى مرجعها قول النبي (ﷺ) «نزل القرآن على سبعة أحرف» كما رأينا. وقد أجمع علماء الإسلام المهتمون بالموضوع على أن هذه «الأحرف» استقرّت قبل وفاة الرسول ولم يكن ثمة مزيد بعد ذلك. أما «القراءات» فتعيينها وضبطها لم يبدأ إلا في القرن الثالث الهجري.

ومع أن الفاصل الزمني بين ابتداء النقاش في مسألة الأحرف السبعة والشروع في ضبط القراءات، فاصل كبير، فإن بعض المتأخرين من المهتمين بعلوم القرآن قد اعتبروا العلاقة العضوية بين الموضوعين، مغفلين الجانب التاريخي، فقالوا إن المقصود بـ «السبعة» التي نصت عليها أحاديث نبوية، والمروية باستفاضة تقترب من التواتر، هو «أن يقرأ كُلّ قوم من العرب بلغتهم وما جرت عليه عادتهم من الإظهار والإدغام والإمالة والتفخيم والإشمام والهمز والتليين والمدّ وغير ذلك من وجوه اللغات إلى سبعة أوجه منها في الكلمة الواحدة، فإن الحرف هو الطرف والوجه كما قال تعالى: ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف**﴾[١٥] أي على وجه واحد، وهو أن يعبده في السراء دون الضراء. وهذه الوجوه هي القراءات السبع التي قرأها القراء السبعة، فإنها كلها صحت عن رسول الله (ﷺ) وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف». وعلى هذا تكون القراءات السبع عبارة عن اختيارات أولئك القراء، «فإن كُلّ واحد اختار، في ما روى وعلِم وجهة من القراءة، ما هو الأحسن عنده

---

(١٣) الزركشي، نفس المرجع، ص ٢١٤.

(١٤) القراءات السبع هي القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة المشهورين وهم: نافع، وعاصم، وحمزة، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعلي الكسائي. والقراءات العشر هي هذه السبع مع زيادة قراءات كُلّ من أبي جعفر، ويعقوب، وخلف.

(١٥) **القرآن الكريم**، «سورة الحج،» الآية ١١.

والأولى، ولزم طريقة منها ورواها، وقرأ بها واشتهرت عنه، ونسبت إليه، فقيل: حرف نافع وحرف ابن كثير. ولم يمنع واحد منهم حرف الآخر ولا أنكره، بل سوغه وحسّنه وكُلّ واحد من هؤلاء السبعة روي عنه اختياران وأكثر وكُلّ صحيح»[١٦]. وإلى هذا مال صاحب **لسان العرب** الذي عدد معاني «الحرف» لينتهي إلى المجال الذي نحن بصدده فيوحد بين الحرف والقراءة. يقول: «كلُّ كلمة تقرأ على الوجوه من القرآن تسمى حَرْفاً، تقول: هذا في حَرْف ابن مسعود أي في قراءة ابن مسعود». ونقل عن ابن سيده قوله: «والحَرْفُ: القِراءة التي تقرأ على أَوجُه، وما جاء في الحديث من قوله، عليه السلام: «نزل القرآن على سبعة أَحْرُف كلُّها شافٍ كافٍ»، أَراد بالحَرْفِ اللغة. قال أَبو عبيد وأَبو العباس: نزل على سبع لُغات من لغات العرب، قال: وليس معناه أَن يكون في الحرف الواحد سبعة أَوجُه، هذا لم يسمع به، قال: ولكن يقول هذه اللغات متفرّقة في القرآن، فبعضه بلغة قُرَيْشٍ، وبعضه بلغة أَهل اليمن، وبعضه بلغة هَوَازِنَ، وبعضه بلغة هُذَيْل، وكذلك سائر اللغات ومعانيها في هذا كُلّه واحدةٌ».

وعلى هذا الاعتبار يكون معنى «الأحرف السبعة» هو لهجات سبع قبائل من القبائل العربية التي كان لها اتصال واحتكاك بمكة. فإذا جاء شخص من إحدى هذه القبائل إلى مكة وأخذ القرآن نطقه كما ينطق بلهجته. وهذه وجهة نظر معقولة ومقبولة، من زاوية علم الاجتماع والتاريخ. وقد عرضنا لها في الفقرة الأولى من هذا الفصل.

ومع ذلك فهذه الوجهة من النظر لم تسلم من المطاعن. لقد اعترض بعضهم على القول بأن المقصود بـ «أحرف» سبع لغات أو لهجات باعتراض وجيه فقال: إنه لو كان كذلك لم ينكر القوم بعضهم على بعض في أول الأمر، لأن ذلك من لغته التي طبع عليها، وأيضاً فإن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قرشي، وقد اختلفت قراءتهما، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته»[١٧]. ومن هنا ذهب بعضهم إلى إحصاء أوجه الاختلاف في القرآن مما يصحّ أن يسمى «حرفاً»، ينطبق عليه المعنى الذي من أجله اختلف عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم، في «قراءة» بعض آي القرآن. من ذلك ما ذكره بعضهم من أنّه تدبّر وجوه الاختلاف في ألفاظ القرآن فوجدها سبعة هي:

١ ـ منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل قوله تعالى: ﴿هن

(١٦) الزركشي، نفس المرجع، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(١٧) نفس المرجع، ج ١، ص ١١٨ ـ ١١٩.

﴿أطهرُ لكم﴾[١٨] بضم الراء، على أساس أن «هن» مبتدأ، و«أطهر لكم» خبر. وهي قراءة العموم، ولكن قرئ بفتح الراء: «أطهرَ لكم»، على الحال. ومثل قوله «يضيقُ صدري» بضم القاف «ويضيقَ صدري» بفتحه، وذلك في قوله تعالى على لسان موسى: **﴿قال ربّ إني أخاف أن يكذبوني. ويضيق صدري ولا ينطلق لساني﴾**[١٩] فالرفع على الاستئناف، أما النصب فرداً على «يكذبون». والنحاة مختلفون في هذا الأمر.

٢ ـ ومنها ما يتغير معناه ويزول بالإعراب، ولا تتغير صورته كقوله «ربنا باعَد بين أسفارنا»، بفتح العين، و**﴿ربنا باعِدْ بين أسفارنا﴾**[٢٠] بكسرها.

٣ ـ ومنها ما يتغير معناه بالحروف واختلافها ولا تتغير صورته كقوله **﴿كيف نُنشزها﴾**[٢١] بحرف الزاي، و«نُنشِرها»، بحرف الراء.

٤ ـ ومنها ما تتغير صورته ولا يتغير معناه **﴿كالعهن المنفوش﴾**[٢٢] و«الصوف المنفوش».

٥ ـ ومنها ما تتغير صورته ومعناه مثل **﴿طلح منضود﴾**[٢٣] و«طلع».

٦ ـ ومنها ما يختلف بالتقديم والتأخير مثل **﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾**[٢٤] و«سكرة الحقّ بالموت».

٧ ـ ومنها الزيادة والنقصان مثل **﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾**[٢٥]، و«صلاة العصر»[٢٦].

---

(١٨) والآية كاملة كما يلي: **﴿وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي أليس منكم رجل رشيد﴾ [القرآن الكريم،** «سورة هود،» الآية ٧٨]. ويقصد بـ «قومه» قوم لوط، وبـ «يهرعون إليه» يريدون ضيوفه أما السيئات التي كانوا يعملون فهي اللواط. ويقصد بالطهر ما ينجز في نطاق الزواج الحلال. وفتح الراء في «أطهر لكم» على الحال كما قلنا «وهؤلاء بناتي» مبتدأ وخبر. أما كلمة «هن» فتسمى عماداً، مثل «هو» في قولك: زيد هو القاتل.

(١٩) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيتان ١٢ ـ ١٣.

(٢٠) نفس المرجع، «سورة سبأ،» الآية ١٩.

(٢١) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٢٥٩.

(٢٢) نفس المرجع، «سورة القارعة،» الآية ٥.

(٢٣) نفس المرجع، «سورة الواقعة،» الآية ٢٩.

(٢٤) نفس المرجع، «سورة ق،» الآية ١٩.

(٢٥) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٢٣٨.

(٢٦) من المشاكل التي أثاروها في موضوع تعدد الأحرف التي نزل بها القرآن قولهم: «هل كان جبريل ﷺ يلفظ باللفظ الواحد سبع مرات؟»، وقد أجيب عنه: «إنما يلزم هذا إن قلنا إن السبعة الأحرف تجتمع في حرف واحد، ونحن قلنا كان جبريل يأتي في كُلّ عرضة بحرف إلى أن تمرّ سبعة».

واضح أن الأمثلة المذكورة داخل هذا التصنيف هي قراءات معترف بها. بمعنى أنها كلها قرآن، وأن اختلافها لا يترتب عنه اختلاف في القرآن، وإنما هي من قبيل التعبير عن المعنى الواحد، بأنواع من الإعراب أو بألفاظ متنوعة.

وإذا كان ذلك كذلك فكيف تتحدد العلاقة بين هذه القراءات وبين «الأحرف السبعة»؟

أ ـ هل القراءات مؤسسة على الأحرف السبعة؟

للجواب عن هذا السؤال لا بُدّ من الرجوع إلى عملية جمع القرآن. لقد تمّ جمع القرآن بصفة نهائية على عهد عثمان في مصحف واحد، هو المعروف بالمصحف العثماني، نسبة إلى عثمان. ويسمى هذا المصحف أيضاً بالمصحف الإمام، لأن الخليفة عثمان ومعه الصحابة، قد اعتمدوا هذا المصحف مصحفاً رسمياً لجميع المسلمين، وذلك بهدف وضع حدّ للاختلاف في القراءات التي كانت تنتشر بانتشار الفتوحات، وما كان يصحبها من تنافس وتعصب لهذا الوجه من القراءة أو ذاك، وهي أوجه نقلت عن الصحابة، ومنها ما اعتمده هذا الصحابي أو ذاك في مصحفه. وإذا أضفنا إلى ذلك أن الكتابة العربية لم تكن يومئذ منقوطة ولا مشكولة وأن صورة الكلمة فيها كانت تحتمل وجوهاً من القراءات، أدركنا كيف أن المرجع في قراءة القرآن، كما كان يقرأ زمن النبي، لم يكن المصحف، بل الرواية والتلقي من القراء الذين كانوا يحفظون في صدورهم ليس القرآن كنص وحسب، بل أيضاً كنص يقرأ على طريقة معينة، هي طريقة هذا الصحابي أو ذاك.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإذا نحن استحضرنا الروايات التي تقول إن عثمان قد أمر بإحراق المصاحف الأخرى وفي نفس الوقت بعث إلى الأمصار بنسخة من المصحف الإمام لاعتماده وحده، وأنه أرسل مع كُلّ نسخة قارئاً من الصحابة القراء المعروفين يعلم الناس كيف القراءة، أدركنا كيف أن اختلاف القراء في قراءاتهم باختلاف أوجه أخذهم القرآن عن النبي (ﷺ) سينتقل معهم إلى الأمصار التي انتدبوا إليها لتعريف الناس بكيفية قراءة المصحف، مصحف عثمان. وواضح أن الاختلاف سينحصر هذه المرة داخل «الحرف» الذي اعتمد في المصحف العثماني. وهذا هو معنى قول الطبري ـ الذي ذكرناه سابقاً ـ «اختلاف القراء إنما هو كُلّه حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وهو الحرف الذي كتب عليه المصحف». وذلك ردّاً على من قال إن «الأحرف السبعة» هي نفسها «القراءات السبع».

وإذاً فـ«الأحرف السبعة» ترجع إلى زمن النبي ﷺ، أما القراءات فترجع إلى زمن توزيع نسخ من المصحف العثماني على الأمصار. لقد تعددت القراءات إذاً بتعدد أوجه

قراءة القراء الذين أرسلوا للإشراف على القراءة من مصحف عثمان. وخوفاً من أن يتسع مدى هذا التعدد بانتشار الصحابة «في الآفاق» من خلال الفتوحات والهجرات المتعددة، برزت الحاجة إلى ضبط القراءات وحصرها، فنشأ من ذلك ما يطلق عليه «علم القراءات». وهو علم أسسه أصحابه على المبدإ التالي: «كُلّ قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية (الموزعة على الأمصار) ولو تقديراً، ووافقت العربية ولو بوجه، وصحّ إسنادها ولو كان عمن فوق العشرة من القراء، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحلّ إنكارها بل هي من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن». ومن هنا قالوا «القراءات توقيفية وليست اختيارية» بمعنى أنها مأخوذة عن النبي (ﷺ)، بواسطة القراء الذين أخذوا عنه والذين انتشر بعضهم في الأمصار لتعليم الناس كيفية قراءة المصحف الإمام[٢٧]. وهكذا: فـ «أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشام والعراق، كلٌّ منهم عَزَا قراءته التي اختارها إلى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله ﷺ، لم يستثن من جملة القرآن شيئاً؛ فأسند عاصم قراءته إلى عليّ وابنِ مسعود، وأسند ابن كَثير قراءته إلى أُبَيّ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء أسند قراءته إلى أُبَيّ، وأما عبد اللّه بن عامر فإنه أسند قراءته إلى عثمان؛ وهؤلاء كلهم يقولون: قرأنا على رسول الله ﷺ، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات».

ب ـ الترتيل والتجويد

كيف نفهم كون القراءات توقيفية: مأخوذة عن النبي (ﷺ)؟ سؤال يضمر سؤالاً آخر وهو: كيف كان النبي يقرأ القرآن، بغض النظر عن الأحرف السبعة؟

للإجابة عن هذا السؤال ننطلق، كما فعلنا في الأسئلة السابقة، مما يؤسسه من القرآن والحديث. ففي القرآن وردت آيات تشير إلى أن قراءة القرآن، يجب أن تتم بطريقة مخصوصة هي «الترتيل». من ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه الكريم: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمْ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً. نِصْفَهُ أَوْ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾**[٢٨] وقوله: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾**[٢٩].

واضح إذاً أن القرآن نزل على الرسول مرتلاً، والآيتان المذكورتان قبل لا

(٢٧) يروى أن النبي خصّ جماعة من أصحابه بإتقان القراءة منهم: أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبو الدرداء، ومعاذ بن جبل وغيرهم.

(٢٨) **القرآن الكريم**، «سورة المزمل،» الآيات ١ ـ ٤.

(٢٩) نفس المرجع، «سورة الفرقان،» الآية ٣٢.

تدعان مجالاً للشك في هذا ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا﴾ ﴿وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾.

فما معنى الترتيل إذاً؟

أما التجويد فيقوم على دِرَاسَةَ مَخَارِجِ الحُرُوفِ، وصِفَاتِهَا. وقد صنف عُلَمَاءُ القِرَاءَاتِ الحُرُوفَ العَرَبِيَّةَ إلى صنفين:

١ ـ الحروف المُسْتَعْلِيَةُ وهي التي يُرْفَعُ اللِّسَانُ عند النُّطقِ بها إلى أَعْلَى كالخَاء والطَّاء والغَيْن، وهي تُنْطَقُ مُفَخَّمَةً.

٢ ـ الحروف البَسِيطة وهي التي ينزل اللسانُ فيها إلى أسفل وتُنْطَقُ مُرَقَّقَةً، كالباء والتاء، وكالرَّاء واللام في أحوال خاصة.

وأما الوقف فالأصل فيه أنّه «لما لم يمكن القارئ أن يقرأ السورة أو القصة في نفَس واحد، ولم يجز التنفس بين كلمتين في حالة الوصل، بل ذلك كالتنفس في أثناء الكلمة، وجب حينئذ اختيار وقفة للتنفس والاستراحة وتعين ارتضاء ابتداء بعده. ويتحتم أن لا يكون ذلك مما يحيل المعنى ولا يخِلّ بالفهم»، من ذلك أنك إذا قرأت قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾(٣٠)، فلا تسكت حتّى تقرأ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾(٣١)، مع أن كلاً منهما آية. وقد ميزوا في الوقف بين التام والحسن والقبيح. فالتامَ هو «الذي يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده ولا يكون بعده ما يتعلق به كقوله تعالى: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾(٣٢). والحسن: هو الذي يحسن الوقف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعده كقوله في سورة الفاتحة: «**الحمد لله**»، لأن الابتداء بـ «**ربّ العالمين**» لا يحسن لكونه صفة لما قبله. والقبيح هو الذي ليس بتام ولا حسن كالوقف على «**بسم**» من قوله: «**بسم الله**». وبالجملة: «لا يتم الوقف على المضاف دون المضاف إليه، ولا المنعوت دون نعته، ولا الرافع دون مرفوعه، وعكسه، ولا الناصب دون منصوبه، وعكسه، ولا المؤكد دون توكيده، ولا المعطوف دون المعطوف عليه، ولا البدل دون مبدله، ولا إن، أو كان، أو ظن وأخواتها دون اسمها، ولا اسمها دون خبرها، ولا المستثنى منه دون الاستثناء، ولا الموصول دون صلته اسمياً أو حرفياً، ولا الفعل دون مصدره، ولا الحرف دون متعلقه، ولا الشرط دون جزائه».

ومن هنا يتبين أن المعرفة بأماكن الوقف في ترتيل القرآن وتجويده تتطلب

---

(٣٠) نفس المرجع، «سورة الرحمن،» الآية ٢٦.

(٣١) نفس المرجع، «سورة الرحمن،» الآية ٢٧.

(٣٢) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٥.

المعرفة باللغة والنحو والتفسير، كما تتطلب المعرفة بمذاهب المتكلمين ومذاهب الفقهاء لمّا كان يترتب عن الوقف تبنّي مذهب من دون آخر. وقد ميزوا بين الوقف والوصل والسكت والقطع. وبين الرّوْم والإشمام والإبدال والنقل والإدغام والحذف والإثبات والإلحاق(٣٣)، واهتموا اهتماماً خاصاً بالفتح والإمالة. أما الفتح فهو أن يفتح القارئ فاه بلفظ الحرف ويقال له التفخيم. وأما الإمالة فهي أن ينحو القارئ بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء. كما اهتموا بـ «الغنة» وهي خاصة بالنون والميم المشددتين. فـ «هذان الحرفان إذا وقع كُلّ منهما في القرآن الكريم مشدداً، وجبت الغنة بمقدار حركتين، والحركة بقدر خفض الإصبع وبسطه، وهي وسط بين الإسراع والتأني، ومخرجها الخيشوم وهو أعلى الأنف وأقصاه من الداخل، ولهذا سمي كُلّ منهما حرف غنة. وحرف الغنة المشدد إما أن يكون متصلاً مثل «إنيّ» كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى**﴾(٣٤) وإما أن يكون منفصلاً وهو ما كان من كلمتين إذا اجتمعا وجب التشديد. والغنة مثل «من نار» كما في قوله تعالى: ﴿**يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَار وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ**﴾(٣٥).

وإضافة إلى الظواهر الصوتية المذكورة اهتموا بـ «الفواصل» في القرآن. والفاصلة: «كلمة في آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع. وهي تقع عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام. وتسمى فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها. وقد أخذ هذا الاصطلاح من قوله تعالى ﴿**كتاب فصلت آياته**﴾(٣٦).

رابعاً: الإعجاز في القرآن

١ ـ سحر يؤثر

هذه التقعيدات التي تضع ضوابط لقراءة القرآن، تجعل قراءته تختلف عن قراءة أي نصّ عربي. لقد كانت هناك، من دون شكّ، طرائق خاصة لإنشاد الشعر، كما

---

(٣٣) الوقف: «قطع الكلمة عما بعدها وقتاً من الزمن مع التنفس وقصد العودة؛ والوصل: وصل الكلمة بما بعدها من دون تنفس؛ والسكت: قطع الكلمة عما بعدها وقتاً من الزمن من دون تنفس. والقطع: قطع الكلمة عما بعدها وقتاً من الزمن مع التنفس من دون قصد العودة إلى القراءة في الحال». كما خصوا الوقف على أواخر الكلام بعناية خاصة فحددوا له سبع كيفيات هي باصطلاحهم: السكون والرّوم والإشمام والإبدال والنقل والإدغام والحذف والإثبات والإلحاق.

(٣٤) **القرآن الكريم**، «سورة طه،» الآية ٨٢.

(٣٥) نفس المرجع، «سورة الرحمن،» الآية ٣٥.

(٣٦) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآية ٣.

هو الحال الآن، وكانت هناك طرق خاصة يتميز بها كلام الساحر والكاهن وما أشبه، وكانت هناك ـ وما زالت ـ طرق خاصة لقراءة النصوص الدينيّة لدى الديانات الأخرى. . . إلخ، فليس من الغريب إذاً أن تكون للقرآن طريقة خاصة به في القراءة هي المسماة اليوم بـ «الترتيل» و«التجويد».

سبق أن أشرنا إلى قوله تعالى يخاطب نبيه الكريم: ﴿**وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا**﴾. وقوله: ﴿**وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا**﴾، وهذا يدلّ على أن «ترتيل» القرآن جزء من القرآن نفسه، بمعنى أن مفعول الخطاب القرآني في التأثير في السامعين لا يرجع إلى معانيه وحدها، بل يرجع أيضاً إلى طريقة قراءته. ولعل هذا الجانب هو الذي يعطي للفظ «القرآن» معناه الاصطلاحي الذي يجعل منه اسم علم، وبالتالي يفصله عن مجرد «القراءة» كمصدر لفعل قرأ.

هناك آيات عديدة تبرز هذه الخاصية التي يتميز بها لفظ «القرآن» والتي تفصله عن معنى المصدر، أعني مجرد القراءة. آيات تنص على أن هذه الخاصية هي جزء من القرآن المنزل. قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾(٣٧). فالآية صريحة في أن طريقة قراءة القرآن هي من الله ﴿**فإذا قرأناه فاتبع قُرآنِه**﴾. ومما يدلّ على أن قراءة القرآن بالطريقة الخاصة به لها تأثير خاص في المستمعين، قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾(٣٨) وقوله: ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُورا**﴾(٣٩) وقوله في حكاية عن مشركي قريش خصوم الدعوة المحمدية: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾(٤٠) وأخيراً وليس آخراً، قوله تعالى مبيناً مدى تأثير القرآن: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(٤١).

وإضافة إلى هذه الآيات التي تنوه بالقرآن وبتأثيره في المؤمنين خاصة تنقل إلينا كتب السيرة روايات عن وقائع تشير إلى ولع رجال من قريش باكتناه سرّ القرآن من خلال الاستماع إليه.

---

(٣٧) نفس المرجع، «سورة القيامة،» الآيات ١٦ ـ ١٩.

(٣٨) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٢٠٤.

(٣٩) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ٤٥.

(٤٠) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآية ٢٦.

(٤١) نفس المرجع، «سورة الحشر،» الآية ٢١.

روى ابن إسحاق «أن أبا سُفْيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَرِيق بن عَمرو بن وهب الثَّقفي، حليف بني زُهْرة (وكان هؤلاء من ألد خصوم الدعوة المحمدية) خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسول اللّه ﷺ، وهو يصلي في الليل في بيته، فأخذ كلُّ رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكُلّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتّى إذا طلع الفجرُ تفرقوا فجمعهم الطريقُ، فتلاوموا، وقال بعضُهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعضُ سفهائكم لأَوْقَعْتُم في نفسه شيئاً، ثُمّ انصرفوا. حتّى إذا كانت الليلةُ الثانية، عاد كلّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتّى إذا طلع الفجرُ تفرقوا، فجمعهم الطريقُ، فقال بعضُهم لبعض مثلَ ما قالوا أول مرة، ثُمّ انصرفوا. حتّى إذا كانت الليلةُ الثالثةُ أخذ كلّ رجل منهم مجلسَه، فباتوا يستمعون له، حتّى إذا طلع الفجرُ تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتّى نتعاهدَ ألا نعود إلى ذلك ثُمّ تفرقوا. فلما أصبح الأخنسُ بن شَرِيق أخذ عصاه، ثُمّ خرج حتّى أتى أباً سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك في ما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة واللّه لقد سمعتُ أشياءَ أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياءَ ما عرفت معناها ولا ما يُراد بها، قال الأخنسُ: وأنا، والذي حلفتَ به! قال: ثُمّ خرج من عنده حتّى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيتَه، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك في ما سَمِعْتَ من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتّى إذا تجاذينا على الرُّكب(٤٢)، وكنا كفرسَيْ رهان، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء؛ فمتى ندرك مثلَ هذه، واللّه لا نؤمنُ به أبداً ولا نصدقه قال: فقام عنه الأخنسُ وتركه(٤٣).

وفي سياق آخر روى ابن إسحق «أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سِنّ فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشرَ قُرَيش، إنه قد حضر هذا الموسمُ، وإن وفود العرب ستقدِمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمرِ صاحبِكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضُكم بعضاً، ويردّ قولُكم بعضَه بعضاً؛ قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأياً نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن؛ قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بِزَمْزَمَةِ(٤٤) الكاهن ولا سَجْعه؛ قالوا: فنقول: مجنون؛

---

(٤٢) فلما تجاذينا على الركب: «الجاذي» المقعد على قدميه قالوا: وربما جعلوا الجاذي والجاثي سواء.

(٤٣) أبو محمد عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، تراث الإسلام، ٤ ج في ٢ مج (القاهرة: [د. ن.، د. ت.])، ج ٢، ص ٣١٦.

(٤٤) الزمزمة: صوت ضعيف غير مفهوم.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخَنْقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته؛ قالوا: فنقول: شاعر؛ قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كُلّه رجَزَه، وهَزَجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر؛ قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّار وسحرَهم، فما هو بنَفْثِهم ولا عَقْدِهم(٤٥) قالوا؛ فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: واللّه إن لقوله لحلاوةً وإن أصلَه لعَذْقٌ وإن فرعه لجَناة(٤٦)، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنّه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرِّق به بين المرءِ وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدِموا الموسمَ، ولا يمرّ بهم أحد إلا حذّروه إياه، وذكروا لهم أمره». ويضيف ابن إسحاق أنّه في الوليد بن المغيرة نزلت آيات من سورة «المدثر» منها قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَذَا إِلاّ قَوْلُ الْبَشَرِ**﴾(٤٧).

وعندما أصر مشركو قريش على النبي أن يأتيهم بآيات معجزات كما جاءت بها الأنبياء السابقون، ردّ القرآن عليهم: ﴿**وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾(٤٨).

وإذاً فالقرآن لا يحتاج إلى معجزة من خارجه تؤيد صدقه وكونه مُنزَلاً من عند الله. بل هو نفسه يحمل معه برهان إعجازه. إنه التأثير العميق في قلوب الذين لا يتخذون منه مسبقاً موقفاً رافضاً مكذباً، هذا واضح. والسؤال الآن هو التالي: أين يكمن هذا التأثير، هل في «الترتيل» وحده، وقد تحدثنا عنه، أم إن ثمة جوانب أخرى؟

٢ ـ آراء في الإعجاز القرآني

من جملة الأسئلة التي طرحناها في مقدمة هذا الفصل السؤال التالي: إذا كان القرآن أبلغ تأثيراً في النفس حين يرتل ترتيلاً بلسان عربي مبين، وإذا كان القرآن يقرر

---

(٤٥) العقد والنفث: يعقد الساحر خيطاً وينفث فيه بفمه.

(٤٦) العذق: النخلة، جناة: طاب للجني.

(٤٧) **القرآن الكريم**، «سورة المدثر،» الآيات ١٨ ـ ٢٥.

(٤٨) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآيتان ٥٠ ـ ٥١. ويقصد بـ «لولا» هلا.

أن العرب ما كانوا ليفهموه وبالتالي ليتأثروا به لو أنّه أنزل إليهم جملة واحدة بغير لسانهم، فما القول بالنسبة إلى الأقوام الذين أسلموا أو يُدعون إلى الإسلام وهم لا يعرفون العربية؟

انطلاقاً من هذه المسألة التي أصبحت واقعاً معيشاً مع الفتوحات وتدفق الأقليات الدينيّة والعرقية على المجتمع الإسلامي، بدأ «الكلام» في «إعجاز القرآن»! وقد كان المعتزلة الأوائل هم الذين اضطروا إلى الخوض في العوامل التي يرجع إليها الإعجاز القرآني. كان الفهم السائد قبلهم استمراراً لما كان سائداً من قبل، أي منذُ وصفت قريش القرآن بأنه «سحر يؤثر»، الشيء الذي يعني أنّه أرقى وأسمى من أي خطاب بلاغي عرفه العرب. وغني عن البيان القول إن هذا «السحر المؤثر» لا يمكن أن يكون له نفس المفعول في نفوس من لا يعرفون العربية، أولئك الذين لا يمكن إقناعهم به إلا بالكشف فيه عن ميزة أو ميزات أخرى يمكن أن يقتنع بها غير العرب. ميزات معنوية عقلية.

٣ ـ القول بالصرفة

وهكذا فبمجرد ما توسعت الدولة العربية الإسلامية واستقرت وبدأ الاحتكاك الحضاري والصراع الثقافي داخل المجتمع الإسلامي، الذي صار يضم أقليات دينية وجماعات إثنية مختلفة، طرحت من جديد مسألة إعجاز القرآن. كان المناهضون للحكم العربي من الأقليات الدينيّة والمانوية خاصة، يطعنون في القرآن وفي مصدره الإلهي.

كان من الطبيعي، إذاً، أن يتصدى مفكرو الإسلام، وفي مقدمتهم المتكلمون، إلى الردّ على هذه المطاعن بإبراز وجوه أخرى لإعجاز القرآن. وقد أراد المعتزلة أن يعطوا مفهوم «الإعجاز» القرآني طابعاً كلياً بحيث يسلم به العربي وغير العربي فربطوه بأمور تتصل بالمعنى لا باللفظ. كإخباره بالغيب: «الغيب» في الماضي أي حكايته لأحوال الأمم الماضية التي لم يكن العرب أيام النبوة يعرفون عنها شيئاً، و«الغيب» في المستقبل كإخباره بهزيمة الروم قبل وقوعها. . . إلخ. أما الجانب الآخر من القرآن، الجانب البلاغي، جانب اللفظ ونظم الكلام، فمنهم من اعتبر القرآن معجزاً بذاته، بمعنى أن البشر عاجزون بطبيعتهم عن الإتيان بمثله، ومنهم من اعتبره معجزاً بتدخل الإرادة الإلهية التي منعت العرب وصرفتهم عن الإتيان بشيء مثله. وقد عرف هذا الرأي بـ «القول بالصرفة»، وينسب إلى المعتزلي المشهور إبراهيم بن سيار النظام المتوفى سنة ٢٣١هـ الذي يروى عنه قوله: «والآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب. أما التأليف والنظم فقد يجوز

أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم»[٤٩].

٤ ـ القول بالنظم . .

لم يكن هذا النوع من القول في إعجاز القرآن ليمر من دون أن يثير ردود فعل، داخل الدائرة العربية الإسلامية. إن الاعتراف بما في القرآن من «إخبار بالغيوب»، أمر مقبول بل مرغوب، ولكن لا يجوز أن يكون ذلك على حساب «تأثيره البياني البلاغي» ـ والرسول يقول «إن من البيان لسحراً» ـ خصوصاً في وقت لم يعد فيه عدم المعرفة بالعربية عائقاً. فقد تعلم المسلمون من غير العرب اللغة العربية حتّى صار جلّ علمائها الذين صاروا مراجع علمية فيها، في مجال النحو والشعر والبلاغة . . . إلخ، من «الأعاجم». وهكذا أصبح البحث في «أسرار البلاغة» العربية ككل، وفي «دلائل الإعجاز» القرآني بصفة خاصة، شغلاً شاغلاً للمتكلمين وعموم البيانيين من بلاغيين ونحاة ومفسرين ومحدثين وفقهاء . . . إلخ، ثُمّ غدا قسماً أساسياً في مؤلفات «علوم القرآن».

ليس من مهمتنا هنا التأريخ لتطور البحث في هذا الموضوع ولا استقصاء الآراء التي قيلت في إطاره. يكفينا أن نشير إلى أن الأغلبية الكبرى منها تذهب مع الرأي القائل إن سرّ الإعجاز في القرآن هو ما ينفرد به من خصائص على مستوى «النظم»، نظم الخطاب. وهذه نظرية التقى حولها كبار المعتزلة كالقاضي عبد الجبار وكبار الأشاعرة كالقاضي الباقلاني وكبار البلاغيين كعبد القاهر الجرجاني.

وأقرب مؤلفات هؤلاء إلى موضوعنا هنا هو كتاب «إعجاز القرآن» للقاضي أبي بكر بن محمد بن الطيب بن الباقلاني (المتوفى سنة ٤٠٣)، وفي ما يلي مجمل لأهم ما ورد فيه.

ينطلق الباقلاني من القضية التالية وهي أن نبوة النبي محمد بن عبد الله معجزتها: القرآن، كما دل على ذلك قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ**[٥٠] **مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**. وما يميز هذه المعجزة هو أنها عامة، عمت العصور اللاحقة: «ولزوم الحجة بها في أول وقت وُرودها إلى يوم القيامة على حدّ واحد»: إذ كما عجز معاصرو النبي من العرب عن الإتيان بمثل القرآن، أو بمثل سورة منه، عجز أهل العصور التالية كذلك.

(٤٩) أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، **مقالات الإسلاميين**، ج ١، ص ٢٩٦.

(٥٠) ويقصد بـ «الآيات» في **﴿أنزل عليه آيات من ربه﴾** معجزات.

ومن هنا يبرز الباقلاني الفرق بين القرآن والكتب المنزلة على الأنبياء الآخرين، فهذه الكتب ليست معجزة بنفسها بل بوصف زائد عليها كمثل ما تتضمنه من أخبار الغيوب، وأيضاً بما خصّ به الأنبياء السابقون من «آيات» (علامات) تشهد بصدقهم. أما القرآن فهو معجز بنفسه. ومكمن الإعجاز فيه أنّه بديع النظم عجيب التأليف، وأنه خارج عن نظام كلام العرب. فالقرآن ليس شعراً ولا سجعاً، وليس في كلام العرب مثيل له، وهو على طوله متناسب في الفصاحة، لا يتفاوت ولا يتباين، بينما كلام البلغاء والشعراء يتفاوت. فالشاعر الواحد يتفاوت في شعره، أما القرآن فهو يبلغ الغاية على اختلاف ما يتصرف فيه. ثُمّ إن الشعر يُتعلم والفصاحة تتعلم والأديب يَتعلم الصنعة فتصبح سليقة فيه، أما القرآن فليس له مثال يحتذى إليه.

ويورد الباقلاني دليلاً آخر ملخصه أن الناظر في نظم القرآن ثُمّ في شيء من كلام النبي ﷺ، لا بُدّ أن يلاحظ بسهولة الفرق بين الكلامين. وهنا يورد نماذج من خطب الرسول ورسائله، ومن خطب الصحابة والبلغاء ليبين الفرق بين بلاغة القرآن وبلاغة الرسول وغيره. ثُمّ ينتقل إلى المقارنة بين آيات من القرآن ونصوص من الشعر والخطابة المعروفة بفصاحتها وبلاغتها فيكشف عن عيوب هذه، مما يُظهر التفاوت بين كلام الله وكلام البشر(٥١).

خامساً: انشقاق القمر والإسراء والمعراج... وأمور أخرى

إذا كان القرآن لا يحتاج إلى معجزة من خارجه تؤيد صدقه وكونه مُنزَلاً من عند الله، بل هو نفسه يحمل معه برهان إعجازه، كما قررنا قبل (فقرة ٤ ـ أ) فما القول في «انشقاق القمر» و«الإسراء والمعراج»، وأمور أخرى يذكرها الرواة؟

نحن نؤكد فعلاً أن الشيء الوحيد، الذي يفهم من القرآن بأكمله أنّه معجزة خاصة بالنبي محمد ﷺ، هو القرآن لا غير، فالقرآن يكفي ذاته بذاته في هذا الشأن. والدليل على ذلك أن كفار قريش قد أكثروا من مطالبة الرسول ﷺ بالإتيان بآية (معجزة) تخرق نظام الكون واستقرار سننه كدليل على صدق نبوته، فكان جواب القرآن أن مهمة محمد بن عبد الله هو أن يبلغ لأهل مكة (أم القرى) ومن حولها رسالة الله إليهم (القرآن)، وليس من اختصاصه الإتيان بآيات معجزات خارقة للعادة.

---

(٥١) راجع تفاصيل أوفى بخصوص هذا الموضوع في: محمد عابد الجابري، «اللفظ والمعنى: ٢ ـ نظام الخطاب ونظام العقل،» في: محمد عابد الجابري، **بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية**، نقد العقل العربي؛ ٢، ط ٧ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤)، القسم ١: **البيان.**

ومن جملة الآيات التي كررت هذا المعنى ما ورد في سورة العنكبوت، وهي آخر سورة نزلت بمكة وبالتالي يمكن اعتبارها ختماً للجدل مع قريش حول هذا الموضوع. قال تعالى: **﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾**[٥٢].

وواضح أننا هنا امام إغلاق نهائي لمسألة إمكانية تخصيص خاتم النبيين والمرسلين بمعجزة من جنس ما طالبت به قريش. لقد قررت الآية أن القرآن كافٍ وحده كمعجزة للنبي ﷺ، ثُمّ أنهت الجدل في الموضوع بأن خاطبت النبي أن: **﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾**. وقد أفصح النبي ﷺ عن هذا المعنى في حديث ورد في صحيح مسلم، قال فيه: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إلا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحَى الله إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ولمعترض أن يقول هناك ظواهر من قبيل المعجزات الخارقة للعادة مروية عن بعض الصحابة. من ذلك ما قيل في تفسير قوله تعالى: **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾**[٥٣]، وما روي بشأن «الإسراء والمعراج». وهذه أمور ناقشها القدماء من العلماء والمفسرين، والآراء فيها مختلفة، وهي كلها تراث لنا، ومن حقنا، بل من واجبنا أن نختار منها ما لا يتعارض مع الفهم الذي ينسجم مع مبادئ العقل ومعطيات العلم في عصرنا.

وهكذا فقوله تعالى: **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾** كان موضوع اجتهاد المفسرين، وقد أورد الطبري عدداً كبيراً من الروايات في شأنه. منها ما تذكر أن القمر انشق فعلاً وشاهده الناس في مكة وأن ذلك جاء عقب سؤال قريش النبي أن يأتيهم بآية. ومن المفسرين من فسرّ الآية بمعنى «اقتربت الساعة وسينشق القمر»، حجتهم في ذلك أن القمر إذا انشق فعلاً رآه الناس في أماكن مختلفة. ومنهم من فسرّ عبارة «انشق القمر» بمعنى «وضح الأمر وظهر، استناداً إلى أن العرب تضرب بالقمر مثلاً في ما وضَحَ».

ومن المفسرين من قال إن ما حدث هو خسوف القمر أو شيء يشبهه، وقد

---

(٥٢) **القرآن الكريم**، «سورة العنكبوت،» الآيتان ٥٠ ـ ٥٢.

(٥٣) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآية ١.

نسبت إلى ابن عباس أقوال متضاربة في هذا الموضوع منها قوله: «كسف القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: سحر القمر فنزلت **﴿اقتربت الساعة﴾**. وقد استند ابن عاشور في تفسيره إلى هذا فقال: «فيجوز أن يكون قد حدث خسف عظيم في كرة القمر أحدث في وجهة هوة لاحت للناظرين في صورة شقه إلى نصفين».

أما نحن فنرى أن عدم نزول آيات أخرى تؤكد «انشقاق القمر» دليل على أن ما حدث لم يكن من قبيل «خرق العادة». فلو كان الأمر استجابة لطلب قريش، كما ذكرت الروايات، لكان في القرآن ما يفيد ذلك، هذا في حين أن مطالب قريش التي من هذا القبيل قد قوبلت في القرآن بالرفض الصريح، بينما تكرر التصريح بالآيات (المعجزات) التي خصّ الله بها الأنبياء السابقين، وتكررت دعوة قريش إلى أخذ العبرة منها! كُلّ هذا قد رجح لدينا أن ما حدث كان خسوفاً كما ورد ذلك في رواية ابن عباس المشار إليها قبل.

ومن قبيل مسألة «**انشقاق القمر**» مسألة «**الإسراء والمعراج**». وما يجب التنبيه إليه ابتداء في هذه المسألة هو أن «**المعراج**» لم يردّ ذكره في القرآن وإنما ذكر الإسراء وحده في قوله تعالى: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾**(٥٤) وقد اختلف الرواة في كيفية حدوثه: هل حدث في المنام (رؤيا) أم حدث في اليقظة؟ والظاهر من الروايات الأساسية في الموضوع أن ذلك حصل في المنام. فقد ذكروا أن أمّ هانئ بنت أبي طالب «كانت تقول: ما أُسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة»، وفي رواية أنس بن مالك أن الإسراء حدث «والنبي بين النائم واليقظان في المسجد الحرام. هذا بينما ذهب كثيرون إلى القول إن الإسراء كان جسمانياً. وتذكر الروايات أن النبي لما أخبر الناس بما حدث ليلة الإسراء لم يصدقوه، «فارتدّ ناس كثير بعد ما أسلموا». قالوا وإلى ذلك يشير قوله تعالى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾**(٥٥)، وفي هذه الآية ما يشعر أن الإسراء حدث في المنام (الرؤيا التي أريناك). وقد قال بهذا الرأي كُلّ من «عائشة ومعاوية والحسن البصري وابن إسحاق، قالوا كان إسراء بروحه في المنام، ورؤيا الأنبياء وحي».

ويمكن أن نعزز هذا الترجيح بكون القرآن تعرض في سورة الإسراء نفسها إلى جملة من تحديات قريش، منها قولهم في الآية السابقة: **﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا**

---

(٥٤) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ١.

(٥٥) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ٦٠.

كِتَاباً نَقْرَؤُه﴾(٥٦) فكان جواب القرآن: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾(٥٧)، بمعنى أن طبيعتي البشرية لا تسمح لي بالرقي إلى السماء.

هذا عن الإسراء. أما المعراج (وهو صعوده ﷺ من بيت المقدس إلى السماء العليا) فقد ورد ذكره وتفصيله في الحديث، في البخاري ومسلم وغيرهما. وقد اختلف الرواة والمفسرون هل حدث المعراج بالروح وحده أم بالروح والجسد، مثل اختلافهم في الإسراء. والقول بالمعراج بالجسد يطرح عدة قضايا منها مسألة الرؤية: رؤية الله حين المعراج. فإذا قلنا إن المعراج كان بالجسم فإن ذلك يعني أن الرسول رأى الله رؤية بصرية، وهذا لا يمكن إلا مع الأجسام، والله منزه عن الجسمية.

الإسراء والمعراج إذاً حدثا على صورة رؤيا منامية. ذلك هو الرأي الذي نختاره من آراء العلماء السابقين. ونحن لا نناقش ما يتم للأنبياء أثناء الرؤيا، إذ هو لهم وحي، كما سبق القول، وهو خاص بهم وليس خرقاً لنظام الكون ولا مسّاً بسننه.

هناك روايات تحدثت عن أمور كثيرة نسبت إلى النبي ﷺ على أنها معجزات له من النوع الخارق للعادة، وكلها أحاديث آحاد، ومعظمها من النوع الذي يتساهل فيه رجال الحديث لكونه «يستعمل في الدعوات والترغيب والترهيب والتفسير والمغازي، في ما لا يتعلق به حكم». قال بعضهم: «إذا روينا في الثواب والعقاب وفضائل الأعمال تساهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال، وإذا روينا في الحلال والحرام والأحكام تشددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال».

والأحاديث المروية في هذا المجال ليس فيها أحكام.

---

(٥٦) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآيتان ٩٠ و٩٣.

(٥٧) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ٩٣.

الفصل الثامن

قرآن عربي في أُمِّ الكتاب
وترتيب العلاقة مع أهل الكتاب!

أولاً: القرآن مصدِّق لما بين يديه . . بلسان عربي

١ ـ قريش تتهم النبي بالأخذ من بعض أهل الكتاب

لم تتهم قريش النبي ﷺ بكونه كتب القرآن، ولكنهم اتهموه بأنه كان يستعين بأشخاص من أهل الكتاب، وهم موال وعبيد. وبما أنهم أعاجم، قد لا يعرفون من العربية إلا ما به يتعاملون مع الناس في حدود مهنتهم كعبيد وموال، فإنهم ليسوا ممن يمكن القول عنهم إنهم كانوا يفيدون النبي (ﷺ) شيئاً على صعيد القول العربي البليغ. وإذاً فما يمكن أن يتهم النبي بأخذه من التوراة عن طريقهم ـ في نظر قريش ـ هو «الأفكار» وبكيفية خاصة القصص (التي عبروا عنها بـ «أساطير الأولين»). وهذا ما تشير إليه اتهامات قريش فعلاً من خلال الآيات التالية:

أ ـ قال تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا. قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾**[1].

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الفرقان،» الآيات ٤ ـ ٦. يقصد بـ «إفك» كذب، وبـ «افتراه» اختلقه. راجع: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، **تفسير القرطبي**، نقلاً عن ابن عباس: المراد بقوله: «قوم آخرون» أبو فُكَيْهة مولى بني الحضرمي وعدّاس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب. وقال غيره: «وكانوا كتابيين يقرؤون التوراة أسلموا، وكان الرسول ﷺ يتعهدهم»، ويجلس إليهم. قال الزمخشري: معنى الزور هنا «أن =

ب ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾(٢).

يرد القرآن في الآيات الأولى من سورة الفرقان المذكورة أعلاه على اتهام قريش للنبي ﷺ بكونه يتلقى ما يأتي به في القرآن من «قوم آخرين»، يرد بقوله مخاطباً نبيه الكريم: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ومعنى هذا أن الذي يُعلِّم هذا القرآن لمحمد ليس هؤلاء القوم الذين لا يعلمون إلا ما في التوراة، وهي صحائف موجودة منتشرة بين الناس وتقرأ جهاراً في مكة وغيرها، بل إن من يُعلِّم محمداً هو ذلك «الذي يعلم السر في السموات والأرض»، بمعنى أن

= جعلوا العربي يتلقن من العجمي الرومي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب». اكتتبها: قال في **لسان العرب**: «ويقال: اكْتَتَبَ فلانٌ فلاناً أي سأله أن يَكْتُبَ له كِتاباً في حاجة. واسْتَكْتَبه الشيءَ أي سأله أن يَكْتُبَه له. ابن سيده: اكْتَتَبَه كَكَتَبَه. وقيل: كَتَبَه خَطَّه؛ واكْتَتَبَه: اسْتَمْلاه». أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، ١٥ ج (بيروت: دار صادر، [١٩٥٥ ـ ١٩٥٦])، ج ١، مادة «كتب»، ص ٦٩٨. وبما أن لفظ «اكتتبها» في الآية متبوع مباشرة بقوله ﴿**فهي تملى عليه بكرة وأصيلا**﴾ (صباح مساء)، فالمعنى الظاهر للآية هو ادعاؤهم أنه ﷺ كان يطلب من أولئك النصارى أن يمدوه بما في التوراة فكانوا يملون عليه وهو يكتب. لكن جميع المفسرين يتجنبون هذا المعنى ويقولون إن معنى «اكتتبها: أمر بكتابتها»، وذلك تجنباً منهم لنسبة الكتابة إليه ﷺ. وهذا في نظرنا مجرد تكلف لا طائل من ورائه. ذلك لأننا إذا قلنا إنه لم يكتب بنفسه ما أملوه عليه، بل «أمر بكتابته» فالسؤال الذي يطرح نفسه: ومن كان يقرأ له ذلك؟ فإذا قلنا كان هو الذي يقرأ، فسنكون قد نسبنا إليه قراءة القول المكتوب، فهو يقرأ وبالتالي يكتب. أما إذا قلنا إن أحداً غيره كان يقرأ له ما كتبه أولئك، وهذا لا يستقيم مع مضمون الآية والآيات الأخرى التي سنذكر أعلاه. أساطير الأوّلين أي أحاديثهم وخرافاتهم التي كانوا يُسَطِّرونها في كتبهم. يعنون بذلك أنه اكتتبها من يهود. ﴿**فهي تملى عليه**﴾ يعنون بقوله: ﴿**فهي تملى عليه**﴾ فهذه الأساطير تُقرأ عليه. ويروى أن النضر بن الحرث أحد خصوم الدعوة المحمدية كان قد سافر إلى فارس فاستقدم كتاب **كليلة ودمنة** وغيره من قصص الفرس، فكان يجلس في مكة وينادي على الناس تعالوا اسمعوا القصص الحق، أما محمد فما يحكي ليس إلا أساطير الأولين. وفي رواية أخرى: أن هذا الرجل كان يختلف تاجراً إلى فارس، فيمرّ بالعباد وهم يقرؤون الإنجيل، ويركعون ويسجدون. فجاء مكة، فوجد محمداً ﷺ قد أنزل عليه وهو يركع ويسجد، فقال النضر: قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا». وقيل: فيه نزل قوله تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾ [«سورة الأنفال،» الآية ٣١].

(٢) نفس المرجع، «سورة النحل،» الآية ١٠٣. ذكر الطبري في هذا الموضوع الرواية التالية: «عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يعلِّم قيناً بمكة، وكان أعجميّ اللسان، وكان اسمه بَلْعام، فكان المشركون يَرَوْن رسول الله ﷺ حين يدخل عليه وحين يخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلِّمه بَلْعام فأنزل الله تعالى الآية». وقال غيره المقصود «غلام لبني المغيرة أعجميٌّ اسمه يعيش». وعن ابن إسحاق، قال: كان رسول الله ﷺ في ما بلغني كثيراً ما يجلس عند المَرْوَة إلى غلام نصراني يقال له جَبْر، عبد لبني بياضةَ الحَضرميّ، فكانوا يقولون: والله ما يعلِّم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جَبْرٌ النصرانيّ غلام الحضرميّ». وفي رواية أخرى: «إنه كان لهم عبدان من أهل عير اليمن، وكانا طفلين، وكان يُقال لأحدهما يسار والآخر جبر، فكانا يقرآن التوراة، وكان رسول الله ﷺ ربما جلس إليهما، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما يتعلم منهما». وقيل المقصود سلمان الفارسي». انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك**، ٦ ج، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨).

مصدر القرآن أرقى وأسمى وأعلم من هؤلاء الذي يتداولون التوراة. وفي سورة النحل يردّ القرآن على قول قريش ﴿**إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ**﴾، بلفت الانتباه إلى أن الذي يشيرون إليه شخص «أعْجَمِيٌّ» بينما القرآن ينزل بـ﴿**لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾.

٢ ـ القرآن بلسان عربي

وما يجب تسجيله هنا في جدل القرآن مع قريش أنه يركز على أمرين اثنين: سمو مصدره من جهة، وعروبة لسانه من جهة أخرى. أما مضمون التوراة والإنجيل فالقرآن مصدّق له. وذلك ما يؤكده القرآن في آيات عديدة مكية ومدنية، مثل قوله تعالى، والخطاب فيه لأهل مكة: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾[٣]، وقوله يخاطب اليهود في المدينة: ﴿**وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ**﴾[٤].

وهذا ليس خاصاً بالقرآن وحده فالأنبياء والرسل جميعاً يصدّق اللاحق منهم السابق كما يبشّر بالذي سيأتي بعده. فموسى بشّر بعيسى، وعيسى صدق موسى وبشّر بمحمد. يقول تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾[٥]. ويقول مخاطباً نبيه الكريم: ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[٦].

٣ ـ القرآن تصديق الذي بين يديه

وإذاً فما تدّعيه قريش من أن قرآن محمد ﴿**أعانه عليه قوم آخرون**﴾ (من أهل الكتاب) وقولهم ﴿**إنما يعلّمه بشر**﴾ (من اليهود أو النصارى) لا ينال من القرآن في شيء، فالكتب المنزلة كلها مصدرها «كتاب» واحد، هي نسخ منه. ولذلك فلا معنى

---

(٣) نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآية ٩٢. ويقصد بالكتاب الذي بين يديه التوراة والإنجيل، وهو يوجّه كلامه إلى الرسول محمد. أما أم القرى فهي مكة المكرمة.

(٤) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٤١. يقول المفسرون تنكر اليهود لما عندهم في التوراة من التبشير بمحمد رسولاً، وذلك من أجل الحفاظ على رئاستهم، لأن تصديقهم له يلزم عنه اتباعه والسير وراءه.

(٥) نفس المرجع، «سورة الصف،» الآية ٦.

(٦) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآية ٨٤.

لوصف القرآن بأنه مفترى ومنقول من أهل الكتاب. قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(٧). القرآن تصديق للذي بين يديه من التوراة والإنجيل، ولكنه أيضاً ﴿**تفصيل الكتاب**﴾. والمقصود بـ «الكتاب» هنا هو «اللوح المحفوظ» وأيضاً «أم الكتاب». قال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تعقلُونَ. وَإِنَّهُ في أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾(٨).

إذاً لا يتميز القرآن عن حقيقة التوراة والإنجيل لا بمصدره ولا بمحتواه، وإنما يتميز بكونه نزل بلسان عربي مبين. وهذا ما يبرزه القرآن في آيات عديدة. منها قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً وَصَرفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً**﴾(٩)، وقوله: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾(١٠)، وقوله: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾(١١)، وأيضاً: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِياً وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ**﴾(١٢).

٤ ـ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ(١٣)

على أن نزول القرآن على محمد (ﷺ) بلسان عربي لا يعني تفضيل اللغة العربية على غيرها من اللغات، وإنما يعني فقط أن بعثته وإرساله إلى العرب يقتضي أن يخاطبهم بلغتهم، كي يفهموا عنه. ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**﴾(١٤) ـ قُرْآناً عَرَبِياً ـ. وهذا ينطبق على الكتب السماوية جميعاً فهي إنما يتميز بعضها عن بعض بلسان القوم الذي نزلت فيهم، وهذا ما نبه إليه تعالى في قوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾.

ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار هنا أن «لسان القوم» ليس مجرد رموز لغوية هو

---

(٧) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآية ٣٧.

(٨) نفس المرجع، «سورة الزخرف،» الآيتان ٣ ـ ٤.

(٩) نفس المرجع، «سورة طه،» الآية ١١٣.

(١٠) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيات ١٩٣ ـ ١٩٥.

(١١) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآية ٢.

(١٢) نفس المرجع، «سورة الرعد،» الآية ٣٧، يقول المفسرون: لفظ «الحكم» في القرآن هو بمعنى الحكمة والعلم. ويبدو أن معنى الآية أن القرآن نزل وفق معهود العرب بما في ذلك أحكام اللغة العربية في التبليغ، أي وفق أساليبها البيانية والبلاغية.

(١٣) نفس المرجع، «سورة إبراهيم،» الآية ٤.

(١٤) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآية ٤٤.

أيضاً خازن ثقافتهم بما فيها من عادات وأعراف ومخايل وتطلعات. . . وإذاً فالتنصيص في القرآن، مراراً وتكراراً، على كونه «نزل بلسان عربي مبين» ليس معناه فقط أن كلماته عربية بل معناه أن «العربية جزء ماهيته»، كما يقول الأصوليون، بمعنى أن اللغة العربية، كأساليب في التعبير وكمخزون ثقافي، مكون من مكونات ماهيته فهو قد نزل ليس فقط بكلمات عربية بل أيضاً حسب معهود العرب. ولو لم يكن حسب معهودهم لما أمكن أن يفهموه[(١٥)].

٥ ـ كونَ القرآن بلسان عربي لا يعني أنه دين قومي

القرآن كتاب نزل من عند الله على محمد العربي القرشي بلسان عربي مبين. كيف نفهم هذا التحديد «القومي»؟ هل نقاربه مع اعتقاد اليهود الذين يعتبرون التوراة كتاباً قومياً لهم، ويطلقون على من عداهم اسم «الأمم» أي الشعوب التي ليس لها كتاب؟

هناك فرق: فاليهود يعتبرون أنفسهم «شعب الله المختار»، ويعتبرون الله إلهاً قومياً لهم «إله إبراهيم وإسحق ويعقوب»، وقد بينّا في فصل سابق كيف يفهم اليهود العلاقة بينهم وبين الله، وكيف أنهم يجعلون «الوحي» بمعنى «الخلق»، أي عبارة عن عملية «الكشف» التي قام بها الله ليخرج من وضعية «كان الله ولا شيء معه» إلى وضعية الإله الذي كلم موسى قائد الشعب الإسرائيلي فسمعه كل واحد من هذا الشعب المختار.

هذه الوضعية التي يدعيها اليهود لأسباطهم لا يدعيها العرب لقبائلهم. لقد كانوا يعبدون آلهة من صنعهم علها تقربهم من الله زلفى. كانت المسافة بينهم وبين الله واسعة عميقة حتى إن بعضهم كان يقول: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إلاّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْر﴾**[(١٦)]. وقد تكررت إشارة القرآن إلى معتقدهم ذاك فقال تعالى يصف ما سيؤول إليه أمرهم في الآخرة بسبب ما كانوا عليه في الدنيا: **﴿إِنَّهُمْ**

---

(١٥) راجع تفاصيل حول معهود العرب في القرآن في: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، **الموافقات**، ج ٢، ص ٧٨. ومما أشار إليه في هذا الإطار قوله: «وأخبروا (أخبر الله العرب في القرآن) عن نعيم الجنة وأصنافه بما هو معهود في تنعماتهم في الدنيا، لكن مبرأ من الغوائل والآفات التي تلازم التنعيم الدنيوي كقوله **﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. في سدر مخضود. وطلح منضود. وظل ممدود. وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة. إنا أنشأناهن إنشاء. فجعلناهن أبكاراً. عرباً أتراباً﴾** [**القرآن الكريم**، «سورة الواقعة،» الآيات ٢٧ ـ ٣٧]، وبيَّن من مأكولات الجنة ومشروباتها ما هو معلوم عندهم، كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والأعناب وسائر ما هو عندهم مألوف، دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد العجم، بل أجمل ذلك في لفظ الفاكهة».

(١٦) **القرآن الكريم**، «سورة الجاثية،» الآية ٢٤.

كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ. وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ. وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ. قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[١٧].

ثانياً: القرآن. . . وأمّ الكتاب

١ ـ القرآن. . . الكتاب المكنون. . . في أمّ الكتاب

وأمام تكذيب قريش بنبوة محمد ﷺ وبكل ما جاء به من البعث والحساب والعقاب ترسم سورة الواقعة فرقاناً ليس فقط بين الحق والباطل في هذه الدنيا، بل أيضاً بين وضعيتين في الدار الآخرة، وضعية **﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾**[١٨] ووضعية **﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾**[١٩] أصحاب الميمنة في جنات النعيم فيها كل ما يمكن أن يتمناه الفقراء المستضعفون المؤمنون من أهل مكة من لذات جسمية وروحية. وأما أصحاب المشأمة ففي جهنم وفيها كل ما يمكن أن يخيف ويرهب ويؤلم الملأ من قريش. ليس هذا وحسب، بل إن السورة تنقل إلى المكذبين من أهل مكة قسماً عظيماً تؤكد لهم، بنوع من التحدي قوي، أن القرآن كتاب. وأكثر من ذلك **﴿كتاب مكنون﴾**، محفوظ في السماء تقوم عل حفظه الملائكة المطهرة. ذلك قوله تعالى: **﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ. تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾**[٢٠].

وهذه الآية تذكرنا بآية سبق أن ذكرناها في فقرة سابقة ورد فيها لأول مرة، حسب ترتيب النزول، لفظ «القرآن»، أعني قوله تعالى في آخر سورة البروج: **﴿بل هو قُرْآنٌ مَجِيدٌ. في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾**[٢١]. ويرى معظم المفسرين أن المقصود بـ **﴿الكتاب المكنون﴾** في الآية السابقة هو «اللوح المحفوظ»[٢٢]. وبالتالي فالضمير

---

(١٧) نفس المرجع، «سورة الواقعة،» الآيات ٤٥ ـ ٥٠. ويقصد بـ «الحنث» الذنب، التكذيب بالبعث.

(١٨) نفس المرجع، «سورة الواقعة،» الآية ٨.

(١٩) نفس المرجع، «سورة الواقعة،» الآية ٩.

(٢٠) نفس المرجع، «سورة الواقعة،» الآيات ٧٥ ـ ٨١. ويقصد بالعبارات التالية: مواقع النجوم: مداراتها، كتاب مكنون: هو اللوح المحفوظ، المطهرون: الملائكة، ومدهنون: مكذبون.

(٢١) نفس المرجع، «سورة البروج،» الآيتان ٢١ ـ ٢٢.

(٢٢) اللوح المحفوظ: قال القرطبي «ثبت عنه ﷺ أنه قال: أوّلُ ما خلق الله: القلم، فقال له اكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة». وهذا «المكتوب» هو «اللوح المحفوظ». قالوا هو محفوظ من التغير والتلف وسرقة الشياطين، وأن الملك إسرافيل يقوم بحراسته. والجدير بالإشارة أن هذا الحديث لم يرد لا في **صحيح البخاري** ولا في **صحيح مسلم**، وقد ورد في كتب أخرى كسنن الترمذي و**مسند الإمام أحمد بن حنبل**، رواية =

في قوله: ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ يعود لأقرب مذكور وهو ﴿الكتاب المكنون﴾ (اللوح المحفوظ)، وعلى هذا يكون المقصود بـ «المطهرون» هم الملائكة، وليس الناس المتطهرين من الجنابة، كما هو شائع.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليس القرآن هو الكتاب الوحيد الذي في اللوح المحفوظ، بل يجمع المفسرون على أن الأخير هو بمثابة «النسخة الأصلية» للكتب السماوية كلها، وهي مسجلة فيه على صورة «نقوش» (باعتبار أن الكتابة نقوش). وقد سمى القرآن الكريم هذه النسخة الأصلية بـ «**أم الكتاب**». قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿**حم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعقِلُون. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾(٢٣).

ومن هنا يمكن القول إن القرآن ذو ماهية مزدوجة، عربية اللسان، إلهية المضمون. ومن الصعب إثبات مثل هذه الهوية المزدوجة للكتب السماوية الأخرى على الرغم من أن كلاً منها نزل بلسان القوم الذين جاء مخاطباً لهم. ذلك أن عروبة لسان القرآن ليست على مستوى اللغة كلغة فقط، بل أيضاً على مستوى ما انفرد به من البلاغة والفصاحة والنظم، وهي أمور خاصة به تحدى العرب أن يأتوا بمثله فلم يفعلوا فعدّ ذلك إعجازاً لهم كما بينّا في الفصل السابق. أما الكتب السماوية الأخرى فلم يذكر بشأنها شيء من هذا القبيل، كما أن التوراة والإنجيل اللذين بين أيدينا لا نجد فيهما ما يفيد أي نوع من «الإعجاز اللغوي»، وإنما الإعجاز فيهما يكمن في ما ينسب إلى أنبيائهما من «آيات خارقة للعادة» كعصا موسى وإبراء عيسى الصم والبكم. . . إلخ.

٢ ـ الثابت والمتغير في الكتب المنزلة

وإذاً فالعلاقة بين الكتاب/ القرآن وكتب أهل الكتاب ليست علاقةَ مطابقةٍ، بل هي علاقة شراكة. جميع الكتب المنزلة متفرعة عن نسخ أصل هي «أم الكتاب». وإنما تعددت هذه النسخ لأن الأمم كثيرة مختلفة والأزمان متغيرة، وما يصلح لقوم

= عن عبادة بن الصامت ذكره، وهو على فراش الموت، جواباً عن سؤال لابنه حول «القدر». وفي العرفانيات الإسلامية الصوفية والشيعية: «القلم» هو العقل الثاني الفائض عن العقل الأول (الله)، و«اللوح» هو «المادة» التي منها صنع العالم. وبناء عليه فإن الحديث المذكور موضوع نظر، ليس فقط لكونه غريباً كما ذكر الترمذي بل أيضاً لأن أصله الهرمسي الغنوصي واضح، وقد وظفته الإسماعيلية في فلسفتها الدينية السياسية. راجع: محمد عابد الجابري، «العقل المستقيل: ٢ ـ في الثقافة العربية الإسلامية،» في: محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١، ط ٩ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦)، الفقرة ٦.

(٢٣) **القرآن الكريم**، «سورة الزخرف،» الآيات ١ ـ ٤.

أو زمان لا يصلح بالضرورة لأقوام آخرين وأزمنة أخرى. ليس هذا وحسب، بل إن الكتب السماوية تختلف أيضاً على مستوى منزلة بعضها بالنسبة إلى بعض على صعيد الزمن والتطور. والتطور هنا لا يعني، بالضرورة، تطور الناس عبر التاريخ من حسن إلى أحسن، بل قد يعني العكس أيضاً وهو المقصود هنا: ذلك أنه كلما طال العهد برسالة من الرسالات السماوية إلا وداخلها التحريف سواء بقصد من أهلها أو بسبب إهمالهم، الأمر الذي يقتضي إرسال رسول جديد بكتاب يعود بالدين إلى حقيقته، أي كما هو في «**أم الكتاب**». والمقصود هنا العقيدة، عقيدة التوحيد، فهي الثابت الذي لا يتغير. والانتساب إلى هذه العقيدة يقتضي ـ بنص القرآن ـ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله. يقول تعالى: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾**(٢٤). أما الشريعة فهي متعددة تختلف من أمة لأخرى، على مستوى العبادات والمعاملات، بينما تبقى هي هي على مستوى الأخلاق والمقاصد والغايات.

ثالثاً: القرآن تفصيل الكتاب

العقيدة تقتضي الإيمان بكل ذلك، لكن على الجملة وليس على التفصيل. ذلك أن التفصيل يتكفل به كل كتاب بلسان القوم الذي أنزل إليهم بلسانهم. وفي هذا يقول تعالى: **﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**. القرآن **﴿تصديق الذي بين يديه﴾** ـ التوراة والإنجيل ـ وفي نفس الوقت **﴿وتفصيل الكتاب﴾**. أما التصديق فقد بيّنا أمره. أما «تفصيل الكتاب» فقد اختلف المفسرون في معنى «الكتاب» هنا: فقال كثير منهم: المقصود هو ما في القرآن من أحكام الحلال والحرام. . . إلخ، جاعلين معنى الآية ككل: أن القرآن تصديق للكتب السماوية السابقة له، وتفصيل لأحكام الحلال والحرام الخاصة بالإسلام. وقال آخرون إن المقصود بالكتاب في الآية هو اللوح المحفوظ. ونحن نرجح هذا الرأي .**أولاً** لأن سورة يونس، التي منها هذه الآية، نزلت في مكة ولم يكن قد نزل يومئذ شيء من أحكام الحلال والحرام الخاصة بالإسلام، فقرآن الأحكام هو القرآن المدني. أما القرآن المكي فهو قرآن العقيدة .**ثانياً** هناك إجماع بين المفسرين على أن اللوح المحفوظ كتاب كتب فيه كل شيء وأنه مكتوب بلغة غير بشرية، وعليه فإن تفصيل القرآن للكتاب (بمعنى اللوح المحفوظ) معناه التعبير عنه بلسان عربي مبين. ويشهد لهذا الرأي بالصحة قوله

---

(٢٤) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٢٨٥.

تعالى: ﴿حم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تعقِلُون. وَإِنَّهُ في أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾. فـ «**الكتاب المبين**» في هذه الآية هو «نقوش» القرآن كما هي في اللوح المحفوظ. وقوله ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تعقِلُون**﴾، أي صُغنا هذه «النقوش» باللغة العربية التي هي لغتكم «**لعلكم تعقلون**»، أي تفهمونه وتمسكون بمعانيه. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿**حم. تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[٢٥].

ـ «الكتاب» . . . على ثلاثة معان . . .

وتزداد العلاقة بين مدلول لفظ القرآن ومدلول لفظ الكتاب وضوحاً في أذهاننا إذا نحن استعدنا الآيات التالية، وكلها من سورة الأعراف، وقد ورد فيها لفظ «**الكتاب**» على ثلاثة معان:

أ ـ الكتاب بمعنى المكتوب المقدر. ذلك في قوله تعالى في سياق الرد على المكذبين بالرسالات السماوية: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنْ الْكِتَابِ**﴾[٢٦]. فالكتاب هنا بمعنى «المكتوب المقدر» في اللوح المحفوظ. و«نصيبهم»: ما يخصهم، مما قُدِّر عليهم. وقوله: ﴿**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَاب هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِير**﴾[٢٧].

ب ـ الكتاب بمعنى التوراة، وذلك في قوله تعالى في سياق حكاية مواقف اليهود من الدين الذي جاء به نبيهم موسى. قال تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إلا الْحَقَّ**﴾[٢٨].

ج ـ الكتاب بمعنى القرآن، وذلك في قوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿**قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ. إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾[٢٩].

---

(٢٥) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآيات ١ ـ ٣.

(٢٦) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٣٧.

(٢٧) نفس المرجع، «سورة فاطر،» الآية ٣١. المقصود هنا بـ «الكتاب» اللوح المحفوظ. أما المقصود بالآية ﴿**هو الحق مصدقاً لما بين يديه**﴾ أي أن القرآن جاء مكملاً للتوراة والإنجيل.

(٢٨) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٦٩. وتدل العبارات التالية على ما يلي: ﴿**وخلف من بعدهم**﴾ من بعد قوم موسى، «الكتاب» التوراة، أما ﴿**عرض هذا الأدنى**﴾ هو عرض الدنيا.

(٢٩) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيتان ١٩٥ ـ ١٩٦. يقصد بـ «شركاءكم» أصنام قريش، أما الكتاب في هذة الآية هو القرآن.

والآن بعد أن اتضحت أوجه استعمال لفظ «الكتاب» في القرآن، وكنا قد بينا الطريقة التي سلكها القرآن في إقناع العرب بأنه هو كتاب من الله إليهم يرفعهم من مستوى الأمم الأمية، التي ليس لها كتاب إلى صف الأمم الكتابية[٣٠]، ننتقل إلى بيان الكيفية التي عمل بها القرآن على ترتيب العلاقة بينه، بوصفه كتاباً منزلاً من السماء، وبين «أهل الكتاب» الذين كانوا قد خُصوا وحدهم بهذا اللقب.

رابعاً: تطوّر علاقة الدعوة المحمدية مع أهل الكتاب

١ ـ أهل الكتاب والدعوة المحمدية في القرآن المكي

عرضنا في الفصل قبل الأخير للكيفية التي سلكها القرآن لإعادة ترتيب علاقته مع قريش، وبالتالي العرب عموماً، بعد أن خرجوا بفضله من أمة أمية ليس لها كتاب منزل إلى أمة لها كتاب هو القرآن. ثم أتبعنا ذلك بطرح مسألة العلاقة بين القرآن وكتب أهل الكتاب (التوراة والإنجيل)[٣١]، أما الآن فسيكون علينا أن نعرض لموقف القرآن من أهل الكتاب في المرحلة المكية **أولاً** ثم في المرحلة المدينة بعد ذلك.

في المرحلة المكية كان خصوم الدعوة المحمدية من مشركي قريش، عبدة الأصنام، أساساً. أما النصارى فلم تكن لهم حينذاك علاقة مباشرة بالدعوة، ولم يكونوا من سكان مكة، إلا ما كان من أفراد معدودين في جنس العبيد والموالي وما أشبه وقد رأينا كيف أن قريشاً اتهمت بعضهم بأنهم كانوا يعينون النبي ﷺ، ينقلون إليه من التوراة ويملون عليه ما ينقلون، وقد رد القرآن عليهم كما رأينا ـ بأن **﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾**[٣٢].

نعم، تذكر مصادرنا أن جماعة من النصارى قدموا من الحبشة التي كان النبي ﷺ قد أمر أتباعه بالهجرة إليها بسبب ما كانوا يتعرضون له من العسف والتضييق والتعذيب في مكة من طرف قريش، وأن هؤلاء النصارى الحبشيين الذين لابد أن يكونوا قد احتكوا بأولئك المسلمين المهاجرين، قد التقوا بالرسول واستمعوا إلى القرآن فآمنوا وصدقوا. ويقال: فيهم نزل قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا**

---

(٣٠) راجع الفصل ٧ من هذا الكتاب.

(٣١) راجع الفصل ٦ من هذا الكتاب.

(٣٢) راجع الفصل ٦ من هذا الكتاب.

مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾(٣٣).

ذلك كل ما نعرفه عن علاقة النصارى بالدعوة المحمدية في المرحلة المكية. أما عن علاقة اليهود بها خلال نفس المرحلة فقد كانت علاقة غير مباشرة، بمعنى أنها كانت عبر قريش. وفي هذا الصدد تذكر مصادرنا موقفين لليهود إزاء النبي ﷺ. أحدهما شبه إيجابي والآخر شبه سلبي. أما **الأول** فيحدثنا عنه ابن إسحاق بقوله: «وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه (في يثرب)، قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى وهُداه، ما كنا نسمع من رجال يهود: كُنا أهلَ شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور (صراعات)، فإذا نِلْنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرَم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث اللّهُ رسولَه ﷺ أجبناه، حين دعانا إلى اللّه تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هذه الآيات من البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٣٤).

وأما الموقف **الثاني** فيذكر ابن اسحق بشأنه أن قريشاً بعثت رجلين إلى اليهود بالمدينة بهدف الحصول منهم على أسئلة يكون فيها امتحان لصدق نبوة محمد ﷺ. فقالت لهما أحبار اليهود: «سَلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرُهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجَب، وسَلوه عن رجل طوَّاف قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربها ما كان نبأه، وسلوه عن الرّوح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل، فهو رجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم».

ولما عاد المبعوثان وأخبرا مشركي مكة بما قاله أحبار اليهود، قصدوا النبي (ﷺ) وطرحوا عليه تلك الأسئلة، فقال لهم النبي: «أخبركم بما سألتم عنه غداً، ولم يستثن (لم يقل إن شاء الله)، فانصرفوا عنه». وكان النبي يتوقع أن الوحي

---

(٣٣) **القرآن الكريم**، «سورة القصص،» الآيات ٥٢ ـ ٥٥. يقصد بالعبارات التالية: **﴿آتيناهم الكتاب﴾** الإنجيل، **﴿من قبله﴾** من قبل القرآن، **﴿هم به يؤمنون﴾** يؤمنون بالقرآن، **﴿كنا من قبله مسلمين﴾** موحدين، **﴿سمعوا اللغو﴾** اعتراضات قريش ومحاولات صدهم عن الرسول.

(٣٤) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٨٩. وتعني الآية **﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله﴾** عندما أرسل الله القرآن لليهود، أما «يستفتحون» تعني يستنصرون بالنبي المنتظر.

سينزل عليه سريعاً في شأن تلك الأسئلة، لكن الذي حدث هو أن الوحي تأخر عليه خمسَ عشرةَ ليلة، فتحدث أهل مكة معلنين انتصارهم حتى شق على النبي ما كانوا يتكلمون به». ويضيف ابن إسحق: «ثم جاءه جبريل من اللّه عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجلُ الطواف، والروح». (والمقصود حكاية قصة أصحاب الكهف[٣٥]، وقصة ذي القرنين[٣٦]، أما الروح فقد جاء الجواب عنها في سورة الإسراء[٣٧].

ذلك كل ما تسعفنا به مصادرنا عن موقف اليهود والنصارى من الدعوة المحمدية خلال المرحلة المكية. أما موقف القرآن من النصارى خلال المرحلة نفسها فقد كان موقفاً مسالماً إن لم نقل متعاطفاً كما رأينا في الآية التي نوهت بموقف الرجال الذين قدموا من الحبشة وأسلموا.

أما اليهود فعلى الرغم من تواطؤهم مع قريش في قضية الأسئلة التي ذكرنا، فإن موقف القرآن منهم بقي مسالماً أيضاً، حتى آخر أيام المرحلة المكية من الدعوة المحمدية. وقد نزلت فيها الآية الشهيرة: **﴿ولا تجادلوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**[٣٨]، أقول نزلت هذه السورة حينما كان النبي يتهيأ للهجرة إلى المدينة حيث اليهود، والرأي الغالب أنها آخر سورة نزلت من القرآن المكي[٣٩].

تلك هي نظرة القرآن إلى «**أهل الكتاب**» يهوداً ونصارى في المرحلة المكية، حين كان الاحتكاك بهم ضعيفاً، والخصم الأساسي هم مشركو مكة. أما في المدينة فالأمر سيختلف: سيتغير موقف اليهود من النبي ودولته، وسيبرز خصوم جدد للدعوة المحمدية، إضافة إلى مشركي مكة، وستتحول المدينة بسرعة إلى عاصمة

---

(٣٥) راجع: **القرآن الكريم**، «سورة الكهف،» الآيات ٩ ـ ٣١.

(٣٦) راجع: نفس المرجع، «سورة الكهف،» الآيات ٨٣ ـ ١١٠.

(٣٧) **﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾** [نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ٨٥].

(٣٨) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآية ٤٦.

(٣٩) الرأي الغالب أن هذه السورة مكية كلها. وهناك من قال إنها مدنية، وبعضهم قال إن بعضها مكي وبعضها مدني. وفي جميع الأحوال فالآية التي ذكرنا تؤسس لعلاقة المسلمين باليهود والنبي على أهبة الهجرة إلى المدينة حيث مسكنهم، أو أنه قد دخلها فعلاً. وستتغير العلاقة بين المسلمين واليهود بعد الهجرة حيث سيتحالف هؤلاء مع «المنافقين» وغيرهم مما سينشأ عنه صراع طويل ترددت أصداؤه في آيات كثيرة من القرآن المدني، كما سنرى لاحقاً.

للمسلمين، أنصاراً ومهاجرين. . . إلخ، وسيتحدث القرآن المدني في كل مرة بما يناسب المقام.

٢ ـ العلاقة مع أهل الكتاب في القرآن المدني

كانت يثرب (أطلق عليها بعد الهجرة اسم «مدينة الرسول» ثم اختصر فصار «المدينة») مجتمعاً مختلطاً: قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج، وكانت بينهما صراعات ومنافسات. وجماعات من اليهود سكنتها منذ القدم، أشهرها بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع، يسكنون في حصون لهم بنوها للاحتماء بها عند الحاجة. ومع هجرة النبي إلى المدينة توافد عليها المسلمون من مكة وسموا «المهاجرين» بينما سمي أهلها الذين أسلموا بـ «الأنصار». لقد عمل الرسول على ترتيب العلاقة بين هذه الشرائح الثلاث من خلال تدابير سياسية واجتماعية معروفة، منها: الصحيفة المشهورة وهي بمثابة عقد اجتماعي بين مكونات مجتمع يثرب، بما فيهم اليهود، ومنها نظام المؤاخاة الذي أحدثه النبي بين المهاجرين والأنصار[٤٠].

ومع ذلك فقد كان لابد أن يثير نجاح الرسول في تكوين دولة ـ أو ما يشبه دولة ـ في المدينة يتولى رئاستها، ردود فعل سلبية من جانب فئات كانت لها امتيازات وطموحات متباينة. . . إلخ.

أ ـ من ذلك رد فعل عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رئيس جماعة أطلق عليها القرآن اسم «المنافقين» ـ لكونهم كانوا يظهرون الإسلام ويضمرون العداء له ـ وكان حقد ابن سلول على الإسلام راجعاً إلى كون قومه كانوا بصدد الإعداد لتمليكه عليهم فجاءت هجرة النبي إلى المدينة فأفسدت عليه ذلك.

ب ـ ومن ذلك أيضاً، وهذا ما يهمنا هنا، تطور العلاقة بين المسلمين واليهود من سيئ إلى أسوأ بسبب موقفهم السلبي من الدعوة المحمدية وتحالفهم مع «المنافقين» تارة ومع مشركي مكة تارة أخرى، خصوصاً بعد أن أخذ النبي ﷺ في مهاجمة قوافل قريش التجارية التي كانت تذهب إلى الشام. ومعلوم أن المدينة تقع بين مكة والشام.

٣ ـ الجدل مع اليهود في المدينة

عندما التحق الرسول (ﷺ) بالمدينة نشأ وضع جديد: فالتنصيص في المرحلة

---

(٤٠) راجع التفاصيل في: محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته**، نقد العقل العربي؛ ٣، ط ٥ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤).

المكية على أن القرآن مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل كان ينصرف معناه إلى مجال العقيدة، وبالتحديد عقيدة التوحيد التي جاءت بها الرسل من قبله والتي آمن بها قسم من أقوامهم، وكانوا الأقلية في الغالب، بينما كذب بها وأعرض عنها الآخرون. كان الخطاب القرآني في مكة يتحرك ضمن المجال التداولي السائد فيها: توحيد/ شرك، إيمان/ كفر.

أما في المدينة فالأمر يختلف. لقد رأى اليهود في الإسلام منافساً لهم فرفضوا الاعتراف به. وقد سجل القرآن في سورة البقرة، وهي أول سورة نزلت في المدينة، عدة مواقف عدائية من جانب اليهود. لقد حاول النبي في بداية الأمر أن يتعامل معهم وفق ما قررته آخر آية نزلت فيهم بمكة، أو في الطريق إلى المدينة، أعني قوله تعالى: **﴿ولا تجادلوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**. وهكذا نجد أول آية مما نزل في المدينة، تتحدث عنهم وفق نفس المبدإ. قال تعالى مخاطباً إياهم: **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ. وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾**(٤١).

غير أن اليهود تمادوا في عدائهم للدعوة المحمدية فتنكروا لموقفهم السابق منها قبل الهجرة فسجل القرآن ذلك عليهم في قوله تعالى: **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾**(٤٢). ويواصل القرآن تسجيل مواقفهم العدائية ويدخل معهم في جدل يذكّرهم بما عرف عنهم في التاريخ من معاداة أنبياء الله. قال تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**(٤٣).

ويذكر المفسرون أن «اليهود قالوا للنبيّ ﷺ: إنه ليس نبيّ من الأنبياء إلا يأتيه مَلَك من الملائكة من عند ربّه بالرسالة وبالوَحْي، فمَن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: «جبريل» قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدوّنا. لو قلت: ميكائيل

---

(٤١) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيتان ٤٠ ـ ٤١. والمقصود بـ **﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ﴾** آمنوا بالقرآن.

(٤٢) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٨٩. ويقصد بـ **﴿كتاب من عند الله﴾** القرآن الكريم، أما بـ «يستفتحون» فيقصد بها يستنصرون به ويوظفون معرفتهم بقرب مجيء النبي الجديد ضد خصومهم.

(٤٣) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٩١.

الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك؛ فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُواً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. مَنْ كَانَ عَدُواً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾(٤٤). وأيضا: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٤٥).

وبما أن اليهود في المدينة لم يكونوا متّحدين منسجمين بل كانت بينهم صراعات وخصومات فقد نقلوا ذلك إلى علاقاتهم بالنبي (ﷺ) يلتمسون إحراجه وإقحامه في ما بينهم من حزازات. وكان عقد الصحيفة الذي وقعه الرسول معهم عند مقدمه إلى المدينة ينص على احتكام سائر سكانها ـ بما فيهم اليهود ـ إلى الرسول في حالة حدوث نزاع بينهم. وفي هذا المجال يروى أن اصطداماً حدث بين بني النضير وبني قريظة (قبيلتان يهوديتان) أدى إلى مقتل رجال منهم، فتنازعوا في أمر الدية. ذلك أن قتلى بني النضير كانوا يُعتَبرون أشرافاً ولذلك طالب ذووهم بالدية كاملة، الأمر الذي لم يقبله بنو قريظة الذين كانوا يريدون دفع نصف الدية فقط، فتحاكموا في ذلك إلى الرسول «فجعل الدية سواء». ويقول المفسرون إنه في هذا نزل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ. إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(٤٦).

ويشرح القرآن ما تنص عليه التوراة في مثل هذه النازلة فيقول: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٤٧).

---

(٤٤) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآيتان ٩٧ ـ ٩٨.

(٤٥) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ١٠١. ويقصد بـ «كتاب الله» القرآن الكريم.

(٤٦) نفس المرجع، «سورة المائدة،» الآيات ٤٢ ـ ٤٤. ويقصد بـ «الذين هادوا» اليهود و«الأحبار» هم الذين يحكمون.

(٤٧) نفس المرجع، «سورة المائدة،» الآية ٤٥. ويقصد بالعبارات التالية: ﴿وكتبنا عليهم فيها﴾ في التوراة، ﴿فمن تصدّق به﴾: تنازل عن ذلك للمعتدي، ﴿فهو كفارة له﴾: أي للمتنازل بحيث تنقص من ذنبه.

وفي واقعة أخرى روي «أن جماعة من اليهود قالوا: تعالوا نذهب إلى محمد ﷺ لعلنا نفتنه عن دينه. ثم دخلوا عليه وقالوا: يا محمد قد عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنا إن اتبعناك اتبعك كل اليهود، وأن بيننا وبين خصومنا حكومة (مقاضاة) فنحاكمهم إليك، فاقض لنا ونحن نؤمن بك؛ فنزلت فيهم هذه الآية: **﴿وأنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾**(٤٨). وهذا اعتراف صريح بالاختلاف، وأن أحكام التوراة يجب أن تطبق على اليهود، تماماً مثلما تطبق أحكام القرآن على المسلمين.

٤ ـ من الجدل إلى الصراع . . . فالجلاء

على أن ذلك الجدل السلمي لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما انتقل الجدل معهم إلى صراع مسلح انتهى بإجلائهم. كان أول اصطدام لدولة الرسول بالمدينة مع اليهود ذلك الذي حدث مع قبيلة منهم تسمى «بني قَينُقاع». وكان سبب ذلك الاصطدام هو موقفهم من انتصار المسلمين على مشركي مكة في غزوة بدر. لقد استاءوا من هذا النصر وأرادوا تكدير صفوه على المسلمين وإظهاره كحدث صغير لا يخيفهم، فقاموا بالاعتداء على امرأة من الأنصار، مما سبب قلقاً في صفوف المسلمين فنزل فيهم قوله تعالى: **﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ ٱلخَائِنِينَ﴾**(٤٩). وقد دعا النبي رؤساءهم «وحذّرهم عاقبة البغي ونكث العهد، فقالوا: يا محمد لا يغرنّك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب، ولو لقيتنا لَتعلمَنّ أنّا نحن الناس». فجاء الجواب من القرآن: **﴿قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ. قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِم رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾**(٥٠). وكان رد فعل اليهود أن «تحصنوا

---

(٤٨) نفس المرجع، «سورة المائدة،» الآية ٤٨. ويقصد بالعبارات التالية: **﴿وأنزلنا إلَيك الكتاب﴾** القرآن، **﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾** التوراة، **﴿ومهيمناً عليه﴾** رقيباً وأميناً، **﴿فاحكم بينهم﴾** بين اليهود، **﴿ولا تتبع أهواءهم﴾** لا تنحرف.

(٤٩) نفس المرجع، «سورة الأنفال،» الآية ٥٨. ويقصد بـ **﴿فانبذ إليهم على سواء﴾** فأخبرهم بتحررك من التزامك معهم.

(٥٠) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآيتان ١٢ ـ ١٣. **﴿يرونهم مثليهم﴾** أي المسلمون يرون الكفار ضعفيهم. وكانت الفئتان قد التقتا «يوم بدر».

بحصونهم» فحاصرهم الرسول خمس عشرة ليلة. ثم طلبوا منه السماح لهم بالخروج من المدينة ومعهم أموالهم ونساؤهم وذريتهم. فقبل منهم ذلك، فخرجوا.

أما يهود بني النضير حلفاء الخزرج فقد نقضوا عهد الآمان الذي كان بينهم وبين المسلمين، إذ حاولوا اغتيال النبي عندما كان في ديارهم فعلم الرسول بالمؤامرة، وطلب منهم مغادرة المدينة، وبينما كانوا يستعدون للرحيل، أرسل لهم حلفاؤهم المنافقون «لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم»، فنزل فيهم قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ. لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ. لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾**[٥١].

بالفعل خرج اليهود، بعضهم إلى خيبر وبعضهم إلى أذرعات بالشام، تاركين وراءهم متاعهم فأخذه الرسول «فيئاً» أي غنيمة من دون قتال، وفيه نزل قوله تعالى: **﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾**[٥٢].

ثم حدث أن تحالف مشركو مكة مع المنافقين في المدينة ومعهم بعض الأعراب وذلك بتحريض وزعامة من بني النضير الذين كان قد تم إجلاؤهم، فانضم إليهم بنو قريظة، فتكونت جبهة ضد المسلمين سميت بـ «الأحزاب» تحزبوا وتحالفوا على مهاجمة المدينة. فلجأ المسلمون إلى حفر خندق حول مدينتهم احتموا به، واستطاعوا أن يبثوا الفرقة بين «الأحزاب» فتراجعوا منهزمين. ولما كان الرسول في طريق عودته مع جيشه إلى المدينة فزع بنو قريظة منه لتحالفهم مع «الأحزاب» فتحصنوا بحصونهم، فحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة، رفض الرسول خلالها التفاوض معهم فطلبوا تحكيم رجل

---

(٥١) نفس المرجع، «سورة الحشر،» الآيات ١١ ـ ١٤. «لأنتم» أي «أيها المسلمون».

(٥٢) نفس المرجع، «سورة الحشر،» الآيتان ٦ ـ ٧. وتعني الآية **﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء﴾** أنه «لا يكون محتكراً بينهم».

وافقوا عليه فحكم عليهم بقتل رجالهم وسبي نسائهم وذريتهم.

ثم قرر الرسول بعد ذلك تصفية الحساب مع كبار اليهود بخيبر «وهم الذين كانوا أعظم مُهَيِّج للأحزاب ضد رسول الله في غزوة الخندق، والذين كانوا لا يزالون مجتهدين في محالفة الأعراب ضده»، فتجهز إليهم بجيش فحاصرهم في حصونهم العديدة واستطاع المسلمون إخراجهم منها وهزمهم.

ولما بلغ يهودَ تيماء ما فعله المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية، ومكثوا في بلادهم، بينما رفض يهود وادي القرى الاستسلام فقاتلهم المسلمون، فانتصروا عليهم «وغنموا منهم مغانم كثيرة، خَمَّسها (ﷺ)، وترك الأرض في أيدي أهلها يزرعونها بشطر ما يُخرجون منها. وكذلك صنع بأرض خيبر». وبذلك انتهى أمر اليهود في المدينة(٥٣).

٥ ـ جدال مع وفد نصارى نجران

لم يكن من بين سكان المدينة نصارى ولكن العلاقات معهم كوفود تقصد المدينة بهذه المناسبة أو تلك لم تنقطع. وأهم وفد سجل القرآن حضوره إلى المدينة قصد مناقشة الرسول في أمر عيسى عليه السلام، وفد نصارى نجران الذي جادله القرآن في الآيات الثمانين الأولى من سورة آل عمران التي نزلت في السنة الثانية للهجرة. وفي ما يلي ملخص لما دار حوله النقاش والنهاية التي انتهى إليها.

ذكر ابن إسحاق أن وفداً من كبار نصارى نجران قدم إلى المدينة ليتعرفوا عن كثب على موقف الإسلام من «عيسى»، وكانوا من المعتقدين بألوهيته: «يحتجون في قولهم: إنه وَلَد الله بأنهم يقولون: لم يكن له أب يُعلم، وقد تكلم في المهد، وهذا لم يصنعه أحد من وُلد آدم قبله. ويحتجون في قولهم: «إنه ثالثُ ثلاثة» بقول الله: فَعَلْنا، وأمرْنا، وخلقْنا، وقَضَيْنا، فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلا فعلتُ، وقضيتُ، وأمرتُ، وخلقتُ ولكنه هو وعيسى ومريم».

فلما دخل الوفد على النبي في المسجد «وكلَّمه الحَبْران، قال لهما رسول الله ﷺ: أسْلِما قالا: قد أسلمنا! قال إنكما لم تُسلما فأسْلِما، قالا: بلَى، قد أسلمنا قبلك. قال كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما (ادعاؤكما أن) للّه ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت عنهما رسول الله ﷺ فلم يجبهما. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم، واختلاف أمرهم

---

(٥٣) ابن إسحاق، الخضري. . . .

كله، صدر سورة آل عمران، إلى بضع وثمانين آية»، نقتبس منها الآيات التالية:

٦ ـ مريم، عيسى، المُباهلة...

﴿إذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إذَا قَضَى أَمْراً فَإنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإنجِيلَ. وَرَسُولاً إلَى بَنِي إسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ. إذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾(٥٤).

ـ وعلى اعتراض أسقف نجران: «ومن أبوه يا محمد»، جاء الجواب: **﴿إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾**(٥٥). **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ**

---

(٥٤) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآيات ٤٥ ـ ٥٨. كلمة من الله: أمره، كما يتبين بعد. والمقصود بها هنا مخلوق.

(٥٥) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآيات ٥٩ ـ ٦١. نتباهل بأن نقول بهلة الله على الكاذب منا ومنكم. والبهلة بالفتح والضم: اللعنة. وبهله الله لعنه (الزمخشري). وكان المطلوب أن يحضر كل طرف النساء والأولاد ويقسم بمحضرهم، وكأنهم رهائن القسم، بأنه يقول الصدق وأن لعنة الله عليه (وعلى نسائه وأولاده) إن هو كان من الكاذبين. وتسمى المباهلة أيضاً بـ «الملاعنة». وقد نزلت آية الملاعنة في الزوج يتهم زوجته بالخيانة الزوجية ولا شهادة لديه تثبت ذلك أمام إنكار الزوجة. قال تعالى: **﴿والذين يرمون أزواجهم ولم** =

اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٥٦].

قال ابن إسحاق تشاور الوفد فيما بينهم ثم اختاروا عدم الملاعنة مع الرسول (ﷺ) فجاءوه وقالوا: «يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضا». وتقول الرواية إنهم قبلوا دفع «الجزية»، فعين النبي أبا عبيدة الجراح وقال له «اخرج معهم فاقض بينهم بالحق في ما اختلفوا فيه».

يمكن القول إن الجدل، في القرآن، مع أهل الكتاب قد انتهى بهذه الحادثة. فاليهود هاجروا المدينة وما حولها أو هُجِّروا. ودعوة النصارى إلى الاعتراف بنبوة رسول الإسلام من خلال رسائل النبي (ﷺ) إلى كل النجاشي ملك الحبشة وهرقل إمبراطور الروم البيزنطيين والمقوقس حاكم مصر لم تسفر عن اعتناق رعاياهم الإسلام، على الرغم من اعترافهم، في ردودهم على رسائله، بكونه «النبي المنتظر»، كما بينا ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

هناك في القرآن نوع آخر من الجدل مع أهل الكتاب ـ ومع بني إسرائيل خاصة ـ سنعرض له بتفصيل في ملحق خاص بـ «القصص في القرآن».

= **يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾** [«سورة النور،» الآيتان ٦ ـ ٧]. **﴿فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾** أي يقسم بالله أربع مرات.

(٥٦) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآية ٦٤.

الفصل التاسع

جمع القرآن ومسألة الزيادة فيه والنقصان

أولاً: أسئلة التكوين . . . !

كيف تكوّن المصحف، الذي بين أيدينا الآن، الجامع للقرآن كُلّه بعد أن كان ينزل مفرقاً حسب مقتضى الأحوال لمدّة تزيد عن عشرين سنة؟

هذا السؤال العام ينطوي على عدد من الأسئلة الفرعية، منها:

١ ـ كيف كانت تتم عملية نقل القرآن من حالة الوحي الذي ينزل به جبريل على قلب الرسول[١] إلى قلوب الذين كان يقرأه عليهم؟

٢ ـ وبما أنّه كان ينزل مفرقاً، وعلى مدى ما يزيد على عشرين سنة، كما قلنا، فكيف كانت ترتب الأجزاء التي تنزل في مناسبةٍ ما بالنسبة إلى التي نزلت قبلها؟

٣ ـ كيف ومتى بدأت كتابته؟

٤ ـ كيف تمّ الانتقال بما نزل منه في مكة إلى المدينة، عند الهجرة إليها؟

٥ ـ متى بدأ جمعه ككل، وكيف تمّ ترتيبه في مصحف؟

٦ ـ وماذا عما يقال عن الزيادة فيه والنقصان؟

قد تبدو هذه الأسئلة من مجال التاريخ وحده، بمعنى أن الجواب عنها يمكن أن يتم بالطريقة التي تتم بها عملية التأريخ للحوادث التاريخية. لكن بما أن الأمر

---

(١) يقول تعالى: **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين. وإنه لفي زبر الأولين﴾ [القرآن الكريم،** «سورة الشعراء،» الآيات ١٩٢ ـ ١٩٦].

يتعلق بموضوع يقع على مستويين: مستوى زمني تاريخي، ومستوى لا زمني ما ورائي، فإن الأسئلة المذكورة، أو بعضها على الأقل، يطرح نفسه على هذا المستوى الأخير أيضاً. فالسؤال الأول الذي يطرح عملية نقل القرآن، من حالة الوحي الذي كان ينزل به جبريل على قلب النبي، إلى قلوب الذين كان يقرأه الرسول عليهم، يطرح مسألة الانتقال بالقرآن من مستوى المطلق (= كلام الله) إلى المستوى النسبي (= لسان عربي مبين)! أما السؤال الثاني الذي يطرح مسألة ترتيب الأجزاء التي كانت تنزل في مناسبة ما بالنسبة إلى التي نزلت قبلها، فيطرح ليس فقط علاقة «السابق باللاحق» على المستوى الزمني، زمن النزول، بل يطرح أيضاً علاقة الطابع الزمني التاريخي للحادث الذي استوجب نزول جزء من القرآن مع الطابع اللازمني لهذا الجزء نفسه؟ لقد اصطلح المفسرون وغيرهم من علماء الإسلام على تسمية مثل هذه الحوادث بـ «أسباب النزول»، فكيف نفهم العلاقة بين السبب والمسبب في هذا المجال؟ وسواء احتفظنا بلفظ «السبب» أو وضعنا مكانه لفظ «المناسبة» فجوهر العلاقة يبقى هو هو: علاقة المطلق بالنسبي! وما قلناه بصدد السؤال الأول والثاني يمكن قوله، هو نفسه أو مثله، بالنسبة إلى الأسئلة الأخرى. وبالتالي فمشكلة العلاقة بين المطلق والنسبي ستظل تلاحقنا!

صحيح أن جميع هذه الأسئلة وما في معناها قد طرحت قديماً، إما من طرف المفسرين أو المتكلمين أو الأصوليين والفقهاء. . . إلخ! غير أن الآفاق التي طرحوها فيها وبالتالي الأجوبة التي قدموها، كانت محدودة بحدود معهود زمنهم الفكري والاجتماعي والحضاري العام. إن هذا لا يعني أن تلك الأجوبة كانت باطلة أو يكتنفها الخطأ كلها، فصدقها أو عدم صدقها كان محكوماً بذلك المعهود. فما وافقه اعتبر صادقاً، وما خالفه اعتبر غير صادق أو موضوع شكّ. وبما أن عناصر كثيرة من ذلك المعهود قد تغيرت، خاصة على المستوى العلمي والفكري والاجتماعي، فإنه لا بُدّ أن تفقد بعض الأجوبة التي كانت صادقة في المعهود القديم شيئاً ـ قليلاً أو كثيراً ـ من مبررات صدقها مع الزمن، وبالتالي فلا تتمتع بنفس الدرجة من الصدق. وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أن كثيراً من الجوانب التي تتصل بالأسئلة المذكورة قد تمّ الجواب عنها من خلال «الموروث القديم»، السابق على الإسلام، الدينيّ منه كـ «الإسرائيليات» وما في معناها، أو العلمي والفلسفي (علوم الأوائل)، أدركنا كيف أن إجابات القدماء على الأسئلة التي طرحوها هم أنفسهم تدخل بالنسبة إلينا ضمن ما يقع خارج زماننا واهتماماتنا. ومن هنا تصبح المشكلة مشكلتنا نحن كذلك: كيف نبني لأنفسنا فهماً للقرآن، وأجوبة عن الأسئلة التي يطرحها التعامل معه كوحي إلهي، بصورة تجعل هذا الفهم معاصراً لنا

(لمعهودنا) وفي نفس الوقت معاصراً لنفسه بوصفه ينتمي إلى عالم المطلق؟

نحن لا ندّعي أننا سنقدم في هذا المدخل حلاً لهذا المشكل. كُلّ ما نأمل فعله هو تقديم رؤية فسيحة تساعد على احتواء مثل هذه المشاكل العويصة ضمن أطر وقوالب منفتح بعضها على بعض في جو من «التعايش السلمي»، بحيث تمكن العقل من التحرر من شرنقة النسيج الذي ينسجه منطق «إما . . وإما».

ثانياً: القرآن بين القراءة والكتابة

نزل القرآن كما قلنا مفرّقاً. وتجمع مصادرنا على أن النبي كان إذا نزلت عليه آية أو أكثر يقرأها حتّى يحفظها عن ظهر قلب، ثُمّ يقرأها على من حضر من أصحابه فيحفظونها هم أيضاً عن ظهر قلب. وهذا ما يشهد له القرآن في قوله تعالى: ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾[٢]، وأيضاً: ﴿**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ**﴾[٣]. نحن هنا إزاء عملية إقراء مزدوجة: جبريل يُقرئ الرسول والرسول يُقرئ أصحابه. وهؤلاء يقرئون غيرهم[٤]. وربما كان هذا وراء تسمية القرآن قرآناً، وقد رأينا قبل أن هذه التسمية لم تذكر في القرآن إلا بعد مدة. ومن الجدير بالملاحظة أن اسم «القرآن» لم يطلق في القرآن إلا عليه وحده، كما أنّه لا يطلق على غيره في الاستعمال اللغوي العام، وبالمثل اختص باسم «القُرّاء»، في الاصطلاح الإسلامي، قُرّاء القرآن أي حفَظَته والمتخصصون في قراءته. وكما شرحنا في الفصل السادس فاسم «كتاب» لم يسم به «القرآن» إلا بعد مدة أطول من إطلاق اسم «القرآن» عليه. وقد سبق إطلاق هذا اللفظ على كتاب «أهل الكتاب» أي التوراة كما أطلق على اللوح المحفوظ، فضلاً عن استعماله في المعنى اللغوي العام. وكما كان لا بُدَّ من وجود ما يكفي من التنزيل المقروء ليطلق عليه اسم «القرآن»، كان لا بُدّ كذلك من تراكم ما كان يكتب منه بالقدر الذي يكفي ليسمى «كتاباً».

---

(٢) نفس المرجع، «سورة القيامة،» الآيات ١٦ ـ ١٩.

(٣) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ١٠٦.

(٤) بقي هذا الطابع ملازماً للقرآن منذُ ابتداء نزوله إلى اليوم: «طالب القرآن» يتلقاه قراءة من «المقرئ»/ المعلم، ثُمّ يعلمه لغيره قراءة. أما الكتابة في اللوح فليست سوى وسيلة موقتة، تمكن التلاميذ من الاستقلال بتكرار القراءة، قصد الحفظ، تحت رقابة المعلم: يكتب كُلّ تلميذ حصة من القرآن في لوح يمليها عليه المعلم كلمة كلمة، ثُمّ ينصرف لحفظها بتكرار قراءتها، حتّى إذا حفظها، محا اللوح ليكتب حصة أخرى ليمحوها هي الأخرى بمجرد حفظها، وهكذا حتّى يحفظ القرآن كله. ولم يكن الواحد من هؤلاء الطلبة/ القراء يتعامل مع المصحف إلا في مراحل متأخرة.

وإذا كنا لا ندري بالضبط متى بدأت كتابة القرآن[٥]، فإنه لم يكن من المفكّر فيه داخل الفكر الإسلامي ـ طوال تاريخه المديد ـ أن النبي كان يتولى بنفسه كتابته، مع أنّه كان يعرف القراءة والكتابة كما بينا قبل (الفصل الثالث). والحق أن معرفة الإنسان الكتابة والقراءة لا يلزم عنها أنّه يقرأ الكتب ويؤلفها، وقد أكد القرآن ذلك بالنسبة إلى النبي ﷺ فقال: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون**﴾[٦]. وعندما طلب منه خصومه من قريش أن يأتي بآية مادية ملموسة خارقة للعادة كدليل على صدق نبوّته أجابهم القرآن: ﴿**وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآياتُ عند الله وإنما أنا نذير مبين. أوَلم يكفهم أنّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**﴾[٧]. وظاهر الآية أن القرآن نزل ليتلى على الناس، كما أنزل وحياً، الأمر الذي يستبعد توسط الكتابة بين تلقيّه وحياً وتبليغه للناس. ويمكن المرء أن يزكي هذا بكون خصوم الدعوة المحمدية قد اتهموه بافترائه وأنه كان يُملى عليه من طرف بعض أهل الكتاب، ولكنهم لم يتحدثوا عن كونه كان يكتبه. وقريش تعلم أن الشعراء لم يكونوا ينشئون شعرهم كتابة بل يلقونه إلقاء ثُمّ يكتبه لهم أو عنهم آخرون. ومع أن القصائد المعتبرة كانت تعلق في الكعبة (المعلّقات) فليس لدينا ما يفيد أن الشعراء كانوا يكتبونها بأنفسهم. إن الاستعانة بكتَاب مهنتهم الكتابة كانت عملية جارية[٨].

ومهما كان الأمر فالثابت تاريخياً أن النبي قد عمد ـ حرصاً منه على حفظ هذا القرآن، على مستوى الكتابة، بعد أن كان يحفظ في صدور أصحابه ـ إلى اتخاذ كتّاب خاصين يُقرؤهم ما ينزل عليه فيكتبونه تحت إشرافه ومراقبته، على المواد والأدوات التي كانت تستعمل للكتابة في ذلك العصر (رقاع، عسب، لخاف، قطع الأديم، عظام الأكتاف والأضلاع . . والورق أيضاً). والظاهر ـ كما سيتبين في ما بعد ـ أن كتّاب الوحي كانوا يحتفظون بما يكتبون ويراكمونه، كلاً على حدة، وفي

---

(٥) تذكر بعض الروايات في قصة إسلام عمر بن الخطاب: أنّه وجد أخته تقرأ في صحيفة وفيها «سورة طه» عندما ذهب إليها غاضباً لما سمع أنها أسلمت، وأن عمر طلب منها الصحيفة فقرأ منها فأعجبه ذلك فأسلم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تفيد الروايات أن إسلام عمر كان في السنة الخامسة للنبوة. وهذا يعنى أن كتابة القرآن بدأت قبل هذا التاريخ.

(٦) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآية ٤٨.

(٧) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآيتان ٥٠ ـ ٥١.

(٨) نعم هناك ما يُعرف بـ «الحوليات» وهي القصائد التي قيل إن أصحابها كانوا يقضون في إعدادها ومراجعتها نحو حول من الزمن (سنة). ولكن هذا لا يفيد بالضرورة أنهم كانوا يكتبونها، فالإعداد والمراجعة يمكن أن يتما من دون كتابة، إذ كان الدور الأساسي للذاكرة والحفظ..

الغالب كيفما اتفق. بمعنى أنّه لم تكن هناك طريقة واحدة يتبعونها في تجميع المواد التي كانوا يكتبون عليها[٩].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فبما أن القرآن كان ينزل حسب مقتضى الأحوال، في الليل أو النهار، في الحضر أو السفر. . . إلخ، فمن الطبيعي أن لا يكون كتّاب الوحي حاضرين جميعهم حين نزوله، وفي هذه الحالة قد يأخذ الغائبون عن الحاضرين ما جَدَّ من القرآن، وقد لا يفعل بعضهم ذلك بسبب مرض أو سفر. وإذا اصطلحنا على إطلاق اسم «صحف» ـ وهذا ما حصل بالفعل ـ على مجموع ما تجمّع من القرآن عند كُلّ واحد من كتاب الوحي، فإننا سنكون إزاء مجموعات من الصحف[١٠]، بعدد كُتَّاب الوحي، كُلّ مجموعة تحمل اسم صاحبها. ومن المنتظر والحالة هذه أن يختلف حجم وترتيب كُلّ واحدة عن الأخرى، اختلافاً كبيراً أو صغيراً[١١].

ومن المسائل التي طالها الاختلاف والتي يقرها معظم المفسرين والمؤلفين في الحديث وفي «علوم القرآن»، استناداً إلى أحاديث وروايات يذكرونها، مسألة ترتيب السور[١٢] والآيات.

ذلك أن بعض كتاب الوحي اتبعوا في ترتيب سور القرآن ترتيباً زمنياً، بمعنى أنهم رتبوا سور القرآن حسب تاريخ نزولها، كما فعل علي بن أبيّ طالب ـ في ما يروى. هذا بينما رتب آخرون ما تجمّع عندهم من القرآن وفق هذا الاعتبار أو ذاك، أو كيفما اتفق، فصار لكُلّ منهم مصحف بترتيب خاص مثل مصحف أُبيّ بن كعب، ومصحف عبد الله بن مسعود[١٣]. ومن هنا قيل إن ترتيب السور في المصحف ترتيب

---

(٩) تذكر الروايات أنّه كان من بين كتاب الوحي، أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب وأبان بن سعيد، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وثابت بن قيس، وعبد الله بن مسعود وغيرهم. ويبدو أن المنقطعين الأوائل لكتابة الوحي هم، حسب حديث منسوب إلى النبي أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأُبيّ بن كعب..

(١٠) أطلق عليها اسم «مصحف» فلان أو فلان في مرحلة لاحقة، بعد جمع القرآن في مصحف عثمان.

(١١) وهذا ما يفهم من جملة من الروايات السنية أنّه حصل بالفعل. وهناك من يرى أن كتّاب الوحي كانوا يضعون ما كتبوا في بيت النبي (ﷺ)، الأمر الذي يعني أن عملية جمع القرآن تمت في بيت النبي وبإشرافه بتساوق مع نزول الوحي. وهذا رأي تقول به اليوم المصادر الشيعية وهو يتناقض مع المشهور المتواتر من الروايات حول جمع القرآن كما سنرى..

(١٢) السورة لغةً: المنزلة الرفيعة. وفي القرآن: هي «المقدار المستقل من قطعه المشتملة على عدة آيات». وقد ذكر هذا اللفظ بهذا المعنى في القرآن عدة مرات مثل قوله تعالى: ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ [**القرآن الكريم**، «سورة يونس،» الآية ٣٨].

(١٣) أورد السيوطي في **الإتقان** لائحة السور كما هي مرتبة في مصحف أبي بن كعب ومصحف عبد الله بن مسعود نقلاً عن ابن أشتة في كتابه **المصاحف**. والترتيب المتبع في كل منهما ـ على اختلافهما بعض =

اجتهادي. وهذا ما يقول به جلّ من بحثوا في هذا الأمر من القدماء والمحدثين.

وبما أن بعض السور نزلت كاملة ومرة واحدة، بينما نزلت سور أخرى في مدد مختلفة فإن ترتيب الآيات[١٤] داخل النوع الأول لا يطرح إشكالاً، بمعنى أنه الترتيب الذي جاء به الوحي، فهو توقيفي أصالة، بمعنى أنّه جزء من القرآن المنزل. أما ترتيب الآيات في السور الأخرى التي نزلت في مدد مختلفة فشأنه يختلف. والأمر الذي عليه جلّ المفسرين وعلماء الإسلام ـ إن لم نقل جميعهم ـ هو أن ترتيبها توقيفي أيضاً، وذلك استناداً إلى حديث رواه الترمذي (رقم ٣١٨٧) عن عثمان، جاء فيه: «كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا». (مثلاً: السورة التي تذكر فيها البقرة، أو المائدة، أو هود. . . إلخ. فسميت هذه السور بذلك الشيء المحدد الذي ذكر فيها)[١٥]. وفي هذا المعنى يوردون قول زيد بن ثابت الأنصاري أشهر كتّاب الوحي: «كُنَّا عِندَ رَسُولُ الله نُؤَلِّفُ الْقُرآنَ مِنَ الرِّقَاعِ»، أي يرتبون الآيات داخل السور. ومع ذلك لا يبعد أن تبقى، خارج هذا التأليف، آية أو أكثر، مكتوبة على رقعة أو عظم، أو غير مكتوبة ولكن محفوظة في صدر هذا الصحابي أو ذاك.

وهذا ما يستفاد من رواية ذكرها أبو داود في سننه تخص الآيتين الأخيرتين من سورة «التوبة»، ولم تكونا قد أدرجتا فيها عند جمع القرآن زمن عمر بن الخطاب. تقول الرواية نقلاً عن الزبير بن العوام: «أتى الحارثُ بنُ خزيمةَ بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال: أشهدُ أنِّي سمعتهما من رسولِ اللّهِ وَوَعَيْتُهُما. فقال عمر: أَنَا أشهد لقد سمعتهما، ثُمّ قال: لو كانتا ثلاثَ آيات لجعلتها عَلَى حِدَة، فانظروا آخر

= الاختلاف ـ أقرب إلى الترتيب الذي في «المصحف الإمام» الذي جمع ورتب في خلافة عثمان بن عفان، وهو المتوارث منذُ ذلك الوقت إلى اليوم. وسنعرض لهذه المسألة لاحقاً.

(١٤) الآية في اللغة العَلامَةُ، والأمارة، والعبرة. والآية من القرآن: «كلام متصل إلى انقطاعه». قد تكون كلمة واحدة مثل «مدهامّتان»، أو كلمتين مثل طه، أو عدة كلمات. وتتفاوت آيات القرآن طولاً وقصراً تفاوتاً كبيراً.

(١٥) قد تسمى السورة بأول كلمة فيها مثل يس وطه والصافات وص والفجر والضحى والشمس، وعبس. وقد تسمى بلفظ ورد في إحدى آياتها مثل الإسراء والأنفال وغافر وفصلت وفاطر. وقد تسمى السورة الواحدة بأكثر من اسم واحد: فسورة براءة تسمى أيضاً سورة التوبة، وسورة الإسراء تسمى سورة بني إسرائيل، وتسمى سورة فاطر بسورة «الملائكة» وسورة غافر بسورة «المؤمن» وسورة فصلت بـ «حم السجدة» وسورة الإنسان بسورة «الدهر». وإلى جانب تسمية السور بهذه الطريقة هناك سور عديدة تسمى أيضاً بأول كلمة أو عبارة تبدأ بها. مثل: ﴿**إذا الشمس كورت**﴾ لسورة التكوير، و﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ لسورة الأعلى، و﴿**الليل إذا يغشى**﴾ لسورة الليل، و﴿**عمَّ يتساءلون**﴾ لسورة النبإ و﴿**حم. عسق**﴾ لسورة الشورى. . .

سورة من القرآن فألحقوهما في آخرها، فألحقوهما بسورة براءة (التوبة)[١٦]. ويستدل بعضهم بهذه الحادثة على أن ترتيب الآيات لم يكن في القرآن كُلّه بتوقيف، إنّما كان من عمل الصحابة أيضاً.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدو أن الذين كانوا يحفظون شيئاً، قليلاً أو كثيراً، من القرآن زمن النبي كانوا كثيرين، غير أن الذين كانوا يحفظونه كُلّه، من أوله إلى آخره، كان عددهم أقل. وهذا أمر طبيعي. يؤكّد هذا ما رواه البخاري[١٧] عن أنس بن مالك من أنّه سئل: «من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ»؟ فأجاب: «أربعة كلهم من الأنصار: أبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد». والمقصود بكون هؤلاء وحدهم «جمعوا» القرآن قبل وفاة النبي، أنهم وحدهم كانوا يحفظونه كاملاً عن ظهر قلب، بينما كان الصحابة الآخرون يحفظون منه أجزاء قليلة أو كثيرة[١٨]. أما جمعه مكتوباً فتلك عملية أخرى سنفصل القول فيها في ما يلي:

ثالثاً: جمع القرآن: بين المصادر السنية والمراجع الشيعية

١ ـ روايات المصادر السنية

ثمة وجهتا نظر في موضوع جمع القرآن، إحداهما تقررها المصادر السنية والأُخرى تؤكدها المراجع الشيعية (الإمامية). أما وجهة النظر السنية الرسمية فترجع بعملية جمع القرآن، في مصحف، إلى عهد أبي بكر، لتنتهي في عهد عثمان بإقرار مصحف واحد رسمي وإحراق ما عداه. وتستند هذه الوجهة من النظر على ما رواه البخاري خاصة. ومعلوم أنّه عقد باباً في صحيحه ضمن «كتاب فضائل القرآن» جعل عنوانه: «باب جمع القرآن»[١٩] أورد فيه عدداً من الروايات التي تتحدث عن جمع القرآن أشهرها ـ وربما أهمها على الإطلاق ـ رواية زيد بن ثابت أشهر كتّاب الوحي، قال فيها: إن أباً بكر أرسل إليه عقب موقعة اليمامة التي قتل فيها كثير من

---

(١٦) وهما قوله تعالى: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ [القرآن الكريم،** «سورة التوبة،» الآيتان ١٢٨ ـ ١٢٩].

(١٧) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، الحديث رقم ٤٧١٨.

(١٨) يروى أن عبد الله بن مسعود، وهو من المهاجرين ومن أوائل الصحابة كان يحفظ نحواً من ٩٠ سورة فقط من أصل ١١٤، مجموع سور القرآن.

(١٩) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **كتاب فضائل القرآن،** في: نفس المرجع، باب جمع القرآن، الحديث رقم ٤٧٠١.

الصحابة القُرّاء[٢٠] وطلب منه أن يجمع الصحف التي كتب فيها القرآن مخافة أن يضيع منه شيء كثير بسبب موت حفاظه وقرائه. وقال له: «إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتَتَبَّعْ القرآن فاجمعه». وأضاف زيد يقول: «فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتّى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم**﴾، حتّى خاتمة براءة». ثُمّ أضاف: فكانت الصحف (التي كتب فيها القرآن) عند أبي بكر حتّى توفاه الله، ثُمّ عند عمر حياته، ثُمّ عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه». وتقول بعض الروايات إن زيد بن ثابت كان يشترط فيمن يأخذ منه القرآن أن يشهد معه شاهدان على أنّه من القرآن.

ثُمّ يذكر البخاري رواية أخرى تتحدث عن جمع القرآن زمن عثمان ومضمونها: أنّه بينما كان هذا الأخير منهمكاً في تجهيز جيش من أهل الشام والعراق لغزو أرمينية وأذربيجان، إذ قدم عليه حذيفة بن اليمان وقال له: «يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب، اختلاف اليهود والنصارى». وكان حذيفة قد راعه اختلاف المجندين العراقيين والشاميين في قراءة القرآن، كُلّ فريق يعتبر قراءته هي وحدها الصحيحة[٢١]. وتقول الرواية إن عثمان أرسل إلى حفصة بنت عمر، يطلب منها نسخة الصحف التي جمعت أيام أبي بكر (وانتقلت إليها عقب وفاة عمر)، لعمل نسخة منها فأرسلتها إليه، وأنه، أعني عثمان، «أمرَ زيداً بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف». وتقول الرواية إن عثمان قال لهم: إذا اختلفتم في شيء «فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم». وتضيف الرواية أنّه عندما أنهى هؤلاء نسخ الصحف التي كانت لدى حفصة في مصحف واحد ردّ عثمان الصحف إليها وأرسل إلى كُلّ الأمصار بنسخة من المصحف الجامع ـ وقد سمي بالمصحف الإمام ـ «وأمر بما سواه من القرآن في كُلّ صحيفة[٢٢] أو مصحف أن يحرق».

ثُمّ تذكر الرواية أن زيداً بن ثابت قال: «فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة

---

(٢٠) يروى أنّه قُتل سبعون رجلاً من القراء في معركة بئر معونة وأربعمائة في حرب اليمامة.

(٢١) كان أهل الكوفة يقرؤون على مصحف عبد الله بن مسعود، وأهل البصرة يقرؤون على مصحف أبي موسى الأشعري، وأهل الشام على مصحف أُبيّ بن كعب، وأهل دمشق على مصحف المقداد.

(٢٢) ذكر ابن عاشور في تفسيره: أن القرآن حين جمع في خلافة أبي بكر لم يجمع في مصحف مرتب وإنما جعلوا لكُلّ سورة صحيفة مفردة ولذلك عبروا عنها بالصحف. راجع: محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٤٧.

بن ثابت الأنصاري: ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾[٢٣]، فألحقناها في سورتها في المصحف».

يستفاد من هذه الرواية أربعة أمور:

الأول أن جمع القرآن زمن أبي بكر كان مقتصراً على جمع «الصحف» أي المواد التي كتب عليها مفرقاً كالقماش وورق الحرير والرقوق الناعمة المسواة. بينما كان جمعه في عهد عثمان عبارة عن ضم تلك الصحف وجعلها في مصحف واحد.

والأمر **الثاني** هو أنّه كانت هناك آيات لم تكن معروفة من لدن الجميع وأن زيد ابن ثابت استدرك بعضها كما ذكر أعلاه. وهذا موضوع سنعود لتفصيل القول فيه لاحقاً.

الأمر **الثالث** أن الدافع إلى جمع القرآن أول مرة كان الخوف من انقراض حفظة القرآن فيضيع منه كثير. وأن عامل الخوف كان قوياً إلى درجة أن عمر بن الخطاب طلب من أبي بكر جمع القرآن، وأن هذا الأخير اقتنع بذلك بعد تردد، فقد تساءل: «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ»؟ وقد غلّب المصلحة في نهاية الأمر على التردد.

الأمر **الرابع** اختلاف الناس في «القراءة»، باختلاف لغاتهم ولهجاتهم. وهذا شيء تذكر الروايات أنّه قد تكرر حصوله زمن النبي نفسه، كما سنرى في فصل لاحق.

هناك مسألة أخرى لم تهتم بها مصادرنا الاهتمام الذي تستحقه، وهي الكيفية أو الطريقة التي تمّ بها نقل القرآن المكي المكتوب في الصحف من مكة إلى المدينة بعد الهجرة. يمكن القول من الناحية المبدئية إن الاعتماد في تحمّل القرآن كان على الحفظ في الصدور. ومع ذلك فالروايات تنص على أن القرآن جمع من «الصحف» كما رأينا. نعم هناك أخبار تشير إلى ترحيل هذه الصحف سراً على مراحل، قبل فتح مكة، وأما بعد ذلك فالمسألة لم تعد مطروحة.

٢ ـ رأي المراجع الشيعية

هذا عن وجهة النظر السنية الرسمية باختصار. أما رأي المراجع الشيعية الرسمي كما تقرره مراجعهم فنوجزه في ما يلي: عقد الإمام الشيعي أبو القاسم الخوئي فصلاً بعنوان «فكرة عن جمع القرآن» في كتابه **البيان في تفسير القرآن**[٢٤] استعرض فيه

---

(٢٣) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٢٣.

(٢٤) أبو القاسم الخوئي، **البيان في تفسير القرآن** (بيروت: مؤسسة الأعلمي، [د. ت.])، ص ٢٣٩ وما بعدها.

مختلف الروايات التي ذكرتها كتب السنة وغيرها، وفي مقدمتها تلك التي نقلناها عن البخاري (أعلاه)، والتي تقرر أن القرآن جمع زمن أبي بكر ثُمّ زمن عثمان، فقارن بينها وأبرز جوانب الاختلاف والتناقض فيها، ثُمّ عارضها بروايات أخرى ـ كثير منها من المصادر السنية ـ يرى أنها تشهد بأن القرآن قد تمّ جمعه في زمن النبي (ﷺ). من هذه الروايات رواية ابن عباس التي ذكر فيها أن النبي «كان إذا نزل عليه الشيء (من القرآن) يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا». . . إلخ. ومن الروايات التي اعتمدها واحدة رواها الطبراني وابن عساكر عن الشعبي أنّه قال: «جَمَع القرآن على عهد رسول الله (ﷺ) ستة من الأنصار هم: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وسعد بن عبيد، وأبو زيد، وكان مجمع بن جارية قد أخذه إلا سورتين أو ثلاثاً. «واستشهد الخوئي كذلك برواية عن قتادة قال فيها: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد النبي؟ قال: «أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد». ثُمّ بعد أن يورد روايات أخرى من هذا النوع، يعترض على من قال بأن لفظ «جَمَع» في هذه الروايات معناه حفظ كامل القرآن ـ كما ذكرنا قبل ـ ليقرر أنّه لا يعقل أن يكون هؤلاء الأربعة هم وحدهم الذين كانوا يحفظون القرآن كُلّه زمن النبي، ومن هنا يقرر أن المقصود بـ «جمع القرآن» من طرف هؤلاء هو أخذه من القراء والمواد المكتوب عليها وجمعه في مصحف. ويلتمس الخوئي سنداً لرأيه هذا من القرآن فيذكر أن سوره كانت معروفة ومتداولة زمن النبي، وأن الله «قد أطلق لفظ الكتاب على القرآن في كثير من آياته الكريمة» وأن النبي (ﷺ) قال في حديث له: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي». ويضيف قائلاً: «في هذا دلالة على أنّه كان مكتوباً مجموعاً».

أما ما فعله عثمان فهو، في نظر السيد الخوئي، أنّه «قد جمع القرآن في زمانه، لا بمعنى أنّه جمع الآيات والسور في مصحف، بل بمعنى أنّه جمع المسلمين على قراءة (مصحف) إمام واحد، وأحرق المصاحف الأخرى التي تخالف ذلك المصحف، وكتب إلى البلدان أن يحرقوا ما عندهم منها، ونهى المسلمين عن الاختلاف في القراءة، وقد صرح بهذا كثير من أعلام أهل السنة[٢٥].

---

(٢٥) يستشهد في هذا الصدد بقول الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣هـ): «والمشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان رضي الله عنه، وليس كذلك، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات والقرآن. وأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن». (غير أن كلام المحاسبي لا يقف عن هذه النقطة بل يضيف: «فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصدّيق وقد قال عليّ: لو وليت لعملت بالمصاحف التي عمل بها عثمان». نقلاً عن: جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، النوع ١٨، ج ١، ص ١٠٣.

واضح أن وجهة نظر السيد الخوئي، أحد أئمة الشيعة الكبار في القرن العشرين[٢٦]، لا تنبني على اختلاف المرجعيات، فنحن لا نجد في ما ذكرته روايات شيعية خاصة، فالروايات التي ذكرها هي نفسها التي أوردتها المصادر السنية، وإنما الاختلاف محصور في فهم كلمة «جمع» كما بيّنا. أما الاستدلال بكون القرآن قد أطلق على نفسه اسم «الكتاب» فمسألة فيها نظر! ذلك أن وصف القرآن بـ «الكتاب» معناه أنّه من الكتب السماوية مثله في ذلك مثل التوراة والإنجيل، هذا فضلاً عن آيات قرآنية يقترن فيها الكتاب بـ «التنزيل»، مثل قوله تعالى: ﴿**ألم. تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٢٧]، وقوله: ﴿**وهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾[٢٨]. وغنيّ عن البيان القول إن القرآن لم ينزل «كتاباً» مكتوباً وإنما أنزل منجّماً مفرقاً: ﴿**وقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾[٢٩]. يبقى حديث: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي»، وهو حديث ترويه بعض المصادر السنية كذلك، غير أن عبارة «كتاب الله»، في هذا الحديث وفي غيره من النصوص، لا تعني «الكتاب المكتوب» بل «الكتاب المنزل»، والمسلمون مجمعون على أنّه نزل وحياً وليس كتابة كما هو شأن «ألواح موسى» (التوراة) التي يقول القرآن عنها: ﴿**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾[٣٠].

والحق أن إلحاح كثير من مراجع الشيعة الإمامية على أن القرآن قد تمّ جمعه زمن النبي وبإشرافه يرجع إلى أصل لهم هو أساس اختلافهم مع أهل السنة في كثير من المسائل، أعني بذلك رأيهم في الإمامة. هم يرفضون إمامة أبي بكر وعمر وعثمان (ولهذا يسميهم أهل السنة بـ «الرافضة») ويقولون إن النبي (ﷺ) وصّى بأن الخليفة من بعده هو علي بن أبي طالب، ويوردون لإسناد رأيهم هذا جملة أحاديث يقولون إن فيها إشارات إلى ذلك، منها الحديث المذكور أعلاه: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي»، وحديث «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيّ مَوْلاهُ»... إلخ.

على أن موقف الخوئي وبعض علماء الشيعة المعاصرين أكثر إيجابية وصدقية

(٢٦) توفي عام ١٩٨٤ م وحل محلّه السيستاني.

(٢٧) **القرآن الكريم**، «سورة السجدة،» الآيتان ١ ـ ٢.

(٢٨) نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآية ٩٢.

(٢٩) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ١٠٦.

(٣٠) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٤٥.

من مواقف بعض قدماء علماء الشيعة ومراجعهم الذين رددوا أن القرآن وقع فيه تحريف وزيادة ونقصان عند جمعه.

رابعاً: الزيادة والنقصان في القرآن

١ ـ أنواع التحريف

موضوع الزيادة والنقصان في القرآن موضوع قديم كثر فيه القيل والقال. وهناك الآن جدل طويل عريض في مواقع بالإنترنيت حول هذا الموضوع على مستويين:

أ ـ مستوى الجدال مع النصارى وبعض المستشرقين قدماء وجدد. بعض الكتاب المسلمين يرددون القول بوجود تحريف في التوراة والإنجيل، وهذا مصرح به في القرآن، بينما يردّ عليهم قرناؤهم في الديانتين بأمور منها القول إن القرآن نفسه تعرض للتحريف معتمدين في ذلك على الروايات المذكورة في كتب علماء الإسلام من مفسرين وأهل الحديث وغيرهم، وسنعرض لها في هذه الفقرة.

ب ـ مستوى آخر من الجدل، صامت تارة وناطق أخرى، بين بعض الكتاب من أهل السنة وآخرين من الشيعة، كُلّ طرف يتهم الطرف الآخر بكونه يجر معه تراثاً يحرف القرآن في هذه المسألة أو تلك.

والتحريف أنواع شرحها بعضهم بقوله:

فقد يقع في التأويل بمعنى: «نقل معنى الشيء من أصله وتحويله إلى غيره»، أو في النقص أو الزيادة في الحروف أو الحركات، وذلك كاختلاف القراءات. كما يقع التحريف بـ «الزيادة والنقصان في الآية والسورة مع التحفظ على القرآن والتسالم (عدم التنازع) على قراءة النبي (ﷺ) إياها». وهذا مثل تسالم المسلمين في البسملة على أن النبي قرأها قبل كُلّ سورة غير سورة التوبة مع اختلافهم هل هي من القرآن أم لا. هذه الأنواع من التحريف واقعة في القرآن ومعترف بها بصورة أو أخرى من طرف علماء الإسلام تحت العناوين التالية: التأويل، الأحرف السبع، القراءات، مسألة البسملة.

وهناك معنىً آخر للتحريف وهو القول بأن «بعض المصحف الذي بين أيدينا ليس من الكلام المنزل»، وهذا مرفوض بإجماع المسلمين[٣١].

---

(٣١) يحكى عن فرقة العجاردة من الخوارج: أنهم ينكرون كون «سورة يوسف» من القرآن ويزعمون أنها قصة من القصص قالوا: ولا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن. راجع: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، ٣ ج في ١مج (القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ١٩٦٨).

هذه الأنواع من التحريف لا تدخل في موضوعنا هنا. وإذا كنا سنعرض لبعضها فإن ذلك لن يكون بالقصد الأول. إن ما يهمنا هنا هو ما يتصل بمسألة «جمع القرآن»، أعني ما يدخل في نطاق السؤال التالي: هل «المصحف الإمام» ـ الذي جمع زمن عثمان والذي بين أيدينا الآن ـ يضم القرآن كُلّه: جميع ما نزل من آيات وسور، أم أنّه سقطت (أو رفعت) منه أشياء حين جمعه؟

الجواب عن هذا السؤال، من الناحية المبدئية، هو أن جميع علماء الإسلام من مفسرين ورواة حديث وغيرهم يعترفون بأن ثمة آيات، وربما سوراً، قد «سقطت» ولم تدرج في نصّ المصحف. بعضهم يستعمل لفظ «رفعت»، بمعنى أن الله رفعها، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ**﴾[٣٢]. وفي ما يلي أنواع النقص التي ذكرتها كُلّ من المصادر السنية والشيعية.

٢ ـ ما ذكرته المصادر السنية

أ ـ سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة

يقول القرطبي عند تفسيره لسورة الأحزاب: «سورة الأحزاب مدنية في قول جميعهم. نزلت في المنافقين وإيذائهم رسول الله ﷺ، وطعنهم فيه وفي مناكحته وغيرها. وهي ثلاث وسبعون آية. وكانت هذه السورة تعدل سورة البقرة (وعدد آياتها ٢٨٦). وكانت فيها آية الرجم (ونصها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم»). وبعد أن يشير إلى أن هذا روي عن أبيّ بن كعب، أحد كتّاب الوحي وجامعي القرآن، يضيف قائلاً: «وهذا يحمله أهل العلم على أن الله تعالى رفع من (سورة) الأحزاب إليه ما يزيد على ما في أيدينا (منها)، وأن آية الرجم رفع لفظها». ثُمّ يذكر رواية عن عائشة زوج النبي جاء فيها أنها قالت: «كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله ﷺ مائتي آية، فلما كتب المصحف لم يُقدر منها إلا على ما هي الآن».

ب ـ سورة براءة بقي منها نحو ربعها

ويذكر القرطبي في بداية تفسيره لسورة براءة (التوبة) وفي سياق عرضه للروايات التي تتناول عدم وجود البسملة في أولها، ما يلي: «قال مالك في ما رواه ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم: إنه لما سقط أولها، سقط «بسم الله

---

(٣٢) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ١٠٦.

الرحمن الرحيم» معه. وروي ذلك عن ابن عجلان أنّه بلغه أن سورة «براءة» كانت تعدل البقرة أو قربها، فذهب منها، فلذلك لم يكتب في بدايتها «بسم الله الرحمن الرحيم». وقال سعيد بن جبير: كانت مثل سورة البقرة». وعن حذيفة قال: ما تقرأون ربعها: يعني براءة».

ج ـ سورتان لم تكتبا!

ذكر السيوطي وغيره أن دعاء القنوت من جملة القرآن الذي أنزله الله على النبي (ﷺ) وأنه كان سورتين، كُلّ سورة ببسملة وفواصل، إحداهما تسمى سورة الخلع، والأخرى تسمى سورة الحفد. وروي أنّهما كانتا في مصاحف ابن عباس وأُبي بن كعب وابن مسعود، وأنّ عمر بن الخطاب قنت بهما في الصلاة، وأنّ أبا موسى الأشعري كان يقرأهما. غير أن علماء السنة قد اعتبروهما ضرباً من الدعاء لا قرآناً منزلاً. وهما بالتتابع:

ـ «اللّهم إنَّا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك».

ـ «اللّهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إنّ عذابك بالكافرين ملحق».

د ـ آية الرجم قرأها عمر بن الخطاب

روي بطرق متعدّدة أنّ عمر بن الخطاب، قال: «إيّاكم أن تهلكوا عن آية الرجم. والذي نفسي بيده لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله لكتبتها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة، نكالاً من الله، والله عزيز حكيم». فإنّا قد قرأناها. وقيل إن عمر أتى بهذه الآية إلى زيد بن ثابت حين كان يجمع القرآن فلم يأخذها منه لأنه ـ أعني عمر ـ كان وحده، وزيد كان قد اشترط شهادة رجلين في ما يأخذ من الآيات. ورُوي عن عائشة أنَّها قالت: «نزلت آية الرجم ورضاع الكبير عشراً، ولقد كانت في صحيفة تحت سريري، فلمّا مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتشاغلنا بموته دخل داجن فأكلها».

هـ ـ آية في الجهاد أسقطت

ورُوي أنّ عمر قال لعبد الرحمن بن عوف: «ألم تجد في ما أُنزل علينا: «أن جاهدوا كما جاهدتم أوّل مرّة»، فأنا لا أجدها؟ قال: أُسقِطت في ما أسقِط من القرآن».

و ـ آية الصفوف الأولى وآيات أخرى

وروي عن حميدة بنت أبي يونس، قالت: «قرأ عليّ أبي، وهو ابن ثمانين سنة، في مصحف عائشة: إنّ الله وملائكته يصلّون على النبيّ يا أيُّها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليماً وعلى الذين يصلون في الصفوف الأولى». قالت: «قبل أن يغيّر عثمان المصاحف».

ز ـ قرآن كثير ذهب: رُفع أو نُسخ أو أُنسِيَ

وذكر السيوطي في باب الناسخ والمنسوخ ما يلي:

«قال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: ليقولن أحدكم قد أخذت القرآن كُلّه وما يدريه ما كُلّه! قد ذهب قرآن كثير، ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر».

ورووا عن أبيّ بن كعب قال: «قال لي رسول الله ﷺ إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن فقرأ سورة: ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين**﴾، ومن بقيتها ـ وهذا غير موجود في المصحف ـ «لو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه، وإن سأل **ثانياً** فأعطيه، وإن سأل **ثالثاً**، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية ومن يعمل خيراً فلن يكفره».

وقال أبو عبيد: «وفي رواية عن أبي موسى الأشعري أنه قال: نزلت سورة نحو براءة ثُمّ رفعت وحفظ منها: إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً **ثالثاً** ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب».

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري «قال: كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات نسيناها، غير أني حفظت منها: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة». كما يروون عن عمر أنه قال: كنا نقرأ: «لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم».

وروي أن مسلمة بن مخلد الأنصاري قال ذات يوم: «أخبروني بآيتين في القرآن لم تكتبا في المصحف فلم يخبروه فقال، **الأولى**: «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المفلحون». **والثانية** «والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون».

وفي الصحيحين عن أنس أنّه «نزل قرآن في الذين قتلوا في موقعة بئر معونة، قرأناه حتّى رفع وفيه: «أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا».

وروى الطبري في تفسيره عن الحسن أنّه قال في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ قال: إن نبيّكم ﷺ أقرئ قرآناً ثُمّ نسيه فلا يكن شيئاً، ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرأونه. وفي لفظ آخر: «قال: إن نبيكم ﷺ، قرأ علينا قرآناً ثُمّ نسيه». وعن ابن عباس قال: كان مما ينزل على النبي ﷺ، الوحي بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.

هذا ويعلل بعض علماء الإسلام من أهل السنة ظاهرة سقوط آيات من القرآن بكونها داخلة في معنى النسخ. غير أن علماء آخرين أنكروا أن يكون ذلك من النسخ، وقالوا إن ما ذكر من الزيادة والنقصان في القرآن يرجع إلى خبر الآحاد، والقرآن لا يثبت بها وإنما يثبت بالتواتر.

٣ ـ ما ذكرته المصادر الشيعية

سنترك جانباً غلاة الشيعة، ليس فقط لأنهم قد تجاوزا حدود التحريف في القرآن فادعوا النبوة وتلقّي الوحي[٣٣]، بل لأن أئمة الشيعة الكبار قد تبرّأوا منهم، قديماً وحديثاً. سنقتصر إذاً على ما ورد في المصادر الشيعية الرسمية.

كان من جملة ما نسب إلى الشيعة أنهم صرحوا به، ادعاء بعضهم بوجود مصحف خاص بهم يسمى «مصحف فاطمة» بنت الرسول ﷺ. غير أن بعض المراجع الشيعية تنفي أن يكون هذا المصحف مصحف قرآن ويقولون إنه تفسير لبعض الأحكام «أملاه سيدنا رسول الله ﷺ على الإمام علي».

وفي المقابل تؤكد بعض المراجع الشيعية المعتبرة، كالسيد الحاج ميرزا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي المتوفى سنة ١٣٢٠هـ وهو من علماء النجف في كتاب له سماه **فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب ربّ الأرباب** أن القرآن ـ كما هو في المصحف الذي بين أيدينا ـ قد زيد فيه ونقص منه. وعندما أنكر عليه بعض علمائهم ذلك ردّ بكتاب آخر بعنوان **ردّ بعض الشبهات عن فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب ربَ الأرباب**. وقد أورد هذا العالم الشيعي، الذي

(٣٣) انظر تفاصيل في هذا الشأن في: محمد عابد الجابري، «ميثولوجيا الإمامة،» في: محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته**، نقد العقل العربي؛ ٣، ط ٥ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤).

بقي يحظى بالاعتبار عندهم، نصوصاً أثبتها في كتابه ذاك على أنها من جملة ما حذف من القرآن. من هذه النصوص سورة تحمل اسم «سورة الولاية» تقرر أن علي بن أبي طالب هو الولي بعد النبي محمد، وأنه الخليفة من بعده. ومما ورد في هذه «السورة» النصّ التالي: «يا أيها الذين آمنوا بالنبي والولي اللذين بعثناهما يهديانكم إلى الصراط المستقيم، نبي وولي بعضهما من بعض وأنا العليم الخبير. إن الذين يوفون بعهد الله لهم جنات النعيم، والذين إذا تليت عليهم آياتنا كانوا بآياتنا مكذبون إن لهم في جهنم مقاماً عظيماً، إذا نودي لهم يوم القيامة أين الظالمون المكذبون للمرسلين ما خلفتهم المرسلين إلا عني، ما كان الله ليظهرهم إلى أجل قريب وسبح بحمد ربك وعليّ من الشاهدين»(٣٤).

وإلى جانب هذا النوع من «التحريف» الذي يقول به بعض علماء الشيعة والذي يرقى إلى حذف سور بكاملها نزلت في علي بن أبي طالب لتؤكد أنّه الولي الوصي، وبالتالي الخليفة بعد النبي، هناك أنواع أخرى من «الحذف» يسجلها هؤلاء وتطال اسم علي. وقد ورد ذكرها في أصول الكافي للكليني، ومنزلته عند الشيعة منزلة البخاري عند أهل السنة. من ذلك ما روي عن الإمام الباقر من أن اسم علي بن أبي طالب حذف من الآية رقم ٢٣ من سورة البقرة: «وإن كنتم في ريبٍ مِمّا نزَّلنا على عبدنا [في عليّ] فأتُوا بسورة من مثله» (المحذوف: «في عليّ»)، كما حذف شطر من الآية ٧١ من سورة الأحزاب هكذا: «من يُطعِ اللهَ

(٣٤) ومن النصوص التي من هذا القبيل ما سمي بـ «سورة النورين» وقد ورد فيها: «يا أيها الذين آمنوا أمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم. نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم. إن الذين يوفون الله ورسوله في آيات لهم جنات نعيم. والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدهم الرسول عليه يقذفون في الجحيم. ظلموا أنفسهم وعصوا الوصي الرسول أولئك يسقون من حميم. إن الله الذي نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك في خلقه. يفعل الله ما يشاء لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فأخذهم بمكرهم إن أخذي شديد أليم. إن الله قد أهلك عاداً وثموداً بما كسبوا وجعلهم لكم تذكرة أفلا تتقون. وفرعون بما طغى على موسى وأخيه هارون أغرقته ومن تبعه أجمعين. ليكون لكم آيته وإن أكثركم فاسقون. إن الله يجمعهم في يوم الحشر فلا يستطيعون الجواب حين يسألون، إن الجحيم مأواهم وإن الله عليم حكيم. يا أيها الرسول بلغ إنذاري فسوف يعلمون. قد خسر الذين كانوا عن آياتي وحكمي معرضون. مثل الذين يوفون بعهدك إني جزيتهم جنات النعيم. إن الله لذو مغفرة وأجر عظيم وإن علياً من المتقين. وإنا لنوفيه حقه يوم الدين. وما نحن عن ظلمه بغافلين. وكرمناه على أهلك أجمعين. فإنه وذريته لصابرون وإن عدوهم إمام المجرمين. قل للذين كفروا بعدما آمنوا أطلبتم زينة الحياة الدنيا واستعجلتم بها ونسيتم ما وعدكم الله رسوله ونقضتم العهود من بعد توكيدها وقد ضربنا لكم الأمثال لعلكم تهتدون. يا أيها الرسول قد أنزلنا إليك آيات بينات فيها من يتوفاه مؤمناً ومن يتولاه من بعدك يظهرون. فأعرض عنهم إنهم معرضون. إنا لهم محضرون. في يوم لا يغني عنهم شيئاً ولا هم يرحمون. إن لهم في جهنم مقاماً عنه لا يعدلون. فسبح باسم ربك وكن من الساجدين. . .». نقلاً عن الموقع التالي: < http://arabic.islamicweb.com/shia/nurain.htm >.

ورَسُولَه [في ولاية عليّ والائمّة من بعده] فَقَد فَازَ فَوْزَاً عَظِيماً».

غير أن مراجع شيعية أخرى تنفي أن يكون المقصود من ذكر اسم «علي» في مثل هذه الروايات أنّه جزء من نصّ القرآن، وترى أن المقصود بذلك هو أن المعنى ينصرف إلى علي، وبالتالي فما ذُكر على أنّه محذوف هو قرآن على مستوى التأويل وليس على مستوى التنزيل. وقد قال الخوئي: «إنّ بعض التنزيل كان من قبيل التفسير للقرآن وليس من القرآن نفسه، فلا بدّ من حمل هذه الروايات على أنّ ذكر أسماء الائمّة في التنزيل من هذا القبيل».

خامساً: خلاصات...

وبعد فماذا يمكن استخلاصه من هذه الروايات السنية والشيعية بخصوص مسألة الزيادة والنقصان في القرآن؟

١ ـ ما ينسب إلى المصادر الشيعية: موقف سياسي

أما ما ينسب إلى المصادر الشيعية فأمره واضح. إنه ينحصر، أو يكاد، في كون ما «ورد في القرآن» من التنصيص على أن الخليفة بعد النبي ﷺ هو ابن عمه علي بن أبي طالب قد حُذف أو غُيّر زمن جمع القرآن. وهذا لا يمكن التثبت منه خارج المرويات والتأويلات الشيعية، الإسماعيلية منها والإمامية.

ومع أن المرويات السنية تشير إلى نوع من الاحتجاج، من طرف علي وفاطمة والعباس وبعض الهاشميين والمستضعفين، على اختيار أبي بكر خليفة للنبي (ﷺ) وإقصاء علي، فإن ما حدث مباشرة بعد الإعلان عن وفاة النبي من مبادرة الأنصار إلى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة منهم، ثُمّ التحاق أبي بكر وعمر وبعض كبار المهاجرين بهم، قبل الفراغ من دفن الرسول (ﷺ)، يدلّ على أن المنافسة والصراع حول خلافة النبي، قبل وفاته، كانت بين الأنصار والمهاجرين. وقد كشف هذا الصراع عن نفسه علانية في عدة مناسبات، ولولا تدخل الرسول ﷺ في كُلّ مرة لحدث الانفجار بين الفريقين[٣٥].

كما تشير الروايات السنية إلى أن عمر بن الخطاب أوصى إلى ستة من بعده يختارون واحداً منهم (علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمان بن عوف، وسعد بن أبي وقّاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله)، مستبعداً أقاربه

(٣٥) انظر التفاصيل في: محمد عابد الجابري، «من الدعوة إلى الدولة: القبيلة،» في: الجابري، **العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته**، الفقرة ٦.

مانعاً ابنه عبد الله من الترشح لها. وبعد نقاش استقر رأي «أصحاب الشورى» هؤلاء على واحد من اثنين: علي ابن أبي طالب، أو عثمان بن عفان. وبعد مشاورات مع كبار القوم في مكة رجحت كفة عثمان على كفة علي. كان الفصل لميزان القوى: للكبراء والأغنياء ورجال الدولة، والعصبية يومئذ في بني مروان وبني أمية. أما بنو هاشم ومن لفّ حول علي من المستضعفين من الصحابة وغيرهم فلم يكونوا يشكلون عصبية، أي قوة قبلية اجتماعية اقتصادية تستطيع أخذ السلطة السياسية بالقوة أو بالتوافق.

أضف إلى ذلك أن المصادر لم تذكر أنّه جرى احتجاج علي وبني هاشم بشيء من القرآن ينصّ صراحة على أن الخلافة بعد وفاة النبي لعلي. ولم يكن من التقاليد القبلية العربية توريث الزعامة[٣٦].

ومهما يكن الأمر، فجلّ علماء الشيعة المعاصرين يقولون إن القرآن كما هو الآن في المصاحف هو القرآن الذي نزل على محمد بن عبد الله، وأنه لا قرآن غيره. والواقع أن ما أوردته بعض المصادر الشيعية من النصوص، التي قالوا عنها إنها حُذفت من القرآن، هي نصوص لا ترقى إلى مستوى أسلوب القرآن، ثُمّ إنها تتحدث عن أشياء لم تقع زمن النبوة وكأنها حدثت في عهدها، كالوصاية والخلافة وما يتصل بهما. إن الأمر يتعلق بمسائل سياسية، والقرآن لم يخض في مثل هذه المسائل قط.

٢ ـ ما ذكرته المصادر السنية: فيه إشكال

أما ذكرته المصادر السنية حول ما سقط من القرآن فيطرح عدة إشكالات. فإذا تجاوزنا ما قيل بصدد آية أو بضع آيات، مما سبق ذكره، باعتبار أن ذلك من الأمور المقبولة في كُلّ عملية جمع تتم في ظروف مماثلة، فإن الذي يلفت الانتباه أمران اثنان:

أولهما: كون ما ذكر أنّه «محذوف» ينتمي إلى القرآن المدني وحده، ولم يذكر قط أن «الحذف» طال شيئاً ينتمي إلى القرآن المكي. هذا مع العلم أن إمكانية «سقوط آيات أو سور» كانت أكثر احتمالاً في القرآن المكي منها في المدني، نظراً للظروف القاسية التي عاناها الرسول والمسلمون في مكة قبل الهجرة، ونظراً أيضاً لأن الانتقال بالقرآن المكي إلى المدينة بعد الهجرة، وقبل فتح مكة، كان يتم في ظروف بالغة الصعوبة.

ثانيهما: كون «الحذف» في القرآن المدني لحق بسورتين فقط هما سورة

---

(٣٦) محمد عابد الجابري، «من الدعوة إلى الدولة: الغنيمة،» في: نفس المرجع، الفقرة ٢.

الأحزاب وسورة التوبة (براءة). الأولى نزلت حوالى السنة الخامسة للهجرة والثانية في التاسعة.

ـ أما سورة الأحزاب فتقول عنها الروايات إنها كانت تشتمل على نحو مئتي آية لم يبق منها سوى ٧٣ آية، وهذه الآيات تتوزع (كما هي في المصحف). إلى أربع مجموعات:

١) مقدمة من ثلاث آيات (١ ـ ٣) تطلب من النبي أن يتبع ما يوحى إليه.

٢) خمس آيات (٤ ـ ٨) تبطل التبني، تأمر نسبة زيد مولى النبي إلى أبيه (حارثة) بدل نسبته إلى النبي .

٣) تسع عشرة آية (٩ ـ ٢٧) تتحدث عن غزوة الخندق وما لقي المسلمون فيها من متاعب: خذلان المنافقين، اليهود، الأعراب. . . إلخ.

٤) اثنتان وأربعون آية (٢٨ ـ ٦٩) خاصة بنساء النبي وعلاقاته الزوجية (ﷺ).

وخاتمة من أربع آيات في موضوع «الأمانة» (**﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾**.

ـ وأما سورة براءة فتقول الروايات إنها كانت تعدل سورة البقرة أي نحو ٢٨٦ آية وأنه لم يبق منها إلا نحو ربعها ١٢٩ تتوزع كما يأتي من دون بسملة ولا مقدمة:

١) خمس عشرة آية (١ ـ ١٥) تعلن فسخ المعاهدات مع المشركين.

٢) تسع آيات (١٦ ـ ٢٤) فيها تمجيد للذين هاجروا وجاهدوا، وإعلان القطيعة مع الآباء والأبناء. الذين بقوا على الشرك.

٣) أربع آيات في التذكير بغزوة حنين (٢٥ ـ ٢٨): لوم وعتاب وتنويه بالمؤمنين الصادقين.

٤) تسع آيات (٢٩ ـ ٣٧) في إعلان القطيعة مع أهل الكتاب: الإسلام أو الجزية.

٥) تسعون آية تفضح مواقف المتخاذلين والمترددين والمنافقين والأعراب من الاستجابة للتجنيد من أجل غزوة تبوك. ولذلك وصفت هذه السورة بأوصاف ذكر منها الزمخشري: «براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافزة، المثكلة، المدمدمة، سورة العذاب» ويروي الزمخشري عن حذيفة أنّه قال بصدد هذه السورة «إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هي سورة العذاب. والله ما تركت أحداً إلا نالت منه».

وخاتمة من آيتين: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾[٣٧]، وواضح أن ما تشترك فيه السورتان هو ما ورد فيهما من لوم وعتاب للمسلمين بسبب مواقف الذين منهم لم يظهروا ما يكفي من صدق الاستجابة والاستعداد والصبر أثناء غزوة الخندق وغزوة حنين وتجهيز جيش غزوة تبوك. لقد اشتملت السورتان على «نقد داخلي» ومراجعة وحساب و«كشف عورات» ـ خاصة سورة براءة ـ مما لم يردّ مثله في أية سورة أخرى[٣٨]. ولا نعتقد أن ما سقط منهما من الآيات ـ إذا كان هناك سقوط بالفعل ـ يتعلق بهذا الموضوع لأن ما احتفظت به السورتان كان عنيفاً وقاسياً إلى درجة يصعب معها ـ بالنظر إلى أسلوب القرآن في العتاب ـ تصور ما هو أبعد من ذلك. أما الموضوعات الأخرى فقد ورد ما هو من جنسها في سور أخرى.

وكُلّ ما يمكن قوله ـ على سبيل التخمين لا غير ـ هو أن يكون الجزء الساقط من سورة براءة هو القسم الأول منها، وربما كان يتعلق بذكر المعاهدات التي كانت قد أبرمت مع المشركين. ذلك أن سور القرآن، بخاصة الطوال منها، تحتوي عادة على مقدمات تختلف طولاً وقصراً، مع استطرادات، قبل الانتقال إلى الموضوع أو الموضوعات التي تشكل قوام السورة.

أما سورة الأحزاب فيبدو أن ما سقط منها مبالغ فيه. وحجتنا على ذلك هو أن عمر بن الخطاب وغيره قد ذكروا آية واحدة كانت فيها وسقطت وهي آية الشيخ والشيخة: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم». والسؤال الذي يفرض هنا نفسه هو التالي: لماذا وقع تذكر هذه الآية وحدها من دون الباقي المفترض فيه أنّه محذوف منها؟ ومما يشكك في كون ما حذف من سورة الأحزاب كان أكثر من آية الشيخ والشيخة ما نسب إلى عائشة زوج النبي من أنها قالت: إن هذه السورة كانت مكتوبة في صحيفة في بيتها «فأكلتها الداجن، أي الشاة». ونحن نَميل مع ابن عاشور في اعتراضه على هذا بقوله: «ووضع هذا الخبر ظاهر مكشوف فإنه لو صدق هذا لكانت هذه الصحيفة قد هلكت في زمن النبي ﷺ أو بعده والصحابة متوافرون وحفاظ القرآن كثيرون فلو تَلِفت هذه الصحيفة لم يتلف ما فيها من صدور الحفاظ». وحتى إذا استبعدنا فكرة «الوضع» فإنه من الجائز أن يكون ما اعتبر محذوفاً من سورة الأحزاب هو نفسه ما ورد في سور أخرى، كما ذهب إلى ذلك

---

(٣٧) **القرآن الكريم**، «سورة التوبة،» الآية ١٢٨. انظر تحليلنا لهذه السورة في: الجابري، نفس المرجع، الفقرة ٢ ـ د، ص ١٢٧.

(٣٨) ذكر القرطبي: «قال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس رضي الله عنه عن سورة براءة فقال: تلك الفاضحة ما زال ينزل: ومنهم ومنهم حتى خفنا ألا تدع أحداً».

ابن عاشور حيثُ قال: «وأنا أقول: إن صحّ عن أُبيّ ما نُسب إليه ـ حول سورة الأحزاب ـ فما هو إلا أن شيئاً كثيراً من القرآن كان أُبيّ يُلْحقه بسورة الأحزاب وهو من سور أخرى من القرآن، مثل كثير من سورة النساء الشبيه ببعض ما في سورة الأحزاب أغراضاً ولهجة مما فيه ذكر المنافقين واليهود، فإن أصحاب رسول الله لم يكونوا على طريقة واحدة في ترتيب آي القرآن، كما ولا في عدد وتقسيم سوره».

* * *

وخلاصة الأمر أنّه ليس ثمة أدلة قاطعة على حدوث زيادة أو نقصان في القرآن كما هو في المصحف بين أيدي الناس، منذُ جمعه زمن عثمان. أما قبل ذلك فالقرآن كان مفرقاً في «صحف» وفي صدور الصحابة. ومن المؤكد أن ما كان يتوفر عليه هذا الصحابي أو ذاك من القرآن ـ مكتوباً أو محفوظاً ـ كان يختلف عما كان عند غيره، كماً وترتيباً. ومن الجائز أن تحدث أخطاء حين جمعه، زمن عثمان أو قبل ذلك، فالذين تولوا هذه المهمة لم يكونوا معصومين، وقد وقع تدارك بعض النقص كما ذُكر في مصادرنا.

وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**(٣٩)، فالقرآن نفسه ينصّ على إمكانية النسيان والتبديل والحذف والنسخ. قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: **﴿سنقرئك فلا تنسى. إلا ما شاء الله﴾**(٤٠)، وقال: **﴿والله أعلم بما ينزّل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾**(٤١)، وقال: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**(٤٢)، وقال: **﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾**، وقال: **﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ. يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾**(٤٣).

ومع أن لنا رأياً خاصاً في معنى «الآية» في بعض هذه الآيات، فإن جملتها تؤكد حصول التغير في القرآن وإن ذلك حدث بعلم الله ومشيئته.

---

(٣٩) **القرآن الكريم،** «سورة الحجر،» الآية ٩.
(٤٠) نفس المرجع، «سورة الأعلى،» الآيتان ٦ ـ ٧.
(٤١) نفس المرجع، «سورة النحل،» الآية ١٠١.
(٤٢) نفس المرجع، «سورة الحج،» الآية ٥٢.
(٤٣) نفس المرجع، «سورة الرعد،» الآيتان ٣٨ ـ ٣٩.

الفصل العاشر

ترتيب المصحف وترتيب النزول

أولاً: ترتيب المصحف

١ ـ معيار الطول والقصر

تحدثنا في الفصل السابق عن القرآن منذ ابتداء نزوله إلى أن تم جمعه في مصحف واحد، زمن عثمان، وهو المصحف الذي بين أيدينا اليوم[١]. والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: كيف تم ترتيب السور في هذا المصحف وعلى أي أساس؟

الأمر الوحيد الذي يمكن تقريره بيقين تام هو أن الترتيب الذي عليه قرآن المصحف اليوم هو نفسه الترتيب الذي أقرته اللجنة التي كلفها عثمان بجمع القرآن. أمّا ما هي المعايير التي اعتمدتها تلك اللجنة في ترتيب السور فذلك أمر لا نملك عنه سوى بعض المؤشرات، وأهمها ما يمكن استخلاصه من دراسة هذا الترتيب نفسه، وهو أن سور القرآن في المصحف مرتبة في الأغلب الأعم حسب تدرجها من الطوال إلى القصار. وهذا الترتيب من الأطول إلى الأقصر هو المنحنى العام، بمعنى أن هناك استثناءات. وإذا كان من الممكن إخراج سورة الفاتحة من إطار الترتيب بوصفها «فاتحة

---

(١) قيل إن سبب تسميته بـ «المصحف» أن «أبا بكر رضي الله عنه لما أمر بجمع القرآن وكتابته كتبوه على الورق فقال للصحابة: التمسوا اسماً، فقال بعضهم سموه إنجيلاً فكرهوا ذلك من أجل النصارى، وقال بعضهم سموه السفر فكرهوه من أجل أن اليهود يسمون التوراة السفر. فقال عبد الله بن مسعود: رأيت بالحبشة كتاباً يدعونه المصحف فسموه مصحفاً، يعني أنه رأى كتاباً غير الإنجيل». وعنه أيضاً: «أن الصحابة لم يثبتوا في المصحف أسماء السور بل اكتفوا بإثبات البسملة في مبدإ كل سورة علامة على الفصل بين السورتين». انظر: محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٤٠ و٥٠ على التوالي.

الكتاب» كله[٢] لتكون البداية من «البقرة» باعتبارها أول سورة نزلت في المدينة[٣]، فإن هناك سوراً أخرى تقدمت غيرها أو تأخرت عنها من دون اعتبار للطول والقصر.

ومع ذلك فإن لدينا من الروايات ما يفيد أن معيار «الطول والقصر» كان متداولاً زمن عثمان بين الصحابة. من ذلك ما ترويه بعض كتب الحديث[٤] عن ابن عباس من أنه قال: «قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى (سورة) «الأنفال» وهي من المثاني، وإلى (سورة) «براءة» وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرحمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾، ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان رضي الله عنه: «كان رسول الله تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه شيء دعا بعض من يكتب فيقول: ضعوا هذه الآياتِ في السورةِ التي يذكرُ فيها كذا وكذا». وكانت الأنفال في أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً. وكانت قصتها شبيهة بقصتها. فظننت أنها منها. فقُبِضَ رسولُ الله ولم يبيّن لنا أنّها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرحيم**﴾ ووضعتهما في السبع الطوال»[٥].

واضح من هذه الرواية ـ وهناك أخرى مشابهة ـ أن معيار تصنيف سور القرآن في المصحف حسب الطول والقصر كان متداولاً زمن عثمان نفسه، وأن مسألة مقياس التصنيف كان مطروحاً وأن عثمان ربما كان قد أمر بالأخذ به. ومهما يكن فقد طبق هذا المقياس في مصحف عثمان فرتبت فيه سور القرآن جملة، حسب هذا المقياس، تحت الأصناف التالية[٦]:

١ ـ **السور الطوال وهي**: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأعراف،

---

(٢) هناك أحاديث تروى في شأن الفاتحة: منها ما يصفها بأنها «أم الكتاب» (لأنه يبتدئ بكتابتها في المصاحف ويبدأ بقراءتها في الصلاة)، أو أنها «المثاني» (لأنه تثنى في كل ركعة: تقرأ مرتين)، مع اختلاف كبير بين المفسرين في هذا الشأن: من ذلك اختلافهم هل هي مكية أم مدنية؟ وهناك من قال إن نصفها مكي والنصف الآخر مدني. ومنهم من يرى أنها ليست جزءاً من القرآن، مستندين في ذلك إلى كون عبد الله بن مسعود لم يثبتها في مصحفه، كما لم يثبت المعوّذتين (الفلق، والناس) اعتقاداً منه أنهما دعاء تعوذ به النبي، حين سحرته اليهود، وليستا من القرآن». ولم ترد سورة الفاتحة كذلك في مصحف أبي بن كعب وهو من كبار كتاب الوحي. راجع ترتيب مصحف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب في: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**.

(٣) هناك من يقول إن أول ما نزل بالمدينة هي سورة المطففين.

(٤) الترمذي والنسائي وابن حنبل وابن حبان والحاكم. . . عن ابن عباس

(٥) غني عن البيان القول إن السورتين مفصولتان في المصحف، وإن سورة براءة دونت من دون بسملة، وتسمى أيضاً سورة التوبة.

(٦) هذا مع خلافات بين أصحاب المذاهب الفقهية في تحديد بداية كل صنف.

الأنعام، التوبة (= براءة) (بعضهم لا يذكر التوبة هنا باعتبار أنها كانت تعتبر هي والأنفال سورة واحدة).

٢ ـ المئون: وهي التي تلي الطوال في طولها وتزيد آياتها عن مائة آية وهي: سورةُ الأنفال وبراءة، (باعتبارهما سورةٌ واحدة كما ذكرنا) ثم يونس، وهود، ويوسف، والنحل، والإسراء، والكهف، وطه، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء. (وبعضهم يضيف سورة السجدة).

٣ ـ المثاني: وتبدأ من سورة الشعراء إلى ما قبل سورة «ق». وقيل سميت بالمَثاني لأن القصص فيها تتكرر.

٤ ـ المفصل: ويبدأ من سورة «ق» إلى سورة الناس. قيل سميت بالمفصل لقصرها والفصل بينها بالبسملة ﴿**بسم الله الرحمٰن الرحيم**﴾.

وهناك حديث نبوي ذكره السيوطي في «الإتقان» يفهم منه أن هذا الترتيب كان معروفاً ومعمولاً به قبل وفاته ﷺ. يقول هذا الحديث: «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفصلت بالمفصل».

٢ ـ المكي والمدني

ومن التصنيفات الأولى التي ترجع إلى زمن النبي ﷺ تصنيف القرآن إلى قرآن مكي أي نزل بمكة قبل الهجرة، وقرآن مدني نزل بعد الهجرة في المدينة. هذا مع وجود كثير من الآيات في القرآن المكي ينسبها المفسرون والمهتمون بعلوم القرآن إلى ما نزل بالمدينة، مع خلافات بينهم، والعكس صحيح أيضاً ولكنه أقل. والتمييز بين السور المكية والسور المدنية موضوع اختلاف كبير بين الرواة والمفسرين. وقد حاول السيوطي في «الإتقان» حصر السور المختلف فيها، نورد ما ذكره ملخصاً:

١) **سورة الفاتحة**: الأكثرون على أنها مكية، وقال بعضهم إنها أنزلت مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة، بينما ذكر آخرون أن نصفها نزل بمكة والنصف الآخر بالمدينة.

٢) **سورة النساء**: قال بعضهم إنها مكية والمشهور أنها مدنية.

٣) **سورة يونس**: المشهور أنها مكية، وقيل إنها مدنية.

٤) **سورة الرعد**: قال بعضهم إنها مكية وقال آخرون إنها مدنية.

٥) **سورة الحج**: مكية في قول بعضهم ومدنية في قول آخرين.

٦) **سورة الفرقان**: الجمهور على أنها مكية. وقيل إنها مدنية.

٧) **سورة يس**: حكي أنها مدنية، والمشهور أنها مكية.

٨) **سورة «ص»**: المشهور أنها مكية وقيل إنها مدنية.

٩) **سورة محمد**: حكى النسفي «قولاً غريباً» أنها مكية.

١٠) **سورة الحجرات**: حكي قول شاذ أنها مكية.

١١) **سورة الرحمن**: الجمهور على أنها مكية وأنها نزلت قبل سورة الحِجر. وقيل «قرأها ابن مسعود أول ما قُرئ القرآن في الكعبة تحدياً لقريش». ومع ذلك فهي مصنفة في المصحف مع القرآن المدني كما وردت في لوائح ترتيب النزول على أنها مدنية.

١٢) **سورة الحديد**: الجمهور على أنها مدنية. وقال قوم إنها مكية.

١٣) **سورة الصف**: الرأي الغالب أنها مدنية.

١٤) **سورة الجمعة**: المرجح أنها مدنية.

١٥) **سورة التغابن**: قيل مدنية وقيل مكية إلا آخرها.

١٦) **سورة المُلك**: فيها قول غريب أنها مدنية.

١٧) **سورة الإنسان**: قيل مدنية وقيل مكية إلا آية واحدة.

١٨) **سورة المطففين**: قيل إنها مكية وقيل مدنية. وقال قوم: نزلت بين مكة والمدينة.

١٩) **سورة الفجر**: فيها قولان.

٢٠) **سورة البلد**: فيها أيضاً قولان.

٢١) **سورة الليل**: الأشهر أنها مكية. وقيل مدنية. وقيل فيها مكي ومدني.

٢٢) **سورة القدر**: فيها قولان والأكثر أنها مكية.

٢٣) **سورة الزلزلة**: فيها قولان.

٢٤) **سورة والعاديات**: فيها قولان.

٢٥) **سورة التكاثر**: الأشهر أنها مكية.

٢٦) **سورة الماعون**: فيها قولان.

٢٧) **سورة الكوثر**: المرجح أنها مدنية.

٢٨) سورة الإخلاص: فيها قولان، وقول ثالث قال بتكرار نزولها في المدينتين.

٢٩) سورة الفلق: المشهور أنها مدنية.

٣٠) سورة الناس: كذلك، المشهور أنها مدنية.

والنتيجة ٣٠ سورة مختلف فيها من أصل ١١٤ هي مجموع سور القرآن.

والملاحظ أن الاختلاف لا يلحق بالسور المكية وحدها ـ الأمر الذي يمكن تبريره بوضعية المسلمين في مكة ـ بل لحق الاختلاف بالسور المدنية أيضاً، حين كان الإسلام قد تطور إلى دولة، كما اختلفوا في التمييز بين المكي والمدني وقد ذكر بعضهم أن «المدني باتفاق، عشرون سورة والمختلف فيها اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك فهو مكي باتفاق»(٧).

وهذا الاختلاف الكبير راجع إلى أن التمييز بين المكي والمدني من السور لم يقع الاهتمام به إلا في المائة الثانية للهجرة، في «عصر التدوين». والذين اهتموا به في ذلك العصر كان مستندهم في الأعم الأغلب جملة وقائع أو أمارات جزئية متعارضة لا تسمح باستنتاج يتعدى مجرد الظن والتخمين. نعم لقد ذكر المؤلفون في علوم القرآن ـ قدماء ومحدثون ـ معايير عامة للتمييز بين القرآن المكي والمدني، فقالوا إن القرآن المكي يتميز بكون موضوعاته تدور حول أمور العقيدة والآخرة ومُجَادَلَة المشركين وقَصَص الأنبِياء، وكون عبارته تتميز بقِصر الفواصل وَقوَّة الألفاظِ وَالإيجاز

---

(٧) هذا والترتيب المعمول به في المصحف هو كما يلي: ١) الفاتحة. ٢) البقرة. ٣) آل عمران. ٤) النساء. ٥) المائدة. ٦) الأنعام. ٧) الأعراف. ٨) الأنفال. ٩) التوبة. ١٠) يونس. ١١) هود. ١٢) يوسف. ١٣) الرعد. ١٤) إبراهيم. ١٥) الحِجر. ١٦) النحل. ١٧) الإسراء. ١٨) الكهف. ١٩) مريم. ٢٠) طه. ٢١) الأنبياء. ٢٢) الحج. ٢٣) المؤمنون. ٢٤) النور. ٢٥) الفرقان. ٢٦) الشعراء. ٢٧) النمل. ٢٨) القصص. ٢٩) العنكبوت. ٣٠) الروم. ٣١) لقمان. ٣٢) السجدة. ٣٣) الأحزاب. ٣٤) سبأ. ٣٥) فاطر. ٣٦) يس. ٣٧) الصافات. ٣٨) ص. ٣٩) الزُمَر. ٤٠) غافر. ٤١) فصلت. ٤٢) الشورى. ٤٣) الزخرف. ٤٤) الدخان. ٤٥) الجاثية. ٤٦) الأحقاف. ٤٧) محمد. ٤٨) الفتح. ٤٩) الحجرات. ٥٠) ق. ٥١) الذاريات. ٥٢) الطور. ٥٣) النجم. ٥٤) القمر. ٥٥) الرحمن. ٥٦) الواقعة. ٥٧) الحديد. ٥٨) المجادلة. ٥٩) الحشر. ٦٠) الممتحنة. ٦١) الصف. ٦٢) الجمعة. ٦٣) المنافقون. ٦٤) التغابن. ٦٥) الطلاق. ٦٦) التحريم. ٦٧) الملك. ٦٨) القلم. ٦٩) الحاقة. ٧٠) المعارج. ٧١) نوح. ٧٢) الجن. ٧٣) المزمل. ٧٤) المدثر. ٧٥) القيامة. ٧٦) الإنسان. ٧٧) المرسلات. ٧٨) النبأ. ٧٩) النازعات. ٨٠) عبس. ٨١) التكوير. ٨٢) الانفطار. ٨٣) المطففين. ٨٤) الانشقاق. ٨٥) البروج. ٨٦) الطارق. ٨٧) الأعلى. ٨٨) الغاشية. ٨٩) الفجر. ٩٠) البلد. ٩١) الشمس. ٩٢) الليل. ٩٣) الضحى. ٩٤) الشرح. ٩٥) التين. ٩٦) العلق. ٩٧) القدر. ٩٨) البينة. ٩٩) الزلزلة. ١٠٠) العاديات. ١٠١) القارعة. ١٠٢) التكاثر. ١٠٣) العصر. ١٠٤) الهُمَزة. ١٠٥) الفيل. ١٠٦) قريش. ١٠٧) الماعون. ١٠٨) الكوثر. ١٠٩) الكافرون. ١١٠) النصر. ١١١) المسد. ١١٢) الإخلاص. ١١٣) الفلق. ١١٤) الناس.

واستعمال عبارة «يأيهَا الناس» . . . بينما يتميز القرآن المدني بكونه يدور حول موضوعات أخرى خاصة، منها العبادات والمعاملات ومجادلة اليهود والنصارى والمنافقين، وباستعماله مقاطع طويلة وانفراده بعبارة «يأيها الذين آمنوا» . . . إلخ.

٣ ـ أول وآخر ما نزل!

وكما اختلفوا في تعيين السور المكية من المدنية اختلفوا كذلك في تعيين أول سورة نزلت بمكة وآخر سورة نزلت بالمدينة. بالنسبة إلى الأولى هناك روايات متعددة مختلفة، بعضهم يقول إن أول سورة نزلت هي سورة «العلق» (﴿**اقرأ باسم ربك**﴾[٨]: الآيات الخمس الأولى، وهذا هو الأشهر)، وبعضهم يقول إنها سورة «المدّثر» (الآيات السبع أو العشر الأولى؟). هذا بينما ذهب آخرون إلى أن أول ما نزل «فاتحة الكتاب»، وقال آخرون إنها البسملة. . . واختلفوا حول آخر سورة نزلت بمكة، فقال بعضهم إنها سورة «المؤمنون»، وقال آخرون إنها سورة «العنكبوت». كما اختلفوا حول أول ما نزل بالمدينة، فقال بعضهم سورة «المطففين» وقال آخرون سورة «القَدْر»، بينما قال أكثرهم: أول ما نزل بالمدينة سورة «البقرة». أما عن آخر ما نزل من القرآن فقد قال بعضهم إنها سورة «المائدة» وقال آخرون إنها سورة «النصر» (إذا جاء نصر الله والفتح) بينما ذهب كثيرون إلى أنها سورة «التوبة» (براءة). أما عن آخر آية نزلت فقد قال بعضهم إنها آخر سورة التوبة، ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾[٩]. بينما ذهب آخرون إلى أن آخر ما نزل هو قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾[١٠]. قال بعضهم «وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال»، بينما ذهب آخرون إلى أن بينها وبين وفاة النبي واحد وثمانون يوماً. أما أول سورة أعلنها النبي (ﷺ) في مكة والتي بها بدأت المرحلة الجهرية من الدعوة فهي، بشبه اتفاق، سورة «النجم».

لعل القارئ يتساءل: إذا كان مثل هذا الاختلاف ـ الذي اختصرناه هنا ـ قد حدث في تحديد آخر ما نزل من القرآن (سورة وآية) والنبي حيّ يرزق، وكُتّاب الوحي كثيرون، وحفظة القرآن أكثر من أن يحصوا، فكيف بما نزل قبل ذلك؟ لقد انتبه بعض الذين اهتموا بهذا الموضوع إلى هذا المشكل فالتمسوا له جواباً يراوح بين

---

(٨) **القرآن الكريم**، «سورة العلق،» الآية ١.

(٩) نفس المرجع، «سورة التوبة،» الآيتان ١٢٨ ـ ١٢٩.

(١٠) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٢٨١.

الشك والتبرير. قال بعضهم: «يجمع بين هذه الاختلافات، إن صحت، بأن كل واحد (من القائلين بها)، أجاب بما عنده». وقال آخر: «هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ، وكلٌ قاله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن». وأضاف السيوطي مبرراً ذلك الاختلاف: «ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو، ويحتمل أيضاً أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسمها فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب».

وإذا كان من الممكن أخذ هذا التبرير بعين الاعتبار عندما يتعلق الأمر بآخر ما نزل، فمن الصعب تماماً إضفاء مقدار كاف من الصدقية والصحة على اللوائح التي تمدنا بجميع سور القرآن مرتبةً حسب النزول. خصوصاً وقد رأينا كم كان الاختلاف بينهم كبيراً حول تمييز السور المكية من المدنية[١١].

ثانياً: ترتيب النزول...

١ ـ لوائح متشابهة

ومع ذلك، فإن هذه الاختلافات التي تطال تعيين أول ما نزل وآخر ما نزل، وتمييز ما نزل بمكة قبل الهجرة وما نزل بالمدينة، وهي الحدود الضرورية لأي ترتيب شامل لسور القرآن حسب النزول، لم تثن المهتمين بالموضوع من الرواة الأوائل عن اقتراح لوائح شاملة لجميع سور القرآن، مرتبة حسب «ترتيب النزول»، منقولة عن هذا المرجع أو ذاك، ممن يعتبرون من «الثقات». وإذا نحن اقتصرنا على اعتماد ما ذكره السيوطي في هذا المجال ـ وقد حاول في كتابه **الإتقان في علوم القرآن** تتبع الروايات الخاصة بهذا الموضوع واستقصاءها ـ وجدنا أنفسنا إزاء عدد من اللوائح تقدم القرآن مرتباً حسب ترتيب النزول: منها لائحة ترتيب منسوب إلى جابر بن زيد، وأخرى من ترتيب البيهقي عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن، وثالثة منسوبة إلى ابن عباس، ورابعة من اختيار السيوطي نفسه مما عرضه من لوائح وروايات[١٢]. وهذه

(١١) يجب أن نضيف إلى هذا صعوبة أخرى تخص ما ارتآه ابن عاشور من إمكانية تداخل السور حين النزول، وذلك بأن تكون عدة سور متزامنة النزول. يقول: «فليس معنى قولهم: نزلت سورة كذا بعد سورة كذا، مراداً منه أنّ المعدودة نازلة بعد أخرى أنّها ابتدأ نزولها بعد انتهاء الأخرى، بل المراد أنّها ابتدأ نزولها بعد ابتداءِ نزول التي سبقتها». وهكذا تكون عدة سور مفتوحة للنزول في وقت واحد. راجع: بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، أول سورة آل عمران.

(١٢) يمكن أن نضيف لائحة الزركشي في كتابه **البرهان في علوم القرآن**، وترتيب كتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي... الخ.

اللوائح لا يختلف بعضها عن بعض، ولا عن اللائحة المعتمدة اليوم لدى الأزهر وغيره[(١٣)]، إلا في تقديم أو تأخير بعض السور بالنسبة إلى التي تليها مباشرة أو بفارق سورة أو سورتين، بحيث يمكن القول إن الأمر يتعلق في واقع الأمر بترتيب واحد[(١٤)]، باعتبار أن الأخذ بواحدة من هذه اللوائح من دون غيرها لا ينتج منه أي شيء ذي بال على مستوى ما يمكن أن يستنتجه الباحث بخصوص «المسار التكويني» للقرآن. أما مصحف عبد الله بن مسعود ومصحف أبي بن كعب فلهما وضع خاص. ومع ذلك فترتيب السور في كل منهما لا يختلف كثيراً عن ترتيب المصحف العثماني.

٢ ـ ترتيب المستشرقين

اهتم المستشرقون بترتيب سور القرآن حسب النزول، منذ منتصف القرن التاسع عشر بكيفية خاصة، وكان هدفهم في هذا المجال بناء تصور «موضوعي» لتطور الوحي المحمدي والتعرف على الجانب الروحي من السيرة النبوية. وقد عدلوا عن اعتماد لوائح «ترتيب النزول» التي وضعها الرواة المسلمون، لما يكتنفها من اختلاف يطال جميع السور تقريباً كما رأينا. وكان المستشرق الألماني نولدكه (Noldekee) (١٨٣٦ـ١٩٣٠) أشهر من اشتغل في هذا الموضوع. لقد استفاد من أعمال سابقيه وكتب عام ١٨٦٠ دراسة عن القرآن اقترح فيها «معايير موضوعية» لترتيب سور القرآن الكريم حسب النزول معتمداً على معطيين يخصان تطور

---

(١٣) ترتيب النزول المعتمد اليوم في الأزهر وغيره كما يلي: ١) العلق. ٢) القلم. ٣) المزمل. ٤) المدثر. ٥) الفاتحة. ٦) المسد. ٧) التكوير. ٨) الأعلى. ٩) الليل. ١٠) الفجر. ١١) الضحى. ١٢) الشرح. ١٣) العصر. ١٤) العاديات. ١٥) الكوثر. ١٦) التكاثر. ١٧) الماعون. ١٨) الكافرون. ١٩) الفيل. ٢٠) الفلق. ٢١) الناس. ٢٢) الإخلاص. ٢٣) النجم. ٢٤) عبس. ٢٥) القدر. ٢٦) الشمس. ٢٧) البروج. ٢٨) التين. ٢٩) قريش. ٣٠) القارعة. ٣١) القيامة. ٣٢) الهُمَزة. ٣٣) المرسلات. ٣٤) ق. ٣٥) البلد. ٣٦) الطارق. ٣٧) القمر. ٣٨) ص. ٣٩) الأعراف. ٤٠) الجن. ٤١) يس. ٤٢) الفرقان. ٤٣) فاطر. ٤٤) مريم. ٤٥) طه. ٤٦) الواقعة. ٤٧) الشعراء. ٤٨) النمل. ٤٩) القصص. ٥٠) الإسراء. ٥١) يونس. ٥٢) هود. ٥٣) يوسف. ٥٤) الحِجر. ٥٥) "الأنعام. ٥٦) الصافات. ٥٧) لقمان. ٥٨) سبأ. ٥٩) الزمر. ٦٠) غافر. ٦١) فصلت. ٦٢) الشورى. ٦٣) الزخرف. ٦٤) الدخان. ٦٥) الجاثية. ٦٦) الأحقاف. ٦٧) الذاريات. ٦٨) الغاشية. ٦٩) الكهف. ٧٠) النحل. ٧١) نوح. ٧٢) إبراهيم. ٧٣) الأنبياء. ٧٤) المؤمنون. ٧٥) السجدة. ٧٦) الطور. ٧٧) الملك. ٧٨) الحاقة. ٧٩) المعارج. ٨٠) النبأ. ٨١) النازعات. ٨٢) الانفطار. ٨٣) الانشقاق. ٨٤) الروم. ٨٥) العنكبوت. ٨٦) المطففين. ٨٧) البقرة. ٨٨) الأنفال. ٨٩) آل عمران. ٩٠) الأحزاب. ٩١) الممتحنة. ٩٢) النساء. ٩٣) الزلزلة. ٩٤) الحديد. ٩٥) محمد. ٩٦) الرعد. ٩٧) الرحمن. ٩٨) الإنسان. ٩٩) الطلاق. ١٠٠) البينة. ١٠١) الحشر. ١٠٢) النور. ١٠٣) الحج. ١٠٤) المنافقون. ١٠٥) المجادلة. ١٠٦) الحجرات. ١٠٧) التحريم. ١٠٨) التغابن. ١٠٩) الصف. ١١٠) الجمعة. ١١١) الفتح. ١١٢) المائدة. ١١٣) التوبة. ١١٤) النصر.

(١٤) غالب الظن أنها ترجع كلها إلى ما روي عن ابن عباس.

الخطاب القرآني منذ ابتداء الوحي إلى وفاة الرسول، وهما:

أ ـ الإشارات التي تحيل في القرآن إلى وقائع تاريخية. وإذا كانت السور المكية ـ حسب رأيه ـ لا تقدم لنا في هذا المجال سوى ما يسمح بالتمييز في المرحلة المكية بين ثلاث حقب، فإن السور المدنية تحتوي على كثير من الآيات تشير إلى حوادث وقعت قبيل نزولها.

ب ـ خصائص النص القرآني، وبالخصوص منها الفرق الواضح بين السور المكية والسور المدنية، سواء على مستوى الأسلوب أو مستوى الموضوعات.

على أساس هذين «المعيارين» وضع نولدكه ترتيباً للقرآن حسب النزول. وقد تبناه المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير في الطبعة الأولى من ترجمته لمعاني القرآن[١٥]، مع تعديلات طفيفة.

وهذا الترتيب[١٦] يقوم على التمييز بين ثلاث مراحل في القرآن المكي

---

(١٥) صدرت الطبعة الأولى من ترجمة بلاشير للقرآن في ثلاثة أجزاء: الأول بعنوان **مدخل إلى القرآن** عام ١٩٤٧ وصدر الثاني والثالث بعنوان **ترجمة القرآن** بالتوالي عامي ١٩٤٩ و١٩٥٠. انظر: Régis Blachère, *Le Coran, traduction selon un essai de reclassement des sourates*, islam d'hier et d'aujourd'hui; 3-5, 3 vols. (Paris: G. P. Maisonneuve, 1947-1950), vol. 1: *Introduction au Coran* (1947), vol. 2: *Le Coran; traduction nouvelle, I* (1949), vol. 3: *Le Coran; traduction nouvelle, II* (1950).

(١٦) ترتيب نولدكه/ بلاشير لسور القرآن حسب النزول: ١) العلق/ أ. ب. ٢) المدثر/ أ.ب. ٣) قريش. ٤) الضحى. ٥) الشرح. ٦) العصر. ٧) الشمس. ٨) الماعون. ٩) الطارق. ١٠) التين. ١١) الزلزلة. ١٢) القارعة. ١٣) العاديات. ١٤) لليل. ١٥) الانفطار. ١٦) الأعلى. ١٧) عبس. ١٨) التكوير. ١٩) الانشقاق. ٢٠) النازعات. ٢١) الغاشية. ٢٢) الطور. ٢٣) الواقعة. ٢٤) الحاقة. ٢٥) المرسلات. ٢٦) النبأ. ٢٧) القيامة. ٢٨) الرحمن. ٢٩) القدر. ٣٠) النجم. ٣١) التكاثر. ٣٢) العلق/ ٢. ٣٣) المعارج. ٣٤) المزمل. ٣٥) الإنسان. ٣٦) المطففين. ٣٧) المدثر/ ٢. ٣٨) المسد. ٣٩) الكوثر. ٤٠) الهمزة. ٤١) البلد. ٤٢) الفيل. ٤٣) الفجر. ٤٤) البروج. ٤٥) الإخلاص. ٤٦) الكافرون. ٤٧) الفاتحة. ٤٨) الفلق. ٤٩) الناس. ٥٠) الذاريات. ٥١) القمر. ٥٢) القلم. ٥٣) الصافات. ٥٤) نوح. ٥٥) الدخان. ٥٦) ق. ٥٧) طه. ٥٨) الشعراء. ٥٩) الحجر. ٦٠) مريم. ٦١) ص. ٦٢) يس. ٦٣) الزخرف. ٦٤) الجن. ٦٥) الملك. ٦٦) المؤمنون. ٦٧) الأنبياء. ٦٨) الفرقان. ٦٩) النمل. ٧٠) الكهف. ٧١) السجدة. ٧٢) فصلت. ٧٣) الجاثية. ٧٤) الإسراء. ٧٥) النحل. ٧٦) الروم. ٧٧) هود. ٧٨) إبراهيم. ٧٩) يوسف. ٨٠) غافر. ٨١) القصص. ٨٢) الزمر. ٨٣) العنكبوت. ٨٤) لقمان. ٨٥) الشورى. ٨٦) يونس. ٨٧) سبأ. ٨٨) فاطر. ٨٩) الأعراف. ٩٠) الأحقاف. ٩١) الأنعام. ٩٢) الرعد. ٩٣) البقرة. ٩٤) البينة. ٩٥) التغابن. ٩٦) الجمعة. ٩٧) الأنفال. ٩٨) محمد. ٩٩) آل عمران. ١٠٠) الصف. ١٠١) الحديد. ١٠٢) النساء. ١٠٣) الطلاق. ١٠٤) الحشر. ١٠٥) الأحزاب. ١٠٦) المنافقون. ١٠٧) النور. ١٠٨) المجادلة. ١٠٩) الحج. ١١٠) الفتح. ١١١) التحريم. ١١٢) الممتحنة. ١١٣) النصر. ١١٤) الحجرات. ١١٥) التوبة. ١١٦) المائدة. تضم لائحته ١١٦ سورة بدل ١١٤ وذلك بسبب تكرار كل من سورة العلق وسورة المدثر، حيث فصل بين القسم الذي نزل منهما عند بداية الوحي، وهي الآيات الأولى في كل منهما، وبين الآيات التي نزلت في مرحلة متأخرة من نفس المرحلة.

واعتبار القرآن المدني مرحلة واحدة، كما يلي:

المرحلة المكية الأولى: وتضم ٤٨ سورة موزعة على مجموعات:

ـ المجموعة الأولى تضم السور من ١ إلى ٨ حسب ترتيبه: (الهامش قبله): تتميز في نظره بالدعوة إلى التطهر والصدقة، والصبر، كما تعكس حالة العزلة، وهي سور قصيرة وتخص النبي نفسه.

ـ والمجموعة الثانية تضم السور من ٩ إلى ٣١: وتتميز عنده بغنى مضمونها وتنوع موضوعاتها، وتهتم خاصة بتأكيد البعث والحساب الخ. وأما التوحيد الذي هو أساس العقيدة في الإسلام فلم يطرح بعد.

ـ والمجموعة الثالثة تضم السور من ٣٢ إلى ٤٣. وتتناول الموضوعات السابقة ولكن مع عنصرين جديدين: **أولهما** الهجوم على الأصنام. **والآخر** التذكير بالعقاب الذي لحق، في الدنيا قبل الآخرة، بالأقوام الذين كذبوا رسلهم في الماضي.

ـ والمجموعة الرابعة تضم السور من ٤٤ إلى ٤٨. هي عبارة عن نصوص قصيرة غنية بليغة.

المرحلة المكية الثانية: وتضم ٢٢ سورة من ٤٩ إلى ٧٠، وتتميز باشتداد معارضة قريش للنبي لشعورهم بأن الدعوة المحمدية أخذت تمس مصالحهم الدينية والاقتصادية. وهذه المرحلة تتناول الموضوعات التالية: الهجوم على الأصنام. التشديد على التوحيد. الوعيد بقرب قيام القيامة. والسور في هذه المرحلة تتميز بانخفاض حرارة الأسلوب.

المرحلة المكية الثالثة: وتضم ٢٢ سورة أيضاً من ٧١ إلى ٩٢. ونتعرف فيها على سعي النبي إلى توسع مجال الدعوة بالاتجاه إلى الطائف ثم بعرض نفسه على القبائل ومخاطبة الجن. هذا مع استعادة موضوعات المرحلة السابقة، موضوعات التوحيد والأخرويات.

المرحلة المدنية وتضم ٢٤ سورة من ٩٣ إلى ١١٦. وتتميز بكون النبي كان قد انتقل من مرشد روحي إلى قائد لجماعة المهاجرين والأنصار. وسور هذه المرحلة تشتمل على معلومات تاريخية تؤسس معرفتنا بالجماعة الإسلامية في المدينة، سواء ما تعلق منها بحياتها الداخلية أو بعلاقاتها مع غيرها[١٧].

---

(١٧) Ibid., vol. 1: *Introduction au Coran*, p. 248.

٣ ـ من أجل تصوّر معقول للمسار التكويني لنص القرآن

أ ـ لا جديد في ترتيب المستشرقين

وبعد، فماذا يمكن استخلاصه من هذا التحقيب الذي خطه بلاشير لترتيب سور القرآن الكريم حسب النزول. يمكن القول إجمالاً إنه لا جديد. فالتحقيب الذي اعتمده بلاشير مبني على التمييز بين خصائص القرآن المكي ومميزات القرآن المدني وهي أمور معروفة وقد فصل القول فيها كثير من المؤلفين المسلمين قديماً وحديثاً، كما أن كتب السيرة النبوية تقدم من الأحداث والاجتهادات ما يتطابق بهذه الدرجة أو تلك مع مراحل هذا التحقيب. أما ترتيب السور داخل هذا التحقيب، سواء كمجموعات، أو داخل كل مجموعة على حدة، فلا شيء يفسره، فقد جاء اعتباطياً إلى حد كبير. وبالمقارنة يتبين أن الترتيب المعتمد بناء على رواية ابن عباس وغيره أقرب إلى منطق مسار السيرة النبوية من ذلك الذي وضعه نولدكه وسار عليه بلاشير. ولعل هذا ما جعل هذا الأخير يعدل عنه في الطبعات اللاحقة لكتابه **ترجمة معاني القرآن**، إذ عاد إلى الترتيب المعمول به في المصحف.

أما المرحوم محمد عزة دروزة الذي اعتمد، في كتابه **التفسير الحديث**، ترتيب النزول ـ كما وجده منصوصاً عليه في بعض تفاسير القرآن ـ فلم يأت بجديد[(١٨)] والسبب هو أنه لم يوظف هذا الترتيب في بناء أي تصور عن مسار نزول القرآن الكريم.

ب ـ القرآن كتاب مفتوح . . .

وهنا لابد من لفت الانتباه إلى أن القرآن كتاب مفتوح، يتألف من سور مستقلة تكونت مع تدرج الوحي. والسور نفسها مكونة من آيات مرتبطة ـ في كثير من الحالات ـ بوقائع منفصلة هي أسباب النزول. من أجل ذلك كان من غير الممكن التعامل مع القرآن كنص معماري مهيكل حسب ترتيب ما. إنه نص بياني من نتاج الوحي لا من إنتاج المنطق. والوحي كان ينزل حسب مقتضى الأحوال، والأحوال تتغير من حين لآخر . . .

وهذه الخاصية البيانية جعلت النص القرآني منفتحاً بحيث يمكن فهمه وتفسيره

---

(١٨) محمد عزة دروزة، **التفسير الحديث**، ٦ مج (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤)، أعادت دار الغرب الإسلامي في بيروت طبعه في اثني عشر مجلداً عام ٢٠٠٠. هذا ونعني بـ «الجديد» هنا ما يكون اعتماد ترتيب النزول، بدل ترتيب المصحف، أصلاً له. ونحن لم نلحظ أي جديد بهذا المعنى في هذا التفسير. أما الاجتهاد في الفهم والتفسير فذلك أمر آخر.

من دون التقيد بتسلسل معين، فكل سورة فيه يمكن أن تكون موضوعاً لتفسير خاص بها أو نقطة انطلاق لتفسير الكل، فالمفسِّر ـ ومثله المترجم ـ لا يفسر نصاً مبنياً جامداً في قالب، وإنما يفسر نصوصاً محدودة (مسوّرة في سور) أغلبها مستقل بنفسه (مجموعة آيات). إنه لا أحد يستطيع أن يلخص القرآن كله في سطور، ولا في سورة من سوره. وهذا يرجع لا إلى كبر حجمه بل إلى كونه نصاً حياً، متموجاً مع تموج وقائع السيرة النبوية. نعم إننا نستطيع عرض رأي القرآن كله في مسألة من المسائل من خلال الاستشهاد بالآيات التي تتناول تلك المسألة في مجموع السور (مثلاً موضوع المرأة في القرآن، مسألة الجبر والاختيار . . .)، وهذا ما جرى ويجري العمل به، في مجال العقيدة كما في مجال الشريعة. وإذا كان المرء لا يحتاج إلى المعرفة بترتيب النزول في مجال العقيدة، إذ سورة الإخلاص مثلاً تضع الأساس الذي يحكم العقيدة الإسلامية كلها ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾[١٩]، فإن المعرفة بترتيب النزول أمر ضروري عند معظم الفقهاء، خصوصاً من يعتمد مبدأ «الناسخ والمنسوخ»، الأمر الذي لابد فيه من معرفة السابق من الآيات والسور واللاحق منها. وهذا الجانب لا يمكن استنباطه بالعقل وإنما الاعتماد فيه على المرويات.

ج ـ ترتيب ضروري . . ولكنه لا يكفي!

أما خارج مجال التشريع، فإنه من الضروري تحديد الغرض المتوخى من ترتيب النزول. وفي هذه الحالة سيكون من الضروري ملاءمة «الترتيب» مع هذا الغرض. وبالنسبة إلى موضوعنا، الذي يتوخى بناء تصور «منطقي»[٢٠] عن المسار التكويني للنص القرآني، وفي نفس الوقت أقرب إلى الواقع التاريخي، أعني لوقائع السيرة النبوية، فإن ترتيب النزول المعتمد حالياً ضروري ولكنه لا يكفي. هو ضروري لأنه لا يمكن بناء تاريخ من غير مواد تاريخية، والمواد التاريخية بالنسبة إلى موضوعنا تقدمها المرويات، وفي مقدمتها تلك التي تخص لوائح ترتيب النزول التي ذكرنا، إضافة إلى التي تتعلق بأسباب النزول وبالسيرة النبوية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الاعتماد على المرويات وحدها لا يكفي في الوفاء بغرضنا. فلا بد إذاً من توظيف المنطق في عملية استثمار المواد التي يقدمها المأثور. وفي هذه الحالة قد تدعو الحاجة إلى التصرف في ترتيب النزول المعتمد

---

(١٩) **القرآن الكريم**، «سورة الإخلاص،» الآيات ١ ـ ٤.

(٢٠) نقصد بـ «المنطق» هنا لا منطق العقل المجرد، بل اتساق الأجزاء بعضها مع بعض في إطار الكل الذي تنتمي إليه.

اليوم، بوصفه نتيجة اجتهاد مبني على الظن والترجيح، تصرفاً تبرره النتائج التي يمكن استخلاصها منه.

فإذا كانت هناك نتائج تخدم الغرض المتوخى ولا تتعارض مع الأصول ـ وفي مقدمتها ترتيب الآيات داخل السورة الواحدة وهو ترتيب توقيفي ـ فإنه سيكون تصرفاً مقبولاً ومعقولاً. أما إذا لم تكن له مثل هذه النتائج فلا شيء يبرره حينئذ. وفي جميع الأحوال ينبغي أن لا يؤدي التصرف في الترتيب المعتمد اليوم (عند الأزهر وغيره) إلا في ما ورد فيه قول أو أقوال تبرر تغيير موقعه من الترتيب. وقد رأينا كيف أن في اللائحة التي أوردها السيوطي عن السور المختلف فيها، من حيث هي مكية أو مدنية، مجال واسع للاجتهاد. وإذا أضفنا إلى ذلك ما يروى أحياناً من أن هذه السورة أو تلك نزلت في سنة كذا أو بعد سورة كذا أو في مناسبة مؤرخة، أمكن الاحتكام عند الضرورة إلى مثل هذه التحديدات المروية.

ولما كان الهدف، عندنا، من «الترتيب حسب النزول» هو التعرف على المسار التكويني للنص القرآني باعتماد مطابقته مع مسار الدعوة المحمدية، فإن دور المنطق أو الاجتهاد لابد أن يكون مركّزاً أساساً على المطابقة بين المسارين: مسار السيرة النبوية، والمسار التكويني للقرآن.

ولا بد من الاعتراف هنا بأننا إذا كنا نستطيع أحياناً الحكم بأن موقع سورة معينة في لائحة ترتيب النزول المعتمد لا يتسق مع معطيات أخرى يقدمها لنا المأثور، الأمر الذي قد يستوجب نقلها من موقعها، فإنه من الصعوبة بمكان تعيين موقع آخر مناسب لتلك السورة تنقل إليه داخل نفس اللائحة، ما دام الترتيب المقترح يقوم فقط على تغيير بعض المواقع وليس على إنشاء ترتيب جديد تماماً، الأمر الذي لن يجد ما يبرره. وعلى كل حال فلا بد من الاستناد إلى مرتكز ما. والمرتكز في مثل هذه الحالات سيكون اعتبار المناسبة مع هذه المرحلة أو تلك في مسار الدعوة المحمدية.

٤ ـ أسس ومعايير

وبناء على ما تقدم يمكن تحديد المعايير التي لا بد من اعتبارها في أي ترتيب للنزول يريد أن يكون متساوقاً، بهذه الدرجة أو تلك، مع السيرة النبوية، وهذه المعايير هي:

أ ـ معيار التميز بين المكي والمدني

ـ أشرنا قبل إلى أن هناك سوراً أدرجت في الترتيب المعتمد في القرآن المدني مع أن مضمونها وأسلوبها مما ينتمي إلى القرآن المكي، فضلاً عن ورود أقوال ترجّح مكيتها، فهذه يجب ضمها إلى السور المكية شريطة أن لا تكون فيها آيات أو

إشارات تحتم انتماءها إلى المرحلة المدنية من السيرة النبوية.

وبناء عليه فقد ينبغي نقل السور التالية إلى لائحة السور المكية[٢١]:

ـ سورة الزلزلة: ورقمها في الترتيب المعتمد هو ٩٣. وقد «اختلف فيها فقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعطاء والضحاك: هي مكية. وقال قتادة ومقاتل هي مدنية، ونسب إلى ابن عباس أيضاً. «والأصح أنها مكية واقتصر عليه البغوي وابن كثير ومحمد بن الحسن النيسابوري في تفاسيرهم. وذكر القرطبي عن جابر أنها مكية»[٢٢].

ـ سورة الرحمان: ورتبتها في الترتيب المعتمد هو ٩٧. والمشهور أن عبد الله بن مسعود قرأها في الكعبة وكانت أول سورة تم الجهر بها. «والأصح أنها مكية كلها وهي في مصحف ابن مسعود أول المفصل... وهي من أول السور نزولاً فقد أخرج أحمد في مسنده بسند جيد عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت الرسول ﷺ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يسمعون يقرأ **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾**[٢٣].

ـ سورة الإنسان ورقمها في الترتيب المعتمد ٩٨. يرجِّح ابن عاشر أنها مكية: ويضيف: فإذا كان الأصح أنها مكية أخذاً بترتيب مصحف ابن مسعود فتكون الثلاثين أو الحادية والثلاثين. وجديرة بأن تعد قبل سورة القيامة أو نحو ذلك بحسب ما ورد في ترتيب ابن مسعود».

ـ سورة البيّنة، ورقمها ١٠٠. قال ابن عطية: الأشهر أنها مكية وهو قول جمهور المفسرين.

ـ سورة الحج ورقمها ١٠٣. وهي سورة مكيّة فيها آيات مدنية. بعضهم يعتبرها مكية وآخرون يقولون عنها إنها مدنية.

ب ـ سور القرآن ووقائع السيرة النبوية

(١) سور تشتمل على قسمين متمايزين

بعض السور التي نزلت في المرحلة الأولى من النبوة تشتمل على قسمين

(٢١) نستأنس هنا بصفة خاصة بآراء بن عاشور الذي أولى في تفسيره اهتماماً خاصاً لما ورد في ترتيب كل سورة، مع اجتهادات من عنده. أما عن الترتيب الذي اتبعه في تفسيره فقد اختار ترتيب جابر بن زيد كما ذكره الجعبري. وهو لا يختلف عن الترتيب المعتمد اختلافاً ذا بال. راجع: بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**.

(٢٢) نفس المرجع.

(٢٣) راجع: نفس المرجع، **والقرآن الكريم**، «سورة الرحمن،» الآية ١٣.

متمايزين، الآيات الأولى منها نزلت في أوائل النبوة ولكن الباقي ينتمي بموضوعه وأسلوبه إلى مراحل متأخرة: فسورة «العلق» تنتمي الآيات الخمس الأولى منها إلى أول ما نزل، بينما ينتمي ما يليها إلى مرحلة متأخرة، ربما إلى السنة السادسة للهجرة. وكذلك سورة «المدثر» تنتمي الآيات السبع أو العشر الأولى منها إلى أول ما نزل (بعد استئناف الوحي)، بينما ينتمي الباقي إلى مرحلة متأخرة ربما إلى السنة السادسة للنبوة كذلك. وأما سورة «القلم» التي تصنف ضمن السور الأوائل، وهناك من يجعلها أول سورة نزلت فنحن نرجح أن يكون تاريخ نزولها متأخراً لعدة أسباب: منها أنها تجادل المشركين وتسميهم مكذبين وهذا جدل ينتمي إلى مرحلة متأخرة، ثم هي تنتقد الأصنام، فضلاً عن ورود بعض القصص فيها (قصة أصحاب الجنة، وجزءاً من قصة يونس)، وهذا يجعلها تنتمي إلى مرحلة التعرض للأصنام.

أما سورة «المزمل» التي رتبتها ٣ في ترتيب النزول المعتمد، فهي من السور التي تنتمي إلى مرحلة متأخرة، وهناك روايات تؤكد ذلك مثل ما روي عن سعيد بن جبير من أنه قال: «مكث النبيّ ﷺ وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ**﴾[٢٤] فخفّف الله عنهم». ومما يزكي انتماءها إلى مرحلة متأخرة قوله تعالى فيها في الآية الرابعة منها ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾، وهذا يقتضي أن يكون هناك كم من القرآن كاف للترتيل في الليل كل يوم، هذا في حين أنه لم ينزل قبلها حسب الترتيب المعتمد سوى خمس آيات قصار من سورة «العلق» وآيات سورة القلم التي قلنا قبل إنها تنتمي إلى مرحلة متأخرة. هناك من يصنف هذه السورة (المزمل) ضمن القرآن المدني لورود قوله تعالى فيها: ﴿**وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[٢٥]، كما تذكر الروايات أن عائشة زوج النبي قالت إن الثوب الذي كان الرسول متزملاً به حين خاطبته السورة ﴿**يا أيها المُزَّمِّل**﴾[٢٦] كان عبارة عن «مِرطٍ (كساء من صوف) طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه عليّ وأنا نائمة، ونصفه على النبيّ ﷺ وهو يصلّي». يقول القرطبي وهذا القول من عائشة دليل على أن السورة نزلت في المدينة لأن النبي إنما دخل عليها فيها، وليس في مكة.

(٢) حول مفهوم سرية الدعوة والجهر بها

هناك ملاحظات لا بد من تسجيلها بداية، وتتعلق بما اصطلح على تسميته

(٢٤) **القرآن الكريم**، «سورة المزمل،» الآية ٢٠.
(٢٥) نفس المرجع، «سورة المزمل،» الآية ٢٠.
(٢٦) نفس المرجع، «سورة المزمل،» الآية ١.

بـ «مرحلة السر» وبـ «مرحلة الجهر» في الدعوة المحمدية بمكة.

ـ يقول ابن سعد، نقلاً عن الزهري: «إن النبي بقي يدعو الناس مستخفياً مدة ثلاث سنوات ثم أمر بإظهار الدعوة «فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول: فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه: إن غلام بني عبد المطلب ليُكَلَّم من السماء! فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فشنفوا (اشتد بغضهم) لرسول الله (ﷺ) عند ذلك وعادوه»[٢٧].

وبناء على هذه الرواية يمكن التمييز بين ثلاث لحظات:

١ ـ لحظة الدعوة السرية: كان النبي خلالها «يدعو الناس مستخفياً مدة ثلاث سنوات».

٢ ـ لحظة «إظهار الدعوة» واستجابة بعض الصغار وضعفاء الناس، ثم تكاثر المستجيبين «وكفار قريش غير منكرين لما يقول»، مقتصرين على الاستهزاء به..

٣ ـ لحظة التعرض لأصنام قريش وآلهتهم وتأكيد البعث وهلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر. وهذا حدث انطلاقاً من قراءته ﷺ لسورة النجم في الكعبة على مسامع كبار قريش. ورتبة سورة النجم في الترتيب المعتمد هي ٢٣، وقد نزلت في السنة الخامسة للنبوة (على أشهر الأقوال).

أما ربط «الجهر بالدعوة» بقوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[٢٨] (ورتبتها في الترتيب المعتمد ٤٧)، وقوله ﴿**فاصدع بما تؤمر**﴾[٢٩] (ورتبتها في الترتيب المعتمد ٥٤)، أقول أما ربط بداية الجهر بالدعوة بهاتين الآيتين كما يذهب إلى ذلك جمهور المفسرين، فهو ربط لا يستقيم، إذا أريد بـ «الجهر» ما عبر عنه الزهري في رواية ابن سعد أعلاه بـ: «إظهار الدعوة».

ذلك أن هاتين السورتين تنتميان بحجميهما وأسلوبهما وموضوعاتهما إلى مرحلة متأخرة. وبما أنهما تأتيان بعد سور عديدة فيها هجوم على الأصنام وجدل مع المشركين، الأمر الذي يتعارض مع الرواية السابقة ومع منطق الأحداث أيضاً، لأن الجدل مع المشركين يقتضي دخول الدعوة في مرحلة الجهر، فنحن نرجح أن يكون

---

(٢٧) أبو عبد الله محمد بن منيع بن سعد، **الطبقات الكبرى**، تحقيق إدوارد سخاو ورفاقه (ليدن: [بريل]، ١٩١٧)، ج ١، ص ١٣٣.

(٢٨) **القرآن الكريم**، «سورة الشعراء،» الآية ٢١٤.

(٢٩) نفس المرجع، «سورة الحجر،» الآية ٩٤.

مضمون كلٍّ من الآيتين المذكورتين ليس مجرد الأمر بالجهر بالدعوة، فالجهر كان قائماً فعلاً، بل نرجح أن يكون المضمون هو دعوة النبي ﷺ إلى الانتقال من مستوى في الدعوة إلى مستوى آخر. لقد كانت الدعوة من قبل فردية في الغالب، سواء في لحظة الاستخفاء أو لحظة الإظهار، أما الآن فالمطلوب أن يعرض الرسول نفسه على القبائل طلباً لحليف يبايعه ويتبنّى دعوته كما حدث لاحقاً عند لقاءاته مع وفود من أهل يثرب. فإذا فهمنا الآيتين على هذا الأساس، وأن الآية **الأولى** تأمره بالبحث عن حلفاء في عشيرته أولاً، لتأتي الآية **الثانية** لتأمره بطلب الحليف خارجها وذلك بعرض نفسه على القبائل، أمكن اعتماد الروايات التي تؤرخ لنزول سورتي الشعراء والحِجر بالسنة التاسعة/ العاشرة. وهي السنة التي خرج فيها ﷺ من الحصار الذي فرضته عليه قريش وعلى عشيرته، والذي دام نحو ثلاث سنوات: من السنة السابعة إلى التاسعة/ العاشرة من البعثة.

أما الجهر بالدعوة لأول مرة فقد حدث كما يقول المؤرخون والمفسرون ما بين السنة الثالثة والرابعة للنبوة، عندما عمد عبد الله بن مسعود إلى تحدي قريش فقرأ سورة الرحمان في الكعبة وكبار قريش في نواديهم يسمعون، وقد آذوه بسبب ذلك أذىً كبيراً. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تذكر مصادرنا أن أول سورة قرأها النبي ﷺ في الكعبة هي سورة النجم في السنة الخامسة للنبوة. وإذاً فالجهر بالدعوة تم قبل نزول سورتي الشعراء والحجر، أي قبل قوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ وقوله: ﴿**فاصدع بما تؤمر**﴾.

ويتأكد ما ذهبنا إليه من اعتبار سياق الآيتين المذكورتين: قال تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[٣٠] ففي هذه الآيات أمر إلى النبي بإعلان القطيعة مع قومه إذا هم عصوه: ﴿**فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾. وهذا القرار لا يمكن أن يتخذ والدعوة في مراحلها الأولى، فهو قرار ينبئ بقدوم مرحلة جديدة تماماً[٣١]. وهذا ما يؤكده سياق آية ﴿**فاصدع بما تؤمر**﴾. يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ**

---

(٣٠) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيات ٢١٤ ـ ٢٢٠. العصيان يأتي من الأتباع، وهذه الآية ﴿**فإن عصوك**﴾ يقصد به العصيان الذي يقوم به رجال عشيرة الرسول.

(٣١) هناك آية لا بد أن تكون سابقة لهذه القطيعة، وهي قوله تعالى يخاطب نبيه الكريم: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور**﴾ [نفس المرجع، «سورة الشورى،» الآية ٢٣] (ورتبتها في ترتيب النزول المعتمد هي ٦٢)، فالآية تأمر النبي بالتودد إلى قومه بناء على حق ﴿**المودة في القربى**﴾. وإذا صح ما قاله بن عاشور من أن هذه السورة قد نزلت في السنة =

سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ. لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ. كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ. فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(٣٢) ووضح أننا هنا أمام نفس الطلب، أعني إعلان القطيعة مع المشركين، والمقصود مشركي قريش، وهذا الإعلان للقطيعة مصحوب هنا بوعد: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ووعيد: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وتَفَهُّمٌ لوقع أقوال وأعمال «المستهزئين» على وجدان النبي ﷺ، وفي نفس الوقت وعده بمجيء «اليقين»: اليقين بانتصار الدعوة.

٥ ـ مراحل نزول القرآن المكي

وبناء على ما تقدم يمكن تحقيب المرحلة المكية من نزول القرآن في مسار مساوق لمسار السيرة النبوية كما يلي:

أ ـ «المرحلة السرية»

وهي لم تكن سرية بالمطلق وإلا فكيف عرفت قريش بها وواجهتها بالاستهزاء والتضييق؟ هذا فضلاً عن روايات تتحدث عن استماع أكابر قريش للقرآن ومحادثتهم مع النبي، وتأثر بعضهم به. وإذاً فنحن نرجّح أن يكون معنى سرية هذه المرحلة هو أن الدعوة المحمدية لم تكن قد تطورت بعد إلى دعوة عامة تتم جهاراً في الأسواق والأماكن العامة، وإنما كانت تقتصر على الاتصال بالأفراد والعمل على إقناعهم كأفراد. وبهذه الطريقة آمن المسلمون الأولون. وقد قام أبو بكر الصديق بدور مهم في هذا المجال، إذ أسلم على يديه كبار الصحابة(٣٣). وكان هؤلاء المسلمون

= الثامنة أو التاسعة، فإنها ستكون قد نزلت زمن حصار قريش للنبي وأهله في شعب أبي طالب. أما سورة الشعراء فقد نزلت كما قلنا بعد فك الحصار.

(٣٢) **القرآن الكريم**، «سورة الحجر،» الآيات ٨٧ ـ ٩٩. **﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم. . .﴾** قال الطبري: «لا تتمنيّن يا محمد ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعاً للأغنياء من قومك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يتمتعون فيها، فإن مِنْ ورائهم عذاباً غليظاً. ولا تحزن على ما مُتّعوا به فعُجّلَ لهم، فإن لك في الآخرة ما هو خير منه، مع الذي قد عَجّلنا لك في الدنيا من الكرامة بإعطائنا السبع المثاني والقرآن العظيم». ويقصد بالعبارات التالية: «المقتسمين» الذين قسموا القرآن قسمين، و**﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾** الذين يقبلون بعضه ويرفضون بعضه.

(٣٣) يقول الطبري فلما أسلم أبو بكر (وكان أول من أسلم من الرجال) أظهر إسلامه ودعا إلى الله عز وجل وإلى رسوله. . . وكان أبو بكر رجلاً مؤالفاً لقومه محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش =

الأولون يذهبون إلى بعض الشّعاب يجتمعون هناك ويصلّون، وكان المشركون يلاحقونهم ويستهزئون بهم ويعِيبون صلاتهم. وقد حدث ذات مرة صدام بين رجل منهم وبين سعد بن أبي وقاص أحد المسلمين الأوائل، جرح فيه ذلك الرجل، فقيل إن ذلك كان «أول دم أريق في الإسلام». وبعد هذه الحادثة انتقل الرسول وأصحابه إلى دار أحد المسلمين الأوائل هو الأرقم بن أبي الأرقم: «وفيها دعا الناس إلى الإسلام وأسلم فيها قوم كثير».

ذلك إذاً، هو معنى سرية الدعوة في هذه المرحلة التي نميز فيها بين لحظتين:

اللحظة الأولى تميزت بكون ما نزل فيها من القرآن كان يتجه بالخطاب إلى الرسول نفسه، ابتداء من ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ و﴿**يا أيها المدَّثِّر**﴾ و﴿**الضحى... ما ودعك ربك وما قلى**﴾ و﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾... إلخ. (وضمنها مدة انقطاع الوحي وهي سنتان ونصف).

أما اللحظة الثانية فتميزت باتجاه ما نزل من القرآن خلالها إلى التأكيد على البعث والحساب وذكر مشاهد القيامة والتركيز على الوعد والوعيد. وربما كانت خاتمتها اتخاذ القرار بقراءة القرآن في الكعبة تحدياً للمشركين وذلك عندما قرأ عبد الله بن مسعود سورة الرحمان في المسجد.

ب ـ بداية التعرض للأصنام وبداية الصراع مع قريش

وتتميز بالتركيز على عقيدة التوحيد وشجب الشرك ومهاجمة الأصنام وتسفيه عقول الذين يعبدونها، وفي نفس الوقت الرد على المكذبين بالنبوة، والتذكير بأخبار أهل القرى البائدة الذين كذبوا رسلهم فأهلكوا، مع التركيز على البعث ومشاهد القيامة... إلخ. ومن هنا سيتغير موقف قريش من الدعوة المحمدية إذ سيتحول إلى عداوة وقمع وحصار.

وقد دشنت هذه المرحلة بقراءة النبي ﷺ لسورة النجم في الكعبة ورجال من

= بها وبما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف. وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه في ما بلغني: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله. فجاء بهم إلى رسول الله حين استجابوا له فأسلموا وصلّوا. فكان هؤلاء الثمانية النفر الذين سبقوا إلى الإسلام فصلّوا وصدّقوا برسول الله وآمنوا بما جاء به من عند الله. ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام، الرجال منهم والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس». راجع: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك**، ٦ ج، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ج ١، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١.

قريش في نواديهم يسمعون. ففي هذه السورة بدأ التعرض للأصنام، إذ ورد فيها قوله تعالى: ﴿**أفرأيتم اللات والعُزَّى. ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذاً قسمة ضيزى. إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللّه بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى**﴾[٣٤].

ج ـ مرحلة التعرض للأصنام واضطهاد قريش للمسلمين

تبتدئ هذه المرحلة إذاً بسورة النجم والتعرض للأصنام. وقد تميزت هذه المرحلة بأمرين اثنين:

ـ الأول: تدخلات قريش لدى أبي طالب عم النبي يطلبون منه أن يكف النبي عن مهاجمة الأصنام على أن يلبوا جميع طلباته، وقد تكررت هذه التدخلات والمساومات فكان جواب النبي الرفض، مما دفع قريشاً إلى تهديد النبي بالقتل فأعلن أبو طالب حمايته، ولما خشي كبار قريش من أن يتطور الأمر إلى حرب أهلية (بين بني هاشم وبني عمومتهم وباقي قريش) قرروا مقاطعة بني هاشم ومحاصرتهم مع النبي في شعب بالجبل لأبي طالب.

ـ والأمر الثاني بإمعان قريش في اضطهاد المسلمين وتعذيبهم والتهديد

(٣٤) **القرآن الكريم،** «سورة النجم،» الآيات ١٩ ـ ٢٣. تذكر بعض الروايات أن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت قبل قراءة النبي لهذه السورة بأشهر، وأن كبراء من قريش كانوا في ناديهم بالكعبة قد سجدوا مع النبي (ﷺ) في آخر السورة، وذلك في الآيات التي اختتمت بها، أعني قوله تعالى: ﴿**أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون. فاسجدوا لله واعبدوا**﴾ [«سورة النجم،» الآيات ٥٩ ـ ٦٢]. وتضيف تلك الروايات أن خبر سجود قريش وصل إلى المسلمين المهاجرين إلى الحبشة على أنه إعلان من قريش بالاستجابة للإسلام، الشيء الذي فرحوا له، فعادوا إلى مكة، ولكنهم وجدوا الحالة كما تركوها أو أسوأ، فكانت الهجرة الثانية إلى الحبشة. وتفيد الروايات أن ذلك كله تم في السنة الخامسة للهجرة. وقد روى بعض المؤرخين والمفسرين هذا الخبر وذكروا أن السبب في سجود قريش مع النبي (ﷺ) هو ما ذكر من «أن الشيطان ألقى في أذن النبي»، وهو يقرأ السورة، كلمات تتحدث عن أصنام قريش بوصفها تشفع لأصحابها وذلك عند قوله تعالى: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى**﴾. أما الكلمات التي قالوا إن الشيطان همس بها في إذن النبي فقرأها مباشرة بعد هذه الآيات فهي: «تلك هي الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى». ونحن نشك في هذه الرواية لأن الآيات التي جاءت بعد هذه هي من أشد الآيات عنفاً على الذين يعبدون الأصنام، ومنها قوله تعالى: ﴿**إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى. وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً. فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا**﴾ [«سورة النجم،» الآيات ٢٧ ـ ٢٩]. وإذاً فمن المستبعد جداً أن يسجد زعماء قريش مع النبي (ﷺ) في آخر السورة كما ذكروا. وإذا فرضنا أنهم سجدوا فعلاً فإن ذلك سيكون بسبب تأثرهم بالآيات الأخيرة من السورة وانقيادهم اللاشعوري مع النبي حين سجدوا». أما «الكلمات» التي قالوا إن الشيطان همس بها في أذن النبي، ثم جاء جبريل يعاتبه ويطلب منه سحبها فنحن لا نرى فيها ما يخالف السياق إذا هي فهمت على أنها تحكي بنوع من الاستنكار والاستهزاء اعتقاد قريش في شفاعة تلك الأصنام، لا على أنها تقر تلك الشفاعة.

بتصفيتهم، مما جعل النبي يطلب من أصحابه الهجرة إلى الحبشة(٣٥). وقد استمرت هذه المرحلة نحواً من سنتين، إلى حدود السنة السابعة للنبوة(٣٦).

د ـ مرحلة حصار النبي وأهله في شعب أبي طالب

وأمام فشل زعماء قريش في تدخلاتهم لدى أبي طالب من أجل حمل النبي على عدم التعرض لأصنامهم، قرروا كما قلنا ضرب الحصار عليه وعلى أهله، وكتبوا في ذلك تعهداً علقوه في الكعبة، وقد استمر هذا الحصار نحواً من ثلاث سنين: من السنة السادسة/ السابعة إلى التاسعة/ العاشرة. يقول ابن سعد: «وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من حين تنبؤ رسول الله وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبه مع بني هاشم وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم (تحالف معهم) على بني هاشم وبني المطلب، وقطعوا عنهم الميرة والمادة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجهد وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب»(٣٧).

أما عن السوَر التي نزلت في هذه المرحلة فليس بالإمكان تعيينها إلا إذا نحن اعتبرناها في عداد السور التي لم يرد أي شيء بخصوص مناسبة نزولها أو تاريخه ـ وعزونا ذلك إلى ظروف الحصار ـ مثل الحواميم السبعة وسورة الأنعام وسور أخرى تستعيد موضوعات الوعد والوعيد ومشاهد الجنة والنار، مثل الذاريات والصافات والنازعات والانشقاق والانفطار وما أشبه. غير أن هذا مجرد تخمين.

هـ ـ مرحلة فك الحصار وعرض النبي نفسه على القبائل

حصل نوع من التراخي في حصار قريش للنبي وأهله مع الوقت، وكثرت الزيارات إلى المحاصرين وبدأ إمدادهم بالطعام، وقيل إن الأَرَضة أكلت وثيقة الحصار المعلقة في الكعبة... إلخ. وقد غادر النبي وأهله **الشِّعب** في السنة التاسعة/ العاشرة وعادوا إلى بيوتهم واستأنف النبي الدعوة العامة فحاول استمالة أهل الطائف ولكن من دون جدوى، ثم أخذ يعرض نفسه على القبائل يبحث عن حليف إلى أن اتفق مع وفد من يثرب فكانت «بيعة العقبة» **الأولى والثانية**، ثم الهجرة

---

(٣٥) راجع الفصل ٢ من هذا الكتاب.

(٣٦) هناك اختلاف في الروايات التي تتحدث عن تاريخ قراءة النبي لسورة النجم في الكعبة وبداية تعرضه للأصنام. بعض الروايات تقول كان ذلك في السنة الرابعة أو الرابعة والنصف من النبوة، وبعضها يجعل ذلك في الخامسة أو السادسة.

(٣٧) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ١، ص ١٦١.

إليها في السنة الرابعة عشرة من النبوة، وهي السنة الأولى للهجرة.

ومن السوَر التي نتوفّر فيها على إشارات تفيد أنها نزلت في هذه المرحلة السور التالية (الترتيب تقريبي): الطارق، الجن، القمر، ص، الأعراف، الإسراء، الأنبياء، إبراهيم، يوسف، يونس، هود، القصص، النمل، الشعراء، الحجر، الروم، العنكبوت. . .

و ـ ضرورة ربط فهمنا القرآن بوقائع السيرة

إن التمييز بين هذه المراحل التاريخية في الدعوة المحمدية ضروري إذا نحن أردنا وضع تصنيف لسور القرآن يساوق وقائع السيرة. أما توزيع السور في هذه المراحل، مرتبة حسب تاريخ النزول، فأمر صعب للغاية. وهذا ليس راجعاً فقط إلى أن سوراً كثيرة من القرآن تتألف من آيات نزلت في مرحلة، ثم أضيفت إليها آيات نزلت في مرحلة لاحقة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، بل أيضاً لأن ما يطبع الروايات التي يمكن الاستعانة بها في هذا الشأن هو الاختلاف إلى حد التناقض. وهذا راجع ليس فقط إلى اختلاف المصدر الذي يعتمده هذا الراوي أو ذاك، بل أيضاً إلى كون بعض من خاضوا في هذا الموضوع من الرواة، ولا سيّما المهتمين منهم بأسباب النزول، قد بالغوا في البحث لكل آية عن «سبب نزول»، إلى الدرجة التي يتولد معها في ذهن الباحث أن بعضهم كان مهتماً ليس فقط بالنازلة التي نزلت فيها هذه الآية أو تلك، بل أيضاً بالبحث لكل آية عن نازلة يمكن ربطها بها. ولا شك في أن مثل هذه «النزعة التجزيئية» تمسّ بعمق مسألة الصدقية.

ولما كان الأمر كما وصفنا، فما الفائدة إذاً في الخوض في مسألة ترتيب النزول؟

أعتقد أن ما قدّمناه هنا يعين على الوعي بأهمية الهدف الذي توخيناه وهو التنبيه إلى ضرورة ربط فهمنا القرآن بوقائع السيرة. ونحن نعتقد أن تحصيل هذا الوعي سيخفف كثيراً من الضباب الذي يحيط بلائحة ترتيب نزول المعتمد والتي ترجع في نهاية الأمر إلى ابن عباس. ليست هناك لائحة غيرها، وليس بالإمكان بناء لائحة جديدة تحل محلها، ولكن بالإمكان التعامل معها، بفضل ما ذكرنا، بكثير من الوعي والتبصر. وهكذا فإذا نحن نقلنا السوَر المرجح أنها مكية من لائحة المدني إلى لائحة المكي وأخذنا بعين الاعتبار ما قلناه بصدد مفهوم «الجهر» بالدعوة، فإن التحقيب الذي اقترحناه سيجد سنده ليس فقط في المرويات التي ذكرنا بل أيضاً في وقائع السيرة النبوة. وذلك هو مطلوبنا هنا.

القسم الثالث

القصص في القرآن الكريم

تمهيد: خصوصية هذه الدراسة

ربما يتساءل القارئ قائلاً: «وما علاقة القصص القرآني بهذا الكتاب الذي موضوعه «التعريف بالقرآن»: محيطهِ ومسار تكوينه؟

الجواب هو أن القصص القرآني يتصل بالموضوعين السابقين اتصالاً مباشراً! فهو، من جهة، نافذة واسعة تمكننا من الإطلالة على جانب مهم من محيط الدعوة المحمدية، موضوع القسم الأول من هذا الكتاب، نقصد علاقتها بتجارب الأنبياء السابقين مع أقوامهم، وهو من جهة أخرى خطاب جعل منه القرآن مسرحاً لخطاب جدلي أبدي موجّه إلى خصومه يطلب منهم استخلاص العبرة من تلك التجارب، وبالتالي فهو مكوّن أساسي من مكونات مساره التكويني، موضوع القسم الثاني من هذا الجزء من الكتاب.

بعبارة أخرى يمكن القول إن القصص القرآني هو بمثابة مرآة ترى فيها الدعوة المحمدية نفسها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، عبر «التاريخ المقدس»، تاريخ الأنبياء والرسل. وهكذا فإذا كنا قد أكدنا مراراً في الفصول السابقة أهمية اعتبار التساوق بين الدعوة المحمدية و«مسار الكون والتكوين للقرآن» فإن هذا التساوق يتجلى بأوضح صورة من خلال تتبع تطور القصص القرآني حسب ترتيب النزول.

من أجل هذا جاءت هذه الدراسة حول «القصص في القرآن الكريم» لتندرج ضمن أفق هذا الكتاب متميزة، بل ومنفردة بالخصائص التالية:

١ ـ اعتبار القص القرآني نوعاً من ضرب المثل!

لقد جرت العادة قديماً وحديثاً على التعامل مع القصص القرآني بوصفه قصص أنبياء، وكثير من المؤلفات تحمل هذا الاسم. وبما أن القرآن يستعمل القص لأهداف الدعوة، وليس من أجل القص في ذاته، فإن قصصه، على الرغم من أنها قصص أنبياء فعلاً، فإن حكيه لا يخضع لمسار حياة الأنبياء الذين يورد قصصهم، بل يعرض في كل مرة ما يناسب الدعوة المحمدية في مرحلة من المراحل. القصص القرآني هو

نوع من ضرب المثل، والمثل لا يضرب لذاته ولا من أجل ذاته، بل من أجل البيان، من أجل العبرة، من أجل البرهنة على صحة القضية التي يستشهد فيها بالمثل.

وهكذا، فكما يضرب القرآن المثل برجلين أو بجنتين من دون تحديد، وكما يُجري حواراً بين أهل الجنة وأصحاب النار، والقيامة لم تقم بعد. . . إلخ، فكذلك الشأن في «قصص الأنبياء» التي يذكرها. إنها للذكر أي للموعظة والعبرة. وهكذا فكما أننا لا نسأل عن صحة القصة التي وراء الأمثال التي تضرب لموقف أو حال. . . إلخ، لأن المقصود بالمثل ليس أشخاصه بل مغزاه، فكذلك القصص القرآني في نظرنا. والصدق في هذا المجال، سواء تعلق الأمر بالمثل أو بالقصة لا يلتمس في مطابقة أو عدم مطابقة شخصيات القصة والمثل للواقع التاريخي، بل الصدق فيه مرجعه مخيال المستمع ومعهوده. فإذا كنا نعجب بمثل وننفعل له فهو صادق بالنسبة إلينا؛ أما صدقه في نفسه فلا يكون موضوع سؤال ما دام يثير فينا ذلك الانفعال المعبّر عن الإعجاب والتصديق، وهذا سواء كانت الشخصية التي يضرب بها المثل إنساناً أو حيواناً أو غيرهما. فالمثل القائل «في بيته يؤتى الحكم» ورد على لسان حيوان داخل حوار مع حيوان آخر. . . فالمثل صادق في نفسه وليس لأن حيواناً معيناً نطق به. يؤكد هذا المعنى في القرآن اقتران المثل بالقصص في كثير من آياته مثل قوله تعالى: **﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾**[1].

بكلمة واحدة: الغرض من المثل والقصص في القرآن، غرض واحد.

٢ ـ الاقتصار على المادة التي يعطيها القرآن وحده

لا تحاول هذه الدراسة، بل ولا تريد، أن تكمل أو تفسر القصص القرآني بما ورد في الإسرائيليات وغيرها من النصوص الدينية اليهودية والمسيحية أو غير ذلك من الموروث القديم جملة[2]. ذلك لأن هدف قصص الأنبياء والرسل في هذه النصوص هو حكاية سيرة هذا النبي أو ذاك كسيرة حياة. نعم، لا يخلو هذا الحكي من هدف استخلاص الدرس والعبرة، هذا أكيد. ولكن مع ذلك تبقى السيرة

---

(١) **القرآن الكريم،** «سورة الأعراف،» الآيتان ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) قد نضطر إلى أن نذكر في الهامش ما هو ضروري لشرح كلمة أو بيان مسألة مما ذكره المفسرون القدماء في شأنها، مأخوذاً من مخايلهم الاجتماعية والفكرية وموروثهم الثقافي، وهذا ليس لأن ما ذكروه صحيح في نفسه بل لكونه يعبّر عن فهم العرب لتلك الكلمة أو المسألة. والقرآن خاطب العرب حسب معهودهم، وبالتالي أراد منهم أن يفهموا في إطاره ما يخاطبهم به.

المحكية مقصودة لذاتها، إذ ينظر إليها كجزء من «تاريخ» هذا الشعب أو ذاك يجب ترسيخه في الذاكرة كما هو الشأن في كل تاريخ وطني. أما القصص القرآني فالتفاصيل التاريخية لا تهمه بقدر ما يهمه حمل القاري أو المستمع على استخلاص العبرة التي تخدم حاضر الدعوة المحمدية ومستقبل أمتها(٣).

٣ ـ القصص القرآني والحقيقة التاريخية

لن نهتم هنا بتلك القضية التي شغلت وتشغل الدارسين للقصص القرآني في العصر الحديث والمعاصر(٤). أعني بذلك مسألة العلاقة بين القصص القرآني والحقيقة التاريخية. إن القرآن، كما أنه ليس كتاب قصص بالمعنى الأدبي الفني المعاصر، فهو أيضاً ليس كتاب تاريخ، بالمعنى العلمي المعاصر للتاريخ. إنه مرة أخرى كتاب دعوة دينية. وبما أن الهدف من القصص القرآني هو ضرب المثل واستخلاص العبرة فلا معنى لطرح مسألة الحقيقة التاريخية. إن الحقيقة التي يطرحها القصص القرآني هي العبرة، هي الدرس الذي يجب استخلاصه.

نعم إن القصص القرآني ليس قصصاً خيالياً بل هو قصص يتحدث عن وقائع «تاريخية» تدخل ضمن معهود العرب. ولم يكن العرب أعراباً «أميين» كلهم، بل كان منهم يهود ونصارى في مكة ويثرب وشمال الجزيرة العربية وشرقها وغربها، وكان منهم «خبراء» في الأنساب و«مختصون» في القصص: قصص نوح والطوفان وفرعون، وأنبياء بني إسرائيل. كل ذلك كان يدخل ضمن معهود العرب الثقافي والفكري، إضافة إلى قصص عاد وثمود وأقوام آخرين ممن لم يرد ذكرهم في التوراة.

والواقع أن جل «الحوادث التاريخية» التي يحكيها قصص القرآن عن أنبياء بني إسرائيل يتطابق إلى حد كبير مع ما جاء في التوراة والإنجيل، والقرآن جاء مصدقاً لما بين يده منهما، تماماً مثلما جاء الإنجيل مصدقاً لما في التوراة، والأمر نفسه يصدق على الرسالات السماوية الأخرى. وكما سبق القول فالحقيقة التاريخية في

(٣) هذا ومن أجل أن يتمكن القارئ من أن يلمس بنفسه الفرق الشاسع بين طريقة قص القرآن وارتباطها بالدعوة المحمدية، وبين طريقة قص التوراة وارتباطها بحياة بني إسرائيل وسلوكياتهم ارتأينا أن نورد في الهوامش نصوص التوراة الموازية للقصص القرآن، معتمدين الترجمة الدولية المعاصرة.

(٤) من الذين كتبوا في هذا الموضوع وأثارت آراؤهم جدلاً في الخمسينيات من القرن الماضي، كتاب المرحوم محمد خلف الله «**الفن القصصي في القرآن**» وقد انتهى فيه إلى أن القصة القرآنية لم يكن هدفها التاريخ بل العظة والاعتبار، وأن هناك أقوالاً جاءت على لسان بعض الشخصيات في القصة أنطقها القرآن على لسانهم، وأن مضمون القصة القرآنية هو ما يعرفه المعاصرون للنبي من تاريخ. ومع أننا لا نختلف كثيراً حول هذه النتائج إلا أن طريقنا إليها يختلف عن طريق خلف الله، كما أن دراستنا متحررة تماماً من الجدل الذي دار حول موضوع القصص القرآني في ذلك الوقت.

هذا المجال ليست مستقلة بنفسها بل هي جزء من «التاريخ المقدس»، التاريخ الذي تحكيه الكتب السماوية وفي مقدمتها التوراة التي هي مصدر أساسي وأحياناً الوحيد للمؤرخين الذين يعرضون لتاريخ بني إسرائيل وعلاقاتهم مع غيرهم من الأمم.

من هذا المنظور سنتعامل مع القصص التي وردت في القرآن المكي، وسنعرضها حسب ترتيب النزول. ومن هذا المنظور كذلك سنستحضر نصوصاً من التوراة والإنجيل قصد فسح المجال للمقارنة، وذلك بدلاً من نقل ما ذكره المفسرون أخذاً عن مسلّمة اليهود والأحبار والقسيسين، ومعظمه تأويلات وتخمينات تبتعد عن نصوص التوراة والإنجيل لتغرف من أدبيات دينية يغلب فيها التخمين والتأويل ويهيمن فيها الخلاف المذهبي. فكما أن الفرق كبير جداً بين ما جاء في القرآن وبين تأويلات الفرق الإسلامية المختلفة، الباطنية منها وغير الباطنية، فكذلك الشأن بالنسبة إلى التوراة وبين ما اصطلح على تسميته بـ «الإسرائيليات» التي اعتمد عليها معظم المفسرين. صحيح أن القرآن يقرر أن التوراة والإنجيل قد داخلهما التحريف، خصوصاً على مستوى عقيدة التوحيد والتنزيه والبشارة بـ «النبي الأمي» محمد ﷺ. أما ما عدا ذلك فالقرآن مصدق لما بين يديه منهما (التوراة والإنجيل). وأما الفروق التي نلمسها بين طريقة عرض التوراة والإنجيل للأحداث وطريقة القرآن فهي راجعة على الأرجح إلى خصوصية الدعوة المحمدية، فهي من جهة دعوة بلسان عربي مبين (يخاطب أهل هذه اللغة قصد إفهامهم في إطار ما هو من معهودهم)، ومن جهة أخرى هي دعوة إلى الناس كافة، وليست مقصورة على شعب بعينه كالتوراة التي يدور كل شيء فيها على بني إسرائيل، والأناجيل التي يتحدث فيها كتّابها عن ذكرياتهم ومشاهداتهم ونوع فهمهم لظاهرة المسيح وسلوكه وعودته . . . إلخ.

٤ ـ تتبع القص القرآني حسب ترتيب النزول

والأمر الرابع الذي تتميز به هذه الدراسة عن غيرها كونها تلتزم بتتبع القصص القرآني حسب ترتيب النزول، وليس حسب ترتيب المصحف كما جرت العادة. وقد رأينا في الفصل السابق كيف أن الفرق كبير بين الترتيبين. وكما سنرى في الفصول التالية فالقصص القرآني موزع بين السور المكية والسور المدنية، والقصة الواحدة تتكرر، كلياً أو جزئياً، في عدة سور. فإذا أخذ الباحث في حكاية قصة ما حسب تسلسل أحداثها، سواء بالتقاط هذه الأحداث من السور من دون ترتيب أو حسب ترتيب المصحف فإنه سيكون عليه أن ينتقل من سورة لأخرى، مُوجَّهاً في ذلك لا بمنطق القص القرآني بل بمنطق تسلسل وقائع القصة، منطق الزمن. هذا بينما القرآن كما بيّنا ليس كتاب قصص، بل هو كتاب دعوة يستعمل القص لأهداف الدعوة.

سنتعامل مع القص القرآني إذاً بحسب ترتيب النزول. هدفنا تتبع تطور هذا القص مع تطور الدعوة المحمدية من جهة، والتعرف، من جهة أخرى، إلى الكيفية التي وظف بها القرآن هذا القص كنوع من أنواع البيان لنصرة هذه الدعوة. إن «حاضر» القصص القرآني هو نفسه حاضر الدعوة المحمدية منظوراً إليه من خلال كفاح الأنبياء من أجل تبليغ رسالاتهم.

٥ ـ تصنيف وتحقيب

وهكذا فإذا نحن تتبعنا تدرج القصص القرآني حسب ترتيب النزول، منذ ابتداء البعثة المحمدية إلى وفاة الرسول (ﷺ)، ونظرنا إلى ما يحكى من كل قصة ـ في هذه السورة أو تلك ـ من منظور الغرض المتوخى منها فسيكون بإمكاننا التمييز فيه بين ثلاثة أصناف:

أ ـ صنف يتوخى توجيه الاهتمام إلى المصير الذي آلت إليه الأقوام التي كذبت رسلها، والمخاطب فيه ـ المعلن عنه تارة والضمني تارة أخرى ـ هم خصوم الدعوة المحمدية من قريش. والمقصد الأساس من هذا الصنف هو تخويف هؤلاء وتحذيرهم من أن يلاقوا نفس المصير الذي لقيه أولئك. ومعظم هذا الصنف يعرض لقصص «أصحاب القرى» مع أنبيائهم، وهم في الأعم الأغلب أنبياء لم يردوا لا في التوراة ولا في الإنجيل، بل هم أنبياء قرى ينسب أهلها إلى العرب القدماء (العرب العاربة) التي تُصنَّف قبل «العرب المستعربة» الذين هم من ولد إسماعيل. فأنبياء «أصحاب القرى» هم أسبق زمناً من أنبياء بني إسرائيل كما سنرى، وقصصهم تأتي مباشرة بعد آدم ونوح حسب الترتيب الزمني القرآني.

ب ـ وصنف يهتم بالثناء على الأنبياء والتنويه بهم وإبراز ما خص الله به كلاً منهم من آيات مبينة، يعجز مطلق الناس عن الإتيان بمثلها. والهدف إثبات صدق نبواتهم ورسالاتهم. ومعظم ذلك ورد في أنبياء بني إسرائيل.

ج ـ أما الصنف الثالث فتختص به المرحلة المدنية، ويتميز بالجدل مع اليهود والنصارى حول تصورهم لله، واتهامهم بالتنكر للنعم التي أنعم الله عليهم والتفضيل الذي خصهم به زمن كفاح أنبيائهم، وإبراز عقوقهم وانحرافهم عن دين إبراهيم شيخ أنبيائهم، وهو الدين القيّم الذي جاءت الرسالة المحمدية للعودة به إلى أصله.

هذا التصنيف يقوم على اعتبار الأغراض من القصص القرآني. أما ربط هذه الأغراض وبالتالي القصص القرآني كله بترتيب النزول، ومن ثَمَّ بتطور الدعوة المحمدية فيقتضي منا التمييز بين ثلاث مراحل: مرحلتان مكيتان، والثالثة مدنية.

ـ المرحلة **الأولى** تمتد من سورة الفجر ورقم ترتيبها ١٠، إلى سورة القمر وترتيبها ٣٧، حسب ترتيب النزول المعتمد لدى الأزهر وغيره من المؤسسات الدينية[٥].

ـ المرحلة **الثانية** وتمتد من صورة «ص» ـ التي تلي سورة القمر (ورتبتها ٣٨) إلى سورة العنكبوت ورقم ترتيبها ٨٥، وهي آخر سورة مكية ورد فيها قصص.

ـ أما المرحلة **الثالثة** فهي المرحلة المدنية، من السنة الأولى للهجرة إلى وفاة النبي[٦].

وهذا التمييز في القرآن المكي بين مرحلتين واعتبار القرآن المدني مرحلة واحدة، تصنيف ينطبق ـ أو يكاد ـ على القرآن كله. ومن أجل احترام التطابق بين التصنيف والتحقيب المذكورين أعلاه سنميز في المرحلة **الثانية** بين قسمين: قسم «أ» يندرج تحت الصنف **الأول** وقسم «ب» ينتمي إلى الصنف **الثاني**.

هذا على مستوى التصنيف والتحقيب. أما الطريقة التي سنسير عليها في تتبع القصص القرآني داخل كل مرحلة فهي تختلف من مرحلة لأخرى. ففي المرحلة الأولى سنعرض لكل قصة كما وردت في سور هذه المرحلة حسب ترتيب النزول. أما في المرحلة **الثانية** فإننا سنتخذ من الأعراف (وترتيب نزولها ٣٩) منطلقاً مرجعياً، بحيث إننا سنتعقب كل قصة من قصصها، في جميع السور التي تنتمي لهذه المرحلة، محترمين ترتيب النزول. وهذا المسلك سيمكننا من تتبع محتوى كل قصة كما ورد مجزءاً أو مكرراً، وما قد يكون لذلك من علاقة بالهدف الذي وظفت القصة من أجله في كل مرة[٧]. وهكذا سنلمس بوضوح خاصية أساسية في القصص القرآني وهو أنه قصص هادف، وأن عناصر القصة ليست مقصودة لذاتها بل هي لغرض. وبعبارة أخرى يمكن القول إن القصص القرآني قصص بياني، يقوم مقام البرهان، ـ أو هو نوع من البرهان ـ على قضية معينة تقع خارج القصة، كما سنتبين ذلك بوضوح في حينه.

---

(٥) سبق أن عرضنا لائحة ترتيب النزول المعتمد اليوم في الأزهر وغيره في: الفصل ١٠ من هذا الكتاب، الهامش رقم ١٣.

(٦) نغض الطرف هنا عن الخلاف حول المكي والمدني من السور والآيات ونعمل بترتيب النزول المعتمد حالياً على علاّته. ذلك لأن ذلك الاختلاف في ترتيب النزول ليس له تأثير كبير على ترتيب القصص القرآني وذلك لطبيعة هذا القصص كما سنبين بعد.

(٧) ننبه إلى أننا سنتوقف مع الآيات التي تحكي وقائع قصة نبي من الأنبياء، كلاً أو بعضاً، في هذه السورة أو تلك. أما الآيات التي ورد فيها ذكر اسم هذا النبي أو ذلك مجرد ذكر، فلن نقف عندها.

القصص في القرآن المكي

(١)
المرحلـــة الأولـــى

أولاً: الصنف الأول: قصص «أهل القرى» بإيجاز

١ ـ في سورة الفجر: عاد وثمود وفرعون

سورة الفجر هي أول سورة ورد فيها ذِكر أقوام تحدث القرآن عن قصصهم مع أنبيائهم ورسلهم، وهي العاشرة في ترتيب النزول. تبدأ هذه السورة بالقسم التالي: **﴿وَالْفَجْر. وَلَيَال عَشْر. وَالشَّفْعِ وَالْوَتْر. وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْر. هَلْ في ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْر﴾**. وجواب القسم محذوف يفهم من قوله في الآية الأخيرة: **﴿إن ربك لبالمرصاد﴾**[١]. والمقصود أنّه بالمرصاد للمكذبين من قريش الذين يوجه إليهم الوعيد بأن مصيرهم سيكون العذاب والهلاك، كما كان مصير كُلّ من عاد وثمود وفرعون.

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الفجر،» الآيات ١ ـ ٥ و١٤ على التوالي. اختلف المفسرون في معنى **﴿ليال عشر. والشفع والوتر﴾**، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، لا طائل تحتها كما لاحظ الزمخشري في الكشاف. وحسب رأيه هو، فالمقصود بـ «الفجر» هو الفجر المعروف، وقد أقسم الله به كما أقسم بـ «الصبح»، و«الليل» و«النهار». أما الليالي العشر، فهي العشر الأولى من شهر ذي الحجة، ولها اعتبار خاص، لأنها وقتُ مناسك الحج (في الجاهلية كما في الإسلام، ومعلوم أن هذه السورة نزلت قبل فرض الحج، ولكن كثيراً من مناسك الحج كانت العرب تمارسها في الجاهلية). الشفع هو اليوم العاشر منها وهو يوم النحر، والوتر هو اليوم التاسع، يوم عرفة. وقوله: **﴿هل في ذلك قَسَم لذي حِجر﴾** «استفهام: هل تستحق الأشياء التي هي موضوع القسم أن تكون، في نظر صاحب العقل، مقسماً بها؟ والاستفهام هنا بمعنى التأكيد، بمعنى أنها تستحق ذلك فعلاً. واستعمال الاستفهام كوسيلة للتأكيد كثير في القرآن، من ذلك قوله: **﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾** [«سورة التين،» الآية ٨].

ولا يتعلق الأمر هنا بحكاية قصص هؤلاء وإنما فقط بالتذكير بمصيرهم الذي كانت تعرفه قريش. يقول القرطبي: فقد «كان أمر عاد وثمود عندهم مشهوراً، إذ كانوا في بلاد العرب، و«حِجر» ثمود موجود اليوم (في زمن القرطبي وفي زماننا هذا أيضاً[٢]) وأمر فرعون كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضت به الأخبار، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب»[٣].

وهكذا تتوجه السورة بالخطاب إلى النبي ﷺ لتذكيره بما آل إليه أمر عاد وثمود وفرعون ولتؤكد له أن ربه بالمرصاد لمن نحا نحوهم، والمقصود زعماء قريش الذي طغوا واستكبروا وألحقوا الأذى به. يقول تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾**[٤]. ومن بين أنواع الفساد الذي كان السبب في إهلاكهم كونهم كانوا على طبع الإنسان الطاغي الذي: **﴿إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي**

---

(٢) ثمود: هم قوم النبي صالح وقد سكنوا مدينة «الحجر»، وآثارها وتماثيلها قائمة إلى يومنا هذا. وفي مقال نشرته مجلة **الفيصل** السعودية، بقلم تركي بن إبراهيم الفيهدان، معلومات مهمة عن مدينة «الحجر» حدد موقعها بكونها تقع الآن «شمال مدينة العلا على بعد ١٧ كيلومتراً بخطّ مستقيم. أما العلا فهي تقع شمال غرب المدينة المنورة وتبعد عنها بنحو ٢٩٢ كيلومتراً. ويمتاز الحجر بموقعه الجيد فهو ملتقى بعض الطرق بالمنطقة من شبه الجزيرة العربية إلى الشام وبلاد الرافدين. وقد سكن الأنباط الحجر واتخذوه عاصمة ثانية جنوبية لدولتهم» . . . إلخ. وفي المقال صور لبقايا هذه المدينة وتظهر فيها بوضوح الجدران المبنية بالحجارة المنجورة بلون أبيض مشوب بحمرة أشبه ما يكون بالحجارة التي تبنى بها المنازل في الأردن الآن. راجع مقالة تركي بن إبراهيم الفيهدان في: مجلة **الفيصل** السعودية (شباط/ فبراير ـ آذار/ مارس ٢٠٠٥).

(٣) وفي هذا الإطار وردت آيات عديدة تتساءل: ألم يسيروا (قريش) في الأرض. مثل قوله تعالى: **﴿أَوَ لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق﴾** [**القرآن الكريم**، «سورة غافر،» الآية ٢١].

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة الفجر،» الآيات ٦ ـ ١٤ . يقال إن موطن عاد، وهم قوم النبي هود، يقع ما بين اليمن وحضرموت. وهناك رأي يرى أن موطنهم هو نفس موطن ثمود، ويقع في الطريق بين مكة والشام. **﴿إرَمَ ذاتِ العماد﴾**: اختلف المفسرون في معنى هذه الآية، والظاهر أن عاد اسم لقبيلة وهم قوم هود، وإرم مدينتهم، ذات العماد صاحبة المباني الضخمة، وسيأتي أنهم كانوا ينحتون الحجر ويصنعون منه القصور والمباني الضخمة.

﴿جابوا الصخرَ بالواد﴾ أي قطعوا صخر الجبال واتخذوا منها بيوتاً. ويقول المفسرون في معنى الأوتاد هنا: «الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشدّ ملكه». ونحن نرى أن الأوتاد هي «الأهرام» فهي بمعنى المباني الضخمة كما هو الحال لدى عاد وثمود. وفي القرآن: **﴿ألم نجعل الأرض مهاداً. والجبال أوتاداً﴾** [«سورة النبأ،» الآيتان ٦ ـ ٧]. فالأهرام أوتاد كالجبال. وبهذا تتحقق وحدة المعنى: فما يجمع قوم عاد وثمود وفرعون، في هذا السياق، هو هذه المباني الضخمة التي بنوها بأيدي وأكتاف شعوبهم وهي عنوان الطغيان والفساد. الذين وصفتهم بهما الآية مجتمعين.

أَهَانَنِ﴾[٥]. ويردّ عليهم القرآن مبيناً سبب الداء فيهم فيقول: **﴿بل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾**[٦].

٢ ـ سورة النجم: عاد وثمود وصحف موسى

بعد سورة الفجر يرد ذكر عاد وثمود ـ للمرة الثانية ـ مع صحف موسى، ونوح، والمؤتفكة[٧] للمرة الأولى ـ في سورة النجم ورتبتها ٢٣، وذلك في سياق الردّ على أحد زعماء قريش (الوليد بن المغيرة) قيل: كان قد أسلم خوف العذاب يوم القيامة، ثُمّ تراجع عندما تكفل له أحدهم، مقابل مبلغ من المال، بتحمل العذاب الذي كان سيصيبه. وفيه نزل قوله تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى. وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى. أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى. أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾**[٨] **﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى. وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى. وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾**[٩]، إلى قوله: **﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى. وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى. وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى. وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى. وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى. وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى. فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى. هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾**[١٠].

ليس في ما سبق عرض لقصص الأقوام المذكورة مع أنبيائهم، الأمر الذي سيأتي في ما بعد، ومع ذلك فأهمية هذه الإشارات الأولى لا تخفى، فهي تحدد الإطار الذي سيتحرك فيه القصص القرآني: إنذار قريش بأنها إن أصرت على تكذيبها رسالة النبي محمد ﷺ سيصيبها ما أصاب الأمم الماضية التي كذّبت رسلها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهذا القصص الذي يوجه إنذارات إلى قريش يعمل

---

(٥) نفس المرجع، «سورة الفجر،» الآيتان ١٥ ـ ١٦.

(٦) نفس المرجع، «سورة الفجر،» الآيات ١٧ ـ ٢٠.

(٧) قيل: المؤتفكة هي مدائن قوم لوط، ائتفكت بهم فصار عاليها أسفلها كما في قصة لوط. انظر لاحقاً.

(٨) نفس المرجع، «سورة النجم،» الآيات ٣٣ ـ ٣٦. «وأكدى» تعني «وأمسك».

(٩) نفس المرجع، «سورة النجم،» الآيات ٣٨ ـ ٤٢.

(١٠) نفس المرجع، «سورة النجم،» الآيات ٤٨ ـ ٥٦. ويقصد بالعبارات التالية: **﴿وأنّه هو أغنَى وأقنَى﴾**: هو الذي أعطاكم ما تقتاتونه، «الشعرى»: نجم كان يعبده بعض العرب، «آلاء»: نِعَم، «تتمارى» تشك. قيل سمى عاداً «الأولى» لأنها كانت قبل ثمود، وهي ـ في ترتيب القرآن ـ «أول أمة أهلكت بعد نوح». «المؤتفكة» هي مدائن قوم لوط. جعلها في الهاوية، قلبها. فغشاها التراب والحجارة. **﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾** ويتوجه هنا بالكلام إلى الكذبة الذين يشكّون بنعمة الله. **﴿نذيرٌ من النُذر الأولى﴾** وهذا النذير موجه إلى قريش وهو من النذر التي أنذرت بها الأمم الماضية.

على تسلية النبي وأصحابه وتثبيت أفئدتهم وتقوية إيمانهم بأنهم سينتصرون في النهاية، كما انتصر الأنبياء السابقون على أقوامهم. وهذا ما سيتأكد ويتكرر في السور اللاحقة.

٣ ـ في سورة الشمس: ملخص قصة ثمود

وأول سورة ذكرت فيها فصول من وقائع القصص القرآني هي سورة الشمس ورتبتها ٢٦. ففي هذه السورة نجد بعض التفاصيل عن قصة ثمود ـ في سياق يستعيد نفس السياق الذي أبرزناه أعلاه: تبدأ السورة بقسم مماثل للقسم الذي رأيناه في سورة الفجر، يقول تعالى: **﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾**... إلخ، يلي ذلك بيان لطبيعة النفس البشرية كما في سورة الفجر: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾**(١١)، ثُمّ بيان لمصير من سار بها على طريق الصلاح، ومصير من اختار لها طريق الفساد: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾**(١٢). وهنا تأتي قصة ثمود كمثال على من اختار طريق الفساد والطغيان، وذلك بتكذيبهم الرسل وعدم الامتثال لأوامر الله. قال تعالى: **﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا. إِذْ انبَعَثَ أَشْقَاهَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا. وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾**(١٣).

٤ ـ في سورة القلم: «أصحاب الجنة»

وفي سورة «القلم»(١٤) قصة «أصحاب الجنة» (المزرعة) باليمن، يقول تعالى: **﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلا يَسْتَثْنُونَ. فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ. فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ. أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِينَ. فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ. وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ. فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ. قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ.**

---

(١١) نفس المرجع، «سورة الشمس،» الآيات ١ ـ ٢ و٧ ـ ٨ على التوالي.

(١٢) نفس المرجع، «سورة الشمس،» الآيتان ٩ ـ ١٠. ويقصد بـ «من زكاها» من قام بالعمل الصالح أما «دساها» تعني غمرها في الفساد.

(١٣) نفس المرجع، «سورة الشمس،» الآيات ١١ ـ ١٥. وتعني العبارات التالية: «بطَغْواها»: بطغيانها، «انبعث أشقاها»: قام أي قام «أشقاها» (من قبيلة ثمود) بنحر الناقة. «وسقياها» قال لهم رسول الله صالح احترموا ناقة الله ودعوها تشرب، يوم لسقياهم (أفراد قبيلة ثمود) ويوم لسقياها (الناقة). **﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾** أي زلزل الأرض ثم سواها عليهم.

(١٤) سورة القلم مرتبة مع أوائل السور باعتبار الآيات الأولى منها، أما ما عداها فقد نزل في مرحلة متأخرة، وقد رتبناه هنا.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ. عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ. كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(١٥).

٥ ـ في سورة «ق»: نوح، الرس، لوط

وستتكرر الإشارة إلى الأقوام المذكورة قبل، مع أقوام آخرين، في سورة «ق» ورتبتها في ترتيب النزول ٣٤، حيثُ نقرأ: **﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾**(١٦). ثُمّ تنتقل السورة إلى رسم مشهد من مشاهد القيامة التي يتحقق فيها ذلك الوعيد. وهكذا تأتي: **﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾**(١٧).

٦ ـ في سورة القمر وسورة «ص»: إجمال وتأسيس

وإذا كانت سورة «ق» تكتفي بهذا الاستعراض للأسماء بهدف تأكيد الغرض العام من القصص القرآني: **﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾**، فإن سورة القمر ورتبتها ٣٧ تعود إلى كُلّ من عاد وثمود وفرعون ـ مع إضافة لوط ـ لتسرد أخبارهم بإيجاز، وفي سياق واحد، سياق التنديد بتكذيب قريش للنبي محمد ﷺ.

---

(١٥) نفس المرجع، «سورة القلم،» الآيات ١٧ ـ ٣٣. وقد اختبر الله أصحاب الجنة (أصحاب مزرعة في اليمن) كما اختبر قبيلة قريش من قبل بالقحط والجوع. أقسم أصحاب هذه المزرعة ليجنونها باكراً حتى لا يطعم منها فقير. **﴿ولا يستثنون﴾** أي لم يقولوا إن شاء الله. ويقصد بالعبارات التالية: **﴿فطاف عليها طائف﴾**: نار أحرقتها، «الصريم» الرماد، «صارمين» عازمين، «يتخافتون» يتسارّون، «حرد» سوء قصدهم، «لولا تسبحون» هلا تسبحون.

(١٦) نفس المرجع، «سورة ق،» الآيات ١٢ ـ ١٤. اختلفت الروايات اختلافاً كبيراً حول أصحاب الرس، وكُلّ ما تعطيه اللغة هو أن الرس هي البئر. ومن الروايات التي تسترعي الانتباه الرواية المنسوبة إلى ابن عباس وغيره وقد جاء فيها بحسب عبارة القرطبي: «قال ابن عباس: سألت كعباً عن أصحاب الرس قال: هم صاحب «يس» الذي قال: **﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾** [«سورة يس،» الآية ٢٠] قتله قومه ورسُّوه في بئر لهم يقال لها الرس: طرحوه فيها. وقال السدي: هم أصحاب قصة «يس» أهل أنطاكية، والرس بئر في أنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار: مؤمن آل «يس» فنسبوا إليها». كما اختلف المؤرخون والمفسرون قديماً وحديثاً حول فرعون موسى: من هو من بين الفراعنة؟ وهناك من قال باثنين: فرعون تربى موسى في بيته، وفرعون أرسل إليه موسى. واشتدّ الخلاف أيضاً في تحديد اسم فرعون. ونحن نرى أنّه لا طائل للجري وراء ذلك الخلاف لأن فرعون في سياق الآيات التي ذكر فيها هو رمز للطغيان. والغالب ما يستعمل هنا أسلوب «إياك أعني واسمعي يا جارة». الأيكة: قيل ضيعة ذات شجر كثيف، خارج مدينة مدين في الشام، وكان نبيهم شعيب هو نفس نبي مدين. راجع لاحقاً قصة شعيب. تُبَّع من ملوك اليمن، قيل إنّه كان مؤمناً بالله. . . ووعيد هو الهلاك والعذاب.

(١٧) نفس المرجع، «سورة ق،» الآيتان ٢١ ـ ٢٢.

تبتدئ السورة بمقدمة تعرض فيها موقف قريش الذين يفسرون الآيات (أو المعجزات)، التي خصّ الله بها أنبياءه بكونها «سحر مستمر»، أي سيمر أثره وينقضي، مستقرين على اتباع أهوائهم، مكذبين النبي محمد ﷺ، على الرغم من أنّه قد جاءهم من أخبار الأقوام السابقة، الذين كذبوا رسلهم، ما فيه زجر لهم وردع، لو اعتبروا دروسها وعبرها. قال تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَر. وَإِنْ يَرَوا آيَةَ يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ. وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرّ. وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ**﴾[١٨].

بعد هذه المقدمة، أي بعد ترتيب هذا السياق، تشرع السورة (سورة القمر) في سرد أخبار بعض الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم فعرّضوا أنفسهم للهلاك، منبهة كُلّ مرة إلى أن القرآن يعرض تلك القصص بصورة ميسرة ليسهل أخذ العبرة منها، متسائلة في آخر كُلّ قصة: ﴿**فهل من مُدَّكِر**﴾: هل من معتبر؟

ـ تبدأ السورة بالإشارة إلى قصة نوح: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِر. فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر**﴾[١٩]، فاستجاب له ربه وكان الطوفان! ونجا نوح ومن معه بالسفينة التي أمره ربه بصنعها. وتأتي الخاتمة: ﴿**وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر**﴾[٢٠].

ومن نوح تنتقل السورة إلى عاد[٢١] ﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرّ. تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِر**﴾. وتتكرر الدعوة إلى استخلاص الدرس بنفس العبارات: ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾[٢٢].

ومن عاد إلى ثمود: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُر. فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً**

---

(١٨) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآيات ١ ـ ٤. ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾، اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية، فقال بعضهم: «سأل أهل مكة النبيّ ﷺ آية، أي معجزة، فانشقَّ القمر بمكة مرتين. وقد فسرّ بعضهم ذلك بخسوف القمر». وقال قوم: «لم يقع انشقاق القمر بعدُ وهو منتظر؛ وعليه يكون معنى الآية اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر؛ أو إن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره».

(١٩) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآيتان ٩ ـ ١٠. «ازدجر» تعني طرد.

(٢٠) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآيات ١٥ ـ ١٧.

(٢١) ننبه إلى أننا سنقتصر على ذكر أو تلخيص ما ورد من عناصر في هذه القصة أو تلك، أما المحتوى الكامل لكُلّ قصة فنعرضه في السورة التي ورد فيها.

(٢٢) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآيات ١٨ ـ ٢٢ على التوالي. ويقصد بـ «نذر» إنذارات، «ريحاً صرصراً» ريحاً شديدة، و«منقعر» مقتلع.

لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ. أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾(٢٣). ولكي يأخذهم الله بذنبهم جعل الناقة فتنة لهم فأخبرهم رسوله أن الله جعل الماء قسمة بينها وبينهم، يوم لها ويوم لهم، فكذبوه، وإمعاناً في عنادهم كلفوا واحداً منهم بعقرها ففعل، فكان عقاب الله لهم أن أرسل: ﴿عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(٢٤).

ومن عاد وثمود إلى قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾(٢٥). وكان سبب إهلاكهم أنهم كانوا يأتون الرجال من دون النساء. فلما رأوا ذات يوم «ضيوفاً» (ملائكة) لدى لوط أرادوا أن يراودوهم ليمارسوا معهم فعلتهم، فلما دخل «الضيوف» بيت لوط بحثوا عنهم لم يجدوهم. فكان عقاب الله لهم أن قلب عليهم في الصباح قريتهم: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(٢٦).

ومن لوط إلى آل فرعون الذين تكتفي السورة هنا بالإشارة إليهم في آيتين بعبارات عامة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ. كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾(٢٧).

هنا تقف بنا سورة القمر في استعراضها للأقوام الماضية الذين كذبوا رسلهم ونالوا عقابهم، لتنتقل إلى قريش، المكذبين للنبي محمد ﷺ، فتسألهم: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ. أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ. إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ. يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ. وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ. وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾(٢٨).

---

(٢٣) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآيات ٢٣ ـ ٢٥. وتعني بـ «سُعُر» جنون.

(٢٤) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآيتان ٣١ ـ ٣٢. «المُحتَظِر» هو حظيرة البهائم.

(٢٥) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآيتان ٣٣ ـ ٣٤. وتعني «حَاصِباً» عاصفة شديدة ترميهم بالحجارة، أما السحر فهو أثناء الليل، قبل العاصفة.

(٢٦) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآية ٤٠.

(٢٧) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآيتان ٤١ ـ ٤٢.

(٢٨) نفس المرجع، «سورة القمر،» الآيات ٤٣ ـ ٥٣. ويقصد بالعبارات التالية: «الزبر» الكتب المنزلة، ﴿نحن جميع منتصر﴾ جند كثير وسننتصر، ﴿خلقناه بقدر﴾ خلقناه مقدراً مرتباً، «سقر» جهنم، «مستطر» مكتوب مسطور. ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أي ما أمر الله إلا كلمة واحدة ويحدث المطلوب كلمح البصر.

٧ ـ نتائج ومقدمات . . . ومقدمات

اقتصرنا في الفقرات السابقة، بصدد القصص التي ذكرنا، على ما ورد في السور المذكورة، التي نعتبر ما ورد فيها في هذا الموضوع بمثابة مرحلة أولى. وقد تجنبنا تكملة أية قصة، لا بما سيرد في السور الأخرى ولا بما ذكره المفسرون من آراء وروايات وجلّها مما كان العرب يقصونه بشأنها. أما مسألة ما إذا كان محتوى هذه القصص يحكي وقائع تاريخية، فهي مسألة لا معنى لها في نظرنا، كما بينا ذلك في مقدمة هذا القسم. فالتاريخ الذي ينتمي إليه هذا القصص هو التاريخ المقدس، تاريخ الأنبياء والرسل. أما ما يجري في هذا القصص من حوار بين الأنبياء وأتباعهم من جهة، وخصومهم من جهة أخرى، فهو في نظرنا كالحوار الذي يجري ـ في القرآن ـ بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، في وقت لم تقم فيه القيامة بعد. وإذا كان هذا الحوار ـ الأخير يجري في الغالب بصيغة الماضي، فذلك كما يقول المفسرون، ينسجم مع أساليب اللغة العربية التي يُعبَّر فيها بصيغة الماضي عن أحداث يُنتظَر حدوثُها في المستقبل، وذلك تأكيداً لكون الحدث المعني سيحدث لا محالة.

هذا في ما يتعلق بالأحداث التي يرويها القصص القرآني عن الأقوام الماضية. أما ما ورد، خلال حكاية ذلك، مما يخص الدعوة المحمدية، فهو حقائق تاريخية، وردت في شأنها أخبار في كتب السيرة. وهذه الأخبار ليست هي الدليل على صحتها. بل إن ما ورد منها في القرآن هو دليل الصحة فيها، لأن القرآن منقول إلينا بالتواتر، أما أخبار الرواة فهي أخبار آحاد، معرضة للخطإ.

ونحن قد اخترنا السير مع القصص القرآني، كما ورد، حذو النعل بالنعل كما يقول المثل، لأن هذا القصص لم يكن الغرض منه ـ كما نبهنا إلى ذلك قبل ـ القص بالمعنى المعروف، بل كان الهدف منه تثبيت النبي وصحبه في مواقفهم، وتقوية عزيمتهم بتذكيرهم بما حصل للأنبياء السابقين وما عانوه مع أقوامهم فصبروا حتّى كان النصر حليفهم، وفي ذلك أيضاً تخويف لخصوم الدعوة المحمدية وحملهم على التفكير في المصير الذي ينتظرهم. وسيتضح هذا في المرحلة الثانية حيثُ سنلاحظ بوضوح كيف أن جدل الأنبياء السابقين مع أقوامهم المكذبين يلبس لباس جدل النبي محمد ﷺ مع خصومه من قريش. أما أحداث هذه القصة أو تلك فهي توزع وتصاغ بالصورة التي تناسب الظرف الذي تجتازه الدعوة المحمدية. فقد يسبق ذكر ما ينتمي إلى آخر القصة أو وسطها ـ حسب التسلسل الزمني المفترض للأحداث ـ قبل ذكر ما ينتمي إلى أولها. إن القصد الأول هو الدرس الذي يستخلص من الحدث وليس موقع الحدث في القصة.

ثانياً: الصنف الثاني: التنويه بالأنبياء السابقين

١ ـ سورة «ص»، والردّ على مساومات قريش

ومن سورة القمر ننتقل إلى سورة «ص» التي تليها على سلم ترتيب النزول (ورتبتها ٣٨). هي تدشن مرحلة جديدة، يمكن أن نتبين خصوصيتها بوضوح من خلال ما ذكر عن «سبب نزولها». روى ابن إسحاق قال: لما مرض أبو طالب (عم النبي وكان يحميه من أذى قريش) «قالت قريش بعضُها لبعض: إن حمزة (عم النبي) وعمر (بن الخطاب) قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلِّها، فانطلِقوا بنا إلى أبي طالب، فيأخذ لنا على ابن أخيه، وليعطِه مِنَّا، واللّه ما نأمَن أن يبتزُّونا أمرَنا». وأضاف ابن إسحاق: «مشوا إلى أبي طالب (. . .) في رجال من أشرافهم فقالوا: يا أبا طالب، إنك منا حيثُ قد علمتَ، وقد حضرك ما ترى، وتخوَّفْنا عليك، وقد علمتَ الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادْعه فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكفَّ عنا ونكفَّ عنه، وليدعَنا ودينَنَا، وندَعه ودينَه. فبعث إليه أبو طالب فجاءه، فقال له: يا ابن أخي، هؤلاء أشرافُ قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك. قال: فقال رسول اللّه ﷺ: نعم، كلمة واحدة تُعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم. قال: فقال أبو جهل: نعم وأبيكَ، وعشر كلمات؛ قال: تقولون: لا إله إلا اللّه، وتخلعون ما تعبدون من دونه. قال: فصفقوا بأيديهم، ثُمّ قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهةَ إلهاً واحداً، إن أمرَك لعَجب! قال بعضهم لبعض: إنه واللّه ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلِقُوا وامضُوا على دين آبائكم، حتّى يحكم الله بينكم وبينه. قال: ثُمّ تفرقوا»[٢٩].

وإذا صحت هذه الرواية وصحّ ما ذكره المفسرون والمؤلفون في «أسباب النزول» من أن سورة «ص» نزلت بمناسبة الواقعة المذكورة فإن هذه السورة ستكون فعلاً جواباً قرآنياً على محاولة قريش مساومة النبي ﷺ، وأن نزولها كان بعد إسلام عمر وحمزة (السنة الخامس/ السادسة للنبوة) وقبيل الحصار الذي فرضته قريش على الرسول وأهله حوالى السنة السابعة للنبوة. يقول تعالى:

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلْ الَّذِينَ كَفَرُوا في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا

---

(٢٩) يذكر ابن إسحاق أن قريشاً كرروا التدخل لدى أبي طالب، وأنهم في إحدى المرات قالوا له إن كان يريد مُلكاً ملّكناه وإن كان يريد مالاً أعطيناه. . . إلخ، فكان جواب الرسول: «واللّه لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمر حتّى يُظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته»..

سَاحِرٌ كَذَّابٌ. أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ. وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ. مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ. أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ. أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ. جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾(٣٠).

هنا تُذكِّر السورة ببعض الأمم الماضية التي كذبت الرسل وتحزبت ضدهم، كما تفعل قريش: لقد **﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ. وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ. إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ. وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ. وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾**(٣١).

٢ ـ داوود وسليمان والملكة بلقيس

وهنا تتجه السورة بالخطاب إلى النبي ﷺ فتوصيه بالصبر وتذكّره بتجربة النبي داوود الذي منحه الله ملكاً عظيماً، أعظم كثيراً من ذلك الذي ساومته به قريش. يقول تعالى: **﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ. وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾**(٣٢).

من ذلك ما جرى له في هذه القصة: **﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى**

---

(٣٠) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيات ١ ـ ١١. **﴿ذي الذكر﴾** أي المشتمل على القصص للذكرى والعبرة. **﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾** أي معرضون ممانعون. **﴿كم أهلكنا... مناص﴾** أي أهلكنا من أمم وأقوام ولم يطلبوا التوبة إلا بعد فوات أوانها. **﴿وعجبوا... الملأ منهم﴾** أي خرجوا من عند أبي طالب وهم يقولون. **﴿إن هذا لشيء يراد﴾** أي يراد لنا منه سوء. **﴿ما سمعنا... اختلاق﴾** أي القرآن اختلقه محمد. و«الملة الآخرة» هي النصرانية. **﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾** وليس على أشرفنا؟! **﴿بل هم في شك... عذاب﴾** وكيف عرفوا أنه ليس من عند الله. **﴿أم عندهم خزائن... الأسباب﴾** فليصعدوا إلى السماء لمنع جبريل من الإتيان بالقرآن إلى محمد. **﴿جُندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾** أي جند مهلهل متحزبون ضد النبي.

(٣١) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيات ١٢ ـ ١٦. ويقصد بالعبارات التالية: «الأيكة»: الغيضة الكثيفة الشجر، «ينظر»: ينتظر، «قطّنا»: نصيبنا من العذاب. **﴿... إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾** أي صيحة القيامة لا يرجعون بعدها.

(٣٢) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيات ١٧ ـ ٢٠. ويقصد بالعبارات التالية: «ذا الأيدِ» ذا القوة، «محشورة» مجتمعة حوله (حول داوود)، «أواب» مطيع، «فصل الخطاب» الفصل البين بين النزاعات.

بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ. إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ. قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ. فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ. يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٣٣].

وتخلص السورة إلى العبرة التي يجب استخلاصها من قصة داوود. فهذا الملك العظيم قد عرّضه الله للفتنة، أي للبلية العظيمة (قيل سولت له نفسه أخذ تلك المرأة موضوع الدعوى)، قصد امتحانه، فلما انتبه استغفر ربه فغفر له، وأوصاه بالحكم بالعدل وعدم اتباع هوى النفس، فالهوى يضل عن العدل، ومصير الضال العقاب الشديد. ذلك أن الله لم يخلق السماوات والأرض عبثاً وباطلاً ومن دون حكمة، كما يظن الذين كفروا، الذين مصيرهم النار، بل خلقها بالعدل تجري حسب نظام ثابت وعلاقات متوازنة، وكذلك الشأن في العلاقات بين الناس يجب أن تجري على نظام وعلاقات متوازنة حتّى لا يختل اجتماعهم![٣٤] فهل من المعقول أن يخلق الله العالم بما فيه الإنسان من دون حكمة، فيجعل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ﴾[٣٥] ويجعل ﴿الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[٣٦]. وكذلك الشأن في القرآن، الذي يكذبونه، إن الله لم ينزله باطلاً، أو من دون غرض وحكمة، بل هو: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[٣٧].

وكنوع من التكملة لقصة داوود، تذكر السورة، في السياق نفسه، مقطعاً من قصة سليمان، النبي الذي آتاه الله القوة والملك، والذي تعرض هو الآخر للفتنة، للامتحان والاختبار. فلما انتبه استغفر وأناب مثلما فعل والده داوود. يقول تعالى:

---

(٣٣) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيات ١٧ ـ ٢٦. ويقصد بالعبارات التالية: «الخَصم» المتخاصمين: هما ملاكان، «المحراب» المسجد، «نَعجة» امرأة، «أكْفلنيها» تنازل لي عنها، «عزني» غلبني، «بسؤال» بطلب، «الخُلَطاء» الشركاء، «بما نَسوا» لنسيانهم. ﴿قال لقد ظلمك بسؤال... وظنّ داوود أنّما فتنّاه﴾ أي خاف أن يكون قد أفتى بذلك لكونه يحبّ تلك المرأة لنفسه.

(٣٤) ذلك هو أصل فكرة العدل في الفكر القديم، ومنه استقوا فكرة العدل في العلاقات بين الناس، وحدّدوه بأنه «إنزال الناس منازلهم». فكما أن أشياء العالم الطبيعي مرتبة، كُلّ حسب منزلته التي اقتضاها توازن الكون، فكذلك يجب أن يكون الأمر بين الناس، وذلك هو العدل.

(٣٥) نفس المرجع، «سورة ص،» الآية ٢٨.

(٣٦) نفس المرجع، «سورة ص،» الآية ٢٨.

(٣٧) نفس المرجع، «سورة ص،» الآية ٢٩.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ. فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ. رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ. وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ. فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ. هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾(٣٨).

واضح أن مغزى قصة كُلّ من داوود وسليمان في هذه السورة مغزى واحد، وسياقهما سياق واحد: إن داوود وسليمان رفضا الإغراءات، وعلى النبي محمد ﷺ أن يرفض مساومات قريش وإغراءاتها. ولذلك جمعنا بين القصتين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكما سلّط الله الهلاك على الذين كذبوا رسلهم لم يعجزه أن يظِهر أقوى الملوك بمظهرهم الحقيقي كبشر ضعفاء امام الموت حتّى ولو كان الله قد سخر لهم الطبيعة والجن فضلاً عن الإنس. ذلك ما تشرحه كُلّ من سورة النمل وسورة سبأ. ففي سورة النمل ورتبتها ٤٨، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ. وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾(٣٩). وذات مرة تفقَّد سليمان الطيور في قصره فلاحظ غياب الهدهد. لكن هذا الأخير ما لبث أن حضر حاملاً لسليمان أخباراً من قوم سبإ، قال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾(٤٠). فبعث سليمان مع الهدهد رسالة إلى هذه الملكة (بلقيس) يدعوها وقومها إلى الخضوع له والاستسلام: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ

---

(٣٨) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيات ٣٠ ـ ٤٠. ﴿**مسحاً بالسوق والأعناق**﴾ بدأ يضرب بالسيف سيقانها وأعناقها ندماً على الانشغال بها عن وقت صلاته. ﴿**ولقد فتنا... كرسيه جسداً**﴾ حلّ محلّه، وكأنه نزع منه ملكه: حلم بذلك. ﴿**وآخرين مقرّنين في الأصفاد**﴾ مشدودين بالقيود، حتّى لا يفسدوا في الأرض. ﴿**وإن له عندنا الزلفى وحسن مآب**﴾ يعود ضمير الهاء في «له» إلى سليمان. ويقصد بالعبارات التالية: «الصافنات» الخيل، «أناب» رجع إلى الله، «رخاء» لينة، «أصاب» أراد، «فامنن» أعط منّة. ستأتي تتمة قصة سليمان في «سورة النمل» لاحقاً.

(٣٩) نفس المرجع، «سورة النمل،» الآيات ١٥ ـ ١٧.

(٤٠) نفس المرجع، «سورة النمل،» الآيتان ٢٣ ـ ٢٤.

الرَّحِيم. أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(٤١). استشارت الملكة قومها، فقالوا: **﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ. قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾**(٤٢).

ولما وصلت الهدية إلى سليمان رفضها وكلف إحدى القوى الخفية المسخرة له أن تأتيه بكرسي عرشها، فحضر الكرسي في لمح البصر. ثُمّ أمر سليمان بادخال تغييرات في مظهره، ثُمّ دعا بلقيس إليه، فلما جاءت وعرض عليها الكرسي تعرفت عليه. وكان سليمان قد شيد ما يشبه صهريجاً مملوءاً ماء وجعل سقفه من زجاج وسواه مع مستوى سطح الأرض، وجعله على عتبة غرفة عرشه. دعاها سليمان إلى الدخول إليه، فلما رأت الصهريج بينه وبينها، ولم تنتبه إلى الزجاج فوق الماء، رفعت ثوبها عن ساقيها حتّى لا يبتل، وسليمان متكئ وراء، فأبصر ساقيها فأعجب بهما. ثُمّ أخبرها إنه سطح من زجاج فلا داعي للخوف من ابتلال ثوبها. وهنا: **﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**(٤٣).

ومع ذلك كُلّه وبالرغم مما سخر الله لسليمان من وسائل القوة فإنه عندما جاءه الأجل توفاه الله وحيداً في قصره متكئاً على عصاه، ولم ينتبه لوفاته، لا الجن المسخر له ولا جنود من الإنس الذين استمروا جميعاً في أعمالهم الشاقة التي كلفهم بها، إلى أن أكلت الأرَضَة عكازه فسقط جسمه على الأرض. ذلك قوله تعالى في سورة سبإ (ورتبتها ٥٨): **﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ. فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾**(٤٤).

---

(٤١) نفس المرجع، «سورة النمل،» الآيتان ٣٠ ـ ٣١.

(٤٢) نفس المرجع، «سورة النمل،» الآيات ٣٣ ـ ٣٥.

(٤٣) نفس المرجع، «سورة النمل،» الآية ٤٤. قال ابن كثير في **قصص الأنبياء**: «وقد ذكر الثعلبي وغيره أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليها، وكان يزورها في كُلّ شهر مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام ثُمّ يعود على البساط، وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن: غمدان وسالحين وبيتون. وقد روى ابن إسحاق عن بعض «أهل العلم» عن وهب بن منبه أن سليمان لم يتزوجها بل زوّجها بملك همدان، وأقرها على ملك اليمن، وسخر مَلك اليمن فبنى لها القصور الثلاثة». راجع: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، **قصص الأنبياء**، ج ٢.

(٤٤) **القرآن الكريم**، «سورة سبإ،» الآيات ١٢ ـ ١٤. ويقصد بالعبارات التالية: «عين القطر» النحاس، «محاريب» أبنية مرتفعة، «الجوابي» أحواض كبيرة، «منسأته» عكازه.

٣ ـ قصة سبأ وانهيار سدّ العرم

هنا تنتقل بنا السورة إلى قصة سبإ، مملكة الملكة بلقيس، لتخبر عن أحوال أهلها وكيف أنهم لقوا نفس المصير المهلك الذي نال القرى الأخرى التي كذبت رسلها: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ. وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ. فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ. وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**﴾[٤٥].

وفي النهاية تعود السورة إلى الجدل الذي فتحته مع مشركي قريش في مطلعها فتُختم القصة بقوله تعالى: ﴿**قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ**﴾[٤٦].

ذلك ما سجّله القرطبي في شرحه لهذه الآية إذ يقول: «أي هذا الذي مضى ذكره من أمر داوود وسليمان وقصة سبإ من آثار قدرتي، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرة على شيء من ذلك».

٤ ـ أيوب وغيره من الأخيار

بعد الاستطراد مع قصة داوود وسليمان نعود إلى منطلقنا، إلى سورة «ص» التي تنتقل بنا إلى التذكير بقصص أنبياء آخرين وما خصهم الله به من فضله. يقول تعالى مخاطباً نبيه الكريم: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ. وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ. وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي**

---

(٤٥) نفس المرجع، «سورة سبإ،» الآيات ١٥ ـ ٢١. وتعني العبارات التالية: «سيل العرم» انهيار السد، «خمط» شجر ورقه مر، «أثل» شجر صلب. «قرى ظاهرة» تعني القرى التي بارك الله فيها قيل إنها قرى الشام وجعلها قرى ظاهرة على طريقهم للراحة حين السفر.

(٤٦) نفس المرجع، «سورة سبإ،» الآية ٢٢. و﴿**الذين زعمتم من دون الله**﴾ هي الأصنام.

الأيْدِي وَالأبْصارِ. إنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّار. وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأخْيَار. وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ﴾[٤٧]. بعد ذلك تنتقل السورة إلى وصف نعيم الجنة وعذاب النار، وخصام هؤلاء مع بعضهم بعضاً، ثُمّ تتوجه بالخطاب إلى النبي ﷺ: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلاّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ. قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ. إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾**[٤٨].

وبمناسبة ذكر الملإ الأعلى وما فيه من أخبار تنقل السورة إلى النبي ﷺ خبر ما جرى بـ «الأعلى»، عند امتناع إبليس عن تلبية أمر الله بالسجود لآدم، وما نتج عن ذلك من إخراجه من الجنة ملعوناً. ذلك قوله تعالى: **﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلاّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُون. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾**[٤٩].

وتختم السورة بالتوجه بالخطاب إلى النبي (ﷺ) مشيرة إلى ما كانت قريش قد عرضته عليه من الملك والمال... إلخ مقابل أن يسكت عنهم وعن أصنامهم،

---

(٤٧) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيات ٤١ ـ ٤٨. **﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾** أي اضرب برجلك الأرض، ففعل فانبجست عين ماء. **﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾** اغتسل به واشرب، ففعل وزال عنه الألم. **﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ...﴾** أي زوجته وأولاده والأحفاد. **﴿فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ﴾** اضرب زوجتك وكان قد حلف أن يضربها لإبطائها عليه. **﴿أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾** أي أصحاب القوة والنسل والعقول. «اليسع» اختلف المفسرون في تحديد هويته فقيل هو إلياس وقيل هو الخضر. **﴿وذا الكفل﴾** في الحديث كان في بني إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله، فاتبع امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، ارتعدت وبكت. فقال ما يبكيك؟ قالت من هذا العمل. والله ما عملته قط. قال أأكرهتك؟ قالت لا ولكن حملني عليه الحاجة. قال اذهبي فهو لك، والله لا أعصى الله بعدها أبداً! ثُمّ مات من ليلته فوجدوا مكتوباً على باب داره: إن الله قد غفر لذي الكفل». ويقصد بالعبارات التالية: «بنصب» بضرر، «عذاب» ألم، «ضغثاً» حزمة عشب، «ذكرى الدَّار» الآخرة.

(٤٨) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيات ٦٥ ـ ٧٠. «يختصمون» أي يختصم أصحاب النار بعضهم مع بعض.

(٤٩) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيات ٧١ ـ ٨٥. «أنظرني» تعني أمهلني، و«يوم يبعثون» يعني يوم القيامة.

وذلك عندما توسطت إليه بعمه أبي طالب، كما ذكرنا في أول حديثنا عن هذه السورة. قال تعالى: **﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾**(٥٠). وستتكرر هذه العبارة على لسان أنبياء آخرين في سياق حكاية صراعهم مع أقوامهم.

* * *

لعله من الواضح الآن أن سياق هذه السورة من أولها إلى آخرها، سياق واحد: الردّ على محاولة قريش مساومة النبي ﷺ بإرسال وفد من أشرافهم إلى عمه أبي طالب يطلبون منه أن يتدخل وسيطاً بينهم وبينه قائلين: «خذ له منا، وخذ لنا منه، ليكفَّ عنا ونكفَّ عنه، وليدعَنا ودينَنا، وندَعه ودينَه». وإذا كانت القصص السابقة (قصص أقوام عاد وثمود. . . إلخ) قد وجه الخطاب فيها إلى قريش لأخذ العبرة من مصائر تلك الأقوام، فإن القصص التي ذكرتها سورة «ص» موجهة أساساً إلى النبي ﷺ. . وقد خصت السورة قصة داوود وسليمان بشيء من التفصيل، لموقفهما المشابه للموقف الذي أرادت قريش أن تضع فيه النبي ﷺ: فما يجمع بين قصة سليمان وقصة داوود في هذا المقام هو عدم انسياقهما مع إغراء «زينة الحياة الدنيا» (حبّ المرأة بالنسبة إلى داوود وحب الخيل بالنسبة إلى سليمان) وزهدهما، ورجوعهما إلى الصراط المستقيم. أما إبليس فقد وقع بالعكس من ذلك في الغرور حينما رأى نفسه أفضل من آدم، وأنه لا ينبغي له أن يسجد له وهو الذي خلق من نار (والنور من النار) بينما خلق آدم من طين (والظلام من التراب). وهكذا فصمود النبي امام إغراءات قريش هو من جنس صمود داوود وسليمان، أما غرور قريش وتعجبهم من أن يبعث الله رسولاً إليهم لا يرقى إلى شرف كبرائهم، فهو من جنس غرور إبليس.

٥ ـ قصة إبراهيم

اقتصرت سورة «ص» ـ كما رأينا ـ على الإشارة إلى إبراهيم على رأس الأنبياء الثلاثة **﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾** أولي القوة والنسل والعقل (الفقرة ٣ أعلاه). أما قصته فقد وردت في القرآن المكي في ثمانية نصوص قصيرة موزعة على ثماني سور على الترتيب التالي حسب النزول: في مريم ٤٤، والشعراء ٤٧، والأنعام ٥٥، والصافات ٥٦، والنحل ٧٠، وإبراهيم ٧١، والأنبياء ٧٣، والعنكبوت ٨٥. ومع

---

(٥٠) نفس المرجع، «سورة ص،» الآيات ٨٦ ـ ٨٨. قل: هنا الكلام موجه إلى قريش، **﴿ما أسألكم عليه﴾** أي على تبليغ الوحي. المتكلفين تعني المتخرصين. **﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾** أي ستعلمون حقيقته في المستقبل.

أن السياق العام الذي ورد فيه ذكر قصة إبراهيم شيخ الأنبياء كان هو نفسه في جميع هذه السور ـ سياق التنويه بالأنبياء ورسالاتهم والدخول في جدل مع قوم إبراهيم عبدة الأصنام وتوجيه الوعيد إليهم ودعوتهم إلى تحكيم العقل ـ فإن المضمون يزيد أو ينقص في كُلّ سورة، وذلك حسب السياق الخاص الذي يذكر فيه هذا النبي الكبير. وإذا كان هذا ينطبق على السور المذكورة كلها فإن الأخيرة منها (العنكبوت) تتميز بسياق خاص. وهكذا يُمكن التمييز في النصوص التي تعرض لقصة إبراهيم في القرآن المكي بين صيغتين: صيغة يدور محتواها حول استنكار إبراهيم لعبادة الأصنام التي يُمارسها أبوه وقومه، وصيغة أخرى متداخلة مع قصة لوط. أما الصيغة الأولى فلم نجد في التوراة ما يقابلها[٥١]، ومضمونها موجه أساساً إلى قريش عبدة الأصنام. وأما الثانية فهي تتطابق على الجملة مع ما ورد في التوراة حول إبراهيم ولوط كما سنرى.

تنتمي قصة إبراهيم في القرآن المكي، إذاً، إلى الصنفين **الأول والثاني** من قصص القرآن المكي. وقد أدرجناها هنا، في الصنف الثاني، اعتباراً لرتبة السورة التي وردت فيها لأول مرة (سورة مريم ورتبتها ٤٤) في لائحة ترتيب نزول السور، فهي تأتي بعد سورة «ص» التي رتبتها ٣٩.

أ ـ إبراهيم يستنكر عبادة الأصنام

(١) في سورة مريم: قطيعة مع أبيه

ينطلق كفاح إبراهيم، شيخ الأنبياء، ضدّ الشرك من دعوة أبيه (من دون ذكر اسمه هنا) إلى التخلي عن عبادة الأصنام وإخباره بأنه جاءه من العلم (الوحي) ما إن اتبعه تحرر من سيطرة الشيطان واهتدى إلى الصراط المستقيم. لكن جواب أبيه كان الرفض القاطع والتهديد بالرجم والنفي، ما جعل إبراهيم يعلن أنّه سيعتزل قومه وسيطلب المغفرة من الله لأبيه[٥٢]. وتخبرنا السورة أنّه بعد اعتزاله لهم وهبه الله إسحاق ابنه ويعقوب حفيده فصارا معه على رأس أنبياء بني إسرائيل. يقول تعالى:

---

(٥١) في التوراة والإنجيل مقاطع عديدة تشجب عبادة الأصنام، وتؤكد وحدة الربّ. من ذلك ما جاء في الوصايا العشر. راجع الفصل ١٠ من هذا الكتاب. ومن ذلك أيضاً ما ورد «اسمعوا يا بني إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد»، و«أليس لنا جميعاً أب واحد. ألم يخلقنا إله واحد» [**الكتاب المقدس**: «سفر التثنية،» الأصحاح ٦، الآية ٤، و«سفر ملاخي،» الأصحاح ٢، الآية ١٠ على التوالي].

(٥٢) لكن طلبه لم يقبل في نهاية الأمر، كما أوضحت ذلك سورة «التوبة» من القرآن المدني. قال تعالى: **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم﴾** [**القرآن الكريم**، «سورة التوبة،» الآية ١١٤].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِياً. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِياً. يَا أَبَتِ لا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِياً. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِياً. قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِياً. قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِياً. وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِياً. فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِياً. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِياً﴾(٥٣).

يأتي بعد ذلك ذكر أنبياء آخرين: موسى، إسماعيل، إدريس، في السياق نفسه، سياق التنويه بهم، ولكن مجرد ذكر.

(٢) في سورة الشعراء: الاحتكام إلى العقل

أما في سورة الشعراء فيخاطب إبراهيم أباه وقومه مركّزاً على لا معقولية عبادة الأصنام، التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر! ثُمّ يتجه بالدعاء إلى الله بصيغة تبين لقومه فضل الله على الإنسان. يقول تعالى: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ. رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ. وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾**(٥٤). وواضح أن هذا الدعاء يقدم هنا كنموذج لدعاء المؤمن ربه. فالسياق إيجابيّ النزعة كالسابق، فلا وعيد لا في الدنيا ولا في الآخرة.

---

(٥٣) نفس المرجع، «سورة مريم،» الآيات ٤١ ـ ٥٠. **﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً﴾** أي اذكر يا محمد في القرآن أن إبراهيم كان صدّيقاً نبياً. «تعبد» تعني تطع، «حفياً» تعني لطيفاً.

(٥٤) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيات ٦٩ ـ ٨٩. **﴿واتلُ عليهم نبأ إبراهيم﴾** أي اتل يا محمد على قريش نبأ إبراهيم. **﴿أو ينفعونكم أو يضرون﴾** وردت في التوراة فقرات وعبارات، مثل هذه، في التنديد بعبادة الأصنام. من ذلك: «وهناك تعبدون آلهة من خشب وحجر من صنعة أيدي الناس مما لا يبصر ولا يسمع ولا يأكل ولا يشم» [**الكتاب المقدس**، «سفر التثنية،» الأصحاح ٤، الآية ٢٨]. «حكماً» من حكمة أي معرفة عقلية.

(٣) في سورة الأنعام: لا أحب الآفلين

ويتكرر نفس الأمر في سورة الأنعام ولكن بصيغة جديدة وحجاج منطقي وتنويه بالأنبياء. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ. وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ. وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾. وتواصل السورة الكلام عن قريش: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ. وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى (مكة) وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٥٥].

---

(٥٥) نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآيات ٧٤ ـ ٩٢. ﴿**فإن يكفر به هؤلاء**﴾ يقصد بهم مشركي مكة. ﴿**فقد وكلنا بها قوماً**﴾ يعني المسلمين. ﴿**فبهداهم اقتده**﴾ وفي قراءة: اقتد، من دون هاء (يا محمد). ﴿**والحكم والنبوة**﴾ «الحكم» يقصد به الحكمة. ﴿**وما قدروا الله... تخفون كثيراً**﴾ الخطاب هنا لقريش وقد ورد في السيرة أن بعض الصحابة ـ وبالتالي بعض قريش ـ كانت لديهم قطع من التوراة. ويقصد بـ «أم القرى» مكة في الآية ﴿**ولتنذر أم القرى**﴾.

(٤) في سورة الصافات: إبراهيم يؤمر بذبح ابنه

وتأتي سورة الصافات لتحمل جديداً لم تسبق الإشارة إليه من قبل، وهو أمر الله إبراهيم أن يذبح ابنه قرباناً. أما السياق فهو نفسه: التنويه بالأنبياء. فبعد التنويه بنبي الله نوح يأتي إبراهيم. يقول تعالى: **﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُون. أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِين. فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُوم. فَقَالَ إِنِّي سَقِيم. فَتَوَلَّوا عَنْهُ مُدْبِرِين. فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُون. مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِين. فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ. قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيم. فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ. وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِين. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِين. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيم. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ. سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِين﴾**(٥٦).

---

(٥٦) نفس المرجع، «سورة الصافات،» الآيات ٨٣ ـ ١١٣. «شيعته» أي السائرين على درب نوح، «فراغ» ذهب خفيه، «يزفون» مسرعون، «أسلما» سلما بالأمر وأطاعا، «تلّه للجبين» صرعه على جبينه ليذبحه. اختلف الصحابة والمفسرون في المأمور بذبحه. فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق، وقال بعضهم هو يوسف بينما ذهب آخرون إلى أنّه إسماعيل. والذي يظهر من سياق النصّ أن المقصود هو إسماعيل، فقد ورد ذكره هو أولاً ثُمّ جاء الأمر بالذبح، ثُمّ بعد ذلك وردت البشرى بميلاد إسحاق. أما في التوراة فنقرأ ما يلي: «وبعد هذا امتحن الله إبراهيم فناداه يا إبراهيم فأجابه لبيك. فقال له خذ ابنك وحيدك إسحاق الذي تحبه وانطلق إلى أرض المريا وقدمه محرقة على أحد الجبال الذي أهديك إليه. فاستيقظ إبراهيم مبكراً في الصباح التالي وأسرج حماره وأخذ اثنين من غلمانه وابنه إسحاق. وجهز حطباً لمحرقة وانطلق ماضياً إلى الموضع الذي قال له الله عنه. وفي اليوم الثالث تطلع إبراهيم فشاهد المكان من بعيد. فقال إبراهيم لغلاميه امكثا هنا مع الحمار، ريثما أصعد أنا والصبي إلى هناك لنتعبد لله ثم نعود إليكما. فحمّل إبراهيم إسحاق حطب المحرقة وأخذ هو بيده النار والسكين وذهبا كلاهما معاً. وقال إسحق لإبراهيم أبيه يا أبي. فأجابه نعم يابني. فسأله ها هي النار والحطب ولكن أين خروف المحرقة. فرد عليه إبراهيم إن الله يدبر لنفسه الخروف للمحرقة يا ابني. وتابعا مسيرهما معاً. ولما بلغا الموضع الذي أشار إليه الله شيد إبراهيم مذبحاً هناك ونضد الحطب ثم أوثق إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ومد إبراهيم يده وتناول السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء قائلاً إبراهيم إبراهيم فأجاب نعم. فقال لا تمد يدك إلى الصبي ولا توقع به ضراً لأني علمت أنك تخافُ الله ولم تمنع ابنك وحيدك عني. وإذ تطلع إبراهيم حوله رأى خلفه كبشاً قد علق بفروع أشجار الغابة فذهب وأحضره وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه. ودعا إبراهيم اسم ذلك المكان يهوه يرأه. ولذلك يقال حتّى اليوم في جبل الرب الإله يرى». «يهوه يرأه» ومعناه الرب يدبر. **﴿وتركنا عليه أي في الآخرين﴾** أي تركنا ثناء حسناً.

(٥) في سورة النحل: اتبع ملة إبراهيم

وفي نفس السياق، سياق التنويه بالأنبياء والثناء عليهم، يقول تعالى في سورة النحل:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٥٧).

(٦) في سورة إبراهيم: مكة مسكن ذرية إبراهيم

وفي سياق تعداد نعم الله على الناس، والمقصود هنا سكان مكة، يأتي هذا الدعاء الذي رفعه إبراهيم إلى الله ليجعل مكة بلداً آمناً، وفي الوقت نفسه يخبر أن سكانها من ذريته. ويدعو الله أن يجنبهم عبادة الأصنام وأن يعفو عمن عصاه منهم. يقول تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾**(٥٨).

---

(٥٧) نفس المرجع، «سورة النحل،» الآيات ١٢٠ ـ ١٢٣. ويقصد بالعبارات التالية: «أمّة» إماماً وقدوة، «قانتاً للّه» مطيعاً له وملتزماً بالدين القيم. **﴿ثم أوحينا إليك﴾** أي أوحينا إليك يا محمد.

(٥٨) نفس المرجع، «سورة إبراهيم،» الآيات ٣٥ ـ ٤١. **﴿هذا البلد آمناً﴾** في التوراة أن البلد المقصود هنا هو بيت إيل، (بالعبرية بيت الله) أما اسمها الحالي بالعربية فهو «بيتين» وتقع على بعد ١٨ كم شمال شرق القدس. وفي ما يلي ما ورد فيها عن إبراهيم وهجرته من بلده الأصلي «أور» بالعراق متجهاً إلى أرض كنعان (فلسطين): وهذا هو سجل مواليد تارح ولد تارح أبرام وناحور وولد هاران لوطاً. ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض مولده في أور الكلدانيين. وتزوج كل من أبرام وناحور وكان اسم زوجة أبرام ساراي واسم زوجة ناحور ملكة بنت هاران التي أنجبت ملكة ويسكة. وكانت ساراي عاقراً ليس لها ولد. وأخذ تارح ابنه أبرام وحفيده لوطاً بن هاران وساراي كنته زوجة ابنه أبرام وارتحل بهم من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان لكنهم وصلوا إلى حاران واستقروا فيها. وهناك مات تارح وله من العمر مئتان وخمس سنين» **[الكتاب المقدس،** «سفر التكوين،» الأصحاح ١١، الآيات ٢٧ ـ ٣٢]. «وقال الرب لأبرام اترك أرضك وعشيرتك وبيت أبيك واذهب إلى الأرض التي أريك. فأجعل منك أمة كبيرة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة لكثيرين. وأبارك مباركيك وألعن لاعنيك وتتبارك فيك جميع أمم والأرض. فارتحل أبرام كما أمره الرب ورافقه لوط وكان أبرام =

(٧) في سورة الأنبياء: يا نار كوني سلاماً على إبراهيم

تعرضت سورة الأنبياء لقصص عدد من الأنبياء على سبيل التذكير بهم والتنويه بمناقبهم وما خصهم الله به، على شكل إشارات وعبارات مقتضبة، ولكنها وقفت مع قصة إبراهيم وقفة أطول، فعرضت لحواره مع أبيه وقومه حول الأصنام بصيغة جديدة، لتنتقل إلى نهاية القصة وتبرز كيف أن الله نجاه من الاحتراق في النار التي ألقاه قومه فيها عندما كسر أصنامهم. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ. قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاعِبِينَ. قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إلا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ. قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ. أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ. قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ.**

= في الخامسة والسبعين من عمره عندما غادر حاران. وأخذ أبرام ساراي زوجته ولوطاً ابن أخيه وكل ما جمعاه من مقتنيات وكل ما امتلكاه من نفوس في حاران وانطلقوا جميعاً إلى أرض كنعان إلى أن وصلوها. فشرع أبرام يتنقل في الأرض إلى أن بلغ موضع شكيم إلى سهل مورة وكان الكنعانيون آنئذ يقطنون تلك الأرض. وظهر الرب لأبرام وقال له سأعطي هذه الأرض لذريتك فبنى أبرام هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له. وانتقل من هناك إلى الجبل شرقي بنت إيل حيث نصب خيامه ما بين بيت إيل غرباً وعاي شرقاً وشيد هناك مذبحاً للرب ودعا باسمه. ثم تابع أبرام ارتحاله نحو الجنوب (أي نحو مصر)» [«سفر التكوين،» الأصحاح ١٢، الآيات ١ ـ ٩].

﴿**الحمد لله الذي وهب لي على الكبَر إسماعيل وإسحاق**﴾ في التوراة اقترحت سارة على زوجها إبراهيم أن يتزوج عليها خادمتها هاجر عسى أن تلد له، وقد كانت هي (سارة) عاقراً. وهكذا ولدت هاجر إسماعيل، ثُمَّ بعد ذلك حبلت سارة فولدت إسحاق. نقرأ في سفر التكوين ما يلي: «وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يحيا في رعايتك. فأجاب الرب إن سارة زوجتك هي التي تلد لك ابناً وتدعو اسمه اسحاق وأقيم عهدي معه ومع ذريته من بعده عهداً أبدياً. أما إسماعيل فقد استجبت لطلبتك من أجله سأباركه حقاً وأجعله مثمراً وأكثر ذريته جداً فيكون أباً لاثني عشر رئيساً ويصبح أمة كبيرة. غير أن عهدي أبرمه مع اسحاق الذي تنجبه لك سارة في مثل هذا الوقت من السنة القادمة». [«سفر التكوين،» الأصحاح ١٧، الآيات ١٨ ـ ٢١]. «اسحاق» ومعناه يضحك.

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(٥٩).

ب ـ قصة إبراهيم ولوط

ـ إبراهيم في سورة العنكبوت

وفي سورة العنكبوت، آخر سورة من القرآن المكي، تذكير بإبراهيم وموقفه من أصنام قومه. ومع أن هذه السورة لا تضيف جديداً إلى قصته فإنها تتميز بتداخلها مع قصة لوط، بالإضافة إلى أن فيها التفاتاً إلى جدل النبي محمد ﷺ مع مشركي قومه، فصارت القصة مركبة من ثلاثة أقسام متداخلة. تنطلق سورة العنكبوت من مقدمة قصيرة ترسم الإطار الذي ستتحرك فيه مضامينها. يقول تعالى: **﴿آلم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾**(٦٠). ومن ثُمّ تأخذ السورة طريقها إلى التذكير بالأنبياء لتشير إلى تجاربهم مع أُمَمهم، فتذكر ما امتحنوا به وتثني عليهم، كما تعرض لأقوامهم وما امتحنوا به وما انتهى إليه مصيرهم. تبدأ بنوح ثُمّ تنتقل إلى إبراهيم ولوط. تستعيد قصتهم في صيغة مركبة كما يلي. قال تعالى: **﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**(٦١). ثُمّ توجه السورة الخطاب بالمناسبة إلى قريش: **﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ. أَوَ لَمْ يَرَوا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ. وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**(٦٢). ثُمّ تعود السورة إلى مواصلة الكلام عن إبراهيم. يقول تعالى: **﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ**

---

(٥٩) نفس المرجع، «سورة الأنبياء،» الآيات ٥١ ـ ٧٣. **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين﴾** أي آتى الله إبراهيم الهدى من قبل موسى. ويقصد بـ «جعلهم جذاذاً» قطعها قطعاً صغيرة. **﴿ونجيناه ولوطاً﴾** أي نجّا الله إبراهيم ولوط من أرض العراق حيثُ كان عبدة الأصنام إلى فلسطين.

(٦٠) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآيات ١ ـ ٣.

(٦١) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآيتان ١٦ ـ ١٧. «إفكاً» وتعني كذباً.

(٦٢) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآيات ١٨ ـ ٢٣. **﴿النشأة الآخرة﴾** أي البعث يوم القيامة.

إلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا في ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ في الدُّنْيَا وَإِنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾(٦٣).

ثُمّ تعرض السورة لقصة لوط مع قومه، لتعود إلى إبراهيم ثُمّ إلى لوط وهكذا. . قال تعالى: **﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ في نَادِيكُمْ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾**(٦٤). وتعود السورة إلى إبراهيم: **﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ﴾**(٦٥) ثُمّ تعود بنا السورة إلى لوط: **﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ. إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**(٦٦).

---

(٦٣) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآيات ٢٤ ـ ٢٧. **﴿فما كان جواب قومه﴾** على لومه لهم لعبادتهم الأصنام. **﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾** وهب الله لإبراهيم اسحاق (ابنه) ويعقوب (حفيده).

(٦٤) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآيات ٢٨ ـ ٣٠.

(٦٥) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآيتان ٣١ ـ ٣٢. **﴿ولما جاءت رسلنا﴾** المقصود بالرسل هنا: الملائكة وكذا في التوراة. . . والبشرى مولود هو إسحاق. راجع: **الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ١٩. **﴿أهل هذه القرية﴾** والمقصود بهذة القرية قرية سدوم. يقول المفسرون: كانت متواطئة مع اللواطين من قوم لوط.

(٦٦) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآيات ٣٣ ـ ٣٥. **﴿إلا امرأته كانت من الغابرين﴾** ذكر في التوراة: «وتلفتت زوجة لوط السائرة خلفه وراءها فتحولت إلى عمود من الملح» [**الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ١٩، الآية ٢٦]. رجزاً تعني عذاباً. كما ذُكر «فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عنده من السماء. وقلب تلك المدن والساكنين فيها والسهل المحيط بها وكل مزروعات الأرض» [«سفر التكوين،» الأصحاح ١٩، الآيتان ٢٤ ـ ٢٥]. هذا وقد وردت قصة لوط في التوراة كما يلي: «وأقبل الملاكان على سدوم عند المساء وكان لوطٌ جالساً عند باب سدوم فما إن رآهما حتى نهض لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض. وقال يا سيدي انزلا في بيت عبدكما لتقضيا ليلتكما واغسلا أرجلكما وفي الصباح الباكر تمضيان في طريقكما لكنهما قالا لا بل نمكث الليلة في الساحة. فأصر عليهما جداً حتى قبلا الذهاب معه والنزول في بيته فأعد لهما مأدبة وخبز فطيراً فأكلا. وقبل أن يرقدا حاصر رجال مدينة سدوم من أحداث وشيوخ البيت. ونادوا لوطاً أين الرجلان اللذان استضفتهما الليلة أخرجهما إلينا لنضاجعهما. فخرج إليهم لوط بعد أن أغلق الباب =

بعد هذا تذكّر السورة مجرد تذكير بأهل مدين وعاد وثمود وقارون وفرعون وهامان وموسى لتختم بقوله تعالى: ﴿**فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ. خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(٦٧). ثُمّ تنتقل السورة إلى موضوع آخر.

= خلفه. وقال لا ترتكبوا شراً يا إخوتي. هوذا لي ابنتان عذراوان أخرجهما إليكم فافعلوا بهما ما يحلو لكم أما هذان الرجلان فلا تسيئوا إليهما لأنهما لجآ إلى حمى منزلي. فقالوا تنحّ بعيداً وأضافوا لقد جاء هذا الإنسان ليتغرب بيننا وها هو يتحكم فينا الآن نفعل بك شراً أكثر منهما وتدافعوا حول لوط وتقدموا ليحطموا الباب. غير أن الرجلين مدا أيديهما واجتذبا لوط إلى داخل البيت وأغلقا الباب. ثم ضربا الرجال صغيرهم وكبيرهم الواقفين أمام باب البيت بالعمى فعجزوا عن العثور على الباب. وقال الرجلان للوط ألك أقرباء في هذة المدينة أصهار وأبناء وبنات أو أي شخص آخر يمتّ إليك بصلة أخرجهم من هنا. لأننا عازمان على تدمير هذا المكان إذ إن صراخ الشكوى من شره قد تعاظم أمام الرب فأرسلنا الرب لندمره. فمضى لوط وخاطب أصهاره أزواج بناته قائلاً هيا قوموا واخرجوا من هذا المكان لأن الرب سيدمر هذة المدينة فبدا كمازح في أعين أصهاره. وما إن أطل الفجر حتى طفق الملاكان يلحان على لوط قائلين هيا انهض وخذ زوجتك وابنتيك اللتين هنا لئلا تهلك بإثم المدينة. وإذ توانى لوط أمسك الرجلان بيده وأيدي زوجته وابنتيه وقاداهم إلى خارج المدينة لأن الرب أشفق عليهم» [«سفر التكوين،» الأصحاح ١٩، الآيات ١ ـ ١٦].

(٦٧) **القرآن الكريم**، «سورة العنكبوت،» الآيات ٤٠ ـ ٤٤. الأمثال تعني القصص.

القصص في القرآن المكي

(٢)
المرحلة الثانية: برنامج سورة الأعراف

برنامج واستراتيجيات

بعد سورة «ص» ينتقل بنا القصص القرآني إلى السورة التي بعدها، أعني سورة الأعراف، ورتبتها ٣٩ في لائحة ترتيب النزول. تبدأ السورة بداية مماثلة لتلك التي وردت في سورة «ص»، ولكن مع طرح ما يمكن أن نعبر عنه ببرنامج للقصص في القرآن تحدد فيه السورة أهدافه وإستراتيجيته. يقول تعالى: **﴿المص. كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾**[(١)].

واللافت للانتباه هنا أمران: أولهما معنى «الكتاب» في الآية الأولى. بعض المفسرين يقول إن المقصود هو «القرآن»، أما الزمخشري فيرى أن المقصود هو هذه السورة، سورة «المص» (الأعراف)، باعتبار أن «المص» مبتدأ و«كتاب» خبر. ونحن نرجّح هذا المعنى، ليس فقط لأن هذه السورة من الطوال وهي في حجم كتاب من كتب أهل الكتاب، ويقال نزلت مرة واحدة، بل أيضاً لأن العبارة الواردة بعدها وهي قوله تعالى: **﴿فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ﴾** لا يستقيم معناها إذا جعلنا «الكتاب» في العبارة الأولى بمعنى القرآن. ذلك لأن الرسول ﷺ كان ينذر بالقرآن من قبل ومنذ ابتداء النبوة، من دون أن يشعر بالحرج. وإذاً فلا بد أن يكون في هذه السورة شيء جديد لم يرد في القرآن من قبل من شأنه أن يثير الحرج في نفس

---

(١) **القرآن الكريم،** «سورة الأعراف،» الآيات ١ ـ ٣.

النبي ﷺ. ومن وجهة نظرنا فإن هذا الجديد هو تسمية هذه السورة «كتابا»، هذا في حين أن اسم «الكتاب» كان خاصاً بكتاب «أهل الكتاب» (التوراة)، وفي هذا المعنى استعمل في ما نزل من القرآن من قبل. وما يمكن أن يكون مدعاة للحرج هنا هو هذا الانتقال بالوحي المحمدي إلى مستوى «الكتاب»، بعد أن كان يسمي نفسه من قبل، بالتوالي وحسب ترتيب النزول، بالأسماء التالية: ذكر، ذكرى، تذكرة، حديث، ثم قرآن[٢]. أما الآن، فإن سورة «آلمص» وحدها «كتاب»! وهذا الاسم سيسمى به القرآن كله، ولأول مرة في هذه السورة نفسها[٣].

هناك جانب آخر يجب إبرازه، وهو أن القص في القرآن كان لحد الآن يتناول قصص أنبياء أقوام عربية كعاد وثمود (من العرب البائدة) أو من كان قومه الذين أرسل إليهم عرباً أو تجري قصصهم في بلاد العرب مثل لوط ومدين وأصحاب الأيكة في الشمال (بين مكة والشام)، وسبأ، وأصحاب الجنة وقوم تبع بالجنوب (اليمن)، وقوم يونس في الشرق (الموصل)، إضافة إلى ما انتشر في هذه المناطق وغيرها من أخبار فرعون وعلاقة سليمان بملكة سبأ. . . أما في سورة الأعراف فسيعرف القصص القرآني نقلة نوعية، إذ ستطرح السورة أمامنا برنامجاً وإستراتجية للقص القرآني بحيث يعرض ضمن مخطط عام ـ وبطريقته الخاصة ـ لقصص أنبياء أهل الكتاب، إضافة إلى قصص أنبياء العرب!

وهكذا، فبعد المقدمة التي نبهت النبي إلى أن الأمر يتعلق هذه المرة بسورة هي: **﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾**، تنتقل السورة مباشرة إلى التذكير بالمصير الذي خص الله به الأقوام التي كذبت رسلها: **﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ. فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾**[٤]. ثم تضيف السورة وكأنها تجيب على اعتراض من قريش، تقول فيه: وما الدليل على ذلك؟ تجيب: **﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ. وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾**[٥].

---

(٢) لقد شرحنا هذه المسألة بتفصيل. راجع الفصل ٦ من هذا الكتاب.

(٣) **﴿ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾** [القرآن الكريم، «سورة الأعراف،» الآية ٥٢].

(٤) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيتان ٤ ـ ٥. يقصد بـ «بياتاً» ليلاً وبـ «قائلون» في قيلولة.

(٥) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ٦ ـ ٩. **﴿ولنسألن المرسلين﴾** أي لننظر في أخبار الأقوام الماضية مع رسلهم. **﴿فلنقصن عليهم﴾** عليهم أي على مشركي مكة. **﴿ما كنا غائبين﴾** أي غائبين عن مجرى الأحداث كما هو حال قصاص المحترفين المتصنعين، بل لقد جرت تلك الأحداث بعلمنا وعلى مرأى منا.

قلنا إن سورة الأعراف تشكل نقلة نوعية على مستوى «القصص في القرآن»: ذلك أن القص المفصل، المستوفي لعناصره، إنما يبدأ معها. فكثير من القصص التي سترد في السور اللاحقة هي إما تفصيل لبعض الجوانب المذكورة في هذه السورة وإما صياغة لها جديدة حسب ما يقتضيه المقام. ففي هذه السورة نجد أنفسنا إزاء ما يشبه أن يكون مخططاً (أو برنامجاً) لقسم كبير من القصص القرآني يشمل قصص الأنبياء الذين لم يرد لهم ذكر في التوراة كما يعرض لمعظم أنبياء التوراة[٦].

وهكذا فإذا كانت السور السابقة قد اقتصرت على عرض بعض جوانب القصص الخاصة بأنبياء «العرب البائدة» السابقين على أنبياء بني إسرائيل، دونما تقيد بـ «الترتيب الزمني»، فإن سورة الأعراف تعرض أنبياء «العرب البائدة» ضمن سلسلة الأنبياء المذكورين في التوراة، متقيدة بـ «الترتيب الزمني» انطلاقاً من آدم. . . وهكذا، فبعد قصة آدم وإبليس، وقصة نوح والطوفان، تأتي قصص عاد، وثمود، ثم لوط (وإبراهيم)، وشعيب[٧]، ثم قصة موسى مع فرعون التي، انطلاقاً منها، سيدشن القرآن القول في قصص أنبياء بني إسرائيل. وبعد قصة الصراع بين موسى وفرعون تخلص السورة إلى عرض مباشر لصراع الرسول محمد ﷺ مع مشركي قريش. وهذا هو الغرض من القصص في القرآن كما أوضحنا قبل، وسنزيد هذا الأمر وضوحاً من خلال التذكير بالاستراتيجيات التي سلكها القرآن في مجال القص، وهي ثلاث:

١ ـ مراعاة «التسلسل الزمني» للتاريخ المقدس الذي تروي هذه السورة فصوله من خلال قصص الأنبياء، انطلاقاً من آدم وطرده من الجنة وهبوطه إلى الأرض إلى النبي محمد ﷺ.

(٦) الأنبياء الذين اختص القرآن بذكر أسمائهم وقصصهم ولم يرد لهم ذكر في التوراة هم: شعيب، ذو الكفل، إدريس، هود، صالح، لقمان، إسماعيل، مع ذكر قصة الطوفان، والإشارة إلى فرعون.. والمسرح الذي تجري فيه قصص هؤلاء (باستثناء فرعون) هو الجزيرة العربية خصوصاً المنطقة التي تمتد من مكة إلى الشام (حالياً: الأردن وفلسطين وسوريا). أما أنبياء التوراة والإنجيل الذين ذكرهم القرآن فهم: نوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى ويونس وأيوب وداوود وسليمان وأشعياء ويحيى (المعمدان أو يوحنا)، والسيد المسيح.

(٧) يقول الطبري في تاريخه: وقال بعضهم لم يكن شعيب من ولد إبراهيم وإنما هو من ولد بعض من كان آمن بإبراهيم واتبعه على دينه وهاجر معه إلى الشام ولكنه ابن بنت لوط، فجدة شعيب ابنة لوط. راجع: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك**، ٦ ج، ط ٢ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ج ١، ص ٢٨٠. هذا وقد وردت أخبار أيوب بالتفصيل في التوراة. راجع: **الكتاب المقدس**، «سفر أيوب».

٢ ـ توظيف قصص الأنبياء في تحذير قريش من المصير المرعب الذي ينتظرهم إذا هم تمادوا في كفرهم وشِركهم، ثم تثبيت فؤاد النبي وتقوية معنويات أصحابه، بتأكيد أن جميع الرسل قد تعرضوا للتكذيب من طرف أقوامهم ولكنهم صبروا حتى جاءهم نصر ربهم.

٣ ـ صب خطاب الرسل السابقين إلى أقوامهم في صيغة تحاكي وتعزز الخطاب الذي يوجهه محمد ﷺ إلى قومه، فكأن خطاب الأنبياء السابقين إلى أقوامهم إنما يعبر عن حال النبي محمد مع قومه قريش.

ومن هنا التكرار الذي يلاحظ في القصص القرآني، وهو في الحقيقة ليس تكراراً في المضمون وإنِما في الصيغة. المضمون واحد ولكنه يصاغ في كل مرة حسب مبدإ «لكل مقام مقال»: **فالمقام هو المتحرك أما المقال فثابت.** وهذا يصدق على جميع ما في القرآن من تكرار أو تشابه أو تناقض ظاهري. وبعبارة عامة يمكن القول إنه في كل مجال من مجالات التداول في القرآن، محكمٌ ومتشابه(٨).

بعد هذه الملاحظات التمهيدية ننتقل إلى القصص التي تحكيها سورة الأعراف، واحدة بعد الأخرى. وفي الوقت نفسه نتتبع في السور التالية لسورة الأعراف، حسب ترتيب النزول، ما ورد فيها حول كل واحدة من قصص سورة الأعراف، لنتعرف على ما يجدّ فيها من عناصر وفي أي سياق.

١ ـ آدم وإبليس: الأعراف

ترتبط بداية سورة الأعراف مباشرة بكل من بداية ونهاية السورة التي قبلها (سورة ص). فمن جهة تستعيد في مقدمتها موقف قريش وعجبهم من أن يكون محمد بن عبد الله مبعوثاً من الله إليهم، كما فعلت سورة «ص» في بدايتها، ومن جهة أخرى تربط موقف قريش ذلك، بموقف إبليس من آدم، الذي شرحته السورة السابقة في نهايتها. إن سبب نزول سورة «ص» ـ الذي ذكرناه آنفا ـ حاضر هنا بقوة. وبالجملة يمكن القول إن سورة الأعراف التي نزلت مباشرة بعد سورة «ص»، حسب ترتيب النزول، قد جاءت لا لتكرر ما سبق أو ورد في هذه الأخيرة بل لتعيد صياغته بشكل أكثر تنظيماً وتفصيلاً.

---

(٨) المحكم هو الثابت والمتشابه هو المتغير. وسنبين وجهة نظرنا هذه وبتفصيل في الجزء الثاني من هذا الكتاب والذي سيصدر لاحقاً تحت عنوان: «موضوعات في القرآن».

وهكذا تبدأ السورة ـ كما رأينا أعلاه ـ بِمخاطبة النبي ﷺ مؤكدة أن القرآن الذي يوحى إليه هو كتاب من عند الله تعالى، فعليه أن لا يشعر بأي ضيق أو حرج في تبليغه لقومه، ينذر المكذبين، ويذكّر المؤمنين، داعياً إلى عدم اتخاذ أولياء لهم من دون الله كما كان يفعل أقوام من قبل فكان مصيرهم الهلاك. ثم تكشف السورة عن أن مدار القول فيها هو قص أحوال هؤلاء الذين اتخذوا لهم أولياء من دون الله فعبدوا الأصنام أو أشياء أخرى غير الله، وما جرى بينهم وبين رسلهم من حوار وجدل حتى يتبين السامع بنفسه، ومن خلال استعمال ميزان عقله، الصواب من الخطإ، والهدى من الضلال.

وهكذا تنطلق السورة من استعادة القصة التي خُتمت بها السورة السابقة (قصة إبليس/ آدم) ولكن مع تفاصيل أوفى: لقد ابتدأ مسلسل وجود البشر الذين مكّن لهم الله في الأرض (والخطاب موجه إلى قريش)، بدأ من خلق الله آدم في السماء وأمره الملائكة بالسجود له تكريماً، فسجدوا إلا إبليس. ولما سأله تعالى عما منعه من السجود احتج بتفوق أصله على أصل آدم: ﴿**خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾[٩]. فكان جواب الرب على هذا «الاستكبار» الذي يماثل استكبار الملأ من قريش الذين تساءلوا كما رأينا في أوائل السورة السابقة ﴿**أأنزل عليه الذكر من بيننا**﴾[١٠] وأهمل كبراءنا وأشرافنا، كان الجواب أن الله أمر إبليس بالهبوط من السماء، إلى الأرض، ليريه مكانه الحقيقي بين «الصاغرين»[١١]. هنا طلب إبليس من الله أن لا ينفذ فيه وعيده وأن يُمهلهُ إلى يوم القيامة، فاستجاب الله لطلبه. وهنا قال إبليس: بما أن مُقامي في الجنة قد فسد بسبب هذا المخلوق الجديد (آدم) فإني سأتَجند لأنتقم منه، سأفسد مُقامه هو وذريته في الأرض. فأجابه تعالى: أخرج من الجنة مذموماً، وسأملأ جهنم منك وممن تبعك منهم. ثم خاطب الله آدم: ﴿**اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[١٢].

وهنا يبدأ القسم من القصة الذي لم يرد في السورة السابقة: إبليس يحث آدم

---

(٩) **القرآن الكريم**، «سورة الأعراف،» الآية ١٢.

(١٠) نفس المرجع، «سورة ص،» الآية ٨.

(١١) لم يرد اسم إبليس في التوراة بل ورد اسم الحية (أو التنين) فهي التي أغرت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة. أما في الأناجيل فقد ورد اسم إبليس (والشيطان) على أنه هو الحية ذاتها. على أني لم أعثر في التوراة ولا في الأناجيل على ما يشبه قصة أمر الملائكة بالسجود لآدم، وامتناع إبليس بدعوى أنه من «نار» (نور) وآدم من طين (تراب). ولعل ذكر القرآن لهذا الجانب إشارة إلى ما تدعيه قريش من تفوق على المستضعفين من أتباع النبي، وقد سمتهم «الأراذل» وطلبت من النبي أن يطردهم كشرط للاعتراف به والانضمام إليه.

(١٢) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٩.

وزوجه بالأكل من الشجرة، مدعياً أنهما إن أكلا منها سيصبحان ملكين أو من الخالدين، فانساقا لإغرائه ودفع بهما الطمع إلى الأكل من تلك الشجرة وما إن فعلا حتى بدت لهما عوراتهما (والمقصود ضعفهما الذي يكشف عن أنهما خلقا من مادة (طين) وليس من نور (كباقي الملائكة)، وطفقا ينتزعان من أوراق الشجر ما به يستر كل منهما عورته (كناية عن سعي الإنسان لستر جوانب الضعف فيه). ولما رأى الله فعلتهما اتجه إليهما باللوم والعتاب وأمرهما بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض ليعيشا وفق طبيعتهما «الترابية»: **﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾**(١٣).

أ ـ الأعراف: إبليس يتجه إلى ذرية آدم

من هذا العرض المركز على قصة آدم مع إبليس تنطلق السورة التي نحن ضيوف عليها، سورة الأعراف، إلى تفصيل القول في العبرة التي يجب استخلاصها منها، متجهة بالخطاب إلى ذرية آدم لتنبههم إلى أن الشيطان الذي أخرج أبويهما من الجنة بعد أن كشف عن عوراتهما (عن جوانب الضعف البشري فيهما) مصرٌّ على مواصلة مهمته التضليلية بين صفوف البشر، وأن الله جعل الشياطين «أولياء الذين لا يؤمنون» (والمقصود المباشر هم قريش) يضلونهم ويوجهونهم ويُملون عليهم أفكاراً كاذبة يبررون بها ما يرتكبونه من ضلالات، ويتمسكون به من مبررات وحجج. من ذلك: **﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾**(١٤) ويرد الله مخاطباً نبيه الكريم: **﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ. قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ. فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾**(١٥).

وتستمر السورة في بيان أوامر الله ونواهيه وما يترتب عليها من ثواب أو عقاب يوم القيامة، ثم تقدم مشهداً من مشاهد الحوار الذي يجري في الآخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار: **﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾**(١٦).

---

(١٣) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٢٥. أي تُخرجون يوم القيامة.

(١٤) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٢٨.

(١٥) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ٢٨ ـ ٣٠.

(١٦) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيتان ٤٤ ـ ٤٥.

وهذا المشهد هو المقصود بقوله تعالى عن قريش ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ﴾[١٧]، كما يتضح ذلك في الفقرة التالية.

ب ـ الأعراف: ماذا ينتظر كفار قريش؟

وبنوع من الانسياب الخطابي السلس تنتقل السورة بالحوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار إلى قريش فتربط حالهم ربطاً مباشراً بحال الذين نسوا الله وأعرضوا عن رسالات رسله يوم كانوا أحياء. أولئك: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[١٨]، وتقول عنهم، بنوع من التقريع والتهديد: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١٩]: قريش لا يؤمنون بهذا الكتاب/القرآن! فماذا ينتظرون حتى يؤمنوا؟ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾، أي هل ينتظرون حصول ما سيؤول إليه ما في هذا الكتاب من وعد ووعيد؟ وبعبارة أخرى: هل ينتظرون قيام القيامة ليروا بأعينهم ما في الجنة من نعيم وما في النار من عذاب؟ إنهم إن كانوا يريدون ذلك فليعلموا أنه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾[٢٠] وكان الجواب، كلاَّ: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[٢١].

من هنا تنتقل بنا السورة مباشرة إلى عرض قصص هؤلاء الذين وقفوا من قبل مع رسلهم الموقف نفسه الذي وقفه كفار قريش مع رسولهم العربي محمد بن عبد الله. وقبل متابعة قصص الأنبياء كما تعرضه علينا سورة الأعراف، نشير باختصار إلى العناصر الجديدة التي تتعلق بقصة آدم وهبوطه من الجنة والتي تمدنا بها السور المكية اللاحقة لسورة الأعراف حسب ترتيب النزول.

ج ـ سورة طه: آدم والنسيان

سورة طه مخصصة كلها تقريبا لحكاية جوانب أساسية من قصة موسى كما سنرى. وما ذكرته من أخبار آدم جاء في سياق المرحلة الأخيرة من تلك القصة. أما

---

(١٧) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٥٣.
(١٨) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٥١.
(١٩) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٥٢. والمقصود هنا بـ «كتاب» القرآن.
(٢٠) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٥٣. ﴿نسوه من قبل﴾ أي أمثالهم من الأمم الماضية.
(٢١) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٥٣.

الجديد الذي جاءت به سورة طه بخصوص آدم فهو نسيانه ما أمره به الله من عدم الأكل من تلك الشجرة، الأمر الذي جعله ينساق مع إغراء إبليس. يقول تعالى: **﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ أَبَى. فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى. إِنَّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لاتَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى، فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، قَالَ: يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى. فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى. قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى. وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبقى﴾**[٢٢].

وفي الخاتمة تتجه السورة بالخطاب إلى النبي (ﷺ) وكأنها تريد أن تحذره من الوقوع فريسة للنسيان، نسيان مهمته كرسول اختاره الله، فيشتهي ما تتمتع به قريش من زينة الحياة الدنيا، مع أن ما أعطاه الله خير وأبقى. قال تعالى: **﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبقَى﴾**[٢٣].

د ـ الإسراء: سياق آخر، التخويف

وبعد سورة طه تأتي سورة الإسراء (ورتبتها ٥٠)، لتذكّر، باختصار، بنفس الوقائع المذكورة قبل من قصة آدم وإبليس، ثم لتؤكد أن إبليس الشيطان منهمك في عملية تحريض بني آدم على تكذيب الرسل ومعاندتهم. ففي هذا السياق جاءت السورة بالرد على مشركي قريش الذين طالبوا النبي ﷺ ـ إذا هو أراد أن يصدقوه ـ بالإتيان بالمعجزات الخارقة للعادة كما أتى بها الرسل السابقون. يقول تعالى في الرد على هذا المطلب:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفاً﴾[٢٤]. ثم يخاطب نبيه الكريم قائلاً: **﴿وَإِذْ**

---

(٢٢) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ١١٥ ـ ١٢٧. فنسي: نسي وأكل من الشجرة. عدو: أي الشيطان والإنسان.

(٢٣) نفس المرجع، «سورة طه،» الآية ١٣١.

(٢٤) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ٥٩. مبصرة أي دليلاً واضحاً بيّناً.

قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾(٢٥). والمعنى: إن ربك يعلم ما يفكر فيه كفار قريش وما يفعلون، فبلّغهم رسالتك ولا تخف. أما الرؤيا التي أريناك (رؤيا الإسراء والمعراج)، فهي كالشجرة الملعونة (شجرة الزقوم المذكورة في القرآن، والتي قال عنها إنها تنبت في جهنم وهي طعام أصحابها). وكانت قريش قد أثارت ضجة كبيرة حول «الإسراء والمعراج»: فقالوا هل يعقل أن يسافر الإنسان من مكة إلى بيت المقدس ويعرج إلى السماء ويعود في ليلة واحدة؟ وهم كانوا تجاراً يعرفون المسافات! كما أثاروا من قبل اعتراضات على «شجرة الزقوم» التي قال القرآن عنها إنها «تخرج في أصل الحجيم»، أي تنبت في جهنم، قالوا كيف تنبت في النار والحال أن كل شيء فيها يحترق؟ وقد رد القرآن على اعتراضاتهم، هذه وتلك، بأن الله أراد بهما «فتنة الناس»، واختبار إيمانهم. وقد ارتد فعلاً بعض من كانوا قد أسلموا لأن عقولهم لم تصدق ذلك. من هنا تربط السورة باختصار بين هذه الفتنة وبين ما ورد في قصة آدم وإبليس من أن هذا الأخير قد أصر على أن يُضل الناس ويثير الفتن بينهم، لتؤكد قوله تعالى مخاطباً إبليس: **﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً. وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأولادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُوراً. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا﴾**(٢٦).

وهكذا نرى أن حضور قصة آدم وإبليس في القرآن، هذا الحضور المتكرر، لم يكن من أجل القصة نفسها بل من أجل توظيفها في شرح بعض القضايا الأخرى التي يرد ذكرها بالقصد الأول. مرة أخرى نكرر أن القصص في القرآن وسيلة بيانية تقوم مقام الحجة والبرهان لإثبات الرسالة المحمدية ومضمونها العقدي.

هـ ـ الحِجر: آدم/ إبليس: اصدع بِما تؤمر

بعد سورة الإسراء يأتي التذكير بقصة آدم وإبليس في سورة الحجر (ورتبتها ٥٤)، وذلك لنفس الغرض وفي سياق مشابه. لقد اتهم كفار قريش النبي بالجنون، وفي نفس الوقت تحدّوه أن يأتيهم بالملائكة يشهدون على أنه مبعوث فعلاً من عند الله. فكان الجواب: ذلك هو نفس الموقف الذي وقفته الأقوام الماضية إزاء رسلهم، وقريش تسلك نفس المسلك. لقد أعرضوا عن الدعوة المحمدية، وهم على ذلك

---

(٢٥) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآية ٦٠. **﴿أحاط بالناس﴾** أي أن ربك أحاط بالناس علماً.

(٢٦) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآيات ٦٣ ـ ٦٥. «استفزز» تعني اقطع عن الحق.

مصرّون، وسيبقون على إصرارهم إلى درجة أنه لو فتح الله لهم باباً إلى السماء ليتأكدوا من كون جبريل هو الذي يحمل الوحي إلى محمد لكذبوا أنفسهم. يقول تعالى: **﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾**(٢٧). يلي ذلك ربط هذا الإصرار والعصيان بأصله الأول: عصيان إبليس أمر الله بالسجود لآدم. يقول تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ. وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً. . .﴾**(٢٨).

بعد ذلك تستطرد السورة لتفصل القول في المصير الذي ينتظر المكذبين في جهنم، ثم تذكّر بقصة لوط وقصة أصحاب الحِجر (ثمود)، لتوجه الخطاب بعد ذلك إلى النبي ﷺ، مواسية ومرشدة. قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ. لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ. كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ. فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**(٢٩).

ولما كان الأمر كذلك، فلا تهتم بالذين لم يؤمنوا «ولا تحزن عليهم» ولا تأسف من أجلهم، بل واصل الصمود وبلّغ الدعوة بكل ثبات ولا تشغل قلبك بما يقولون: **﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾**(٣٠).

---

(٢٧) نفس المرجع، «سورة الحجر،» الآيتان ١٤ ـ ١٥. «يعرجون» تعني يصعدون.

(٢٨) نفس المرجع، «سورة الحجر،» الآيات ٢٦ ـ ٢٨.

(٢٩) نفس المرجع، «سورة الحجر،» الآيات ٨٧ ـ ٩٣. ذهب معظم المفسرين والمحدثين إلى «السبع المثاني» هي سورة الفاتحة. . وقد عرضنا لمعنى «المثاني» في عدة أماكن من الفصل ١٠ من هذا الكتاب. **﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾** أي لا تشته ما متعنا به أغنياء قريش. **﴿ولا تحزن عليهم﴾** أي لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا. **﴿النذير المبين﴾** أي النذير المبين بالعذاب لهم. **﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾** حول تفسيرها راجع الفصل ١٠، الهامش ٣٣ من هذا الكتاب.

(٣٠) نفس المرجع، «سورة الحجر،» الآيات ٩٤ ـ ٩٩. **﴿فاصدع بما تؤمر﴾** يربط المفسرون بين هذه الآية وبين انتقال الدعوة المحمدية من السرية إلى الجهر. وهذا الربط لا يستقيم مع السياق، فهذه الآيات تشكل مع الآيات السابقة سياقاً واحداً يردّ فيه تعالى على المقتسمين الذين قالوا نؤمن ببعض القرآن ونكفر ببعض، وهذا يعني أن الدعوة كانت بالجهر وإلا فكيف «قسموا» القرآن. إن الآية **﴿فاصدع بما تؤمر﴾** تشرحها الآية التالية لها: **﴿وأعرض عن المشركين﴾**، بمعنى أنه لا فائدة في الانشغال بمشركي مكة، فهم لن يؤمنوا، فاتجه وجهة أخرى (أعرض نفسك على القبائل وابحث عن حليف يناصرك في حربك معهم)، راجع رأينا مفصلاً في الفصل ١٠ من هذا الكتاب.

٢ ـ قصة نوح في سورة الأعراف

أ ـ السياق . . .

تتبعنا قصة آدم وإبليس انطلاقاً من سورة الأعراف إلى سورة الحجر التي ورد فيها آخر ذكر لهذه القصة في القرآن المكي. وعلينا الآن أن نعود إلى سورة الأعراف التي قلنا عنها إنها تسجل في القص القرآني مرحلة جديدة، وأنها قدمت ملخصاً، وافياً أحياناً، عن القصص القرآني جملة.

بعد قصة آدم وإبليس تنتقل بنا سورة الأعراف إلى قصة نوح لتؤكد النتائج التي سجلناها سابقاً بخصوص المرحلة الأولى من القص القرآني: فمن الناحية الزمنية تمثل هذه القصة الفصل الثاني من فصول التاريخ المقدس، تاريخ الأنبياء، بعد الفصل الأول الذي يشغله آدم. ومن الناحية الوظيفية تأتي هذه القصة لتخوف قريشاً بتذكيرهم بالطوفان الذي أهلك المكذبين من قوم نوح من جهة، ولتبعث الثقة في نفس النبي محمد ﷺ بكون النصر في النهاية لرسل الله.

أما من ناحية صيغة الخطاب فمن السهل وضع اسم محمد مكان اسم نوح، وصرف كلمتي «أنجيناه» و«أغرقنا» من صيغة الماضي (المناسبة لنوح) إلى صيغة الحاضر والمستقبل (المناسبة لمحمد)، لتبقى الحقيقة المراد تقريرها هي هي.

أما الطريق الذي سلكته سورة الأعراف في الانتقال من آدم وإبليس إلى نوح فهو كما يلي: بعد الفراغ من قصة آدم/ إبليس اتجهت السورة بالخطاب إلى **بني آدم** لتذكرهم بإرشاد الله آدم وحواء إلى «اللباس» الذي يستر عوراتهما، ولتنبههم إلى أن «لباس التقوى» خير، لأنه هو الذي يقيهم من أن يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهما فأخرجهما من الجنة. ولما كان عرب «الجاهلية» قد اعتادوا أن يطوفوا حول الكعبة عراة «كما خلقهم الله» تضرعاً إليه(٣١)، وكأنهم يتبرؤون من فعلة آدم وحواء التي اضطرتهم إلى البحث عما يستر عوراتهما، فقد نبهتهم السورة إلى أنه لا ينبغي أن يتخذوا العري وسيلة للتضرع إلى الله، وأن عليهم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وأن يأكلوا ويشربوا من دون إسراف. قال تعالى: **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ**

---

(٣١) هناك من يربط بين طواف عرب ما قبل الإسلام عراة حول الكعبة وبين طقوس مشابهة لبعض الشعوب المسماة بدائية والتي الغرض منها التوسل لآلهتهم طلباً للمطر.

الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٣٢].

ثم تخاطب السورة بني آدم منبهة إلى أن عليهم أن يتبعوا ما تأتي به إليهم رسلهم من الله، وتستطرد في وصف مصير المتقين ومصير الكافرين يوم القيامة مستعيدة حوار أهل الجنة وأهل النار، مذكرة قريش بأن الله قد بعث إليهم رسولاً ومعه كتاب هو ﴿**هُدى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾. ثم تذكّرهم بأن الله خلق السماوات والأرض ورتب نظام الكون وسخره لخدمة من في الأرض، ثم تذكرهم بأن الله كما يرسل الرياح حاملة سحباً ومطراً ينبت نباتاً، بعضه طيب وبعضه خبيث، كذلك يرسل الرسل لتبليغ رسالاته إلى الناس فيكون منهم الطيبون الذين يستجيبون، والخبيثون الذين يكذبون ويعرضون.

ب ـ الأعراف: استخلاص العبرة من قصص الأنبياء

ومن هنا تنتقل السورة إلى التذكير بقصص الرسل مع أقوامهم، مبتدئة بقصة نوح بوصفه أول رسول جاء بعد آدم. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ. أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ**﴾[٣٣].

ذلك ما ورد حول قصة نوح في سورة الأعراف، وهو نص قصير لا يحكي وقائع القصة كما سنتعرف عليها لاحقاً، بل يقتصر على التركيز على حوار نوح مع قومه، وهو لا يختلف في شيء عن الحوار الذي ورد في آيات عديدة بين النبي محمد ﷺ وقومه قريش[٣٤]. وهذا ينسجم مع الغرض من القصص القرآني جملة، بوصفه وسيلة تذكير وبيان ودعوة لقريش لاستخلاص العبرة من تجارب «التاريخ»، تجارب الرسل السابقين مع أقوامهم، تماماً مثلما تدعوهم إلى استخلاص العبرة من

---

(٣٢) **القرآن الكريم**، «سورة الأعراف،» الآيتان ٣١ ـ ٣٢.

(٣٣) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ٥٩ ـ ٦٤.

(٣٤) نشير في هذا الإطار إلى التشابه بين ما ورد أعلاه من تعجب قوم نوح من أن يكون الله قد أرسله إليهم وهو مجرد واحد منهم، وبين ما ورد قبل في مقدمة سورة «ص»، المتصلة مباشرة بسورة الأعراف على صعيد ترتيب النزول، من تعجب قريش من أن يكون النبي محمد ﷺ قد أرسله الله إليهم وهو واحد منهم: ﴿**أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون**﴾.

آثار وبقايا قرى الأمم السابقة، ومن انتظام الظواهر الكونية انتظاماً يخدم الإنسان في نهاية المطاف. من هذا المنظور نكتشف وحدة السياق بين الآيات التي عرضت لقصة نوح والآيات السابقة لها والتي جاءت كمقدمة لها. وهذا ما يلاحظ كذلك في سورة الشعراء.

ج ـ قصة نوح في سورة الشعراء

سورة الشعراء (ورتبتها ٤٧ حسب ترتيب النزول) هي أول سورة تعرض لقصة نوح بعد سورة الأعراف. والناظر إلى الصيغة التي وردت فيها هذه القصة في هذه السورة والصيغة التي وردت فيها في السورة السابقة يلاحظ تشابهاً كبيراً على مستوى المنطلق. وهكذا فبينما بدأت سورة الأعراف بالتأكيد للنبي ﷺ أن القرآن الذي يوحى إليه هو فعلاً كتاب من عند الله تعالى، وأنه بالتالي لا ينبغي له أن يشعر بأي ضيق أو حرج في تبليغه لقومه، ينذر به المكذبين ويذكر به المؤمنين، تنطلق سورة الشعراء من بداية مشابهة إن لم تكن مطابقة، فتقول موجهة الخطاب إلى النبي (ﷺ): **﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾**(٣٥). ثم تشرع في طمأنته وتسليته: **﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ. وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾**(٣٦).

وبعد هذه المقدمة تأخذ السورة في سرد قصص بعض الأنبياء (موسى، نوح، هود، وصالح، ولوط، وشعيب). وبخصوص قصة نوح التي تهمنا هنا نسجل أنها جاءت بعنصرين جديدين لم يرد لهما ذكر في سورة الأعراف، وهما عنصران مهمان بالنسبة إلى من يحاول أن يجد لما تحكيه كتب السيرة عن وقائع الدعوة المحمدية ما يشهد لها بالصحة من القرآن، إذ هو النص الوحيد المتواتر الذي يجب الاعتماد عليه في هذا المجال. والوقائع التي نعني هنا هي التالية:

١ ـ تذكر كتب السيرة النبوية أن قريشاً عرضت على النبي ﷺ المال والجاه والسلطة على أن يتخلى عن دعوته فرفض(٣٧). وتؤكد الصيغة التي وردت بها قصة

---

(٣٥) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآية ٣. **﴿باخع نفسك﴾** أي متألم ومعذب نفسك.

(٣٦) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيات ٤ ـ ٦. ويقصد بالعبارات التالية: «آية» معجزة، «فظلت» فتظل، و«محدث» جديد.

(٣٧) من ذلك ما قاله مبعوث خاص انتدبته قريش لمفاوضة النبي ﷺ: «إن كنتَ إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا»، فرفض النبي هذا العرض، وتمسك بموقفه.

نوح، هنا في سورة الشعراء، أن الأنبياء الذين تعرضوا لمثل الإغراء الذي تعرض نبي الإسلام ﷺ قد رفضوه جميعاً وقد ورد رفضهم في كثير من الآيات القرآنية بالصيغة التي نقرأها هنا: **﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**(٣٨).

٢ ـ كما تذكر كتب السيرة أن قريشاً اشترطت على النبي أن يطرد الفقراء والعبيد من صفوفه، وحينئذ سيجالسونه ويستمعون له. وبينما كان ﷺ يفكر في هذا الأمر جاءه الوحي بالآية التالية تنهاه عن ذلك نهياً صريحاً مؤكداً، قال تعالى: **﴿وَلا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾**(٣٩). كما تلقّى ﷺ عتاباً صريحاً من ربه بسبب نهره لأحد الفقراء كان قد ألح في طلب مقابلته بينما كان هو ـ النبي ـ مستغرقاً في حديث مع أحد كبراء قريش، آملاً في أن يستميله إلى الإسلام(٤٠). وهنا، في الصيغة التي تعرض بها سورة الشعراء قصة نوح نجد الأمر نفسه: قوم نوح يطلبون منه طرد «الأراذل»، من صفوفه: **﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾**(٤١)، فأجابهم: **﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾**(٤٢).

وفي ما عدا هذين العنصرين اللذين تلتقي فيهما التجربة التي خاضها الرسول ﷺ مع تجربة نوح، تقتصر القصة على التذكير بالعنصر الخاص بتجربة نوح وهو دعاؤه على قومه واستجابة ربه له بإغراقهم. وفي ما يلي النص كاملاً: **﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ. قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ. قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنْ الْمَرْجُومِينَ. قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي**

---

(٣٨) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآية ١٠٩. وراجع أعلاه: «أيوب وغيره من الأخيار،» ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨ من هذا الكتاب.

(٣٩) **القرآن الكريم**، «سورة الأنعام،» الآية ٥٢.

(٤٠) ذلك قوله تعالى: **﴿عبس وتولى. أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكّى. أو يذّكر فتنفعه الذكرى. أما من استغنى. فأنت له تصدّى. وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى. كلا إنها تذكرة﴾** [نفس المرجع، «سورة عبس،» الآيات ١ ـ ١١].

(٤١) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآية ١١١.

(٤٢) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيتان ١١٤ ـ ١١٥.

وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٤٣).

د ـ قصة نوح في سورة يونس . . .

مع أن قصة النبي يونس لم يرد تفصيلها في هذه السورة، فإن السياق الذي تمت الإشارة فيه إلى هذه القصة يطرح عنصراً جديداً بالغ الأهمية على مستوى القص القرآني، على الأقل حتى هذه المرحلة من تتبعنا لهذا القص. ذلك أن جميع القصص التي رأيناها لحد الآن تنتهي بهلاك الأقوام الذين بعث الله إليهم رسلاً، وذلك عقاباً لهم على إصرارهم على تكذيب رسلهم. فأصحاب القرى (عاد وثمود وقوم لوط . . . إلخ) قد دمر الله قراهم على أهلها تدميراً، أما آدم، أبو الخليقة وأول الأنبياء، فقد انتهى به الأمر إلى أن أغراه إبليس فطرِد معه من الجنة، وأما نوح فقد أغرق الله قومه أجمعين ما عدا ما طلب الله منه أخذه معه في السفينة من المخلوقات حتى لا تنقرض الأنواع وتنقطع الحياة.

وإزاء هذا المصير الذي يبدو لحد الساعة ـ على صعيد القص القرآني ـ وكأنه مصير محتوم لكل قوم كذبوا المرسلين، يطرح السؤال التالي نفسه: هل سيلاقي قوم النبي محمد ﷺ المصير ذاته؟ أم هل سيؤجل الثواب والعقاب إلى يوم القيامة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأي أفق دنيوي إسلامي يمكن تصوره للدعوة المحمدية؟

هنا تأتي الإشارة إلى قصة يونس لتقدم استثناء! لقد آمن قومه في آخر لحظة قبل أن يلحقهم الهلاك(٤٤). ومباشرة بعد هذه الإشارة تقترح السورة على قريش أن يسلكوا مسلك قوم يونس: أن يؤمنوا كي يفلتوا من الهلاك الذي أصاب الأقوام الماضية التي كذبت رسلها مثلما كذبوا رسولهم.

قبل عرض هذا الاقتراح لننظر أولاً في الكيفية التي تم بها بناء السياق الذي أدرج فيه.

---

(٤٣) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيات ١٠٥ ـ ١٢٢.

(٤٤) ورد ذلك في سورة الصافات (ورقم ترتيبها ٥٦) حيث نقرأ قوله تعالى: ﴿**وإن يونس لمن المرسلين. إذ أبق** [هرب من قومه] **إلى الفلك المشحون** [سفينة مملوءة ركاباً وأمتعة]. **فساهم** [في القرعة التي أجريت للتخفيف من وزن السفينة] **فكان من المدحضين** [الذين عليهم أن يقفزوا إلى البحر]. **فالتقمه الحوت وهو مليم** [ملام]. **فلولا أنه كان من المسبّحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم** [قذف به الحوت إلى أرض خالية]. **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** [يستظل بها] .**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون. فآمنوا فمتعناهم إلى حين**﴾ [نفس المرجع، «سورة الصافات،» الآيات ١٣٩ ـ ١٤٨].

نقرأ في مطلع سورة يونس القضية نفسها التي في مطلع سورة «ص» وهي نفسها القضية التي لاحظناها كذلك في مقدمة قصة نوح في السورة السابقة. أقصد بذلك تعجب قريش من أن يكون الله قد بعث فعلاً رسولاً منهم لا شيء يميزه عنهم. قال تعالى: **﴿آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾**[٤٥]. وتستمر السورة في هذا الاتجاه، تذكر اعتراضات قريش وتحدياتهم، وفي الوقت نفسه ترد عليهم وتندّد بادعاءاتهم وتبطل حججهم، وخلال ذلك كله تخاطب النبي ﷺ بما يسليه ويثبت فؤاده، وتتوعد مشركي قريش: **﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾**[٤٦].

وتأكيدا لذلك تضرب لهم مثلاً بقصة نوح (وبقصة موسى من بعده)، فنقرأ قوله تعالى يخاطب نبيه الكريم: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ. فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾**[٤٧].

وغني عن البيان القول إن الأمر الوحيد الذي أضافته هذه الآيات إلى قصة نوح هو التلميح إلى أن قوم نوح قد طرحوا للمناقشة بينهم إمكانية التخلص منه بقتله. وأن ذلك هو الذي دفع نوحاً إلى الدعاء عليهم، فكانت الاستجابة إغراقهم. وهذا يذكرنا بما تحكيه كتب السيرة من أن قريشاً كانت قد طرحت للمناقشة بينها، خلال صراعها مع النبي ﷺ، الإمكانية نفسها: أعني التخلص منه بقتله. وقد عدلت عن ذلك مخافة أن يؤدي ذلك إلى حرب أهلية، بين قبيلة النبي والقبائل التي ستقوم باغتياله.

ذكر ابن إسحاق أن قريشاً شكلوا وفداً وذهبوا إلى أبي طالب عم النبي ﷺ

---

(٤٥) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآيتان ١ ـ ٢.

(٤٦) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآيتان ٦٩ ـ ٧٠.

(٤٧) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآيات ٧١ ـ ٧٣. ويقصد بالعبارات التالية: «كبر» طال وثقل، «غمة» أي ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً. **﴿ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون﴾** أي امضوا إلي ولا تؤخروني. «توليتم» أعرضتم عما جئتكم به.

يشكون إليه ـ مرة أخرى ـ ابن أخيه فقالوا له: «يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا، فإما أن تكفّه عنا وإما أن تخلّي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه». وعندما لاحظوا أن محمداً (ﷺ) يمضي في التهجم على آلهتهم ذهبوا ثانية إلى أبي طالب وقالوا له مهددين. «إنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى نكفّه عنّا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين». أخبر أبو طالب محمداً ابن أخيه بتهديد قريش فما نال منه ذلك شيئاً، بل مضى على نفس النهج الذي كان عليه.

اجتمع رؤساء قريش وقرروا هذه المرة مساومة أبي طالب وإحراجه، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي وقالوا له: «يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد (= أقوى) فتىً في قريش وأجمله، فخذه، فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك، وأَسْلِم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك وفرّق جماعة قومك وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل»، فرفض أبو طالب هذا العرض بقوة[٤٨].

واضح أن ما ذكرته الآيات السابقة من تآمر قوم نوح على قتله تنطوي على إشارة لطيفة إلى ما كانت تفكر فيه قريش من التخلص من النبي ﷺ من خلال تصفيته بصورة أو أخرى. ومن هنا تأتي الإشارة إلى قوم يونس الذي آمنوا في آخر لحظة قبل حلول الهلاك بهم إشارة ذات مغزى. ولا شك أن تسمية هذه السورة بـ «سورة يونس»، مع خلوّها من تفصيل قصته، إنما تجد مبررها في ذلك المغزى. وهكذا فبعد الحكم العامّ والحتمي بالهلاك على الأقوام الذين كذّبوا رسلهم بما يهم قوم موسى تستثني السورة قوم يونس. فهم قد آمنوا قبل أن يروا العذاب. ذلك قوله تعالى: **﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾**[٤٩]. يتلو هذا الاستثناء من «الحتمية» التي تضمنتها

---

(٤٨) راجع أيضاً تحليلنا لهذه المسألة في: محمد عابد الجابري، «من الدعوة إلى الدولة: القبيلة،» في: محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته**، نقد العقل العربي؛ ٣، ط ٥ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤)، الفقرة ٢.

(٤٩) **القرآن الكريم**، «سورة يونس،» الآية ٩٨. فلولا أي هلا. والمعنى هنا النفي: ما. لا تذكر هذه السورة، ولا القرآن كله، أي شيء عن قصة قوم يونس هؤلاء، غير أن المفسرين يروون: «أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس ﷺ يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبوا؛ فقيل: إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم؛ فقيل له: أخبرهم أن العذاب مُصبحهم إلى ثلاثة (خلال ثلاثة أيام) ففعل، فقال قومه: هو رجل لا يكذب فارقبوه، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا =

الآيات السابقات بخصوص هلاك الأقوام الذين كذبوا رسلهم، تعليق هذه الحتمية بمشيئة الله. وفي هذا يقول تعالى بعد الآية الأخيرة: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**﴾[٥٠].

هـ ـ قصة نوح في سورة هود: قسمان

ذلك عن قصة نوح كما ذكرت في سورة يونس. ومع أن هذه السورة لم تأت بجديد على مستوى عناصر القصة، فإن ما نقلته إلينا بصدد الحوار الذي جرى بين نوح وقومه والذي يوحي بأنهم كانوا بصدد التآمر على قتله، قد فتح أمامنا أفقاً جديداً في إطار القراءة التي نقوم بها ههنا، قراءة أحداث القصص القرآني لوقائع الدعوة المحمدية بالاستعانة بالسياق الذي ترد فيه الإشارة إلى هذه القصة أو تلك. لقد انتبهنا فعلاً، من خلال سياق ذلك الحوار، إلى عناصر جديدة على مستوى تدرج وتنوع أساليب القص القرآني وأساليبه ومقاصده. أما سورة هود، التالية لسورة يونس مباشرة، حسب ترتيب النزول (ورتبتها ٥٢)، فتمدنا بعناصر جديدة تخص القصة التي نحن بصددها، سواء على مستوى تحديات ومطالب قوم نوح أو على مستوى أحداث قصة الطوفان.

تبدأ السورة، كسابقتها بالتأكيد على أن القرآن كتاب منزل من «لدن حكيم خبير» يدعو إلى عبادة الله وحده، وأن الرسول محمد بن عبد الله مبعوث من الله، بشيراً ونذيراً. . . إلخ. ثم تشير إلى إعراض قريش عن النبي ﷺ وتضايقهم منه وتعمدهم إهانته، إلى درجة أن أحدهم كان إذا لقيه في طريقه يُحني رأسه ويلقي عليه بثيابه حتى لا يكلمه النبي ويدعوه إلى الإسلام. وإزاء هذا السلوك العدائي الذي كان يلقاه الرسول ﷺ من قريش ربما خطر له أن يتجنب ذكر آلهتهم بسوء أملاً في أن يستميلهم، خصوصاً عندما تحدَّوه وطلبوا منه أن ينزل الله عليه كنزاً أو يرسل معه ملكاً. وقد رد تعالى على ذلك، مخاطباً رسوله الكريم، بأنه ليس من مهامه الإتيان لهم بما يطلبون، فمهمته ليست في أن يلبي طلباتهم بل في أن ينذر المكذبين ويبشر

= عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك؛ فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتأكدوا من صدق دعواه، فتابوا ودعوا الله ولبسوا المسوح وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، وردوا المظالم في تلك الحالة». راجع: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، **تفسير القرطبي**. وقد وردت قصة يونس في التوراة واسمه هناك بالآرامية: يونان، وذلك في السفر المسمى باسمه، كما تمت الإشارة إليه في إنجيل متّى. وما ذكره القرطبي هنا يلخص ما ذكر بشأنه في التوراة، مع اختلافات بسيطة.

(٥٠) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآيتان ٩٩ ـ ١٠٠. «الرجس» يعني العذاب.

المؤمنين. قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٥١).

وتسترسل السورة في الرد عليهم، بما يسلّي النبي وأصحابه المؤمنين ويطمئنهم ويعزز موقفهم فتكرر الوعيد للكافرين والوعد للمؤمنين. وفي سياق «البرهنة» على أن تنفيذ ذلك الوعد والوعيد حاصل لا محالة، يأتي الحديث عن قصة نوح في قسمين متميزين:

١ ـ **القسم الأول** يستعيد جدل نوح مع قومه بصورة أقرب ما تكون من جدل النبي محمد مع قومه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ. فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ. وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ. وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ. قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ. وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾(٥٢).

واضح إذن أن النبي نوح يتكلم هنا بلسان النبي محمد عليهما السلام. وقصص الأنبياء في القرآن كله تقريباً على هذا النمط. وفي القرآن آيات بهذا

---

(٥١) نفس المرجع، «سورة هود،» الآيات ١٢ ـ ١٤. ويقصد بـ «أن يقولوا» بسبب قولهم. ﴿**فلعلك تاركٌ بعض ما يوحى إليك**﴾ وتكف عن مهاجمة الأصنام.

(٥٢) نفس المرجع، «سورة هود،» الآيات ٢٥ ـ ٣٥. ويقصد بالعبارات التالية: «الملأ» الزعماء الأغنياء، «أراذلنا» فقراؤنا وسفلتنا، «بادي الرأي» المعبرون عن رأيهم من دون تفكير. «أنلزمكموها» لم تروها ولم تفهموها فهل نفرضها عليكم. «الظالمين» أي إني إذاً لمن الظالمين إذا طرتهم.

المعنى وردت على لسان النبي نفسه وبعبارات متطابقة أو متشابهة(٥٣).

٢ ـ أما **القسم الثاني** من قصة نوح في هذه السورة (سورة هود) ففيه تفاصيل عن «الطوفان» لم يسبق ذكرها في السور السابقة (حسب ترتيب النزول). يقول تعالى: **﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاتُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ. وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيم. حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ. وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**(٥٤). وتأتي خاتمة السورة لتستخلص النتيجة

---

(٥٣) من ذلك قوله تعالى: **﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون. وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون. ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم** [ليس بينك وبينهم من خلاف أو غيره يستوجب طردهم] **فتكون من الظالمين. وكذلك فتنا** [الأغنياء بوجود الفقراء] **بعضهم ببعض ليقولوا** [الأغنياء] **أهؤلاء من الله عليهم** [بالهداية والثواب] **من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾** [نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآيات ٥٠ ـ ٥٣]. وبعد فهل يستقيم، مع هذه الآيات والتي قبلها في السور أعلاه، ما يفهمه المفسرون وكتاب السيرة من أن قوله تعالى **﴿فاصدع بما تؤمر﴾** في سورة الحجر، التي تلي هذه السورة ورتبتها في ترتيب النزول ٥٤، هل يستقيم قوله تعالى ذاك أمراً بالجهر بالدعوة وأن به انتقلت من السرية إلى العلن؟ أي أخذ نوح يصنع.

(٥٤) نفس المرجع، «سورة هود،» الآيات ٣٦ ـ ٤٨. ويقصد بالعبارات التالية: «بأعيننا» تحت رعايتنا، **﴿يصنع الفلك﴾** أي أخذ نوح يصنع الفلك، «وفار التنور» تم الإعداد، **﴿من سبق عليه القول﴾** أي حكم الله عليه بالضلال، إشارة إلى ابن نوح كما سيأتي، **﴿من رحم وحال بينهم﴾** والمقصود هنا نوح وابنه، «الجودي» وقيل انه جبل في الموصل، و«أعظك» أحذرك.

المتوخاة من عرض هذه التفاصيل عن الطوفان، وهي أن إتيان النبي محمد ﷺ بهذه التفاصيل التي كان يجهلها هو وقومه دليل على أن القرآن وحي من الله. فالقصة موجهة إذاً إلى المكذبين من قريش لنبوة محمد لتقوم بدور الشاهد على صحة نبوته. قال تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾(٥٥).

يمكن القول إن قصة نوح في القرآن المكي تنتهي بما ورد في السورة السابقة (سورة هود)، بمعنى أنها قد استكملت فيها جميع عناصرها. أما ما جاء منها في السور التالية لها ـ حسب ترتيب النزول ـ فلا يضيف جديداً، وهو بالجملة صنفان:

١ ـ ما ورد في سورة «نوح» ورتبتها ٧١، وقد سميت باسمه، والجديد فيها لا يقع على مستوى عناصر القصة، بل على مستوى الأسلوب ولهجة الخطاب كما سنرى.

٢ ـ أما ما ورد عنها في السور التالية لسورة نوح وبالتحديد: سورة إبراهيم وسورة الأنبياء وسورة «المؤمنون» ورتبها على التوالي: ٧٢، ٧٣، ٧٤ فليس فيه جديد سوى أنه تأكيد لما سبق بصيغ متنوعة. تبقى بعد هذا سورة العنكبوت التي نقرأ فيها سياقاً جديداً، سنتعرف عليه بعد الفقرة التالية.

و ـ قصة نوح في سورة نوح: لهجة مختلفة

رتبت سورة نوح في لائحة ترتيب النزول تحت رقم ٧١ وهي تعرض لقصة نوح بصيغة ولهجة تختلف عن الصيغ التي وردت فيها هذه القصة في السور الأخرى، السابقة واللاحقة. وهذا الاختلاف يلحق الأسلوب واللهجة والمضمون الغائي أيضاً، كما يتبين من المعطيات التالية:

١ ـ إن السورة كلها مخصصة لقصة نوح بمفردها (٢٨ آية)، وهذا يطرح مشكلة السياق. فالقصص التي وردت في «برنامج سورة الأعراف» ـ بما فيها قصة نوح ـ كانت ضمن سياق نصي، له ما قبله وما بعده. أما هنا في سورة نوح فليس هناك قبل ولا بعد، سوى السورة التي نزلت قبلها والسورة التي نزلت بعدها. وحسب لائحة ترتيب النزول فالتي قبلها هي سورة النحل، والتي بعدها هي سورة إبراهيم. وهما أقرب في لهجتهما وآفاقهما إلى السور السابقة (الشعراء، يونس، هود)، منهما إلى سورة نوح.

---

(٥٥) نفس المرجع، «سورة هود،» الآية ٤٩.

٢ ـ إن هذه السورة تذكرنا بصنف من السور تتميز بلهجتها الشديدة وبآياتها المتراصة التي تكرر المعنى الواحد في صيغ مختلفة، ولكن متناغمة: سور تدور حول محور واحد ـ في الغالب ـ فتمتاز بوحدة المعنى في إطار من التعبير المتنوع المتدفق، مثل سور الحاقة والمعارج والقيامة والنازعات والذاريات والصافات. . . إلخ.

٣ ـ على العكس مما رأينا في القصص المنتمية إلى «برنامج سورة الأعراف»، من كون القصة تنتهي بما يسلّي النبي ويثبّته ويدعوه إلى الصبر. . . إلخ، نجد النبي نوح في هذه السورة التي سميت باسمه يتحدث هنا بنوع من اليأس واضح، فدعا على قومه بالهلاك.

وفي ما يلي نص هذه السورة/ القصة. قال تعالى:

ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ. يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَاراً. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً. فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً. مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً. وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ نَبَاتاً. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ بِسَاطاً. لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً. قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارا. وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً. وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرا. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا. مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارا. وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً. رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَاراً﴾(٥٦).

---

(٥٦) نفس المرجع، «سورة نوح،» الآيات ١ ـ ٢٨. ﴿**استغشوا ثيابهم**﴾ أي ألقوا بثيابهم على رؤوسهم حتى لا يواجههم. ﴿**إلا خساراً**﴾ يشير المفسرون، بصدد هذه الآية، إلى الوليد بن المغيرة وهو من أغنى زعماء قريش. وقد نزلت فيه آيات مماثلة في سور أخرى. ﴿**وقالوا لا تذرنَّ. . . ونسراً**﴾ اختلف المفسرون في هذه =

واضح أننا هنا مع سياق غير السياق الذي ساد في السور السابقة، وأن دعاء نوح على قومه بالاستئصال التام أمر جديد. ومع ذلك فمواقف القرآن في القصص تختلف بين الشدة واللين حسب الظروف. هناك كثير من المرويات تفسر شدة موقف نوح في هذه السورة بما سيرد في سورة العنكبوت (الفقرة التالية) من أنه دعا قومه مدة طويلة قدرها القرآن بما يقرب من ألف سنة فلم يستجيبوا بل أصروا على كفرهم إصراراً فيئس منهم ودعا عليهم. على أن هذه الوجهة من النظر تقوم بإزائها وجهة نظر مخالفة وهي تقول بأن ذكر القرآن لطول مدة دعوة نوح لقومه كان الهدف منه دعوة أصحاب النبي ﷺ الذي عذبوا واشتكوا من تأخر تحقق وعد الله لهم بالنصر، دعوتهم إلى الصبر وتذكيرهم بأن نوحاً عليه السلام صبر في دعوة قومه ما يقرب من ألف سنة (كما في الفقرة التالية)[٥٧].

ز ـ نوح في سورة العنكبوت: سياق آخر

سورة العنكبوت هي آخر سورة نزلت في مكة، ورتبتها ٨٥، وهي كسابقاتها تذكّر بقصة نوح مع قومه، ولكن في سياق آخر، سياق يتجه فيه الخطاب هذه المرة إلى بعض المسلمين الذين قيل عنهم إنهم اشتكوا من التعذيب والاضطهاد وطول انتظار النصر الذي وعد الله المؤمنين به، وللرد على هذه الشكوى جاء الاستشهاد بتجربة نوح التي طالت دعوته في قومه ما يقرب من «ألف سنة».

= الأصنام: هل هي أصنام لقوم نوح أم إنها من أصنام العرب. قيل: «إنها للعرب لم يعبدها غيرهم. وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم»؛ وفي هذه الحالة يكون الضمير في: ﴿**لا تذرنّ آلهتكم**﴾. يعود على العرب، والسياق لا يحتمله. ولحل مشكلة ربطها بقوم نوح ارتأى بعضهم أن في العبارة «التفاتا» هكذا: «كما قال قوم نوح لأتباعهم: ﴿**لا تذرنّ آلهتكم**﴾، قالت العرب لأولادهم وقومهم: لا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا. ثم عاد بالذكر بعد ذلك إلى قوم نوح عليه السلام». ﴿**مما خطيئاتهم**﴾ أي من أجل خطاياهم. ﴿**أغرقوا فادخلوا ناراً**﴾ أي سيدخلون جهنم. استندت بعض فرق الخوارج على هذا الموقف من نوح، فقالوا بوجوب قتل أطفال مخالفيهم بدعوى أن آباءهم الضالين: ﴿**لا يلدوا إلا فاجراً كفارا**﴾. ويقصد بالعبارات التالية: «ديّاراً» صاحب دار، «تباراً» هلاكاً.

(٥٧) وهناك مرويات أخرى تشير إلى أن النبي ﷺ شبّه مواقف أبي بكر بموقف النبي إبراهيم الذي وقف موقفاً ليناً مع قومه، وشبّه مواقف عمر بن الخطاب بموقف نوح في هذه السورة. وفي هذا المعنى يُروى الحديث التالي عن عبد الله بن مسعود قال: «لما كان يوم بدر جيء بالأسرى فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قومك وأهلك استبقِهم لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، كذّبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدمهم فأضرب أعناقهم. . . فقال ﷺ: «إن الله ليُلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال ﴿**رب. . . فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم**﴾ [نفس المرجع، «سورة إبراهيم،» الآية ٣٦). . . ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال ﴿**رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا**﴾ وتقول الرواية. . . إن النبي جمع بين الرأيين فقال: «أنتم (يأهل بدر) عالة (فقراء)، فلا ينفلتن منهم (من الأسرى) أحد إلا بفداء أو ضرب عنق».

ذلك ما تفصح عنه هذه السورة منذ بدايتها، فقد تساءلت: ﴿**آلم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾(٥٨).

ولتثبيت قلوب هؤلاء وتسليتهم تذكّرهم السورة بما حصل لمن كانوا قبلهم من أتباع الأنبياء وما تحملوه من اضطهاد وتعذيب. ويبدو أنه كان هناك في أواخر المرحلة المكية من الدعوة المحمدية من لم يكن قد تمكن الإيمان من نفوسهم فاستغربوا أن لا يقيَهم الله من طغيان قريش وقد أصبحوا مسلمين. فعن هؤلاء يقول تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ. وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾(٥٩). ولتأكيد أن الفتنة، التي تعرّض لها هؤلاء، ليست بدعاً في سير الأنبياء والرسل وصحابتهم، تنتقل بنا السورة مباشرة إلى التذكير بما حصل للأنبياء السابقين مبتدئة بقصة نوح فنقرأ عنها هذه الإشارة التذكيرية: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾(٦٠).

بعد ذلك تنتقل السورة إلى التذكير بقصص إبراهيم ولوط وعاد وثمود. . .

---

(٥٨) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآيات ١ ـ ٣. ﴿**أحسب الناس**﴾ أي أصحاب الرسول. «يفتنون» تعني يمتحنون ويؤذون.

(٥٩) نفس المرجع، «سورة العنكبوت،» الآيات ١٠ ـ ١٣ .اختلف المفسرون في تعيين هؤلاء «الناس»، منهم من يقول: «يريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وعمّار بن ياسر وياسر أبوه وسُميّة أمه وعدة من بني مخزوم وغيرهم. فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استنكروا أن يمكّن الله الكفار من المؤمنين؛ قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلّية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة». راجع: القرطبي، **تفسير القرطبي**. والإشارة إلى «المنافقين» لا تعني «المنافقين» في المدينة، فالسورة مكية، وإنما تشير إلى من في حكمهم. وقد اختلف المفسرون في تعيينهم.

(٦٠) **القرآن الكريم**، «سورة العنكبوت،» الآيتان ١٤ ـ ١٥. للمفسرين والرواة ومروّجي الإسرائيليات أقوال حول عمر نوح ونسبه. . . إلخ. وتلك أمور ليس من الضروري ذكرها، فالمقصود من ذكر طول مدة دعوة نوح لقومه هو التنبيه إلى صبره على أذى قومه مدة طويلة ثبت خلالها هو ومن آمن به على تكذيب قومه واضطهادهم له ولأصحابه. وفي هذا مخاطبة غير مباشرة لأولئك الذي اشتكوا من المسلمين الجدد من عسف قريش.

إلخ، كما سنرى في الفقرة التالية. أما قصة نوح فلم يرد منها شيء بعد سورة العنكبوت التي قلنا إنها آخر سورة نزلت بمكة. أما في القرآن المدني فلم يرد عنه شيء سوى ذكر اسمه مرتين ـ مجرد ذكر إلى جانب أسماء أنبياء آخرين.

٣ ـ أهل القرى: تفصيل

أ ـ عاد

بعد عرض قصة آدم/ إبليس وقصة نوح كما وردتا في القرآن المكي، نعود إلى سورة الأعراف، منطلقنا في هذه المرحلة الثانية من تدرج القصص القرآني، لنتابع قصص الأنبياء الذين جاؤوا بعد نوح حسب الترتيب القرآني. تبدأ سورة الأعراف باستعادة القصص التي ذكرت في المرحلة الأولى (الفصل السابق)، قصص «أهل القرى» مع أنبيائهم، لتفصّل القول فيها، ثم تعرّج على قصص أنبياء آخرين قبل أن تنتقل إلى قصة موسى مع فرعون وقومه. وبما أن هذه الأخيرة هي أطول قصة في القرآن وقد وردت فصولاً على مراحل وفي سور عديدة، فإننا سنخصص لها فقرة خاصة بعد هذه التي نعرض فيها لعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب و«أصحاب القرية»، كما تحدثت عنهم سورة الأعراف والسور التالية لها.

(١) عاد ونبيهم هود في سورة الأعراف

لا يختلف ما ورد هنا في (سورة الأعراف) بشأن عاد عما سبق ذكره في سور المرحلة الأولى إلا في ثلاث مسائل: **الأولى** ذكر اسم نبيهم هود لأول مرة، **والثانية** تحديد موقعهم في سلسلة قصص الأنبياء، بكونهم جاءوا بعد قوم نوح كخلفاء لهم، **ثالثاً** الاقتصار على ذكر حوار النبي هود مع قومه وصياغة هذا الحوار بصورة تجعل من حال النبي هود مع قومه عاد هي نفسها حال النبي محمد ﷺ مع قومه قريش. يقول تعالى: **﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ. أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ**

بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٦١).

(٢) عاد في سورة الشعراء: مبانيهم وأبراجهم

ومن سورة الأعراف (رتبتها ٣٩) ننتقل إلى سورة الشعراء (ورتبتها ٤٧) التي تنطلق من مطلع مماثل لمطلع سورة الأعراف، وقد تعرفنا عليه أعلاه (الفقرة رقم ٢: قصة نوح في سورة الشعراء). بعد ذلك تنتقل بنا السورة إلى قصة عاد ونبيهم هود لتركز على الحوار الذي جرى بينه وبينهم. ومن هذا الحوار نستفيد أنهم كانوا يبنون على المرتفعات المحيطة بمدينتهم بناءات عالية وأبراجاً يخلدون إليها، وأنهم كانوا جبارين شديدي البطش، وأنهم كانوا أصحاب نسل كثير، يربون الأنعام ويزرعون بساتين يسقونها من ماء عيون في أراضيهم. يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِين. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٦٢).

(٣) عاد في سورة هود: ألا بُعْدًا لعاد قوم هود!

ويتكرر نفس الحوار، وبنوع من الحدة هذه، بين هود وقومه عاد في السورة التي سميت باسمه (رتبتها ٥٢). وقد ورد ذلك في إطار استعراض تجارب الأنبياء مع أقوامهم، وبعد قصة نوح مباشرة. قال تعالى: ﴿وإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ. يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ. وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ. قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا

---

(٦١) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ٦٥ ـ ٧٢. «بسطة» تعني طول الجسم.

(٦٢) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيات ١٢٣ ـ ١٤٠. ويقصد بالعبارات التالية: «ريع» مكان مرتفع، «آية» بناء عالي، و«مصانع» أبراج.

هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ. وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ. وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾(٦٣).

(٤) عاد في سورة فصلت: عاد استكبروا

ومن سورة هود ننتقل إلى سورة فصلت (رتبتها ٦١) حيث نجد قصة عاد تأتي هذه المرة كتهديد مباشر وصريح لقريش. تبدأ السورة بقوله تعالى: **﴿حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾**(٦٤). وبعد أن تذكر السورة بالقضية الأساسية في الدعوة المحمدية قضية التوحيد، توجه الخطاب إلى النبي ﷺ: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾**(٦٥)، ثم تطلب منه أن يندد بكفرهم وبالأصنام التي جعلوها أنداداً لله، فإن أَعْرَضُوا، فإن عليه أن ينذرهم صاعقة **﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾**(٦٦). ثم تذكّر السورة بهذه الصاعقة فتقول عن تلك التي أصابت قوم عاد: **﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾**(٦٧).

(٥) عاد في سورة الأحقاف: المستكبرون...

ونلتقي في سورة الأحقاف (رتبتها ٦٦) مع مطلع مشابه لمطلع السورة السابقة: التنديد بشرك كفار قريش وعبادتهم الأصنام. قال تعالى: **﴿حم. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ**

---

(٦٣) نفس المرجع، «سورة هود،» الآيات ٥٠ ـ ٦٠. «تولوا» تعني تتولوا.

(٦٤) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآيات ١ ـ ٤.

(٦٥) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآيتان ٦ ـ ٧.

(٦٦) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآية ١٣.

(٦٧) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآيتان ١٥ ـ ١٦.

أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾(٦٨). وتستطرد السورة في هذا الاتجاه إلى أن يصل بها التدرج إلى ذكر مشهد يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾(٦٩) ويقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾(٧٠).

ومن هنا تنتقل السورة إلى قوم عاد لتعرض باختصار لجدلهم مع نبيهم هود قبل أن تخبر بالطريقة التي أهلكوا بها، وتوجه الخطاب بعد ذلك مباشرة إلى قريش. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ. فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(٧١).

(٦) عاد في سورة الحاقة: قوم عاد صرعى!

وتمدنا سورة الحاقة (رتبتها ٧٨) بمعلومات جديدة حول الريح التي أهلكت

---

(٦٨) نفس المرجع، «سورة الأحقاف،» الآيات ١ ـ ٥.

(٦٩) نفس المرجع، «سورة الأحقاف،» الآية ٢٠.

(٧٠) نفس المرجع، «سورة الأحقاف،» الآية ٢٠.

(٧١) نفس المرجع، «سورة الأحقاف،» الآيات ٢١ ـ ٢٨. الأحقاف في اللغة هو ما استطال من الرمل العظيم واعوّج ولم يبلغ أن يكون جبلاً. وقد اختلفوا في تحديد مكان هذه الأحقاف. قال: معظمهم إنها باليمن أو بينها وبين عُمان. بينما قال آخرون إن المقصود بالأحقاف جبل بالشام. وهذا في نظرنا أقرب إلى الصواب، استناداً إلى ما سيرد بعد قليل من أن ثمود كانوا يبنون بيوتهم بالحجارة وأنهم جاؤوا مباشرة بعد قوم عاد ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد**﴾ [«سورة الأعراف،» الآية ٧٤]. ﴿**وقد خلت النذرُ**﴾ النذر تعني الرسل. ﴿**من بين يديه ومن خلفه**﴾ أي من قبله ومن بعده. «لتأفكنا» تعني لتصرفنا. ﴿**فلما رأوه عارضاً**﴾ لما رأوا العاصفة التي ستفنيهم حسبوها سحاباً عرض في السماء.

عاداً، فنقرأ فيها قوله تعالى: **﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾**(٧٢) وبهذا تكون قصة عاد قد تمت في القرآن المكي.

ب ـ ثمود

(١) ثمود في سورة الأعراف: المستكبرون . . .

ومن عاد ننتقل إلى ثمود، راجعين إلى سورة الأعراف، منطلقنا المرجعي، حيث نجد قصتهم تتميز كسابقتها ـ قصة عاد ـ بأربعة أمور: **الأول**: ذكر اسم نبيهم (صالح)، **الثاني** ذكر موقعهم في سلسلة القصص القرآني بوصفهم جاءوا خلفاء قوم عاد، **الثالث** جعل الجدل بين نبيهم صالح والمستضعفين المؤمنين به من جهة، وبين المستكبرين من قومه ثمود من جهة أخرى، مماثلاً بل ومطابقاً للجدل الذي كان يجري بين النبي العربي وصحبه المستضعفين المؤمنين به، وبين المستكبرين من قريش. **والرابع** أن الله طلب من ثمود أن يتركوا الناقة **﴿تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾**(٧٣)، بينما ورد من قبل وسيرد بعد قليل أن الله قسم الماء بينها وبينهم. . . إلخ، ولا تناقض في الأمر. يقول تعالى: **﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾**(٧٤).

وفي سورة الشعراء (٤٧) يرد ذكر ثمود، ولكن من دون جديد. وإنما استعادة ما سبق من قبل، مع نوع من التطابق مع ما قيل في قوم عاد بصدد مبانيهم

---

(٧٢) نفس المرجع، «سورة الحاقة،» الآيات ٦ ـ ٨.

(٧٣) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ٧٣.

(٧٤) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ٧٣ ـ ٧٩. **﴿ناقة اللهِ لكم آية﴾** أي هي علامة على صدق نبوتي. وردت في سورة القمر، الآية ٣١، **﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة﴾**. والصيحة قد تسبب الرجفة، خصوصا إذا كانت قوية كصوت الصواعق الشديدة.

ومزارعهم. وهذا يزكي وجهة نظرنا التي قلنا فيها[٧٥]، إننا نرجح أن يكون المقصود بالأحقاف، موقع مساكن عاد، هو جبل في الشام، وليس كثبان الرمل في اليمن. فالسياق يدل على أن قوم ثمود جاءوا بعد قوم عاد وسكنوا المنطقة نفسها، منطقة الحجر، بين المدينة والشام، واتخذوا مثلهم بيوتاً وأبراجاً من الحجارة. . . إلخ.

(٢) ثمود في سورة النمل: تفصيل القصة

أما في سورة النمل التي تأتي بعد سورة الشعراء مباشرة حسب ترتيب النزول، والتي تندرج هي الأخرى في سلك السور التي تبدأ بتسلية النبي وتثبيت فؤاده والرفع من معنويات المؤمنين من أصحابه، فإننا سنجد عرضاً مفصلاً لقصة قوم ثمود. تبدأ السورة بقسم «طس» تؤكد فيه أن ما سيأتي في هذه السورة هو ﴿**آيات القرآن وكتاب مبين. هُدى وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾، ووعيد لـ ﴿**الذين لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ**﴾ و﴿**الذين لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ**﴾. بعد ذلك تتجه السورة بالخطاب إلى النبي ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾[٧٦]. هو «حكيم» لأنه يضع الشيء في مكانه المناسب، وهو «عليم» يعلم ما جرى ويجري. ومن هنا كانت آيات[٧٧] هذا الكتاب هي ما يخبر به من وقائع وأحداث تفيد قريشاً علماً ودروساً وعبراً تعبر عن حكمة.

بعد هذه المقدمة تشرع السورة في سرد قصص تقوم بوظيفة نقل العلم والحكمة إليهم، تسلية للنبي وأصحابه، وتثبيتاً لقلوبهم، وذلك من خلال حكاية ما عانى الأنبياء السابقون مع أقوامهم فصبروا إلى أن كان النصر حليفهم. في هذا الإطار تذكّر السورة بقصة نبي الله صالح مع قومه ثمود لتضيف عنصراً جديداً إلى ما سبق، وهو بيان الطريقة التي أرادوا بها التخلص منه. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ. قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ. وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ. قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً**

---

(٧٥) انظر الهامش رقم ٧١ أعلاه.

(٧٦) نفس المرجع، «سورة النمل،» الآيات ١ ـ ٢ و٤ ـ ٦ على التوالي.

(٧٧) المقصود بالآيات هنا العلامات المؤيدة لصدق نبوة أنبياء الله، بما في ذلك الظواهر الطبيعية المعروفة (الأمطار، النبات. . . إلخ) والأمور الخارقة للعادة.

بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٧٨).

في هذه الآيات علم، أي إخبار بمؤامرة قوم صالح عليه. وفيها حكمة ينبئ عنها بقاء آثار بيوتهم خاوية، وهي آية لقوم يعلمون ما جرى لأصحابها. والخطاب هنا موجه إلى قريش التي حاولت مراراً الاتفاق على طريقة للتخلص من النبي وصحبه وأهله. وقد سبق أن تحدثنا عن هذا الموضوع في فقرة سابقة (قصة نوح في سورة يونس).

(٣) ثمود في سورة هود

وتستعيد سورة هود قصة ثمود في إطار استعراض معاناة الأنبياء مع أقوامهم، والعنصر الوحيد الذي تضيفه إلى ما سبق هو أن الله أمهلهم، عندما عقروا الناقة، ثلاثة أيام قبل أن يأتيهم «وعد الله غير مكذوب»(٧٩). هذا من جهة، ومن جهة أخرى ورد في هذه السورة قول النبي صالح لقومه: **﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾**(٨٠)، كما ورد في سورة الأعراف (أعلاه)، هذا بينما ورد في سورة الشعراء من قبل: **﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾**(٨١).

ج ـ لوط

(١) لوط في سورة الأعراف

بعد قصة صالح مع قومه ثمود تأتي قصة لوط مع قومه حسب الترتيب

---

(٧٨) نفس المرجع، «سورة النمل،» الآيات ٤٥ ـ ٥٣. الضمير في «يختصمون» يعود على الضمير «هم»، أي مجموع الفريقين يختلف بعضهم مع بعض في الحكم على ما جاءهم به نبيهم. «اطيّرنا» أي تطيّرنا، تشاءمنا، «طائركم» شؤمكم، **﴿طائركم عند الله﴾** أي هو الذي جاءكم به. «تفتنون» يختبرهم الله ويمتحنهم، و«تقاسموا» لنحلف جميعاً. **﴿لنقولن لوليه﴾** والمقصود به ولي دمه من قبيلته. **﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾** هي أطلال مدينة الحِجر التي ما زالت قائمة، وكانت قريش تمر عليها في أسفارها إلى الشام. راجع القسم ٣، «المرحلة الأولى،» الهامش رقم ٢ من هذا الكتاب.

(٧٩) **﴿ذلك وعد غير مكذوب﴾** [نفس المرجع، «سورة هود،» الآية ٦٥].

(٨٠) نفس المرجع، «سورة هود،» الآية ٦٤.

(٨١) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيتان ١٥٥ ـ ١٥٦. قال المفسرون: «هذه ناقة لها شرب» أي حظ من الماء؛ أي لكم شرب يوم ولها شرب يوم؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً. قال الفراء: الشِّرْب الحظ من الماء». راجع: القرطبي، **تفسير القرطبي**.

الوارد في سورة الأعراف، منطلقنا المرجعي في هذه المرحلة. يقول تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ. وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(٨٢). وتتكرر نفس القصة بعبارات شبيهة بهذه، وسياق مماثل، في سورة الشعراء وسورة النمل.

(٢) لوط وضيف إبراهيم في سورة هود

أما في سورة هود فقد وردت القصة في سياق آخر وبعناصر جديدة. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ. قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ. وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِم وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ. وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ. قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ. قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيد. قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ولا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا

---

(٨٢) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ٨٠ ـ ٨٤. ﴿**كانت من الغابرين**﴾ كانت عجوزاً من قدماء القوم، قيل: كانت إذا نزل بزوجها لوط ضيف دخنت لتعلم قومها بذلك لما كانوا عليه من إتيان الرجال. وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في سورة التحريم حيث وصف امرأة نوح وامرأة لوط بالخيانة. قال تعالى: ﴿**ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين**﴾ [«سورة التحريم،» الآية ١٠]. ﴿**وأمطرنا عليهم طراً**﴾ قال تعالى: ﴿**إنا أرسلنا عليهم حاصباً**﴾ [«سورة القمر،» الآية ٣٤]. غير أنه لا تناقض هناك لأن المقصود هنا هو ذلك الحاصب نفسه بدليل قوله تعالى في: ﴿**وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل**﴾ [«سورة الحجر،» الآية ٧٤].

عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[٨٣].

(٣) لوط في سور أخرى

وفي عبارات مشابهة ومضمون وسياق مطابقين للسابقين وردت قصة لوط في سورة الحجر (رتبتها ٥٤). وقد انفردت هذه السورة بالإشارة إلى موقع مساكن قوم لوط فقالت: **﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾**[٨٤] وقد فسرها القرطبي وغيره «بأنها على طريق قومك يا محمد إلى الشام». وقد وردت الإشارة نفسها في سورة الصافات التي ذكرت لوطاً في سياق عرض أسماء الأنبياء المرسلين، فلخصت قصته في بضع آيات منها قوله تعالى يخاطب قريشا: **﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾**[٨٥]. وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾**[٨٦]، وذلك من خلال الآثار التي بقيت تشهد على الدمار الذي أصابهم.

وفي سورة الأنبياء (ورتبتها ٧٣) ورد ذكر لوط وقومه في آيتين أخبرت الأولى منهما أن الله قد آتاه **﴿حُكْماً وَعِلْماً﴾**[٨٧]. وفي سياق مماثل للسياق الذي وردت فيه قصة لوط في سورة هود أعلاه ذكرت سورة العنكبوت (رتبتها ٨٥) القصة نفسها بنفس المضمون مع إضافة أن قومه كانوا يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، إضافة إلى إتيانهم الرجال من دون النساء. وقد ورد هذا متداخلاً مع قصة إبراهيم كما رأينا في قصة هذا الأخير.

---

(٨٣) نفس المرجع، «سورة هود،» الآيات ٦٩ ـ ٨٣. **﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾** ذكر القرطبي وغيره «أن لوطاً عليه السلام هو ابن لحا عم إبراهيم عليه السلام، وكانت قوى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قِراه، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافا». يعنى أن هؤلاء الضيوف كانوا ملائكة تمثلوا في صورة بشر جاؤوا ليبشروا إبراهيم بمولود هو إسحاق كما سنرى لاحقاً. «حنيذ» أي مشوي، **﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾** أي لا يأكلون. **﴿يجادلنا في قوم لوط﴾** يجادل أولئك الملائكة في مشروعية إهلاك قوم لوط وقد يكون فيهم مسلمون. **﴿أعرض عن هذا﴾** المقصود أعرض عن الجدال في قوم لوط. **﴿ضاق بهم ذراعاً﴾** أي خاف عليهم من قومه. **﴿هؤلاء بناتي هن أطهرُ لكم﴾** أي خذوهن زوجات لكم. **﴿ما لنا في بناتك من حق﴾** قيل: «إن قوم لوط خطبوا بناته فردهم، وكانت سنتهم أن من رد في خطبة امرأة لم تحل له أبدا». **﴿فأسرِ بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾** أخرج بأهلك باستثناء امرأتك، خلال الظلام حتى لا يشعر بخروجكم أحد. «سجّيل» طين حاد، «منضود» مصفوف متتابع كالبرد، و«مسومة» فيها علامات.

(٨٤) نفس المرجع، «سورة الحجر،» الآية ٧٦.

(٨٥) نفس المرجع، «سورة الصافات،» الآيتان ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٨٦) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآية ١٠٩.

(٨٧) نفس المرجع، «سورة الأنبياء،» الآية ٧٤.

د ـ مَدْيَن

(١) مدين في سورة الأعراف

بعد لوط ننتقل إلى شعيب الذي يليه في الترتيب الزمني الذي سطرته سورة الأعراف. وإذا كان كثير من الأنبياء السابقين قد ذُكروا ـ ولو مجرد ذكر ـ في السور السابقة على سورة الأعراف فإن نبيّ الله شعيب وقومه أهل مدين يُذكرون هنا في هذه السورة لأول مرة. (ومدين اسم مدينة بين المدينة والشام، وقيل اسم القبيلة الساكنة فيها). وحسب القصة فقد بعث الله شعيباً إلى قومه يدعوهم إلى عبادته وحده، ويعيب عليهم ما كانوا يمارسونه من الغش في الميزان والمكيال. كما يفضح ما كانوا يقومون به من صد الناس عن نبيهم بدعوى أنه كذاب، كما كانت تفعل قريش مع النبي (ﷺ). أما الحوار فكان بينه وبين قومه من جهة، وبين أتباعه المستضعفين وبين خصومهم المستكبرين من جهة ثانية، كما كان الشأن في الدعوة المحمدية. هذا من جهة ومن جهة أخرى هدده قومه بإخراجه من قريتهم، كما فعل قوم لوط، وكما كانت قريش تحاول فعله مع النبي. والجواب الذي جاء هنا على قوم شعيب يصدق أيضاً على قوم محمد ﷺ. قال تعالى: **﴿وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُم وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ. وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ. قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ. وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ. فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِين. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الذين كذبوا شعيباً كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾**[88].

---

(٨٨) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ٨٥ ـ ٩٣. «افتح» وتعني احكم. **﴿فتولّى عنهم وقال يا قوم﴾** كأن لم يسكنوها.

(٢) مدين: أصحاب الأيكة في سورة الشعراء

هذا وقد وردت نفس القصة مختصرة بعض الشيء في سورة الشعراء حيث يخاطب النبي شعيب «أصحاب الأيكة»، قيل هم سكان غيضة بريف مدين. كما وردت هذه القصة في سورة هود وبنفس المضمون مع إضافة صدرت من قوم شعيب: **﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوه وَرَاءَكُمْ ظِهْرِياً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾**(٨٩). وهذا يذكرنا بوضعية النبي محمد ﷺ الذي تجنبت قريش قتله خوفاً من أن يهبّ أهله من بني هاشم للمطالبة بدمه فتقوم حرب أهلية تكون كارثة على قريش كلها. هذا وقد خصصت سورة العنكبوت آيتين للتذكير بمدين ونبيهم شعيب، من دون إضافة شيء جديد.

هـ ـ أصحاب القرية، يس: دعوة عيسى

ومن قصص أصحاب القرى قصة لم تذكر في ما دعوناه بـ «برنامج سورة الأعراف»، وهي قصة القوم الذين سماهم القرآن بـ «أصحاب القرية»، وقد وردت في سورة يس (ورتبتها ٤١). ويجمع المفسرون على أن المقصود بهذه القرية هو «أنطاكية» بشمال سورية. وقد أشار كثير منهم إلى أن الأمر يتعلق برسولين بعثهما المسيح عليه السلام لنشر الدعوة فيها ثم عززهما بثالث. وقد دقق بن عاشور في هذا الأمر فكتب ما ملخصه: «وقع اختلاف للمفسرين في تعيين الرسل الثلاثة الذين أرسلوا إلى أهل أنطاكية، وتحريفات في الأسماء. والذي ينطبق على ما في كتاب «أعمال الرسل» من كتب العهد الجديد **(الإنجيل)** أن «برنابا» و«شاول» المدعو «بولس» من تلاميذ الحواريين، ووصفا بأنهما من الأنبياء، كانا في أنطاكية مرسلين للتعليم، وأنهما عززا بالتلميذ سيلا . . . والمكذبون هم من كانوا سكاناً بأنطاكية من اليهود واليونان. وليس في «أعمال الرسل» سوى كلمات مجملة عن التكذيب والمحاورة التي جرت بين المرسلين والمرسل إليهم، فذُكر أنه كان هنالك نفر من اليهود يطعنون في صدق دعوة بولس وبرنابا ويثيرون عليهما نساء الذين لا يؤمنون بعيسى من وجوه المدينة من اليونانيين وغيرهم، حتى اضطر «بولس وبرنابا» إلى أن خرجا من أنطاكية وقصدا ايقونية وما جاورها، فقاومهما يهود بعض تلك المدن، وأن أحبار النصارى في تلك المدائن رأوا أن يعيدوا بولس وبرنابا إلى إنطاكية. وبعد عودتهما حصل لهما ما حصل لهما في الأولى، وبالخصوص في قضية وجوب

---

(٨٩) نفس المرجع، «سورة هود،» الآيتان ٩١ ـ ٩٢.

الختان على من يدخل في الدين، فذهب بولس وبرنابا إلى أورشليم لمراجعة الحواريين فرأى أحبار أورشليم أن يؤيدوهما برجلين من الأنبياء هما «برسابا» و«سيلا». فأما «برسابا» فلم يمكث. وأما «سيلا» فبقي مع «بولس وبرنابا» يعظون الناس. ولعل ذلك كان بوحي من الله إليهم وإلى أصحابهم من الحواريين. فهذا معنى قوله تعالى ﴿**إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث**﴾، إذ أسند الإرسال والتعزيز إلى الله»(٩٠).

ذلك ما قاله بن عاشور. ونحن نرى أن الإشارة إلى الأصنام وإلى هلاك أهل القرية بصيحة وهما أمران وردا في القرآن الكريم، ولم يردا في «أعمال الرسل» في شأن زيارة بولس وصاحبه لأنطاكية، أقول إن الإشارة إلى الأصنام... إلخ، ترجح أن تكون القرية المقصودة مدينة أخرى من المدن التي زارها بولس وذكر فيها عبادة الأصنام مثل أفسوس أو أثينا... إلخ(٩١).

هذا عن خلفية هذه القصة التي وردت مرة واحدة في سورة «يس» ولم يتكرر ذكرها في أية سورة من السور. أما السياق الذي وردت فيه هذه القصة فهو نفس السياق الذي ينتظم قصص «أهل القرى»، وهو ضرب المثل لقريش بما جرى لـ «أصحاب القرية» الذين كذبوا الرسل فكان مصيرهم الهلاك، كما حصل لآخرين من أهل القرى الذين كذّبوا رسلهم، مثل عاد وثمود وقوم لوط... إلخ. يقول تعالى في مستهل سورة «يس» في تقرير هذا السياق: ﴿**يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُون. وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُون. إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ. إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾(٩٢).

واضح أن الأمر هنا يتعلق بإصرار قريش على رفض الدعوة المحمدية، وأن الله

---

(٩٠) محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، سورة يس.

(٩١) راجع: **الكتاب المقدس**، «أعمال الرسل،» الأصحاح ١٥.

(٩٢) **القرآن الكريم**، «سورة يس،» الآيات ١ ـ ١٢. «مقمحون» أي رافعون رؤوسهم لا يستطيعون تحريكها: جامدون على الكفر. ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً**﴾ أي مضغوط عليهم لا يستطيعون حراكاً: مسجونون في قالب الكفر.

طبع على قلوبهم وبالتالي فهم لن يؤمنوا. لذلك فعلى النبي أن يتوجه بالدعوة إلى ﴿مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾. وبعد هذا مباشرة طلبت السورة من النبي ﷺ أن يضرب لهم مثلاً بقصة «أصحاب القرية». والمقصود ـ كما شرحنا سابقاً ـ ليس القصة نفسها بل كون أحداثها تعطي مثلاً لقريش على ما سيكون عليه مصيرهم. قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ. إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ. قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ. قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ. وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ. وَمَا لِي لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنقِذُونِ. إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ. قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ. وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ. إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ. يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾[٩٣].

خلاصة عامة

بعد العرض الذي قدمته سورة الأعراف عن قصص أصحاب القرى (قوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب) الذين تكرر ورود قصصهم بصورة أو بأخرى في سور لاحقة، كما رأينا، تبقى سورة الأعراف هي الإطار المرجعي لهذه القصص، ليس فقط على صعيد السياق والمضمون والعبر التي تحملها، بل أيضاً على صعيد النتيجة العامة التي يمكن استخلاصها من تكذيب أهل تلك القرى لرسلهم وإعراضهم عنهم ومحاولة الفتك بهم. هذه النتيجة العامة تم التعبير عنها في سورة الأعراف نفسها بآيات وردت بصيغة العموم لتنتقل بالقارئ من حالات جزئية، هي حالات الأنبياء السابقين مع أقوامهم، كلاً على حدة، إلى حالة عامة يتم التعبير فيها عن مشيئة الله. فالخطاب هنا سينصرف معناه إلى الغائب/ الحاضر: إلى جميع أقوام الأنبياء عبر التاريخ، ومن بينهم القوم الذين عاشوا في حاضر الدعوة المحمدية (سكان «أم القرى»: مكة)، لينتقل الخطاب بعد ذلك إلى الرسول محمد بن عبد

---

(٩٣) نفس المرجع، «سورة يس،» الآيات ١٣ ـ ٣٠. قيل: أي سيقال له يوم القيامة. «جند» تعني الرسل.

الله ﷺ ليؤكد له أن الله قد قص عليه أنباء الأقوام المذكورة ليريه كيف أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما سبق أن كذبوا به، فإصرارهم على التكذيب قد جعل الله يطبع على قلوبهم فلا يستطيعون التراجع عن التكذيب حتى ولو رغبوا في ذلك. يقول تعالى مخاطبا نبيه الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ. ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ. أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحى وَهُمْ يَلْعَبُونَ. أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ. أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ. تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ. وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[٩٤].

بعد هذه الخاتمة تنتقل بنا السورة إلى قصة موسى مع فرعون.

---

(٩٤) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ٩٤ ـ ١٠٢.

القصص في القرآن المكي

(٣)

المرحلة الثانية: قصة موسى وفرعون

تمهيـد

بعد قصص «أهل القرى»، تواصل سورة الأعراف عرض قصص الأنبياء حسب التسلسل الزمني الذي أقرته من قبل، فتنقلنا إلى قصة من نوع آخر، قصة تحكي، ليس تجارب الأنبياء السابقين مع قراهم، وهي تجارب محدودة تم التعبير عنها في سياق واحد، بل تنقلنا هذه المرة إلى قصة نبي الله موسى مع فرعون وملئه[1]. يتعلق الأمر هذه المرة، ليس بقرية يعبد أهلها الأصنام، وإن كان نقد عبادة الأصنام سيستأنف في مرحلة من مراحل هذه القصة، بل يتعلق الأمر أساساً بطاغية نصّب نفسه إلها يضطهد شعبه ويستعمل قسماً منهم ـ هم بنو إسرائيل ـ في الأعمال الشاقة. وقد ذهب به الطغيان إلى أقصى مداه عندما قرر ذبح أطفال بني إسرائيل. ومن أجل إنقاذ هذا الشعب بعث الله موسى إلى فرعون.

وعلى خلاف القصص السابقة حيث كان التعريف بالنبي يقتصر على نسبته إلى قومه كـ «أخ» لهم («إلى هود أخاهم عاد»، «إلى مدين أخاهم شعيب». . . إلخ) فإن

(١) عاش الإسرائيليون في المجتمع المصري وتكاثروا فيه منذ هجرة يعقوب وأولاده إلى مصر التي نشأ فيها ابنه يوسف، في كنف الدولة على عهد أحد الفراعنة، فعاشوا فيها عيشة راضية، راجع قصة يوسف لاحقاً. ولما مات فرعون صاحب يوسف وتوفي هذا الأخير وتولى الحكم بعده فرعون آخر في وقت كان بنو إسرائيل قد كثر عددهم حتى خشي فرعون أن يشكلوا أغلبية عمد إلى اضطهادهم وذبح أطفالهم خوف أن ينقضوا ولاءهم لمصر ويتحالفوا مع عدوها، وكان ذلك في الفترة التي سبقت ولادة موسى. راجع: **الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ١.

حكاية حياة موسى تحتل حجماً كبيراً في قصته مع فرعون، هذا بينما يقتصر التعريف بفرعون موسى على إبراز طغيانه وادعائه الألوهية ـ من دون ذكر اسمه ولا أي شيء يمكن أن يعرف به من بين الفراعنة الآخرين ـ مما يوحي بأنه يتخذ هنا رمزاً للطغيان وبالتالي ليس المقصود فرعون بعينه، من بين الملوك الفراعنة، بل المقصود كل من هو في معناه. ويتأيد هذا بكون فرعون صاحب يوسف لم يطلق القرآن عليه اسم فرعون بل سماه «الملك»[٢].

ومع أن قصة موسى قد عرضت في عشر سور من القرآن المكي[٣]، مجال بحثنا، فإن العرض الوارد في سورة الأعراف، منطلقنا المرجعي، يشكل ما يمكن اعتباره الصيغة الرئيسية للقصة. وهذا لا يقلل من أهمية الصيغ التي وردت فيها القصة في باقي السور؛ ففضلاً عن أن هذه الصيغ تورد عناصر جديدة تفصيلية فهي تطرح القصة في سياقات أخرى، كثير منها متشابه فعلاً، على صعيد بداية السورة وخاتمتها، ولكنها تختلف قليلاً أو كثيراً على صعيد أسلوب العرض كما على صعيد المضمون. وبما أن الأسلوب الذي يعرض به القرآن هذا الجزء أو ذاك من القصة يضفي عليه طابعاً خاصاً فإن الإخلاص للنص يقتضي الاحتفاظ به كما هو، ما دام بلسان عربي مبين، كل ترجمة له إلى عبارات عربية أخرى من أسلوب الباحث لن يعمل إلا على إفقاره شكلاً ومضموناً.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فعزل آيات القرآن عن سياقها النصي والتعبير عن مضمونها بأسلوب هذا الكاتب أو ذاك سيجعل القرآن يبدو وكأنه يكرر نفسه. نعم إن التكرار في القرآن ظاهرة معترف بها، ولكنه تكرار يذوب تماماً عندما نضعه في سياقه، أسلوباً ومقاصد.

وإذاً فسنسلك في التعامل مع قصة موسى نفس المسلك الذي اتبعنا مع القصص السابقة: سنعتمد النص القرآني نفسه مع جعله أقرب إلى القارئ المعاصر، بتوزيعه إلى الفقرات مع وضع الفواصل والنقط وشرح الكلمات التي تتطلب الشرح وكتابة هوامش حول المسائل التي تحتاج إلى ذلك. كما أننا سنعرض **أولاً** لما ورد من هذه القصة في سورة الأعراف، إطارنا المرجعي في هذه المرحلة من تدرج القصص في القرآن، ثم نعرض بعد ذلك لما ورد في السور التالية لها، متتبعين ترتيب النزول، الأمر الذي يعني أننا لن نتقيد بالتسلسل الزمني لأحداث القصة،

---

(٢) راجع قصة يوسف لاحقاً.

(٣) ذكر اسم موسى في القرآن كله ١٣١ مرة. أما قصته في القرآن المكي فقد عرضت في عشر سور: حكاية أو مجرد إشارة أو تذكير. أما هذه القصة في القرآن المدني فسنعرض لها لاحقاً.

فهذا التسلسل لا يتقيد به القرآن، سواء اعتمدنا ترتيب المصحف أو ترتيب النزول، وإن كان هذا الأخير أقرب إلى التسلسل الزمني من الأول لأن ترتيب المصحف يبدأ بالقرآن المدني وإذا تعرّض لقصة تناولها من آخر فصولها.

وبدلاً من أن ننقل من المفسرين ما نقلوه عن أحبار اليهود في عصرهم فضلنا الرجوع إلى التوراة مباشرة، معتمدين الترجمة الدولية المعاصرة، حتى نسهل على القارئ عملية المقارنة. علماً أن القرآن جاء «مصدقاً» لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومهيمناً عليه، أي «مراقباً ومصححاً»(٤). وفي نهاية المطاف سنقدم خلاصات وملاحظات تلقي مزيداً من الضوء على الكيفية التي تعامل بها القرآن مع قصة موسى، وذلك بالمقارنة مع الصيغة التي وردت بها في التوراة.

١ ـ قصة موسى في سورة الأعراف

تبدأ سورة الأعراف في عرضها لقصة موسى بربطها بقصص أهل القرى المذكورة قبلها، الأمر الذي يعني أنها تندرج في نفس الإطار الذي حددته هذه السورة في بدايتها للقصص القرآني(٥). وبما أن ما ورد في هذه السورة حول هذه القصة هو أشبه ما يكون بالصيغة الرئيسية ـ كما قلنا ـ فإننا سنتتبع الآيات الخاصة بها في القرآن المكي مع تقسيمها إلى فقرات نبين بالأرقام الرومانية موقعها من التسلسل الزمني لأحداث القصة (الفقرة التالية مثلاً تنتمي إلى المرحلة الثالثة).

III

أ ـ موسى يذهب إلى فرعون يطلب بني إسرائيل

يقول تعالى رابطاً هذه القصة بالسياق السابق لها: **﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ. وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إلاّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنْ**

---

(٤) **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾** [القرآن الكريم، «سورة المائدة،» الآية ٤٨].

(٥) انظر القسم ٣، «المرحلة الثانية: برنامج سورة الأعراف،» برنامج واستراتيجيات، ص ٢٨٩ من هذا الكتاب.

الصَّادِقِينَ. فَأَلقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[٦].

ب ـ الملأ من قوم فرعون يقترحون امتحان موسى

﴿قَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ. قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[٧].

ج ـ السحرة يفشلون ويسلمون، وفرعون يهددهم!

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المُقَرَّبِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ المُلْقِينَ. قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ. وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي المَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ. قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ. وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٨]. واضح من السياق أن فشل السحرة وإعلانهم «إسلامهم» إشارةٌ موجهة للنبي محمد وأصحابه المؤمنين إلى أنه، إذا كان فرعون على عظمته قد انهزم أمام موسى بمفرده، فهزيمة مشركي مكة ستكون أهون من دون شك.

د ـ فرعون سنقتل أبناء بني إسرائيل

﴿وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ. قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ

---

(٦) **القرآن الكريم**، «سورة الأعراف،» الآيات ١٠٣ ـ ١٠٨. «من بعدهم» أي من بعد أنبياء القرى السابقة. «بآياتنا» الخارقة للعادة، المعجزات. ﴿. . . **بآياتنا إلى فرعون وملئه مظلموا بها**﴾ أي لم يصدقوا بآياتنا. «حقيق» أي واجب. ﴿**فأرسل معي بني إسرائيل**﴾ أي اتركهم يخرجون معي من مصر. سيتبين لاحقاً أن فرعون كان يعذبهم في مملكته مكلفاً إياهم بأعمال شاقة. ولهذا أرسل الله موسى لتخليصهم منه. ﴿**قال إن كنت جئت بآية**﴾ أي بعلامة تؤكد صدق كونك مبعوثا من الله.

(٧) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ١٠٩ ـ ١١٢.

(٨) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ١١٣ ـ ١٢٦. «فوقع» تعني ظهر. لم يرد في التوراة مثل هذا الحوار بين فرعون والسحرة، كما لم يرد فيها ما يفيد أن السحرة آمنوا برب موسى.

لِلمُتَّقِينَ. قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ في الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٩).

هـ ـ الطوفان والجفاف والجراد . . . آيات مفصلات!

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ. وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالجَرَادَ وَالقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾(١٠).

و ـ فرعون: ادع لنا بك يرفع العذاب عنا . .

IV

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ. فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ. وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

(٩) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ١٢٧ ـ ١٢٩. «يذرك» تعني يتركك. قال فرعون **﴿أنا ربكم الأعلى﴾** [«سورة النازعات،» الآية ٢٤] وقال أيضاً: **﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾** [«سورة القصص،» الآية ٣٨]. أما هذه الآية فيفيد ظاهرها أنه كانت له آلهة يعبدها. وقد ذهب المفسرون في تأويلها مذاهب شتى. فمنهم من قال كان يَعبُد ويُعبَد. ومنهم من قرأ الآية أعلاه هكذا: **﴿وَيَذَرَكَ وَإِلهَتَكَ﴾**، بكسر الهمزة فيكون المعنى «تركوك وألوهيتك» . . . إلخ. أما التوراة فلم يرد فيها شيء عن آلهة فرعون. **﴿ونستحيي نساءهم﴾** أي نبقي عليهن على قيد الحياة للخدمة.

(١٠) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ١٣٠ ـ ١٣٣ . «بالسنين» تعني بالجدب. **﴿يطيروا بموسى﴾** أي يحمّلونه المسؤولية. «طائرهم» أي قدرهم وما يحدث لهم. **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان. . . والدم﴾** في التوراة: أن إله موسى ضرب فرعون وقومه عشر ضربات (بعشر آيات) قبل أن يذعن فيسمح لبني إسرائيل بالخروج مع موسى إلى فلسطين تحريراً لهم من طغيانه. كان فرعون يتوسل بعد كل ضربة إلى موسى ليدعو ربه فيمحو الضربة، واعداً إياه بإطلاق سراح بني إسرائيل، وبمجرد ما تزول الضربة ينكث فرعون وعده فتأتي الضربة الثانية وهكذا إلى عشر ضربات هي الأولى ضرب موسى بعصاه ماء النيل فتحول إلى دم، الثانية دعا موسى ربه فسلط الله على فرعون وقومه الضفادع، وفي الثالثة سلط عليهم البعوض فغزا بيوتهم، وفي الرابعة هاجمتهم أسراب من الذباب، وفي الخامسة أهلك الله مواشيهم كلها، وفي السادسة أصيبوا بدماميل متقيحة، وفي السابعة أمطروا بعواصف من البرَد، وفي الثامنة غزاهم الجراد، وفي التاسعة خيم عليهم ظلام كثيف، وفي العاشرة أهلك جميع الأبكار من مصر، أبكار البشر وأبكار الحيوان. . . وبعد هذه أذعن فرعوم وسمح لبني سرائيل بالخروج» [**الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاحات ٧ ـ ١١].

بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[11].

هنا يأتي انتقام الله من فرعون وملئه على غرار انتقامه من أهل القرى التي كذّبت رسلها. مع هذا الفارق، وهو أن الهلاك لم يَعُمَّ فرعون وملئه، القصة مستمرة.

V

ز ـ بنو إسرائيل يطلبون أن يصنع لهم موسى صنما!

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العَالَمِينَ. وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[12].

سيأتي بعد قليل أن بني إسرائيل اتخذوا لهم صنماً في غيبة موسى.

ح ـ لقاء موسى مع ربه ثانية . . وأخذه الألواح

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المُفْسِدِينَ. وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ. قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ. وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الفَاسِقِينَ. سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا

---

(١١) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ١٣٤ ـ ١٣٧. ويقصد بالعبارات التالية: «أغرقناهم» ألقيناهم. اختلف المفسرون حول المقصود بلفظي «اليمّ» و«البحر» في قصة موسى، هل البحر الأحمر أم نهر النيل. هذا وفي النص اختصار: لم تبين السورة سبب ولا كيفية الغرق وسيأتي ذلك في سورة أخرى. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن فرعون وملئه لم يغرقوا بل كادوا يغرقون فالقصة متواصلة. وهناك من يقول إن المقصود بـ «اليم» هو بحيرة قارون بمصر. راجع لاحقاً. ﴿**وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون**﴾ أي بنو إسرائيل الذين أرهقوا بالخدمة والعمل الشاق. «يعرشون» يبنون من قصور وقلاع.

(١٢) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ١٣٨ ـ ١٤١. «جاوزنا» تعني عبرنا، و«متبّر» تعني مهلك.

بِآيَاتِنا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَل يُجْزَوْنَ إلاّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١٣). واضح أن عموم الخطاب هنا يشمل مشركي مكة، خصوم الدعوة المحمدية.

ط ـ ورجع موسى غضبان آسفا بسبب العجل . . .

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جسداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ. وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ. وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُفْتَرِينَ. وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ. وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ. وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(١٤).

---

(١٣) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ١٤٢ ـ ١٤٧. «ميقات» موعد، «دكاً» مدكوكاً مستوياً، «صعقاً» مغشياً عليه. **﴿اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾** أي تكلمت إليك وحدك دون غيرك. ومن هنا سمي موسى بـ «كليم الله». «بقوة» بجد واجتهاد، و«غافلين» لا يعتبرون بها.

(١٤) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ١٤٨ ـ ١٥٦. ويقصد بالعبارات التالية: **﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾** أي بعد ذهابه إلى مناجاة ربه. «حليهم» أي ذهبهم. **﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾** ورد في التوراة: «ولما رأى الشعب أن موسى قد طالت إقامته على الجبل حيث لقاؤه مع الله اجتمعوا حول هارون وقالوا له هيا اصنع لنا إلهاً يتقدمنا في مسيرنا لأننا لا ندري ماذا أصاب هذا الرجل موسى الذي أخرجنا من ديار مصر. فأجابهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وبنيكم وأعطوني إياها. فنزعوها من آذانهم وجاؤوا بها إليه. فأخذها منهم وصهرها وصاغ عجلاً عندئذ قالوا هذة آلهتك يا إسرائيل التي أخرجتك من ديار مصر. وعندما شاهد هارون ذلك شيّد مذبحاً أمام العجل وأعلن غداً هو عيد للرب. فبكّر الشعب في اليوم الثاني وأصعدوا محرقات وقدموا قرابين سلام ثم احتفلوا فأكلوا وشربوا ومن ثم قاموا للهو والمجون» [**الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ٣٢، الآيات ١ ـ ٦]. «أسفاً» أي شديد الحزن. **﴿بئسما خلفتموني من بعدي﴾**: ورد في التوراة نظم بنو إسرائيل حفلاً راقصاً احتفالاً بإلههم الجديد: «وما إن اقترب موسى من المخيم وشاهد العجل والرقص حتى احتدم غضبه وألقى باللوحين من يده وكسرهما عند سفح الجبل. ثم أخذ =

وردت هذه الآية في صيغة العموم المطلق (رحمتي وسعت كل شيء بإطلاق) ثم خصصها قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[(١٥)]، سأجعلها يوم القيامة قدراً مكتوباً لهم. وكون الرحمة وسعت كل شيء لا يعني بالضرورة أن كل شيء سيحظى بها. بل هي مضمونة فقط للذين يتقون. . . الذين يتبعون النبي الأمي الرسول محمد ﷺ. . . إلخ[(١٦)]. وهذا استطراد ينتقل بالقارئ من قصة موسى إلى خطاب اليهود والناس كافة زمن الدعوة المحمدية. وهذا الربط بين مضمون القصة وحال النبي محمد ﷺ مع قومه قريش هو الذي يعطي المعنى للقصص القرآني بأجمعه.

VI

ي ـ النبي الأمي في التوراة والإنجيل. . .

. . . . ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ

= العجل الذهبي وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذراه على وجه الماء وأرغمهم على الشرب منه» [«سفر الخروج،» الأصحاح ٣٢، الآيتان ١٩ ـ ٢٠]. ﴿**نجزي المفترين**﴾ أي الذين أشركوا باتخاذهم العجل إلهاً. وفي التوراة: «وضرب الرب الشعب بالوباء عقاباً لهم على عبادة العجل الذي صنعه هارون» [«سفر الخروج،» الأصحاح ٣٢، الآية ٣٥]. ﴿**ولما سكت. . . وفي نسختها**﴾ ورد في التوراة: «ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل اللوحين الأولين فأكتب أنا عليهما الكلمات التي دونتها على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما» [«سفر الخروج،» الأصحاح ٣٣، الآية ١]. ﴿**واختار موسى. . . السفهاء منا**﴾ اختلف المفسرون في معنى هذه الآيات والمشهور ما يلي: أمر الله موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه عن عبادة العجل، وضرب لهم موعداً، فاختار موسى سبعين رجلاً وذهب بهم لملاقاة ربه، فلما سمعوا كلام الله، قالوا لموسى أَرِنا الله جهرة فأخذتهم «الرجفة» فماتوا جميعاً، فقال موسى: ربي لو أهلكتنا قبل مجيئنا إليك. فلا يتهمونني بأنهم أهلكوا باتخاذ أصحابهم العجل. وقال: ﴿**أتهلكنا بما فعل السفهاء منا. . .**﴾. «هُدنا» أي تُبنا.

(١٥) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٥٦.

(١٦) وهذا خلاف ما ذهب إليه ابن عربي المتصوف من أن الآية ﴿**ورحمتي وسعت كل شيء**﴾ تمحو كل الذنوب. وذلك بناء على نظريته في التمييز بين الأمر الإلهي التكويني (الخلق) وأمره التشريعي. وبما أن الأمر التكويني هو السابق المتقدم فإن الحكم في النهاية له. وهذا يعني أن الناس جميعاً يسيرون على هدى من الله بمقتضى الأمر التكويني، وأنه بالتالي لا عقاب ولا عذاب. وأما المعصية فهي ـ كالطاعة ـ أسماء شرعية لوصف السلوك، ولا يترتب عنها في الحقيقة عذاب لأن رحمة الله وسعت كل شيء. راجع التفاصيل في: محمد عابد الجابري، «فناء الأخلاق!،» في: محمد عابد الجابري، **العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية**، نقد العقل العربي؛ ٤، ط ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦) الفقرة ٦، ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[١٧]. بعد هذا الاستطراد، تعود السورة إلى قصة موسى.

IV

ك ـ الماء... والغمام، والمن والسلوى

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ. وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُم وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمْ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كلوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ. وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ. وَاسْأَلْهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ. وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ. وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ

---

(١٧) القرآن الكريم، «سورة الأعراف،» الآيات ١٥٦ ـ ١٥٨. يقصد بالعبارات التالية: «إصرهم» ما يثقل عليهم، و«الأغلال» القيود والشدائد.

ظُلَّة وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١٨).

VI

ل ـ خاتمة: ميثاق بني آدم...

تلك هي قصة موسى، في سورة الأعراف. ومنها تنتقل السورة إلى خاتمة عامة

---

(١٨) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآيات ١٥٩ ـ ١٧١. ويقصد بالعبارات التالية: «يعدلون» أي يحكمون. «أسباطاً» قالوا: «الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل عليهما السلام. والأسباط مأخوذ من السبط وهو شجر تُعلفه الإبل». وكان على رأس كل سبط نقيب. والمقصود هنا توزيع بني إسرائيل على اثنتي عشرة مجموعة لكل نقيبها وذلك من أجل انتظام رحلتهم، فقد كان عددهم كبيراً جداً. في التوراة: «وارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت فكانوا نحو ست مئة ألف من الرجال المشاة ما عدا النساء والأولاد. وكذلك انضم إليهم حشد كبير من الناس مع غنم ومواشٍ وقطعانٍ كثيرة» [**الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ١٢، الآيتان ٣٧ ـ ٣٨]. أما توزيعهم على أسباط فمذكور بتفصيل في: «سفر العدد،» الأصحاح ١. «أمم» أي قبائل. ﴿**فانبجست منه... مشربهم**﴾ كان ذلك في صحراء سينا التي مكثوا فيها أربعين سنة تائهين. لقد عانوا العطش والجوع... في التوراة: «واقتات الإسرائيليون بالمنّ طوال أربعين سنة حتى جاؤوا إلى تخوم أرض كنعان العامرة بالسكان» [«سفر الخروج،» الأصحاح ١٦، الآية ٣٦]. «وتنقل بنو إسرائيل على مراحل من صحراء سينا بمقتضى أمر الرب إلى أن خيموا في رفيديم حيث لم يجدوا ماء للشرب. فتخاصم الشعب مع موسى قائلين أعطونا ماء لنشرب فأجاب موسى لماذا تخاصمونني ولماذا تجربون الرب. ولكن الشعب كان ظامئاً إلى الماء فتذمروا على موسى وقالوا لماذا أخرجتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا عطشاً. فصرخ موسى إلى الرب ماذا أصنع بهذا الشعب إنهم يكادون يرجمونني. فأجابه الرب: تقدم الشعب وخذ معك بعض شيوخ بني إسرائيل وخذ بيدك عصاك أيضاً التي ضربت بها النهر. فها أنا أقف هناك أمامك على الصخرة في حوريب، اضرب الصخرة فينفجر منها الماء ليشرب الشعب وهكذا فعل موسى أمام شيوخ إسرائيل. ودعا اسم الموضع مسة ومريبة نتيجة لتخاصم بني إسرائيل وامتحانهم للرب قائلين هل الرب في وسطنا أم لا» [«سفر الخروج،» الأصحاح ١٧، الآيات ١ ـ ٧]. «مسة ومريبة» تعني الامتحان والمخاصمة]. المن: شيء كالقشور على الأرض يشبه الخبز. والسلوى: الطير السُّماني. وفي التوراة: «ودعا شعب إسرائيل الخب. مناً وكان أبيض كبزر الكزبرة ومذاقه كرقاق مصنوعة بعسل» [«سفر الخروج،» الأصحاح ١٦، الآية ٣١]. ﴿**اسكنوا هذه القرية**﴾ قيل أريحا. ﴿**وقولوا حطة**﴾ أي حطَّ عنا ذنوبنا. ﴿**واسألهم عن القرية..**﴾ أي أسالهم يا محمد عن ما وقع لأهل القرية التي كانت «حاضرة البحر» والتي قيل إنها قرية أيلة (العقبة) في البحر الأحمر. وقيل طبرية... ﴿**إذ يعدون في السبت**﴾ حيث كانوا يعتدون على حرمة يوم السبت بصيد السمك الذي نهُوا عنه. «شرعاً» أي طافية على الماء. ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به**﴾ أي تركوا ما وعظوا به. «عتوا» أي تكبروا. «تأذن ربك» أي قرر. «يسومهم» أي يذيقهم. ﴿**وإذا تأذن ربك... سوء العذاب**﴾ قيل: مثل بختنصر وفرعون... إلخ. وفي التوراة: «وخرج العمالقة وحاربوا إسرائيل في رفيديم. فقال موسى ليشوع انتخب بعض رجالنا وامض لمحاربة عماليق وها أنا أقف غداً على قمة التل وعصا الله في يدي. فحارب يشوع العمالقة كما أمر موسى وصعد موسى وهارون وحور على قمة التلة. فطالما كان موسى رافعاً يده يغلب بنو إسرائيل وإذا خفضها يفوز العمالقة. وعندما دب التعب في يدي موسى أخذ هارون وحور حجراً ووضعاه تحته فجلس عليه وأسند هارون وحور يديه كل واحد منهما من جانب وهكذا بقيت يداه مرفوعتين حتى مغرب الشمس. فهزم يشوع العمالقة وجيشهم بحد السيف» [«سفر الخروج،» الأصحاح ١٧، الآيات ٨ ـ ١٣]. «قطعناهم» أي شتتناهم «الأدنى» أي الدنيء. «يُمسّكون» أي يتمسكون. «نتقنا الجبل» أي رفعناه من أصله.

تخاطب بني آدم جميعاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[١٩]. ثم تسترسل السورة في موضوع الوعد والوعيد. . .

٢ ـ قصة موسى في سورة طه

أ ـ بداية السورة ومقدمة للقصة

III

تشغل قصة موسى في سورة طه (ورتبتها ٤٥) معظم حجمها. وهي تنطلق من بداية وسياق شبيهين بما بدأت به سورة الأعراف وسورة «ص»، أعني أنها تخاطب النبي لتسلّيه ولتخفف عنه مما كان يلاقيه من مشركي قريش. يقول تعالى: ﴿طه. مَا أَنْزَلنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى. إلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى. تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ العُلَى﴾[٢٠]. وبعد التأكيد على القضية المركزية في الدعوة المحمدية، قضية التوحيد، والتذكير بأن الله يعلم ما يخفي الإنسان وما يعلن، تنتقل بنا السورة مباشرة إلى قصة موسى: ﴿وَهَل أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾[٢١].

تبدأ القصة في هذه السورة (طه) من نقطة سابقة زمنياً على النقطة التي بدأت بها سورة الأعراف أعلاه. ففي سورة الأعراف بدأت القصة من تكليف الله موسى بالذهاب إلى فرعون وطلب السماح له بالهجرة ببني إسرائيل من مصر إلى فلسطين، بغية تحريرهم من العذاب الذي كان يسلّطه عليهم (فرعون). أما هنا في سورة «طه» فتنطلق القصة من نقطة سابقة، حسب تسلسل الزمن الطبيعي، وذلك بالإخبار أولاً عن رجوع موسى من مدين بالشام التي كان قد فر إليها من مصر عقب قتله قبطياً فيها. وبينما هو في طريقه إلى مصر حدث اللقاء الذي تحدثت عنه سورة الأعراف.

---

(١٩) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٧٢. قوله: ﴿**أن تقولوا يوم القيامة**. . .﴾ مرتبط بالسؤال: «ألست بربكم»؟ بمعنى أن هذا السؤال طرح عليهم حتى لا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غائبين. قال الزمخشري في تفسير هذه الآيات: «ومعنى أخذ ذرّياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم نسلاً وإشهادهم على أنفسهم. وقوله: «ألست بربكم قالوا بلى شهدنا» من باب التمثيل والتخييل! ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقرارهم وقال لهم: ألست بربكم وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك».

(٢٠) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ١ ـ ٤. الشائع أن «طه» و«يس» اسمان للنبي محمد ﷺ. والذي عليه المفسرون أنهما حرفان مقطعان (طاء، هاء، ياء، سين) مثل الم، طسم. . . إلخ.

(٢١) نفس المرجع، «سورة طه،» الآية ٩.

ب ـ بعثة موسى، وتكليفه بالذهاب إلى فرعون

﴿وَهَل أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا. إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدى. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالوَادِي المُقَدَّسِ طُوى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى. إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي. إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى. فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى. وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى. قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى. قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى. وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى. لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكُبْرَى. اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُل عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي. كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً. وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً. إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً. قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾(٢٢).

I

ج ـ تذكير موسى بقصة طفولته

بعد هذا تعود بنا سورة طه إلى البداية الزمنية لقصة موسى، إلى تذكيره بمراحل حياته منذ مولده حتى هذا اللقاء: **﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى. إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى. أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي اليَمِّ فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي. إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَل أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ﴾**(٢٣). بعد هذا

---

(٢٢) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ٩ ـ ٣٦. ويقصد بالعبارات التالية: **﴿وهل آتاك... امكثوا﴾** أي هل قد آتاك قصة موسى إذ رأى ناراً وهو في طريقه من مدين إلى مصر عائداً إليها بعد فراره منها عقب قتله قبطياً فقال لزوجته ابقي هنا. «طُوىً» هو اسم ذلك الوادي. اختلف المفسرون في معنى: «أخفيها»، والجمهور منهم على أن معناها: «أظهرها، أنزع عنها خفاءها». «تردى» أي تهلك. «جناحك» أي جيبك. **﴿من غير سوء﴾** أي من غير أن يصدر منها ضرر لك. **﴿آية أخرى﴾** أي وهذه علامة أخرى على صدقك. و«أزري» ظهري.

(٢٣) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ٣٧ ـ ٤٠. عندما ألقي بتابوته في النهر التقطه بعض أعوان فرعون وجاؤوا إليه به، فرغبت امرأة فرعون في الاحتفاظ به، ولكن الصبي موسى رفض الرضاعة من أية مرضعة. وكانت أمه قد كلّفت أخته بمتابعة التابوت والتسلل على الجهة التي تأخذه، ومن هنا اقترحت على أهل فرعون أن تأتيهم بمرضعة يقبلها، فأتتهم بأمه. سيرد هذا مبيناً في سورة لاحقة. في التوراة: «وتزوج رجل من بيت لاوي فتاة ابنة لاوي. فحملت المرأة وأنجبت ابناً وإذ راقها جماله خبأته ثلاثة أشهر. ولما لم تستطع أن تخفيه =

تنتقل بنا السورة إلى حادث يسجل المرحلة الثانية من سيرة موسى:

II

﴿وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾[٢٤].

III

د ــ العودة إلى مسار القصة: الذهاب إلى فرعون

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى. وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي. اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي. اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى. قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى. قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى. فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى. قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى. قَالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى. قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى﴾[٢٥].

VI

هـ ــ فقرة استطرادية: مخاطبة قريش

ثم تستطرد السورة مخاطِبةً قريش. وهذا النوع من الاستطراد كثير في القرآن،

= بعد أتت بسفط من البردي وطلته بالحمر والزفت وأضجعت الطفل ووضعته بين الحلفاء على ضفة النهر. ووقفت أخته من بعيد لترى ما يحدث له. واقبلت ابنة فرعون لتستحم في النهر بينما راحت وصيفاتها يتمشين على ضفة النهر فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت وصيفتها لتأتي به. ففتحته ورأت الطفل وإذا هو يبكي فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد. فأجابتها ابنة فرعون اذهبي فمضت الفتاة ودعت أم الصبي. فقالت لها ابنة فرعون خذي هذا الصبي وأرضعيه لي وأنا أعطيك أجرتك فأخذت المرأة الصبي وأرضعته. ولما كبر الولد ردته إلى ابنة فرعون فتبنته ودعته موسى قائلة إني انتشلته من الماء» [**الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ٢، الآيات ١ ـ ١٠. «موسى» ومعناه منتشل].

(٢٤) **القرآن الكريم**، «سورة طه،» الآية ٤٠. عندما قتل موسى قبطياً، خاف الله عليه إذ قرر الأقباط اغتياله فنجاه منهم حيث بقي في مدين عدة سنين هارباً عند صاحبها الذي زوجه ابنته.

(٢٥) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ٤٠ ـ ٥٢. وتعني العبارات التالية: **﴿ثم جئت على قدرٍ﴾** أي في الوقت الذي قدرناه لإرسالك إلى فرعون. **﴿واصطنعتك لنفسي﴾** أي اخترتك: جعلتك نبياً رسولاً. «تَنِيَا» أي تُقصِّرا. **﴿فقولا له قولاً ليناً﴾** الخطاب هنا في سورة طه ليّن فعلاً، مقارنة مع الصيغ الأخرى. «يفرط علينا» أي يجعل بالعقوبة علينا. **﴿قال فما بال القرون الأولى﴾** من كان رب الأمم في الأزمان السابقة.

وهو مفهوم، لأن المفروض أن النبي يقصّ على قريش قصة موسى، ثم من حين لآخر يخاطبهم، كما يفعل القصاصون عادة إذ يلتفتون إلى مستمعيهم من حين لآخر ليتوجهوا إليهم بالخطاب. وهذا من قبيل الالتفات باصطلاح البلاغيين، وهو من مظاهر البلاغة في القرآن. والالتفات وقع هنا من الغائب موسى وقومه إلى الحاضر المخاطب قريش(٢٦). وهكذا: ﴿. . . **لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِن نَبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى. مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾(٢٧).

III

و ـ عود إلى مواصلة القصة: إيمان السحرة!

بعد هذا الالتفات تعود السورة إلى قصة موسى لتستعيد مضمون ما ورد في سورة الأعراف في هذا الموضوع ولكن بصيغة لينة، وقد تم التنبيه إلى ذلك. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى. قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى. قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى. فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى. قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى. فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى. قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى. فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى. قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى. قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى. فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى. قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى. قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا**

---

(٢٦) الالتفات في اصطلاح البلاغيين هو: انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار أو العكس، وما يشبه ذلك. ومنه الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر.

(٢٧) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ٥٢ ـ ٥٥.

تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى. إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا. ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى﴾(٢٨).

IV

ز ـ خروج موسى ببني إسرائيل من مصر

بعد ذلك تنتقل السورة إلى المرحلة الرابعة من القصة، وهي خروج موسى بيهود مصر إلى فلسطين. قال تعالى: **﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم. وأضل فرعون قومه وما هدى. يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى. كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى. وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾**(٢٩).

---

(٢٨) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ٥٦ ـ ٧٦. ويقصد بالعبارات التالية: «يسحتكم» أي يهلككم. لم يرد في التوراة ما يشبه هذا الحوار. وواضح أن المخاطب فيه، غير المباشر، هم قريش. **﴿قالوا إن هذان لساحران﴾** وفي قراءة أخرى «إن هذين لساحرين» وفي قراءة حفص بتخفيف النون «إن هذان لساحران» بمعنى: ما هذان إلا ساحران، وهي موافقة للإعراب والمصحف. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ «إن هذان إلا ساحران». راجع تفاصيل أوفى في: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، **تفسير القرطبي**. **﴿ألقي السحرة سجداً﴾** بعد أن لقفت عصاه حبالهم. أي لا تخف لحاق فرعون بك.

(٢٩) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ٧٧ ـ ٨٢. «اضرب لهم» تعني شق لهم. **﴿لا تخاف دركاً﴾** أي لا تخف لحاق فرعون بك. **﴿فغشيهم من اليم﴾** في آية سابقة ذكر «البحر» بدل اليم. راجع رأياً حديثاً في الموضوع لاحقاً. **﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾** ورد في التوراة: «وقال الرب لموسى ما بالك تستغيث بي قل لبني إسرائيل أن يرحلوا. ارفع عصاك وابسط يدك فوق البحر وشقه فيجتاز بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة. فها أنا أغلظ قلوب المصريين فيسعون وراءكم فأتعظم على فرعون وعلى مركباته وفرسانه. فيدرك المصريون أنني أنا الرب عندما أتعظم على فرعون ومركباته وفرسانه. وانتقل ملاك الله الذي كان يتقدم عسكر إسرائيل إلى المؤخرة خلفهم وكذلك انتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم. فدخل بين عسكر المصريين وعسكر الإسرائيليين وصار عمود السحاب ظلاماً قاتماً على المصريين وضياء على بني إسرائيل فلم يقترب أحدهما من الآخر طوال الليل. وبسط موسى يده فوق البحر فأرسل الرب طوال تلك الليلة ريحاً شرقية قوية ردت البحر إلى الوراء وحولته إلى يابسة وهكذا انشق البحر. فاجتاز الإسرائيليون في وسط البحر على أرض يابسة فكان الماء بمثابة سورين عن يمينهم وعن يسارهم. ولحق بهم المصريون ودخلوا وراءهم إلى وسط البحر بجميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه. وقبل طلوع الصباح أشرف الرب في عمود النار والسحاب على عسكر المصريين وأربكهم. فجعل عجلات مركباتهم تتخلع فطفقوا يجرونها بمشقة حتى قال المصريون لنهرب من الإسرائيليين لأن الرب يحارب عنهم ضدنا. وقال الرب لموسى ابسط يدك فوق البحر ليرتد الماء على المصريين مع مركباتهم وفرسانهم. فبسط موسى يده فوق البحر عند انبثاق الصباح فارتد البحر إلى موضعه على المصريين =

٧

ح ـ موسى يذهب للقاء ربه، وفتنة السامري

ذهب موسى للقاء ربه للمرة الثانية قبل الموعد على عجل تاركاً قيادة بني إسرائيل لأخيه هارون، فأخذوا عجلاً صنماً. وهنا تستعيد السورة ما سبق أن ورد في هذا الموضوع في سورة الأعراف (فقرة ٩) مع إضافات ولذلك فضلنا إدراج ما ذكرته سورة طه في هذا الشأن كاملاً: فقال تعالى مخاطباً موسى: **﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى. قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمْ السَّامِرِيُّ. فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ العَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي. قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ. أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَراً وَلا نَفْعاً. وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾**(٣٠).

= الهاربين في اتجاهه فجرفهم الرب نحو وسط البحر. وارتدت المياه وأغرقت المركبات والفرسان وكل جيش فرعون الذي لحق بهم إلى البحر فلم يفلت منهم ناج واحد. أما بنو إسرائيل فقد ساروا فوق أرض يابسة وسط مياه البحر وكانت المياه كسورين عن يمينهم وعن شمالهم» [**الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ١٤، الآيات ١٥ ـ ٢٩]. **﴿الطور الأيمن﴾** أي الجانب الأيمن من جبل الطور بسيناء حيث سيلتقي موسى ربه ثانية. **﴿المن والسلوى﴾** ورد في التوراة: «في ذلك المساء أقبلت طيور السلوى وغطت المخيم وفي الصباح كست طبقة الندى الأرض المحيطة بالمخيم. وعندما زالت طبقة الندى إذا وجه الصحراء مغطى بشيء رقيق كالقشور مكتل كالجليد. وعندما رآه بنو إسرائيل قال بعضهم لبعض منهو أي ما هذا لأن لم يعرفوا ما هو فقال لهم موسى هو خبز الرب الذي أعطاكم لتأكلوه. . . ودعا شعب إسرائيل الخبز مناً وكان أبيض كبزر الكزبرة ومذاقه كرقاق مصنوعة بعسل» [«سفر الخروج،» الأصحاح ١٦، الآيات ١٣ ـ ١٥ و٣١. «طيور السلوى» هي السماني].

(٣٠) **القرآن الكريم**، «سورة طه،» الآيات ٨٣ ـ ٩١. ورد في التوراة أن هارون هو الذي صنع لهم العجل صنماً. راجع الهامش رقم (١٤) أعلاه. «السامري» نسبة إلى سامِرَةُ: قبيلة من قبائل بني إسرائيل تخالف اليهود في بعض دينهم، وكان مسكنهم بالشام. هذا وقد أثيرت شكوك حول الوضعية التاريخية لكل من السامري وهامان وطالوت وهارون وآزر وذي القرنين. وهناك ردود عليها في كتب التفسير وغيرها. وقد اطلعت حديثاً على مقال في الإنترنيت جمع فيه صاحبه هذه الأسماء فذكر الشكوك التي أثيرت حولها وقدم أجوبة نترك الحكم عليها للقارئ. راجع: «الرد على الأخطاء التاريخية المزعومة حول القرآن الكريم». أما نحن فقد فصّلنا في مسألة مطابقة أو عدم مطابقة القصص القرآن للوقائع التاريخية بما في ذلك الأسماء التي يذكرها مرتبطة بها. لقد قلنا ونعود فنؤكد أن الغرض من القصص في القرآن هو العبرة وضرب المثل وليس حكاية تاريخ. **﴿فأخلفتم موعدي﴾** أي اتخذتم العجل إلهاً ولم تنتظروني حتى أقدم؟. «حُملنا» قرئ «حَملنا» بفتح الحاء. وهذا أقرب إلى ما في التوراة، فقد ورد فيها: « فصر الشعب في ثيابهم معاجنهم وعجينهم قبل أن يختمر وحملوها على أكتافهم. وطلبوا من المصريين آنية فضة وذهباً وثياباً بحسب قول موسى. وجعل الرب الشعب يحظى برضى المصريين فأعطوهم =

ط ـ رجوع موسى وتخلصه من العجل والسامري

ورجع موسى وانهال على أخيه هارون باللائمة، قَالَ: **﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي. قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ. قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ. فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَه وَانظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً. إِنَّمَا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلماً﴾**(٣١).

ي ـ خاتمة : نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ

بعد ذلك مباشرة تختم السورة قصة موسى ـ لتترك البقية لسور أُخر لاحقة ـ تختمها بهذا التذكير الذي يستعيد حال النبي ﷺ مع قومه قريش والذي يؤكد مرة أخرى أن القصص في القرآن ليس هو القصد الأول، بل القصد الأول منه هو العبرة التي يحملها والتي تدعو إلى التوحيد ونبذ الشرك، وتخويف المشركين بما جرى لأمثالهم في الزمن الماضي وما سيكون عليه مصيرهم يوم القيامة. قال تعالى: **﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً. مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيَامَةِ وِزْراً. خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً﴾**(٣٢).

٣ ـ موسى في سورة الشعراء

III

تنطلق سورة الشعراء من مخاطبة النبي لتسليته وحثه على الثبات والصبر (كما رأينا في الفصل السابق فقرة ٢. الشعراء: نوح)، لتنتقل بعد ذلك مباشرة إلى قصة

= كل ما طلبوه فغنموا من المصريين» [**الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ١٢، الآيات ٣٤ ـ ٣٦]. **﴿زينة القوم﴾** أي من ذهب المصريين. **﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً﴾** أي صنع من ذهبهم وذهبه لهم عجلاً. **﴿فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾** العبارة فيها إيجاز شديد. والمعنى: قالوا ما أخلفنا موعدك باختيارنا لكن السامري استغوانا وكنا نحمل أثقالاً من حلي آل المصريين مما يستعملونه في الزينة، فألقيناه في النار كما ألقى السامري ما كان عنده فصنع لنا من ذلك صنماً من ذهب، وقال لنا السامري هذا إله موسى تركه هنا فنسيه.

(٣١) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ٩٢ ـ ٩٨. «يبنؤم» تعني يا ابن أمي. «بنو إسرائيل» لأن بعضهم كان سيتبعه والبعض الآخر سيبقى. بنو إسرائيل: بنو يعقوب. معنى إسرائيل: يجاهد في الله. **﴿أثر الرسول﴾** قال المفسرون: المقصود فرس جبريل، وقيل: أثر موسى الرسول. «فنبذتها» ألقيتها على تمثال العجل. **﴿أن تقولوا لا مساس﴾** أن لا تخالط أحداً ولا يخالطك أحد. «موعد» تعني يوم القيامة.

(٣٢) نفس المرجع، «سورة طه،» الآيات ٩٩ ـ ١٠١.

موسى لتبدأ من البداية التي بدأت بها سورة الأعراف، ولكن مع هذا الفارق وهو أن جواب فرعون سيبدأ هذه المرة بتذكير موسى بنشأته عنده وباقترافه القتل وهربه... إلخ. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ. وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِل إِلَى هَارُونَ. وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ. قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ. فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ. أَنْ أَرْسِل مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيل(٣٣).

II-I

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلت فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلتَ وَأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ. قَالَ فَعَلتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنْ الضَّالِّينَ. فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنْ المُرْسَلِينَ. وَتِلكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٣٤).

III

بعد ذلك تستعيد السورة مشهد موسى والعصا والسحرة وحبالهم كما بينته سورة الأعراف أعلاه. ثم تنتقل إلى مشهد شق موسى البحر و«غرق» فرعون(٣٥)، كما رأينا أعلاه (موسى في سورة طه فقرة ٧). ثم تعرِّج السورة (الشعراء) على قصص إبراهيم، وعاد ثمود، ولوط وأصحاب الأيكة. وقد سبق الحديث عنهم.

أما سورة النمل التالية لسورة الشعراء حسب ترتيب النزول ورتبتها ٤٨، فقد اقتصرت في بدايتها على ملخص لقصة موسى(٣٦) لتنتقل بعد ذلك إلى قصة داوود

---

(٣٣) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيات ١٠ ـ ١٧.

(٣٤) نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيات ١٨ ـ ٢٢. «الكافرين» أي المنكرين للنعمة التي أنعمت عليك. «حكماً» ويعني حكمة ونبوة.

(٣٥) ﴿وأوحينا إلى موسى أن أن أسر بعبادي إنكم متبعون. فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون. وإنا لجميع حاذرون. فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل. فأتبعوهم مشرقين. فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون. قال كلا إن معي ربي سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثم الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين. إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. إن ربك لهو العزيز الحكيم﴾ [نفس المرجع، «سورة الشعراء،» الآيات ٥٢ ـ ٦٨].

(٣٦) ﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قَبَس لعلكم تصطلون. فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم. وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا أخاف لدي المرسلون. إلا من ظلم ثم بدل حُسناً بعد سوء فإني غفور رحيم. وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير =

وسليمان التي فصّلت القول فيها تفصيلاً كما رأينا من قبل. وتأتي سورة القصص (التي تلي سورة النمل على ترتيب النزول ورقمها ٤٩) لتقدم عرضاً مفصلاً لقصة موسى يضم عناصر جديدة كما سنرى.

VI-III

٤ ـ موسى في سورة القصص

أ ـ ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا. . .﴾[٣٧]

تتميّز استعادة سورة «القصص» لقصة موسى بالإشارة إلى عنصرين جديدين: أولهما ربط الغرض منها بحال المستضعفين (والمقصود: المؤمنون بالرسالة المحمدية) ووعدهم بالنصر: وهكذا فكما هزم الله فرعون وجنده ونجّى موسى وبني إسرائيل، المستضعفين المضطهدين، سيهزم قريشاً على الرغم مما لهم من قوة عددية ومالية، وينصر المسلمين على الرغم من قلة عددهم وفقرهم. أما العنصر الثاني فهو ذكر شخصيتين جديدتين في القصة: هامان وقارون (صاحب جند فرعون وصاحب المال، حسب المفسرين)[٣٨]. يقول تعالى في مطلع السورة: **﴿طسم. تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ. نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُم يُذَبِّحُ**

= **سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين. فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين. وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾** [نفس المرجع، «سورة النمل،» الآيات ٧ ـ ١٤].

(٣٧) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآية ٥.

(٣٨) ورد اسم هامان في التوراة على أنه مستشار الملك أحشويروش ملك الفرس الذي حرض هذا الأخير على اليهود المقيمين في مملكة بابل فقضى عليهم واستولى على ممتلكاتهم. راجع: **الكتاب المقدس،** «سفر أستير،» الأصحاح ٣. وفي دراسة حديثة للنصوص الهيروغليفية الفرعونية ورد اسم شخص كان في سن فرعون رمسيس الثاني ورفيق صباه وقد جعله رمسيس نائباً له واسم هذا الشخص هو «آمن (Amen em inet)» وقد قرئ «آمن» هذا ـ في هذا المصدر ـ على أنه هامان. أما «قارون» فلم يذكر في التوراة أصلاً. لكن المصدر المشار إليه يربطه ببحيرة تحمل هذا الاسم في مصر: «في الجزء الشمالي الغربي لمحافظة الفيوم وتعد من أقدم البحيرات الطبيعية في العالم». ويوجد بها بعض المناطق الأثرية الفرعونية والرومانية والقبطية مثل (منطقة الكنائس ـ معبد الصاغة ـ معبد قصر قارون)؟. ويضيف المصدر أنه «أكدت دراسة جيولوجية أن سيدنا موسى ﷺ أثناء خروجه من مصر هرباً من فرعون وجنوده عبر بحيرة قارون بالفيوم وليس البحر كما يعتقد الكثيرون. كما تؤكد الدراسة تزامن القضاء على فرعون وجنوده مع القضاء على قارون الذي عاش على ضفاف البحيرة، وكان يصنع التماثيل من الذهب بقصر الصاغة، حيث مر بهم موسى ﷺ وأتباعه اثناء الخروج من مصر». راجع رأي بن عاشور لاحقاً في الهامش رقم (٤٩)، و <http://www.arabiyat.com/cgi-bin/magazine/exec/search.cgi>.

أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾(٣٩). بعد هذه المقدمة التي بينت الغرض من القصة تشرع السورة في سرد ما هو مناسب من وقائعها لهذا الغرض.

I

ب ـ موسى صبي أخذته امرأة فرعون

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ. فَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ. وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُون. وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ. وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُون. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُون. فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٤٠).

II

ج ـ موسى يقتل قبطياً . . . ويهرب إلى مدين

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِين. وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ. فَأَصْبَحَ فِي المَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ

---

(٣٩) **القرآن الكريم**، «سورة القصص،» الآيات ١ ـ ٦. يقول المفسرون إن المنجمين كانوا قد أخبروا فرعون أن هلاكه سيكون على يد رجل سيولد في بني إسرائيل، وهذا ما كان فرعون وجنده يحذرونه ولذلك عمد إلى قتل أطفال بني إسرائيل . . . ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض**﴾ المقصود على مستوى الخاص هم بنو إسرائيل، أما على المستوى العام فالمعنى ينصرف ضمنياً إلى المسلمين المستجيبين للدعوة المحمدية.

(٤٠) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآيات ٧ ـ ١٣. ﴿**فإذا خفت عليه**﴾ أي اذا خفت عليه من أن يقتله فرعون كما يفعل بأبناء بني إسرائيل. ﴿**وقالت لأخته قصيه**﴾ أي اتبعيه إلى أين سيذهب به الماء وتسللي إلى مكان وجوده.

مُبينٌ. فَلَمَّا أَنْ أَرَاد أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلت نَفْساً بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ. وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ. وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَن وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُون وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَينِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزلتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِير. فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوك لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ. قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأجرني ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾(٤١).

---

(٤١) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآيات ١٤ ـ ٢٨. ويقصد بالعبارات التالية: **﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً﴾** أي آتيناه حكمة ومعرفة فأخذ ينتقد الوضع وعبادة فرعون، وتحلق حوله بعض الأتباع. «لغوي» أي مضل. «تلقاء» أي تجاه. «تذودان» أي تحرسان شياههما في انتظار دورهما. **﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾** يقول القرطبي مستنتجاً: «في هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الولي لاحظ للمرأة فيه لأن صالحَ مَدْين تولاه، وبه قال فقهاء الأمصار وخالف في ذلك أبو حنيفة». ويضيف: «هذه الآية تدل على أن للأب أن يزوج ابنته البكر البالغ من غير استئمار، وبه قال مالك واحتج بهذه الآية، وهو ظاهر قوي في الباب، واحتجاجه بها يدل على أنه كان يعوّل على الإسرائيليات؛ وبقول مالك في هذه المسألة قال الشافعي وكثير من العلماء وقال أبو حنيفة: إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجها أحد إلا برضاها؛ لأنها بلغت حد التكليف، فأما إذا كانت صغيرة فإنه يزوجها بغير رضاها لأنه لا إذن لها ولا رضا، بغير خلاف. راجع: القرطبي، **تفسير القرطبي**. (قلت م.ع ج: هذا نموذج من استنباط الفقهاء الأحكام الشرعية من القصص القرآني، وهم يعتبرون هذا من قبيل «شرع من قبلنا»، وبعضهم يتخذه مصدراً للتشريع. ونحن نعتقد انه يجب إعادة النظر في هذا النوع من «استنباط الأحكام الشرعية». إن القصص القرآني بكل ما فيه هو للعبرة وليس للتشريع. وكم من أمور قررها القصص في القرآن وقد جاءت آيات الأحكام على غير ما قررها). «حجج» سنوات. وردت القصة في التوراة كما يلي: «وحدث بعد أن كبر موسى أنه ذهب ليتفقد إخوته العبرانيين ويشهد مشقتهم فلمح رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً. فتلفت حوله وإذ لم يجد أحداً هناك قتل المصري؟ وطمره في الرمل. ثم خرج في اليوم الثاني وإذا الرجلان عبرانيان يتضاربان فقال للمسيء لماذا تضرب صاحبك. فأجابه من أقامك رئيساً علينا أعازم أنت على قتلي كما قتلت المصري؟ فخاف موسى وقال حقاً إن الخبر قد ذاع. وبلغ الخبر مسمع الفرعون فسعى إلى قتل موسى إلا أن موسى هرب من وجه فرعون ومضى ليقيم في أرض مديان فبلغها وجلس عند البئر. وكان لكاهن مديان سبع فتيات فأقبلن واستقين ماء وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن. فأتى الرعاة وطردوهن غير أن موسى هب لنجدتهن وسقى غنمهن. وعندما رجعت الفتيات إلى رعوئيل أبيهن سألهن ما بالكن بكرتن بالرجوع اليوم. فأجبنه رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة فاستقى لنا ولغنمنا أيضاً. فسألهن وأين هو لماذا تركتن الرجل ادعونه ليأكل طعاماً. وقبل موسى أن يقيم مع الرجل الذي زوجه من ابنته صفورة..» [**الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ٢، الآيات ١١ ـ ٢١].

د ـ موسى يعود إلى مصر وربه يرسله إلى فرعون

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الوَادِي الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ. وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ. . .﴾(٤٢) . أنظر البقية أعلاه (في: موسى في سورة طه فقرة ٢). هناك في سورة طه كان موسى قد طلب الاستعانة بأخيه هارون ليشد أزره، ولكن لم يذكر أنه كان خائفاً من أن يقتله آل فرعون، لأن ما عرض من القصة هناك لم يرد فيه حادث قتل القبطي. أما هنا فقد أضافت سورة القصص، ما برر به موسى طلبه بإرسال هارون معه، فقال إنه يخاف من أن يقتلوه: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ. وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾**(٤٣) . وهنا تختصر السورة الجزء من القصة الذي يحكي دعوة موسى لفرعون ورفضه الدعوة وتساؤله «من هو رب العالمين»، وكان جواب فرعون أن قال: **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**

---

(٤٢) **القرآن الكريم**، «سورة القصص،» الآيات ٢٨ ـ ٣١. **﴿فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي﴾** أتاه النداء من شاطئ الوادي، ناحية الشجرة التي في البقعة المباركة.

(٤٣) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآيتان ٣٣ ـ ٣٤. «ردءاً» تعني مُعِيناً. في التوراة ورد ما يلي: «وأما موسى فكان يرعى غنم حميه يثرون كاهن مديان فقاد الغنم إلى ما وراء الطرف الأقصى من الصحراء حتى جاء إلى حوريب جبل الله. وهناك تجلى له ملاك الرب بلهيب نار وسط عليقة فنظر موسى وإذا بالعليقة تتقد من دون أن تحترق. فقال موسى أميل الآن لأستطلع هذا الأمر العظيم لماذا لا تحترق العليقة. وعندما رأى الرب أن موسى قد دنا ليستطلع الأمر ناداه من وسط العليقة قائلاً: موسى، فقال ها أنا. فقال لا تقترب إلى هنا اخلع حذاءك من رجليك لأن المكان الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة. ثم قال أنا هو إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب. عندئذ غطى موسى وجهه خوفاً من أن يرى الله فيموت. فقال الرب قد شهدت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من جراء عتو مسخريهم وأدركت معاناتهم. فنزلت لأنقذهم من يد المصريين وأخرجهم من تلك الأرض إلى أرض طيبة رحيبة تفيض لبناً وعسلاً أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. وها هو الآن قد وصل إلي صراخ بني إسرائيل ورأيت كيف يضايقهم المصريون. فهلم الآن لأرسلك إلى فرعون فتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر فقال موسى لله من أنا حتى أمضي إلى فرعون وأخرج بني إسرائيل من مصر. فأجاب أنا أكون معك ومتى أخرجت الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل فتكون هذه لك العلامة أنني أنا أرسلتك. فقال موسى لله حينما أقبل على بني إسرائيل وأقول لهم إن إله آبائكم قد بعثني إليكم وسألوني ما اسمه فماذا أقول لهم. فأجابه الله أهيه الذي أهيه وأضاف هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه هو الذي أرسلني إليكم» [**الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ٣، الآيات ١ ـ ١٤. «أهيه الذي أهيه» ومعناه أنا الكائن الدائم].

فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ. وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليَمِّ﴾(٤٤).

هـ ـ الغرض من القصص: لتنذر قومك . . .

بعد ذلك انتقل الخطاب من حكاية القصة إلى استخلاص النتيجة معبراً عنها وعن مضمونها بخطاب مباشر إلى النبي ﷺ وقومه كفار قريش قال تعالى: **﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِنَ المَقْبُوحِينَ﴾**(٤٥). ثم تنتقل السورة إلى إبراز نتيجة أخرى خاصة بالرسول (ﷺ)، وهي أنه إذا كان موسى قد استعمل عصاه كوسيلة للبرهنة على صدق نبوته ورسالته فالبرهان على صدق نبوتك ورسالتك أنت يا محمد هو أنك تأتي قومك بأخبار عن وقائع لم تشهدها وإنّما أوحينا لك بها. يقول تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾**(٤٦).

يلي ذلك جدل فيه رد على مشركي مكة الذين قالوا **﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾**(٤٧) (كالعصا والتوراة)، ويأتي الجواب: **﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**(٤٨)

---

(٤٤) **القرآن الكريم**، «سورة القصص،» الآيات ٣٨ ـ ٤٠. **﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾** أي اطبخ الآجر.

(٤٥) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآيات ٤٠ ـ ٤٢. «مقبوحين». تعني ممقوتين.

(٤٦) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآيات ٤٣ ـ ٤٧. **﴿فتطاول عليهم العمر﴾** أي تطاول العمر على بني إسرائيل. **﴿ولكنا كنا مرسلين﴾** أي أرسلنا إليك بالوحي ما جرى. **﴿وما كنت بجانب. . . من قبلك﴾** فهم أمة أمية، ليس لها كتاب سماوي.

(٤٧) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآية ٤٨.

(٤٨) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.

لتعود السورة بعد ذلك إلى ما يتصل بقصة موسى فتتحدث عن قارون صاحب الأموال العظيمة(٤٩).

و ـ قارون: التنديد بسلطان المال. . .

لقد تحدثت السورة عن طغيان السلطة، وها هي الآن تعرض لسلطة المال. قال تعالى: ﴿**إنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ في الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ في زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنيا يَا لَيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إلاّ الصَّابِرُونَ. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ. وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْ كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْ كَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ. تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ. مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا**

---

(٤٩) اختلف المفسرون في شخص قارون، وأقرب ما قالوا فيه إلى الصواب ـ في ما يبدو ـ ما ذكره بن عاشور في تفسيره، من أن اسمه في العبراني «قورح». راجع: محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**. وفي التوراة أنه قورح بن يصهار بن قهات بن لاوي بن يعقوب، تآمر على موسى: «مع مئتين وخمسين من رؤساء جماعة بني إسرائيل ذوي المكانة ممن تم تعيينهم في المجلس. هؤلاء تألبوا على موسى وهارون وقالوا حسبكما أن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب فما بالكما تترفعان على جماعة الرب. فلما سمع موسى هذا أكب على وجهه. ثم قال لقورح وسائر جماعته غداً يعلن الرب من هو له ومن هو المقدس فيقربه منه. . . فذهب موسى إلى داثان وأبيرام وتبعه شيوخ إسرائيل. وقال للجماعة كلها ابتعدوا عن خيام هؤلاء القوم الأشرار ولا تلمسوا شيئاً مما لهم لئلا تهلكوا من جراء خطاياهم. فابتعدوا من حوالى خيام قورح وداثان وأبيرام وخرج داثان وأبيرام ووقفا لأمام خيمتيهما مع زوجاتهما وأولادهما صغاراً وكباراً. فقال موسى بهذا تعرفون أن الرب قد أرسلني لأجري كل هذه الأعمال وأنها ليست صادرة عن نفسي. إن مات هؤلاء موتاً طبيعياً أو ابتلوا بما يبتلى به الناس عادة فلا يكون الرب قد أرسلني. ولكن إن أجرى الرّب بدعة وانشقت الأرض وابتلعتهم مع كل مالهم ودفنوا في باطن الأرض أحياء عندئذ تدركون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب. وحالما انتهى من كلامه انشقت الأرض تحتهم. وفتحت فاها وابتلعتهم مع بيوتهم كما ابتلعت رجال قورح مع كل ما يملكون. فاختفوا هم وكل ما يملكون أحياء في باطن الأرض التي انطبقت عليهم فبادوا من بين الجماعة» [**الكتاب المقدس**، «سفر العدد،» الأصحاح ١٦، الآيات ٢ ـ ٥ و٢٥ ـ ٣٣].

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إلاّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٥٠).

ز ـ خاتمة السورة: . . . ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾

وأخيرا تأتي خاتمة سورة القصص لتؤكد صدق ما قررته في مقدمتها: فتخاطب النبي ﷺ قائلة: إن الله الذي جعل القرآن من نصيبك (معجزتك)، فشرح لك قصة موسى وكيف أن النصر كان له على فرعون وهامان وقارون، يرجع بك الآن إلى قضيتك مع قومك. هم سيكذّبون هذا الذي أبلغتهم من أنباء موسى مع فرعون، وسيقولون إنك افتريته. . . إلخ. . . أما أنت فـ **﴿قُل رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾**(٥١). واثبت في موقفك ولا تهتم بما يقولون. ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إلاّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ. وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إلاّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**(٥٢).

ح ـ هل غرق فرعون ومن معه؟

يلي سورة القصص حسب ترتيب النزول سورة الإسراء ورتبتها ٥٠، وقد أشارت بعبارات مركّزة على «الآيات»، الأفعال الخارقة للعادة التي كانت دليلاً على نبوة موسى، ولم يصدقها فرعون فاستمر في كفره وطغيانه إلى أن أغرق

(٥٠) **القرآن الكريم،** «سورة القصص،» الآيات ٧٦ ـ ٨٤. قد سبق أن أشرنا مراراً إلى أن مثل هذه الحوارات التي يجريها القرآن بين الأنبياء وأقوامهم، أو بين الطغاة وحاشيتهم ومحكوميهم، هي كالحوارات التي يجريها على لسان أصحاب الجنة وأصحاب النار، أو بين هؤلاء بعضهم مع بعض. . . هي حوارات المقصود منها ما فيها من معاني الموعظة والعبرة والوعد والوعيد. . . إلخ.

(٥١) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآية ٨٥.

(٥٢) نفس المرجع، «سورة القصص،» الآيات ٨٥ ـ ٨٨. **﴿إن الذي فرض﴾** أي فرض عليك القرآن: جعله من نصيبك. (قارن: الفرائض في الفقه). فكأن الله وزع على الأنبياء والرسل «الآيات» (علامات صدقهم) فجعل نصيب النبي الرسول محمد بن عبد الله هو القرآن. وهذا دليل آخر أيضاً على أن الله لم يخص النبي بأية معجزة أخرى غير القرآن. **﴿عليك القرآن لرادُّك إلى معادٍ﴾** اختلف المفسرون في هذه الآية: منهم من يقول إنها نزلت بالمدينة أو في طريقه إليها حين الهجرة وفي هذه الحالة يكون «المعاد» هو فتح مكة (العودة إلى مسقط رأسه). ومنهم من يجعل المعاد يوم القيامة وفي هذه الحالة تبقى الآية مكية. أما نحن فنرى أن السياق يقتضي ما ذكرناه أعلاه: أي إن الله الذي جعل نصيبك من علامات النبوة هو القرآن سيردك الآن بعد الانتهاء من خبر موسى إلى «معادك»، أي إلى موعدك مع قومك الذين يكذبونك فقل لهم **﴿قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين. وما كانت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾**.

جيشه في البحر: يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً. قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً. فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً. وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾(٥٣).

III

٥ ـ موسى في سورة يونس

أ ـ تلخيص وعناصر جديدة

بعد المقدمة(٥٤) والتذكير بنوح ورسل آخرين تنتقل سورة يونس إلى قصة موسى لتعرضها باختصار مع إضافة عناصر جديدة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ. قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ. فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ. وَيُحِقُّ اللَّهُ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ. فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ المُسْرِفِينَ. وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾(٥٥).

واضح أن العناصر الجديدة هنا هي ذكر الآباء والإشارة إلى أن الذين آمنوا

---

(٥٣) نفس المرجع، «سورة الإسراء،» الآيات ١٠١ ـ ١٠٤. **﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات﴾** [راجع الهامش رقم (٩) أعلاه]. «مثبوراً» تعني خاسراً. **﴿يستفزهم من الأرض﴾** أي يخرج موسى وبني إسرائيل من الأرض. **﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾** سيرد لاحقاً أن فرعون لم يغرق وأنه آمن في آخر ساعة ولكن الله أراد أن يبقي عليه آية: **﴿فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾** [«سورة يونس،» الآية ٩٢]. وفي التوراة غموض حول مصير فرعون، هل غرق أم لا؟ فهي تتحدث عن غرق جيش فرعون من دون أن تصرح بأن فرعون غرق هو أيضاً. راجع: **الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاحان ١٤ ـ ١٥.

(٥٤) راجع القسم ٣، «المرحلة الثانية: برنامج سورة الأعراف،» قصة نوح في سورة الأعراف، ص ٢٩٩ من هذا الكتاب.

(٥٥) **القرآن الكريم**، «سورة يونس،» الآيات ٧٥ ـ ٨٤.

لموسى كانوا فئة قليلة بسبب الخوف من فرعون وقد خاطبهم موسى بما ينطبق على حال النبي محمد ﷺ: ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الكَافِرِينَ**﴾. فالخطاب هنا موجه إلى أصحاب محمد لتثبيتهم وشد عضدهم. بعد ذلك يقوم موسى بالدعاء على فرعون (الرمز) لكونه يستعمل المال في صد الناس عن موسى، طالباً من الله أن يطمس أمواله، فيستجيب الله له. وهذا على عكس ما رأيناه في سورة طه حيث طلب الله من موسى وهارون أن يقولا لفرعون ﴿**قَوْلاً لَيِّناً لعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾.

ب ـ موسى وهارون في مصر ودعاء على فرعون

﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ. وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا العَذَابَ الأَلِيمَ. قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾(٥٦).

IV

ج ـ الآن وقد عصيت . . .

وتواصل السورة عرض قصة موسى مع فرعون فتذكّر بمجاوزة بني إسرائيل البحر بقيادة موسى في اتجاه فلسطين، وهنا في هذه المرة تطلعنا على عنصر جديد وهو «إيمان فرعون» بعد أن رأى الغرق رأي العين، ولكن الله لم يقبل إيمانه وفضل الإبقاء عليه آية وعبرة لمن يأتي بعده، فنجاه ببدنه من الغرق. قال تعالى: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِينَ. فَاليَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ. وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ العِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾(٥٧).

---

(٥٦) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآيات ٨٧ ـ ٨٩. «تبوآ» تعني اتخذا، «بيوت» وتعني هنا مساجد.

(٥٧) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآيات ٩٠ ـ ٩٣.

VI

د ـ فإن كنت يا محمد في شك . . .

وتختم سورة يونس حديثها عن قصة موسى بالتوجه إلى النبي (ﷺ) حيث نقرأ قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ. وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾[٥٨].

٦ ـ موسى في سورة غافر

أ ـ مقدمة وبداية السورة

لا يختلف مطلع هذه السورة (غافر ورتبتها ٦٠) عن السورة السابقة، من حيث إنه يهيئ السامع لما سيرد فيها من قصص. قال تعالى: ﴿**حم. تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ. غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المَصِيرُ. مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البِلادِ. كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾[٥٩].

VI

ثم تتوجه السورة بالخطاب إلى قريش وتقول عنهم: ﴿**أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العِقَابِ**﴾[٦٠].

---

(٥٨) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآيتان ٩٤ ـ ٩٥. ﴿**فإن كنت في شك . . . قبلك**﴾ هذه إشارة إلى أن في التوراة ما يشهد بالصحة لما ورد في القرآن.

(٥٩) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآيات ١ ـ ٥. ﴿**غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول**﴾ أي الذي يتفضل فيعفو عمن تاب. ﴿**فلا يغرُرْك تقلبهم في البلاد**﴾ أي فلا يغررك نجاحهم في التجارة والكسب.

(٦٠) نفس المرجع، «سورة غافر،» الآيتان ٢١ ـ ٢٢. ﴿**أو لم يسيروا . . . من قبلهم**﴾ انظروا من خلال ما بقي من آثار قراهم: عاد وثمود.

III

ب ـ فرعون ذروني أقتل موسى . .

بعد ذلك تنتقل السورة إلى قصة موسى التي تأتينا هذه المرة في قالب جديد تماماً. ذلك أن الذي سيتكلم فيها باسم الحق والعدل هو «رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه» ينصحهم ويعظهم، الأمر الذي لم نصادفه من قبل: قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّاب. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ. وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ. وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ﴾**[٦١].

VI

ج ـ رجل مؤمن: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ. يَا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ. وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلعِبَادِ. وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَاد. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ. الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَان أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار﴾[٦٢].

---

(٦١) نفس المرجع، «سورة غافر،» الآيات ٢٣ ـ ٢٧.

(٦٢) نفس المرجع، «سورة غافر،» الآيات ٢٨ ـ ٣٥. «الأحزاب» هم الأقوام الذين تحالفوا ضد رسلهم و«يوم التناد» هو يوم القيامة. لا أثر لهذا «الرجل المؤمن» في التوراة فعظته ليست مما يدخل في أفق التوراة. وقد سبق أن قلنا إن الحوار الذي يجريه القرآن في القصص وغيره يقصد به دلالته العامة التي تنطبق على وضعية النبي مع قريش، ووضعيات الأنبياء عموماً مع أقوامهم. هذا والجدير بالإشارة هنا أن كلام هذا الرجل الذي صاح في وجه فرعون وملأه **﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾**، يذكرنا بما حصل للنبي ﷺ مع قريش، حينما قام =

III

د ـ فرعون يطلب صرحاً ليطَّلع على إله موسى

ويأتي رد فعل فرعون أنه سيصعد إلى السماء للتحقق من وجود إله موسى، استهزاء وسخرية، قال تعالى: **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلاّ فِي تَبَابٍ﴾**[٦٣].

VI

هـ ـ ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾[٦٤]

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ. مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إلاّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العَزِيزِ الغَفَّارِ. لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ. فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ. فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾[٦٥]. واضح أن هذه الموعظة هي خطاب عامّ موجه إلى غير المؤمنين في كل زمان بِمن فيهم كفار قريش.

= أبو بكر لمناصرته، فقد خاطب قريشاً بمثل ذلك. ذكر ابن إسحق أن زعماء قريش كانوا يتداولون في أمر النبي منزعجين من تعرّضه للآلهتهم «فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسولُ اللّه ﷺ، فوثبوا إليه وثبةَ رجلٍ واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؛ لما كان يقول من عَيْب آلهتهم ودينهم، فيقولُ رسول اللّه ﷺ: نعم: أنا الذي أقول ذلك. قال (راوي الخبر): فلقد رأيتُ رجلاً منهم أخذ بمجْمَع ردائه. قال: فقام: أبو بكر رضي اللّه عنه دونه، وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربيَ الله؟ ثم انصرفوا» عنه. ويضيف الراوي: «فإن ذلك لأشدُّ. ما رأيتُ قريشاً نالوا منه قط». راجع أيضاً قصة يوسف لاحقاً.

(٦٣) نفس المرجع، «سورة غافر،» الآيتان ٣٦ ـ ٣٧. «في تباب» تعني في خسران.

(٦٤) نفس المرجع، «سورة غافر،» الآية ٤١.

(٦٥) نفس المرجع، «سورة غافر،» الآيات ٣٨ ـ ٤٦. «حاق» تعني نزل وهنا بمعنى سينزل. من علماء اللغة من جعل في الآية تقديماً وتأخيراً فيكون المعنى: «ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب: النار يعرضون عليها غدواً وعشياً».

و ـ وإذ يتحاجّون في النار . . .

لم يعمل فرعون بنصائح ذلك «الرجل المؤمن» فكان مصيره النار في الآخرة. وتنقل لنا السورة مشهداً من مشاهد القيامة وفيه يتلاوم المستضعفون من قوم فرعون مع الملإ منهم المستكبرين، وهم يناشدون خزنة جهنم أن يطلبوا الله ليخفف عنهم يوماً من العذاب. . . يقول تعالى: **﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَل أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ .وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ العَذَابِ. قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاّ فِي ضَلالٍ. إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ. يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمْ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾**(٦٦).

ز ـ اصبر إن وعد الله حق . . .

وتختم السورة عرضها لقصة موسى وفرعون بدعوة النبي ﷺ إلى التمسك بالصبر: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ. هُدى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ. فَاصْبِرِ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ. إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرِ﴾**(٦٧).

ثم تتجه السورة بالخطاب إلى قريش مجادلة محذِّرة مكرِّرة الوعيد تلو الوعيد لتتجه بعد ذلك مرة أخرى إلى النبي (ﷺ) تدعوه إلى الصبر: **﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ المُبْطِلُونَ﴾**(٦٨).

وبذلك ينتهي عرض قصة موسى مع فرعون وملئه في القرآن المكي. ولكن التذكير بموسى وغيره من الأنبياء سيستمر، تارة بذكر أسمائهم وتارة بالإشارة

---

(٦٦) نفس المرجع، «سورة غافر،» الآيات ٤٧ ـ ٥٢. هذه الآيات ليس في التوراة ما يقابلها، وقد جاءت في القرآن امتداداً لقصة موسى مع فرعون، فانتقلت بنوع من الالتفات بليغ من الماضي (موسى وقومه) إلى الحاضر (حال النبي مع قريش) إلى المستقبل (يوم القيامة). إنه زمن الدعوة، يعلو على التاريخ لأنه يريد أن يغير التاريخ.

(٦٧) نفس المرجع، «سورة غافر،» الآيات ٥٣ ـ ٥٦.

(٦٨) نفس المرجع، «سورة غافر،» الآيتان ٧٧ ـ ٧٨.

المقتضبة إلى أحوالهم مع أقوامهم. وستكون سورة النازعات ورتبتها ٨٣ هي آخر سورة مكية استعادت قصة موسى وبعبارات تقريرية متراصة، تختلف عن عبارات السرد القصصي. يقول تعالى: **﴿هَل أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالوَادِي المُقَدَّسِ طُوى. اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُل هَل لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى. وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى. فَأَرَاهُ الآيَةَ الكُبْرَى. فَكَذَّبَ وَعَصَى. ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى. فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾**(٦٩).

وبذلك ينتهي «برنامج» سورة الأعراف. وقبل الانتقال إلى الصنف الثالث من القصص القرآني لنلق نظرة على قصة موسى كما عرضناها.

قصة موسى: خلاصات وملاحظات

لنبدأ بالإشارة إلى التسلسل الزمني لأحداث قصة موسى عليه السلام وقد نبهنا عليه بواسطة الأرقام الرومانية داخل النص، وهو كما يلي:

I ـ ميلاد موسى ونشأته في بيت فرعون بمصر.

II ـ قتله أحد المصريين. وهروبه إلى مدين.

III ـ عودته إلى مصر ولقاؤه الأول مع ربه الذي اتخذه نبياً رسولاً مكلفاً بتحرير بني إسرائيل من اضطهاد فرعون والعودة بهم إلى فلسطين.

IV ـ خروجه من مصر قاصداً فلسطين وخروج فرعون في أثره، وغرق جيوش هذا الأخير(٧٠).

V ـ ذهاب موسى للقاء ربه للمرة الثانية وأخذه الوصايا العشر(٧١)، وبنو

---

(٦٩) نفس المرجع، «سورة النازعات،» الآيات ١٥ ـ ٢٦. والمقصود هنا بـ «الآية الكبرى» العصا.

(٧٠) لم يرد ذكر التيه في القرآن المكي. وسيذكر في القرآن المدني. راجع لاحقاً. كذلك لم يرد ذكر لوفاة موسى، وحسب التوراة توفي بينما كان يقود بني إسرائيل في حروبهم على طريق الاستيلاء على فلسطين. وقد خلفه يَشُوعُ بْنُ نُونٍ.

(٧١) حول الوصايا العشر: ورد في التوراة: «واستطرد الرب مخاطباً موسى دون هذه الكلمات لأني طبقاً لنصها أبرمت معك ومع إسرائيل ميثاقاً. ومكث موسى في حضرة الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة لم يأكل فيها خبزاً ولم يشرب ماءً فدون على اللوحين كلمات العهد أي الوصايا العشر. وعندما انحدر من جبل سيناء حاملاً بيديه لوحَي الشهادة لم يكن يدري أن وجهه كان يلمع لأنه كان يتحدث مع الله. وحين شاهد هارون وبنو إسرائيل موسى كان وجهه لامعاً فخافوا أن يقتربوا منه. فدعاهم موسى فرجع إليه هارون ورؤساء الشعب فخاطبهم. وما لبث أن اقترب منه جميع بني إسرائيل فتلا عليهم كل الوصايا التي أملاها الرب في جبل سيناء. وعندما أنهى موسى حديثه معهم وضع على وجهه برقعاً كان يخلعه عند مثوله أمام الرب ليتحادث معه إلى أن ينصرف من لدنه ثم يخرج ليخاطب بني إسرائيل بما أوصاه. فإذا عاين بنو إسرائيل لمعاناً في جلد وجه موسى =

إسرائيل يتخذون العجل صنماً في غيبته. وعند عودته غضب. . ثم استغفر لهم.

VI ـ التفاتات واستطرادات تعطي أحداث القصة مغزاها القرآني.

إذا نحن نظرنا الآن إلى مجموع الأجزاء والصيغ التي عرضها القرآن المكي من قصة موسى مع فرعون، فإنه سيكون بإمكاننا تسجيل الملاحظات التالية:

أ ـ الملاحظة الأولى

تتميز السور التي ورد فيها سرد لجزء أو أجزاء من قصة موسى، وهي أساساً ست سور، بكونها تبتدئ بحروف مقطعة (تسمى فواتح السور) كما يلي، حسب ترتيب النزول: المص (الأعراف)، طه (طه)، طسم (الشعراء)، طسم (القصص)، الر (يونس)، حم (غافر). وإذا كان من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، فك رموز الحروف فواتح السور تلك، وبيان دلالتها بوجه من الوجوه التي يمكن الاطئنان إليها[٧٢]، فإن ما يلفت الانتباه في هذه السور كون مطالعها تستهل بالإشارة إلى القرآن الكريم: «المص، كتاب أنزل إليك . . .، طه، ما أنزلنا عليك الكتاب لتشقى . . .، طسم، تلك آيات الكتاب المبين . . .، طسم، تلك آيات الكتاب المبين . . .، المر تلك آيات الكتاب الحكيم . . .، حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . . . يتلو ذلك آيات بمثابة مقدمات تنبئ، بصورة مباشرة تارة وغير مباشرة تارة، عن المحور الذي ستدور عليه السورة، محور قد تتعدد حلقاته ولكنها تلتئم جميعاً عند خاتمة ترتبط بالمقدمة، أو تستعيد بعض أبعادها، لتجعل من السورة كلاً واحداً، يقرر مبادئ

= كان يرد البرقع إلى حين دخوله إلى الخيمة للتحدث مع الرب فيرفعه» [**الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ٣٤، الآيات ٢٧ ـ ٣٥]. أما نص الوصايا العشر فهو كما يلي: «أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر ديار عبوديتك. لا يكن لك آلهة أخرى سواي. لا تنحت لك تمثالاً ولا تصنع صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من أسفل الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد آثام الآباء في البنين حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ وأبدي إحساناً نحو ألوف من محبّي الذين يطيعون وصاياي. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً لأن الرب يعاقب من نطق باسمه باطلاً. اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتقوم بجميع مشاغلك. أما اليوم السابع فتجعله سبتاً للرب إلهك فلا تقم فيه بأي عمل أنت أو ابنك أو ابنتك أو عبدك أو أمتك أو بهيمتك أو النزيل المقيم داخل أبوابك. لأن الرب قد صنع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع. لهذا بارك الرب يوم السبت وجعله مقدساً. أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يهبك إياها الرب إلهك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد زوراً على جارك. لا تشته بيت جارك ولا زوجته ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما له» [«سفر الخروج،» الأصحاح ٢٠، الآيات ٢ ـ ١٧].

(٧٢) خاض المفسرون وغيرهم من القدماء والمعاصرين في هذا الموضوع ولكن من دون طائل، سوى ما لا يحصى من التخمينات التي لا سند لها، لا من العقل الصريح ولا من النقل الصحيح. ولذلك صرفنا النظر عنها.

الدعوة المحمدية وفي مقدمتها مبدأ التوحيد والوعد والوعيد. . . إلخ.

وهذا ما يؤكد ما سبق أن قررناه مراراً من أن الهدف من القصص في القرآن هو ربط حال الدعوة المحمدية بأحوال الأنبياء السابقين، وبالتالي استخلاص العبرة مما آل إليه مصير «المكذبين» لأنبيائهم في الماضي. والخطاب في هذه المجال موجّه إلى قريش، تارة بشكل صريح وتارة بصورة ضمنية.

ب ـ الملاحظة الثانية

لم يتبع القرآن التسلسل الزمني في عرضه أحداث قصة موسى، وهذا صحيح سواء اتبعنا ترتيب نزول السور كما فعلنا أو اتبعنا ترتيب المصحف. والحقيقة أن ترتيب السور لا علاقة له بعرض أجزاء القصة، ذلك أننا نجد السورة الواحدة تعرض أجزاء من القصة من دون اعتبار التسلسل الزمني لوقائع هذه الأجزاء. وإذا نحن أردنا التمييز في أحداث قصة موسى (كما عرضها القرآن المكي) بين مراحل، حسب موضوعها وزمنيتها، أمكننا ترتيبها في ستة فصول موزعة على عدد من السور المكية توزيعاً خاصاً، لا يخضع لمنطق التسلسل الزمني، لا على صعيد ترتيب السور، ولا على صعيد السورة الواحدة.

وهكذا فسورة الأعراف مثلاً، وهي التي قدمت أول عرض لهذه القصة، تبدأ من المرحلة الثالثة في قصة موسى لتنتقل بعدها إلى المرحلة الرابعة فالخامسة، لتعود إلى المرحلة الرابعة. يتخلل ذلك فصلان استطراديان يتوجه فيها الخطاب إلى النبي محمد ﷺ أو إلى قومه. أما المرحلتان الأولى والثانية فلم تردا في سورة الأعراف، وإنما وردتا في السور اللاحقة. والجدول التالي يلخص توزع فصول قصة موسى في السور المكية:

السورة	الفصول كما وردت في القصة
الأعراف	٣، ٤، ٥، ٦، ٤، ٦
طه	٣، ١، ٢، ٣، ٦، ٣، ٤، ٥، ٦
الشعراء	٣، ١/٢، ٣، ٦/٣
القصص	١، ٢، ٣، ٦
يونس	٣، ٤، ٦
غافر	٣، ٦، ٣، ٦، ٣، ٦
النازعات	٣

وإذا نحن تأملنا هذا الجدول وجدنا أن أكثر الفصول تكراراً هما الفصلان الثالث والسادس، وهذا مفهوم. فالفصل الثالث (١٥ مرة من ٣٩) موضوعه الدعوة، دعوة فرعون إلى الإيمان بالله وترك ادّعاء الألوهية من جهة، والتخلي عن استعباد بني إسرائيل والسماح لهم بالذهاب مع موسى إلى فلسطين. والقرآن المكي هو قرآن الدعوة، ولذلك فليس غريباً أن يركز على موضوع الدعوة. أما الفصل السادس فهو يضم التفاتات واستطرادات تتجه بالخطاب إلى النبي محمد ﷺ تارة وإلى قريش تارة، وإليهما معاً حيناً، وإلى البشرية جمعاء حيناً آخر، وموضوع الخطاب يدور حول العبرة التي ينطوي عليها ما سبق عرضه من أجزاء القصة، فهو امتداد لخطاب الدعوة.

ج ـ الملاحظة الثالثة

وإذا نحن أردنا أن نقيم مقارنة بين قصة موسى في خطاب القرآن وبينها في خطاب التوراة فإننا سنجد أن ما يميز الخطاب القرآني في قصة موسى هو أنه خطاب مفتوح على المكان والزمان من خلال الالتفاتات والاستطرادات والمقدمات والخاتمات: لا يتقيد بشعب ولا بوطن ولا بزمن. هو خطاب دعوة إلى الناس كافة، حتى عندما يكون المخاطب المباشر هم قريش. النبي من قريش فعلاً، ولكن كنسب بشري فقط، أما كحامل رسالة فهو يقع خارج حدود القبيلة، خارج إطار الزمن. ومع أن الدعوة المحمدية كانت في مراحلها الأولى دعوة للقوم والعشيرة «الأقربين»، فإنها قد تخطت في الوقت نفسه هذه الحدود من خلال «الذكر»: ذكر تجارب الأنبياء والرسل مع أقوامهم من جهة، وذكر المصير النهائي العامّ الذي ينتظر البشرية جمعاء، مصير ينفتح على مكان آخر هو «الدار الآخرة»، وزمان آخر هو «اليوم الآخر».

أما خطاب التوراة فهو خطاب مغلق: الحوار يجري فيه بين ثلاثة أطراف مترابطة، لا غير: بنو إسرائيل، إله بني إسرائيل، موسى نبي بني إسرائيل. الإله هنا إله شعب لا إله البشرية جمعاء، والخطاب النبوي فيه خطاب موجّه إما إلى هذا الشعب وإما إلى إلهه. والعلاقة بين هذه الأطراف الثلاثة علاقة عائلية، تتميز بتمرد الأبناء على الأب تارة وبخضوعهم تارة، يغضب الأب حيناً ويرضى حيناً آخر. أما النبي فهو كـ «الأخ الكبير» ينوب عن أبيه في تبليغ أوامره وأجوبته عن أسئلة ومطالب وتمردات وتضرعات شعبه. فسلوك هذا الشعب مليء بالشكوى والعتاب، للأب تارة ولنبيه تارة، كما أن هذا النبي نفسه كثيراً ما يشتكي من انحرافات هذا الشعب وتَمرداته، وقد يتجه إلى الإله بنفس الشكوى والعتاب.

والقصة هي تسجيل لهذه العلاقة بين الأطراف الثلاثة وتطورها عبر الزمن.

نعم هناك «الآباء»، إبراهيم وإسحق ويعقوب (ويعقوب هو إسرائيل وإليه ينتسب هذا الشعب). وبما هم آباء على صعيد تناسل القبيلة فهم لها وحدها، لا يشاركهم غيرهم في شرف الانتماء إليهم. إن البشرية جمعاء غائبة هنا تماماً. . ومن هنا كان الأفق في اتجاه الماضي محدوداً بهؤلاء الآباء/ الأصول. أما في اتجاه المستقبل فهو محدود كذلك بحدود مكان معين: الأرض الموعودة التي وعد الإله بها شعبه والتي كلف نبيه بقيادة هذا الشعب إليها: فلسطين. هنا في المرحلة التاريخية التي تغطيها قصة موسى ـ على الأقل ـ ليس هناك دار أخرى ولا يوم آخر. لا ذكر للجنّة والنار، ولا للثواب والعقاب. والواقع أن «الحضور الأخروي» ضعيف بما لا يقاس في كل من التوراة والإنجيل قياساً مع حضوره في القرآن. وهذا موضوع آخر.

القصص في القرآن المكي

(٤)

المرحلة الثانية: قصص مستقلة...

خصائص ومميزات

كانت القصص المدرجة في الفصول السابقة عبارة عن «أمثلة»، القصد الأول منها هو بيان المصير الذي لحق بالأقوام الذين كذّبوا رسلهم، وطمأنة النبي ﷺ وصحبه بأن النصر في النهاية سيكون لهم. ولذلك جاءت تلك القصص على صيغ متنوعة حسب مقتضيات الأحوال وتطور الدعوة وردود فعل قريش ضدها: تارة تُعرض باختصار وتارة بتفصيل مع التركيز على جانب معين من القصة، وتارة يتم الاكتفاء بذكر أسماء الأنبياء أو أقوامهم أو هما معاً. وقد انتظمها جميعاً ما أسميناه بـ «برنامج سورة الأعراف» الذي مهدت له سورة «ص».

أما القصص التالية فهي لا تدخل ضمن هذا البرنامج وقد نزلت جميعها بعد سورة الأعراف ـ حسب ترتيب النزول. ومن هنا اعتبرناها قصصاً مستقلة، بمعنى أنها لم ترد موزعة على سور كما رأينا في قصة موسى، بل هي قصص وردت مكتملة في سورة بعينها في القرآن المكي[١]، وبعضها عرض مجدداً في القرآن المدني ولكن في سياق مختلف كما سنرى. أما سياق هذه القصص في القرآن المكي فيمكن ربطه بمحور واحد يشكل أحد محاور الدعوة المحمدية، أعني بذلك ذكر ما خص الله به أنبياءه من أمور خارقة للعادة (الصنف الثاني)؛ وهذا ليس من أجل بيان

(١) نستثني من ذلك قصة إبراهيم، فقد وردت مكررة في سور مختلفة وسياقات متباينة، وسنبين ذلك لاحقاً.

كيف أنها كانت آيات على صدقهم إزاء مكذّبيهم فحسب بل أيضاً، وهذا بالقصد الأول، للدلالة على قدرة الله على الإتيان بالآيات المعجزات، وأن الله قد خص محمداً ﷺ بمعجزة تختلف عن معجزات الأنبياء السابقين هي «القرآن»، وذلك رداً على خصوم الدعوة المحمدية الذين كانوا يطالبون النبي بالإتيان بمعجزات من جنس خرق العادة، مثل معجزات موسى وعيسى. . . إلخ. وسنرى كيف ردّ القرآن عليهم، وكيف أنه تحداهم أن يأتوا بسورة مثله إن كانوا يعتقدون حقاً أنه من عند بشر وأنه ليس من عند الله.

وإذا كان من الصعب تحديد أسباب نزول هذه القصص المستقلة فإن مضمونها ـ فضلاً عن الجانب البياني البلاغي فيها ـ يندرج تحت «قرآن الدعوة» مثلها في ذلك مثل قصص القرآن المكي عموماً. وسيتبين هذا واضحاً في هذه القصص التي نشرع الآن في عرضها.

١ ـ قصة مريم في سورة مريم

أ ـ زكريا الطاعن في السن وامرأته العاقر ينجبان. . .

ربما كان من المفيد التذكير هنا أننا نقتصر في هذه المرحلة الثانية من تتبع القصص القرآني على القرآن المكي، خصوصاً وقصة مريم قد ورد قسم منها في القرآن المكي وقسم في القرآن المدني. وقد سبق أن قلنا إن للقرآن في القصص التي يعرضها زماناً خاصاً به هو زمان الدعوة. أما زمان القصة المفترض فيه أن يكون موازياً للزمن الطبيعي فهو جملة أحداث يذكر منها القرآن في كل مقال ما يناسب المقام. ومقام الدعوة في مكة غير مقام الدولة في المدينة، وما يناسب تطور الدعوة قد يختلف عما يناسب تطور الدولة.

والواقع أن القسم المكي من قصة مريم لا يخصها بِمفردها بل يخص عيسى ابنها، وبالتحديد حَمْلَها به من غير أن يَمسسْها بشر. ويبدو أن هذا هو المقصود من القصة خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار ما يروى من أن جعفر بن أبي طالب الذي كان على رأس المهاجرين إلى الحبشة قد طلب منه النجاشي (ملك الحبشة) أن يقرأ عليه شيئا من القرآن، فقرأ من سورة مريم، وأنه ـ أي النجاشي ـ تأثر بما سمع تأثراً بليغاً جعله يردّ محاولة قريش التدخل عنده لطرد أولئك المهاجرين. وإذا صح ما يروى من أن عمر بن الخطاب قد أسلم عندما سمع أخته تقرأ هذه السورة حين فاجأها في بيتها وهو ينوي صدّها عن الإسلام (وكانت قد أسلمت سراً)، أقول إذا صح هذا فإن تاريخ نزول هذه السورة يكون حوالى السنة الرابعة/ الخامسة من النبوة، وهو تاريخ هجرة من هاجر من المسلمين إلى الحبشة.

وبناءً عليه فإن هذه القصة، قصة ميلاد عيسى عليه السلام، من أمه مريم من غير أن يمسسها رجل، «موجهة» ـ إلهاماً أو تخطيطا ـ إلى النجاشي والذين هم على مذهبه، مذهب «الذين قالوا إنا نصارى»، الذين يعارضون عقيدة التثليث. وإذا صح هذا فسيكون اختيار الحبشة لهجرة المسلمين إلى ملكها مبنياً على كون هذا الأخير كان من الموحدين (الآريوسيين).

هذا فضلاً عن أن القصة موجهة إلى قريش من حيث إنها تطرح معجزة إلهية، وهي قدرته تعالى على أن يجعل المرأة تحمل من دون أن يمسسها رجل. ولما كان هذا من أغرب الأمور، وبالتالي مدعاة للشك، فقد قدمت له سورة مريم بقصة زكريا الطاعن في السن الذي ولد له مولود من امرأته وهي عاقر. وهذا أمر غريب، ولكنه مع ذلك قابل للتصديق بوصفه حالة استثنائية. وعليه، فلما كان هذا ممكناً، ولو كحالة استثنائية، فسيكون من الممكن أيضاً كحالة استثنائية أن تلد المرأة من غير أن يمسسها بشر. وفي هذا تأكيد لعقيدة الخلق التي كانت قريش تشكك فيها وتنكرها، بينما يؤكد القرآن هذه العقيدة بمناسبة هذه القصة، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً**﴾(٢).

وهكذا تبدأ سورة مريم بقصة زكريا. قال تعالى: ﴿**كهيعص. ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِياً. قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً. وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً. يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِياً. قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِياً. قَال كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً. قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِياً. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِياً**﴾(٣) (شُكراً لله

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة مريم،» الآية ٩.

(٣) نفس المرجع، «سورة مريم،» الآيات ١ ـ ١١. ﴿**عبده زكريا**﴾ المعنى: هذه قصة تحكي كيف أنزل الله رحمته على عبده زكريا (إذ وهبه مولوداً وهو شيخ مُسنّ وامرأته عاقر). ﴿**وإني خفت الموالي**﴾ أي أوليائي من بني عمي. ويقصد بالعبارات التالية: «ولياً» ابناً، «المحراب» هيكل العبادة، «أوحى» أشار. وردت قصة زكريا ومريم في إنجيل لوقا متداخلتين كما يلي: «كان في زمن هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا وزوجته من نسل هارون واسمها أليصابات. وكان كلاهما بارين أمام الله يسلكان وفقاً لوصايا الرب وأحكامه كلها بغير لوم. ولكن لم يكن لهما ولد إذ كانت أليصابات عاقراً وكلاهما قد تَقَدَّمَا في السِّنِّ كَثِيراً. وبينما كان زكريا يؤدي خدمته الكهنوتية أمام الله في دور فرقته، وقعت عليه القرعة التي ألقيت حسب عادَة [الكهنوت ليدخل هيكل الرب ويحرق البخور. وكان جمهور الشعب جميعاً يصلّون خارجاً في وقت إحراق البخور. فظهر له ملاك من عند الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور. فاضطرب زكريا لما رآه واستولى عليه الخوف. فقال له الملاك =

على الوعد بغلام اسمه يحيى. ولما ولد يحيى وشب جاءه الخطاب الإلهي: ﴿يَا يَحيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِياً. وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِياً. وَبَراً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِياً. وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً﴾(٤).

ب ـ ومريم تحمل من دون أن يمسسها رجل . . .

بعد ذلك تأتي معجزة حمل مريم من غير رجل. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرقِياً. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِياً. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيا. قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَي هَيِّن وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا

= لا تخف يازكريا لأن طلبتك قد سمعت وزوجتك أليصابات ستلد لك ابناً وأنت تسميه يوحنّا. ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته. وسوف يكون عظيماً أمام الرب ولا يشرب خمراً ولا مسكراً ويمتلئ بالروح القدس وهو بعد في بطن أمه. ويَرُدُّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. فيتقدم أمامه وله روح إيليا وقدرته ليرد قلوب الآباء إلى الأولاد والعصاة إلى حكمة الأبرار ليهيىء للرب شعباً معداً. فسأل زكريا الملاك بم يتأكد لي هذا فأنا شيخ كبير وزوجتي متقدمة في السن. فأجابه الملاك أنا جبرائيل الواقف أمام الله وقد أرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا. وها أنت ستبقى صامتاً لا تستطيع الكلام إلى اليوم الذي يحدث فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي وهو سيتم في حينه. وكان الشعب منتظرين زكريا وهم متعجبون من تأخره داخل الهيكل. ولكنه لما خرج لم يقدر أن يكلمهم فأدركوا أنه رأى رؤيا داخل الهيكل فأخذ يشير لهم وظل أخرس. ولما أتم أيام خدمته رجع إلى بيته. وبعد تلك الأيام حبلت أليصابات زوجته فكتمت أمرها خمسة أشهر قائلة. هكذا فعل الرب بي في الأيام التي فيها نظر إلي لينزع عني العار من بين الناس» [**الكتاب المقدس**، «إنجيل لوقا،» الأصحاح ١، الآيات ٥ ـ ٢٥].

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة مريم،» الآيات ١١ ـ ١٥. المقصود هنا بالكتاب التوراة، «بقوة» تعني بجد، أما «زكاة» فتعني نمواً. في إنجيل لوقا الأصحاح الثالث عن يحيى (واسمه هناك يوحنا المعمدان) ما يلي: «وفي السنة الخامسة عشرة من ملك القيصر طيباريوس . . . كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا وهو في البرية. فانطلق إلى جميع النواحي المحيطة بنهر الأردن ينادي بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا (. . .). فقد كان يقول للجموع الذين خرجوا إليه ليتعمدوا على يده ياأولاد الأفاعي من أنذركم لتهربوا من الغضب الآتي. فأثمروا أثماراً تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أباً فإني أقول لكم إن الله قادر أن يطلع من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم. وها إن الفأس أيضاً قد وضعت على أصل الشجر فكل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتطرح في النار. وسألته الجموع فماذا نفعل إذن. فأجابهم من كان عنده ثوبان فليعط من لا ثوب عنده ومن كان عنده طعام فليعمل كذلك أيضاً. وجاء أيضاً جباة ضرائب ليتعمدوا فسألوه يا معلم ماذا نفعل. فقال لهم لا تجبوا أكثر مما فرض لكم. وسأله أيضاً بعض الجنود ونحن ماذا نفعل فأجابهم لا تظلموا أحداً ولا تشتكوا كذباً على أحد واقنعوا بمرتباتكم. وإذ كان الشعب منتظرين والجميع يسائلون أنفسهم عن يوحنا هل هو المسيح. أجاب يوحنا الجميع قائلاً أنا أعمدكم بالماء ولكن سيأتي من هو أقدر مني من لا أستحق أن أحل رباط حذائه هُو سيعمدكم بالروح القدس وبالنار. فهو يحمل المذرى بيده لينقي بيدره تماماً فيجمع القمح إلى مخزنه وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ. وكان يبشر الشعب ويعظهم بأشياء أخرى كثيرة» [**الكتاب المقدس**، «إنجيل لوقا،» الأصحاح ٣، الآيات ١ ـ ٣ و٧ ـ ١٨].

وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيا. فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيا. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنسِيا. فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيا. فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِياً. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيا. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيا. وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيا. وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيا﴾(٥).

---

(٥) نفس المرجع، «سورة مريم،» الآيات ١٦ ـ ٣٣. ﴿**واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً**﴾. أي اذكر يا محمد قصة مريم التي ابتعدت عن أهلها واتخذت مكاناً لها في الشرق. ﴿**فأرسلنا إليها روحنا**﴾ أي أرسلنا إليها جبريل مستوي الخلقة. «قصياً» تعني بعيداً. ﴿**جعل ربك تحتك سرياً**﴾ أي وادياً يسري فيه الماء تشربين منه. «رطباً جنياً» تعني تمراً ناضجاً. ﴿**لقد جئت شيئاً فرياً**﴾ لقد جئت يا مريم بذنب الزنى. أما بشأن مريم فقد ورد ما يلي داخل قصة زكريا: وحملت زوجته أليصابات بيحيى: «وفي شهرها السادس [يعني من حمل أليصابات بيحيى] أرسل الملاك جبرائيل من قبل الله إلى مدينة بالجليل اسمها الناصرة. إلى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف من بيت داوود، واسم العذراء مريم. فدخل الملاك وقال لها سلام أيتها المنعم عليها الرب، مباركة أنت بين النساء. فاضطربت لكلام الملاك وساءلت نفسها ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم فإنك قد نلت نعمة عند الله. وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع. إنه يكون عظيماً وابن العلي يدعى ويمنحه الرب الإله عرش داوود أبيه. فيملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولن يكون لملكه نهاية. فقالت مريم للملاك كيف يحدث هذا وأنا لست أعرف رجلاً. فأجابها الملاك: الروح القدس يحل عليك وقدرة العلي تظللك. لذلك أيضاً فالقدوس المولود منك يدعى ابن الله. وها هي نسيبتك أليصابات أيضاً قد حبلت بابن في سنها المتقدمة. وهذا هو الشهر السادس لتلك التي كانت تدعى عاقراً. فليس لدى الله وعد يستحيل عليه إتمامه. فقالت مريم ها أنا عبدة الرب ليكن لي كما تقول ثم انصرف الملاك من عندها. وفي تلك الأيام قامت مريم وذهبت مسرعة إلى الجبال قاصدة إلى مدينة من مدن يهوذا. فدخلت بيت زكريا وسلمت على أليصابات. ولما سمعت أليصابات سلام مريم قفز الجنين داخل بطنها وامتلأت أليصابات من الروح القدس. وهتفت بصوت عال قائلة: مباركة أنت بين النساء ومباركة ثمرة بطنك. فمن أين لي هذا أن تأتي إليّ أم ربي. فإنه ما إن وقع صوت سلامك في أذني حتى قفز الجنين ابتهاجاً في بطني. فطوبى للتي آمنت أنه سيتم ما قيل لها من قبل الرب. فقالت مريم: تعظم نفسي الرب. وتبتهج روحي بالله مخلصي. فإنه نظر إلى التواضع أمته وها إن جميع الأجيال من الآن فصاعداً سوف تطوّبني. فإن القدير قد فعل بي أموراً عظيمة، قدّوس اسمه. ورحمته للذين يتقونه جيلاً بعد جيل. عمل بذراعه قوة شتّت المتكبرين في نيات قلوبهم. أنزل المقتدرين عن عروشهم ورفع المتواضعين. أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين. أعان إسرائيل فتاه متذكراً الرحمة. كما تكلم إلى آبائنا لإبراهيم ونسله إلى الأبد. وأقامت مريم عند أليصابات نحو ثلاثة أشهر ثم رجعت إلى بيتها.» [**الكتاب المقدس**، «إنجيل لوقا،» الأصحاح ١، الآيات ٢٦ ـ ٥٦]. وفي إنجيل متى: «أما يسوع المسيح فقد تمت ولادته هكذا كانت أمه مريم مخطوبة ليوسف وقبل أن يجتمعا معاً وجدت حبلى من الروح القدس. وإذ كان يوسف خطيبها باراً ولم يرد أن يشهر بها قرر أن يتركها سراً. وبينما كان يفكر في الأمر إذا ملاك من الرب قد ظهر له في حلم يقول: يا يوسف بن داود لا تخف أن تأتي بمريم عروسك إلى بيتك لأن الذي هي حبلى به إنما هو من الروح القدس. فستلد ابناً وأنت تسميه يسوع لأنه هو الذي يخلص شعبه من =

ج ـ ذلك عيسى ابن مريم: ما كان الله ليتخذ ولداً

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَد سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ. أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ. إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[٦].

هنا تقف السورة مع قصة مريم ـ في القرآن المكي ـ وسيتجدد الحديث عنها في القرآن المدني ـ بعد أن أوضحت كيف أن الله قادر على أن يخرق العادة، لتنتقل بنا إلى قصة إبراهيم لتشرح كيف أن الله خرق له العادة، هو الآخر، فكانت النار برداً وسلاماً عليه[٧].

٢ ـ قصة يوسف

أ ـ خصائصها ومناسبة نزولها

تمتاز قصة يوسف كما وردت في القرآن بوضع خاص: فمن جهة تستغرق كامل السورة التي سميت باسمه. ومن جهة ثانية نزلت هذه السورة مرة واحدة.

= خطاياهم. حدث هذا كله ليتم ما قاله الرب بلسان النبي القائل. ها إن العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعى عمانوئيل. ولما نهض يوسف من نومه فعل ما أمره به الملاك الذي من الرب فأتى بعروسه إلى بيته. ولكنه لم يدخل بها حتى ولدت ابناً فسماه يسوع.» [«إنجيل متى،» الأصحاح ١، الآيات ١٨ ـ ٢٥]. «عمانوئيل» أي «الله معنا».

(٦) **القرآن الكريم**، «سورة مريم،» الآيات ٣٤ ـ ٤٠. المقصود عيسى، وقد اختلف النصارى في شأنه: هل هو الله، أم ابن الله، أم بشر. وقال عنه اليهود إنه ساحر، وقال بعضهم إنه ابن يوسف النجار خطيب مريم أو أحد أقاربها. وذكر الآلوسي في تفسيره في هذا الشأن ما يلي، قال: «وزعم بعض النصارى قاتلهم الله تعالى أنها بعد أن ولدت عيسى تزوجت بيوسف النجار وولدت منه ثلاثة أبناء. والمعتمد عليه عندهم أنها كانت في حال الصغر خطيبة يوسف النجار وعقد عليها ولم يقربها، ولما رأى حملها بعيسى ﷺ هم بتخليتها فرأى في المنام ملكاً أوقفه على حقيقة الحال، فلما ولدت بقيت عنده مع عيسى ﷺ فجعل يربيه ويتعهده مع أولاد له من زوجة غيرها. فأما هي فلم يكن يقربها أصلاً. والمسلمون لا يسلمون أنها كانت معقوداً عليها ليوسف ولا يسلمون أنها كانت خطيبته وأنه تعهدها وتعهد عيسى ﷺ، ويقولون: كان ذلك لقرابته منها». راجع: أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي الكبير، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ٣٠ ج (بيروت: دار إحياء التراث العربي، [د. ت.])، ج ١٨، ص ٣٧. «يمترون» تعني يختلفون ويتحاجّون. غني عن البيان القول إنه لم يرد في الإنجيل ما يشبه هذا الموقف، ولا الرد عليه. ﴿**أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا**﴾ أي عجيب أمرهم يوم يأتوننا طائعين يوم القيامة. ﴿**وأنذرهم يوم الحسرة**﴾ أي أنذرهم يوم القيامة والحساب على الفرصة التي ضيعوها في الدنيا.

(٧) راجع الفصل ١ من هذا الكتاب.

ومن جهة ثالثة يتطابق محتواها مع ما ورد في التوراة، ما عدا ما له طابع الدعوة المحمدية. أما طريقة السرد فيها فهي تَختلف باختلاف الغاية من القصة: قصص التوراة بجملته يحكي تاريخ بني إسرائيل بوصفهم «شعب الله المختار»، فالحوار مستمر بينهم وبين «الرب»، الذي يعتبرونه إلهاً لهم وحدهم، كرئيس أعلى لقبيلتهم، وأحيانا يسمونه «الأب». بينما يرمي القصص القرآني إلى تقديم العبرة وإقامة الحجة على صحة رسالة نبينا محمد ﷺ، الرسالة التي تخاطب الناس كافة. أما عن سبب نزولها فتذكر الروايات أن أناساً سألوا النبي ﷺ في مكة فقالوا: «أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي». وتضيف الرواية: «فأنزل الله عز وجل سورة يوسف جملة واحدة، فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة، فكان ذلك آية للنبي ﷺ» (القرطبي). لنضف أخيراً أن موقع هذه القصة في المسار الزمني لقصص أنبياء بني إسرائيل هو موقع البداية: بداية وجود بني إسرائيل في مصر. فموضوعها أسبق زمنياً من موضوع قصة موسى عليه السلام.

ب ـ مقدمة السورة

تنطلق سورة يوسف (ورتبتها ٥٣) من التذكير بالآيات، أي العلامات والبينات، التي جاء بها القرآن كدليل على كونه وحياً من الله أنزله بلغة عربية، لعل أهل هذه اللغة يعقلون ويفهمون ويقتنعون بأن هذا القرآن هو وحي من الله إليهم. ومن تلك العلامات والبينات ما ورد فيه من قصص الأنبياء لم يكن الرسول محمد (ﷺ) على علم بها قبل أن توحى إليه أخبارها وتفاصيلها. ذلك قوله تعالى في مطلع السورة: **﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾**(٨).

ج ـ بداية القصة

بعد هذه المقدمة الموجزة تشرع السورة في حكاية قصة يوسف، قال تعالى: **﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ. قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ**

---

(٨) **القرآن الكريم**، «سورة يوسف،» الآيات ١ ـ ٣. **﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾** أي لا تعرف هذا القصص.

عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٩).

د ـ طلب الإخوة يوسف من أبيهم

﴿لَقَدْ كَانَ في يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ. إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍاقْتُلُوا يُوسُف أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ. قَالَ قَائِلٌ مِنهُم لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ في غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ. قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَاً لَخَاسِرُونَ. فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ في غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وهم لا يشعرون﴾(١٠).

هـ ـ يوسف أكله الذئب؟

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ

---

(٩) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيات ٤ ـ ٦. ﴿**أحد عشر كوكباً والشمس والقمر**﴾ قيل الإشارة إلى إخوته الأحد عشر وإلى أبيه وأمه.

(١٠) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيات ٧ ـ ١٥. «السائلين» أي السائلين من قريش الذين سألوا عن أخبارهم. «آيات» أي عِبَر. «وأخوه» شقيقه بنيامين. «عصبة» أي جماعة قوية ﴿**إن أبانا لفي ضلالٍ مبين**﴾. ورد في التوراة: كان ليعقوب اثنا عشر ولداً من أربع زوجات، وكان يوسف وأخوه بنيامين أصغر إخوتهم وهما من أم واحدة اسمها راحيل. وكان يعقوب ـ ويسمى أيضاً إسرائيل ـ «يحب يوسف أكثر من بقية إخوته لأنه كان ابن شيخوخته فصنع له قميصاً ملوناً. ولما رأى إخوته أن أباهم يحبه أكثر منهم كرهوه وأساءوا إليه بكلامهم. وحلم يوسف حلماً قصه على إخوته فازدادوا له بغضاً. قال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمته. رأيت وكأننا نحزم حزماً في الحقل فإذا بحزمتي وقفت ثم انتصبت فأحاطت بها حزمكم وانحنت لها. فقال له إخوته ألعلك تملك علينا أو تحكمنا وزاد بغضهم له بسبب أحلامه وكلامه» [**الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ٣٧، الآيات ٣ ـ ٨]. بعد هذا الحلم يأتي الحلم الذي ورد في القرآن أعلاه: ﴿**أحد عشر كوكباً. . .**﴾. «الجب» أي قاع البئر. «السيّارة» أي المسافرون. المعنى: أوحينا إلى يوسف لتخبرنّ إخوتك مستقبلاً بفعلهم هذا الذي فعلوه بك، وهم لا يحسّون بذلك ولا يشعرون به. ﴿**أرسلهُ معنا غداً. . . لحافظون**﴾ في التوراة ذُكر أن إخوة يوسف كانوا قد خرجوا يرعون غنماً فأرسله أبوه ليأتيه بأخبارهم مع مواشيهم، فلما رأوه قادماً نحوهم تآمروا عليه لمحاباة أبيهم له دونهم، إذ اشترى له قميصاً أحمر. . . وقد علق ابن كثير على ذلك بقوله: «وعند أهل الكتاب: أنه أرسله وراءهم يتبعهم، فضلّ عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم. وهذا أيضاً من غلطهم وخطئهم في التعريب؛ فإن يعقوب ﷺ كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم، فكيف يبعثه وحده». راجع: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، **قصص الأنبياء**. والواقع أن منطق سياق القصة يقتضي ما ورد في القرآن، فيعقوب كان يعلم حسد أبنائه ليوسف وبنيامين شقيقه إذ هما من أم واحدة، وكان أبوهما يؤثرهما. فالمنطق يقتضي أن لا يبادر يعقوب فيبعث بيوسف وراء إخوته ليستطلع أخبارهم، إن أقرب الأمور إلى المنطق في إطار تآمرهم عليه أن يطلبوا من أبيهم أن يسمح لهم باصطحابه معهم، كما في القرآن.

مَتَاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ. وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ. وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلام وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ. وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ. وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١١).

و ـ راودته التي هو في بيتها

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ. وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾(١٢).

---

(١١) **القرآن الكريم**، «سورة يوسف،» الآيات ١٦ ـ ٢١. ﴿. . . **قميصه بدم كذب**﴾ أي جاؤوا على قميص يوسف ملطخاً بغير دمه. ﴿**قال بل سولت**. . . **تصفون**﴾ ورد في التوراة ما يفيد أن يعقوب صدّق كذبتهم، إذ قال عندما قدّموا له قميص يوسف: «هَذَا قَمِيصُ ابْنِي. وَحْشٌ ضَارٍ افْتَرَسَهُ وَمَزَّقَهُ أَشْلاَءً». «واردهم» تعني الذي يجلب الماء عليهم. ﴿**هذا غلام وأسرُّوه بضاعة**﴾ اتخذ منه أولئك التجار غلاماً يُباع ويُشترى كالعبيد. ﴿**وشروه بثمن بخس**. . . **الزاهدين**﴾ ولما علم إخوة يوسف بأخذ السيارة له، لحقوهم وقالوا: هذا غلامنا هرب منا، فاشتروه منهم بثمن بخس. وفي التوراة: «قَالَ يَهُوذَا لإِخْوَتِهِ: مَا جَدْوَى قَتْلِ أَخِينَا وَإِخْفَاءِ دَمِهِ. تَعَالَوْا نَبِيعُهُ إِلَى الإِسْمَاعِيلِيِّينَ وَنُبْرِىءُ أَيْدِينَا مِنْ دَمِهِ لأَنَّهُ أَخُونَا وَمِنْ لَحْمِنَا فَوَافَقَه إِخْوَتُهُ عَلَى رَأْيِهِ. وَعِنْدَمَا دَنَا مِنْهُمُ التُّجَّارُ الْمِدْيَانِيُّونَ سَحَبُوا يُوسُفَ مِنَ الْبِئْرِ وَبَاعُوهُ لَهُمْ بِعِشْرِينَ قِطْعَةً مِنَ الْفِضَّةِ فَحَمَلُوهُ إِلَى مِصْرَ.» [**الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ٣٧، الآيات ٢٦ ـ ٢٨]. ﴿**وقال الذي اشتراه**. . . **ولداً**﴾ ذُكر في التوراة: «وَأَخَذَ الإِسْمَاعِيلِيُّونَ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ، فَاشْتَرَاهُ مِنْهُمْ مِصْرِيٌّ يُدْعَى فُوطِيفَارَ، كَانَ خَصِيَّ فِرْعَوْنَ وَرَئِيسَ الْحَرَسِ» [«سفر التكوين،» الأصحاح ٣٧، الآية ٣٦]. ﴿**وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض**﴾ ذُكر في التوراة: «وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ، فَأَفْلَحَ فِي أَعْمَالِهِ، وَأَقَامَ فِي بَيْتِ سَيِّدِهِ الْمِصْرِيِّ. وَرَأَى مَوْلاَهُ أَنَّ الرَّبَّ مَعَهُ وَأَنَّهُ يُكَلِّلُ كُلَّ مَا تَصْنَعُهُ يَدَاهُ بِالنَّجَاحِ. فَحَظِيَ يُوسُفُ بِرِضَى سَيِّدِهِ فَجَعَلَهُ وَكِيلاً عَلَى بَيْتِهِ وَوَلاَهُ عَلَى كُلِّ مَالَهُ» [«سفر التكوين،» الأصحاح ٣٩، الآيات ٢ ـ ٤].

(١٢) **القرآن الكريم**، «سورة يوسف،» الآيات ٢٢ ـ ٢٨. ﴿**ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون**﴾ ورد في التوراة: « ثم لم تلبث أن أغرمت به زوجة مولاه فقالت اضطجع معي. فأبى وقال لها هوذا سيدي قد عهد إلي بكل ما يملك في هذا البيت ولم يشغل نفسه بأي شأن فيه. وليس في هذا البيت من هو أعظم مني ولم يمنع عني شيئاً غيرك لأنك زوجته فكيف أقترف هذا الشر العظيم وأخطىء إلى اللهِ. ولم يذعن يوسف لها مع =

ز ـ امرأة العزيز تعترف . . .

قال الزوج عزيز مصر: حاكمها: ﴿**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ. وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِن فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ. قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾[١٣].

ح ـ يوسف في السجن . . . وحلم صاحبيه

﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ. وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ**﴾[١٤].

= أنها كانت تلح عليه يوماً بعد آخر. وحدث يوماً أنه دخل البيت ليقوم بعمله ولم يكن في المنزل أحد. فأمسكته من ردائه وقالت اضطجع معي فترك رداءه بيدها وهرب خارجاً تاركاً رداءه بيدها. وعندما رأت أنه قد رفض وهرب خارجاً تاركاً رداءه بيدها. نادت أهل بيتها وقالت انظروا ما جرى هذا العبراني الذي جاء به زوجي إلى البيت شرع يراودني عن نفسي دخل غرفتي وحاول اغتصابي فصرخت بأعلى صوتي. وعندما سمعني قد رفعت صوتي وصرخت ترك رداءه معي وهرب خارجاً. وألقت رداءه إلى جانبها حتى قدم مولاه إلى بيته. فقصت عليه مثل هذا الحديث قائلة دخل العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليراودني عن نفسي. وحين رفعت صوتي وصرخت ترك ثوبه بجانبي وفر خارجاً» [**الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ٣٩، الآيات ٧ ـ ١٨]. لم يرد في التوراة ذكر لكون ثيابه قدت من دبر، ولا الشاهد، ولا نسوة المدينة كما هو مذكور أعلاه. ﴿**وشهد شاهد من أهلها**﴾ أي طلب الزوج خبرة رجل من عندهم.

(١٣) **القرآن الكريم**، «سورة يوسف،» الآيات ٢٩ ـ ٣٢. «أعتدت» أي أعدت. ﴿**فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن**﴾ كن يقطعن الأكل بالسكين فلما رأينه انبهرن وجرحن أيديهن.

(١٤) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيات ٣٣ ـ ٣٦. «أصب» تعني انحرف. لم يرد في التوراة ما جرى بين زوجة العزيز ومن استضافتهن من النساء، ولا اعترافها. أما ما ورد فيها بخصوص السجن فهو كما يلي: « فلما سمع سيده كلام زوجته وما اتهمت به يوسف احتدم غضبه. فقبض على يوسف وزجه في السجن حيث كان أسرى الملك معتقلين فمكث هناك. فنال رضا رئيس السجن. حتى عهد إلى يوسف بكل المساجين المعتقلين وجعله مسؤولاً عن كل ما يجري هناك. » **الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ٣٩، الآيات ١٩ ـ ٢٢. «واتفق بعد ذلك أن ساقي ملك مصر والخباز أذنبا إلى سيدهما ملك مصر. فسخط فرعون على خصيبه رئيس السقاة ورئيس الخبازين. وزجهما في معتقل بيت رئيس الحرس في السجن في المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه. فولى رئيس الحرس يوسف أمرهما فقام على خدمتهما فمكثا في المعتقل أياماً» [**الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ٤٠، الآيات ١ ـ ٤].

ط ـ الدعوة المحمدية داخل السجن

هنا تستطرد سورة يوسف فتتوجه إلى السجينين بالعظة التالية، وهي قوام الدعوة المحمدية: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ. يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[١٥].

ي ـ تأويل الرؤيين

بعد هذه العظة تعود السورة إلى القصة لتتابع سرد وقائعها. قال يوسف يشرح للسجينين مغزى حلمهما: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ. وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[١٦].

ك ـ رؤيا فرعون. . . وتأويل يوسف

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ. قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ. وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ. يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ. قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إلا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إلا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ

---

(١٥) **القرآن الكريم**، «سورة يوسف،» الآيات ٣٧ ـ ٤٠.

(١٦) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيتان ٤١ ـ ٤٢. ﴿**يا صاحبي. . . تستفتيان**﴾ ورد نفس الشيء في التوراة.

﴿يَعْصِرُونَ﴾[١٧]. ورجع السجين إلى فرعون وأخبره بما قال يوسف.

ل ـ فرعون يطلب يوسف ويسأله، وامرأته تعترف!

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي به فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُن إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ. قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ. ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ. وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٨].

م ـ الملك يطلب يوسف ويجعله على خزائنه

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ. قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ. وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[١٩].

ن ـ إخوة يوسف يأتون مصر للتسوق فيتعرف عليهم

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ. وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ

---

(١٧) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيات ٤٣ ـ ٤٩. يستعمل القرآن في هذه القصة لفظ «الملك» ولا يستعمل لفظ «فرعون» كما في التوراة. ويمكن تبرير ذلك بكون «فرعون» في القرآن رمز للطغيان كما هو الحال بالنسبة إلى فرعون في قصة موسى. أما هنا في قصة يوسف فالملك لم يكن طاغية بل بالعكس لقد تعاطف مع يوسف وولاه خزائنه ومنحه كامل ثقته وأكرم أهله عندما دعاهم إليه كما في آخر القصة. **﴿أضغاث أحلام﴾** أي أحلام مختلطة غامضة. **﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر﴾** في التوراة أن السجين السابق تذكر يوسف وأخبر فرعون بقدرته على تفسير الأحلام وأن تفسيره صادق، فاستدعى فرعون يوسف وقص عليه حلميه.

(١٨) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيات ٥٠ ـ ٥٣. **﴿ارجع إلى ربك﴾** والمقصود بـ «ربك» هنا الملك. اختلفوا فيمن قال ذلك **﴿لم أخنه﴾**: هل يوسف أم امرأة العزيز؟ والسياق يرجح هذه الأخيرة. والذي جعل بعضهم يرجع بالضمير إلى يوسف هو قولهم إن يوسف كان قد «هم بها» فحل أزرار سرواله استعدادا لإتيانها، ثم ندم وتوقف. وبالتالي فالمتكلم في «لم أخنه» هو يوسف (لم يخن الملك)، وكذلك الشأن في **﴿وما أبرئ نفسي﴾**.

(١٩) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيات ٥٤ ـ ٥٧. ورد في التوراة أن يوسف قال لفرعون بعد تفسير الحلم: «والآن ليبحث فرعون عن رجل بصير حكيم يوليه على البلاد. وليقم فرعون نظاراً على أرض مصر يجبون خمس غلتها في سنوات الرخاء السبع. وليجمعوا كل طعام سنوات الخير المقبلة ويخزنوا القمح بتفويض من فرعون ويحفظوه في المدن. ليكون طعاماً ومؤونة لأهل الأرض في سنوات المجاعة السبع التي ستسود أرض مصر فلا يهلكون جوعاً. فاستحسن فرعون فكرته . . . وقال له من حيث إن الله قد أطلعك على كل هذا فليس هناك بصير وحكيم نظيرك. لذلك أوليك على بيتي ويذعن شعبي لكل أمر تصدره ولن يكون أعظم منك سواي أنا صاحب العرش» [**الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ٤١، الآيات ٣٣ ـ ٤٠].

بجهازهِمْ قَالَ ائتُونِي بِأَخ لَكُم مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ. فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ. قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ. وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي؟ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ. قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ. وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ. وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[٢٠].

ص ـ يوسف يعرّف بنفسه ويدبر سرقة لأخيه

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ. قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ. قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ. قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنتُمْ كَاذِبِينَ. قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ. فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٢١].

---

(٢٠) **القرآن الكريم**، «سورة يوسف،» الآيات ٥٨ ـ ٦٨. في التوراة حصلت مجاعة في أرض كنعان فطلب يعقوب من أبنائه أن يذهبوا إلى مصر للتسوق بالقمح، فلما وصلوا واتصلوا بصاحب الخزينة، وهو يوسف، عرفهم. أما هم فلم يعرفوه. **﴿فعرفهم وهم له منكرون﴾** **﴿ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾** ورد في التوراة: لما عرفهم اتهمهم بالمجيء إلى مصر للتجسس فاستنطقهم وقالوا: لقد تركنا أبانا وهو شيخ كبير ومعه أخ لنا صغير، أما أخونا الآخر (يوسف) فهو مفقود. في نهاية المطاف طلب منهم أن يتركوا واحداً منهم رهينة حتى يعود بأخيهم الصغير ليتأكد منه مما قالوه. **﴿سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾** رجعوا من دون الكيل. **﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم﴾** أي الفضة التي دفعوها ثمناً للقمح. **﴿نمير أهلنا﴾** نتسوق لهم. **﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم... يعقوب قضاها﴾** أي أراد أبوهم الحيطة من أن يراهم جند فرعون جماعة فيصيبوهم بسوء.

(٢١) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيات ٦٩ ـ ٧٦. **﴿جعل السقاية﴾** أي الكأس الفضية التي يشرب بها فرعون. «العير» أصحاب الإبل والحمير، والمقصود إخوة يوسف. **﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾** أي لمن جاء به نعطيه حملاً من القمح مكافأة. **﴿كدنا ليوسف﴾** أي عملنا له حيلة لاستبقاء أخيه.

ع ـ عرضهم أن يمسك أحدهم مكان أخيهم . . ويمتنع

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ. قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ. فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾(٢٢). (رجعوا وقالوا ذلك لأبيهم وأضافوا): ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ. قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ. قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(٢٣).

ف ـ رجوعهم إلى مصر ويوسف يكشف لهم عن نفسه

قال لهم أبوهم يعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ. قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ. قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ. قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ. وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ. قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ. فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٢٤).

---

(٢٢) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيات ٧٧ ـ ٨١. ﴿خلصوا نجياً﴾ أي انفردوا متشاورين بينهم.

(٢٣) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيات ٨١ ـ ٨٦. «بثي» تعني همي.

(٢٤) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيات ٨٧ ـ ٩٨. «تحسسوا» تعني ابحثوا.

س ـ يوسف يؤوي والده وأمه وأخوته

رحل يعقوب وأهله وجميع أبنائه إلى مصر[٢٥] ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ. وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٢٦].

ق ـ خاتمة: مخاطبة محمد: ذلك من أنباء الغيب

في الخاتمة تعود السورة إلى ما قررته في مقدمتها ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[٢٧] مع بيان وتفصيل: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ. وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ. وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ. أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ. حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ. لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٢٨].

---

(٢٥) ورد في التوراة: «فقال فرعون ليوسف لقد جاء إليك أبوك وإخوتك. وأرض مصر أمامك فأنزل أباك وإخوتك في أفضل الأرض» [**الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ٤٥، الآيات ١٧ ـ ١٨].

(٢٦) **القرآن الكريم**، «سورة يوسف،» الآيات ٩٩ ـ ١٠١.

(٢٧) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآية ٣.

(٢٨) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآيات ١٠٢ ـ ١١١. ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ يعترفون بوجود الله ولكنهم يعبدون الأصنام أو يجعلون لله ابناً إلخ.

٣ ـ قصة أهل الكهف في سورة الكهف

وكما نزلت سورة يوسف جواباً عن سؤال لا يخلو من التحدي وجهته قريش إلى النبي ﷺ، تأتي سورة الكهف بعدها (ورتبتها ٦٩) لتجيب على تحد مماثل. فقد ذكر ابن إسحق أن قريشاً بعثت رجلين إلى أحبار اليهود بالمدينة لتستطلع رأيهم في محمد، بعد أن يصفوه لهم، هل هو نبي فعلاً أم لا؟ فأجابهم أحبار اليهود «سلوه عن ثلاث نأمركم بهنَّ: سَلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرُهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب، وسَلوه عن رجل طوَّاف قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربها ما كان نبأه، وسلوه عن الرّوح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل، فهو رجل مُتقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم».

طرحت قريش هذه الأسئلة على النبي (ﷺ) فأجابهم: أخبركم بما سألتم عنه غداً، ولم يستثن[٢٩]، فانصرفوا عنه. ويضيف ابن إسحاق: «فمكث رسول الله ﷺ ـ في ما يذكرون ـ خمسَ عشَرةَ ليلة لا يُحْدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل، حتى أوجف أهلُ مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمسَ عشَرةَ ليلةً، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه؛ وحتى أحزن رسولَ الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجلُ الطواف، والروح»[٣٠].

ذلك هو «سبب نزول هذه السورة» وقد جاء في مقدمتها: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً. قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً. مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً. وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِباً. فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً. إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾**[٣١].

---

(٢٩) لم يعلق إجابته بمشيئة الله، لم يقل: «إن شاء الله».

(٣٠) مسألة الروح ورد الجواب عنها في سورة الإسراء. قال تعالى: **﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾** [**القرآن الكريم**، «سورة الإسراء،» الآية ٨٥].

(٣١) نفس المرجع، «سورة الكهف،» الآيات ١ ـ ٨. **﴿اتخذ الله ولداً﴾** هذا رد تمهيدي على قريش الذين كانوا يقولون نعبد الملائكة «بنات الله». «باخع» أي معذب. **﴿فلعلك باخعٌ نفسك﴾** أي لعل نفسك تتقطع ألماً وأسفاً لكونهم لم يؤمنوا بك. «لنبلوهم» لنختبرهم، « صعيداً جرزاً» زائلاً فانياً.

أ ـ بداية القصة: الفتية نيام في الكهف

بعد ذلك تنتقل السورة إلى موضوعها وهو الرد على أسئلة قريش فتبدأ بقصة أصحاب الكهف(٣٢). يقول تعالى مخاطباً نبيه الكريم: **﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً. إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً. فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً. نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً. هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً. وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً. وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تزاورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْه ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجدَ لَهُ وَلِياً مُرْشِدا. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾**(٣٣).

ب ـ إيقاظ أهل الكهف والاختلاف في مدة نومهم

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُم فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدا. إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا

---

(٣٢) لم ترد هذه القصة لا في التوراة ولا في الأناجيل، ولكن المؤرخين والمفسرين أطنبوا في محاولة تحديد هوية أصحاب الكهف، وقد اختلفوا في ذلك اختلافاً كبيراً. وقد أورد بن عاشور في تفسيره روايات كثيرة حول الموضوع، فلتنظر هناك. راجع: محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير.**

(٣٣) **القرآن الكريم،** «سورة الكهف،» الآيات ٩ ـ ١٨ . «الكهف والرقيم» اختلفوا في معنى الرقيم، فقيل هو كلبهم، وقيل هو اللوح الذي كتبت فيه أسماؤهم، وقيل إنه اسم القرية التي فيها الكهف. وقريباً من العاصمة الأردنية كهف فيه مقابر يقال إنه هو المقصود. **﴿كانوا من آياتنا عجباً﴾** المعنى: هل تظن أن خبر أصحاب الكهف أعجب ما في آيات الله؟ كلا، بل هناك ما هو أعجب: «خلق السماوات والأرض. . .». **﴿إذ أوى الفتية﴾** قيل إن أصحاب الكهف كانوا موحدين مستنكرين عبادة الأصنام فهربوا إلى الكهف من متابعة قومهم لهم. **﴿فضربنا على آذانهم﴾** أي أنمناهم. «بعثناهم» أي أيقظناهم. «أي الحزبين» هذا يقتضي أنهم انقسموا حول تعيين مدة «نومهم» إلى فريقين. **﴿وربطنا على قلوبهم﴾** أي قوينا من عزيمتهم. **﴿. . . لن ندعو من دونه. . . شططاً﴾** والمقصود إن نحن عبدنا غير الله. **﴿وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون﴾** اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون. **﴿إلا الله فأووا. . . مرفقاً﴾** ما به تحفظون حياتكم. **﴿تزاور عن كهفهم﴾** أي تميل عنه. «تقرضهم» تعني تتركهم، «الوصيد» هو فناء الكهف.

عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً. وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً. سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ. . .﴾(٣٤).

يلي ذلك التفاتة خطابية إلى الرسول ﷺ، في جملة اعتراضية: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً. وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً. إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾(٣٥).

ثم يعود الكلام إلى القصة، معطوفاً على قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ. . .﴾ ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً. قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾(٣٦).

ج ـ خاتمة

وكما هو الحال في معظم القصص في القرآن تنتهي قصة الكهف بخاتمة تخاطب النبي ﷺ، لتؤكد نبوّته وتحثه على الصبر وتعطي الخيار للناس أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا، فذلك لا يغيّر من كون ما أنزل عليه هو الحق من ربهم. وتتميز هذه الخاتمة بمناسبتها لأهل الكهف، وهم الفتية الفقراء الذين آمنوا فخافوا من اضطهاد الملإ من قومهم، كما هو حال المستضعَفين من المؤمنين بالدعوة المحمدية، ولذلك يأمر تعالى رسوله الكريم بالعناية بالمؤمنين المستضعفين والانصراف عن زينة الحياة الدنيا وأهلها ممن اتبعوا أهواءهم، ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً. وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً. وَقُلِ الْحَقُّ

---

(٣٤) نفس المرجع، «سورة الكهف،» الآيات ١٩ ـ ٢٢. «ورقكم» تعني نقودكم، و«يظهروا» تعني يطلعوا. ﴿أعثرنا عليهم﴾ أي اكتشف الناس أمرهم بسبب تلك النقود. ﴿غلبوا على أمرهم﴾ أي أصحاب النفوذ فيهم.

(٣٥) نفس المرجع، «سورة الكهف،» الآيات ٢٢ ـ ٢٤. «تمار» تعني تجادل. ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ أي إلا أن تقول إن شاء الله واذكر ربك إذا نسيت أن تقولها.

(٣٦) نفس المرجع، «سورة الكهف،» الآيتان ٢٥ ـ ٢٦. وقالوا لبثوا: معطوف على سيقولون. . .

مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوه بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾[٣٧].

٤ ـ قصة ذي القرنين

أ ـ من هو ذو القرنين؟

كان ذلك جواب السؤال الأول الذي طرحته قريش على النبي (ﷺ) والمتعلق بأهل الكهف. أما الجواب عن السؤال الثاني والمتعلق بذي القرنين[٣٨] فقد ورد في السورة نفسها بعد قصة أهل الكهف وقصص أخرى. يقول تعالى بصدد ذي القرنين:

ب ـ فتوحاته: غرباً وشرقاً

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً فَأَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً. ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً. كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً. ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً. حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً. قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَداً. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ

---

(٣٧) نفس المرجع، «سورة الكهف،» الآيات ٢٧ ـ ٢٩. ويقصد بالعبارات التالية: «ملتحداً» ملجأ، «تعد» تصرف، «فرطاً» إسرافاً، «المهل» درديّ الزيت.

(٣٨) لم ترد هذه القصة لا في التوراة ولا في الإنجيل. وقد اختلف المفسرون في المقصود بـ «ذي القرنين» فذهب معظمهم إلى أنه الإسكندر المقدوني وذكروا عدة روايات في الموضوع. وقد ناقش بن عاشور في تفسيره تلك الروايات من منظور أن ما ذكر في القرآن عن «ذي القرنين» لا ينطبق على ما عرف عن الإسكندر المقدوني تاريخياً. وانتهى إلى القول بان الأمر يتعلق بملك صيني لكون قصته في القرآن يمكن أن تنطبق على هذا الملك. . . » فهو الذي بنى السد الفاصل بين الصين ومنغوليا. . . ولما ظن كثير من الناس أن ذا القرنين المذكور في القرآن هو إسكندر بن فيليبوس نحلوه بناء السد. وزعموا أنه من صنعه كما نحلوه لقب ذي القرنين، ثم يضيف. وكل ذلك بناء أوهام على أوهام ولا أساس لواحد منهما ولا علاقة لإسكندر المقدوني بقصة ذي القرنين المذكورة في هذه السورة». راجع: بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**.

عَلَيْهِ قِطْراً فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبا. قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا. وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جمعاً﴾(٣٩).

ج ـ خاتمة

وجاءت الخاتمة لتربط بين قصة ذي القرنين وبين خطاب الدعوة المحمدية حول شجب عبادة الأصنام واتخاذ أولياء من دون الله وحول البعث والجنة والنار، ثم لتقرر أن «كلمات الله» أي الوحي الذي يأتي محمداً لا حدود لها، فهي أوسع من التوراة التي يفخر بها اليهود، ولتؤكد مرة أخرى أن ما يدعو إليه النبي ﷺ من عبادة إله واحد وتجنُّب الشرك به، وما يحكيه من قصص تؤكد هذا المعنى، إن هو إلا وحي يوحى إليه: ﴿ . . . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً. وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضا. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً. أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلا. قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً. خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً. قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً. قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾(٤٠).

---

(٣٩) **القرآن الكريم**، «سورة الكهف،» الآيات ٨٣ ـ ٩٩. ﴿**من كل شيء سبباً**﴾ أي طريقاً يوصله إلى مراده. ﴿**فأتبع سبباً**﴾ أي اتجه نحو الغرب. ﴿**ووجد عندها قوماً**﴾ وجد عندها قوماً كفاراً. ﴿**تتخذ فيهم حسناً**﴾ والمقصود هنا أن تقتل هؤلاء وإما أن تتخذهم أسرى. ﴿**ثم أتبع سبباً**﴾ اتجه نحو الشرق. ﴿**من دونها ستراً**﴾ أي لا لباساً ولا سقفاً. ﴿**وقد أحطنا بما لديه خبراً**﴾ أحطنا بما لديه من الجند والعتاد والعلماء. ﴿**يأجوج ومأجوج**﴾ ياجوج وماجوج في تصور الجغرافيين القدماء هم من سكان شواطئ شرق آسيا (شواطئ روسيا وما تحتها جنوباً). ﴿**مفسدون في الأرض**﴾ بالنهب وقطع الطرق. ﴿**فهل نجعل لك خرجاً**﴾ أي هل نقدم لك مالاً؟ ﴿**أجعل بينكم وبينهم ردماً**﴾ أي أجعل بينكم وبينهم حاجزاً حصيناً. ﴿**قال آتوني أفرغ عليه قطراً**﴾ أي آتوني قطع الحديد لما جاءوه بها أخذ في بناء السد حتى إذا ساوى بين الجبلين بتلك القطع ووضع بجانبها الحطب والمنافخ، قال: «انفخوا» فجعل الحديد ملتهباً كالنار فقال آتوني أفرغ عليه نحاساً مذاباً. ﴿**فما استطاعوا أن يظهروه**﴾ أي ما استطاع ياجوج وماجوج أن يجتازوا السد. ﴿**وتركنا بعضهم يؤمئذ يموج في بعض**﴾ تركنا بعض ياجوج وماجوج يموج في بعض حتى حان قيام الساعة.

(٤٠) نفس المرجع، «سورة الكهف،» الآيات ٩٩ ـ ١١٠. ﴿**ونفخ في الصور**﴾ أي حين حان يوم القيامة.

٥ ـ موسى والخضر؟ سورة الكهف

أ ـ القصة كما رواها البخاري عن النبي (ﷺ)

ومن القصص التي عرضتها سورة الكهف قصة فتى موسى، ويسمى في التراث الإسلامي بـ «الخضر»[٤١]. وقد روى البخاري حديثاً[٤٢] عن ابن عباس يلخص القصة بأسلوب آخر. ونص الحديث أن النبي (ﷺ) قال: «قام موسى النبي خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه، إذ لم يَردَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين، هو أعلم منك. قال: يا رب، وكيف به؟ فقيل له: احمل حوتاً في مكتل (شبكة)، فإذا فقدته فهو ثَمّ، فانطلق بفتاه يوشع بن نون، وحمل حوتاً في مكتل، حتى كانا عند الصخرة، وضعا رأسيهما وناما، فانسلّ الحوت من المكتل فاتخذ سبيله في البحر سَرَباً (خرج)، وكان (ذلك) لموسى وفتاه عجباً. فانطلقا، بقية ليلتهما ويومهما. فلما أصبح، قال موسى لفتاه: **﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾**. ولم يجد موسى مساً من النصب حتى جاوز المكان الذي أمر به. قال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة؟ فإني نسيت الحوت، قال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصاً، فلما انتهيا إلى الصخرة، إذا رجل مسجى بثوب، أو قال تسجّى بثوبه، فسلم موسى، فقال (الرجل: الخضر): وأنى بأرضك السلام؟ فقال (موسى): أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال (موسى): هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه لا أعلمه. قال: ستجدني إن شاء الله صابراً، ولا أعصي لك أمراً، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة! فمرت بهما سفينة، فكلموهم أن يحملوهما، فعرف الخضر، فحملوهما بغير نَوْل (مجاناً). فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر. فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه، فقال موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: لا

---

(٤١) قيل إن المقصود به هو يشوع بن نون خادم موسى: فتاه. وقد تولى قيادة بني إسرائيل بعد وفاة موسى. راجع: **الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ٣٣. وليس في التوراة ما يشبه قصة الخضر. وقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة مختلفة متعارضة عن «الخضر» لا فائدة في ذكرها. وروى البخاري حديثاً عن النبي ﷺ وردت فيه قصة موسى مع الخضر كما وردت في القرآن تقريباً. ذكرنا هذا الحديث أعلاه.

(٤٢) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري**، الحديث رقم ١٢٢.

تؤاخذني بما نسيت ـ فكانت الأولى من موسى نسياناً ـ فانطلقا، فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده، فقال موسى: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا؟ ـ قال ابن عيينة: وهذا أوكد ـ فانطلقا، حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجد فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه، قام الخضر بيده فأقامه، فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجراً، قال: هذا فراق بيني وبينك». قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما» انتهى حديث البخاري.

ب ـ سياق القصة في سورة الكهف

عرضت سورة الكهف لقصة ذي القرنين في القسم الأخير منها، أما في القسم الأول فقد عرضت لقصة أهل الكهف ثم عرجت على قصة آدم وإبليس، لتنتقل إلى قصة موسى وفتاه، بعد التقديم لها بالمقدمة التالية، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الآنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً. وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبداً. وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً. وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾**(٤٣).

ج ـ موسى وفتاه

بعد هذه المقدمة التي كان الخطاب فيها موجهاً إلى مشركي مكة، لتذكيرهم بأمثالهم من أهل القرى الذي كذبوا رسلهم فكان مصيرهم الهلاك، تنتقل بنا السورة إلى قصة موسى مع فتاه. قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً. فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً. فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً. قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً. قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً. فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ**

---

(٤٣) **القرآن الكريم**، «سورة الكهف،» الآيات ٥٤ ـ ٥٩.

تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً. قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً. قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً. قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً. فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً. فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً. فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً. أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً. وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾(٤٤).

بعد ذلك تنتقل السورة مباشرة إلى قصة ذي القرنين وقد عرضناها أعلاه.

* * *

كان ذلك عرضاً وتحليلاً للقصص في القرآن المكي بمختلف أصنافه ومراحل نزوله. فهل نحتاج إلى تكرار القول حول هذه الأصناف والمراحل؟!

لنكتف بالقول إنها قصص ينتظم كله حول محور واحد هو: قرآن مرحلة الدعوة، القرآني المكي. وسيكون علينا الآن أن ننتقل إلى القرآن المدني لنستكشف خصوصية قصصه بوصفه قصص قرآن مرحلة الدولة.

---

(٤٤) نفس المرجع، «سورة الكهف،» الآيات ٦٠ ـ ٨٢. «لا أبرح» أي لا أفارقك. **﴿مجمع البحرين﴾** اختلف المفسرون في ملتقى البحرين المقصود هنا، فذكروا كل ما كان معروفاً في زمانهم من أماكن تلتقي عندها البحار من الخليج وما وراءه إلى طنجة، مما لا طائل وراء ذكره. والظاهر من القصة أن المقصود هو مصبّ نهر الأردن في بحيرة طبرية. راجع: بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**. **﴿أو أمضي حقباً﴾** أي لا أقف ولو تقدم بي العمر. «سربا» أي هربا. **﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾** أي رجعا على آثارهما يقصان ذلك. **﴿عبداً من عبادنا﴾** هو الخضر. «ينقضّ» على وشك أن يتهدم.

القصص في القرآن المدني

(٥)

المرحلة الثالثة: الجدل مع أهل الكتاب

١ ـ الرسول في المدينة

أ ـ تعدد الخصوم..

كان الجدال الذي خاضه القرآن في مكة مع مشركي قريش يدور في الأعم الأغلب حول عبادة قريش للأصنام وتكذيبها نبوة محمد ﷺ وإنكارها البعث والحساب والجنة والنار. فكان القصص في القرآن المكي، بسياقاته المتنوعة، يخدم الدعوة المحمدية في هذه الموضوعات. أما بعد الهجرة إلى المدينة فالأمر يختلف. ذلك أن المخاطب الذي واجهه القرآن فيها ليس هو نفسه الذي كان في مكة.

كانت تسكن يثرب (المدينة)، عند هجرة النبي إليها، قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج، وثلاث قبائل يهودية هي: بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع. وكانت هناك تجمعات يهودية أخرى في كُلّ من خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى. ومع أن النبي ﷺ قد عقد مع ساكنة يثرب، بما فيهم اليهود، معاهدة تسمى «الصحيفة» (صحيفة النبي) وضع بواسطتها إطاراً للتعايش السلمي والتسامح الدينيّ والاعتراف بالتعدد فإن اليهود سرعان ما أخذوا في التشويش على الإسلام والمسلمين في مجالات مختلفة: فلم يعترفوا بنبوة محمد ﷺ كما اعترف هو بأنبيائهم وكتبهم. وعندما برزت جماعة «المنافقين»[1] وهم الذين أظهروا الإسلام

(١) هم جماعة من الأوس والخزرج تزعمهم عبد الله بن سلول الخزرجي. ويقول كتاب **السيرة** إن حقده على الإسلام راجع إلى أن قومه كانوا بصدد الإعداد لتمليكه عليهم فجاءت هجرة النبي إلى المدينة وأفسدت عليه ذلك.

وأضمروا شيئاً آخر ـ تحالف بعض اليهود معهم ضدّ النبي والمسلمين. وهكذا وجدت الدعوة المحمدية نفسها في المدينة امام خصمين جديدين، إضافة إلى الخصم القديم: اليهود، المنافقون، وقبل ذلك وبعده: مشركو مكة.

في إطار الجدل مع هذا الخصم المتعدد كان يقع ما ورد من القصص في القرآن المدني، وهو قليل نسبياً، وقد جاء جله في شكل تكملة أو توضيح، أو إعادة صياغة لما سبق عرضه في القرآن المكي بما يناسب أسباب النزول.

وإذا كان من الصعب جداً تتبع ما في القرآن المدني حسب ترتيب النزول لكون السورة الواحدة منه تضم آيات عديدة نزلت في أوقات متفرقة تفصل بينها سنوات، فإنه لا مناص لنا من التقيد بترتيب النزول المعتمد للسور المدنية، كما فعلنا في السور المكية، لأنه لا يوجد ما يبرر اختياراً آخر. وإذا كان المفسرون والفقهاء يجدون صعوبات جمة في تحديد تاريخ نزول كثير من آيات الأحكام الشرعيّة التي يتوقف عليها عندهم تحديد الناسخ من المنسوخ ـ وجلّهم يقول بالنسخ ـ فإن المهمة ستكون أصعب بالنسبة إلى تحديد السابق من اللاحق في مجال القصص. وإذاً، فنحن لا ندّعي أن الترتيب الذي سنعرض عليه هذا القصص هو ترتيب النزول لآياته، بل هو ترتيب تابع لترتيب السور، لا غير. على أننا سنعمد، كما فعلنا في القصص المكي، إلى تتبع فصول القصة الواحدة كما وردت في مختلف السور مراعين ترتيب نزول هذه الأخيرة.

سنبدأ إذاً بما نزل في سورة البقرة بوصفها أول ما نزل بالمدينة ـ في المشهور ـ ثُمّ ننتقل إلى ما نزل في نفس الموضوع، في ما تلاها من السور حسب ترتيب النزول، مشيرين كلما كان ذلك ممكناً إلى ما ترتبط به هذه القصة أو تلك من الأحداث والمناسبات التي يعرف تاريخها، مع اللجوء من حين لآخر إلى ما ورد في التوراة في موضوعها بهدف المقارنة التي تعين على الفهم، كما فعلنا في القصص السابقة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا بُدَّ من الإشارة إلى أن مما يلفت الانتباه هنا هو غياب القصص الخاص بالأنبياء غير الواردين في التوراة (صالح، هود، شعيب . . . إلخ). كُلّ ما سيبقى منه هو ذكر أسماء بعض الأقوام الذين تحدث عنهم القصص المكي، ذكراً استعراضياً، للتذكير بالمصير الذي لحقهم نتيجة تكذيبهم لأنبيائهم، وذلك على غرار ما تكرر في القرآن المكي نفسه. أما أنبياء أهل الكتاب، الذين سيتركز الاهتمام بهم هنا، في القرآن المدني، فهم ثلاثة فقط: إبراهيم (وإلى حدّ ما زكريا) وموسى وعيسى. والغالب ما يرد ذلك في خطاب موجه إلى اليهود،

يذكرهم بالنعم التي أنعم الله بها على أسلافهم وبتنكرهم لهذه النعم وسكوتهم عما ورد في التوراة والإنجيل من بشارة بالنبي الأمي محمد (ﷺ).

وهكذا، فعلى العكس مما رأيناه في القرآن المكي من إبراز ما عاناه بنو إسرائيل في تاريخهم المتموّج، نجد القرآن المدني يتوجه إليهم باللوم والعتاب حيناً، وبلهجة الوعيد والانتقام حيناً آخر، وذلك حسب تطور العلاقات بينهم وبين المسلمين، خصوصاً خرقهم المعاهدات التي أبرموها معهم وفي مقدمتها المعاهدة المعروفة بـ «صحيفة النبي» التي كانت بمثابة دستور، أو عقد اجتماعي، سلمي وحربي، بين الرسول والفئات المتساكنة في يثرب عند قدومه إليها مهاجراً. ويهمنا هنا أن نذكر باختصار ما يتعلق منها بضبط العلاقة مع اليهود.

ب ـ صحيفة النبي: المعاهدة مع اليهود

تنص الصحيفة المذكورة على ما يلي بشأن اليهود: إنهم بجميع طوائفهم يشكلون في مجال الحرب، «أمة» (= جماعة) واحدة مع المؤمنين. وهكذا فـ «إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأَثِم فإنه لا يوتغ (= لا يضرّ) إلا نفسه وأهل بيته. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف. . ». وهكذا بالنسبة إلى جميع طوائف اليهود. وتضيف الصحيفة: «إنه لا يخرج منهم ـ من اليهود ـ أحد إلا بإذن محمد (ﷺ)، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا (= على الرضا به)، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم (= في الحرب)، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم (= بين المسلمين واليهود) النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم». ثُمّ تقرر الصحيفة تحريم القتال في يثرب وتنص على الدفاع المشترك عنها. فمن جهة: «إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، لأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها» (أهل يثرب). ومن جهة أخرى: «إن بينهم (= المتعاقدين بهذه الصحيفة) النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كُلّ الناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم».

وتقرر الصحيفة أنّه لا يجوز لمشرك ولا لليهود من أهل يثرب أن يجير أي شيء لقريش، وبمعنى آخر: إنه في حالة الحرب مع قريش، يجب الامتناع عن مساعدتها بأي شكل كان. وهكذا تؤكد الصحيفة: «أنّه لا يجير مشرك (= من أهل يثرب) مالاً

لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مزمن»، وأيضاً: «وإنه لات ـ جُارُ قريش ولا من نصرها» (والكلام هنا مع اليهود). . كما تقرر الصحيفة أن المرجع في الخلاف هو محمد (ﷺ) سواء كان الخلاف بين المؤمنين والمسلمين بعضهم مع بعض أو بينهم وبين اليهود. فهي تؤكد، والخطاب لليهود: «إنه ما كان بين هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عزّ وجل وإلى محمد رسول الله، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه».

وتختم الصحيفة بالتأكيد على أن العلاقات في يثرب يجب أن تبنى على البر وحسن المعاملة والحرص على الأمن فتقول: «وإن البرّ دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله» جار له كذلك[٢].

٢ ـ ترتيب الجدل في المدينة مع أهل الكتاب

ولا بُدَّ من الإشارة هنا إلى أن ترتيب الجدل مع أهل الكتاب في القرآن المدني قد بدأ مع بني إسرائيل، حتّى إذا هجروا المدينة ـ في خاتمة الصراع بينهم وبين المسلمين ـ انصرف القرآن إلى محاجّة النصارى، خصوصاً في مسألة التثليث. وسنبين ظروف وملابسات ذلك في حينه. وفي كلتا الحالتين فالأمر لا يتعلق بسرد قصصي كما كان الأمر في مكة بل بخطاب جدلي تستعمل فيه عناصر من القصص المكي إضافة إلى قصص أخرى أو عناصر جديدة في قصص سابقة. وكما سنلاحظ ستختلف لهجة هذا الخطاب باختلاف الظروف والمناسبات، وبكيفية عامة يبدأ الخطاب ليناً وفاقاً مع قوله تعالى في سورة العنكبوت عندما كان النبي بمكة يتهيأ للهجرة: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلٰهُنَا وَإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[٣].

فعلاً بدأ الجدل في القرآن المدني مع أهل الكتاب على هذا الأساس، وعندما أخذ اليهود يستفزون المسلمين ويتحرشون بهم أخذ يتدرج نحو الشدة والتعنيف، ثمّ

---

(٢) راجع تحليلنا للنص الكامل لهذه الوثيقة في: محمد عابد الجابري، «من الدعوة إلى الدولة: القبيلة،» في: محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته**، نقد العقل العربي؛ ٣، ط ٥ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤)، الفقرة ٥.

(٣) **القرآن الكريم**، «سورة العنكبوت،» الآية ٤٦.

ازداد شدة وقوة عندما صارت مواقفهم من المسلمين تكتسي طابعاً عدوانياً صريحاً، مما كانت نتيجته قيام صدام وقتال بين الطرفين ثُمّ جلاء اليهود نهائياً عن المدينة كما سنرى.

يبقى أن نشير إلى أن سورة البقرة، وهي أولى السور التي نزلت بالمدينة، حسب المشهور، تدشّن القصص في القرآن المدني باستعادة قصة آدم وإبليس في سياق جديد يضيف عنصرين جديدين إلى ما ورد عنها في القرآن المكي. فلتكن بدايتنا هنا منها.

أ ـ قصة آدم: سياق آخر

وردت قصة آدم وإبليس في سورة البقرة في سياق الجدل مع اليهود، فقد وصفتهم السورة بأنهم: **﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ويُفْسِدُونَ في الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾**(٤).

في هذا السياق توجه السورة إليهم السؤال التالي: **﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**(٥). ثُمّ تذكرهم، وتذكر البشر جميعاً من خلالهم، بما وفّره الله لهم من إمكانيات العيش على الأرض، فنقرأ: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا في الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**(٦).

ب ـ اعتراض الملائكة على خلق آدم غير اعتراض إبليس

وهناك في السماء (السابعة) ـ وهذا عنصر جديد تماماً لم يذكر في قصة آدم كما وردت في القرآن المكي ـ أخبر الله ملائكته أنّه خلق آدم خليفة في الأرض فقال لهم: **﴿إِنِّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾**(٧).

وما يجب إبرازه هنا هو أن اعتراض الملائكة على جعل الإنسان في الأرض

---

(٤) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٢٧. **﴿يفسدون في الأرض﴾** أي لا يعترفون بالنبي الأمي المصدق للتوراة والإنجيل ويفسدون في الأرض بالتشويش على المسلمين.

(٥) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٢٨. وتعني هذة الآية كيف تفكرون بالله وكنتم تراباً قبل الخلق ثم خلقكم أي بث الحياة فيكم ثم يميتكم عند انقضاء أجلكم، ثم يحييكم يوم البعث والقيامة إما في الجنة وإما في النار.

(٦) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٢٩.

(٧) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٣٠.

مبني على سلوك الإنسان نفسه: ﴿**يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾[٨]، وهو اعتراض يختلف تماماً عن اعتراض إبليس كما رأيناه في القرآن المكي. لقد اعترض إبليس بدافع ذاتي وهو اعتقاده بأنه أفضل من آدم: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾[٩]، أما هنا فالملائكة قد اعترضوا بكون آدم (وذريته) يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، بينما هم «يُسَبِّحُون بِحَمْدِهِ وَيُقَدِّسُون لَه». فما الحاجة إلى آدم وذريته إذاً؟ هذا من جهة، ومن جهة أخرى انتهت القصة في القرآن المكي بطرد كُلّ من إبليس/ الشيطان وآدم وحواء من الجنة وإنزالهم إلى الأرض. وقد كان ردّ فعل إبليس إعلانه الانتقام بأن يستمرّ في تضليل آدم وذريته إلى «يوم الدين». وبذلك صار العدوُّ الأبديُّ للإنسان هو الشيطان وحده: فمن اتبعه ضل عن سبيل الخير ومصيرُه جهنم، ومن لم يتّبعه هُدِي إلى سبيل الخير، ومصيرُه الجنة.

ج ـ الله يخص آدم بمعرفة الأسماء..

كان ذلك في القرآن المكي، أما هنا في القرآن المدني فقد بين الله للملائكة أنّه خصّ آدم بما لم يخصّهم به. قال تعالى ردّاً على الملائكة: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾، (ثُمّ بيَّن ذلك فقال): ﴿**وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[١٠]. (والملائكة تنحصر مهمتهم في التسبيح والتقديس، وبالتالي لم يكن من مهمتهم العلم لا بـ«الأسماء» ولا بـ«المسميات») ولذلك: ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[١١]. وهنا خاطب الله آدم ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[١٢].

ومعرفة الأسماء معناها التمييز بين الأشياء، أي إعطاؤها أسماء تميز بعضها من بعض بما يتّصف به كُلّ منها من صفات تشكّل جوهرها وتجعل منها أنواعاً متميزة[١٣].

---

(٨) وهنا إشارة ضمنية إلى بني إسرائيل، راجع الفقرة السابقة المعنونة «قصة آدم: سياق آخر». في الصفحة السابقة.

(٩) **القرآن الكريم**، «سورة ص،» الآية ٧٦.

(١٠) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٣١.

(١١) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٣٢.

(١٢) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٣٣.

(١٣) ورد في التوراة: «ثم قال الرب الإله ليس مستحسناً أن يبقى آدم وحيداً سأصنع له معيناً مشابهاً له. وكان الرب الإله قد جبل من التراب كل وحوش البرية وطيور الفضاء وأحضرها إلى آدم ليرى بأي أسماء يدعوها فصار كل اسم أطلقه آدم على كل مخلوق حي اسماً له. وهكذا أطلق آدم أسماء على كل الطيور والحيوانات والبهائم» [**الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ٢، الآيات ١٨ ـ ٢٠].

وهذه القدرة التي مُنحها الإنسان للتمييز بين الأشياء، تتم بقوة اسمها العقل. فهو يميز بين الأشخاص والأنواع والأجناس، كما يميز بين الحقّ والباطل. وإذاً فمعنى علّم آدم الأسماء هو: منَح بني آدم العقل أي قوة التمييز بين الخير والشرّ، بين الخطإ والصواب(١٤).

د ـ تاب آدم وقُبلت توبته. فلا خطيئة أصلية

ذلك عن العنصر الجديد الأول الذي ورد في قصة آدم وإبليس في سورة البقرة. أما العنصر الجديد الثاني في هذه القصة، كما نقرؤها في السورة نفسها، فقد أفصحت عنه الآية التالية التي جاءت لتعطي القصة بعداً جديداً. ذلك أن الله عندما أمر آدم وحواء وإبليس بالهبوط من الجنة ألهم آدم أن يطلب التوبة فطلبها وقبلها الله منه. قال تعالى: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾(١٥). وهكذا فالعقل الذي خصّ الله به آدم هداه إلى طريق الخلاص من خطيئته، (بإلهام من الله وهو معنى قوله تعالى: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ**﴾. لقد فهم آدم مدلول هذه الكلمات لأنه مزوّد بعقل يعرف «الأسماء كلها»: لقد عرف من تلك الكلمات أن عليه أن يطلب التوبة ليتخلص هو وذريته من تبعات المعصية التي ارتكبها هو وزوجته في الجنة.

إن الأمر يتعلق هنا بمسألة في غاية الأهمية. ذلك أن الخطيئة التي ارتكبها آدم وحواء في الجنة، بأكلهما من شجرة نهاهما الله عن الاقتراب منها، أقول إن هذه الخطيئة التي بقيت تعتبر في اليهودية والمسيحية «خطيئة أصلية» تلاحق بني آدم منذُ ارتكابها إلى يوم القيامة، هي، من المنظور القرآني، مجرد معصية ارتكبها آدم وزوجه بصفتهما الفردية وأن الله قد محاها وأبطل مفعولها بقبول توبة آدم. وهذا يعني أن إغراء إبليس أو الشيطان لـ «الإنسان» هو إغراء للفرد وليس للنوع. وفي هذا يقول تعالى: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾(١٦). وبهذا يتضح المغزى من قوله تعالى

---

(١٤) هذا التأويل يحتمله النصّ القرآني ولا يحتمله النصّ التوراتي.

(١٥) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيتان ٣٦ ـ ٣٧. ﴿**فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه**﴾ أي أزلهما الشيطان عن الجنة فأخرجهما الله عما كانا فيه. ﴿**وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو**﴾ والمقصود بهم هنا الشيطان وآدم وزوجه: الجن والإنس.

(١٦) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآيتان ٣٨ ـ ٣٩. ﴿**قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما...**﴾ «فإمّا»: فإن ما، و«ما» زائدة. والمعنى: فإنّ ما سيأتيكم.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾: منحه القدرة على التمييز بين الهدى والضلال.

وإذا نحن استعدنا الآن السياق الذي وردت فيه هذه القصة، قصة آدم وإبليس في القرآن المدني، وهو سياق الجدل مع اليهود كما بينا ذلك في مستهل هذه الفقرة، ونظرنا إلى من يتوجه إليه القرآن بالخطاب في الآيات التالية، وهي عديدة مترابطة، أمكن أن نرى بسهولة أن العنصرين الجديدين الذين أضافتهما سورة البقرة إلى قصة آدم وإبليس يشيران بالأصبع (إذا جاز التعبير) إلى يهود المدينة، فهم الذين كفروا برسالة النبي محمد ﷺ وكذبوا بما جاء به من عند الله.

٣ ـ تقريع بني إسرائيل (يهود المدينة)

تنتقل بنا السورة مباشرة بعد الآيتين السابقتين إلى مخاطبة بني إسرائيل. وموضوع الخطاب هنا ليس حكاية قصة من قصص أنبيائهم على أسماع الكفار من أجل حملهم على أخذ العبرة كما كان الشأن في القصص المكي جملة، بل إن موضوع الخطاب هنا هو ـ كما سبق القول ـ تذكيرهم بالنعم التي خصهم الله بها، وتوجيه اللوم والعتاب إليهم لكونهم لم يقدروا هذه النعم، كفروا بها وانحرفوا عما جاءهم به أنبياؤهم ورسلهم، وتنكروا لما يعرفونه من أن النبي محمد قد بشرت به التوراة، فرفضوا الاعتراف به وعاندوه، وأكثر من ذلك عادوه وتحالفوا ضده مع المنافقين في المدينة، ثُمّ مع المشركين في مكة، بل وحاولوا في وقت من الأوقات اغتياله.

أ ـ تذكيرهم بما أنعم الله عليهم ودعوتهم للإسلام!

قال تعالى: **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ. وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ. وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ. أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ. وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾**[١٧].

---

(١٧) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآيات ٤٠ ـ ٤٦. **﴿وآمنوا بما أنزلت... ثمناً قليلاً﴾** هو التكذيب بنبوّة محمد لاسترضاء خصومه المنافقين. **﴿تكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾** تكتمون البشارة بالنبي محمد الواردة في كتابكم. **﴿وأقيموا الصلاة... الراكعين﴾** أي أسلموا وأدوا فروض الإسلام.

بعد هذه العبارات الهادئة التي جاءت وفق منهج الدعوة المحمدية الذي حدده تعالى بقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(١٨) وهو المنهج الذي أكدته سورة العنكبوت حين كان النبي يتهيأ للهجرة إلى المدينة، كما رأينا، تنتقل السورة إلى تذكير يهود المدينة، الذين لم يستجيبوا للدعوة، بما اقترفه أسلافهم من مخالفات لأوامر الله وبتمردهم على نبيهم موسى عليه السلام، مرة بعد مرة. وهكذا تخاطبهم سورة البقرة عارضة عليهم وقائع من تاريخ أسلافهم فتقول(١٩):

ب ـ تذكيرهم بوقائع من تاريخهم، تفصيلها في القرآن المكي

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ. وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ. ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٢٠).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ

---

(١٨) نفس المرجع، «سورة النحل،» الآية ١٢٥.

(١٩) جميع الأمور التي ورد التذكير بها هنا سبق أن فصل القول فيها في القرآن المكي. راجع ما سبق أن أوردناه في قصة موسى خاصة. هذا، وواضح أن استعمال ضمائر الخطاب هنا يقصد به ربط سلوك يهود المدينة، وهم المخاطبون، بسلوك أسلافهم، قوم موسى؛ فكأنهم يكررون مع النبي محمد ﷺ نفس ما اتصف به سلوك أسلافهم مع موسى.

(٢٠) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآيات ٤٩ ـ ٥٢.

بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْر اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[٢١].

---

(٢١) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيات ٥٤ ـ ٦١. **﴿وإذ قال موسى لقومه . . . فاقتلوا أنفسكم﴾** اختلف المفسرون في تأويل هذه العبارة: فبعضهم جعلها على معنى البخع (الندم والأسف الشديد وتعذيب النفس) بينما قال بعضهم: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا من عبدوه. **﴿ثم بعثناكم بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾** ورد في التوراة: «وفي صباح اليوم الثالث [موعد اللقاء مع الرب] حدثت رعود وبروق وخيّم سحاب كثيف على الجبل ودوّى صوت بوق قوي جداً فارتعد كل الشعب الذي في المخيم. فأخرج موسى الشعب من المخيم للقاء الله فوقفوا عند سفح الجبل. وكان جبل سيناء كله مغطى بدخان لأن الرب نزل عليه في هيئة نار وتصاعد دخانه كدخان الأتون واهتز الجبل كله بعنف. وازداد دوي البوق أكثر في ما كان موسى يتكلم والرب يجيبه برعد» [**الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ١٩، الآيات ١٦ ـ ١٩]. وأيضاً قال موسى يخاطب بني إسرائيل: «فلما سمعتم الصوت من وسط الظلام والجبل يشتعِل بالنار أقبل علي جميع قادة أسباطكم وشيوخكم. وقالوا قد أظهر الرب لنا مجده وعظمته وسمعنا صوته من وسط النار ورأينا في هذا اليوم أن الله يخاطب الإنسان فلا يموت. ولكن الآن إن عدنا نسمع صوت الرب إلهنا فإن هذه النار العظيمة تلتهمنا فلماذا نموت. إذ أي بشري سمع صوت الله الحي يتكلم من وسط النار مثلنا وعاش. فتقدم أنت واستمع كلّ ما ينطقُ به الرب إلهنا وخاطبنا بجميع ما يكلمك به فنستمع ونطيع. فسمع الرب حديثكم حين كلمتموني وقال لي لقد سمعت حديث الشعب الذي كلموك به وقد أحسنوا في كل ما قالوه» [«سفر التثنية،» الأصحاح ٥، الآيات ٢٣ ـ ٢٨]. ورد في التوراة بخصوص هذا الموضوع ما يلي ومنه يتضح معنى المن والسلوى: «واشتهى أخلاط الأمم المقيمون بين بني إسرائيل ممن خرجوا معهم من مصر طعام مصر فعاد بنو إسرائيل يبكون قائلين من يطعمنا لحماً. لقد تذكرنا سمك مصر الذي كنا نأكله مجاناً والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم. أما الآن فقد فقدنا شهيتنا وهزلنا وليس أمام أعيننا سوى هذا المن. وكان المن في حجم بذور الكزبرة وشكله مماثلاً للمقل. وكان الشعب يطوفون ليجمعوه ثم يطحنونه بالرحى أو يدقونه في الهاون ويطبخونه في القدور أو يخبزونه على حجارة محماة وكان طعمه كطعم قطائف بزيت. وكان المن ينزل بنزول الندى على المخيم في أثناء الليل. فلما سمع موسى بكاء جميع أفراد الشعب كل أمام خيمته ورأى احتدام غضب الرب الشديد اعتراه الاستياء. فقال موسى للرب لماذا أسأت إلى عبدك ولم ترض عنه حتى إنك حمّلته مسؤولية هذا الشعب. ألعلي حبلت به أو ولدته حتى تقول لي احمله في حضنك كما يحمل المربي الرضيع وقده إلى الأرض التي وعدت به آباءه. من أين أجيء بلحم يكفي هذا الشعب فإنهم يبكون لي قائلين أعطنا لحماً لنأكل. إنني عاجز عن حمل عبء هذا الشعب وحدي لأنه ثقيل علي. إن كنت ستعاملني هكذا فاقتلني إن حظيت برضاك فلا أشهد بليتي. فقال الرب لموسى اجمع إلي سبعين رجلاً من رؤساء إسرائيل ممن تعلم أنهم حقاً شيوخ الشعب وعرفاؤه وأقبل بهم إلى خيمة الاجتماع ليمثلوا معك هناك. فأنزل وأخاطبك هناك وآخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم فيعينونك في حمل مسؤولية الشعب فلا تحملها أنت وحدك. وقل للشعب أن يتقدسوا للغد فيأكلوا لحماً لأنكم قد بكيتم في أذني الرب متسائلين من يطعمنا لحماً لقد كان لنا خير في مصر إن الرب سيعطيكم لحماً فتأكلون. وستأكلونه لا ليوم واحد ولا ليومين ولا لخمسة أيام أو لعشرة أيام ولا لعشرين يوماً. بل لشهر كامل إلى أن تعافوه ويخرج من أنوفكم لأنكم رفضتم الرب الذي في وسطكم وبكيتم لديه قائلين لماذا خرجنا من مصر. فقال موسى هذا الشعب الذي أنا قائم في وسطه نحو ست مئة ألف رجل ما عدا النساء والأطفال وأنت تقول إنك ستعطيهم لحماً ليأكلوا شهراً كاملاً. فمهما ذبح من غنم وبقر أيكفيهم أم يكفيهم لو جمع كل سمك البحر. فقال الرب لموسى هل تعجز يد الرب انتظر الآن لترى إن كان يتحقق كلامي أم لا. فخرج موسى وكلم الشعب بما قاله الرب وجمع سبعين رجلاً =

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢٢).

ج ـ وقتلتم نفساً . . فاذبحوا بقرة: قصة جديدة!

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ

= من رؤسائهم وأوقفهم حول الخيمة. فنزل الرب في سحابة وخاطبه وأخذ من الروح الحال عليه ووضعه على السبعين رئيساً فلما حل عليهم الروح تنبأوا لفترة وتوقفوا. وكان قد بقي اثنان من الشيوخ المسجلين بين السبعين في المخيم لم يأتيا إلى الخيمة اسم أحدهما ألداد واسم الآخر ميداد فحل عليهما الروح فتنبأ في المخيم. فأسرع أحد الشبان وأخبر موسى بذلك. فقال يشوع بن نون مساعد موسى منذ حداثته يا سيدي امنعهما. غير أن موسى قال له هل ملأتك غيرة علي ليت كل شعب الرب يصبحون أنبياء يحل عليهم الرب بروحه. ثم رجع موسى وشيوخ إسرائيل إلى المخيم. فهبت ريح من عند الرب ساقت السماني من جهة البحر وأسقطتها على المخيم نحو مسيرة يوم من كلا جهتيه وحواليه وتراكم حتى بلغ ارتفاعه ذراعين فوق وجه الأرض. فهب الشعب طوال ذلك النهار والليل وكل نهار اليوم التالي يلتقطون السماني فكانت أقل كمية جمعت حوالى عشرة حوامر ثم نشروها حول المخيم لتجف. وإذ كانوا مازالوا يمضغون اللحم احتدم غضب الرب عليهم فأفشى بينهم وبأ مميتاً. فدعوا المكان قبروت هتأوة لأنهم هُناك دفنوا القوم المشتهين. ثم ارتحل الشعب من قبروت هتأوة إلى حضيروت ومكثوا فيها. «هذه القرية» قيل المقصود: بيت المقدس. ﴿**وقولوا حطة**﴾ أي أحطط عنا ذنوبنا.

(٢٢) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيات ٦٣ ـ ٦٦. ﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم . . . تتقون**﴾ ومثله في سورة الأعراف ﴿**وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون**﴾ [«سورة الأعراف،» الآية ١٧١]. وقد ورد في التوراة: «وكان جبل سيناء كله مغطى بدخان لأن الرب نزل عليه في هيئة نار وتصاعد دخانه كدخان الأتون واهتز الجبل كله بعنف» [**الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ١٩، الآية ١٨]. القصة المشار إليها هنا لم ترد في التوراة. ويقول بعض المفسرين إنها «وقعت في زمن داود ﷺ، **وكانت معروفة لعلمائهم وأحبارهم». والمقصود بالاعتداء في السبت مخالفة الأمر الإلهي القاضي بعدم العمل يوم السبت ليتفرغوا فيه للعبادة «فكانت طائفة من سكان أيلة على البحر رأوا تكاثر الحيتان يوم السبت بالشاطئ لأنها إذا لم تر سفن الصيادين وشباكهم أمنت فتقدمت إلى الشاطئ تفتح أفواهها في الماء لابتلاع ما يكون على الشواطئ من آثار الطعام ومن صغير الحيتان وغيرها، فقالوا لو حفرنا لها حياضاً وشرعنا إليها جداول يوم الجمعة فتمسك الحياض الحوت إلى يوم الأحد فنصطادها، وفعلوا ذلك فغضب الله تعالى عليهم لهذا الحرص على الرزق أو لأنهم يشغلون بالهم يوم السبت بالفكر فيما تحصّل لهم. فعاقبهم الله تعالى بما ذكره هنا»، أعني قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾**. وقد اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية: هل المقصود تحويل (مسخ) أجسامهم إلى أجسام القردة، أم إن المقصود «تصيير عقولهم كعقول القردة مع بقاء الهيكل الإنساني». ويقول بن عاشور في تفسيره: إن هذا التأويل الأخير «أقرب للتاريخ إذ لم ينقل مسخ في كتب تاريخ العبرانيين». ويضيف: «ومعنى كونهم قردة أنهم لما لم يتلقوا الشريعة بفهم مقاصدها ومعانيها وأخذوا بصورة الألفاظ فقد أشبهوا العجماوات في وقوفها عند المحسوسات فلم يتميزوا عن العجماوات إلا بالشكل الإنساني، وهذه القردة تشاركهم في هذا الشبه، وهذا معنى قول مجاهد: هو مسخ قلوب لا مسخ ذوات». راجع: محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾(٢٣).

بعد هذا يأتي السبب الذي من أجله طلب منهم ذبح بقرة:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ. فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢٤).

* * *

تلك فقرات وردت في سورة البقرة حول بني إسرائيل، وفيها تذكير ليهود المدينة بالنعم التي خصّ الله بها أسلافهم من دون الناس والتي يعرفونها لأنها مكتوبة عندهم في التوراة. وقد صيغت بصورة لا تخلو من مؤاخذة وعتاب، ومع ذلك فهي لم تبلغ درجة التقريع المباشر، لأن علاقتهم بالمسلمين لم تكن قد بلغت بعد درجة من السوء تستوجب ذلك. أما عندما أخذوا في التحالف مع المنافقين من الأوس والخزرج، والتصريح بالعداء للإسلام، والانزلاق نحو التآمر، فقد اتخذ

(٢٣) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيات ٦٧ - ٧١. ﴿**وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة. . .**﴾لم ترد هذه القصة في القرآن المكي. وذبح البقرة من أجل التكفير عن خطيئة قتلهم نفساً كما سيرد لاحقاً. وقد ورد بشأنها في التوراة ما يلي: «إذا وجدتم قتيلاً ملقى في الحقل في الأرض التي يهبها الرب إلهكم لكم لامتلاكها ولم يعرف قاتله. يقوم شيوخكم وقضاتكم بقياس المسافات الواقعة بين موضع جثة القتيل والمدن المجاورة. فيحضر شيوخ أقرب مدينة إلى الجثة عجلة لم يوضع عليها محراث ولم تجرّ بنير. ويأخذونها إلى واد فيه ماء دائم الجريان لم يحرث فيه ولم يزرع فيكسِرون عنق العجلة في الوادي. ثم يتقدم الكهنة بنو لاوي لأن الرب إلهكم قد اختارهم لخدمته ولإعلان البركة باسم الرب وللقضاء على خصومة وكل ضربة. فيغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبة من الجثة أيديهم فوق العجلة المكسورة العنق في الوادي. ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تشهده. اغفر يا رب لشعبك إسرائيل الذي افتديته ولا تطالبنا بدم بريء سفك في وسط شعبك فيصفح الرب عن سفك هذا الدم. وهكذا تبرأون من سفك الدم البريء في وسطكم إذا صنعتم ما هو صالح في عيني الرب» [**الكتاب المقدس**، «سفر التثنية،» الأصحاح ٢١، الآيات ١ - ٩]. ﴿**إنها بقرة لا فارض ولا بكرٌ عوان**﴾ أي إنها بقرة لا مسنة ولا صغيرة بل متوسطة. ﴿**إنها بقرة لا ذلول تثير . . . لا شية فيها. . .**﴾ المعنى: «إنها بقرة غير مذللة للعمل في حراثة الأرض للزراعة، وغير معدة للسقي من الساقية، وخالية من العيوب جميعها، وليس فيها علامة من لون غير لون جلدها».

(٢٤) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيتان ٧٢ - ٧٣. هنا تقديم وتأخير: والمعنى: قتلتم نفساً فاختلفتم فيها كُلّ يتبرأ من التهمة، فأخرجكم الله من هذه المشكلة بأن طلب منكم أن تذبحوا بقرة وتضربوا المقتول ببعض لحمها ليعود حياً ويخبركم بقاتله. ﴿**فادّارأتم فيها. . .**﴾ أي اختلفتم، كُلّ يتبرأ من الجريمة.

القرآن المدني أسلوباً آخر في التعامل معهم وذلك في آيات أخرى من سورة البقرة نفسها يبدو أنها نزلت بعد الآيات السابقة. وقد سبق أن نبهنا إلى أن سورة البقرة قد نزلت في مدد مختلفة، منها ما نزل في السنة الأولى للهجرة قبل اشتداد الصراع مع اليهود ومنها ما نزل بعدها بسنوات حينما اشتد الصراع معهم.

٤ ـ مسلسل الصراع بين المسلمين واليهود

وهنا لا بُدّ من الوقوف قليلاً مع مسلسل تدهور العلاقات بين النبي ﷺ ويهود المدينة:

بدأ ذلك التدهور عقب قرار النبي ﷺ تحويل القبلة من المسجد الأقصى بالقدس إلى المسجد الحرام بمكة ليكون إيذاناً بقرب حدوث تحوّل تاريخي. وقد جاءت غزوة بدر الكبرى لتعلن عن بداية مرحلة جدية في تاريخ الإسلام. لقد حقق المسلمون في تلك الغزوة على قريش انتصاراً باهراً، أدخل الرعب في قلوب اليهود والمنافقين. لقد رأوا في ذلك الانتصار بداية مسلسل سيؤدي إذا ما استمرّ إلى تركيز سيادة الإسلام على يثرب، ومن ثَمّ الانتصار النهائي على قريش. وفي ما يلي حوادث هذا المسلسل حسب الترتيب الزمني:

السنة الثانية للهجرة: تحويل القبلة، غزوة بدر، هلع اليهود. بدء الصراع الفعلي مع يهود بني قَينُقاع حلفاء الخزرج، وكانوا البادئين في عملية استفزاز المسلمين ومحاولة إظهار قوتهم وتفوقهم على قريش.

السنة الثالثة: حدوث نزاع في سوق الصاغة، التي كانت ليهود بني قينقاع، أدَّى إلى مقتل يهودي ومسلم، ولما رفض بنو قينقاع حلّ النزاع بصورة سلمية وفق ما تنص عليه صحيفة النبي، تطور الأمر إلى أن حاصرهم النبي حتّى استسلموا، فسُمح لهم بالهجرة فخرجوا إلى أذرعات الشام. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ذهب كعب بن الأشرف من بني النضير، بعد غزوة بدر، إلى مكة يُحرِّض أهلها على الأخذ بثأرهم. ثُمّ أخذ بعد عودته ينظم قصائد تَشبَّبَ فيها بنساء المسلمين ونال من أعراضهم وطعن في الرسول وعمل على تحريض الناس ضده.

السنة الرابعة: وفي غزو أُحُد، رفض يهود بني النضير الوقوف إلى جانب المسلمين في الحرب ضدّ قريش كما تنص على ذلك «الصحيفة»، وأكثر من ذلك سلك بعض كبارهم مثل كعب بن الأشرف مسلكاً عدائياً فأخذوا يندبون قتلى بدر من مشركي مكة ويشككون في قوة المسلمين متحالفين في ذلك مع المنافقين. وفي أثناء ذلك دبّرت جماعة منهم مؤامرة لاغتيال النبي بإلقاء حَجَرةٍ كبيرة على رأسه عندما

كان يتجوّل في ديارهم فعلم الرسول بذلك وفشلت المؤامرة. وكان لليهود دور كبير في تشكيل «الأحزاب» وهو التحالف القَبَلي الذي جاء قاصداً المدينة يريد احتلالها وتصفية المسلمين.

لقد تجنّد يهود بني النضير لتأليب جميع خصوم الدعوة المحمدية وتجنيدهم لهذه الحملة، فذهب فريق منهم إلى مكة وقابلوا رؤساء قريش، وحرّضوهم على محاربة المسلمين وفعلوا الشيء نفسه مع قبيلة غطفان، فجهزت قريش وأتباعها جيشاً يرأسهم أبو سفيان. وقد استقبل زعيم بني النضير سلام بن مشكم أبا سفيان بن حرب عندما قدم المدينة في مائتين من أهل مكة وأغار على أطرافها وأحرق دارين وقتل رجلين وقفل عائداً إلى مكة. لقد فشلت الحملة في تحقيق أهدافها، لأن المسلمين حفروا خندقاً (غزوة الخندق) للدفاع عن المدينة، مما مكنها من الصمود لمدّة أشهر. ولما رجع النبي من غزوة الخندق عرج على بني قريظة، الذين نقضوا العهد معه إذ كانوا تحالفوا مع الأحزاب. فطلبوا العفو لكن الرسول رفض، وطلب من أحد رجال الأوس التحكيم بينه وبينهم فحكم ضدهم لخيانتهم العهد الذي كان يربطهم مع الرسول فكان مصيرهم القتل والسبي. أما بنو النضير الذين وقفوا ذلك الموقف العدائي الصريح بتجنيدهم الأحزاب كما ذكرنا فقد أمرهم الرسول بالرحيل عن المدينة، ولما رفضوا وأخذوا يتحصنون ويُعدّون أنفسهم لحرب طويلة متحالفين مع المنافقين، قاتلهم النبي لمدّة عشرين ليلة استسلموا بعدها وخرجوا من المدينة فنزل بعضهم في خيبر، وذهب آخرون إلى الشام.

السنة السادسة: حاول الرسول استمالة زعيم يهود خيبر وثنيه عن عزمه على شنّ حرب على المسلمين مقابل توليته على خيبر فقبل في أول الأمر ثُمّ تراجع وغدر بمن أرسله النبي إليه.

السنة السابعة: كانت خيبر قد تحولت إلى ملجإ لليهود الحانقين ومركزاً للتآمر، فأخذ أهلها في تجميع يهود القرى المجاورة لها كتيماء ووادي القرى لتكوين قوة عسكرية لمحاربة المسلمين. وعندما عاد النبي من صلح الحديبية (آخر العام السادس للهجرة)، أخذ يستعد لفتح خيبر، ففتحها في مطلع العام السابع للهجرة، بعد حصار استسلم فيه أهلها، فتركهم يزرعونها مقابل نصف المحصول. وبعد خيبر، خضع يهود فدك فتركهم النبي في مزارعهم على أن يعطوا النبي نصف المحصول. بعد ذلك غزاً النبي يهود وادي القرى وهزمهم. أما يهود تيماء فقد بعثوا إليه يعلنون استسلامهم وقبول شروط المسلمين.

وبعد خيبر والقرى اليهودية المجاورة انتهت مسألة اليهود ولم يبق إلا فتح مكة. وذلك ما حصل في السنة الموالية: الثامنة.

تلك هي المراحل الرئيسيّة في الصراع بين المسلمين واليهود في المدينة، وقد سجل القرآن بعض مظاهر هذا الصراع في آيات عديدة وسور مختلفة كما سنرى. وستكون البداية من سورة البقرة نفسها.

٥ ـ مواجهة عداء يهود المدينة للإسلام

تنتقل بنا سورة البقرة إذاً إلى مرحلة جديدة من الجدل مع يهود المدينة تتميز بخطاب تقريعي لا يخلو من وعيد وتهديد. فتذكّرهم بخرقهم ميثاق الله معهم وتكذيبهم رسلهم وإنكارهم البُشرى بمجيء نبي جديد بعد أن كانوا يهددون به كفار قريش قبل البعثة المحمدية، ثُمّ تكشف عن ممارستهم العدائية ضدّ النبي والمسلمين، الأمر الذي انتهى إلى القطيعة معهم. قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ. ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُم أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾(٢٥).

---

(٢٥) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآيات ٨٣ ـ ٨٥. في هذه الآيات إشارة إلى ما ورد في الوصايا العشر التي أوحى الله بها إلى موسى حين كلمه في جبل الطور بسيناء، وقد جاء فيها: «أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يهبك إياها الرب إلهك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد زوراً على جارك. لا تشته بيت جارك ولا زوجته ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما له» [**الكتاب المقدس**، «سفر الخروج،» الأصحاح ٢٠، الآيات ١٢ ـ ١٧]. والآيات أعلاه تخاطب يهود المدينة تذكّرهم بميثاق أجدادهم مع الله والتزامهم به لكونهم يحملون التوراة و«يشهدون» ما فيها، أي يقرؤونها. . «هؤلاء» المقصود بهم يهود المدينة. «تظاهرون عليهم» أي تتحالفون ضدهم بالإثم والعدوان. **﴿وإن يأتوكم أسارى تُفادهم وهو محرّم عليكم إخراجهم﴾** هنا تذكرهم السورة بما حدث من اقتتال بين يهود المدينة عندما تحالف فريق منهم (بنو قريظة وبنو النضير) مع الأوس، وتحالف آخرون (بني قينقاع) مع الخزرج، في «يوم بُعاث» قبل الهجرة بخمس سنين، الذي تقاتلت فيه الأوس والخزرج. وخلال الحرب كان اليهود المنتصرون يجلون اليهود المنهزمين من ديارهم ويأسرونهم. وعندما انتهت الحرب جمعوا من المال ما يفدون به اليهود الواقعين أسرى لدى كُلّ من الأوس والخزرج، وقد أثار ذلك دهشة العرب فقالوا لهم: قاتلتموهم بالأمس ثُمّ تفدونهم اليوم؟ فأجاب اليهود قد حرم علينا قتالهم ولكننا نستحي أن نخذل حلفاءنا وقد أمرنا الله أن نفدي الأسرى. وقد ردّ عليهم القرآن: **﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾** أي تفدون أسراكم، وتقاتلون، وهذا محرّم عليكم؟!

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ. وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ. بِئْسَمَا اشْتَرَوا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِين. إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ. وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ. قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٢٦).

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٧).

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوا بِهِ أَنفُسَهُمْ

---

(٢٦) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيتان ٨٧ ـ ٩٥. **﴿وفريقاً تقتلون﴾** المقصود هنا مثل قتلهم عيسى. **﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾** أي قالوا في مواجهة الدعوة المحمدية إن قلوبنا مغلفة لا تسمع ولن تسمع. **﴿وكانوا من قبل يستفتحون﴾** أي كانوا يهددون خصومهم من كفار مكة قبل قيام الدعوة المحمدية بأن نبياً على وشك الظهور وأنهم سيتحالفون معه ضدهم. والاستفتاح: طلب الفتح والنصر. «ما عرفوا»: أي النبي الذي كانوا يعرفون ظهوره وكانوا يستفتحون به. «بغياً» أي حسداً منهم. «بما وراءه» أي بما أنزل بعده: القرآن. **﴿خذوا ما آتيناكم﴾** أي خذوا الوصايا العشر التي أنزلت على موسى. **﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾** هنا بمعنى أغرموا به.

(٢٧) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآيتان ٩٧ ـ ٩٨. في التوراة ذُكر أن النبي دانيال قد رأى رؤيا فعبرها له جبريل بكون أورشليم سيكون مصيرها الخراب قريباً. ولهذا رأى اليهود في جبريل الذي يأتي بالوحي للنبي محمد ﷺ، نذير شؤم، رأوا فيه عدوهم. راجع: **الكتاب المقدس**، «سفر دانيال،» الأصحاحان ٨ ـ ٩.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ. مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٢٨).

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢٩).

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ. الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٣٠).

٦ ـ الرجوع إلى إبراهيم جدّ العرب . .

بعد هذه الآيات التي تسجل مظاهر من عدم استجابة اليهود للدعوة المحمدية ووقوفهم منها موقف العناد والرفض، تنتقل بنا سورة البقرة إلى ذلك الحدث التاريخي الذي سيسجل نوعاً من القطيعة بين المسلمين واليهود. إنه تحويل قبلة المسلمين، من المسجد الأقصى حيث كان اليهود يصلون، إلى المسجد الحرام بمكة. وقد مهدت

(٢٨) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيات ١٠٢ ـ ١٠٥. «هاروت وماروت»: اختلف المفسرون في معنى هاروت وماروت وانساقوا في ذلك مع الإسرائيليات فذكروا قصصاً خرافية. وقد ندد بن عاشور بذلك وقال: وهاروت وماروت، بدل من الملكين، وهما اسمان كلدانيان دخلهما تغيير التعريف لإجرائهما على خفة الأوزان العربية، والظاهر أن هاروت معرب هاروكا وهو اسم القمر عند الكلدانيين وأن ماروت معرب ماروداخ وهو اسم المشتري عندهم، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة من المعبودات المقدسة التي هي دون الآلهة ولاسيما القمر فإنه أشدّ الكواكب تأثيراً عندهم في هذا العالم وهو رمز الأنثى، وكذلك المشتري فهو أشرف الكواكب السبعة عندهم ولعله كان رمز الذكر عندهم كما كان بعل عند الكنعانيين الفنيقيين. ومن المعلوم أن إسناد هذا التقديس للكواكب ناشئ عن اعتقادهم أنهم كانوا من الصالحين المقدسين وأنهم بعد موتهم رفعوا للسماء في صورة الكواكب فيكون هاروكا وماروداخ قد كانا من قدماء علمائهم وصالحيهم والحاكمين في البلاد وهما اللذان وضعا السحر. ﴿**إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون**﴾ ويتوجه الكلام هنا إلى اليهود. ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا**﴾ قيل إن سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا إذا ألقى النبي عليهم القرآن طلبوا منه أن يراعيهم فلا يسرع في إلقائه حتّى يعوه، فيقولون: راعنا يا رسول الله، راعي وضعنا ولا تعجل. وهذه الكلمة «راعنا» كان يقولها اليهود للنبي وهي عندهم تحمّل معنى الشتم والسب. فجاءت الآية تطلب من المسلمين عدم استعمال تلك الكلمة في مخاطبة الرسول. انظر لاحقاً: آيات من سورة النساء.

(٢٩) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ١٠٩.

(٣٠) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآيتان ١٢٠ ـ ١٢١.

السورة لهذا الحدث بالتذكير بجوانب من سيرة شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

كان الحديث عن إبراهيم في القصص المكي يدور حول صراعه مع أبيه وقومه، وكان موضوع الصراع هو عبادة الأصنام. وكما رأينا فقد انتهى ذلك الصراع بإصرار قومه على رفض دعوته إياهم إلى ترك عبادة الأصنام، وقرارهم التخلص منه بإحراقه في النار، فتدخلت الإرادة الإلهية، فقال الله للنار: ﴿**يا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾[٣١]، وخرج إبراهيم منها سالماً.

كانت قصة إبراهيم بمختلف صيغها في المرحلة المكية تندرج في إطار القصص المكي الذي كان في جملته يدعو قريشاً إلى استخلاص العبرة مما لحق بالأقوام الذين كذبوا أنبياءهم من هلاك وتدمير، وما خصّ الله به أنبياءه من معجزات جعلتهم ينتصرون ويفلتون من مؤامرات خصومهم. أما هنا في المدينة، حيثُ أخذ الصراع مع اليهود يشتد، فالأمر يختلف. ولذلك كان لا بُدَّ من العودة إلى شيخ الأنبياء جدّ العرب واليهود، لإعادة ترتيب العلاقة بين الجد وحفدته، بما يؤسس لعملية تحويل القبلة ويعطيها السند التاريخي.

أ ـ تحويل القبلة: إبراهيم إماماً. .

يقول تعالى مخاطباً رسوله الكريم:

﴿**وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ. وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِم رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ**

---

(٣١) نفس المرجع، «سورة الأنبياء،» الآية ٦٩.

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ. قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ. قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ. أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣٢).

---

(٣٢) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآيات ١٢٣ ـ ١٤١. **﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه . . . عهدي الظالمين﴾** ورد في التوراة في ما يشبه هذا المعنى ما يلي: «وعندما كان أبرام في التاسعة والتسعين من عمره ظهر له الرب قائلاً أنا هو الله القدير سر أمامي وكن كاملاً. فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثّر نسلك جداً. فسقط أبرام على وجهه فخاطبه الله قائلاً. ها أنا أقطع لك عهدي فتكون أباً لأمم كثيرة. ولن يدعى اسمك بعد الآن أبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم. وأصيّرك مثمراً جداً وأجعل أمماً تتفرع منك ويخرج من نسلك ملوك. وأقيم عهدي الأبدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك جيلاً بعد جيل فأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأهبك أنت وذريتك من بعدك جميع أرض كنعان التي نزلت فيها غريباً ملكاً أبدياً وأكون لهم إلهاً. وقال الرب لإبراهيم أما أنت فاحفظ عهدي أنت وذريتك من بعدك مدى أجيالهم. هذا هو عهدي الذي بيني وبينك وبين ذريتك من بعدك الذي عليكم أن تحفظوه أن يختتن كل ذكر منكم. تختنون رأس قلفة غرلتكم فتكون علامةالعهد الذي بيني وبينكم. تختنون على مدى أجيالكم كل ذكر فيكم ابن ثمانية أيام سواء كان المولود من ذريتك أو كان ابناً لغريب مشترى بمالك ممن ليس من نسلك. فعلى كل وليد سواء ولد في بيتك أم اشتري بمال أن يختن فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. أما الذكر الأغلف الذي لم يختن فيستأصل من بين قومه لأنه نكث عهدي» [**الكتاب المقدس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ١٧، الآيات ١ ـ ١٤]. أبرام فمعناه الأب الرفيع، أما إبراهيم فمعناه أب لجمهور. **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾** أي جعلنا الكعبة مقصداً للناس. «مقام إبراهيم» المكان الذي كان يضع عليه رجليه وهو يبني الكعبة. «ذريتنا» العرب: ذرية إبراهيم من ابنه إسماعيل. **﴿ربنا وابعث فيهم . . . العزيز الحكيم﴾** في التوراة قصة أخرى شبيهة ورد فيها: «وقال الرب لأبرام [عندما ارتحل مع أبيه وأهله من بلده أور بأرض الكلدانيين واستقرّ في حاران] اترك أرضك وعشيرتك وبيت أبيك واذهب إلى الأرض التي أريك. فأجعل منك أمة كبيرة وأباركك وأعظّم اسمك وتكون بركة لكثيرين. وأبارك مباركيك وألعن لاعنيك وتتبارك فيك جميع أمم الأرض. فارتحل أبرام كما أمره الرب. . . وانطلقوا جميعاً إلى أرض كنعان إلى أن وصلوها. فشرع أبرام يتنقل في الأرض إلى أن بلغ موضع شكيم إلى سهل مورة وكان الكنعانيون آنئذ يقطنون تلك الأرض. وظهر الرب لأبرام وقال له سأعطي هذه الأرض لذريتك فبنى أبرام هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له. وانتقل من هناك إلى الجبل شرقي بنت إيل حيث نصب خيامه ما بين بيت إيل غرباً وعاي شرقاً وشيد هناك مذبحاً للرب ودعا باسمه. ثم تابع أبرام ارتحاله نحو الجنوب. لأن المجاعة كانت شديدة في الأرض» [«سفر التكوين،» الأصحاح ١٢، الآيات ١ ـ ١٠]. «سفه نفسه» وتعني أهانها واستخف بها. **﴿إبراهيم بنيه ويعقوب﴾** وهو حفيده كذلك وصى بها بنيه. **﴿أم كنتم شهداء﴾** أي إن كنتم أيها اليهود شهداء. **﴿صبغة الله﴾** =

ب ـ . . والبيت مثاباً للناس!

إبراهيم هو الذي بنى الكعبة ومعه ابنه إسماعيل جدّ العرب. وإذاً فالتوجه إليهما هو توجّه إلى البيت الذي رفع إبراهيم قواعده وبارك فيه وجعله مسكناً لذريته، وبالتالي فهو أولى أن يكون قبلة للمسلين. وهكذا، فبعد إعادة ترتيب العلاقة بين العرب وإبراهيم يأتي الإعلان عن تغيير قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام؛ فلننظر ما سيكون ردّ فعل اليهود وغيرهم على هذا القرار:

قال تعالى:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ. قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ. وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٣٣).

٧ ـ طالوت وجالوت: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾(٣٤)

بعد الذي تقدم من الجدل مع بني إسرائيل وإعلان تحويل القبلة تنتقل بنا سورة

= أي ألزموا أيها المسلمون فطرة الله. والمقصود: دين إبراهيم، دين الفطرة، دين الحنيفية. **﴿أم تقولون إن إبراهيم. . . هوداً أو نصارى﴾** . . . وقد عاشوا قبل نزول التوراة والإنجيل. **﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾** أي أأنتم أعلم أم الله الذي أخبر في القرآن أنهم كانوا مسلمين؟ **﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾** كما تكتمون ما في التوراة والإنجيل من البشارة بالنبي محمد.

(٣٣) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيات ١٤٢ ـ ١٤٥. «السفهاء» والمقصود بهم اليهود والمنافقون. «قبلتهم» أي بيت المقدس. **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾** أي جعلناكم يا أمة محمد أمة وسطاً بتحويل القبلة إل مكة. مكة وسط جغرافي: اليهود يصلون إلى بيت المقدس في الشمال الغربي لمكة، والنصارى يصلون إلى الشرق، والمسلمون إلى مكة. فلكل قبلته. والإسلام دين الوسط، والمسلمون «أمة وسط». **﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾** أي لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا أو يوم القيامة. **﴿من يتبع الرسول﴾** أي من يتبع الرسول في التحول عنها. **﴿إلا على الذين هدى الله﴾** المعنى: تحويل القبلة أمر كبير الشأن وصعب على النفوس إلا على الذين هدى الله. وقد روي: «أن القبلة لما حُوِّلت ارتد من المسلمين قوم ونافق قوم». . **﴿قد نرى تقلب وجهك. . . يعملون﴾** أي التحول إلى الكعبة.

(٣٤) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٢٤٩.

البقرة إلى قصة تشعر بغزوة بدر الكبرى حين انتصر المسلمون وهم قلة، على المشركين وكانوا أكثر منهم عدداً. إنها قصة طالوت وجالوت(٣٥). ثُمّ تختم السورة بآيات تتعلق بتنظيم شؤون المسلمين. وستأتي سورة الأنفال التي تلي سورة البقرة على مستوى ترتيب النزول لتختص بعرض تفاصيل عن تلك الغزوة الكبرى فلتنظر هناك. أما هنا فسنقتصر على ما له علاقة بالقصص والجدل مع أهل الكتاب.

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

---

(٣٥) لم ترد هذه القصة في القرآن المكي مثلها مثل «قصة البقرة» المذكورة آنفاً. ولعل أقرب الوقائع التي تحكيها التوراة إلى قصة طالوت وجالوت كما عرضها القرآن ما ورد في سفر صموئيل الأول، عندما خاض الإسرائيليون حروباً مريرة حين رجوعهم من مصر ووفاة موسى وتولي رجال آخرين قيادتهم ومنهم النبي صموئيل الأول الذي كان من جماعة القضاة الذين كانوا يدبرون شأن الشعب اليهودي. ومنه طلب الإسرائيليون أن ينصبّ عليهم ملكاً يقودهم في حربهم ضدّ الفلسطينيين، فنصّب شاوول ـ وهو المعبر عنه في القرآن بطالوت فقاد جيوشهم التي تعرضت لهزائم منكرة امام الفلسطينيين. وكان قائد الفلسطينيين في إحدى المعارك رجل اسمه «جُلْيَات»، وهو المعبر عنه في القرآن بـ «جالوت». وقد تحدى جليات هذا جيش الإسرائيليين مراراً طالباً منهم تعيين رجل لمبارزته، وقد تصدى داوود الشاب في نهاية الأمر لمبارزة جليات وانتصر عليه. قال في التوراة: «وعندما شاهد داوود الفلسطيني يهبّ متقدماً نحوه أسرع للقائه. ومد يده إلى الجراب وتناول حجراً لوّح به بمقلاعه ورماه فأصاب جبهة الفلسطيني فغاص الحجر في جبهته وسقط جليات على وجهه إلى الأرض» [**الكتاب المقدس**، «سفر صموئيل الأول،» الأصحاح ١٧، الآيتان ٤٨ ـ ٤٩].

بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٣٦).

٨ ـ إبراهيم حنيفاً مسلماً

سورة آل عمران، تعدّ الثانية في ترتيب المصحف بعد البقرة مباشرة. أما في ترتيب النزول فهناك من عدها الثالثة بعد البقرة على أساس أن سورة الأنفال هي الثانية، وذلك لورود آيات في سورة آل عمران تشير إلى غزوة «أحد» التي وقعت في السنة الثالثة للهجرة، بينما اقتصرت سورة الأنفال على ذكر تفاصيل غزوة بدر التي جرت في السنة الثانية. ونحن نميل إلى الرأي الذي عدها الثالثة في ترتيب النزول.

يقول ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة والمفسرون إن القسم الأول منها (أزيد من ثمانين آية) نزل بمناسبة قدوم وفد من نصارى نجران إلى المدينة لمناقشة النبي ﷺ في أمر عيسى وكانوا يعتقدون فيه أنّه «ابن الإله» (عقيدة التثليث). وسنعرض لذلك لاحقاً، أما الآن فسنقتصر على ما يتصل بالموضوع أعلاه (مجادلة اليهود). قال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالآنجِيلُ إلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تعقِلُونَ. هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ. مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣٧).

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ

---

(٣٦) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآيات ٢٤٦ ـ ٢٥٢. ﴿**إذ قالوا لنبيّ لهم**﴾ والمقصود به صموئيل. ﴿**فلما كتب عليهم القتال تولوا**﴾ أي لم يقاتلوا. ﴿**وقال لهم نبيهم**﴾ وهو صموئيل الأول. ﴿**إن الله قد بعث لكم طالوت. . . والجسم**﴾ «كان شاول من أكثر شبان إسرائيل وسامة وأكثرهم طولاً لم يزد طول قامة أحد من الشعب عن ارتفاع كتفيه» [**الكتاب المقدّس**، «سفر صموئيل الأول،» الأصحاح ٩، الآية ٢]. «التّابوت»: الصندوق. وتابوت بني إسرائيل «الصندوق الذي فيه التوراة وبقية من بعض أشياء تركها آل موسى وآل هارون، مثل العصا وفُتات الألواح، وكانوا يحملونه في حروبهم تبركاً به. وفي إحدى معاركهم مع الفلسطينيين انهزموا شرّ هزيمة فأخذه منهم الفلسطينيون، ثُمَ أعادوه إليهم في ما بعد. ﴿**مبتليكم بنهرٍ**﴾ والمقصود بهذا النهر نهر الأردن.

(٣٧) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآيات ٦٤ ـ ٦٨.

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾(٣٨).

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. وَلا تُؤْمِنُوا إِلا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(٣٩).

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ. وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٤٠).

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ. كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٤١).

أ ـ يحرفون الكلام عن مواضعه

وفي سورة النساء آيات في نفس الموضوع، موضوع الجدل مع أهل الكتاب. يقول تعالى:

﴿مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولا. إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ

(٣٨) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآيتان ٩٦ ـ ٩٧.

(٣٩) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآيات ٧٢ ـ ٧٤. ﴿ولا تؤمنوا﴾ أي لا تظهروا ما عندكم.

(٤٠) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآيات ٧٨ ـ ٨٠. ﴿كونوا عباداً لي من دون الله﴾ إشارة إلى طائفة من اليهود قالوا عُزير ابن الله.

(٤١) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآيتان ٨٥ ـ ٨٦. ﴿ومن يتبع غير الإسلام﴾ أي دين إبراهيم.

أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾[٤٢].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً. فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾[٤٣].

وفي سورة الحشر، وقد سميت بهذا الاسم لكونها ذكر فيها «الحشر»، والمقصود حشر يهود بني النضير أي جلاؤهم من ديارهم وذهابهم إلى أريحا وأذرعات بالشام بينما أقام بعضهم في خيبر (انظر أعلاه مسلسل الصراع بين المسلمين واليهود). وفي هذا الموضوع يقول تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ. وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٤٤].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ. لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ. لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ

---

(٤٢) نفس المرجع، «سورة النساء،» الآيات ٤٦ ـ ٤٨. **﴿واسمع غير مسمع وراعنا﴾** وهي كلمة سب عندهم. راجع أيضاً الهامش رقم (٢٢) أعلاه.

(٤٣) نفس المرجع، «سورة النساء،» الآيات ٥١ ـ ٥٥. «الجبت والطاغوت»: قيل الجبت كلمة معربة من الحبشية، وتعني الشيطان. الطاغوت: الأصنام. ومناسبة الآية أن قريشاً قالت لليهود من هو أفضل: ديننا (عبادة الأصنام) أم دين محمد، فأجابهم اليهود دينكم أفضل. «نقيراً» أي أقل شيء.

(٤٤) نفس المرجع، «سورة الحشر،» الآيات ١ ـ ٤. «أول الحشر»: قيل الحشر الأول في الدنيا والحشر الثاني في الآخرة.

بأسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ. كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾(٤٥).

ب ـ الذين حملوا التوراة . .

ويستمر تقريع اليهود في مختلف السور المدنية، من ذلك قوله تعالى في سورة الجمعة:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤٦).

وفي الموضوع نفسه ورد في سورة المائدة:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ. فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤٧).

---

(٤٥) نفس المرجع، «سورة الحشر،» الآيات ١١ ـ ١٧. ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم﴾ أي يقولون للَّذين كَفَرُوا من أهل يهود بني النضير لَئن أخرجكم محمد من دياركم لَنَخْرجن معكُم. ﴿ليولنّ الأدبار﴾ يهربون ويتركونَهم. ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي عداوتُهم لبعضهم عميقة. ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ والمقصود بهم يهود بني قينقاع. ﴿كمثل الشيطان﴾ ومثل هؤلاء المنافقين في إغراء اليهود بالقتال كمثل الشيطان.

(٤٦) نفس المرجع، «سورة الجمعة،» الآيات ٥ ـ ٨.

(٤٧) نفس المرجع، «سورة المائدة،» الآيتان ١٢ ـ ١٣. «اثني عشر نقيباً» النقيب رئيس، قيل المقصود رؤساء القبائل اليهودية (الأسباط) كما أحصاهم موسى. وفي التوراة: «في اليوم الأول من الشهر الثاني [أي شهر نيسان/ أبريل] من السنة الثانية لخروج بني إسرائيل من ديار مصر أمر الرب موسى في برية سيناء في خيمة الاجتماع قائلاً. أحصوا كل ذكر باسمه من شعب إسرائيل حسب قبائلهم وبيوت آبائهم. وعليك أنت وهارون أن تحسبهم وفقاً لفرقهم من ابن عشرين سنة فما فوق من القادرين على القتال في الحرب من إسرائيل. وليكن معكما من كل سبط رجل يتولى رياسة بيت آبائه» [**الكتاب المقدس**، «سفر العدد،» الأصحاح ١، الآيات ١ ـ ٤].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ. يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(٤٨).

٩ ـ درس من ابني آدم: قابيل وهابيل

وهذه آخر قصة نزلت في القرآن المدني ولم تذكر في المرحلة المكية، قصة

---

(٤٨) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة،» الآيات ٢٠ ـ ٢٦. في التوراة أن موسى بعث جواسيس يستكشفون أرض فلسطين عندما كان في طريقة إليها على رأس بني إسرائيل، بعد خروجهم من مصر. ولما عاد الجواسيس أخبروا موسى بنتيجة استكشافهم فقالوا: «قد انطلقنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها فوجدناها تفيض حقاً لبناً وعسلاً وهذه هي ثمارها. غير أن الشعب المستوطن فيها بالغ القوة ومدنه منيعة وعظيمة جداً كما شاهدنا هناك بني عناق. فالعمالقة مقيمون في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والأموريون متمنعون في الجبل والكنعانيون مستوطنون عند البحر وعلى محاذاة الأردن. . .» [**الكتاب المقدس**، «سفر العدد،» الأصحاح ١٣، الآيات ٢٧ ـ ٢٩]. «فرفع الشعب كله صوته وبكى في تلك الليلة. وتذمر على موسى وهارون وقالوا ليتنا متنا في ديار مصر أو ليتنا متنا في الصحراء. لماذا أحضرنا الرب إلى هذه الأرض لنهلك بحد السيف وتؤخذ نساؤنا وأطفالنا سبايا أليس من الأفضل لنا أن نرجع إلى مصر. وقال بعضهم لبعض لننتخب لنا قائداً ونرجع إلى مصر. فخر موسى وهارون على وجهيهما أمام جميع شعب إسرائيل. ومزّق يشوع بن نون وكالب بن يفنة ثيابهما وهما ممن تجسسوا الأرض. وقالا لكل الشعب إن الأرض التي اجتزنا فيها هي أرض خيرات عظيمة جداً. فإن رضي عنا الرب يدخلنا إليها ويهبها لنا أرضاً تفيض لبناً وعسلاً. إنما لا تتمردوا على الرب ولا تجزعوا من شعب الأرض لأننا سنبتلعهم كالخبز فقد تلاشى ظل الحماية عنهم والرب معنا لا ترهبوهم. ولكن الشعب طالب برجمهما بالحجارة. . . قال الرب لموسى وهارون. إلى متى أصفح عن هذة الجماعة الشريرة المتذمرة علي لقد سمعت تذمرهم علي. فقل لهم حيّ أنا يقول الرب لأنزلن بكم كل ما تكلمتم به في مسمعي. إذ تتساقط جثثكم في هذة الصحراء من ابن عشرين سنة وما فوق ممن تم إحصاؤهم وتذمروا عليّ. لن تدخلوا الأرض التي وعدت رافعاً يدي بقسم أن أسكنكم فيها ما عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون. غير أني سأدخل إليها أولادكم الذين ادعيتم أنهم يصبحون أسرى فيتمتعون بالأرض التي أحرقتموها. أما أنتم فإن جثثكم تتساقط في هذا القفر. ويبقى بنوكم في الصحراء أربعين سنة تعانون من فجوركم حتى تبلى جثثكم فيها. وتحملون أوزاركم أربعين سنة كل يوم بسنة على عدد أيام الأربعين التي تجسستم فيها الأرض فتدركون عاقبة ابتعادي عنكم. أنا الرب قد تكلمت وهذا ما سأعاقب به هذه الجماعة الشريرة المتآمرة علي في هذه الصحراء يفنون ويموتون،» [«سفر العدد،» الأصحاح ١٤، الآيات ١ ـ ١٠ و٢٦ ـ ٣٥].

ابني آدم: قابيل وهابيل[٤٩]. وردت في سورة المائدة ورتبتها ١١٢، إنها السورة ما قبل الأخيرة على رأي جمهور المفسرين. أما السياق الذي يؤطرها فهو نفس السياق الذي رأيناه يؤطر النصوص السابقة، سياق التنديد بمواقف اليهود إزاء أنبيائهم وإزاء الرسول ﷺ. وكنقل لتلك المواقف من نطاق «الخاص» إلى نطاق «العام»، جاءت الآيات التالية لتؤكد على أن ظلم اليهود، ونقضهم المواثيق والعهود كظلم ابن آدم لأخيه، وأنه إن همَّ هؤلاء اليهود بالفتك بك يا محمد فقد قتلوا قبلك الأنبياء، وقتل قابيل هابيل، والشرّ قديم. ذلك قوله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[٥٠].

وبناء عليه تقرر السورة، بعد ذلك مباشرة، أن أي عدوان لليهود على المسلمين سيقابل بالمثل كما في شريعتهم نفسها. قال تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[٥١].

ولما كان الأمر كذلك فإن العدل يقتضي أن يكون عقاب الذين يحاربون الله ورسوله من اليهود، الذين يقتلون الأبرياء ويقطعون الطرق ويسلبون الناس

---

(٤٩) في التوراة: وردت قصة قايين وهابيل بعد قصة آدم مباشرة: «وعاشر آدم حواء زوجته فحبلت وولدت قايين إذ قالت اقتنيت رجلاً من عند الرب. ثم عادت فولدت أخاه هابيل وكان هابيل راعياً للغنم أما قايين فقد عمل في فلاحة الأرض» **[الكتاب المقدّس**، «سفر التكوين،» الأصحاح ٤، الآيتان ١ ـ ٢]. ثُمّ قتل قايين لأخيه هابيل كما ورد في القرآن. ولكن الغراب والرمز الذي يرمز إليه لم يرد في التوراة، وإنما ورد فيها أن الربّ حكم على قايين بالتشرد في الأرض.

(٥٠) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة،» الآيات ٢٧ ـ ٣١. **﴿فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾** تقبّل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل. **﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾** المعنى: «أن تحمّل الإثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصاً على قتلك، إضافة إلى إثمك في قتلي». «**سوأة أخيه**» أي جثة أخيه، عورته. يقال: من عادة الغراب أن يبحث عن طعامه ثُمّ يخفيه في الأرض إلى وقت الحاجة إليه.

(٥١) نفس المرجع، «سورة المائدة،» الآية ٣٢.

أموالهم، أشدّ من قتل النفس الواحدة. قال تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٥٢].

١٠ ـ مريم وعيسى

تعرفنا على قصة مريم وميلاد عيسى، عليهما السلام في القرآن المكي: في سورة مريم. وكان سياق القصة هناك يندرج تحت السياق العام للقصص المكي وهو دعوة المكذبين من قريش إلى استخلاص العبرة من تاريخ الأنبياء والرسل، سواء على مستوى المصير الذي لقيه الأقوام الذين كذبوا رسلهم وهو الهلاك، أو على مستوى ما خصّ الله به رسله مَن آيات بينات تثبت صدق نبوتهم. وكما رأينا ذلك في حينه فقد كانت الغاية والعبرة من قصة مريم في القرآن المكي تنتمي إلى هذا المستوى الأخير.

كان القصد منها هناك إثبات قدرة الله على الإتيان بأشياء تخالف ما اعتاد الناس عليه، وهو ما يسمى في اصطلاح المتكلمين بـ «خرق العادة». وهكذا فكما أن الله قادر على أن يمنح الشيخ كبير السن (زكريا) مولوداً من امرأة عاقر، فهو قادر أيضاً على أن يجعل بنتاً بكراً (مريم) تحمل بمولود من غير أن يمسسها بشر، كما هو قادر كذلك على أن يجعل النار تكون برداً وسلاماً على بشر (إبراهيم) يلقى فيها قصد إحراقه . . . إلخ.

أما هنا في القرآن المدني فالسياق الذي وردت فيه هذه القصة يختلف. وكما ذكرنا آنفاً فقد نزلت في المدينة ضمن الآيات الثمانين الأولى من سورة آل عمران، بمناسبة قدوم وفد نجران على الرسول ﷺ، يريدون محاجته في موضوع نبي الله عيسى[٥٣].

---

(٥٢) نفس المرجع، «سورة المائدة،» الآيتان ٣٣ ـ ٣٤. اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية، ونحن نرجّح رواية ابن عباس لأنها أقرب إلى السياق. فقد روي عنه أن هذه الآيات «نزلت بسبب قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فنقضوا العهد وقطعوا السبيل وأفسدوا في الأرض». راجع الروايات الأخرى في: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، **تفسير القرطبي**.

(٥٣) راجع التفاصيل في الفصل ٢ من هذا الكتاب.

أ ـ مريم . . عيسى . . المباهلة . .

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ. قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ. وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ. إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ. إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ. قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٥٤).

ويتكرر التأكيد على بشرية عيسى في عدة آيات في سورتي النساء والمائدة، منها ما يضيف جديداً مثل قوله تعالى:

---

(٥٤) **القرآن الكريم،** «سورة آل عمران،» الآيات ٤٥ ـ ٦٤. الخطاب هنا موجّه لنصارى نجران ويهود المدينة في السنة الثانية للهجرة قبل بلوغ الصراع مع اليهود درجة القطيعة. «كلمة منه» أي كلمة من الله: أمره، كما يتبين بعد. «نبتهل»: نتباهل بأن نقول بهلة الله على الكاذب منا ومنكم. والبهلة بالفتح والضم: اللعنة. وبهله الله لعنه. راجع التفاصيل في الفصل ٢ من هذا الكتاب.

ب ـ وما قتلوه وما صلبوه . .

﴿فبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إلا قَلِيلاً. وبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً. وَقَوْلِهِمْ إنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(٥٥) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إلا الْحَقَّ إنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إنَّمَا اللَّهُ إلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً. لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعا﴾(٥٦).

ج ـ عيسى يبشر بنبي بعده اسمه أحمد

وفي سورة الصف نقرأ قوله تعالى: ﴿وَإذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ إنِّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إلَى الآسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٥٧).

د ـ عيسى والحواريون . .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾(٥٨) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٥٩) إذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ.

---

(٥٥) نفس المرجع، «سورة النساء،» الآيات ١٥٥ ـ ١٥٨.

(٥٦) نفس المرجع، «سورة النساء،» الآيتان ١٧١ ـ ١٧٢.

(٥٧) نفس المرجع، «سورة الصف،» الآيتان ٦ ـ ٧.

(٥٨) نفس المرجع، «سورة الصف،» الآية ١٤.

(٥٩) نفس المرجع، «سورة المائدة،» الآية ١٧.

قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[٦٠].

هـ ـ اليهود: عزير ابن الله! والنصارى عيسى ابن الله!

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِم فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٦١] ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٦٢].

---

(٦٠) نفس المرجع، «سورة المائدة،» الآيات ١١٢ ـ ١١٥. **﴿إذ قال الحواريون يا عيسى... مائدة من السماء﴾** إشارة ـ ربما إلى العشاء الأخير، قبل صلب السيد المسيح.

(٦١) نفس المرجع، «سورة المائدة،» الآيات ١١٦ ـ ١١٨.

(٦٢) نفس المرجع، «سورة التوبة،» الآيتان ٣٠ ـ ٣١.

خاتِمـــة

القصص القرآنِي: بيانٌ وبرهانٌ

وبعد، فلعل القارئ يقدّر معنا الآن أهمية تتبع القصص القرآني باعتماد ترتيب السور حسب النزول بدل ترتيب المصحف. إن ترتيب المصحف يقتضي البدء من سورة البقرة، أي من المرحلة الأخيرة في القص القرآني، مرحلة تقريع يهود المدينة بسبب استفزازاتهم وتحدياتهم للنبي والمسلمين ودخولهم في أحلاف مع المنافقين في المدينة ومع المشركين في مكة، وحبكهم مؤامرات استهدفَ بعضُها اغتيال الرسول نفسه. وكما أوضحنا ذلك في الصفحات الماضية فقد عمد القرآن الكريم في هذه المرحلة، وكردّ على سلوك اليهود ذاك، إلى تذكيرهم بالنعم التي خصهم الله بها والتي عرضها قَصصُ المرحلة المكية كوسيلة من وسائل دعوة قريش إلى استخلاص العبرة من تاريخ الأنبياء والرسل.

ونحن عندما نبرز هنا أهمية اعتماد ترتيب سور القرآن حسب النزول، لا نفعل ذلك على حساب ترتيب المصحف، فنحن مقتنعون بأن هذا الأخير كان هو الأنسب لدولة الإسلام وهي تخطو خطواتها في المدينة بعد وفاة الرسول. ذلك أن التشريع لهذه الدولة، في جميع الميادين، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كان يتطلب فعلاً الرجوع إلى القرآن المدني، فهو قرآن مرحلة الدولة أساساً. وإذا كان جامعو القرآن في المصحف قد أدرجوا سوَراً مكية ضمن السور المدنية، معتمدين في الغالب طول السورة مقياساً للترتيب، فلأن كثيراً من تلك السور المكية تشتمل على تشريعات وأحكام، أخلاقية في الغالب، تنظم حياة المسلمين الشخصيّة وعلاقات بعضهم ببعض، إما بخطاب مباشر (أوامر ونواهٍ وما في معناهما) كما ورد في سورة الأنعام ولقمان، وإما بخطاب غير مباشر، خطاب القص القرآني الذي يعرض كثيراً من شرائع الأنبياء السابقين، (أنبياء أهل الكتاب خاصة)، وهي لا تختلف عما ورد في القرآن إلا في بعض الجزئيات التي ترجع إلى اختلاف البيئة

والعصر. والقرآن يعترف بها ويصدّقها، وفي نفس الوقت يبين ما يجب الاحتفاظ به منها وما يجب تركه.

ترتيب المصحف، إذاً، يبرره «العمل» زمن دولة الخلفاء الراشدين، وقد كان معظم الصحابة أحياء يحملون معهم في ذكرياتهم مسار الدعوة المحمدية بما فيها ترتيب نزول سور القرآن، وبالتالي فهم لم يكونوا في حاجة إلى وضع هذا الترتيب حتّى يفهموا ذلك المسار الذي كان إطاراً لحياتهم الشخصيّة. أما بعد ذلك، وعندما أخذت أجيال جديدة من المسلمين تعمر الساحة، فقد كان طبيعياً لكُلّ من يريد فهم القرآن أو استنباط أحكام منه تغطي المستجدات، أن يشعر بالحاجة إلى معرفة ما اصطلح عليه بـ «أسباب النزول»، الأمر الذي يقتضي ترتيب السور حسب نزولها.

***

كان الشعور بمثل هذه الحاجة هو الذي دفعنا إلى اتباع ترتيب النزول في دراستنا هذه للقصص في القرآن الكريم. إن القصص يشغل حيزاً كبيراً من حجم القرآن، وهو متنوع وفيه تكرار، خاصة في المرحلة المكية. وإذا كانت المرحلة المدنية تكاد تخلو من قصص جديدة، فإن التذكير بِما ورد من قصص في المرحلة المكية يشغل حيزاً كبيراً في القرآني المدني.. فكيف يمكن إذاً تنظيم القول حول القصص القرآني جملة من دون اعتماد خطّ ينتظم هذا التعدد والتنوع؟

إننا لم نرد أن نكرر ما فعله المؤلفون القدامى، وكذلك المحدثون، من الاعتماد على الإسرائيليات التي تحكي ما في التوراة والإنجيل، وبالتالي سرد كُلّ قصة في القرآن ضمن قول واحد كما هي في كتب «أهل الكتاب»، في حين أن معظم القصص في القرآن قد ورد مجزأً، ومكرراً، وعلى شكل فقرات أو فصول مستقلة، وأيضاً لِمناسبات مختلفة.

إن الترتيب حسب النزول قد مكّننا من التقيد بعرض القصص القرآني كما هو فعلاً في القرآن، وأهم من ذلك قد سمح لنا بالتعرف على المنطق الداخلي الذي يحكم طريقة العرض كما وصفناها أعلاه، وهكذا تمكنّا من التمييز بين قصص الأنبياء العرب غير المذكورين في التوراة ولا في الإنجيل، قصص هود نبي قوم عاد، وصالح نبي قوم ثمود... إلخ، وبين قصص أنبياء بني إسرائيل، باعتبار أن لكُلّ واحد من هذين الصنفين مكانه الخاص في مسيرة الدعوة المحمدية:

ـ لقد بدأ القرآن بذكر قصص أنبياء الأقوام التي يصنفها النسابون ضمن «العرب

البائدة»، لأن العرب زمن الدعوة المحمدية وقبلها كانوا يعرفون، بل يرون رأي العين ما تبقّى من آثار مساكن تلك الأقوام ويحملون عنها في مخايلهم قصصاً وأساطير تشكل جزءاً من تراثهم. ولذلك استعمل القرآن قصص هذه الأقوام في الدعوة كوسيلة تشخيصية توضيحية، ملحّاً على قريش، مرات كثيرة، على ضرورة استخلاص الدرس من المصير الذي لحق بتلك الأقوام التي دمّر الله عليهم منازلهم وقصورهم بالزلازل والصواعق لإعراضهم عن أنبيائه وتكذيب رسالاته. . . إلخ، فخاطب قريشاً مراراً وتكراراً بقوله: **﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾**[1]، وبقوله: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾**[2].

ـ وعندما بدأت قريش تحاول مساومة النبي ﷺ وإغرائه بالمال والملك على أن يتخلى عن الدعوة التي يقوم بها، وتدخلوا لدى عمه أبي طالب من أجل هذا الغرض، جاءت سورة «ص» ـ كما بينا ذلك في حينه ـ لتقدم الجواب من خلال عرض قصة داوود وسليمان والملكة بلقيس، ليس فقط لأن مُلك داوود وسليمان كان قد امتد إلى أجزاء من أراضيهم ويعرفون عنهما ما يرويه قصّاصهم، بل أيضاً لأن المَلكة بلقيس، ملكة سبإ العربية اليمنية من جهة، وانهيار سدّ العرم من جهة ثانية، كانا حاضرين في قصصهم ومخايلهم. فكانت قصة داوود وسليمان والمَلكة بلقيس، وهي من قصص التوراة، بمثابة جسر انتقل القصص القرآني عبره من قصص أنبياء «العرب البائدة» إلى قصص أنبياء «أهل الكتاب».

وكما شرحنا ذلك في حينه فإنّ مغزى قصة كُلّ من داوود وسليمان مغزى واحد، وسياقهما التاريخي/ الأخلاقي سياق واحد: داوود وسليمان رفضا الإغراءات، وعلى النبي محمد ﷺ أن يرفض مساومات قريش وإغراءاتها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكما سلّط الله الهلاك على الذين كذبوا رسلهم ولم يُعجزه أن يُظِهر أقوى الملوك، مثل فرعون، بمظهرهم الحقيقي كبشر ضعفاء أمام الموت، فذلك الشأن بالنسبة إلى شخص منحه النبوة والملك وسخر له الحيوان والجن كالملك سليمان: فقد جاءه الأجل وتوفّاه الله وحيداً في قصره متكئاً على عصاه، ولم ينتبه لوفاته لا الجن المسخّر له ولا جنوده من الإنس، الذين استمروا جميعاً في أعمالهم الشاقة التي كلفهم بها، إلى أن أكلت الأرَضة عكّازه فسقط جسمه على الأرض.

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة فاطر،» الآية ٤٤.

(٢) نفس المرجع، «سورة الأنعام،» الآية ١١.

ـ أما عندما قطعت الدعوة المحمدية أشواطاً إلى الأمام، سواء على مستوى الجدل مع قريش أو مع يهود المدينة الذين كانت قريش تبعث إليهم رسلها تستفتيهم في أمر محمد، فيقترحون عليها إحراج النبي الجديد وامتحانه بمواجهته بأسئلة في موضوعات هي عندهم مفصلة في كتبهم، وأيضاً عندما تراكم من القرآن ما يشكل حجمُه حجمَ كتاب أو أكثر، جاءت سورة الأعراف لتستجيب لهذه التطورات فأطلقت على القرآن اسم «كتاب» لأول مرة، ووضعت برنامجاً واستراتيجيات للقص القرآني يتناول قصص أنبياء بني إسرائيل ـ وقد فصّلنا القول في ذلك في حينه.

وهكذا أَوْلى القرآن المكي قصة موسى ﷺ أهمية خاصة، نظراً لكون موسى قد عانى مع فرعون ومَلَئِه، ما يشرح معاناة محمد ﷺ مع «الملإ من قريش». وهكذا عرض القرآن هذه القصة في فصول موزعة على عدة سور، موظفاً إياها في الدعوة والجدل مع قريش واليهود.

ـ بعد ذلك، بل خلال ذلك، أجاب القرآن على تحديات أسئلة قريش (التي استقوْها من مصادر يهودية والتي طلبوا منه ذكر قصص أنبياء وأشخاص بأعينهم) فعرض قصصاً مستقلة، ضمّتها بأكملها سور خاصة (قصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة يوسف. . . إلخ).

ـ ثُمّ جاءت المرحلة المدنية، مرحلة الانتقال بالدعوة إلى تأسيس الدولة، فاتخذ القص القرآني شكلاً جديداً ساد فيها الجدل مع يهود المدينة، ردّاً على استفزازاتهم وتحدّياتهم ومحاربتهم الإسلام من جهة، ومع النصارى، نصارى نجران خاصة من جهة أخرى، هؤلاء الذين جادلوا النبي ﷺ حول طبيعة عيسى، فرد عليهم القرآن، كما رأينا في الفصل الأخير.

* * *

القصص القرآني وسيلة من وسائل الدعوة المحمدية ومَعلَمٌ من معالم السيرة النبوية. أما «الجانب الفنّي» فيه فهو مظهر آخر لا يدخل في اهتمامنا. وإذا كان لا بُدَّ من رأي في الموضوع فنحن نعتقد أنّه من غير الصواب قراءته في ضوء «خصائص أدب القصة» في عصرنا. إن الجانب الفني في قِصص القرآن يفرض، على كُلّ من يريد الاشتغال به، أن يلتمسه في مقارنتها مع نصوص التوراة، أعني النصوص التي تتطابق، بهذه الدرجة أو تلك، مع قصص القرآن. إن علاقة القرآن

بالتوراة والإنجيل علاقة تصديق بصورة عامة. بل يمكن القول إنها في مجال القصص علاقة حكاية. بمعنى أن القرآن يحكي ما ورد في التوراة من أخبار أنبياء بني إسرائيل. وقد أشار القرآن إلى ذلك في خاتمة حكايته لقصة موسى مع فرعون، في سورة يونس: قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: **﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾**(٣).

والحق أن الأصالة والإبداع في القرآن ـ وفي مجال القَص خاصة ـ هما في طريقته الخاصة في عرض القصص، قصص التوراة. وكُلّ من يريد أن يلمس هذا الجانب (الأصالة والإبداع) فما عليه إلا أن يضع التوراة أمامه ويحاول أن يعبر عن قصصها بصورة تشبه الطريقة التي عبّر بها القرآن. إنه سيفهم حينئذ مغزى الردّ الذي قابل به القرآن اتهام قريش للنبي (ﷺ) بكونه ينقل من عند أهل الكتاب (نصارى في مكة)، حيثُ قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾**(٤). أيضاً: **﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**(٥)، ثُمّ تحداهم: أنتم تقولون إن محمداً افترى هذا القرآن، بمعنى أنّه ينقل من أهل الكتاب ويكذب عليكم مدعياً أنّه من عنده! إذن، تعالوا انقلوا من التوراة ما شئتم وأتوا بسورة مثله، واستعينوا بمن شئتم: **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**(٦). أما إذا كنتم تتهمون محمداً بكونه يخترع من عنده ما يحكيه من قصص فلتأتوا بحديث (قصص) مثله: **﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾**(٧). ويخاطب المنافقين في المدينة، أولئك الذين كانوا على علاقة مريبة باليهود، والذين كانوا: **﴿وإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾**(٨)، هؤلاء يتحداهم القرآن أيضاً، أن يأتوا بمثله هم وشركاؤهم اليهود، الذين لديهم التوراة، إن كانوا صادقين في شكهم: **﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ**

(٣) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآية ٩٤.

(٤) نفس المرجع، «سورة النحل،» الآية ١٠٣.

(٥) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآية ٣٧.

(٦) نفس المرجع، «سورة يونس،» الآية ٣٨.

(٧) نفس المرجع، «سورة الطور،» الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.

(٨) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ١٤.

مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٩].

تلك هي معجزة «الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ» الذي جاء بكتاب، ولم يكن هو من «أهل الكتاب»!

جاء بكتاب مُصدِّق للتوراة والإنجيل، نعم. ولكنه فوق ذلك: **﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**[١٠]. قرآن «بلسان عربي مبين» غير قابل للتقليد!

لقد قَصَر المتكلمون والبلاغيون «دلائل الإعجاز في القرآن» على ما عبروا عنه بـ «الخاص به». ومع أن عبد القاهر الجرجاني قد أعطى لمعنى «النظم» أبعاداً عميقة حين قال: «ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسبت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل»[١١] فإن «النظم» في القصص القرآني قد جمع هذه الخصائص، بطريقة فنية يصعب ـ إن لم يكن يستحيل ـ تقليدها والنسج على منوالها. وإذا كان من الجائز القول إن تفوق القرآن على التوراة والإنجيل في هذا المجال راجع إلى أنّه مكتوب ومقروء باللغة التي نطق بها نبي الإسلام، في حين أن كُتب أهل الكتاب تقرأ اليوم مترجمة، و «الترجمة تخون» النصّ المترجم، في لغته ومعانيه، إذا كان من الجائز الأخذ بعين الاعتبار هذا الاعتراض فإن ما نجده في القرآن من بناء استدلالاته وفق مقتضيات العقل، حتّى داخل القصص نفسه، بعيداً عن أسلوب التوراة والإنجيل في الإقناع، الأسلوب الذي يعتمد الاحتكام إلى أمور تقع خارج طور العقل من مثل قلب العصا ثعباناً والقفز على ما جرت به العادة من سنن طبيعية لا تتخلف، أقول إن سلوك القرآن هذا المسلك في استدلالاته لهو شيء يدفع بـ «إلى وراء ليكون هو نفسه المعجزة التي القصد منها، لا» التخويف «كما كان حال معجزات الأنبياء السابقين، **﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفا﴾**[١٢]، بل هدفها دعوة الإنسان إلى تدبُّر نظام الكون، فهو مجمع «الآيات» والمعجزات لقوم يعقلون. ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ**

---

(٩) نفس المرجع، «سورة البقرة،» الآية ٢٣.

(١٠) نفس المرجع، «سورة فصلت،» الآية ٣.

(١١) أبو بكر عبد القاهر بن الرحمن الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، حققه وعلق عليه محمد بن تاويت، ٢ ج في ١ مج (تطوان، المغرب: المطبعة المهدية، [١٩٥؟])، ج ١، ص ٢٨. راجع تفاصيل الموضوع في: محمد عابد الجابري، «اللفظ والمعنى: ٢- نظام الخطاب ونظام العقل،» في: محمد عابد الجابري، **بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية**، نقد العقل العربي؛ ٢، ط ٧ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤)، القسم ١: **البيان**، فقرة ٢، ص ٧٧.

(١٢) **القرآن الكريم**، «سورة الإسراء،» الآية ٥٩.

وَالأرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١٣). وأيضاً ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١٤)، فـ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأوْلِي الألْبَابِ﴾(١٥).

القصص القرآني ليس مجرد حكاية أخبار، بل هو بيان وبرهان: وسيلة في الإقناع تدعو للاحتكام إلى العقل بعيداً عن أساليب اللاعقل!

(١٣) نفس المرجع، «سورة الجاثية،» الآيات ٣ ـ ٥.

(١٤) نفس المرجع، «سورة الأعراف،» الآية ١٧٦.

(١٥) نفس المرجع، «سورة يوسف،» الآية ١١١.

خاتمـة وصلـة
النبِـي والقـرآن: علاقـة حميميـة!

الآن، وقد شاءت الأقدار أن يأتي هذا الكتاب بعد «رباعية نقد العقل العربي»، نستطيع القول إننا قد دشنا به عملية إعادة قراءة حقل آخر من حقول ثقافتنا العربية الإسلامية.

لقد خصصنا القسم الأول من هذا الكتاب لجلاء أمور تخص نبينا محمداً ﷺ، وذلك من خلال ما أسميناه بـ «قراءات في محيط الدعوة المحمدية»، قراءات طرحنا فيها مسائل مهمة وأساسية بالنسبة للسيرة النبوية، همشها، بل قتلها، التراجع الذي حدث على مستوى الحضارة العربية الإسلامية ككل: وهكذا استأنفنا القول في الأصل الواحد للديانات السماوية الثلاث كما يتحدد في القرآن؛ وفي علاقة الدعوة المحمدية منذُ ابتداء كونها وارتباطها بصورة مباشرة، في إطار هذا الأصل الواحد، مع التيارات التوحيدية التي سبقتها مثل الآريوسية. ثُمّ طرحنا من جديد مسألة ما إذا كان النبي محمد ﷺ يعرف القراءة والكتابة، فركزنا على تحرير المعجزة المحمدية من المعنى العامي الساذج لمفهوم «النبي الأمي»؛ ثُمّ عرضنا لـ «حدث الوحي» المحمدي في إطاره الأصلي الخالص، وكشفنا عن التأويلات الإيديولوجية، الفلسفية منها والسياسية، التي ابتعدت به عن «العقل القرآني»، لترتَمي به في أعماق ما سبق أن أسميناه بـ «اللامعقول العقلي»[1].

أما القسم الثاني فقد خصصناه لِما دعوناه بـ «بمسار الكون والتكوين» للقرآن الكريم. وقد تناولنا في هذا القسم أهم القضايا التي طرحها المؤلفون القدامى في

---

(١) محمد عابد الجابري، «٢ ـ القياس على مثال سبق: «المعقول» الديني واللامعقول «العقلي»،» في: محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، نقد العقل العربي؛ ١، ط ٩ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦).

ذلك الحقل المعرفي الذي أطلقوا عليه اسم «علوم القرآن». وإذا كنا قد اعتمدنا عليهم في معالجة كثير من تلك القضايا، خصوصاً على مستوى المرويات، فإننا قد حرصنا على تتبع تطور ونُمو المسار التكويني للقرآن من خلال القرآن نفسه. وقد تَمكنا من خلال اعتماد ترتيب النزول من إيقاظ الحيوية التاريخية التي لا بُدّ منها لجعل موضوعنا معاصراً لنفسه ومعاصراً لنا في الوقت ذاته.

وهكذا استأنفنا القول في «الأصل الواحد للديانات السماوية الثلاث، ولكن لا على مستوى العلاقات الخارجية كما فعلنا في القسم الأول، بل على مستوى ترتيب القرآن لعلاقته مع أهل الكتاب من الداخل. ذلك أنّه لم يكن هناك قبل «حدث الوحي المحمدي» غير «الخارج» الذي كان يهيمن عليه «أهل الكتاب». أما بعد أن قطع الوحي المحمدي أشواطاً على مساره القرآني «المفرّق»، المنجّم، وتراكمَ منه ما جعل اللغة تسمح بتسميته «كتاباً»، فقد بات من الضروري، بيان حدود الوصل والفصل بينه وبين كتب أهل الكتاب. من هنا كان «التفصيل القرآني العربي» لتاريخ الأنبياء والرسل، لقصصهم وسيرهم وشرائعهم، قصد إبراز ما بقي منه حياً لم يَمُت، أعني ما فيه من دروس وعبر، لكلّ حاضر ولكل مستقبل.

وكما فعلنا في أجزاء «نقد العقل العربي»، فقد فضّلنا الاقتصار على «الحفر» والتحليل والإشارة إلى ما نعتقده الحقيقة، تاركين للقارئ مهمة «التركيب»، اقتناعاً منا بأن خير نتيجة يُمكن أن يحصل عليها قارئ كتُبنا هي تلك التي يستخلصها بنفسه.

كانت إستراتيجيتنا، وستبقى، تقديم قراءات لِموروثنا الثقافي تفسح المجال لعملية التجديد من الداخل، العملية التي هي وحدها القادرة على إتاحة الفرصة لنا لإعادة البناء. فعلاً، العملية طويلة وشاقة، ولكنها جادة: ﴿**فأمّا الزبد فيذهب جُفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكثُ في الأرض**﴾(٢).

* * *

تلك هي الخطاطة العامة التي سرنا عليها في هذا الجزء من الكتاب، قصدنا منها التذكير، لأن حجمه قد طال حقاً أكثر مما كان متوقعاً، فأصبح التذكير مفيداً إن لم يكن ضرورياً. والآن سيكون علينا، قبل طيّ آخر صفحة في هذا الجزء الخاص بـ «التعريف»، أن نعود فنجمع في قول مجمل، ما لم يكن بُدٌّ من عرضه في قول مفصل.

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الرعد،» الآية ١٧.

فعلاً، قدّمنا، في ما نعتقد، تعريفاً بـ **القرآن الكريم** بدّدنا فيه كثيراً من الضباب الذي كان ـ وما زال ـ يحول دون التعامل العقلاني مع هذا النصّ الدينيّ الذي لم يُشِد بشيء آخر إشادتَه بالعقل، وذلك إلى درجة يـمكن القول معها إن القرآن يدعو إلى دين العقل، أعني إلى الدين الذي يقوم فيه الاعتقاد على أساس استعمال العقل، انطلاقاً من الاعتقاد في وجود الله إلى ما يرتبط بذلك من عقائد وشرائع.

والحق أن ما يُميّز الإسلام، رسولاً وكتاباً، من غيره من الديانات هو خلوّه من ثقل «الأسرار» (Mystères) التي تجعل المعرفة بـ «الدين» تقع خارج تناول العقل. إن المعرفة الدينيّة في هذه الحالة من اختصاص فئة قليلة من الناس، هم وحدهم «العارفون» المتصلون بالحقيقة الدينيّة، وهم وحدهم رؤساء الدين ومرجعياته ورعاته، والبقية رعية ومقلِّدون. أما «الرئيس الأول» المؤسس للدين فيوضع في الغالب في مرتبة بين الألوهية والبشرية، وأحياناً يُرفع إلى مستوى الألوهية. وأما النصوص الدينيّة فتُعتَبر رموزاً مليئة بأسرار لا يتولى تأوليها وفكّ ألغازها إلا «العالِمون» بفك الرموز وتأويل الأحلام.

رُبّما كان هذا من خصوصيات الدين في جميع الثقافات! ومن المؤكّد أن الإسلام قد عرف تيارات تلتقي بصورة أو بأخرى مع هذا النوع من التصور للدين، تيارات تنتمي إلى الموروث الدينيّ الحضاري الذي كان يقع خارج الدعوة المحمدية كما اكتملت عناصرها وتحددت آفاقها في حياة الرسول ﷺ. أما الدعوة المحمدية نفسها، نبياً وقرآناً، فلم تعرف «أسراراً» من هذا النوع، إذ لم يوجد فيها، بوصفها «دعوة»، ما يدعو إلى اعتبار العقل قاصراً عن معرفة أي شأن من شؤون الدين الذي تدعو إليه. بل بالعكس، لقد كانت حياة الرسول وتعاليم الكتاب/ القرآن، موضوعاً مفتوحاً لإعمال العقل. كانت تجربة الوحي مرفوقة بِمعاناة نفسية ووجدانية حاول الرسول تفسيرها عقلياً، وذلك بتقريبها إلى ظواهر نفسية واجتماعية معروفة في عصره، هي نفسها تلك التي اتهمه بها خصوم الدعوة المحمدية منذُ ابتداء أمرها.

لقد اتهموه بالجنون والكهانة. . . إلخ، بعد أن كان هو نفسه قد عبّر لزوجته خديجة عن مخاوف من هذا النوع قبل أن يألف تجربته ويتأكد بأن الأمر يتعلق بتجربة، مختلفة أصلاً وجوهراً عن الجنون والكهانة: تجربة الوحي! وقد عمل القرآن نفسه، وهو موضوع الوحي، على إقناعه بأن الأمر ليس جنوناً ولا كهانة ولا سحراً ولا شعراً، وإنما هو ﴿**وحي يوحى**﴾! وبِمقدار ما كانت قريش تكرر اتهاماتها تلك بِمقدار ما كان القرآن يردها، ويؤكد بطلانها.

ومع ذلك، فمحمد بن عبد الله بقي واحداً من البشر في مرآة نفسه، وفي

خطابه للناس، فكان لا بُدّ أن ينتابه شيء من الشكّ والضعف من حين لآخر بسبب إصرار قومه على تكذيبه والإعراض عن دعوته! وفي كُلّ مرة كان يأتي القرآن فيخاطبه، أحياناً بعبارات قد لا تخلو من عتاب، ليثبت فؤاده ويرفع عنه الشكّ، موجّهاً تفكيره إلى نظام الكون وتجارب الرسل السابقين مع أقوامهم. إنه يدعوه دوماً إلى استعمال العقل لاستخلاص الدروس والعبر.

وما يجب أن يلفت النظر هنا هو استمرار هذه العلاقة، علاقة التوجيه والتصحيح التي لا تخلو من مؤاخذات، من القرآن الموحَى به، إلى النبي المتلقي له. صحيح أن النبي كان في هذه العلاقة مأموراً والقرآن آمراً، وهذا أمر طبيعي. فالقرآن وحي يوحى إليه من ربّ العالِمين. ومع ذلك فلم تكن الأوامر القرآنية تخلو من أسباب استوجبت نزولها. وأسباب النزول هذه، قد تكون خواطر جالت في نفس الرسول، وقد تكون أسئلة طرحها عليه خصومه أو صحابته أو مطلق الناس، كما قد تكون تأكيداً واستحساناً لموقف، أو شجباً واستنكاراً. . . إلخ.

وبعبارة أخرى، قد لا نجافي الصواب إذا نحن قلنا مع بعض القدماء: إنه ما من آية في القرآن إلا ومن ورائها سبب لنزولها. ومن هنا قال كثير منهم إن القرآن إنّما نزل مفرّقاً منجّماً على مدى يزيد عن عشرين سنة لأنه كان ينزل على مقتضى الأحوال.

ولم يكن «مقتضى الأحوال» مقصوراً على ناحية من نواحي الحياة التي عاشها النبي وخاضها معه صحابته والمؤمنون به، بل كان يشمل السراء والضراء وشؤون العيش وقضايا السلم والحرب والمنازعات والتحالفات والمعاهدات. . . إلخ، وأيضاً الشؤون الشخصيّة الخاصة بالنبي، شؤون البيت والزوجات. . . إلخ.

العلاقة بين النبي والقرآن علاقة حميمية، علاقة يومية بل لحظية. ولكنها بقيت تتحرك دوماً في حدود المعقول. فلم يكن القرآن يُفْرط في مدح الرسول وامتداح مواقفه، بل كان ذلك يتم في إطار الطبيعة البشرية للرسول. لم يحدث قط أن تحدث القرآن عن محمد بن عبد الله بِما يُشعر أنّه من طبيعة غير بشرية: لقد امتدحَ خُلقه وقيادَته، وفي نفس الوقت سجلَ عليه ملاحظاتٍ ومؤاخذات وواجهه بأسئلة فيها لوم وعتاب، ولم يتردد في استعمال عبارات من قبيل **﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾**(٣).

وبقدر ما كان القرآن يؤكّد للرسول وصحابته، ولخصومه كذلك، أن القرآن

---

(٣) نفس المرجع، «سورة التوبة،» الآية ٤٣.

وحي من عند الله، وأنه ليس من افتراء محمد ولا من إنشائه، وأنه لا يَملك أن يزيد فيه أو ينقص (على الرغم من أنّه كان يتمنى أحياناً لو أنّه فعل شيئاً من ذلك بقصد استمالة قومه)(٤)، بقدر ما كان محمد بن عبد الله مؤمناً في قرارة نفسه أنّه نبي ورسول يوحى إليه، وأن عليه أن يبلّغ رسالته مهما كانت الظروف. لقد رفض إغراءات قريش ومساوماتهم إلى درجة أنّه أقسم لعمه ـ الذي كانت تُوَسِّطُه قريش لإقناعه بالتخلي عن التهجم على أصنامهم ـ قائلاً: «يا عَمِّ، والله لو وضعوا الشمسَ في يَميني، والقمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمر حتّى يُظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته» (ابن إسحاق وغيره). وقد وفى فعلاً بقسمه، ليس فقط في مرحلة الصراع مع قريش بل أيضاً في مرحلة انتصاره عليهم واتجاهه لنشر الدعوة خارج مكة والمدينة.

ولا شكّ أن ما ينتزع إعجاب قرّاء السيرة المحمدية من مستشرقين وغيرهم هو ذلك الإصرار الذي رافق حياة محمد بن عبد الله منذُ أن ابتدأ نزول الوحي عليه إلى أن التحقَ بالرفيق الأعلى، إصراره الذي لم يتزعزع على تبليغ رسالته والاستماتة في سبيلها. وهو في كُلِّ ذلك، وعلى مدى أزيد من عشرين سنة، معزز بالقرآن، يواسيه، يثبّت فؤاده، يوصيه بالصبر، وفي نفس الوقت يتجه إلى أصحابه يحذرهم من التراجع إذا حدث أن مات الرسول أو قُتل: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾**(٥).

وسيطول بنا المقال لو أخذنا نعدّد مظاهر ما أسميناه بـ «العلاقة الحميمة» بين محمد بن عبد الله الإنسان، وبين القرآن كلام الله الموحى إليه به. صحيح أنها من جنس العلاقة بين الله مع أنبيائه ورسله. ومع ذلك، فإذا كنا لا نعرف الكثير عن علاقة الأنبياء مع الوحي المنزل عليهم، فإن علاقة النبي محمد مع القرآن تتميز بقوة من علاقة النبي الذي نعرف عنه الكثير من خلال الكتاب الذي خُص به ومن خلال ما حكاه القرآن عنه ـ أقصد بذلك نبي الله موسى عليه السلام.

ذلك أن العلاقة بين الله وموسى وبني إسرائيل، كما نقرؤها في التوراة، أشبه

(٤) كما نفهم من قوله تعالى مخاطباً نبيه الكريم: **﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾**، و**﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾** [نفس المرجع: «سورة الإسراء،» الآيتان ٧٣ ـ ٧٤، و«سورة الحج،» الآية ٥٢ على التوالي].

(٥) نفس المرجع، «سورة آل عمران،» الآية ١٤٤.

ما تكون بالعلاقة بين الملك، وقائد الجند، وهذا الجند نفسه. هي علاقة لم تكن دائماً حميمية ولا خالية من التوتر. لقد تَمرَّد بنو إسرائيل على موسى مراراً، كما اشتكوا من معاملة الربّ لهم أحياناً كثيرة، وغضب موسى عليهم، كما غضب ربهم عليهم، في مناسبات عديدة؛ وفي كُلّ مرة كان موسى يسترضيهم ويطلب المغفرة لهم، وكان الله يغفر لهم، ثُمّ يعودون إلى التمرد والشكوى. .

ربّما كان وراء هذه العلاقة المتوترة أن الأمر كان يتعلق بقيادة موسى لبني إسرائيل (الذين كان عددهم حسب تقدير أصحاب التوراة ستمائة ألف نسمة مع أمتعتهم ودوابهم) على طريق تهجيرهم من مصر إلى فلسطين، بقصد تحريرهم من اضطهاد فرعون لهم. لقد رق قلب رَبُّهم لحالهم ـ كما تقول التوراة ـ فكلف واحداً منهم، هو موسى، بهذه المهمة. وكان على هذا الأخير أن يجتاز بهم «اليمّ» وصحراء سيناء المعروفة بقسوة الطبيعة، فكان التيه وكان «المَنّ والسلوى». ثُمّ كانت وفاة موسى في ظروف غامضة وتاريخ غير معلوم، قبل وصول «أرض الميعاد»، فتولى القيادة بعده مساعدُه.

أما المسيح عليه السلام فقد ظهر ثُمّ غاب! كالشرارة التي ما إن يأخذ الرائي في تحديد مكانها فوق الموقد حتّى تختفي! ومن هنا كانت رحلته «مهدية» منتظرة، يعيش أتباعه حاضرها في مستقبلها.

وليس الأمر ذلك بالنسبة إلى رحلة محمد، كما أن الفرق كبير بين مهمة موسى ومهمة محمد. إن رحلة محمد بن عبد الله ابتدأت بنفسه. لقد كان عليه أن «يرحل» هو نفسه من عالم قومه، لينطلق ومعه زوجته أولاً، لينضاف إليهما بضعة أفراد، ثُمّ يتواصل الالتحاق بالرحلة بتواصل السير على مسارها. وعندما هاجر إلى المدينة وأقام دولة الدعوة، بقي يواصل الرحلة إلى أن وافاه الأجل المحتوم، وذلك مباشرة بعد «عام الوفود»، وفود القبائل المهنئة بالنصر، والقادمة من جميع أنحاء الجزيرة العربية.

وطوال هذه المسيرة الشاقة الطويلة كان القرآن حاضراً يقود الرحلة ويوجهها! لقد بدأت رحلة محمد داخل نفسه بـ: **﴿اقرأ بسم ربك الذي خلق﴾**، ثُمّ شقت طريقها وسط المجتمع المكي حينما خاطبه القرآن: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ﴾**. وعندما اكتملت الرحلة بالتحاق قومه العرب، وأراد أن يَمتد بها إلى الأراضي العربية التي كانت تحتلها الإمبراطورية البيزنطية (غزوة تبوك) عانى في تجهيز جيش هذه الغزوة مشاق كبيرة، بسبب تخاذل المتخاذلين، ونفاق المنافقين، وقعود القاعدين، وتذرعات المتذرعين، وتخلف المتخلفين. . . إلخ. ولم يَمرّ وقت طويل حتّى جاء

القرآن بسورة «براءة» (التوبة) لتكشف عن ذلك كُلّه بصراحة وتعنيف، لم يسبق لهما في القرآن مثيل، وكأنها تريد أن تُنَفِّس عن الرسول ما كان يضيق به صدره. وعندما أنجزت مهمتها ختمت بقوله تعالى مخاطباً «من يهمهم الأمر»: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ. فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾(٦). ويقول كثير من الرواة والمفسرين إن هذا هو آخر ما نزا من القرآن.

***

قلت في مستهل هذه الفقرة إن ما يُميز الإسلام، رسولاً وكتاباً، هو خلوه من ثقل «الأسرار» (Mystères) التي تجعل المعرفة بـ «الدين» تقع خارج تناول العقل. وعلي أن أعترف الآن أن هناك سراً لم يستطع عقلي اكتناه حقيقته: إنه هذا الذي عبّرنا عنه بـ «العلاقة الحميمية» بين الرسول محمد بن عبد الله وبين القرآن الحكيم.

عسى أن نتبين خيطاً، في الجزء الثاني من هذا الكتاب، يشرح لنا بعض جوانب هذه العلاقة!

---

(٦) نفس المرجع، «سورة التوبة،» الآيتان ١٢٨ ـ ١٢٩. «عنتُّم» أي صعبٌ عليه شقاقكم.

المراجـــــع

١ ـ العربية

كتـب

الآلوسي الكبير، أبو الثناء محمود بن عبد الله الحسيني. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، [د. ت.]. ٣٠ ج.

ابن تيمية الحرّاني، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم. **الفتاوى**. الرباط: مكتبة المعارف، [د. ت.].

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد. **الفَصْل في الملل والأهواء والنِّحَل**.

ابن حنبل، أحمد بن محمد. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**.

ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد. **تهافت التهافت: إنتصاراً للروح العلمية وتأسيساً لأخلاقيات الحوار**. مع مدخل ومقدمة تحليلية وشروح للمشرف على المشروع محمد عابد الجابري. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨. (سلسلة التراث الفلسفي العربي. مؤلفات ابن رشد؛ ٣)

ـــــ. **فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال أو وجوب النظر العقلي وحدود التأويل (الدين والمجتمع)**. مع مدخل ومقدمة تحليلية للمشرف على المشروع محمد عابد الجابري. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧. (سلسلة التراث الفلسفي العربي. مؤلفات ابن رشد؛ ١)

ـــــ. **الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة أو نقد علم الكلام ضداً على الترسيم الأيديولوجي للعقيدة ودفاعاً عن العلم وحرية الاختيار في الفكر والفعل**. مع مدخل ومقدمة تحليلية وشروح للمشرف على المشروع محمد عابد الجابري. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨. (سلسلة التراث الفلسفي العربي. مؤلفات ابن رشد؛ ٢)

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع. **الطبقات الكبرى**. تحقيق إدوارد سخاو ورفاقه. ليدن: [بريل]، ١٩١٧.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. **الإمامة والسياسة**.

ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر. **هداية الحيارى من اليهود والنصارى**.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. **البداية والنهاية**. بيروت: مكتبة المعارف، [د. ت.]. ١٤ ج.

ـــــ. ـــــ. بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.].

ـــــ. **تفسير ابن كثير**.

ـــــ. **قصص الأنبياء**.

ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، [١٩٥٥-١٩٥٦]. ١٥ ج.

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق. **الفهرست**. تحرير غوستاف فلوغل واعتنى به بعد موته يوهانس روديغر وأوغست موللر. ٢ ج في ١ مج. ليبزيغ: فوغل، ١٨٧١-١٨٧٢.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. **السيرة النبوية**. حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. القاهرة: [د. ن.، د. ت.]. ٤ ج في ٢ مج. (تراث الإسلام)

الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل. **مقالات الإسلاميين**.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**.

بن عاشور، محمد الطاهر. **تفسير التحرير والتنوير**.

الجابري، محمد عابد. **بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية**. ط ٧. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤. (نقد العقل العربي؛ ٢)

ـــــ. **تكوين العقل العربي**. ط ٩. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦. (نقد العقل العربي؛ ١)

ـــــ. **العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته**. ط ٥. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤. (نقد العقل العربي؛ ٣)

ـــــ. **نحن والتراث**. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠.

ـــــ. ـــــ. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن الرحمن. **دلائل الإعجاز**. حققه وعلق عليه محمد بن تاويت. تطوان، المغرب: المطبعة المهدية، [١٩٥؟]. ٢ ج في ١ مج.

الحداد، يوسف درّة. **الإنجيل في القرآن**.

حقي البروسوي، أبو الفداء إسماعيل. **تفسير روح البيان**. ط ٧. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٤.

الحنبلي، أبو يعلى. **المعتمد في أصول الدين**. تحقيق وديع زيدان حداد. بيروت: دار المشرق، ١٩٧٤.

الخوئي، أبو القاسم. **البيان في تفسير القرآن**. بيروت: مؤسسة الأعلمي، [د. ت.].

الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن. **سنن الدارمي**.

دروزة، محمد عزة. **التفسير الحديث**. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢-١٩٦٤. ٦ مج.

ـــــ. ـــــ. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ٢٠٠٠. ١٢ مج.

رسالة عبد المسيح الكندي إلى الهاشمي.

رضا، محمد رشيد. **الوحي المحمدي**.

ـــــ. **تفسير المنار**.

الزركشي، أبو عبد الله محمد بن بهادر. **البرهان في علوم القرآن**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ٤ ج. بيروت: دار المعرفة، [١٩-؟].

سرجيوس، مرقس. **رد القمص سرجيوس على القائلين بتحريف التوراة والإنجيل**.

ـــــ. **هل تنبأت التوراة أو الإنجيل عن محمد؟**

سميرنوف، أفغراف. **تاريخ الكنيسة المسيحية**. نقله من اللغة الروسية الى اللغة العربية الكسندروس [جحا] مطران حمص وتوابعها. مصر: الكسندروس جحا، [١٩٦٤].

السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله. **الروض الأُنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام: السيرة النبوية**. قدم له و علق عليه و ضبطه طه عبد الرؤوف سعيد. بيروت: دار المعرفة، [١٩٧٨]. ٤ مج.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **الإتقان في علوم القرآن**.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. **الملل والنحل**. تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل. القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ١٩٦٨. ٣ ج في ١مج.

شيخو، لويس. **النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية**.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك**. ط ٢. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨. ٦ مج.

عبد الجبار، أبو الحسن بن محمد. **شرح الأصول الخمسة**. حققه وقدم له عبد الكريم عثمان. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٦٥.

عبد الوهاب، أحمد. **النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية**.

الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد. **كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة**. قدم له وحققه ألبير نصري نادر. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، [١٩٥٩].

القرافي، أبو العباس أحمد بن ادريس. **الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة**.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **تفسير القرطبي**.

ـــــ. **الجامع لأحكام القرآن**. ٢٠ ج. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٣-١٩٥٠.

الكندي، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق. **رسائل الكندي الفلسفية**. حققها وأخرجها محمد عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٠-١٩٥٣. ٢ ج.

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. جمعها محمد حميد الله. ط ٥. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٥.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط ٤. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، [١٩٦٤-١٩٦٥]. ٤ ج في ٢ مج.

ـــــ. ـــــ. تحقيق يوسف أسعد داغر. بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٥.

مسلم بن الحجاج، أبو الحسين. **صحيح مسلم**.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله. **معجم البلدان**.

دوريات

الفيصل (السعودية): شباط/ فبراير-آذار/ مارس ٢٠٠٥.

٢ ـ الأجنبية

Books

Berry, George Ricker. *The Classic Greek Dictionary: Greek-English and English-Greek: With an Appendix of Proper and Geographical Names*. Co-Chicago, IL: Follet Publishing, 1956. (Classic Series)

Blachère, Régis. *Le Coran, traduction selon un essai de reclassement des sourates.* Paris: G. P. Maisonneuve, 1947-1950. 3 vols. (Islam d'hier et d'aujourd'hui; 3-5)

Vol. 1: *Introduction au Coran.*

Vol. 2: *Le Coran; traduction nouvelle, I.*

Vol. 3: *Le Coran; traduction nouvelle, II.*

Encyclopédia universalis. Paris: Encyclopédia universalis France, [s. d.].

Web Sites

< http://www.mutenasserin.net/mutenasserin/arabic/fq/mohamed.htm >.

< http://www.chez.com/voxdei/66.Apocalypse.html >.

< http://arabic.islamicweb.com/shia/nurain.htm >.

< http://www.arabiyat.com/cgi-bin/magazine/exec/search.cgi >.

< http://www.ebnmaryam.com/history.htm >

< http://www.ebnmaryam.com/history.htm >

فهـــــرس

- ر -

- ز -

- س -

- غ -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

هذا الكتاب

يحقّق المفكر العربيّ الكبير الدكتور محمد عابد الجابري، في هذا الكتاب إنجازاً متميّزاً يُضيفه إلى إنجازاته الرائدة التي أغنى بها الثقافة العربية منذ مطلع السبعينيّات في القرن الماضي.

واليوم في كتابه الجديد **مدخل إلى القرآن الكريم** يواصل الجابري مسيرته في البحث، والتدقيق، والتعميق، وإعادة طرح الأسئلة القديمة بمنهجيّة جديدة، وفتح الآفاق أمام أسئلةٍ إضافيّة، فيختار **القرآن الكريم** موضوعاً، وينظّم بحثه في جزءَين: **الأوّل** هو: «في التعريف بالقرآن» **والثاني** هو: «موضوعات في القرآن»، ينكبّ حالياً على إعداده.

مركز دراسات الوحدة العربيّة، يقدّم الجزء الأوّل من هذا الكتاب إلى القرّاء على أمل أن يتبعه قريباً الجزء الثاني، وهو واثق في أهمية ما يُثيره من قضايا يعالجها الدكتور محمد عابد الجابري بمنهجيّة موضوعيّة متعمّقة ومُجدِّدة بحيث يستكمل التعبير عن إحدى مقولاته الشهيرة: **«جعل المقروء معاصراً لنفسه ومعاصراً لنا في الوقت ذاته»**.

الدكتور محمد عابد الجابري

ولد في المغرب عام ١٩٣٦، حصل على دكتوراه الدولة في الفلسفة عام ١٩٧٠ من كلية الآداب بالرباط. له العديد من الكتب المنشورة منها:

- **العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ العربي الإسلامي** (١٩٧١)
- **مدخل إلى فلسفة العلوم، جزءان** (١٩٧٦)
- **تكوين العقل العربي (نقد العقل العربي (١))** (١٩٨٢)
- **بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية (نقد العقل العربي (٢))** (١٩٨٦)
- **العقل السياسي العربي، محدداته وتجلياته (نقد العقل العربي (٣))** (١٩٩٠)
- **العقل الأخلاقي العربي** (٢٠٠١)
- **في نقد الحاجة إلى الإصلاح** (٢٠٠٥)

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور»، شارع ليون، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٩٠ ١١٠٣ ـ لبنان

تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧

برقياً: «مرعربي» ـ بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

e-mail: info@caus.org.lb

Web site: http://www.caus.org.lb

الثمن: ١٤ دولاراً
أو ما يعادلها

ISBN 9953-82-093-7

9 789953 820934